

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie



جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان الجزائر

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار

تخصص علم الآثار والمحيط

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم

بعنوان:

تأثير التنمية الحضرية على المواقع والمعالم الأثرية بتلمسان.

بإشراف:

الأستاذ الدكتور معروف بلحاج

إعداد الطالب:

بن زغادي محمد

لجنة المناقشة

رئيساً	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر-أ-	د. بلجوزي بوعبد الله
مشرفاً ومقرراً	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د. معروف بلحاج
عضواً	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د. بومشرة ندير
عضواً	جامعة تيسمسيلت	أستاذ التعليم العالي	أ.د. دحدوح عبد القادر
عضواً	جامعة الجلفة	أستاذ محاضر-أ-	د. نور الدين بن عبد الله
عضواً	المركز الوطني للبحث العلمي	أستاذة محاضر-أ-	د(ة). مطروح أم الخير

السنة الجامعية 2017-2018

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُتِّبُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ

المُتَسَلِّمِينَ﴾

صدق الله العظيم

سورة الأحقاف، الآية 15

إهداء

أهدي هذا العمل إلى الشمعة التي أضاءت ولا زالت تضيئ دربي، إلى اللذين جعلهما الله باباً من
أبواب الجنة إلى أمي وأبي، أدين لهما أنا به: أنا
إلى إخوتي، وإلى التي رافقتني في هذه الحياة زوجتي،
وإلى كل من ساهم في إثراء هذه الأطروحة من قريب أو بعيد.

شكر

أحمد الله حمداً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه على توفيقه وعونه لي،
وأتوجه بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور معروف بلحاج الذي لم يخل عليّ بتوجيهاته ونصائحه، فله
مئيّ جزيل الشكر.

كما أشكر السيد مدير جامعة تلمسان الأستاذ الدكتور جعفرور مصطفى على مساعدته لي.
وأشكر موظفي مصلحة الأرشيف بمديرية الأشغال العمومية لولاية تلمسان، ووموظفي مخبر مصنع
Alzinc، وكل من ساعدني ولو بكلمة طيبة في سبيل إتمام هذه الأطروحة واخراجها للنور.

الملخص:

تعدّ المعالم التاريخية والمواقع الأثرية أهمّ البصمات المادية التي تنم عن الرقي والتطور اللذين كانا حاصلين قديماً، وبالرغم من بُعد الفترة الزمنية التي شهدت ميلادها إلا أنها بقيت محتفظة بجزء من قيمتها الفنية والتاريخية التي جعلتها تراثاً يحظى بقدر وفير من الأهمية في مختلف بقاع هذا العالم.

منطقة تلمسان الواقعة بالشمال الغربي للجزائر من المناطق الغنية بالتراث المادي واللامادي الذي بات يشهد في الآونة الأخيرة اعتداءات أضرت به وأفقدته قيمه التي اكتسبها من كونه بصمة من بصمات الأسلاف، وذلك نتيجة لعدة عوامل أبرزها عملية التنمية الحضرية التي جسدتها الدولة الجزائرية للحصول على قدر وافر من الرفاهية في الحياة المعاصرة، خاصة أن الفترة الحالية تشهد مزيداً من التعقد الاجتماعي وظهور أنماط جديدة في البناء، ضف إلى ازدياد عدد سكان المدن، وتجاهل تطبيق القوانين الرديعية التي تنص على حماية التراث المادي الثابت من جميع الاعتداءات سواءً الناجمة عن أفراد المجتمع أو بعض الإدارات، من دون أن ننسى ما كان للمستعمر من دورٍ في ضياع الحلقة الواصلة بين الماضي والحاضر عبر ما حطّمه من مبانٍ عتيقة في شقّه للشوارع وغيرها، وما أنجزه من مبانٍ بأسلوب غربي في المدن التي تركز فيها، وفي ظلّ هذه التحديات أصبحت المعالم التاريخية والمواقع الأثرية تعاني التهميش والتخريب والهدم، وهذا ما جعلنا نحوض غمار هذه الدراسة للوقوف على أهمّ التأثيرات الناجمة عنها، والبحث عن الحلول الناجمة للإنقاص من حدتها، وذلك في إطار المحافظة عليها.

وقد تمثلت أهمّ التأثيرات في التلوث البصري والتحطيم والتخريب والضرر الميكانيكي والفيزيوكيميائي اللذين نتجا عن انبعاثات حركة المرور الآلي، وعدد من النشاطات الصناعية، وهو الأمر الذي أدّى إلى الإخلال بقيم التراث المادي الثابت وجعله مجرد قشرة جوفاء لا تحتوي على أي انتماء حضاري.

لمواجهة هذه التأثيرات لابد من التدخل العاجل عبر إتباع مناهج وأساليب جديدة تأخذ بعين الاعتبار قيمة ومكانة الموروث الثقافي، وما يتطلبه أفراد المجتمع المعاصر من مرافق وهيكل مختلفة الطابع.

Résumé

Résumé:

Les monuments historiques et les sites archéologiques sont considérés comme le lien entre le passé et le présent d'une nation, c'est un registre visuel très précis sur ce que les ancêtres ont créés dans les différents domaines de la vie, bien qu'après une période de temps qui a connu sa naissance, mais il est resté conservé historiquement et artistiquement parlant.

La région de Tlemcen est située au nord-ouest de l'Algérie l'une des zones riches en patrimoine matériel et immatériel, mais les récents facteurs et circonstances actuels l'ont démolies tout en perdant leur valeur acquise d'une façon ancestrale. En raison de plusieurs facteurs notamment l'émergence du processus de développement urbain incarné par l'État pour obtenir une meilleure vie quotidienne, notamment que la période actuelle est connue par complexité sociale et l'émergence de nouveaux modèles dans la construction, de même que l'augmentation de la population urbaine, sans oublier que l'application des lois de dissuasion qui assurent la protection du patrimoine matériel de toutes les attaques est complètement ignorées, que ce soit celles causées par des individus ou des services responsables de la construction, Le rôle colonial est le facteur le plus primordial.

Sous l'influence de ces facteurs, le développement urbain rend les monuments historiques juste une croûte creuse ne contenant aucune affiliation civilisée, ces facteurs sont comme suit : La pollution visuelle, l'effet mécanique qui due à des vibrations qui viennent de la circulation routière, et l'effet physicochimique, due à leur tour à la circulation routière et aussi usines, ainsi que parfois la destruction.

En fin, On peut dire que tout cela exige une intervention urgente afin d'éviter la perte de n'importe quel patrimoine architectural notamment le nôtre.

Summary

Summary:

Historical monuments and archeological sites are considered as a link between the past and the present of the nation and a very precise visual record of what the ancestors created in the early life. Although its birth can be traced back to an early period of time, some of its artistic and historical values remained steady.

Tlemcen region is located in the North-West of Algeria, it is one of the richest areas with tangible as well as intangible heritage. However, recent attacks had demolished it and lead to the loss of its value acquired from the ancestors due to several factors, notably the emergence of the urban development process incorporated by the Algerian government to obtain a good deal of luxury in modern life, especially the current period that witnesses more social complexity and the emergence of new types of construction. In addition to the increment of the citizens and the disregard to enforce deterrent laws that ensure the protection of the material heritage from all attacks whether caused by the individuals or administrations. Not to mention the colonial role in the loss of the link between the past and the present by the destruction of vintage buildings and the construction of new ones in a Western style. In the light of these challenges, the historical monuments suffer from marginalization, subversion and destruction. These are the reasons which lead to the current study to come across the resulting effects to find the effective solutions and protect them accordingly.

The impacts are embodied in the visual pollution, the mechanical and physiochemical damage resulting from the emissions of automated traffic and a set of industrial activities, the thing which lead to the violation of heritage values turning it into a hollow shell with no belonging to civilization.

مقدمة

تعكس المسيرة الطويلة التي قطعتها البشرية منذ عصور ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا مفهوم التنمية والتغير الحضاري، الذي أصبح سنّة من سنن الحياة، لكونه مرادفاً للطموح البشري اللامتناهي في تحصيل إطار معيشي أفضل، فمنذ أن وطأت أقدام الإنسان هذه المعمورة، وهو في سعي دؤوب لتحسينه تحقيقاً لحاجة تطلّع للحصول عليها، وذلك في جميع المجالات التي كان من أبرزها العمارة، حيث تعتبر من أبرز المنجزات الحضارية إلى يومنا هذا، والشواهد الملموسة التي تعين الباحث على فهم التقدم والرقي اللذين توصلوا إليه قديماً، لما تتضمنه من عدّة قيم، وقد تنوّعت بين ما هو ديني ومدني وعسكري، إلا أن التغيّر المترعرع بين ثنايا هذه الحضارة، المترجم بعمليات تنموية أفقد هذا النوع من التراث بريقه وجوهره.

من المناطق الزاخرة بإرث مادي ذائع الصيت في الجزائر منطقة تلمسان الواقعة بالشمال الغربي إذ تحتضن عدداً لا بأس به من معالم تاريخية تنعكس على جدرانها مهارة المعماري المسلم في الزخرفة والتصميم لتوفير الراحة النفسية لمن يدخلها، والحرمة لمن يسكنها، وأيضاً مواقع أثرية تكتنز بين طبقاتها لقي كانت في وقت مضى أدوات استخدمها الأسلاف في قضاء حوائجهم اليومية، وقد تجمّع لها ذلك من تفضيل السلاطين العيش فيها لموقعها الاستراتيجي الوفير المياه والأمن، ومثلما نتجت تلك المعالم التاريخية قديماً عن رغبة الأسلاف في توفير إطار معيشي يفي بحاجياتهم الضرورية من مأكلٍ ومشربٍ ومأوى، تواصلت تلك الرغبة وظهر إلى الوجود في وقتنا الحاضر أسلوب معيشي وتكوين عمراني جديد يعكس إرادة وطموح أفراد المجتمع المعاصر في بلوغ أعلى المراتب في الحضارة، وتحقيق أكبر قدر من الرفاهية، معلنين عن سنّة التغير الحضاري وإهمال ما دون ذلك، وقد تحقّق ذلك بالعمليات التنموية المختلفة المجال تماشياً مع ما يحتاجه أفراد المجتمع.

من بين تلك العمليات الأساسية التي برزت تلبيةً لما يريده الإنسان على أرض الواقع من مرافق وهيكل خدماتية للمضي قدماً في الحضارة عملية التنمية الحضارية، لقد كان للثورة الصناعية التي ظهرت في أوروبا دورٌ بالغ الأثر في ظهورها، لما وفّرت له من أموال تمّت بها تنمية الوعاء العقاري للمدن تحقيقاً للتكامل بين جميع الجوانب التي تمم أفراد المجتمع.

وكتعريف عام للتنمية الحضرية أمكن القول أنها صورة من صور الحضارة، ومرتبطة من مراتبها وانتقال من نمط قائل من أنماط الحياة إلى نمط آخر، أي من مرحلة البداوة إلى التمدن ثم إلى الحداثة معتمدة في ذلك على المخططات العمرانية المنجزة على المدى الطويل والتقصير، أو بعبارة أخرى هي الشكّل المادي الذي رسمه الإنسان بتفكيره وحقّقه على أرض الواقع بيديه، كل ذلك يؤكد أنها عملية إنسانية بالدرجة الأولى، وأداة فعّالة يثبت من خلالها الإنسان ذاته ووُجوده ويحقق طموحه.

لقد دفعني للبحث في هذا الموضوع والاهتمام بتفسير حيثياته من جوانبه المختلفة سببين، الأول ذاتي يتمثل في ميولي إلى المواضيع التي تهتم بالحيط وتأثيره على الموروث المادي الثابت، فقد كنت قد تعرضت لهذا الموضوع في مذكرة الماجستير، وأردت توسيع نطاق الدراسة ليشمل كافة المدن العتيقة في منطقة تلمسان ككل، أما السبب الثاني موضوعي، ويتمثل في اتساع الهوة بين الماضي والحاضر في الفترة المعاصرة بشكل ملفت للانتباه بفعل ما أفرزته التنمية الحضرية، حيث أصبحت المعالم التاريخية والمواقع الأثرية تعاني من تبعياتها بشكل كبير إما بالتشويه أو التخريب أو الإزالة، إضافة إلى قلّة الدراسات المنجزة في مجال التوفيق بين متطلبات التنمية الحضرية والتراث المادي في المدينة الواحدة، أو على الأقل وجود إشارات في مقالات أو ملتقيات تتضمن موضوع التأثير المباشر للتنمية الحضرية على المعالم التاريخية والمواقع الأثرية.

بالرغم ممّا تقدمه التنمية الحضرية، إلاّ أنّها أثّرت بالسلب على الموروث المعماري الموجود في منطقة تلمسان بالتحديد في مدنها الزاهرة بتراث أصيل والمتمثلة في مدينة تلمسان وندرومة وهنين، السالتي تعتبرن الأكثر احتواءً على التراث المادي في المنطقة، لذلك قمنا بأخذها كعينات للدراسة من أجل الوقوف على تفسير منطقي لإشكالية الدراسة المتمحورة حول أهم جوانب التنمية الحضرية، وما مدى تأثيرها على المعالم التاريخية والمواقع الأثرية الموجودة في عينات الدراسة؟ وماهي الأساليب التي تحد أو تنقص من تلك التأثيرات؟

حقيقة هذا الموضوع تكمن في كيفية التوفيق بين الأصالة التي انبثقت عن التراث المادي بنوعيه واللامادي من جهة، وبين المعاصرة التي تجسدها عدد من العمليات التنموية التي من بينها التنمية

الحضرية، فكلاهما له دوره في الحضارة الإنسانية، فالأول يمدنا بدور ثقافية واجتماعي واقتصادي، أما الثاني فهو أحد الأدوات المهمة التي يتحقق من خلالها لأفراد المجتمع ما تتطلبه الحياة المعاصرة من مراكز خدماتية وطرق للمواصلات ومستشفيات... إلخ، وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى ما توصلت له إحدى الدراسات التي أشارت أن معظم المدن العتيقة بالعالم العربي قد فقدت ما مقداره 70% من نسيجها العمراني التاريخي تحت وطأة تأثيرات التنمية الحضرية.

وحتى نتمكن من الإحاطة بمضمون إشكالية الدراسة، اعتمدنا على المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي لتكوين المادة العلمية التي نفسر من خلالها موضوع البحث ونوضح أهم الجوانب التي سنتعرض لها.

وقد رافق ذلك هيكل تنظيمي جاء مكوّناً من فصل تمهيدي بعنوان: النسيج العمراني للمدينة الإسلامية، من أجل الوقوف على أهم الخصائص المعمارية الأصيلة التي تحلّت بها المدن الإسلامية حتى تتمكن من وضع مقارنة بين ما كانت عليه، وما أصبحت عليه اليوم، وأعقبناه بثلاثة أبواب، **الباب الأول** منها معنوناً بالإطار الجغرافي والتاريخي والأثري لمدينة تلمسان وندرومة وهنين، وقد تضمّن ثلاث فصول، خصّصنا الفصل الأول للحديث عن اللّوحة التاريخية والجغرافية للوقوف على موقع المدن المختارة كعينة للدراسة وخصائص تضاريسها ومناخها، وأصل تسميتها وأهم المحطّات التاريخية التي مرّت بها، من أجل التأكيد على البعد التاريخي الذي تتحلّى به، وتناولنا في الفصل الثاني نبذة عن التراث المعماري والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان، لأنها أكثر غنى من مدينة ندرومة وهنين، وذكرنا فيه أهم المعالم التاريخية والمواقع الأثرية الموجودة بها لتكون كجزء من كل، نفس الشيء قدّمناه في الفصل الثالث حول المدينتين المتبقيتين، وقد جاء عنوانه نبذة عن التراث المعماري والمواقع الأثرية بمدينة ندرومة وهنين.

أما الباب الثاني، فجاء موسوماً بعنوان مسار التنمية الحضرية في الفترة الاستعمارية، وأهم عوامل انبعاثها في منطقة تلمسان، لقد تطرّقنا في الفصل الأول منه للحديث عن التنمية الحضرية ماهيتها

وإشكالاتها للتعريف بها وإيطارها الذي يكوّنها، ثم عرجنا في الفصل الثاني لعرض مسار التنمية الحضرية في منطقة تلمسان إبان الفترة الاستعمارية (1842-1962)، للوقوف على الوضع الذي عاشته عينات الدراسة من تحوّل في مسارها التنموي في فترة الاحتلال، ووضّحنا في الفصل الثالث دور العامل الاجتماعي والإداري والعولمة الثقافية في بعث التنمية الحضرية بمنطقة تلمسان.

وبالنسبة للباب الثالث من هذه الدراسة، فقد خصّصنا مادته العلمية للوقوف على أهم تأثيرات التنمية الحضرية على المعالم التاريخية والمواقع الأثرية التي استوقفنا بعد المعاينة الميدانية بكلّ من مدينة تلمسان وندرومة وهنين، وأيضاً طرق المعالجة التي من شأنها الحد من الأضرار، وقدّمنا أولى التأثيرات في الفصل الأول الذي وسّمناه بعنوان مظاهر التلوث البصري في مدينة تلمسان وندرومة وهنين، وعرجنا في الفصل الثاني لتقديم باقي التأثيرات التي تعرّض لها الموروث المادي الثابت والمواقع الأثرية في عينات الدراسة، وقد جاء عنوانه الضّرر الفيزيوكيميائي والضرر الميكانيكي واعتداءات الهدم والتخريب، وفيما يخص الفصل الثالث فقدّمنا فيه أهم طرق المعالجة التي تحمي الموروث المادي الثابت والمواقع الأثرية. وذيّلنا موضوع الدراسة بخاتمة جاءت بمثابة استنتاج عام لما تم ذكره في جميع فصول الأطروحة، وأهم النتائج المتوصل إليها، وأرفقناها بملحق احتوى على جزء خاص بالصور وآخر بالمخططات من أجل توضيح المعنى وتقريب الفهم للقارئ.

وعلى الرغم من قلّة الدراسات في هذا المجال، إلّا أنّنا صادفنا بعض البحوث التي تعرّضت لهذا الموضوع البحث ولو بالشيء القليل في رسائل تخرج أو مقالات مثل:

♦ Souria Baba Ahmed Kassab, **Antagonisme entre espace historiques et développement l'urbain, Cas de Tlemcen**, Thèse Doctorat d'état en Architecture et urbanisme, option préservation des sites et monuments historiques, école polytechnique d'architecture et urbanisme, Algérie 2007.

♦ حكيمة بولعشب، مشكلات التنمية الحضرية بالمدينة الصحراوية، دراسة ميدانية بمنطقة عين الصحراء بمدينة توقرت، رسالة ماجستير، علم الاجتماع الحضري، جامعة قسنطينة، 2007.

◆ كامل بشير كاظم الكناي، تخطيط المدينة العربية الإسلامية، الخصوصية والحداثة، مجلة المخطط والتنمية، العدد 15، بغداد، 2006.

وفيما يتعلق بأهم المراجع التي اعتمدنا عليها في تكوين المادة العلمية لهذه الأطروحة مايلي:

◆ **Abdelkader Tahar, La médina de Tlemcen mutation, Sauvegarde et durabilité**, Thèse de Doctorat en histoire et archéologie et Arts populaires, réalisée en cotutelle entre l'université Nice Sophia Antipolis valorisation sa et archéologique et l'aboratoire du patrimoine France .de Tlemcen, Nice, 2015 L'université

◆ **André Lecocq, Tlemcen Ville Française (1842-1871)**, Tome 01 L'adm-nistration Militaire (1842-1852), éditions Internationales ,Tanger 1949

◆ **Sidi Mohammed Trache, Exurbanisation et mobilité résidentielles à Nédroma (1990-2000)**, In (R) Insanyat, n°28, CRASC, Oran, 2005.

◆ **Abderrahmane Khelifa, Honaine Ancien Port du Royaume de Tlemcen**, édition Dalimen, Algérie, 2008.

◆ **عبد العزيز محمود لعرج، مدينة هنين: تاريخها وآثارها، الملتقى الدولي الخامس حول التراث العلمي والثقافي لمدينة ندرومة ونواحيها، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006.**

وقد صادفتنا أثناء إعداد هذه الأطروحة صعوبات انحصرت بالدرجة الأولى في قلّة المادة العلمية المنجزة من قبل الأثريين فيما يخص التوفيق بين الأصالة والمعاصرة في ظل العصرية المفرطة التي باتت تهيمن على المدن التاريخية العتيقة، وهو ما جعلنا نعتمد على ما كتب من طرف مختصين في الهندسة المعمارية تارة، وتارة أخرى على ما كتب من قبل المختصين في علم الاجتماع، وما زاد في صعوبة تقدّم البحث عدم توفر الوسائل اللاّزمة للقيام بالعمل الميداني، كالقيام بالتحاليل الكيميائية، والقياسات الخاصة بالاهتزازات.

إن وفقت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان.

الفصل التمهيدي

النسيج العمراني للمدينة الإسلامية

1- مفهوم المدينة

2- عوامل تأسيس المدينة

3- شكل المدينة العتيقة وتكوينها العمراني

1-3 النواة المركزية للمدينة العتيقة

2-3 الفضاء التجاري للمدينة العتيقة

3-3 الفضاء السكني للمدينة العتيقة

4- أنواع المنشآت المعمارية بالمدينة الإسلامية

1-4 العمارة الدينية الإسلامية

2-4 العمارة المدنية الإسلامية

3-4 العمارة العسكرية الإسلامية

تمهيد:

تعتبر الخطة العمرانية وتنظيمها المعماري المحكم بالمدن العتيقة، واحدة من إبداعات الحضارة العربية الإسلامية في مجال العمران، إذ تضمنت بين أحيائها ودروبها تعبيراً صريحاً عن الحياة الحضارية وثقافة المجتمع الذي صنعها، مشكلة بذلك مرآة عاكسة لمدى التقدم والرقي الذي خلفه الإنسان منذ القدم، وهي تعد الركن الخامس في الملك، لذلك قال عنها الخليفة العباسي المتوكل بعد بنائه المتوكلية: "الآن علمت أبي ملك إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها".⁽¹⁾

1- مفهوم المدينة:

رغم كثرة العلماء المهتمين بتعريف المدينة إلا أنهم لم يعطوا تعريفاً واضحاً لها، لأن ما ينطبق على مدينة لا ينطبق على أخرى، فعلى سبيل المثال قدّمها العلامة عبد الرحمن بن خلدون بقوله: "...الإنسان مدني بالطبع لا بُد له من الاجتماع الذي هو المدينة، أو في اصطلاحهم هو العمران...".⁽²⁾

وإذا ما اعتمدنا على الناحية اللغوية نجد أن كلمة مدينة مشتقة من كلمة "دين" التي ينبثق أصلها من الآرامية والعربية، أي أن أصلها سامي، وعُرفت المدينة عند الأكاديين والأشوريين بالدين أي القانون وهناك كلمة الدّيان التي يُقصد بها في الآرامية والعبرية القاضي، وتتوافق هذه التفسيرات مع ما جاء به القرآن الكريم، إذ اتضح من التفسير القرآني أن كل المواضع التي أُطلق عليها مدينة كان عليها ملوك يتداولون فيها الجانب القضائي والديني والسياسي، من هنا يتضح تميز المدينة عن القرية في القرآن الكريم وذلك على أساس التقاضي الذي أشارت إليه الآرامية مسبقاً، وفي الحديث النبوي الشريف عن بن عمر قال سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على المنبر يقول: «يَأْخُذُ الدِّيَانَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ بِيَدِهِ وَقَبْضَ يَدِهِ وَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسِطُهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْجَبَّارُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ وَتَمَيَّلَ رَسُولُ اللَّهِ

1- عبد الستار محمد عثمان، المدينة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978، ص: 26

2- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2001، ص: 54

عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلٍ لِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»⁽¹⁾، يبرز من هذا الحديث الشريف اتفاق معنى ما جاء به هذا الحديث مع اشتقاق الكلمة من الدين والملك والقضاء، ومن جهة أخرى أشارت بعض المعاجم العربية إلى أن كلمة مدينة ترجع إلى كلمة دين، وهي كلمة مشتقة من كلمة وَدَنْتُهُ أي مَلَكْتُهُ فهو مدين مملوك، كمرادفات وبدائل للفظ المدينة، هناك الحاضرة بدلاً من المدينة، والحضري بدلاً من المدني، والتحضر كمقابل للتمدن، أيضاً من الاشتقاقات اللغوية لكلمة مدينة الفعل مَدَّنَ، مثلاً نقول مدن الشخص، أي أتى المدينة، ومَدَّنَ المدائن أي بناها ومصرها، ومَدَّنَهُ أي نقله إلى حالة الرقي ومدينة عتيقة أي ضاربة في القدم.⁽²⁾

أما اصطلاحاً، فهناك من ربطها بالجانب الديني مصداقاً للحديث النبوي الشريف: «لَا جُمُعَةَ وَلَا تَشْرِيْقَ وَلَا فِطْرَ وَلَا أَضْحَى إِلَّا فِي مِصْرٍ جَامِعٍ»، وفي حديث آخر: «إِلَّا فِي مِصْرٍ جَامِعٍ أَوْ مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ»⁽³⁾، واتفق الفقهاء أن المصر هو وطن مجتمع المنازل، والمدينة تجسد ذلك بصورة واضحة، ويستند إلى هذا الحديث أبي حنيفة النعمان مؤكداً أن صلاة الجمعة إنما تختص بها الأمصار دون غيرها وأنه لا يجوز إقامتها في القرى، مشيراً إلى أن المصر ذلك المكان الذي يوجد فيه سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الأحكام أي المدينة، ويعرفها بعض الجغرافيين مثل المقدسي بقوله: "...وقد اختلف في المضار فقالت الفقهاء المصر كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير بنفقته ويجمع رستاقه... وأما

1- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، حَقَّقَهُ وأَخْرَجَ أَحَادِيثَهُ حمدي عبد المجيد السلفي، ج12، مكتبة ابن تيمية، رقم الحديث 13437، القاهرة، 1983، ص: 389

2- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر محمد، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص: 1518

3- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، الحاوي الكبير في فقه الإمام الشافعي رضي الله عنه، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد المجيد، ط1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص: 407

نحن فجعلنا المصر كل بلد حلّه السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال وأضيفت إليه مدن الأقاليم مثل دمشق والقيروان...⁽¹⁾.

أمّا بن منظور فيُعرفها من جانبها المادي قائلاً أن المدينة هي: "الحصن يبني في أضطمة⁽²⁾ من الأرض، وكل أرض يبني عليها حصن في أضطمتها فهي مدينة"⁽³⁾، ومن الجانب الاجتماعي يعرفها فيروزآبادي بقوله "...المدينة تعادل ستة عشرة بلداً، والمدائن هي مدينة كسرى قرب بغداد سميت كذلك لكبر حجمها وكثرة عمرانها..."⁽⁴⁾، يتوافق هذا التعريف مع ما أشار إليه القزويني في حديثه عن نشأة المدينة، إذ قال: "...أنه لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح ولو تستروا في الخيام لم يأمنوا مكر اللصوص، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب لم يأمنوا صولة ذي بأس، فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور وحفر الخندق والفصيل وهو الحائط القصير، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار، واتخذوا للمدن سوراً حصيناً مانعاً، وللصور أبواباً حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج... ثم اختصت كل مدينة لاختلاف تربتها وهواءها بخاصية عجيبة..."⁽⁵⁾، لذلك أعتبرت المدينة أساس التحضر ومرآة عاكسة لمدى الرقي الحاصل في الجانب المعماري والثقافي والاجتماعي.

ومن المفاهيم الحديثة للمدينة أنها تجمع سكاني وعمراني كبير الحجم، كثير الشوارع والبنائيات العمرانية التي انكب الإنسان على تشييدها كمأوى له منذ القدم، والتي أدت دوراً هاماً في تشكيل ثقافته وتاريخه

1- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991، ص: 47

2- الأضطمة: تكتب بالسين كذلك وهي معظم الشيء ومجتمعته وتماهه، يُنظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مصدر سابق، ص: 927

3- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف القاهرة، (دت) ص: 4161

4- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مصدر سابق، ص: 1518

5- زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (دت)، ص: 7-8

أما المعماري النمساوي كامبيوسيط "Camillo Sitte" فقد استند في تعريفه للمدينة على ما قاله أرسطو: "المدينة هي ذلك المكان الذي يوفر الأمن والسعادة لمن يسكنها" ويضيف كامبيوسيط قائلاً: "... لبلوغ ذلك الهدف لا تكفي الحسابات الرياضية الهندسية فقط، لكن لا بد من وجود لمسة معماري فنان...".⁽¹⁾

2-عوامل تأسيس المدينة:

لم تنشأ المدن قديماً من العدم، بل ساعدت مجموعة من العوامل على تكونها ومن ثمّ تطورها، ونجد في مقدمتها وفرة الماء الذي قال عنه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾⁽²⁾، حيث تزداد الكثافة السكانية في المناطق الغنية بالمطار وتتناقص بالأماكن الجافة، ثم عامل الموقع إذ يساعد المدينة في الدفاع عن نفسها، باعتبار الأمن واحد من اللبّات الأساسية في نشأة المدن، من الشروط التي أوجبتها المخطط المسلم في الموقع أن يكون حصيناً بطبيعته، مستنداً على هضبة وعرة من جبل كمدينة تلمسان الموجودة على منحدر هضبة لآلة ستي ومدينة ندرومة الموجودة على سفح جبل فلاوسن، ومدينة هنين التي تستند هي الأخرى على سفح جبل المنزل المقابل للبحر مباشرة، إدراكاً منهم لأهمية الأمن في حياة الأفراد، وهو الذي قال عنه عزّ وجلّ في القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾⁽³⁾، تعكس هذه الآية الكريمة بجلاء مدى أهمية الأمن في نشأة المجتمعات وتطورها منذ القدم، لهذا اعتبر الفقهاء الأسوار والقلاع والحصون من البناء الواجب، هناك البعض من الدارسين مثل عبد الرحمن بن خلدون من ربطوا مقدار رفاهية المدن مع مقدار ما تكتسبه

1-Camillo Sitte, L'Art de Batir les Villes, notes et réflexions D'un Architecte, Traduites et complétées par Camille Martin, édition Atar Corraterie 12, Genève, 1889, p: 10, gallica.bnf.fr

2-سورة الأنبياء، الآية 22

3-سورة إبراهيم، الآية 35

من قوة، وما توفره من أمن لسكانها معبراً عن ذلك بقوله: "... والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والتزف كثر التناسل والولد... فزادوا به عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم...".⁽¹⁾

تكشف الشروط السابقة الذكر عن وجود نظرة عقلانية في تخطيط المدن الإسلامية تنم عن الاهتمام الكبير بالجانب الوظيفي الاجتماعي الذي يؤكد أصالة المدينة الإسلامية المستمدة من تعاليم الدين الحنيف، في نفس السياق حدّد بن الربيع في مؤلّفه "سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال" ستة شروط للاختيار الموقع الملائم لتشييد المدينة قائلاً: "... سعة المياه المستعذبة... واعتدال المكان وجودة الهواء، والقرب من المرعى والاحتطاب، وتحصين منازلها من الأعداء الذعار، وأن يحيط بها سور يعين أهلها..."⁽²⁾، كما أوجب ثمانية شروط أخرى، يُراعيها الملك ولكن هذه المرة في كيفية تنظيمه للمدينة داخلياً تتمثل فيما يلي: "... أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب أهلها، ويسهل تناولها من غير عسف، وأن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق، وأن يبني جامعاً للصلاة في وسطها وأن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق، وأسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب، وأن يميز بين قبائل ساكنيها... ويجعل خواصه محيطين به من سائر جهاته وأن يحيطها بسور مخافة اغتيال الأعداء، لأنها بجملتها دار واحدة، وأن ينقل إليها من أهل العلم حتى يكتفوا ويستغنوا بهم عن الخروج إلى غيرها..."⁽³⁾، بعد ابن الربيع قدّم ابن الأزرقي ما الذي يجب مراعاته في اختيار مواضع المدن قائلاً: "... أصلان مهمان: دفع المضار وجلب المنافع الأصل الأول دفع المضار وهو فرعان أحدهما: أرضي ودفعه بإدارة سياج السور على المدينة، ووضعها في مكان ممتنع إما على هضبة وعرة إما باستدارة بحر أو نهر بها... فيصعب منالها ويتضاعف تحصينها... والثاني سماوي ودفعه باختيار

1- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص: 218-219

2- شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، ط1، تحقيق عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود، دار العاذرية للنشر والتوزيع، الرياض، 2010، ص: 152

3- المصدر نفسه، ص: 154

المواضع الطيبة الهواء، لأن ما خبث منه بركود أو تعفن لمجاورته مياه فاسدة... يسرّع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، كما هو مشاهد بكثرة...، والأصل الثاني جلب المنافع... وذلك بمراعاة أمور أحدهما الماء كأن يكون البلد على نهر أو بإزاء عيون عذبة... والثاني طيب مرعى السائمة وقربه... والثالث قرب المزارع الطيبة لأن النزرع هو القوت الضروري... والرابع الشعراء⁽¹⁾ للحطب والخشب...".⁽²⁾

3- شكل المدينة الإسلامية العتيقة وتكوينها العمراني:

الحديث عن المدينة الإسلامية العتيقة يدفعنا للحديث عن شكلها الخارجي فهو نوعان الأول يتمثل في الشكل المربع الذي يجربنا عنه الثنائي Jean Pelletier و Deffant بقولهما أن القبائل العربية التي شيّدت عواصم الصحراء قبل الإسلام مثل تدمر وحضرموت خلال القرن الرابع ميلادي، شيّدت بظهور الإسلام وانتشاره مدناً مثل القيروان سنة 50هـ/650م، والبصرة بالعراق سنة 14هـ/636م⁽³⁾، أخذين بعين الاعتبار المخطط المربع الروماني، كمثال على ذلك مدينة عين البحر ببلنجان، أما النوع الثاني فيتمثل في الشكل الدائري الذي يتوسط فيه المسجد الجامع ومقر دار الإمارة قلب المدينة، يحاطان بحزام أخضر وسور فاصل بين هذه الناحية الاستراتيجية من المدينة وباقي المباني والمساحات التجارية، والكل محاط بسور ثانٍ يحمي المدينة من العدوان الخارجي، وكمثال عنها مدينة بغداد التي أنشئت سنة 146هـ/762م استناداً إلى ما ذكره الخطيب البغدادي أنها أسست من طرف أبي جعفر المنصور قائلاً "...وإنه ابتداءً

1- الشَّعْرَاءُ: ما كان من شجر ملتف في لِينٍ من الأرض يحله الناس يستدفنون به شتاءً وستظلون به صيفاً، ينظر: محمد الدين محمد بن يعقوب الفيرو زآبادي، مصدر سابق، ص: 867

2- أبي عبد الله ابن الأزرق، بدائع السُّلُك في طبائع الملك، ط1، ج2، تحقيق علي سامي النشَّار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2008، ص: 699-701

3- Pelletier Jean, Deffant Charles, **Villes et Urbanisme dans le Monde**, Collection initiation aux études de géographie, éditions Masson, Paris, 1989, p: 12, books.google.dz

أساس المدينة سنة خمس وأربعين ومائة، وأتم البناء سنة ست وأربعين ومائة، وسمّاها مدينة السلام...⁽¹⁾، وإضافة إلى مدينة تلمسان المشيدة خلال الفترة الزيانية.

يتضح جلياً مما سبق ذكره أن التصور الإسلامي لخطة المدينة جاء محايداً عن بقية التصورات، لانبعاثه من قاعدة خاصة أدّت إلى إنتاج نسيج عمراني يستجيب لطموحات السكان من مختلف الجوانب الدنيوية، فأصبح بذلك سبيلاً يسمو به الفرد وركناً ثقافياً يكتنفه البعد الروحي، نلتمس ذلك من خلال ما سار عليه منهج تخطيط المدن الإسلامية ومراحل تكوينها المعماري في توافق تام مع أحكام البناء التي أقرها الفقهاء، معتمدين في ذلك على ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كما تماشى ذلك التكوين المعماري أيضاً مع المبدأ الذي نسير وفقه والحاجة التي نهدف إليها، لذلك يرى بعض دارسي تصميم المدن الإسلامية وعمارتها على اختلاف طابعها صورة حضارية مميزة.⁽²⁾

لقد تكوّن لدى الإنسان منذ القدم رغبة العيش في الجماعة، ومبادئ معمارية كانت بمثابة ركيزة أساسية لفن العمارة بجل الحضارات المعروفة في مصر وبلاد الرافدين وسومر وشبه الجزيرة العربية ككل إذ استخدم فيها المعماري القديم ما تجمع لديه من خبرات وفنون معمارية تتحلى بمظاهر القوة والجمال، ورغم ما ورد من تقليد عن الحضارات السابقة، فإنه يبقى لكل حضارة أو أمة من تلك الأمم ذوقها الفني الخاص بها في البناء، وذلك حسب ما تملي عليها العاملين الآتين:

-العامل الديني:المعلوم أن تغير عقيدة الإنسان يعقبه تغير تام في نظرتة للحياة، ومن تمّ في طريقة عيشه داخل مسكنه ومدينته ككل.

-العامل الجغرافي: لهذا العامل تأثير واضح في تطور المدن، لأن الحضارة بمعناها الشامل ثمرة جهد الإنسان

1-أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها، ط1، مج1، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص:37

2-Denis Grandet, Architecture et Urbanisme Islamique, OPU, Alger, 1986, p:22

في تفاعله مع البيئة التي يقطنها، لذلك يمكن اعتبار الحضارة نمط عيش معين لمجموعة بشرية معينة في بيئة يجمعها نظام واحد يحدد سلم قيمها الأخلاقية، ما جعل كل مجتمع يختص بحضارة ذاتية متميزة بأفكار وأنظمة منفردة.⁽¹⁾

وكمثال عن الحضارات الإنسانية الرائدة في جميع المجالات الحضارة العربية الإسلامية التي أدلت بدلوها في المضمار المعماري أو الاجتماعي أو الثقافي، تاركة بصمة راسخة إلى يومنا هذا عبر ما شيّدته من عمائر تنم عن الذوق الرفيع الذي تميز به المعماري المسلم والذي اكتسب خاصيتين، الأولى تتمثل في ذلك النقل والتواصل الذي تحتفظ به للأجيال المعاصرة، إذ تعتبر همزة وصل بين ماض الأمة وحاضرها، والثانية تتمثل في توافق تصميم الوحدات المعمارية سواء كانت دينية أو مدنية مع التنظيم الاجتماعي للأمة في قيمها وسلوكها، ما يبرز وجود علاقة وطيدة بين الوظائف والعناصر المادية، وقد انبثقت تلك التنظيمات عن التأثير الواضح للدين في توجيه المخطّط العمراني الإسلامي على المستوى الداخلي كتصميم المساكن والمساجد والدروب وإضفاء صبغة خاصة تراعي الألفة وحق الجوار في الحي السكني ككل، وأعلى المستوى الخارجي في بناء الأسوار وشق قنوات السقي وصرف المياه، ووضع كل الصناعات التي تسبب التلوث أو الضوضاء خارج الأسوار الدفاعية أو على مقربة منها، حتى لا يتأذى الناس بضجيجها ورائحة موادها الأولية.

من هذا المنطلق قسّم المخطط المسلم المدن على اختلاف مواقعها الجغرافية إلى ثلاثة أقسام رئيسية متجاورة فيما بينها يكمل الواحد منهم الآخر، لترتيب استعمالات الأرض وتحقيق أكبر قدر من التوافق والتقارب بين الجانب الروحي والمادي ضمن نسيج معماري واحد وضمان تخطيط عمراني متوازن يلي احتياجات السكان سواءً الدينية أو الاجتماعية أو التجارية⁽²⁾، تمثلت فيما يلي:

1- مصطفى علم الدين، المجتمع الإسلامي في مرحلة التكوين، دار النهضة العربية، بيروت، 1992، ص: 06

2- نقادي سيدي محمد، التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة

أي بكر بلقايد، 1991، ص: 31

3-1 النواة المركزية للمدينة:

تعتبر بمثابة الحيز الديني والتشريعي والتثقيفي للمدينة الإسلامية، تتضمن أهم المباني ذات الطابع الديني والاجتماعي، فقد تضمنت داراً للإمارة تنحصر وظيفتها الأساسية في إصدار الأحكام والتشريعات من طرف الحاكم نفسه أو تناط المهمة للأئمة والفقهاء، وقد كان يسمى المشرف عليها في مدن وعواصم المغرب الإسلامي بقاضي الجماعة فهو في الوقت نفسه الحَكَمُ والمُوثِقُ، من جملة المهام الأخرى التي تخوض فيها دار الإمارة فض النزاعات ما بين الناس والتجار، وتسجيل عقود النكاح والبيع وكتابة الوصايا، ومن بين أهم ما احتوت عليه أيضا المسجد الجامع المتميز بكبر حجمه واتساع رقعته ليتسع للكم الهائل من المصلين القادمين لتأدية صلوات الجمعة والأعياد الدينية واستقبال الطلبة، مكوّناً بذلك جامعة تُلقى فيها الدروس وتُعقد فيه الجلسات العلمية وخطب الوعظ والإرشاد، وكان يتم فيه نشر الإعلانات الملكية وإمضاء العقود التجارية.⁽¹⁾

إضافة لذلك قدّمت هذه النواة وظيفة ثانية تتمثل في التبادل الثقافي والعلمي، فقد كان قبلة للتعلم والتفقه في الدين عبر ما أنشئ بها من مدارس وزوايا رُصدت لها النفقات من تلك الأوقاف التي أقامها الحكام والسلاطين وبعض الأغنياء، فمثلاً بمدينة تلمسان قُدرت أوقاف مسجد ومدرسة الشيخ السنوسي بدرج مسوفة بسبع مائة وخمسة وثلاثين هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة، أما مسجد سيدي أبي مدين فقد بلغ دخله اليومي من الأوقاف المخصصة له قرابة الرطل من الذهب، واحتوت النواة المركزية أيضاً على القصر، فبالإضافة إلى كونه سكني للسلطان وحاشيته يعتبر المقر الأول الذي تستصدر منه الأمور الخاصة بالمدينة سواءً المتعلقة منها في كيفية تحصينها ضد الغزاة أو تنظيم أسواقها وكل ما يتعلق بأمور الرعية.⁽²⁾

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري، ج01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 341

2- نقادي سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 51

3-2 الفضاء التجاري للمدينة:

لا تكاد مدينة إسلامية تخلو من هذا الحي، فهو يمثل الشريان الاقتصادي الذي من خلاله توفر لنفسها دخلاً يعود عليها بالمنفعة على بقية المجالات الأخرى، كتنشيط خدمات الفنادق عبر تلك القوافل التجارية التي تأتي للبيع والشراء بالمدينة من أقطار أخرى، لهذا يعتبر جانباً مهماً في مسار تكوينها ونشأتها⁽¹⁾، كذلك يمكن لسكانها بمختلف مستوياتهم اقتناء ما يريدونه من لوازم والحصول على مجال خصب للعمل وكسب قوت العيش، يلي هذا الفضاء مباشرة النواة المركزية لربط الوظيفة السياسية والدينية بالوظيفة الاقتصادية، يحتوي على سوقٍ لتفعيل عمليات البيع والشراء، فقد كان هذا الأخير بمثابة القاسم المشترك بين جميع المدن الإسلامية على اختلاف مواقعها الجغرافية وتاريخها.

يمكن الإشارة إلى أن كلمة سوق بالمدن العتيقة تختلف عن المعنى الحالي لكلمة سوق، فهو ضمن النسيج العمراني للمدن العتيقة ليس بالمساحة الشاسعة بل يمكن أن يتواجد في حي عادي تفتح به الحوانيت على الجانبين، فمثلاً تواجد سوق قرطبة على مستوى حي ضيق الأمر الذي دفع بالخليفة الأموي المستنصر بالله توسيعه عام 361هـ/972م نتيجة ازدياد الأعمال التجارية وما ترتب عنها من ازدحام أدى إلى عرقلة حركة السير⁽²⁾، فيما يخص البضائع التي تم تداولها بالأسواق العمومية، فقد كان أصلها محلي وذات إقبال كبير من طرف السكان لجودتها، وقد تمثلت في المواد الغذائية بالدرجة الأولى، ثم المواد المصنعة من صوف وقطن وجلد، أما مكان وجودها فقد أقيمت على مقربة من الساحات وأبواب المدن، وتميزت أسواق المدن العتيقة عموماً بميزات تمحضت عن التشريع الإسلامي في تنظيم عمليات البيع والشراء لإضفاء أكبر قدر من الشفافية وحسن التنظيم، تمثلت في مايلي:

أولاً: كان هناك توافق وانسجام في المكان الواحد من السوق بين الصناعات المتشابهة فيما بينها من

1- عبد الستار محمد عثمان، مرجع سابق، ص: 12

2- نقادي سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 44

حيث مادة الصنع، وكذا من حيث الهدف المتوخى من استعمالها في الحياة اليومية.

ثانياً: كان يتم إبعاد كل الأنشطة التي لها تأثير سلبي على الإنسان مثل الدخان والرائحة والإزعاج الصوتي والعرقلة.⁽¹⁾

ثالثاً: مراقبة المحتسب للتجار وسلعهم منعاً للغش وغيره من التعاملات الغير موافقة لتعاليم الدّين الحنيف، والحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله.⁽²⁾

كما كانت أماكن البيع داخل الأسواق غير محتكرة وفقاً لما صحّ عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أسمر بن مضر قال: أتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبايعته فقال: "مَنْ سَبَقَ إِلَى مَا لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ فَهُوَ لَهُ" فخرج الناس يتعادون يتخاطون⁽³⁾، وهناك نوع آخر من الأماكن التي خصصت للبيع والشراء في الحي التجاري تسمى بالسويقة، سميت بذلك لصغر حجمها مقارنة بالأسواق، تحتوي على ساحة فسيحة نسبياً تماشى وفق حجم النسيج العمراني المحلي الذي تتواجد بداخله، ورغم صغرها فقد قدّمت لزبائنها مختلف الخدمات والسلع المختلفة الموجودة بالمدينة، إذ نجد بها الجزار والخضار والبقال والكتان والحجّام، ويتم التعامل فيها بالتجزئة فقط لأنها مخصّصة للاستهلاك العائلي لا أكثر ولا أقل إضافة إلى السويقة ظهر بمدن المغرب الإسلامي قديماً ما يسمى بالقيصارية وهي عبارة عن سوق يحيط بها سور عبر جوانبها الأربعة، ولها باب واحد كقيصارية مدينة تلمسان التي وجدت على مستوى الفضاء التجاري غرب مسجد سيدي البنا.⁽⁴⁾

تميّز هذا الأخير أيضاً بوجود الفنادق، وحسب ما ذكره بارجس Bargés أن هذه الكلمة ذات أصل

1- نقادي سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 45

2- أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، ط01، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989، ص: 315

3- أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مصدر سابق، ج01، ص: 280

4- نقادي سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 61

يوناني، وهو عبارة عن بناء كبير مربع الشكل يوجد بداخله فناء تحيط به الغرف من جهاته الأربعة لمبيت المسافرين⁽¹⁾.

3-3 الفضاء السكني للمدينة:

يُعدّ هذا الفضاء مرآة عاكسة لأصول التخطيط والبناء بالمدن العتيقة، من أهم عناصره المسكن الذي يعتبر أحد الفنون المعمارية التي برع المعماري المسلم في إنشائها قديماً، تميزت بوجود عناصر فراغية وظيفية، ومظهر خارجي جدّ بسيط لا يوحي إطلاقاً بما يمكن أن يوجد بداخله، إذ يبدو المسكن من الخارج عبارة عن بناية صماء تخلو جدرانه المبنية بمادة الآجر من أية زخرفة إلا في حالات نادرة، تكونت معظم المساكن الإسلامية من طابقين، وفيما يخص فتحات نوافذ الطابق الأرضي فقد كانت مفتوحة على وسط الدار لتحقيق أكبر قدر من الخصوصية لساكنيه وهو ما يُعرف بمبدأ التوجه نحو الداخل⁽²⁾، أما بالطابق العلوي فلم توجد إلا فتحات ضيقة وقليلة للحفاظ على حرمة أهل المسكن تبعاً لتعاليم الدين الحنيف، وبالنسبة لتخطيطه الداخلي فقد تألف من المدخل ووسط الدار والبيوت والمخزن والسطح، إضافة إلى جناح المعيشة وجناح الرجال وجناح الخدمات الذي يشمل المطبخ والحمام والمخزن وقد تميز مظهره الخارجي بالبساطة وبشكل مربع أو مستطيل يتراوح ارتفاعهما بين 4م و8م عموماً يتوسطه فناء يفتح على الداخل تلتف من حوله الغرف، وهو يعد بمثابة منبع للضوء ومنظم مناخي وصوتي وفي الوقت نفسه منظم للعلاقات الاجتماعية للعائلة.

من بين الميزات الأخرى للمنزل السقيفة التي تعتبر مدخل منعطف ومسقف يصل إلى فناء المسكن تتميز بوجودها في إحدى الزوايا الأساسية، ولهذا الانعطاف ثلاثة وظائف فالأولى هندسية

1-L'Abbé jJBargés, **Tlemcen Ancienne Capital du Royaume de ce Nom**, Imprimerie Oriental du Manus Nicolas, France, 1859, p: 88

2-رحوي حسين، العلاقة بين النسيج العمراني والفضاء الاجتماعي الثقافي في المدينة العربية الإسلامية، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2001، ص: 181

والثانية تتمثل في حماية وسط المنزل من أنظار المارة، وأما الثالثة فهي تعمل على كتم الصوت، وعدم خروجه إلى الشارع، وفيما يخص العقود فقد اختلفت نماذجها، إلا أن الأكثر استعمالاً هو النصف الدائري وامتثالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾، ووجب الاستئذان قبل دخول بيوت الغير الذي يحمل هنا معنى الاستئناس، لذلك وجدت بأبواب المساكن العتيقة ما يسمى بالطبطابة وهي عبارة عن حلقة معدنية من الحديد أو البرونز أو النحاس يتم بواسطتها الطرق على الباب قبل الولوج إلى داخل المنزل، حفاظاً على حرمة أهل البيت وإعلامهم بمجيء أحد الأجنب حتى يتجهزوا لاستقباله⁽²⁾، أما أشكالها فقد حملت دلالة دينية بارزة لأهل المنزل فهناك من جاءت على هيئة نجمة ذات ستة رؤوس تدل على الانتماء اليهودي، الأمر الذي لا نجد في أبواب المسلمين الذين يتصفون بالبساطة والتواضع، كما امتازت بعدم تقابلها مع بعضها البعض مثلما هو موجود بدرج السلسلة بمدينة تلمسان.⁽³⁾

لقد شكّل هذا التنظيم العمراني ضوابط أخلاقية ووقائية ووفّر علاقة وطيدة بين التركيب الداخلي وبين الإنسان نفسه، فتقابل جدران الفناء والتصاق المنزل عبر ثلاث جهات مع المنازل المجاورة قلّص تعرض ساكنيه لأشعة الشمس، وبالتالي التخفيف من تأثير درجة الحرارة صيفاً، كما جعل من وسط الدار خزاناً جيداً للهواء النقي المعتدل الحرارة والرطوبة، وحاجزاً يمنع انسياب الهواء العلوي إلى الغرف، لأنه شبيه بالوعاء فليس له منافذ سفلية تسهل عمليات جريان الهواء وهكذا فإن الجو الخارجي مهما كان شديداً عاصفاً فإنه يبقى فوق الفناء، ويمضي حاملاً معه حرارته وغباره وملوثاته، وهناك ميزة هندسية أخرى تتمثل في ارتفاع أرضية الغرف عن مستوى أرضية وسط الدار حتى لا يتسرب

1- سورة النور، الآية 27

2- رحوي حسين، مرجع سابق، ص: 210

3- نقادي سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 146

الهواء أو الغبار إلى داخل البيوت.

من خلال ما تم ذكره عن ترتيب استعمال الأراضي داخل المدن العتيقة قديماً، يتضح أنه تميز بتخطيط عقلائي ومنظم يراعي الجانب الاجتماعي والاقتصادي على عكس ما إدعاه بعض المستشرقين الذين اعتبروه تخطيطاً عشوائياً لا ينطلق من أية قاعدة، مثل ما ذكره أحد المستشرقين المسمى كلود كاهن Claude Kahan قائلاً: "إنه من الخطأ أن نطلق عليها اسم المدينة الإسلامية، الأخرى أن نسميها فقط مدن دار الإسلام"⁽¹⁾، أي أنه جرّدها من صفة التمدن والتحضر.

لكن المتحدثين عن أصول العمران الإسلامي وتصميمه أمثال عبد الرحمن بن خلدون في المقدمة وبن الربيع في سلوك المالك في تدبير المالك على التمام والكمال والقزويني في آثار البلاد وأخبار العباد يشيرون إلى أن المدن الإسلامية انبثقت من تعاليم الدين الإسلامي التي تراعي مبدأ الألفة والحياء واحترام الجار والدفاع عن حرمة المسلم وكذا من البيئة التي وجدت فيها فاكتست بطابعها.

يرى بعض الباحثين أن دراسة العمارة بمختلف أصولها الجغرافية وأنواعها تعين على دراسة وفهم العمران الحضري، إذ تعتبر سجلاً مرئياً شاهداً على صدق رواياته، ووعاءً يصب فيه المعماري خالص عبقريته لأن الإنسان يولد في العمارة، وينشأ ويتعبد ويأتمن ويعمل ويخطط فيها، ثم يموت ويدفن فيها أي أنها طبيعة فطرية في الإنسان، لذلك لا يمكن تصور حضارة من دون عمارة ولا عمارة من دون حضارة، وهو ما قدّمه المفكر أرنست بودين Ernest Boudine في تعريفه للعمارة من خلال تشخيصه للدافع الغريزي الذي دفع الإنسان في التشييد والبناء بغرض الالتجاء والحماية من عداء الطبيعة، لقد اعتدنا التفكير في المبنى كمأوى يعيش فيه الإنسان وكمكتب يعمل فيه، وكمكان مقدس للعبادة وأماكن أخرى للترفيه⁽²⁾، فالإحساس بالالتجاء أمر غريزي وفطري عند الإنسان منذ القدم ولذلك يبدو طبيعياً أن نبني لنحقق الشعور بذلك، وغالبية المباني التي توجد فوق هذه المعمورة توفر

1- نقلاً عن: عبد الستار محمد عثمان، مرجع سابق، ص: 09

2- نقلاً عن: فارس قبيلة المالكي، تاريخ العمارة عبر العصور، ط1، دار المناهج للنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ص13

المأوى تسمى بالعمارة، ويمكن القول أيضاً أن العمارة تشكيل وظيفي يؤدي أغراضاً إنسانية ومتطلبات وظيفية لذلك هي تخضع للمؤثرات حضارية واجتماعية واقتصادية إضافة لعوامل مناخية وطبيعية.⁽¹⁾ وهناك من عرّف العمارة على أنها تكوين فضائي يستجيب لمتطلبات المنفعة والمتانة والجمال والاقتصاد، وهنا تتجلى براعة المعمارى في تحقيق نوع من الانسجام والتوازن بين هذه العناصر الأربعة، فالمنفعة مطلب ينحصر في دور الإيواء والسكن والعمل، أما المتانة فيقصد بها قوة التحمل ضد العوامل الطبيعية، والجمال مطلب قديم قدم الإنسان فهو يسعى دائماً إلى تحقيق أكبر قدر منه بدءاً من أول الكهوف التي سكنها، أما الجانب الاقتصادي فيتمثل في ربح أكبر قدر من أشعة الشمس والتهوية الطبيعية، كل هذه الأمور الأربعة تحلّت بها العمارة الإسلامية التي سجلت بصمتها في مجال البناء، وأنتجت مدناً محصنة من بلاد الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً بطرز معمارية متباينة، تمثلت في الطراز الأموي والعباسي والمصري السوري والمغربي الأندلسي والهندي والإيراني⁽²⁾، وهناك وهي تتميز عن غيرها من العمائر بالجوانب التي تنحصر في مايلي:⁽³⁾

- الجانب الجغرافي: يمكن تعريفها على أنها مجموعة المباني والمنشآت المتواجدة في مدن الإسلام أو تلك المناطق التي كانت تابعة في يوم من الأيام إلى الحكم الإسلامي كالأندلس سواءً بالشرق أو المغرب أي من شبه الجزيرة العربية شرقاً إلى غاية المحيط الأطلسي غرباً.

- الجانب التاريخي: إن تاريخ العمارة الإسلامية يمتد من القرن السابع ميلادي إلى بداية القرن التاسع عشر ميلادي، أي منذ ظهور الإسلام إلى بداية القرن الذي اجتاحت فيه النموذج الغربي مجالات الحياة فإرضاً تصورات السياسية والاقتصادية والفنية.

1- بلحاج معروف، العمارة الإسلامية، ط01، منشورات قرطبة، 2007، الجزائر، ص: 05

2- حسين مؤنس، المساجد، سلسلة عالم الثقافة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981، ص: 182

3- بلحاج طرشاوي، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية من خلال بعض النماذج، أطروحة دكتوراه، قسم

الثقافة الشعبية، 2007، ص: 01

- الجانب الشكلي: تكتسب العمارة الإسلامية أشكالاً وطرزاً تنفرد بها عن باقي الفنون الأخرى من جملة ما يتحلى بها الفن المعماري الإسلامي القباب والمآذن والأواوين والأقواس، وفي نفس السياق هناك بعض المفكرين من يرون أن العمارة الإسلامية هي انعكاس مباشر لعامل البيئة إذ يقول شاخت وُزورت في هذا الموضوع: "إنَّ فن العمارة مرتبط أكثر من غيره من الفنون بالبيئة التي يتعرع فيها وبأهداف ووسائل عينية ملموسة"⁽¹⁾، فالبيئة الصحراوية بدت تأثيراتها جلية على العمارة في مواد البناء المستعملة، وكذا طريقة التصميم التي تساعد على إكساب أكبر قدر من الظل، لذلك يعد العامل البيئي من أهم العوامل التي فرضت نوعاً خاصاً في البناء بجميع الحضارات وليس بالحضارة الإسلامية وحدها⁽²⁾، وتنحصر أهم عناصره في مايلي:

- أشعة الشمس: لقد استطاعت العمارة الإسلامية استغلالها بأسلوب علمي وذلك في جعلها كمصدر لإنارة المسكن والجامع وتلطيف الجو في الأمسيات والليالي الصيفية عبر الصحن الداخلي المكشوف نحو السماء، محتمية في نفس الوقت من العوامل الطبيعية بمواد بناءية توفر مبدأ الانعزال عن المحيط وزيادة سمك السطح والجدران للتحكم في كمية الحرارة المنتقلة من وإلى المبنى.⁽³⁾

- الرطوبة: تعد هي الأخرى من العوامل التي تتحكم في نوعية مواد البناء المستعملة، فإذا قلت نسبتها في الجو عن الحد المناسب والمدة الزمنية المناسبة تأثرت مواد البناء، فجفافها يؤدي لا محالة إلى تشقق وتفتت تركيبها الداخلية، كما أن تفاقم نسبتها يسبب أضراراً جسيمة في مواد البناء كتآكل الطبقة السطحية للجدار وهشاشتها نتيجة ذوبان الأملاح التي عادة ما تكون متواجدة بالأحجار الرسوبية المستعملة في بناء الأساسات وحملها إلى السطح بواسطة الخاصية الشعرية، أين تترسب مكونة طبقة

1- جوزيف شاخت وكليفورد ووزورت، تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري، حسين مؤنس، إحسان صدقي العمدة، ج1 سلسلة

عالم الثقافة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص: 287

2- ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ط01، دار الشروق، القاهرة، 1994، ص: 18

3- المرجع نفسه، ص: 35

تتلف وتشوه الوجه الجمالي للعمائر، من هذا المنطلق حافظ المعماري المسلم على ضمان مستوى معقول للرطوبة داخل العمائر إضافة إلى العامل البيئي، هناك عامل أثر هو الآخر على مورفولوجية العمارة الإسلامية داخلياً وخارجياً، يُعرف باسم العامل الديني، فقد جاءت العمارة الإسلامية وفيه لتعاليم الدين الحنيف الذي يحث المصلين على الاقتراب من الإمام قدر الإمكان لنيل الثواب الأكبر ما دفع بالمعماري المسلم إلى بناء مساجد باستطالة عرضية أي أن العرض جاء أكبر من العمق⁽¹⁾، ضف إلى ذلك التوجه نحو القبلة أرغمه على وضع تجويف بجدار القبلة أطلق عليه اسم المحراب، حسب دارسي اللغات السامية أمثال يعقوب هوروفيتز "Jakob Horowitz" وتيودور نولدكه "Theodor Noedeke" أن اللفظ حميري أي من اللهجات العربية الجنوبية، وقد دخل إلى اليمن إلى الحبشة مع مجيئ النصرانية باسم "Mikrab"، وأصبح يسمى "Mekurab" أي الحنية التي يوضع فيها تمثال القديس.⁽²⁾

ومن هنا يتضح بجلاء أن المعماري المسلم تعامل بحذر وذكاء مع الثقافات التي طفت على السطح في تلك الفترة الزمنية عبر الاحتكاك التجاري أو الفتوحات الإسلامية، إذ كَوَّنوا منها قاعدة انطلاق في البناء والتشييد وأضافوا عليها ميزة خاصة وبصمة جذورها التشريع الإسلامي، لا لشيء إلا للحفاظ على شخصية الدينية في جميع المجالات، ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار العمارة بشكل عام تكوين وظيفي يؤدي أغراض سياسية واجتماعية واقتصادية تخضع لمؤثرات الحضارة التي تنتسب إليها، لهذا انبثقت إلى الوجود عمارة بطرز مختلفة، اندرجت تحتها ثلاثة أنواع أساسية تمثلت في عمارة إسلامية دينية ومدنية وأخرى عسكرية.⁽³⁾

1- بلحاج معروف، العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي مزاب من خلال بعض النماذج، أطروحة دكتوراه دولة تخصص تاريخ

العمارة الإسلامية، قسم علم الآثار، جامعة تلمسان، 2002، ص: 176

2- حسين مؤنس، المساجد، مجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981، ص: 67

3- فارس المالكي قبيلة، مرجع سابق، ص: 15-16

لكن مهما اختلفت فيما بينها من حيث المظهر الخارجي والوظيفة التي تقدمها، فهي تعتبر في الأخير نتاج تراكم خبرات الإنسان في صراعه مع الطبيعة وتعامله مع محيطه، لذلك تمثل رمز التطور الإنساني عبر التاريخ بما تحمله من إبداع ورونق فني أصيل، وهي ذات ثقافة موحدة لانبعائها بأنواعها الثلاث من قاعدة دينية وبيئية واحدة.

4-أنواع المنشآت المعمارية بالمدينة الإسلامية:

تعتبر العمائر أحد أبرز المقومات الشخصية لأي حضارة، إذ تعتبر انعكاساً لمدى التقدم والرقي الذي كان سائداً عبر مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، والحضارة العربية الإسلامية واحدة من تلك الحضارات التي برعت في البناء والتشييد سواءً بالشرق أو بالمغرب، فقد خلّفت عمائر لا زال البعض منها باقياً بطابع ديني ومدني وعسكري.

4-1 العمارة الدينية الإسلامية:

يُقصد بالعمارة الدينية تلك المباني والمنشآت التي شيدت لغرض التعبّد والتقرب لله عزّ وجل، حظيت بتقدير الملوك والسلاطين، فقد كانت أول ما يتم إنجازه عند القيام بوضع حجر أساس أي تجمع سكاني اقتداءً بسنة رسول الله، كما اعتبرت مظهراً من مظاهر الأبهة وقوة ونفوذ الحاكم، فقد وضع فيها المعماري المسلم خالص عبقريته الفنية والمعمارية نزولاً عند أمر السلطان، الشيء الذي مكّنها أن تكون من أهم الميزات التي تحلت بها المدن الإسلامية العتيقة، من أهم أنواعها:

4-1-1 المسجد:

المسجد لغة من الفعل سجد، أي خضع وانتصب، يقال عين ساجدة أي فاترة، ونخلة ساجدة، أي أمالها حملها، والمسجد بكسر الجيم اسم مكان السجود والمسجد بفتحها جبهة الرجل حيث يصيبه نذب السجود والمسجد بكسر الميم الحُمْرة المسجود عليها⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا

1- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مصدر سابق، ص: 747

مَعَ اللَّهِ أَحَدًا⁽¹⁾، قيل هي مواضع السجود من الإنسان: الجبهة والأنف واليدين والركبتين والرجلين⁽²⁾، ولمَّا كان السجود أشرف الأفعال التي تؤدَّى في الصلاة لقرب العبد في تلك اللحظات من خالقه أُشتق اسم المكان منه، فسُمي المَسْجِدَ وليس المَرْكَع، وهناك لفظ الجامع وهو المسجد الكبير الذي تقام فيه صلاة الجمعة والأعياد، وعليه يمكن أن يكون كل جامع مسجداً وليس كل مسجد جامع⁽³⁾، حيث ذكر هشام بن عَمَّار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما افتتح البلدان كاتب ولأته بمصر والبصرة والكوفة أن يتخذوا مسجداً للجماعة وعموماً يُعد المسجد أهم وأول مُنشأة معمارية تُشيد في المدينة الإسلامية إقتداءً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يقدمه من دورٍ ريادي في تكوين الأفراد داخل المدينة العربية، حيث أعمد كأسلوب جديد يتوازي فيه الروحي بالمادي ويتكامل فيه المعنوي بالحسي لتحقيق ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾⁽⁴⁾.

المسجد الجامع هو مركز روحي وثقافي وعلمي وكذا النواة التي يحيط بها باقي العناصر المعمارية المكونة للنسيج العمراني بالمدن العتيقة كالأسواق والحمامات والفنادق والدروب والأحياء، لكن مع توالي فترات الخلافة أخذ يفقد بعضاً من أدواره ومكانته كمركز للنسيج العمراني، إذ تراجعت أهميته مقارنة بعمارة قصر السلطان ودواوينه، حيث صار أمر تخطيطه ثانوياً يلي قصر الخلافة في الأهمية، فغالبا ما كانت أبعاد القصر أكبر من أبعاد المسجد، ربما يرجع ذلك لتغير شخصية الحاكم التي أصبحت مشبعة بروح الغطرسة وميولاته المتجددة وابتعاده عن الجانب الديني، وهو ما أحدث عملية إفراغ للمسجد من روحه وجوهره الديني الذي يطبعه، كمثال عن هذا النوع المعماري جامع القيروان بتونس

1- سورة الجن، الآية 18

2- ابن منظور، مصدر سابق، ص: 1941

3- سعاد ماهر، مساجد السيرة النبوية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1987، ص: 98

4- سورة النور، الآيتان 36-37

الجامع الأموي بدمشق المؤسس من طرف الوليد بن عبد الملك نحو سنة 88هـ/707م والجامع الكبير بمدينة تلمسان الذي وضع أسسه السلطان يوسف بن تاشفين سنة 496هـ/1102م وأبدع في زخرفته نجله علي بن يوسف سنة 530هـ/1136م⁽¹⁾، جامع الكتبية بمراكش وجامع الحمراء بالمغرب المشيد من طرف السلطان الأحمر إبان فترة حكم بني مرين في القرن 8هـ/14م، ومن المساجد التي ألحقت بقصر الحاكم مسجد قصر الحمراء الذي أنشأه السلطان محمد الثالث ملك غرناطة حيث أبدع في بنائه ليصبح آيةً في الفن الإسلامي.

4-1-2 المدارس:

يرجع اشتقاقها اللغوي كما ذكر ابن منظور من الفعل درست الكتاب، أي ذلته بكثرة القراءة حتى خفَّ علي حفظه، وفي حديث عكرمة عن صفة أهل الجنة يقول: "يركبون جنباً ألين مشياً من الفراش المدروس"، أي الموطأ والممهّد، ومنه كذلك المدرّس والمدرّسة.⁽²⁾

أما اصطلاحاً فهي المكان الذي يتم فيه تلقين العلم، ومبادئ الدين وإيواء طلبة العلم، وللمدارس دلالة عن رقي المستوى الحضاري والثقافي الذي بلغته الدول قديماً، وقد برزت المدارس كوحدة معمارية مستقلة بذاتها خلال الربع الثالث من القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشرة ميلادي⁽³⁾، في حين تشير نصوص تاريخية أخرى إلى وجودها بخراسان منذ القرن التاسع الميلادي نفس الأمر يؤكد لوسيان قولفين L.Golvin⁽⁴⁾، ومن جانب آخر يذكر معروف بلحاج عن "أقطاي أصلان أبا" وجود

1-Rachid Bourouiba, *L'art Religieux Musulman en Algérie*, 2^{ème} édition, SNED Algérie, 1983, p: 106

2-ابن منظور، مصدر سابق، ص: 1360

3-عبد العزيز لرح، المدارس الإسلامية دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، مجلة الدراسات الإنسانية، العدد 01، الجزائر 2001، ص: 13

4-Jean-Paul Roux, *Dictionnaire des Arts de L'islam*, Fayard, Paris, 2007, p: 266

أربعة مدارس يرجع تاريخها إلى عهد الغزناوي محمود وهم على التوالي: المدرسة البيهقية والمدرسة السعدية ومدرسة أبي سعد الإستربادي ومدرسة أبي إسحاق الأسفريني وتبقى خصائصهم المعمارية مجهولة لعدم إشارة المصادر التاريخية إلى ذلك كما أسفرت الحفريات الأثرية التي أنجزت بسمرقند عن وجود بقايا أساسات مدرسة الملك إبراهيم الأول الغزناوي تعود لسنة 459هـ/1066م⁽¹⁾، وبالمشرق الإسلامي قام المستنصر بالله ببغداد ببناء مدرسة خاصة سمّاها المدرسة المستنصرية كأول مدرسة مختصة في التعليم هناك، لقد تأخر ظهورها ببلاد المغرب الإسلامي إلى النصف الأول من القرن 7هـ/13م فقد انحصر النشاط التربوي والتعليمي في الكتاتيب⁽²⁾.

4-1-3 الأضرحة:

لغة يُعرّف الضريح أنه شق في وسط القبر، وهو اسم مشتق من الفعل انضرح عن جانبي القبر فصار في وسطه، والضرّاح البيت المعمور⁽³⁾.

أما اصطلاحاً فهو وحدة معمارية دينية يدفن فيها السلاطين والعلماء، ومن الناحية الشرعية بقي الضريح محل جدل قائم بين أهل العلم من رافضٍ وقابلٍ له كمعلم تتوفر فيه سمات الأبهة والهيبة، من ميزاته المعمارية وجود القبّة التي تعكس مدلول الخيمة التي تستعمل من طرف البدو والرحل العرب، وهي ترمز للمالك الخالق عزّ وجل⁽⁴⁾، فيما يُرجع البعض الآخر مدلولها إلى السماء سواء كانت ذات طراز إسلامي أو فارسي، وفي الكثير من الأحيان وجدت أضرحة الأولياء الصالحين بجوار المساجد التي كانوا يترددون عليها، مثل ضريح بن مرزوق الموجود في الزاوية الجنوبية الغربية من الجامع الكبير المرابطي

1- معروف بلحاج، مرجع سابق، ص: 190

2- عبد العزيز الفيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص: 141

3- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مصدر سابق، ص: 970

4- محمد السعيد، ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة في منطقة تلمسان وأبعادها الاجتماعية والنفسية، مطبوعات الكراسك، وهران، 1995، ص: 40

بتلمسان⁽¹⁾، كما وضعت عند أبواب المدن تماشياً مع الاعتقاد الذي كان سائداً أن الولي الصالح يقوم بحراسة المكان.

تجدر الإشارة إلى أن بناء الأضرحة لم يوجد في العصرين الأموي والعباسي، لكن إبان فترة حكم الفاطميين بمصر شهدت انتشاراً واسعاً وبرز نوع جديد عُرف باسم المشهد، ومع مجيء الفترة التي حُكِم فيها صلاح الدين الأيوبي المتشعب بروح السنة النبوية الشريفة سمح ببناؤه على الرغم من تناقضه مع ما جاءت به الشريعة السمحة.⁽²⁾

4-2 العمارة المدنية الإسلامية:

يقصد بالعمارة المدنية كل بناء مخصص للغرض المدني كالمساكن والقصور والحمامات والفنادق... الخ هدف إنشائها هو تلبية الحاجات اليومية التي ترافق الإنسان خلال حياته وقد انتشر هذا النوع المعماري في ربوع العالم الإسلامي وتنوع بين ما هو خاص، يستعمله فقط مالكه كالمساكن، وعام يستعمله جميع الناس كالحمامات، وفي ما يلي تقديم عن نماذجه:

4-2-1 القصور:

تعد القصور من روائع الإبداع الفني المعماري في الحضارة العربية الإسلامية، فبغض النظر عن كونها سكنى الملوك، فقد كانت مكاناً لاستقبال الوفود الزائرة، لذلك تفننوا في بناء قصورهم وزخرفتها بغرض التباهي وإبراز وجهه جمالي تعبيراً عن مظهر القوة على ملكهم، لم يهتم الخلفاء الراشدون بالقصور لاهتمامهم البالغ بعمارة المسجد الجامع، لكن مع بداية العهد الأموي حضي بتقدير الملوك، ومن بين نماذج هذه العمارة قصر المشتى بجنوب عمان المشيد من طرف الوليد بن عبد الملك، وهو مستطيل الشكل مُحاط بأبراج نصف دائرية، وهناك أيضاً قصر الحمراء بغرناطة، فبالرغم من اندثار حضارة المسلمين

1- فائزة مهتاري، أضرحة الأولياء في الغرب الجزائري، دراسة تاريخية ومعمارية من خلال بعض النماذج، أطروحة دكتوراه، قسم

الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2005، ص: 34

2- ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 146

هناك، إلا أن هذه التحفة المعمارية لا تزال شاهدة إلى يومنا هذا على رقي الحضارة العربية الإسلامية في تشييد القصور.⁽¹⁾

4-2-2 المساكن:

المسكن لغة من الفعل سكن سكناً، ومنه السكنى والمسكن وهو المنزل والدار، والسكنى هم أهل الدار، ومنه كذلك السكن وهو الطمأنينة والأمان⁽²⁾، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾⁽³⁾، أي ما تلتجئون إليه، وما تأتمنون به من عوائد الزمن، وهما أصل المسكن.

أما اصطلاحاً فهو الوحدة المعمارية الأساسية المكونة للحي السكني بالنسيج العمراني للمدن العتيقة، مظهره الخارجي موحد بين الفقراء والأغنياء عملاً بمبدأ المساواة بين أفراد المجتمع الواحد الأمر الذي جعلها تشكل وحدة اجتماعية قبل أن تشكل وحدة معمارية، وهي لا تكاد تختلف في تصميمها من الداخل إلا نادراً، ويرجع سبب الاختلاف إلى العامل الجغرافي ونوع مواد بناء، وفيما يخص مظاهر الاتفاق في التصميم الداخلي للمساكن تتجلى في احتوائها على فناء مكشوف تلتف حوله الغرف⁽⁴⁾، عاكساً بذلك المظهر الثقافي والجانب الحضاري العام للأسرة المسلمة، باعتبارها النواة الأساسية المكونة للمدينة ومحور ازدهارها وتنظيمها.⁽⁵⁾

4-2-3 الحمامات:

الحمام بتشديد الميم الوسطى مكان الاغتسال، وهي كلمة مشتقة من الفعل استحجم، أي اغتسل

1- راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ط01، ج01، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2011، ص:666

2- محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مصدر سابق، ص:787

3- سورة النحل، الآية 80

4- عبد الله كامل موسى، الأميون وآثارهم المعمارية، ط1، دار الآفاق العربية، مصر، 2003، ص:207

5- عبد القادر الريجوي، قمم عالمية في تراث الحضارة الإسلامية المعماري والفني، ج2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2000، ص:609

بالحميم، والاستحمام بالماء الساخن هو الأصل ثم صار كل اغتسال استحماماً سواء كان بماء بارد أو ساخن، يعد هذا النوع المعماري ميزة الحضارة الرومانية، فقد تَفَنَّت في تشييده وزخرفته، الأمر الذي لا نلمسه عند العرب، إذ لم يعرفوا هذا النوع المعماري إلا بعد مجيء الإسلام الذي أدرك ما للطهارة من دور مباشر في علاقة المسلم مع ربه مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾⁽¹⁾، فعمد هو الآخر على تشييد الحمامات واعتبرها من مرافق الحياة الحضارية المهمة، لقد ساعدت حالة الترف التي عاشها أموي الأندلس على بروز الحمامات ومن ثم انتشارها بالمدن والبوادي، فقد وضعوا لها مكاناً خاصاً داخل قصورهم ومنذ ذلك الحين أصبحت فناً معمارياً متميزاً لصيقاً بالحضارة الإسلامية، وقد أسندت مهمة مراقبة الحمام إلى المحتسب، إذ كان يشرف بنفسه على نظافة الحمام، ويأمر أصحابها بذلك، كما كان يجبرهم على مراقبة درجة حرارتها، أشترط في بناء الحمامات أن تكون بوسط المدينة ليسهل الوصول إليها وأن تكون ذات حجم متوسط حتى يسهل تسخينها⁽²⁾، ويتكون الحمام الإسلامي على وجه العموم من: مدخل يؤدي إلى ممر مسقف ينتهي إلى غرفة خلع الملابس تجاورها الغرفة الدافئة التي تعتبر بمثابة مكيف هوائي بين الغرفة السابقة والغرفة التي تأتي بعدها المسماة بالغرفة الساخنة مكان الاستحمام، هذا التنظيم المعماري الداخلي يحافظ على صحة المستحم خشية إصابته بالبرد ويحافظ كذلك على حرمة المكان.⁽³⁾

3-4 العمارة العسكرية الإسلامية:

حضي الوضع السياسي والعسكري باهتمام الحكام، باعتباره أساس الملك وعنوان الاستقرار الذي يعود بالنفع على الجانب الاجتماعي والاقتصادي معاً، من هذا المنطلق اهتموا بتشديد عمائر عسكرية تنم عن القوة والمناعة وبراعة الفكر الهندسي المعماري المسلم الذي استعمل كل أنواع مواد البناء

1- سورة البقرة، الآية 22

2- بلحاج طرشاوي، مرجع سابق، ص: 44

3- المرجع نفسه، ص: 45

كالحجارة والتراب المدكوك والآجر، إضافة إلى الخشب والحديد والنحاس، فيما يخص عمق أساسات المباني العسكرية فقد كان يتماشى حسب طبيعة المبنى إن كان سوراً أو برجاً أو حصناً، وتمّ تزويد البعض منها بشرافات، لقد

كان كل ما شُيّد قائماً على عقيدة دينية تولى الاهتمام الشديد للجانب الأمني الذي يُعد القاسم المشترك من حيث الأهمية بين جميع الحضارات الإنسانية، وقد أولى الدين الإسلامي لهذا الجانب عناية أكبر عن بقية المجالات الأخرى التي لا تقل عناية عنها بطبيعة الحال، وذلك لأن خلق السموات والأرض عند الله أهون من قتل نفس مؤمن، من هذا المنطلق تعدّدت العمائر الحربية الإسلامية واختلف فيما بينها من حيث المتانة والارتفاع، ومواد البناء، والتصميم وكذا الموقع، فمنها من تقدّم المدن، ومنها من جاء قريباً منها، مشكلاً بذلك جزءاً لا يتجزأ منها، مثله مثل العمارة الدينية والمدنية⁽¹⁾، ومن أهم أنواعها مايلي:

4-3-1 الحصون:

الحصن جمعه حصون، وهو كل مكان محمي لا يوصل إلى داخله، قد تكون أسباب حصانته طبيعية كالأجام والأنهار، أو صناعية كالأسوار والمتاريس الخشبية والحجرية والترابية⁽²⁾، تعتبر الحصون من أكبر الاستحكامات الحربية، وهي عبارة عن بناء ذي أسوار شاهجة، يحيط بمساحة من الأرض ليحميها من أي اعتداء سواءً من داخل البلاد أو من خارجها، وغالباً ما توجد على قمم الجبال أو فوق هضبة مرتفعة، وقد تكون قريبة من المدينة ولا تتصل بها، وهي على نوعين واحد عبارة عن بناء منفصل قائم بذاته يوجد في الثغور الساحلية وطرق القوافل التجارية والمواقع الإستراتيجية الحساسة المشرفة على

1-عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي، مصر، 2000، ص:24

2-بطرس البستاني، دائرة المعارف، قاموس عام لكل فن ومطلب، مج07، مطبعة المعارف، بيروت، 1883، ص:91

حدود الدولة، أي أنه خط دفاعي متقدم، والآخر عبارة عن بناء متصل على هيئة برج في سور المدينة أو القلعة يراقب الأبواب وأركان السور ويتم من خلاله رمي السهام وصب المواد الحارقة على العدو.⁽¹⁾

4-3-2 القلاع:

أشتق اسم القلعة من الفعل قلع يقلع قلعاً واقتلع وتقلع، أي انتزع الشيء من مكانه قال سيبويه قلعت الشيء أي حولته من موضعه، والقلعة صخرة عظيمة تنقلع عن الجبل صعبة المرتقى وهي الحصن في الجبل.⁽²⁾

أمّا اصطلاحاً هي بناء محصن يُبنى فوق تلة مرتفعة أو جبل عال وتحاط بسور خاص يتصل بالسور الأصلي للمدينة، تصميمها عبارة عن مجموعة من الأبراج ترتبط فيما بينها بسور ولكي تؤدي دورها المنوط بها، يجب أن تتواجد في مكان استراتيجي، وتتضمن قدر كاف من الماء والغذاء لوقت الحصار تحتوي على سورين، سور خارجي يتألف من أبراج وسور داخلي يتكون هو الآخر من أبراج لكن بعدد أقل، ما يميزها أيضاً وجود خندق مائي يفصل بين السورين الداخلي والخارجي.⁽³⁾

4-3-3 الأسوار:

فكرة إحاطة المنشآت والمدن بالأسوار فكرة قديمة وجدت من أيام نينوى و بابل كانوا يُنجزونها عالية لمنع ارتقائها بالسلام، نفس الفكرة دأب على تطبيقها المخطط المسلم في بناءه للمدن⁽⁴⁾، فيإلى جانب اختياره موقعاً حصيناً بطبيعته أحاطها بسور حتى يتكامل العامل الطبيعي مع العامل البشري والحصول

1- محمد عياش، الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان، دراسة تاريخية وأثرية

مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد علم الآثار، جامعة الجزائر، 2005، ص: 27

2- ابن منظور، مصدر سابق، ص: 3723

3- قبيلة فارس المالكي، مرجع سابق، ص: 145

4- بطرس البستاني، مصدر سابق، ص: 91

على حماية أكبر مثل ما شُيد بمدينة البصرة والكوفة والفسطاط⁽¹⁾، إيماناً من مشيدي المدن بأهمية عامل الاستقرار الحضاري في ازدهار المدن، لذلك تعد الأسوار من الميزات الحضارية التي توصل إلى تشييدها الإنسان قديماً⁽²⁾، ولكي يكون السور من الحواجز المنيعة تم بنائه بمادة صلبة إما من مادة الحجر أو مادة التراب المدكوك الذي شاع استخدامه في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط لوفرة مادته الأولى تتكون الأسوار عموماً من ممر علوي لسير جند والمراقبة، والشرفات لقذف السهام.

4-3-4 الأبراج:

الأبراج بناء مرتفع يشرف على مساحة معينة لاستطلاع تحركات العدو، وإرسال إشارات عن طريق إضرام النار، وهو يعتبر من الأدوار الأساسية للأبراج، لذلك لا بد أن يكون بارزاً من أجل زيادة فعاليتها الدفاعية، يربط الجنود المكلفون بالدفاع عن المدينة في الأبراج التي تكون منفصلة عن أسوار المدن أو على مقربة من القلاع أو الحصون أو الأربطة أو القصور، ويمكن أن تكون بمثابة قلعة صغيرة في حالة وجوده بالمدينة الساحلية، إذ يشكل خط دفاع متقدم، لهذا يشكل هذا النوع المعماري العسكري عنصراً دفاعياً مهماً في الحفاظ على أمن وسلامة المدينة الإسلامية.

يشتمل البرج على الشرفات الموزعة في أعلاه لكي تحمي الجند من ضربات العدو وفتحات ضيقة تسمى بالمزاغل وهي على نوعين مستطيلة عمودياً لإطلاق الرماح والسهام وعرضية لصب السوائل ومخازن المؤن والأسلحة، وهو يتكون من جزأين، جزء سفلي مصمّم صلب وجزء علوي يشتمل على وسائل الدفاع المختلفة كالشرفات والمزاغل، أما أشكالها فمنها الرباعي والسداسي والثماني والدائري هذان الأخيران يعدان الأحسن في مهمة الدفاع لتوفيرهما على مجال رؤية أكبر في الحراسة.⁽³⁾

1-Kheladi Mokhtar, *Urbanisme et Systèmes Sociaux, La planification Urbaine en Algérie*, office des publications universitaires, Alger, 1983, p:51

2-عبد الستار محمد عثمان، مرجع سابق، ص: 121

3-محمد عياش، مرجع سابق، ص: 32

خلاصة الفصل:

في الأخير يمكن القول أن ما جاء في هذا الفصل التمهيدي يرسخ فكرة الأصالة العمرانية ومبادئها التي حدّدت المعالم العمائرية في المدن الإسلامية وهو يقدّم ما كان عليه التصميم العمراني حتى نتّمكن من الوقوف على أهم الشروخ الحاصلة في كيانه بفعل ما انبثق عن التنمية الحضرية، فدراسة ذلك التصميم بالمدين الإسلامية والإطلاع على جوانب فنّه المعماري يمكّن من تجسيد صورة واضحة المعالم عن المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الذي توصل إلى تحقيقه الأسلاف قديماً، ولعلّ أهم ما تبرزه هو أن الحضارة العربية الإسلامية نمت على أسس متينة شكلت بصمة وشخصيةً انفردت بها عن باقي الحضارات الأخرى، لقد نشأ فيها المعماري في أول الأمر بسيطاً ثم بدأ في التطور إلى أن وصل إلى أرقى صورة وأصبح هو الآخر فناً قائماً بذاته، وتجنّس في عمائر مختلفة الأنواع تحقيقاً لجميع متطلبات الحياة فمنه ما هوديني ومدني وعسكري، كل نوع معماري انطوت تحته عدة نماذج، فالعمارة الدينية تمثلت في المسجد الجامع الذي شكّل قلب النواة المركزية بالنسيج العمراني سواء بالمشرق أو المغرب الإسلامي المدارس، الأضرحة... الخ، أما العمارة المدنية فجاءت بين ما هو خاص وعام، فتمثلت في القصور والمسكن والحمامات والفنادق والبيمارستان... الخ، وبالنسبة للعمارة العسكرية فتمثلت في الحصون، الأبراج الأسوار، الأربطة، الأبواب.

ناهيك عن هذا التنوع المعماري قُسم الحيز المكاني بالمدين العتيقة إلى ثلاثة أحياء رئيسية تجمع بين ما يحتاجه المسلم من أمور الآخرة ومتطلبات الدنيا تتمثل في مايلي: النواة المركزية يليه الفضاء التجاري ثم الفضاء السكني، مستندة على قواعد فقهية، ومن بين تلك القواعد، قاعدة لا ضرر ولا ضرار وقاعدة إحياء الأرض وقاعدة حيازة الضرر ما جعل المدينة ككل أقرب أن تكون داراً واحدة، كل ذلك يُظهر بجلاء أن المدينة الإسلامية أعقد نمط عمراني توصلت عبقرية الإنسان إلى إنتاجها وأن العمارة كفن لا بد أن تتوافق مع الضوابط الشرعية لإحداث تكامل في النسيج العمراني، وبناء علاقات إنسانية كالتعاون والتراحم وحسن الجوار، والإحسان، هذه المعاني التي لم تجد لها مكاناً في التخطيط العمراني الحديث.

الباب الأول

الإطار الجغرافي والتاريخي والأثري لمدينة تلمسان وندرومة وهنين

الفصل الأول: اللوحة الجغرافية والتاريخية لمدينة تلمسان وندرومة وهنين.

الفصل الثاني: نبذة عن التراث المعماري والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان.

الفصل الثالث: نبذة عن التراث المعماري والمواقع الأثرية بمدينة ندرومة

وهنين.

الفصل الأول

اللمحة الجغرافية والتاريخية

1-اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة تلمسان.

1-1اللمحة الجغرافية.

1-2اللمحة التاريخية.

2-اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة ندرومة.

1-2اللمحة الجغرافية.

2-2 اللمحة التاريخية.

3-اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة هنين.

1-3اللمحة الجغرافية.

2-3 اللمحة التاريخية.

تمهيد:

تمتلك منطقة تلمسان تاريخاً عميقاً وإراثاً حضارياً متنوعاً يعود إلى فترات مختلفة، فهناك ما يعود لفترة ما قبل التاريخ كالمغارة المتواجدة بالقرب من مسجد سيدي الحلوي بمدينة تلمسان وموقع المويح بالقرب من مدينة مغنية وموقع تيرني بالقرب من مدينة تلمسان وموقع مغارة عين أزوا بنواحي مدينة الرمشي، تحتوي في مجملها على بقايا آدمية وقطع حجرية وحيوانية⁽¹⁾، تدل دلالة واضحة عن استقرار الإنسان بمنطقة تلمسان فيما قبل التاريخ ثم تعاقبت عليها فترات تاريخية كالفترة الفينيقية والرومانية فبالقرب من أرشقول تم العثور على مقبرة فينيقية ومجموعة من الفوانيس لوضع الشمع وحلي، وبمدينة تلمسان وجدت محطات رومانية تلمسان كانت تسمى بوماريا، هناك البعض الأحجار تعود لذلك المكان تحمل كتابات لاتينية متواجدة بمتحف المدينة، وبعضها الآخر استعمل في بناء الجزء السفلي لمئذنة أغادير⁽²⁾، استقر أيضاً الرومان بمدينة أولاد الميمون التي كانت تسمى في تلك الفترة بألتافا، عُثر فيها هي الأخرى على جرار ضخمة أستعملت لحفظ الحبوب ونقوش حجرية رسمية وتذكارية.⁽³⁾

ثم شهدت تمركز دول إسلامية بدءاً من دولة الأدارسة ثم الموحدون والمرابطون والمرينيين لفترة قصيرة والزيايين، هذه الأخيرة التي عرفت فيها المنطقة تقدماً ملحوظاً، لقد برزت إلى الوجود في هذه المرحلة ثلاث مدن وهي مدينة تلمسان باعتبارها كانت العاصمة السياسية والاقتصادية للدولة الزيانية ومدينة ندرومة التي تواجدت هي الأخرى في موقع استراتيجي، ومدينة هنين لتواجدها على الساحل وامتلاكها ميناءً تجارياً عاد عليها بالنفع، أنظر الخريطة رقم (01)، ومما لا شك فيه أن هذه المزايا أكسبتها رقياً معمارياً واجتماعياً وثقافياً مقارنة بمدن الأخرى، لهذا كله أردت تخصيص هذا الفصل لتقديم لمحة

1- سيدي محمد نقادي، براهيم نصر الدين، تلمسان الذاكرة، ط2، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص: 18

2- المرجع نفسه، ص: 22-25

3- لخضر فاضل، ألتافا الرومانية (أولاد ميمون) في نهاية التاريخ القديم، مجلة منبر التراث الأثري، العدد 01، مخبر التراث الأثري و تميمه، جامعة تلمسان، 2012، ص: 203

تاريخية وجغرافية عن هذه المدن الثلاث بمنطقة تلمسان.

1-اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة تلمسان:

تعتبر مدينة تلمسان إحدى أهم حواضر المغرب الأوسط تراثاً، لم يكن لها أن تصل إلى ذلك محض صدفة، إنما مما تجمّع لها من موقع استراتيجي، لقد أصبحت من خلاله نقطة التقاء الثقافات الوافدة من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب عبر ما يأتيها من علماء وقوافل تجارية، ضف إلى ذلك اهتمام سلاطينها بالعمارة جعل منها حاضرة مرموقة بين حواضر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

1-1 اللمحة الجغرافية:

اكتسبت مدينة تلمسان مكانة مرموقة بين مصف مدن المشرق والمغرب الإسلامي، ذلك ما تؤكده البقايا المادية، وما كُتب عنها مثل ما ذكره صاحب القرطاس عمّا قام به الإمام إدريس حينما دخل أغادير، وما كان رد فعل الخليفة العباسي قائلاً "...اغتمّ لذلك غمّاً شديداً فبعث إلى وزيره... فاستشاره وقال له إنه ولد علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت النبي صلّى الله عليه وسلّم وقد قوى سلطانه وفتح مدينة تلمسان... ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار..."⁽¹⁾، هذا ما يؤكد أهمية موقعها عند السلاطين.

1-1-1 الموقع:

ساعد الموقع الجغرافي الاستراتيجي مدينة تلمسان أن تكون منذ العصر الوسيط من أهم حواضر المغرب الإسلامي وعاصمة المغرب الأوسط لأكثر من ثلاثة قرون، تتمركز هذه المدينة في الجهة الشمالية الغربية من الجزائر عند خط طول 1° و 33 دقيقة غرباً، ودائرة عرض 33° و 53 دقيقة شمالاً وترتفع عن

1-أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص: 21-22

سطح البحر بجوالي 850 متر⁽¹⁾، وحيالها تبلغ مساحتها الاجمالية حوالي 9061 كم²⁽²⁾، أما عدد سكانها الكلي فقد قُدِّر في آخر إحصاء أنجز سنة 2008 بـ 140158.⁽³⁾

ويبدو أن قيام دولة بني عبد الواد يغمراسن بن زيان واتخاذه تلمسان عاصمة له لا يرجع إلى عبقرية منشئها، بقدر ما يرجع إلى الحظ الذي ساقهم إلى الموقع المتميز اقتداءً بالمرابطين والموحدين من بعدهم، وطول تاريخ بني عبد الواد الذي قارب الثلاثة قرون لا يرجع كذلك إلى صلابة بنيان الأسرة التي وضعت أسس الدولة ومن أيدها من القبائل الزناتية فقط، إنما يرجع إلى حصانة الموقع وقدرته على مقاومة عوامل الانهيار، إذ تتبوأ موقعاً وعرأ يحكم الطريق القادم من الصحراء إلى البحر⁽⁴⁾، وقد تحدّث يحيى بن خلدون عن هذا الموقع أثناء وصفه لتلمسان بقوله: "...مدينة عريقة في التمدن لدنة الهواء عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت سفح جبل عروساً منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين بها للملك قصورا زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زحرفت عروشها..."⁽⁵⁾.

وليومنا هذا لا تزال مدينة تلمسان ذات مكانة مرموقة بموقعها بين المدن، إذ تطل على سهل الحنايا الذي يسمح لهواء البحر المنعش الولوج إلى داخلها مُخفّضا بذلك درجة الحرارة وجالباً للسحب الممطرة شتاءً، وهو ما ذكره بن مرزوق وهو يتغنى بجودة موقعها ومناخها قائلاً:

1-www.Google Earthe.com

2-محمد الهادي لعروق وسمير بوريمة، أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى، (دت)، ص: 33

3-نقلاً عن بلدية تلمسان مكتب الإحصاء

4-ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية لتلمسان، تقديم وتحقيق هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2001
ص: 15

5-يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج01، مطبعة بيبير بونطانا الشرقية، الجزائر، 1903، ص:
10-09

يا عاذلي كن عاذري في حبها* يكفيك منها ماؤها وهوأها".⁽¹⁾

كما عاد موقعها عليها بالنفع في المجال التجاري، إذ أصبحت بموقعها الاستراتيجي نقطة التقاء التجار، لعرض سلعهم، وممر عبور للقوافل التجارية من الشمال نحو الجنوب ومن الشرق نحو الغرب، وقد تضافرت مجموعة من العوامل جعلت هذه المدينة قبلة الخاصة والعامّة من الناس، ولعل أهم تلك العوامل توفرها على الماء والتربة الخصبة ذات المنبت الكريم، إضافة إلى الجانب الأمني الذي تتميز به كون موقعها يعتبر بحق حصناً طبيعياً، يحتمي به أهلها من الغزاة كل ذلك جعلها محل الاستيطان البشري منذ أمد بعيد، إذ تعاقبت عليها عدّة حضارات.

1-1-2 التضاريس:

تحضن مدينة تلمسان موقعا استراتيجيا ساعدها لأن تكون دار ملك ومحل نزول العلماء والتجار لذلك كانت المدينة التي تنافس عليها الملوك قديما، إذ شهدت في فترة من فترات التاريخ تجمّع عاصمتين بنفس الزمان والمكان، الأولى مدينة المنصورة العاصمة الثانية للمرينيين بعد مدينة فاس والثانية مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، لقد جعلت الخصائص الطبيعية من مدينة تلمسان مركزاً سياسياً وتجارياً مشهوراً استناداً لما ذكره ابن سعيد المغربي صاحب كتاب الجغرافية قائلاً: "...وتقع تلمسان المشهورة... وهي الآن قاعدة بني عبد الواد من زناتة ومنها تحمل ثياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب...".⁽²⁾

تشغل مدينة تلمسان حوضاً داخلياً يمتد بين البحر الأبيض المتوسط والسهول المرتفعة الإستبسية تفصلها عن البحر سلاسل جبلية ساحلية تمتد من الغرب إلى الشرق، وفيما يخص الجانب الجيولوجي

1- نقلاً عن: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مج 05، دار صادر، بيروت، 1998، ص: 433

2- أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط 01، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1970، ص: 14

تكون من صخور جيرية تعود إلى العصر الجوراسي من الزمن الثاني⁽¹⁾، من خصائصها تجميع المياه في جيوب جوفية في باطن الأرض، وتشرف على تلمسان هضبة لآلة ستي التي يعتبرها الجيولوجيون أكبر خزان ماء بهذه الناحية وهي توفر ستار دفاعي أمني طبيعي يحمي ظهر المدينة من الخلف إذ يستطيع الواقف بها رصد جميع التحركات داخل المدينة وخارجها.⁽²⁾

1-1-3 المناخ:

مناخها فهو متوسطي ممطر ودافئ شتاءً وحارٌ صيفاً، لكنه معتدل في العموم بحكم تواجدها على مقربة من سواحل البحر الأبيض المتوسط، إذ تقابله مباشرة من جهة الشمال وتتميز بغطاء نباتي متنوع بين أشجار الزيتون والصنوبر والتين والتوت البري والخروب، أما تربتها فهي منذ القدم كما وُصفت من طرف الجغرافيين كريمة المنبت خصبة سهلة الزراعة تؤمّن الاحتياجات الغذائية لسكان مدينة تلمسان من قمح وشعير.

1-2 الللمحة التاريخية:

تلمسان مدينة قلعية، تعاقبت عليها عدّة دول خلّفت عدّة مآثر معمارية تعكس مستواها الحضاري الذي عاشته آنذاك في عدّة مجالات سواء اقتصادية أو سياسية وتعكس مدى ملامتها للعيش.

1-2-1 أصل التسمية:

في الفترة التي استقر فيها الرومان بمدينة تلمسان لُقبت بِبوماريا Pomarius وهي كلمة لاتنية تعني بستان الفواكه⁽³⁾، ما يؤكد أن المدينة كانت تتوفر منذ القدم على مقومات طبيعية جعلتها مطمع العديد من السلاطين والملوك لذلك اختارها الرومان لتكون نقطة مراقبة للمناطق التي احتلوها بالقرب منها.⁽⁴⁾

1- محمد الهادي لعروق وسمير بوريمة، مرجع سابق، ص: 12

2- سيدي محمد نقادي، براهيم نصر الدين، مرجع سابق، ص: 32

3- Pélis Gaffiot, **Le Grand Gaffiot, Dictionnaire Latin Français**, revue et augmentée par Pierre Flobert, Hachette livre, Paris, 2000, p: 1212

وفيما يخص هذا الاسم لم يرد ذكره في مؤلفات المسلمين الأوائل ولا حتى عند المؤرخين الرومان ما عدا جدول الأساقفة بكنيسة قرطاجة الذي ذكر أسقفية باماريانسييس أي نسبة لبوماريا⁽²⁾، وتبقى الشواهد المادية المرجع الوحيد الذي يشير إلى وجود الرومان بها، وتتمثل في بقايا من الجزء السفلي لجدار من الحجارة المشدبة، وأيضاً لجزء السفلي من بدن مئذنة أغادير، إضافة إلى أحجار جنائزية مصقولة وجدت بشرق أغادير⁽³⁾، بعدما تقلص نفوذ الرومان والوندال والبيزنطيين في إفريقية استتب الأمر للبربر، ومع مجيء الفتح الإسلامي ظهر الاسم الجديد وهو أغادير، باللهجة المحلية معناه الحصن أو الصخرة المنيعَة أوجدار المدينة، هناك من ربط هذا الجدار بما ورد بالقرآن الكريم في سورة الكهف ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾⁽⁴⁾، أي أن الجدار الذي وصل إليه سيدنا موسى والخضر عليهما السلام هو بمدينة أغادير⁽⁵⁾، وقد تحدّث عبد الرحمن بن خلدون عن هذه الحادثة مستبعداً إياها باستهجان قائلاً "... أن موسى عليه السّلام لم يفارق المشرق إلى المغرب، وبنو إسرائيل لم يبلغ ملكهم عما وراءها..."⁽⁶⁾، تميزت مدينة أغادير قديماً بتجمع عمرايين معتبر ونشاط تجاري متميز من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى والأندلس وبلاد السودان انعكس كل ذلك على رقي مجالها العمراني.⁽¹⁾

1-Augustin Bernard, **En Oranie**, Société de Geographie et d'archéologie de la Province d'Oran, Tome 21, imprimerie typographique et lithographique L. Fouque, 1901, Oran, p:277

2-نقادي سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 11

3-Deloum Said, **Essai de Synthèse des Etudes Historiques et Archéologiques dans la région de Tlemcen**, In (R) Minbar ET-tourath EL-etheri, n°1, réalisée par laboratoire: Patrimoine Archéologique et sa valorisation, Algérie, 2012, p:20

4-سورة الكهف، الآية 81

5-يحي بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص: 15

6-عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق سهيل زكار، ج 07، دار الفكر، بيروت، 2000، ص: 102

بقي الاسم ساري المفعول إلى أن دخل يوسف بن تاشفين المدينة، واختط بغيرها معسكراً أصبح نواة لمدينة اسمها تاجرات والتي تعني: المحلة أو المعسكر المحصن، حسب ما أورده يحيى بن خلدون قائلاً: "... تعرف بتجرات بناها ملك لمتونة يوسف بن تاشفين في حدود اثنين وستين وأربع مائة بمكان محلته فلذلك سميت بتاجرات فإنه اسم المحلة بلسان زناتة...".⁽²⁾

بعد ذلك سُميت المدينة بتلمسان وهو الاسم الذي لازالت تنقلده لحد الساعة، وفي معناه أقاويل إذ ذكر يحيى بن خلدون معنيين، الأول ما رواه عن أستاذه أبي عبد الله الأبلبي⁽³⁾ قائلاً "... تسمى بلغة البربر تَلْمَسَانُ كَلِمَةً مُرَكَّبَةً مِنْ "تَلْمَ" ومعناه تجمع و"سَانُ" معناه اثنان أي الصحراء والتل... "أي تجمع بين التل والصحراء، أما الثاني ذكره قائلاً: "... ويقال أيضا تلشان وهو أيضا مركب من "تِل" ومعناه: بَالٌ وَ"شَانٌ" أي لها شأن عظيم، وهي مدينة عريقة في التمدن..."⁽⁴⁾، وإلى جانب يحيى بن خلدون ذكر ياقوت الحموي أن تلمسان اسم لمدينتين يجمعهما مكان واحد معبراً عن ذلك بقوله: "... تلمسان ... وبعضه يقول تمنسان بالنون عوض اللام بالمغرب وهما مدينتان متجاورتا مسورتان بينهما رمية حجر إحداهما قديمة والأخرى حديثة اختطها المثلثون ملوك المغرب واسمها تافرت يسكنها الجند... واسم القديمة أغادير..."⁽⁵⁾، نفس الأمر تحدّث عنه البغدادي في كتابه مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة

1- محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 ص: 07

2- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 21

3- عبد الله الأبلبي: تتلمذ على يدي الشيخين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام ثم ارتحل إلى العراق، بعد رجوعه إلى تلمسان استخدمه السلطان أبو حمو في قيادة بني راشد، لكنه تخلى عن ذلك الأمر وانصرف للعلم، وقد قال عنه تلميذه يحيى بن خلدون إنني لا أعرف مثله في العلوم العقلية بأسرها بالمغرب وإفريقية، توفي بمدينة فاس سنة 757هـ/1357م، ينظر: يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 57

4- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 09

5- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 02 دار صادر، بيروت، 1977، ص: 44

والبقاع أي أن اسمها تلمسان أو تلمسان.⁽¹⁾

وهناك عدد من المؤلفين العرب الذين تناولوا ذكر اسم المدينة وأطلقوا عليها اسم تلمسان، وذلك قبل العهد المرابطي، أي قبل مجيء المرابطين وبنائهم لتاجرات، ومن بينهم اليعقوبي⁽²⁾ الذي عاش خلال القرن الثالث هجري الموافق للقرن التاسع ميلادي في مؤلفه البلدان قائلاً: "... ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تلمسان وعليها سور حجارة وخلفه سور حجارة، وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة..."⁽³⁾، نفس الأمر ذكره أبو عبيد الله البكري⁽⁴⁾ المتوفي سنة 487هـ قائلاً: "... وهذه تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ولها مساجد... وهي دار مملكة زناتة..."⁽⁵⁾

كل هذه الأوصاف تؤكد ما كان للمدينة من مستوى حضاري، يعكس مدى براعة معماريها في الفن المعماري وأيضاً مدى تشبثهم بالعبقيرة الإسلامية.

1-2-2 أهم الفترات التاريخية التي مرّت بها مدينة تلمسان:

1- صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، مرآصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد الجاوي، مج 01، ط 01، دار الجيل، بيروت، 1992، ص: 272

2- اليعقوبي هو أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب واضح، على الرغم من أنه بغدادي الأصل إلا أنه أمضى معظم حياته بمصر والمغرب، لا يُعرف تاريخ ولادته، أما وفاته فكانت سنة 284هـ/897م، أنظر ياسر إبراهيم الجعفري، اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ص: 46

3- أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح اليعقوبي، البلدان، تحقيق محمد أمين ضناوي، ط 01، دار الكتب العلمية، لبنان، 2002 ص: 196

4- أبو عبيد الله البكري هو عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي وُلد بالقرب من إشبيلية اختلفت الآراء في تاريخ ولادته، توفي بقرطبة سنة 487هـ/1094م بقرطبة، أنظر: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط 02، مكتبة مدبولي القاهرة، 1986، ص: 115

5- أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (دت)، ص: 76

تتوفر مدينة تلمسان على مجموعة من الخصائص تتمثل في جودة الموقع والماء والمناخ جعلتها مكاناً مغرباً للاستيطان من قبل السلاطين والملوك قديماً، إذ مرّت بها عدة محطات تاريخية نوجز عرضها على النحو الآتي:

➤ تلمسان في الفترة الرومانية:

روما اسم لأعظم الإمبراطوريات التي فرضت كيانها التاريخ، في خطوة منها لاكتساب أكبر رقعة ولامتلك الطرق الرئيسية للتجارة العالمية، إذ اختطت طريقتين من قرطاجة إلى طنجة، الأولى تخترق التل والثانية تعرج على وارجلان وتتلاقى مع الأولى في الممر الوحيد في ذلك الوقت بين المغربين الأوسط والأقصى وهو بالناحية التي توجد فيها قبائل زناته، اضطر الرومان أن يختار في هذه الأخيرة أحسن مكان لإقامة حصن كمعسكر للجند يُؤمن ويحمي الطريق التجاري من هجوم القبائل على قوافل تجارته واختار لها اسم بوماريا كما اعتنى بتشيد بعض المنشآت بداخلها فلم تكن معسكراً فحسب وفقاً لما تشير إليه بعض الكتابات التي وجدت منقوشة في الأحجار المشيدة للأسوار، وتشير إلى الكتابة الموجودة على أسطوانة بمقبرة اليهود أن بوماريا في تلك الفترة الزمنية صارت مدينة كبقية المدن الرومانية.⁽¹⁾

➤ مدينة تلمسان في الفترة الوندالية:

اسم الوندال مشتق من اسم قرية سويدية في أوبلاند تدعى فاندال "Vendel" وهي موطنهم الأصلي⁽²⁾، بعدما اضمحل نفوذ الرومان وبدأ يتوارى في مستعمراته شيئاً فشيئاً، استغل الوندال ذلك وقام جنسريق باجتياز مضيق جبل طارق رفقة كامل شعبه المقدر بـ 80 ألف، من بينهم 50 ألف جندي باتجاه مدينة طنجة المغربية وألتافا "Altava" وأولاد الميمون حالياً، ثم مرّ ببوماريا "Pomaria" تلمسان باعتبارها كانت محطة رومانية مهمة.⁽¹⁾

➤ مدينة تلمسان في الفترة البيزنطية:

1-Deloum Said, Op.cit,p:20

2-محمد الهادي حارش، التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992، ص: 233

أراد البيزنطيون استرداد مستعمرات الرومان من الونداليين بإفريقية، ووضع حدّاً لتوسعهم فنشب صراع حربي بينهم، ومع مساعدة أهالي المنطقة للبيزنطيين استتب الأمر في الأخير للبيزنطيين وبسطوا نفوذهم عليها بما في ذلك مدينة تلمسان، ومع مرور الوقت وباسترساخ أقدامهم استصدروا مجموعة من القوانين التي أزعجت أهالي المنطقة مما أدّى إلى ظهور صراع مرير شاركت فيه قبائل زناتة وسكان مدينة تلمسان بقي الأمر على حاله إلى أن ظهر دين الإسلام في شبه الجزيرة العربية بمبعث محمد صلى الله عليه وسلّم وبدأت الفتوحات الإسلامية تنتشر في أنحاء العالم إلى أن وصل بها المطاف إلى شمال إفريقية.⁽²⁾

➤ مدينة تلمسان تحت الحكم الأموي:

كبقية سكان المغرب الإسلامي ضاق أهل مدينة أغادير ذرعاً بالأسلوب الذي استعمله بنو أمية في تعاملهم معهم إذ طبقوا نماذج من الحكم العشائري المختلط بالعنصرية الأمر الذي أدّى إلى قيام ثورات، اتهمهم فيها بنو أمية بالرّدة، كثيراً ما حرم الولاة المجاهدين المغاربة من الغنائم، التي تُوزع عادة على الفاتحين، كل ذلك كان محفزاً لسكان المغرب الإسلامي لمناصرة فرق سياسية-دينية والانتفاف حولها قصد بناء كيانات مستقلة عن البلاط الدمشقي.⁽³⁾

➤ مدينة تلمسان والمذهب الخارجي الصفري:

اختار حبيب بن نافع الفهري مدينة أغادير للإقامة فيها، وذلك مع نهاية عهد الدولة الأموية وتولى كلثوم بن عياض ولاية القيروان، طالب أهالي أغادير من حبيب بن نافع التوسط لدى بن عياض نظراً لمكانته وحسن شرفه، لكن ردّ ذلك الوالي كان شنيعاً إذ هاجم فجأة أغادير، فقام الأهالي بالبحث عن شخص ينجيهم من ظلم الولاة وعملائهم، من الشخصيات التي بدأ يعلوا نجمها في هذه الفترة أبو قرّة اليفرني صاحب المذهب الخارجي الصفري، الذي التف حوله الأنصار وجعلوه أميراً عليهم

3- محمد الهادي حارش، مرجع سابق، ص: 293-240

2- محمد بن عمرو الطمار، مرجع سابق، ص: 12-13

2- سيدي محمد نقادي، براهامي نصر الدين، مرجع سابق، ص: 48

لتنطوي تحت زعامته أغادير وتنسلخ عن الدولة الأموية الممتدة من الخليج شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً عام 124هـ/749م، لم تُعمر هذه الإمارة طويلاً، فانزلق الحكم لصالح مغراوة أصحاب المذهب السنّي وهم من قدّموا فيما بعد مفاتيح المدينة لإدريس الأول الذي أتى إلى المغرب القصي فاراً من قبضة الخليفة العباسي.⁽¹⁾

➤ مدينة تلمسان في الفترة الإدريسية:

بعد أن وصل إدريس الأول من المشرق فاراً من المكيدة، نزل على أمير أوزيّة، نحو ستة أشهر تمكن من جمع القبائل حوله، إذ بايعوه بالإمامة ونشر الإسلام في المناطق التي لم يكن قد وصلها بعد أن كوّن جيشاً قوياً غزا به من القبائل التي بقيت على دين النصرانية واليهودية والمجوسية وفي عام 174هـ/789م غزا أغادير بالمغرب الأوسط، ضاربا أعناق من كان بها من مغراوة وبني يفرن الخوارج، تمكّن من الدخول إليها وبني بها مسجداً ثم جاء من بعد موته ابنه إدريس الثاني الذي جدّد بناء المسجد كما تدل عليه الكتابة الموجودة بالمنبر، جاء فيها "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن حسن الحسن المثنى بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذلك في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة" ثم رجع إلى فاس تاركاً عليها واليا من بني عمّه.⁽²⁾

لقد شكّل هذا الأخير خطراً على الحكم العباسي، لأن نجاحه بالمغرب سيكون له صدئ قوي بالمشرق، وبإمكانه التأثير في مقاليد الحكم، في حين أنهم لم يتخوفوا من المذهب الخارجي الذي كان سائداً قبله، لأنه مهما بلغ من القوة، لم تكن له نية في الانتقال إلى المشرق باعتباره يتكون من عصبية قبلية لا شأن لها بالبلاط الحاكم، إضافة إلى أهمية الموقع الجيد، الذي يتميز به المغرب الإسلامي عامةً وأغادير خاصةً إذ تحتضن تجمعاً سكانياً معتبراً كما أنها نقطة تجارية تربط بين الشرق والغرب، لذلك

1- سيدي محمد نقادي، براهامي نصر الدين، مرجع سابق، ص: 49

2- علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط02، المطبعة الملكية

الرباط، 1991، ص: 27 أنظر كذلك: عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ص: 102

خطت الدولة العباسية للاغتيال إدريس الأول، حتى تدخل المنطقة في متهات تسهلت انطوائها تحت حكمهم.

➤ مدينة تلمسان والحكم الأموي بالأندلس:

مرّ بأغادير أحداث سياسية مضطربة، تمثلت في الحكم المطبق من طرف الولاة والنظام شبه الشورى في المذهب الخارجي الصفري، ليعقبه بعد ذلك الحكم الوراثي في فترة الأدارسة ثم السليمانيين ثم انطوت تحت حكم الشيعة الإسماعيلية، المجال الاجتماعي عرف اضطرابات تمثلت في الغزو والتقتيل والنزوح البشري، كما ميز هذه الفترة الزمنية قدوم العالم السني أبونصر الداودي الذي يُعد أول شارحٍ لصحيح البخاري ومن أكبر العلماء بالمغرب الإسلامي، بقيت أغادير بين النزعة الأموية الأندلسية، وبين النزعة الفاطمية إلى أن ظهر على المنطقة تيار جديد، وهو التيار المرابطي السائر الذي بدأت بوادره على يد عبد الله بن ياسين ثم تزعمهم يوسف بن أبي تاشفين.⁽¹⁾

➤ مدينة تلمسان في الفترة المرابطية:

المرابطون هم جماعة اعتزلت في رباط عبد الله بن ياسين، ليتفقهوا في أمور الدين على المذهب المالكي ثم بدأت ركائز دولتهم تظهر للعيان بعد مجيء يوسف بن تاشفين الذي أمر بضرب السكة باسمه وحذف اسم الخليفة العباسي الذي كان يضرب مع الأمير أبي بكر بن عمران⁽²⁾، هذا الأخير الذي عمل على توسعة رقعة الدولة المرابطية، بعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف بن تاشفين توسعه نحو الشرق لفتح أغادير، هناك اصطدم مع الجيش الذي قيده بن يعلى المغراوي، وتمكن من أسر هذا الأخير وقتله⁽³⁾، شكّل هذا الحدث نقطة تغير في النواة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت موجودة

1- محمد بن عمرو الطمار، مرجع سابق، ص: 51

2- علي محمد الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ط02، دار المعرفة، بيروت، 2009
ص: 160-161

3- علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص: 72

وذلك لتحول مقر الحكم من مدينة أغادير إلى تاجرات المرابطية التي لم تكن تبعد عنها كثيراً.

➤ مدينة تلمسان في الفترة الموحدية:

قامت دولة الموحدين على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت زعامة بن تومرت، خلفه بعد موته عبد المؤمن بن علي الذي يعود مسقط رأسه إلى قبيلة كوميه بجبل تاجرة قرب مدينة هنين، استطاع التغلب على المرابطين والاستيلاء على عاصمتهم مراكش وبعد أن تعرضت مدينة تلمسان للتهديم عقب احتلال عبد المؤمن بن علي لها إذ كانت معاملته قاسية جداً على سكان تلمسان لمعاقبتهم على استعصاءها عليه، أعاد بنائها حسب ما أورده عبد الرحمن بن خلدون قائلاً "... ثم راجع الناس رأيه فيها وندب الناس إلى عمرانها وجمع الأيدي على رمّ ما تتلّم من أسوارها..."، كما ذكر أنها عاشت حياة مزدهرة في عهد الموحدين قائلاً "... وحشد الناس إلى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها..."⁽¹⁾، لقد أقام الموحدون بالقصر الذي شيّده المرابطون بالقرب من الجامع بعد أن جدّدوه هو الآخر⁽²⁾، تميزت مبانيهم بالمتانة والصلابة لمجابهة الأخطار التي كانت تحدق بهم، خاصة مع بروز خطر بني غانية واستيلائهم على عدد من مدن المغرب الأوسط والأدنى، معززاً بذلك علاقتها مع دول الضفة الأخرى.

➤ مدينة تلمسان في الفترة الزيانية:

بعد الخدمات الجليلة التي قدمتها قبيلة بني زيان وخاصة منهم بنو عبد الواد للموحدين، أقطعوها أرضاً فسيحة في المغرب الأوسط، ومع بداية ضعف الموحدين أعلنت القبيلة استقلالها جاعلة من تلمسان مقراً لها⁽³⁾، يعتبر يغمراسن بن زيان مؤسس هذه الدولة، إذ قال عبد الرحمن بن خلدون في هذا الشأن "... لما استقل يغمراسن بن زيّان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط، وظفر بالسلطان وعلا كعبه

1- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج07، ص:104

2- محمد بن عمرو الطمار، مرجع سابق، ص: 92

3- علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص: 503

على سائر أحياء زناتة...⁽¹⁾، عاشت تلمسان خلال هذه الفترة حركة مدّ وجزرٍ في أجوائها السياسية فقد واجهتها الأخطار من الشرق والغرب، وبلغ بها الحد أن لا تتجاوز في بعض فترات حياتها أسوار العاصمة أي تلمسان، أما من الجانب المعماري فقد تألقت تلمسان بعدة مآثر.

➤ مدينة تلمسان إبان الصراع المريني-الزياني:

عقب تلاشي حكم دولة الموحدين بمنطقة المغرب الإسلامي نهائياً، ظهرت ثلاث دويلات إلى الوجود مستقلة بحكمها و هي الدولة الحفصية عاصمتها تونس 1227م-1574م، والدولة الزيانية 1235م -1554م عاصمتها تلمسان، والدولة المرينية عاصمتها فاس 1269م-1465م هذه الأخيرة التي خاضت حروباً كثيرة ضد الموحدين في أيامها الأخيرة كان الانتصار لهم في أغلب الأحيان.⁽²⁾

حساسية الصّراع بين تلمسان وفاس وتأثيره على كل من الجانب السياسي والمعماري للزيانيين تستلزم منا الوقوف عنده والتعرض إليه كفترة خاصة، من أسباب ذلك الصّراع الموقع الجغرافي للدولة المرينية إذ يحده شمالاً البحر الأبيض المتوسط وغرباً المحيط الأطلسي وجنوباً الصحراء ما فرض التفكير لزاماً عليهم التفكير في الجهة الشرقية لتطبيق سياستهم التوسعية⁽³⁾، بدأت أولى محاولات الغزو المريني على يد السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بشن أربع غارات، قام خلالها بإتلاف المزروعات لإغراق تلمسان في شبح المجاعة كما أتلّف عمرانها، إلا أن أهل المدينة بقوا جاثمين في مراكزهم، ما دفع بالسلطان المريني إلى خوض حصار طويل وبناء مدينة جديدة بكل مرافقها من منازل وحمامات ومسجد جامع وقصر... إلخ، وتحدث عن ذلك أبي الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي

1- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج07، ص:107

2- عبد العزيز لعرج محمود، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ط1، دار زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ص:10

3-Sid Ahmed Bouali, **Les Deux Grands Sièges de Tlemcen dans L'histoire et La Légende**, L'arbres a Livres édition, Algérie, 2011, p:24

قائلاً... وبني تلمسان الجديدة وهذبها وبنا بها الحمامات العظيمة والفنادق والمارستان وجامعاً كبيراً للخطبة... وبنا بها مناراً عظيماً، وجعل على رأسه تفاعيحاً من الذهب بسبع مائة دينار ذهباً...⁽¹⁾، بُيت مجاورة لتلمسان من الناحية الغربية وأطلق عليها اسم المنصورة تيمناً بنصره على الزيانيين استمر الحصار لمدة ثمان سنوات وثلاثة أشهر ما يُذكرنا بحصار طروادة الإغريقية الذي دام عشرة سنوات⁽²⁾، لكن تلمسان غير طروادة، فقد خرجت منتصرة من ذلك الحصار الطويل رغم ما تكبدته من خسائر.

انتهى الحصار بموت السلطان المريني أبو يعقوب يوسف على يد أحد خدمه في قصره بمدينة المنصورة حسب ما أورده أبي الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي قائلاً... وقُتل أمير المسلمين أبو يعقوب غيلة بقصره من حضرة تلمسان الجديدة يوم الأربعاء السابع لذي القعدة من سنة ست وسبعمائة... وهو نائم خصي من فتياه...⁽³⁾.

تجدد الحصار على يد السلطان أبي الحسن المريني الذي أخبرنا عنه عبد الرحمن ابن خلدون أنه كان يقوم بنفسه بإصلاح الثغرات ومراقبة المواقع قائلاً... وذلك أن السلطان أبا الحسن كان يياكرهم في الأسحار فيطوف من وراء أسواره... يرتب المقاتلة ويثقف الأطراف ويسد الفروج ويصلح الخلل... واستمرت منازل السلطان أبي الحسن إياها إلى آخر رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غالباً...⁽⁴⁾، الموافق لسنة 1337م، سجّل المرينيون في هذه الفترة الزمنية بصمتهم وذلك ببناء عمائر تنم عن الذوق الرفيع روعة الصنع بتناسق هندستها وجمال عناصرها

1- أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، مصدر سابق، ص: 387

2- يحيى بوعزيز، مرجع سابق، ص: 34

3- أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، مصدر سابق، ص: 388، ينظر كذلك: عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج 07 ص: 129

4- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 07، ص: 147-148

المعمارية من قب وأعمدة وزخرفة... الخ كصومعة المنصورة ومسجد سيدي الحلوي ومسجد سيدي بومدين، بقي الأمر على حاله بالنسبة للمدينة وبعد استعمار دام اثنين وعشرين سنة تم استرجاعها وإحيائها من جديد على يد أبي حمو موسى الثاني عام 760هـ/1359م الذي يعتبره المؤرخون السلطان الشاعر والسياسي المحنك، الذي استطاع بحنكته السياسية جمع قبائل بني عبد الواد.

➤ مدينة تلمسان في الفترة العثمانية:

مع قرب تلاشي حكم سلاطين الدولة الزيانية على بلاد المغرب الأوسط، قررت إسبانيا مهاجمة سواحلها، والقيام بعملية سمّتها الحركة الاستردادية، فيما يقرب عام 1492م، حيث احتلت المرسى الكبير سنة 1505م على يد الكاردينال خمسيس دي سيسنيروسن *Khamensis De Sisnirosen* ثم احتلت ميناء هنين⁽¹⁾، طامحين إلى تحطيم كيان الدولة الزيانية، تحت هذه الظروف استغاث أهالي مدينة تلمسان بالأخوين خير الدين بربروس وعروج بمحاربة الإسبان والانتصار عليهم سنة 923هـ/1517م لتنتهي بعد ذلك مسيرة حياة الدولة الزيانية بعد أن ألحقها البايبراي صالح رايس نهائياً بالجزائر العاصمة مباشرة سنة 1554م، وكان ذلك نهاية الدولة الزيانية التي عمّرت لأزيد من ثلاثة قرون⁽²⁾

أهم ما أنجزه العثمانيون في المجال المعماري بمدينة تلمسان، كان بنائهم على وجه الخصوص لثكنة الصبائية التي كانت تفصل بين الجهة العلوية لمدينة تلمسان والجهة السفلية، كما قامت بعدة ترميمات كترميم ضريح سيدي أبي مدين وكذا مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، إلى جانب تشييد بعض الأضرحة مثل ضريح سيدي محمد بن يوسف السنوسي بالعبّاد السفلي، وسيدي أبو عبد الله بعين الحوت، ومسجد بساحة الشهداء يُعرف باسم مسجد سيدي اليّدون نسبة للولي الصالح المدفون بأحد زوايا المسجد.⁽³⁾

1- عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1972، ص: 15

2- يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص: 58

3- سيدي محمد نقادي، براهامي نصر الدين، مرجع سابق، ص: 95

➤ مدينة تلمسان في فترة الاحتلال الفرنسي:

بعد احتلال الجزائر عام 1248هـ/1830م لجأ أهالي مدينة تلمسان بعد فتنة وقعت بينهم إلى الملك المغربي عبد الرحمن بن هاشم، يطلبون منه الانطواء تحت حكمه، قَبِلَ هذا الأخير وعيّن عليهم حاكماً اسمه محمد بنونة وأصبحت الخطبة تعلن باسم سلطان المغرب في كل المساجد، لكن بعد اطلاع فرنسا على هذه العلاقة الجديدة أرسلت إنذاراً للسلطان المغربي تأمره بالانسحاب العاجل من تلمسان ونواحيها فما كان منه إلاّ القبول، في أثناء ذلك بويع الأمير عبد القادر بن مُحي الدين الهاشمي بمدينة معسكر في 21 نوفمبر سنة 1832م⁽¹⁾، وهو الأمر نفسه الذي قام به أهالي مدينة تلمسان إذ بايعوه وقاموا بمناصرتة وطرد حاكم المغرب الأقصى، لكن قسم آخر متكون من جزء من الكراغلة وقبائل أنقاد وبني صميل امتنعوا عن مبايعته، ما أدى إلى احتدام الصراع بين الطرفين، فقام المسمّى محمد بن إسماعيل مراسلة القائد العسكري الفرنسي للإنقاذ لتلمسان من الأمير ومن مناصريه وفعلاً استقبل هذا الأخير المارشال كلوزال Clauzal في جانفي 1836م⁽²⁾، إلاّ أن المستعمر الفرنسي ضرب عرض الحائط رسالة القائد وأبرم معاهدة مع الأمير عبد القادر تسمى بمعاهدة تافنة في 20 ماي 1837م بين الجنرال بيجو Bugeaud ومندوب الأمير سيدي سقال تضمنت خمسة عشرة مادة نصّت منها المادة التاسعة على مايلي: "تتخلى فرنسا للأمير عن أرشقول وتلمسان وقلعتها وكُلّ المدافع التي كانت فيها قديماً ويتعهد الأمير بنقل كل الأمتعة إلى وهران بالإضافة إلى العتاد الحربي التابع للحامية الفرنسية في تلمسان".⁽³⁾

نقضت فرنسا معاهدة تافنة التي أبرمتها مع الأمير عبد القادر عام 1253هـ/1837م والتي تقضي تحديد المناطق التابعة لحكم الأمير عبد القادر، وتلمسان واحدة من تلك المناطق، وذلك بعد أن تولّى المارشال بوجو Bugeaud منصب حاكم عام الجزائر في 22 فيفري 1841م، استبشر الأمير عبد القادر

1- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971، ص: 54-56

2- سيدي محمد نقادي، براهامي نصر الدين، مرجع سابق، ص: 102

3- شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص: 117-119

خيراً بهذا التعيين، لأنه لن يواجه صعوبة كبيرة في التفاهم مع شخص اعترف له بنفسه ووافق على مطالبه، لكن المارشال الفرنسي غيّر من آراءه فقد رفض فكرة الاحتلال الفرنسي المحدود ونادى بتوسيعه، استولت فرنسا على تلمسان نهائياً بقيادة المارشال بوجو Bugeaud في 31 جانفي 1842م⁽¹⁾، لقد عاثوا فيها بالخراب وأحدثوا تعديلات في نسيجها المعماري العتيق عازمين على تحطيم طابعها الإسلامي ومن تمّ تغيير هويتها، لكن لم يكتمل مشروعهم ولم يُكتب له النجاح، فباستقلال البلاد من قبضتهم، أُعيد بناء حاضرها ومستقبلها على هُدًى من ماضيها الإسلامي العريق.

وفي الأخير يمكن القول أن تلمسان عاشت محطات تاريخية حاسمة قدمت خلالها بلاءاً حسناً، آخره تمثل في مقاومتها للمستدمر الغاشم، إذ بها رُفع العلم الوطني لأول مرة عام 1937م، وبجبلها سُمع لأول مرة نشيد من جبالنا طلع صوت الأحرار عام 1939م.⁽²⁾

2- اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة ندرومة:

دراسة جغرافية وتاريخ المدن يساهم بشكل مباشر في إبراز الوجه والعلاقة المتبادلة بين مظاهر سطح المكان والتاريخ، والمستوى الحضاري الذي وصلت إليه الحواضر قديماً عبر مختلف المجالات، حيث يرتبط النشاط البشري ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية التي تلفه باعتبارها المورد الأساسي الذي يعتمد عليه في الحصول على غذائه ومسكنه، هذه العلاقة الوطيدة تفضّل لها مخططوا المدن قديماً، فعمدوا على الاهتمام بها أشد الاهتمام لاختيار المكان الأنسب لوضع أسس مدنهم، مدينة ندرومة واحدة من المدن التي اهتم مخططوها بهذا الجانب فقد وُفّر لها موقعها الظروف المناسبة لتكون حاضرة مرموقة.

2-1 اللمحة الجغرافية:

كمثيلتها تلمسان احتضنت مدينة ندرومة إرثاً أصيلاً وتاريخاً مجيداً، اكتسبتهما من الموقع الذي

1- شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص: 191

2- سيدي محمد نقادي، براهيم نصر الدين، مرجع سابق، ص: 104

جعل منها مدينة ذات شهرة ذائعة الصيت بين حواضر المغرب الإسلامي قديماً، ومكاناً مغرباً للاستيطان والإقامة، فكانت كمدينة تلمسان محطّ اهتمام وتنافس سلاطين المغرب الإسلامي عليها، لذلك لحق بها ما لحق بتلمسان من أزمت سياسية، ولهذه الأسباب ذكرت هي الأخرى في كتب الرحالة والمؤرخين أمثال أبو عبيد الله البكري والحسن الوزان ومارمول كربخال وغيرهم.

2-1-1 الموقع:

تقع مدينة ندرومة في الشمال الغربي من منطقة تلمسان، عند خط طول 1° و74 دقيقة شمالاً ودائرة عرض 35° و1 دقيقة شمالاً⁽¹⁾، تحتل موقعاً استراتيجياً عزّز من جانبها الأمني وساعد في مهمة الدفاع عن نفسها ضد الغزاة، وذلك لامتدادها على طول جنوب سفح جبل فلاوسن بارتفاع يتراوح ما بين 360م و470م فوق سطح البحر⁽²⁾، تجدر الإشارة إلى أن هذا الجبل هو الأكثر ارتفاعاً في سلسلة جبال ترارة إذ يبلغ ارتفاعه حوالي 1200م، تتموضع بالقرب من سواحل البحر الأبيض المتوسط، حيث لا تبعد عنه إلاّ بمسافة ست كيلومترات وفق خط مستقيم، تتوسط مدينة تلمسان ومدينة وجدة، الأمر الذي مكنها أن تكون همزة وصل بينهما في الميدان التجاري منذ القدم، تحدها شمالاً مدينة الغزوات الساحلية، أما جنوباً فيحدها جبل فلاوسن، غرباً تحدها مدينة مغنية وشرقاً دائرة فلاوسن، فيما يخص مساحتها فهي تبلغ حوالي 140 كلم²، أما عدد سكانها فقد بلغ في آخر إحصاء سنة 2008 حوالي 32498 نسمة⁽³⁾، وبالنسبة لأسماء أهم أحيائها هناك: حي بني زيد والتريعة وبني عقّان والخربة.

1- الجريدة الرسمية، مرسوم تنفيذي رقم 402/09، مؤرخ في 12 ذي الحجة 1430 هـ الموافق لـ: 29 نوفمبر 2009 متضمن

إنشاء القطاع المحفوظ للمدينة العتيقة ندرومة وتعيين حدوده، العدد 71، الجزائر 2009، ص: 5-6

2- محمد رابح فيسة، المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة، دراسة تاريخية أثرية، رسالة ماجستير، تخصص الآثار الإسلامية، معهد

علم الآثار، جامعة الجزائر، 2005، ص: 13

3- نقلاً عن بلدية ندرومة، إحصاء 2008

من بين المظاهر الجيولوجية للموقع أن الكتلة الجبلية التي توجد عليها مدينة ندرومة تكوّنت عند نهاية عصر الأوليجوسين، وقد استمرت خلال عصر الميوسين بأكمله الذي كان يتصف بعدم تباثه وكثرة اضطراباته، معرضاً المنطقة لعملتي الرفع والهبوط في القشرة الأرضية، ما يحدث تنوعاً في طبوغرافيتها هذا التنوع كان واحداً من أسباب تنوع النشاط البشري في المدينة.⁽¹⁾

2-1-2 التضاريس:

تقع مدينة ندرومة في قلب سلسلة جبال ترارة، تتميز بجيوب زراعية على هيئة وديان وسهول واسعة ذات تربة خصبة توحى بوجود مياه وافرة، ينتمي مناخها إلى مناخ البحر الأبيض المتوسط المتميز باعتداله ووضوح الفصول الأربعة فيه، تتسم درجات الحرارة بالاعتدال في المناطق الساحلية، إذ تنخفض تحت 12م، وتزداد درجات الحرارة في الانخفاض بالمناطق الجبلية المحيطة بالمدينة حيث تصل إلى 5م، مرّ ذلك إلى الارتفاع عن مستوى سطح البحر، أما في فصل الصيف فتتصف درجات الحرارة بالاعتدال في المناطق الساحلية والجبلية، يُقدر متوسط التساقط على المنطقة ما بين 400 ملم و600 ملم.⁽²⁾

تتميز ندرومة بغطاء نباتي عبارة عن غابات كثيفة تتمثل في أشجار التين والزيتون والتوت البري... زراعة الأرض وتربية المواشي، من بين أهم منتجاتهم الحبوب كالقمح والشعير والعسل الذي صدرت منه كميات معتبرة للحواضر والمدن المجاورة، إلى جانب هذا، هناك منتجات أخرى مثل الملابس الصوفية والمنسوجات خاصة القطنية التي وصل تسويقها قديماً إلى جميع مدن المغرب الأوسط مثل تلمسان والجزائر، كما تتميز المنطقة بسيولها الجارفة في فصل الشتاء.

1- كاظم موسى محمد الطائي، دور العوامل الجغرافية في البعد الحضاري والاجتماعي لمدينة ندرومة، الملتقى الدولي السادس

حول مدينة عبد المؤمن بن علي (مجتمع أنثروبولوجيا وذاكرة)، ندرومة، 2011، ص: 10

2- محمد الزين، العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة من خلال نموذجين: الجامع الكبير وزاوية سيدي محمد بن عمر، دراسة تاريخية وفنية، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الفنون الشعبية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2003، ص: 08

أهم وديان المدينة هي وادي الحمراء يمر بشرق المدينة ووادي الدّمين يمر بغربها ووادي الثلاثاء يمر بشمالها، لقد قدّم يحيى بن خلدون وصفاً عنها بقوله "...إنها أعدل الأرض مزاجاً، وأفضلها إنتاجاً ما بين إفريقية والسوس الأدنى إلى المغرب الأقصى..."⁽¹⁾، ثم أتى بعد يحيى بن خلدون الرحالة حسن الوزان الذي قدّم هو الآخر حديثاً مشيراً إلى مدى خصوبة تربة المدينة وغناها بقوله: "...البادية منتجة إلى أقصى حد فتشاهد حول ندرومة بساتين عديدة وأراض مغروسة بأشجار الخروب التي يأكل الناس ثمارها بكثرة... وندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناعات فيها ينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية..."⁽²⁾، بعد حسن الوزان قدّم مارمول كاريخال⁽³⁾ هو الآخر وصفاً عن طابعها النباتي قائلاً "...وفي الجبال المجاورة أشجار تدعى الخروب، ثمارها حلوة لدرجة أن السكان يصنعون منها عسلاً يأكلونه طوال السنة مع الحوم.... يحصد السكان كمية من القمح والشعير ويملكون عدداً كبيراً من القطعان ويصنعون ما أجمل في بلاد البربر من أقمشة القطن..."⁽⁴⁾.

يتضح من الإشارات التاريخية الخاصة بموقعها ما كان للمدينة من معطيات جغرافية وإمكانات اقتصادية، عادت عليها بالإيجاب من جانب، ومن جانب آخر بالسلب، إذ أصبحت نقطة مغرية للاستيطان البشري بالمغرب الإسلامي آنذاك، ولحدّ الساعة لا تزال المدينة منتجة، ففي المجال الفلاحي يشتغل البعض من سكانها في حرث الأراضي الموجودة في السهل الذي يمتد شمالاً مقابل البحر

1- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 84

2- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقية، ط2، ج 2، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1983، ص: 14

3- مارمول كاريخال: وُلد بغرناطة في أوائل القرن 16م، كان جندياً في جيش الملك الإسباني شارلكان، أُسر بالمغرب الأقصى لمدة سبعة سنوات وثمانية أشهر، تعلم اللغة العربية واللهجة البربرية حتى يتمكن من التواصل مع العرب لنقل الأخبار إلى شارلكان، ألّف كتابين الأول إفريقيّا والثاني ثورة الموريسكيين، لا يعرف شيء عن تاريخ وفاته، ينظر: مارمول كاريخال، إفريقيّا، ج02، ترجمة محمد حجي، محمد زنيير، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون، دار النشر المعرفة، الرباط، 1988، ص: 4-5

4- مارمول كاريخال، المصدر نفسه، ص: 295

من جملة ما ينتجونه القمح والشعير والطماطم، ضف إلى ذلك يهتمون بغرس أشجار الزيتون إذ أنها من المدن الرائدة في إنتاج زيت الزيتون إلى الحد الذي أقيمت بها طحونتين لطحن حبات الزيتون أما في المجال التجاري هو الآخر منتعش، إذ يوجد بها ورشات لصناعة الألبسة والأحذية وكذا الأثاث.

2-2 اللمحة التاريخية:

تعتبر مدينة ندرومة واحدة من الحواضر الإسلامية الزاخرة بإرث معماري وعمراي إسلامي أصيل، ينم عن عبقرية الأسلاف الذين سكنوها قديما، كباقي تصاميم المدن تحتوي على جامع كبير في مركزها وعلى أزقة ضيقة وملتوية وسوق ومنازل.

2-2-1 أصل التسمية:

أرجع الرحالة حسن بن محمد الوزان تأسيسها إلى الرومان، إذ اختاروا لها موقعا وتصميما مماثلاً لتصميم مدينة روما وأن اسمها مشتق من كلمة "ند"، باللاتينية "similis" أي مثل وشبيه⁽¹⁾، لكن لا يوجد أي شاهد مادي يدعم فكرة تواجد الرومان بالمدينة حسب معاينتنا لها، الأمر الذي يؤكد أنها أحدث من العهد الروماني.

ذكر اليعقوبي مدينة ندرومة في كتابه البلدان قائلاً "...وأخر مملكة بني محمد بن سليمان عبد الله بن الحسن بن الحسن مدينة فالوسن وهي مدينة عظيمة أهلها بطون البربر..."⁽²⁾، وأشار كذلك أن ندرومة حلت محلها لينتقل اسم فالوسن إلى الجبل المحاذي لها وهي كلمة مركبة من قسمين: فُلاً وتعني فوق، وأوسن تعني قرية⁽³⁾، هناك من ذكر أن معنى اسم ندرومة "نظروا الماء" وأن هذه العبارة نطق

1-الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ص:13

2-أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح اليعقوبي، مصدر سابق، ص:196

3-René Basset, *Nedromah et Les Traras*, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1901, p:5-7

بها الفرسان العرب "نَظَرُ لَمًا" الذين أُنُوا من تلمسان نحو هذه الناحية، ولما رأوا ماء البحر نطقوا بهاتين الكلمتين التي أصبحت تنطق فيما بعد بندرومة.⁽¹⁾

ذكر البكري أول مرة اسم ندرومة في القرن 5هـ/11م، واصفا المدينة بقوله "...ومدينة ندرومة في طرف جبل تاجرا بغربها وشمالها بسائط طيبة ومزارع، وبينها وبين البحر عشرة أميال ساحلها ومرساها وادي ماسين كثير الثمار، مأمون عليه حصنان ورباط حسن مقصود يُتَبَرَكُ به إذا سرق أحدهم فيه أو أتى فاحشة لم تتأخر عقوبته..."⁽²⁾، بعد قرن من الزمن، قدّم الإدريسي وصفا لمدينة ندرومة قائلا "...مدينة كبيرة عامرة أهلة ذات سور وسوق موضعها في سند ولها مزارع كثيرة ولها واد يجري في شرقها وعليه بساتين وجنان وعمارة وسقي كثير..."⁽³⁾.

1- أنسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995، ص: 310

2- أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص: 80

3- أبو عبد الله محمد بن إدريس الحسيني الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 02، ج 01، مكتبة الثقافة دينية، القاهرة، 2002، ص: 534

هذا الوصف يؤكد أن المدينة كانت فعلاً تتميز بخصائص العمران المدني إذ يقدم لمحة عن مدينة ندرومة في شقها الفلاحي والعمراني ما يؤكد أنها كانت واحدة من المدن المرموقة بالمغرب الأوسط، فقد استقطبت السكان من جميع الحواضر وأصبحت المكان المفضل لإقامة العامة من الناس والخاصة وتحديث عنها أيضاً أبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق الذي عاش أيام الدولة الموحدية وصاحب مؤلف أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ومؤلف المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب الذي أورد فيه حديثاً عن قبيلة كومية يذكر فيه اسم ندرومة قائلاً "...كومية وفقهم الله، لهم من الفخاذ خمسة وعشرون من ذلك بنو مجبر وبنو عابد وبنو يزيد وزغادة الساحل وبنو يانجسن... وأهل قرية ندرومة..."⁽¹⁾، كما أشارت بعض المصادر إلى تفضيل بعض العلماء السكن في هذه المدينة وإلى غناه الطبيعي، من بينهم الفقيه الولي الصالح أحمد بن الحسن الغماري الذي قال عنه ابن مريم "... وبقي بندرومة زمناً طويلاً يغيب بالنهار ويبيت بالجامع الكبير..."⁽²⁾ ومحمد حرشايي ندرومي.

2-2-2 أهم الفترات التاريخية التي مرت بها مدينة ندرومة:

يمتد تاريخ مدينة ندرومة العتيقة إلى فترات إسلامية مبكرة، وذلك بدءاً من فترة تكون دولة الأدارسة إلى غاية فترة حكم الأمير عبد القادر، وهذا عرضٌ موجزٌ لأهم تلك الفترات الإسلامية التي مرت بها المدينة:

➤ ندرومة في فترة الأدارسة:

حسب ما أورده اليعقوبي الذي توفي سنة 284هـ/897م أي في الفترة الزمنية التي حكم فيها الأدارسة هذه الجهة من المغرب الإسلامي أن مدينة ندرومة كانت إبان القرن التاسع الميلادي تدعى

4- أبو بكر الصنهاجي البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص: 51

1- ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء يتلمسان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية 1908، ص: 31

فلوسن ولم تكن تحمل اسم ندرومة، وكانت آنذاك عاصمة النواحي المجاورة وكانت آخر مدن مملكة محمد بن سليمان ابن عم الإمام إدريس⁽¹⁾، وكانت تتميز بمكانة حضارية مرموقة.

➤ ندرومة في فترة الفاطميين:

سياسة التوسع التي انتهجتها الدولة الفاطمية دفعت بجيوشها القادمة من مصر إلى اتخاذ تيهرت عاصمة لهم، الأمر الذي استنكره أموي الأندلس خوفاً من أن يطالهم ذلك التوسع، فقاموا بجمع قبائل المغرب الشرقي بما فيهم ندرومة ومدهم بالسلاح، لمجابهة التوسع الفاطمي، لكن ما لبث أن أصبح الصراع داخلي بين قبائل النواحي، وذلك بين الحسن بن أبي العيش حليف الأدارسة وموسى بن أبي العافية الزناتي حليف الأمويين انتهت بإشعال حرب دامية بينهم⁽²⁾، وهو ما جعل من القبائل الصغرة التي من بينها ندرومة محلّ صراع.

➤ ندرومة في فترة الحماديين:

بعد انتقال الفاطميين إلى مصر، حلّ الحمّاديون محلهم ووضعوا أيديهم على المغرب الأوسط وندرومة واحدة من تلك القبائل التي عاشت ما عاشته قبائل المغرب الأوسط من غزو وسيطرة واستيلاء من طرف الحماديين، احتدم الصراع الحمادي الزناتي إبان حكم الناصر بن علناس وابنه عبد العزيز⁽³⁾، ففي غزوهم للمدن المهمة في المغرب الإسلامي كأغادير وفاس كانوا يحتلون القبائل المهمة كندرومة.

➤ ندرومة في فترة المرابطين:

2- أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح اليعقوبي، مصدر سابق، ص: 196

1- ابن خلدون عبد الرحمن، مصدر سابق، مج 06، ص: 126

2- رشيد بوروية، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، 1977، ص: 15-16

يقول صاحب الاستقصاء أنه لما دخلت سنة 454هـ/1061م كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب الإسلامي جداً ورسخت قدمه في الملك فسمت همته إلى بناء مدينة يأوي إليها تكون حصناً له ولأرباب دولته فاشترى موضع مراکش ممن كان يملكه من المصامدة...⁽¹⁾ ولاشك أن مدينة ندرومة قد طالها مدّه العسكري بحكم وجودها في المغرب الأوسط الذي امتد إليه نفوذ السلطان يوسف بن تاشفين، لأنه أراد توحيد المغربين الأوسط والأقصى تحت رايته في القرنين الخامس والسادس الهجري الموافق للقرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلادي، تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقد وجدها على درجة كبيرة من الأهمية، إذ كان له بها أنصار لذلك أسسَ فيها مسجداً جامعاً، وقد أرجع أيضاً الأستاذ رشيد بورويبة بناء سور المدينة الذي ذكره البكري إلى المرابطين⁽²⁾، هذان البناءان يضيفان أهمية للمدينة ورقياً حضارياً أخذ يتعاظم شأنه إلى غاية سقوط الدولة المرابطية بيد الموحدين، باعتبارهما من بين التفاصيل العمرانية التي ترافق الحواضر المرموقة اجتماعياً.

➤ ندرومة في فترة الموحدين:

لقد حظيت ندرومة بمكانة مرموقة، واهتمام خاص من طرف عبد المؤمن بن علي، إذ انطوت تحت حكمه قبل تلمسان نفسها، جعل منها مكاناً آمناً وحصناً حصيناً بأسوار القصبة، ذلك ما زاد في ازدهارها وكثرة سكانها الذي وجدته مورداً بشرياً قوياً ألحقه بجيشه، لقد قدمت ندرومة دوراً بارزاً في المعركة الفاصلة بين إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي والتي انتهت بمقتل السلطان المرابطي في 27 رمضان 539هـ/1144م، وبذلك سقطت الدولة المرابطية⁽³⁾، كان لهذه

3- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولتان المرابطية والموحدية، ج2

تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ص: 22

2-Rachid Bourouiba, L'architecture Militaire de L'Algérie Médiévale, OPU, Alger 1983, p:93

3- عبد الله علي علّام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر، 1971، ص: 131

المساعدة أثر كبير على نفسية عبد المؤمن بن علي، إذ أقطع السهول الممتدة بين تلمسان ووهران لبني عبد الواد، جاعلاً من يغمراسن بن زيان والياً عليها، وهو منصب لم يكن يتولاه سوى البيت الحاكم.⁽¹⁾

➤ ندرومة في فترة الصراع الزياني المريني:

رغم كون الزيانيين والمرينيين أبناء عمومة إلا أنهم كانوا في صراع دائم، لقد أصاب مدينة ندرومة في هذا الصراع ما أصاب تلمسان، بحكم تواجدها على طول الطريق الذي يسلكه بنو مرين إلى تلمسان العاصمة، حيث خضعت المدينة للقانون التقليدي من تقتيل الغالب للمغلوب، حيث أرسل المرينيون فرقتهم العسكرية لمدينة ندرومة لإخضاعها، لكن لم تستسلم المدينة بل بقيت تابعة لحكم البلاط الزياني، ذلك راجع لرضى السكان عن حكم السلطان يغمراسن، ذكر بن أبي زرع أن أبا يعقوب يوسف قرّر احتلال تلمسان مرة ثانية قائلاً "... وفي سنة ستين وتسعين وستمائة غزا أمير المسلمين يوسف بلاد تلمسان خرج إليها... حتى نزل مدينة ندرومة فحاصرها وشدّ في قتالها أياماً ثم ارتحل عنها...".⁽²⁾

في المرة الثانية التي قرّر فيها أبو يعقوب يوسف احتلال تلمسان خرج إليه عثمان بن يغمراسن لكنه انهزم ودخل المدينة وتحصن فيها، ففعل أبو يعقوب يوسف راجعاً إلى فاس تاركاً أخاه أبو يحيى يحارب ندرومة، هذا الأخير تحدث عنه ابن أبي زرع قائلاً "... كان لا يرفع عنها يداً بالغازات فضاقت أهل ندرومة بذلك ذرعاً...".⁽³⁾

دفعها للاستغاثة بالسلطان عثمان بن يغمراسن، لكنها لم تتلق منه جواباً لانشغاله بحملات تآديبية في بلاد بني توجين لمساعدتهم أعدائه، فانصاعت تحت إمرة يوسف أبو يعقوب، استاء لهذا الأمر

3- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، العصر الإسلامي، ترجمة محمد مزالي، البشير بن سلامة، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978، ص: 200-201

1- أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص: 385

2- المصدر نفسه، ص: 386

كثيراً عثمان بن يغمراسن، فقد تحدّث عن ذلك يحيى بن خلدون واصفاً حالته النفسية جرّاء فقدانه لمدينة ندرومة بعد سقوطها بيد المرينيين قائلاً "...فاضطربت أرجاء حضرته نارَ فتنة...".⁽¹⁾

➤ ندرومة في فترة الأتراك:

بعد أن دبّ الضعف داخل الدولة الزيانية، انحصرت سلطتها في تلمسان وبعض نواحيها فقط أما البقية فقد نصبت كل عشيرة نفسها دويلة همّتها التوسع على حساب جارّتها، آنذاك ندرومة كانت شبه مستقلة، حيث كانت تحت مراقبة قبيلة مطغرة، تحدّث عنها حسن محمد الوزان قائلاً "...كان السكان... تقريباً أحراراً...، فالملك لا يستطيع أن يحصل على أي خراج من المدينة لأن العمال الذين يوفدهم إنما يقبلهم السكان إذا رضوا عنهم... لكنهم كانوا يرسلون أحياناً هدية إلى الملك حتى يتمكنوا من إدخال سلعهم إلى مدينة تلمسان..."⁽²⁾، هذه الأوضاع نجمت عن الضعف الداخلي والفراغ السياسي الذي ميز الدولة الزيانية في آخر أيامها، كل ذلك أدّى إلى تعرضها إلى الغزو الإسباني ممّا دفعها في نهاية المطاف إلى الاستنجاد بالأخوين عروج وخير الدين اللذين حرّرا تلمسان من قبضة الإسبان.

عاشت ندرومة في هذه الفترة جو الصراع بين العثمانيين وسلاطين المغرب الأقصى، إذ أصبحت محل نزاع بينهم، فملك المغرب حاول تجنيد أبناء المنطقة الواقعة غرب تلمسان إلى جانبه ما دفع بالداي حسين إلى التدخل شخصياً، خرج على رأس حملة عسكرية وعند وصوله استقبله الأهالي، فرضي بالأمر لكنه فرض عليهم إتاوة سنوية من القطن مقدارها ثلاثون حملاً.⁽³⁾

➤ ندرومة في فترة الأمير عبد القادر:

3- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 120

4- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ص: 14

3- يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص: 216

حاول الأمير عبد القادر تكوين أسس دولة إسلامية جديدة على أنقاض الحكم العثماني لكنه اصطدم بدخول الاستعمار الفرنسي فقام بتنظيم مقاومات شعبية بمختلف مناطق الجزائر لقد استطاع الجنرال الفرنسي بيدو Bèdeau بمهارته العسكرية وحنكته الدبلوماسية أن يُخضع عددًا كبيرًا من المدن الحدودية وندرومة واحدة من تلك المدن، الأمر الذي دفع بالأمير عبد القادر لمواجهة، وبمجرد وصوله إلى ندرومة حتى عاد لأهالي المدينة إخلاصها القديم وطلبت منه العفو واستأذنته أن تغسل عارها في ميدان الشرف في شهر مارس وأفريل من سنة 1842⁽¹⁾، عاشت مدينة ندرومة وهنين وضاف نهر تافنة اشتباكات عنيفة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيدو، لكن النجاح الكبير الذي حققه الجنرال الفرنسي لامورسيار Lamoricière في مدينة معسكر ونواحيها حال دون استكمال الاشتباكات، إذ عاد إلى مدينة معسكر⁽²⁾، ليبقى بعد ذلك مصير مدينة ندرومة مجهولاً إلى أن جددت فرنسا عزمها من سنة 1842م وقامت باحتلالها نهائياً.

3- اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة هنين:

عاشت مدينة هنين هي الأخرى مثل مدينة تلمسان وندرومة فترات وصلت فيها إلى أوج عظمتها، إذ وفد إليها العام والخاص وأصبحت قبلة العلماء والتجار، وبالمقابل عاشت فترات حالكة وعمّها الخراب والتدمير جرّاء الحروب التي طالتها لموقعها الذي يتميز بجودة الهواء والتربة والماء. لكن من ناحية المادة العلمية التاريخية، هناك قلة في المؤلفات التي تناولت ذكر أوصافٍ عنها في المجال المعماري خاصة والاجتماعي مقارنة بمدينة تلمسان وندرومة، بالرغم ممّا تميزت به من نسيج معماري مختلف الطابع، وكذا الدور التجاري الرائد مع دول الضفة المقابلة لها من جهة البحر الذي جعل منها مدينة ساحلية تجارية بارزة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

3-1 اللمحة الجغرافية:

2- شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص: 196

3- المرجع نفسه، ص: 197

تحتل مدينة هنين موقعاً جغرافياً بين سلسلة جبال ترارة التي يوجد بها جبل تاجرة مسقط رأس عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية⁽¹⁾، وقوعها في هذا المكان المتميز بتمازج الطبيعة الجبلية الوعرة والغابات الكثيفة، وقربها من البحر جعلها من الأماكن المغربية للاستيطان قديماً.

3-1-1 الموقع:

هنين مدينة ساحلية وبوابة تلمسان على البحر، عُرفت بعدة تسميات: أهناي وهُنْ وهَنِي وهَنَيْن هذا الأخير هو الاسم الرسمي القائم لحد الساعة⁽²⁾، تتمركز هذه المدينة عند خط طول 1° و39 دقيقة غرباً و35° و10 دقائق شمالاً⁽³⁾، وهي تقع بالساحل الوهراني تبعد عن مدينة تلمسان بحوالي 60 كلم، وعن مدينة ندرومة بحوالي 30 كلم و40 كلم عن الحدود المغربية، تأخذ مجالاً من سلسلة جبال ترارة المعروفة بمسالكها الوعرة وقمم جبالها الشاهقة الارتفاع متموضعة على سفح جبل المنزل الذي يحيط بها جنوباً، وممتدة بمساكنها ودورها نحو الشمال الشرقي، يجتازها وادين هما واد هنين الذي يعبرها من جهة الشرق وواد مسايب أو كما يطلق عليه واد ريغو الذي يعبرها جهة الغرب.⁽²⁾

لقد عاد عليها هذا الموقع بالنفع اقتصادياً إذ جعلها من المدن الرائدة في المجال التجاري، فمنها وإليها كانت تتم المبادلات التجارية، لكن من جهة أخرى حسب ما أشار إليه جيورج مارسيه Marçais George أن الجهة الشمالية الغربية أضعفت حصانة المدينة، إذ يمكن للقراصنة والمختلين الأجانب

1- عبد الرحمن بن خلدون، ج06، مصدر سابق، ص:16

2- عبد العزيز محمود لعرج، مدينة هنين: تاريخها وآثارها، الملتقى الدولي الخامس حول التراث العلمي والثقافي لمدينة ندرومة ونواحيها، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ص:131

3- www.google earthe.com

1- Abderrahmane Khelifa, Honaine à Travers ses monuments, Colloque National sur: Honaine passé et présent, Université d'Oran, Février 1985, p:26

استغلال ارتفاعه الشاهق للولوج إلى المدينة، ما فرض لزماً على المخطط المسلم آنذاك تشييد قلعة فوق هضبة مرتفعة، وإحاطتها بخندق يبعد عنها بعشرين متر لمراقبة وصدّ أي هجوم.⁽¹⁾

3-1-2 التضاريس:

تقع مدينة هنين بين البر والبحر تمتاز طبوغرافيتها بشدة الانحدار مناخها رطب بارد شتاءً ومنعش صيفاً، تتراوح درجات الحرارة بها بين 12° و 15° من شهر جانفي إلى شهر ماي وبين 28° و 32° من شهر جويلية إلى شهر سبتمبر، أما معدل تساقط الأمطار فيتراوح 350 مم و 450 مم⁽²⁾، وغطاءها النباتي جيد منذ القدم، فحسب ما ذكر صاحب القرطاس أن السلطان الموحيدي عبد المؤمن بن علي، قام بتجهيز أسطوله البحري وصنع السهام بمدينة هنين منه قائلاً "...أمر عبد المؤمن أمير المؤمنين بإنشاء الأساطيل في جميع بلاده... ومنه مرسى هنين مائة قطعة... والاستكثار من أنواع السلاح والعدد وأمر بضرب السهام في جميع عمله..."⁽³⁾، من أنواع الأشجار الموجودة حول المدينة شجر الصنوبر التين اللوز الخروب البلوط، وقد أيدت بأكملها بسبب الحرائق التي أضرم نارها الاستعمار الفرنسي سنة 1958 م⁽⁴⁾، وبعد الاستقلال أعادت الدولة الجزائرية تشجير الجبال المحاورة لمدينة هنين بأشجار الصنوبر.

هذه السمات التي طبعت تضاريس مدينة هنين جعلت منها مكانا استراتيجيا متميزا مغرباً للاستيطان البشري، شأنها في ذلك شأن مدينة تلمسان ومدينة ندرومة اللتان تميزتا بموقع استراتيجي

2- Georges Marçais, **Recherche d'Archéologie Musulmane, Honaine**, In(R) africaine, Volume 69, Arnolet Imprimeur-libraire, Constantine, Algérie, 1928, p:335-350
2- Abderrahmane Khelifa, Honaine ancien, Op.cit, p:61-62

4- أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، مصدر سابق، ص: 201

1- Abdelaziz Gawar, **Honaine et son environnement Agro-maritime caractéristique et vocation économique**, Colloque National sur: Honaine Passé et Présent, Université d'Oran Février 1985, p:38

هام، ما يميز مدينة هنين عنهما كونها مدينة ساحلية تقابل البحر من جهة الشمال وتلتف حولها شرقاً وغرباً وجنوباً الجبال بغطائها النباتي الكثيف، جامعة بذلك بين اللون الأخضر والأزرق، لقد أهلها هذا الموقع لأن تكون نافذة تطل من خلالها الدولة الزيانية على العالم أجمع، بمعاملاتها التجارية مع المدن الأوروبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

3-2 اللمحة التاريخية:

وضع الشمال الغربي من المغرب الأوسط بصمته في سجل الحضارة الإسلامية، عبر ما تركه سكان المنطقة من مآثر تشهد على إبداعاتهم ونشاطاتهم، مستفيدين أولاً من عامل الأمن، إذ أن جغرافية المنطقة تشبه حصن طبيعي، وثانياً من وفرة الماء والمأكّل، فخصوبة التربة ووجود منابع الماء ساعدا على الاستقرار.

3-2-1 أصل التسمية:

من المناطق التي استفادت من العاملين السالفين الذكر منطقة ترارة، فقد استوطنتها تجمعات بشرية كبيرة ومهمة على الصعيد التاريخي، من بين أهم مدنها: مدينة هنين فبالرغم من أن اسمها لم يكن مذكوراً أو معروفاً كشهرة سيقا Siga وأرشقول Arachegoul اللتين تردّدا عليهما القرطاجيون والرومان باستمرار بفعل عامل التجارة⁽¹⁾، إلا أن هناك من ذكر أنها عُرفت في تلك الفترة باسم جيساريا Gypsaria، وذلك حسب ما أورده بعض المؤرخين والجغرافيين القدماء أمثال هيروdot وسترابون لهذين الاسمين ارتباط بما تكتنزه تضاريس المدينة من معادن فالدارسين الجيولوجيين الفرنسيين عشروا بها ... الرحلة التي قاده إلى الصحراء الجزائرية في سنة 1847م إلى اسم جيساريا، وذلك أثناء حديثه عن مدينة سبدو قائلاً "...سبدو هي الخط الدفاعي الأول بالجهة الجنوبية الغربية لإقليم وهران، تقع عند خط طول 3° و 37 دقيقة غرباً ودائرة عرض 34° و 36 دقيقة شمالاً، النقطة الساحلية الأكثر قرباً لها

1- عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص: 132

هي جيساريا Gypsaria إذ لا تبعد عنها إلاّ بحوالي 73 كلم...⁽¹⁾، عن طريق التخمين في كون مدينة هنين هي أقرب نقطة ساحلية لتلمسان وهو ما جعل مينائها أقرب من ميناء وهران، لذلك فضله التجار قديماً، إذ حطت سفنهم المحملة بالبضائع به يمكن أن نستنتج أنها هي أقرب نقطة ساحلية لسبدو التي لا تبعد عن مدينة تلمسان إلاّ 35 كلم.

في سنة 1856م نشر ماك كارتني "Mac Carthy" دراسة في المجلة الإفريقية *Revue Africaine* عن منطقة ترارة بعنوان الجزائر الرومان حدّد فيها مكان تواجد جيساريا Gypsaria قائلاً "...هناك البعض من الجغرافيين من أراد ربط موضع جيساريا *Gypsaria* بموضع نورس Nemours (الغزوات حالياً)، لكن لم أجد في تلك المدينة أية دلالات طبونيمية أو أثرية أو تاريخية أو جيولوجية لها علاقة باسم جيساريا *Gypsaria*، لذلك أصرّح من وجهة نظري أنني أفضل إرجاع موضعها بمرسی هُنَائِي حيث يوجد بالقرب منه كميات هائلة من الجبس، يتوافق ما ذهبت إليه مع ما ذكره الجغرافي اليوناني بطليموس...".⁽²⁾

فيما يتعلق باسم المدينة "هنين"، فهو ينطق عند سكانها "هُنَائِي"، وهي كلمة ذات أصل بربري تعني "المنظر"⁽³⁾، لقد أتى على ذكر اسم هنين صاحب القرطاس في حادثة المؤذن التي وقعت سنة 237 هـ / 851م قائلاً "...وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعي النبوة وتأول القرآن على غير وجهه وتأويله فأتبعه خلق كثير من الغوغاء، وكان من بعض شرائعه أنه ينهى عن قص الشعر وتقليم الأظافر ونتف شعر الإبطين وأخذ الزينة، ويقول لا تبديل ولا تغيير لخلق الله، فأمر

3-Félix Jacquot, *Expédition du Général Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847*, Gide et Baudry libraires éditeurs, Paris, 1849, p:2

2-Mac Carthy, *Algeria Romana, Recherche sur L'occupation et La colonisation de L'Algérie par Les romains*, 2^{ème} partie, In (R) *Africaine*, Volume 01, Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine, Algérie, 1856, p: 169

3-Abderrahmane Khelifa, *Honaïne ancien...*, Op.cit, p:40

أمير تلمسان بالقبض عليه، فهرب وركب البحر من مرسا هنين إلى بلاد الأندلس، فشاع بها خبره وأمره فتبعه هناك من سفهاء الناس أمة عظيمة، فبعث إليه ملك الأندلس فاستتابه فلم يتب، فقتله وصلبه وهو يقول عند قتله أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله...⁽¹⁾، كما أشار إلى هذه الحادثة أيضاً صاحب الاستقصاء⁽²⁾، وذكر أبو عبيد الله البكري المدينة باسم هنين في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي، واصفا إياها على أنها عبارة عن حصن ذي أهمية أمنية وتجارية قائلاً "...ومن حصن الوردانية إلى حصن هنين أربعة أميال وهو على مرسى جيد مقصود وهو أكثر الحصون المتقدمة الذكر بساتين وضروب ثمر تسكنه قبيلة تسمى كومية..."⁽³⁾، بعد قرن من الزمان ذكرها الإدريسي أحد جغرافي القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر ميلادي أنها تقابل ألمرية الموجودة في الضفة الأخرى، وقد وصفها قائلاً: "...وهنين مدينة حسنة صغيرة في نحو البحر وهي عامرة، عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء، وخارجها زراعات كثيرة، وعمارات متصلة... من هنين إلى تلمسان في البر أربعون ميلاً..."⁽⁴⁾.

مع بداية عام 621هـ/1224م تحدث ياقوت الحموي في معجم البلدان عن مدينة هنين واصفا إياها كالاتي "...إنها في ناحية من سواحل تلمسان من أرض المغرب..."، وذكر أيضاً اسم هُونَيْن قائلاً "...هُونَيْن بالضم ثم السكون ونون ثم ياء ونون أخرى: بلد في جبال عاملة مطل على نواحي مصر..."⁽¹⁾، ما يدل على وجود موضع آخر يحمل نفس الاسم تقريباً بمصر.

يبدو من التقديم السابق أن المدينة عرفت تراجعاً في نشاطها تزامن مع تراجع نفوذ المرابطين في شمال إفريقيا، لكن مع سطوع نجم الموحدين بالمغرب الإسلامي تحت زعامة عبد المؤمن بن علي تألقت

3- أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، مصدر سابق، ص: 96

4- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، مصدر سابق، ج: 01، ص: 161

5- أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص: 80

1- أبو عبد الله محمد بن إدريس الحسني الشريف الإدريسي، مصدر سابق، مج: 02، ج: 01، ص: 534

وعادت تُذكر في كتب الجغرافيين، وإذا ما قورن بين ما توفر لنا من معطيات تاريخية قدّمناها سابقاً مما تركته كتب الرحالة عنها، نجد أنّ البكري قد وصفها بالحصن وربطها بمدينة ندرومة، أي أنها كانت تؤدي دور الحماية والدفاع عن الثغور الساحلية فقط، في حين ذكرها باقي الجغرافيين فيما بعد مثل الإدريسي أنّها مدينة ساحلية تربطها علاقة مباشرة بمدينة تلمسان العاصمة، أي أن خط تطورها بدأ شيئاً فشيئاً يبلغ أوجه وأصبح للمدينة وجه مشرق في الجانب العمراني والتجاري، فمنها وإليها كانت تُستورد وتُصدر البضائع من وإلى مدن الضفة المقابلة لها من البحر الأبيض المتوسط، كمدينة ملقا "Malaga" وألميريا "Almeria"، وذلك في الفترة الزيانية التي اعتمدت بشكل كبير في نشاطها التجاري على ميناء هنين لقربه من العاصمة تلمسان، إذ لا يبعد عنها إلاّ بحوالي 60 كلم مُشكلاً بذلك الرئة الاقتصادية لها آنذاك.⁽²⁾

يُدعم هذه الفكرة ما أورده حسن بن محمد الوزان عقب زيارته لمدينة هنين، وذلك قبل الاكتساح الإسباني للمدينة سنة 1517م، أي بحوالي 12 سنة من احتلالها على يد قادة الملك شارلكان، وذكر مايلي "... هنين مدينة صغيرة قديمة بناها الأفارقة... لها ميناء صغير محروس ببرجين كل واحد منهما في جهة تحيط بها أسوار عالية متينة لاسيما من جهة البحر، وكان سكان هنين كلهم تقريباً يعملون في القطن والمنسوجات..."⁽³⁾، ينم ما قدّمه هذا الجغرافي عن الرخاء الاقتصادي والرقى الاجتماعي الذي كان حاصلًا في مدينة هنين أيام الدولة الزيانية.

3-2-2 أهم المراحل التاريخية التي مرت بها مدينة هنين:

نظراً لقلّة المادة العلمية التاريخية حول مدينة هنين في كتب الرحالة الجغرافيين، ربما لأنها كانت مجرد حصن في أول الأمر، صعب الحديث عن أهم المحطات التاريخية التي مرت بها المدينة، إلاّ أنه يُستدل

2- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج 05 ص: 419

2-René Basset, Op.cit, p:96

3- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ج 02، ص: 15

مما تقدم ذكره أنها عاشت أوج عظمتها ورفيها أيام في الفترة الزيانية، إذ أصبحت همزة وصل بين الشمال والجنوب والرئة الاقتصادية للدولة الزيانية، عبر المبادلات التجارية التي كانت تتم من مينائها، حيث قدمت إليها سفن الأندلس ومالغا وألميرية وأخرى من برشلونة والبندقية وفلورانس وكاطلونيا، تحدّث حسن الوزان أيضا عمّا له علاقة بذلك أثناء زيارته للمدينة "...كنت مع أحد كتاب ملك تلمسان جاء لاستلام ضرائب من سفينة جنوية حملت من البضائع ما يمون تلمسان لخمس سنوات، بلغت قيمة الرسوم التي قبضها الملك خمسة عشرة ألف مثقال ذهباً مسكوكاً أرائيها الكاتب...".⁽¹⁾

إضافة إلى ما عرفته هنين من رخاء اقتصادي عرفت كذلك نشاط ديني مكثف، إذ قدم إليها بعض علماء الدين مثل أحمد بن الحسن الغماري الذي كان يحضر صلوات الجمعة بهنين⁽²⁾، كما وُلِّي بها قضاء الجماعة أبي عثمان سعيد بن محمد العقباني (نسبة لعقبان قرية من قرى الأندلس)، وأبو علي حسن بن السيد الشريف الذي أخذ عن بن عبيدة وبن الشاط ثم رحل إلى المشرق وأخذ فيه عن علماء كثيرين⁽³⁾، لم تسلم مدينة هنين من الصراع المريني الزياني لأهميتها الاقتصادية، ومكانها الاستراتيجي المفتوح على العالم من جهة البحر، لذلك لم يدّخروا جهداً في الاستيلاء عليها، فقاموا بعزلها عن العاصمة تلمسان، كما قطعوا صلتها بالضفة الأخرى لكي لا يتلق الزيانيون أية إمدادات من بني الأحمر، إذ قام أبو يعقوب يوسف المريني بعد محاصرته لمدينة تلمسان ببعث جيش آخر إلى هنين، فما كان لها إلا أن انطوت تحت طاعته⁽⁴⁾، لكن بعد مغادرة المرينيين وفشل حصارهم رجعت هنين إلى سابق عهدها إلى الحد الذي تم فيه طرد مستخلفي المرينيين على المدينة كلياً، في المرة الثانية التي عاد فيها أبي الحسن لغزو تلمسان استولى على المدن الساحلية التابعة لها كوهران وهنين عام 736هـ/

1-المصدر نفسه،ص:15

3-ابن مريم الشريف المليتي المديوني،مصدر سابق،ص:31

1-يحيى بن خلدون،مصدر سابق،ص:72

2-أبو الحسن علي بن عبد الله ابن زرع الفاسي،مصدر سابق،ص:386

1355م⁽¹⁾، محتلاً بذلك كافة المغرب الأوسط، يورد بن مرزوق حديثاً يتكلم فيه عن ذلك قائلاً "... ومنها الجامع الذي أنشأه بمدينة هنين، وكان شراء موضعه على يدي وهو مسجد خطبة، وصومعة فيه كبيرة..."⁽²⁾، هذا الحديث يؤكد ما كان لمدينة هنين من أهمية، دفعت بالسلطان المريني أبي الحسن بناء مسجد جامع بها.

في خضم الصراع الزياني والمريني الذي كان في حركة مدّ وجزر بين الطرفين وبالتحديد في الفترة التي أكمل فيها أبي عنان المريني احتلاله للمغرب الأوسط، قامت بعض القبائل المجاورة لمدينة هنين اغتنام فرصة ذلك النزاع للاستقلال عن السلطة الزيانية وتكوين وجود خاص بها، من بين تلك القبائل قبيلة ذوي عبيد الله التي قامت بالسيطرة على الطريق التجاري الرابط بين تلمسان العاصمة ومدينة هنين وفرضت إتاوة على كل من يستعمل ذلك المسلك طوال أيام السنة، وقبيلة بني عابد التي ينتسب إليها عبد المؤمن بن علي، بعد ما تفتن لها السلطان الزياني أبو ثابت قتل العديد منهم وأسر ما تبقى، وأخذ زعيم تلك الثورة إبراهيم عبد الملك مكبلاً بالحديد لتلمسان أين توفي بأحد سجونها هناك وفقاً لما ذكره عبد الرحمن بن خلدون في مايلي "... فجمع له السلطان أبو ثابت ونهض إلى كومية فاستباحهم قتلاً وسبياً واقتحم هنين... وتقبض على إبراهيم بن عبد الملك..."⁽³⁾.

بعد انتهاء الصراع الزياني المريني انطوت مجدداً تحت حكم الدولة الزيانية، لكن سرعان ما بدأ الوضع يتغير تحت طائلة التهديد الجديد القادم من اسبانيا، إذ وبعد سقوط الأندلس كليا مع مطلع القرن 10هـ/16م، وبالتحديد سنة 898هـ/1492م، بدأت إسبانيا شن حركة الاسترداد "la Reconquista" التي بدأتها على الأندلس ثم المغرب الأوسط، شجعها في ذلك احتضار الدولة الزيانية

3- عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص: 135

4- محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص: 403

1- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، مج 07، ص 15

وضعف واضطراب الأوضاع الاجتماعية والسياسية في المغرب الإسلامي كافة، أول ما قامت به هو احتلال مدينة وهران سنة 915هـ/1509م، ما دفع بأهالي مدينة تلمسان إلى دعوة التجار الذين كانوا يرتادون على سواحلها إلى النزول بميناء مدينة هنين، هذه الأخيرة التي أرسل إليها السلطان الزياني مدداً استعداداً للدفاع عنها لأهميتها الاقتصادية البالغة، لكن هذه الأخيرة لم تكن على ما يرام مع إسبانيا فحسب ما أورده مارمول كارينخال قائلاً "...وكانت ستصبح في حالة حسنة جداً لولا أن طمع السكان تسبب في تلفها لأنهم لم يكتفوا بتجارهم بل آوؤ القراصنة، وخرجوا معهم لشن الغارات على سواحل إسبانيا..."⁽¹⁾، إضافة إلى ذلك برز حدث آخر تمثل في موت السلطان الزياني أبي حموموسى الثالث الذي كان يدفع إتاوة سنوية لإسبانيا مقدارها اثنا عشرة ألف أوقية ذهب واثنا عشرة حصان، وستة من أنثى النسر⁽²⁾، تولى بعده الحكم أحد إخوته المسمى أبو محمد عبد الله الذي دخل في مشادات حادة مع ابنه حول سُدة الحكم الأمر الذي زاد في بلبلة الأوضاع السياسية من جهة ومن جهة أخرى زاد في طمع إسبانيا التي كانت تتابع تطور الأحداث السياسية بقصر السلطان الزياني لاختيار الطرف الزمني الملائم للظفر بميناء مدينة هنين وهو ما كان يقوم به المنسق العام لمدينة وهران ليبريج Librij، إذ بعث رسالة إلى ملك إسبانيا بتاريخ 10 مارس 1531م يعرض فيها ذلك.⁽³⁾

بعد ثلاثة أشهر وبالضبط في شهر أوت 1531م أمر الملك شارلكان Charlequint قائده العسكري ألفارودوبازان Alvaro De Bazan أن يتوجه إلى مدينة هنين بغية احتلالها، فخرج إليها هذا الأخير من مدينة مالقا رفقة أسطول قوي مؤلف من إحدى عشرة سفينة حربية وناقلتين ومائتين وخمسين جندي، جُلبت من حامية وهران ومأونة تكفي لمدة شهرين، تم الهجوم على المدينة التي لم تكن

2- مارمول كارينخال، مصدر سابق، ج 02، ص: 296

3-Alfred Berenguer, **Intermède Espagnol (1531-1534)**, colloque national sur Honaine passé et présent, Université d'Oran, Février 1985, p:03

3-F.Primaudaie, **Document Inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique(1506-1674)**, In(R)Africaine Volume 19, Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine, Algérie, 1875, p:179

بها قوة عسكرية كافية بغتة سقط في هذا الهجوم ما يقارب الأربعين جندياً اسبانياً وجرح فيها ما لا يقل عن المائة منهم، ما يدل على أن المعركة كانت حامية الوطيس وأن أهالي المدينة دافعوا ببسالة عن أرضيهم، لكنها انتهت بتفوق الإسبان ليتمكن بذلك شارلكان Charlequint من الظفر بها والانتقام من سكان المدينة الذين ساعدوا في إيواء القراصنة وشنوا معهم غارات على شواطئ اسبانيا.⁽¹⁾

عقب الاحتلال الاسباني لمدينة هنين بعث ليرج Librij رسالة بتاريخ 02 سبتمبر 1531 إلى الملك شارلكان Charlequint لكي يثمن فيها ذلك النجاح، وقد جاء فيها مايل: "...أنا أعتبر الاستيلاء على هنين أمراً بالغ الأهمية، إذ سنتمكن من الآن فصاعداً من معاوية السلطان التلمساني وإخضاعه للوفاء بوعوده، الطريق المؤدي لتلمسان من مدينة هنين قريب جداً سنستطيع الولوح إلى المملكة من دون عناء للاستيلاء وأخذ أحسن ما تجود به تلمسان من السلطان عبد الله...".⁽²⁾

هدف الاحتلال الاسباني كان الحصول على تلمسان كافة ونهب ما فيها، لهذا تم ترك حامية كبيرة مكوّنة من سبع مائة جندي وخمسة عشرة مدفعا بمؤونة تكفي لمدة خمسة عشرة يوماً ريثما يتم بعث تموين آخر من مدينة مالقا، بعد مرور ثلاثة سنوات من الاحتلال بعث إينيقو دي فليجو باشيكو Inigo De Vallejo Pacheco الذي عُين قائداً على مدينة هنين رسالة بتاريخ 13 مارس 1534م إلى الملك الاسباني يصف له الإهمال الذي طال الحامية العسكرية بالمدينة، وأنه راسل القائمين على التموين عدّة مرات لكن من دون جدوى، عاود القائد الاسباني بعث رسالة أخرى بتاريخ 26 أبريل 1534م يبدو من مضمونها أن أوضاع الجنود الاسبانيين لم تكن بخير فقد زادت تآزماً بالمدينة، ما جاء فيها "...لا توجد لدينا أية مأونة بالمدينة والتجار لرفضوا التعامل معنا من دون مال، لأن الجند لم

2- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492م-1722م)، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

يستلموا رواتبهم منذ مدة، أرجوا منكم أن تكلفوا المحاسب فرانسيسكو دي كورتيناس Francisco Di Cortines الذي يتواجد حالياً ببلاط قصركم تسديد رواتب الجند المتأخرة، فقد طلبوا مني الإذن بالرجوع إلى إسبانيا لأنه ليس بوسعهم شراء حتى السمك، كما أحيط علمكم أن تجار مالقا وباقي المدن الإسبانية رفضوا المجيء لهنين لأنهم علموا أن الحامية العسكرية لا تملك مالاً من أجل أن تدفع لهم ثمن سلعهم...⁽¹⁾، في الأخير تخلت الحامية العسكرية الإسبانية عن المدينة، وحينها قام الجند بحرق وتخريب المدينة، وجعلوا عاليها سافلها ليخرجوا منها في شهر ديسمبر عام 1534م⁽²⁾، ونتيجة لذلك فقدت هنين رونقها وطابعها العمراني والتجاري الذي اكتسبته من كونها مدينة ساحلية وتجارى لتنطوي من جديد تحت لواء تلمسان التابعة للحكم التركي الذي استعانت به لمواجهة خطر الاسبان، وفي سنة 1568م وقعت معركة كبيرة بحرية بالقرب من هنين بين السفن التركية بقيادة صالح راييس والسفن الإسبانية بقيادة دون جون دوتريش Done Jone Detriche⁽³⁾، انتهت بتفوق الأسطول التركي الذي استنقذ للإسلام مدينة هنين وأنهى الخطر الإسباني⁽⁴⁾، وكذا الحكم الزياني على المغرب الأوسط كافة بعدما أن أعلن صالح راييس نهاية الدولة الزيانية سنة 962هـ/1554م وضمها إلى الحكم العثماني نهائياً.⁽³⁾

1-ibid,p:188-276

2-Georges Marçais,recherche.....,Op.cit,p:344

1-عبد العزيز محمود لعرج،مرجع سابق،ص:140

2-ابن الأحمر،مصدر سابق،ص:36

3-أحمد توفيق المدني،مرجع سابق،ص:329،ينظر كذلك:محمد بن عمرو الطمار،مرجع سابق،ص:238

خلاصة الفصل:

لقد تمّ التعرض في هذا الفصل للجانب الجغرافي والتاريخي لمنطقة تلمسان، وقد تبين أن دراسة مواقع المدن يساهم بشكل مباشر في إبراز الوجه والعلاقة المتبادلة بين مظاهر سطح المكان والمستوى الحضاري الذي وصلت إليه الحواضر قديماً، إذ يرتبط النشاط البشري ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية التي تلفه، وقد تمّ التركيز على ثلاثة مدن باعتبارها الأكثر غنى في مجال التراث المادي بمنطقة تلمسان وهي: مدينة تلمسان ومدينة ندرومة ومدينة هنين، فمدينة تلمسان المتواجدة بالجهة الغربية من الجزائر كانت العاصمة السياسية والاقتصادية للدولة الزيانية لأكثر من ثلاثة قرون، وفيما يخص تسميتها فقد أطلق عليها بوماريا أي بستان الفواكه، ومع مجيء الفتح الإسلامي ظهر الاسم الجديد وهو أغادير باللهجة المحلية معناه الحصن أو الصخرة المنيعة أو جدار المدينة، بقي الاسم ساري المفعول إلى أن دخل يوسف بن تاشفين المدينة وأطلق عليها اسم المحلة، لتتقلد بعد ذلك اسم تلمسان الذي لا زالت تحمله لحد الساعة، ولأنها كانت نقطة مغرية في الاستيطان تعاقبت عليها العديد من الإمبراطورية الرومان ثم الدول الإسلامية في مقدمتها الدولة المرابطية الموحدية والزيانية والأتراك.

فيما يخص مدينة ندرومة فهي تعتبر أفضل مدن السلسلة الجبلية بترارة، إذ تحتوي ثروة مائية كبيرة تتدفق من الجبال المحاذية لها وتحتل موقعاً استراتيجياً يسهل من مهمة الدفاع عنها ضد الغزاة بامتدادها على طول سفح جبل فلاوسن، يُرجع الرحالة محمد بن الحسن الوزان تأسيسها إلى الرومان، لكن الدراسة التي أجريت لم تصل إلى أي نتيجة لها علاقة مع ما تحدّث عنه هذا الأخير، لقد مرّت مدينة ندرومة هي الأخرى بمحطات تاريخية أولها فترة الولاة ثم الأدارسة والفاطميين والمرابطين والموحدين والزيانيين والأتراك. بالنسبة لمدينة هنين تعتبر بوابة تلمسان على البحر، اسمها يُنطق بعدة تسميات: أهناي وهن وهني وهنين هذا الأخير هو الاسم القائم لحد الساعة هي الأخرى كمدينة ندرومة تأخذ مجالاً من سلسلة جبال ترارة المعروفة بمسالكها الوعرة تمتد على سفح جبل المنزل، تظهر المدينة العتيقة من المرتفعات الجبلية التي تحيط بها على شكل شبه منحرف قاعدته الكبرى نحو الشرق، وبالرغم من أن اسمها لم يكن

مذكوراً إن صح القول معروفا كأرشقول وسيقا إلا أن هناك من ذكر أنها عُرفت باسم جيبساريا، لهذا الاسم ارتباط بما تكتنزه تضاريس المدينة من جبس، أما عن أهم الفترات التاريخية التي مرّت بها فتتمثل في الفترة الموحدية والزيانية وفترة الصراع الزياني المريني.

الفصل الثاني

نبذة عن التراث المعماري والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان

- 1-نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية.
- 2-نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية.
- 3-نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية.
- 4-نبذة عن المواقع الأثرية.

تمهيد:

نظراً لما تميزت به مدينة تلمسان من موقع استراتيجي أصبحت مكاناً مغرباً للاستيطان، فكانت قبلة للعديد من الملوك الذين اختاروها قاعدة للولوج نحو المغرب الأوسط والأدنى، حيث اجتمعت فيها مدينتان في مكان واحد هي أغادير اوتاقرارت، أنظر المخطط رقم 01، كما صارت مركز حكم (عاصمة) للدولة الزيانية ابتداء من القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشرة ميلادي، وقد تركت هذه الدول المتعاقبة على حكم تلمسان بصماتها في مجال العمارة وال عمران تنوعت بين ما هو ديني مثل الجوامع والمساجد والمدارس والأضرحة، ومدني مثل القصور والحمامات والمساكن والدروب ... وغيرها وعسكري مثل الأسوار والأبراج والأبواب، وسنحاول الحديث في هذا الفصل عن بعض المعالم الأثرية والمواقع التاريخية الموجودة فيها مُركِّزين على العدد البارز من عمائرهما، نظراً لغناها بالتراث المادي الثابت، وقد اعتمدنا في تقديم الوصف المعماري على ما تم ذكره في كتب الدارسين من قبل، وما لاحظناه في معاينتنا لها.

1-نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية:

جاء التصميم العمراني لمدينة تلمسان موافقاً لتعاليم الدِّين الحنيف من خلال ما تجسد فيها من بين معالمها الدينية التي عكست مدى اهتمام قاطنيها بدينهم وحرصهم على إقامة شعائره مايلي:

1-1 المساجد:

تكتسب المساجد مكانة خاصة لأنها المكان الذي خصَّه الله عزَّ وجل لجلاله لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾⁽¹⁾، بغض النظر على أنَّ ما في الكون جميعاً هو ملكه وقد أدرك المعماري المسلم معنى هذه الآية فأوَّل المساجد اهتماماً بالغاً إلى الحدِّ الذي لا يمكن أن تجد حياً من أحياء المدينة حالياً منه، كما كانت أول ما يُشيد عند الشروع في وضع أسس أي تجمع

1-سورة الجن، الآية 18

سكاني، بالنسبة لوضعية المصلي بيت الصلاة فقد جاءت في بعض المساجد متماشية مع أوضاع الإنسان المختلفة المحددة في كتب الهندسة الحديثة، والتي يقضي الإنسان من خلالها حاجياته بكل راحة، حدّدها المعماري أرنست نوفر Ernest Neufert بمسقطيل طوله 137.5سم وعرضه 75سم.⁽¹⁾

ومن بين مساجد مدينة تلمسان التي سنقدم لمحة عنها بدءًا بالأقدم هي ما يلي:

1-1-1 مسجد أغادير:

لم يتبق من المسجد الذي انهار كلياً وتوارى تحت الأقدام إلا المئذنة التي أنشئت في وقت لاحق على يد مؤسس الدولة الزيانية يغمراسن بن زيان، توجد الآن في مكان منعزل، بُنيت بالحجر المشذب ذي الأصل الروماني، وذلك ما تؤكده الكتابات المنحوتة عليها، تجدر الإشارة إلى واحدة من تلك الكتابات أشارت إلى وجود حمامات خاصة بجند الرومان في بوماريا رّمها سيفسليو سجوفنيوس Sivsilio Sijouvénise.⁽²⁾

يرى الأخوان وليام وجورج مارسيه أنها كانت تنتصب بالزاوية الشمالية من المسجد، مثلها في ذلك مثل مئذنة الجامع الكبير ومسجد سيدي بومدين، ارتفاع قاعدتها يبلغ ستة أمتار يلتف حول نواتها المركزية سلّم يتكون من مائة وثلاثة وعشرين درجة توصل إلى الجوسق⁽³⁾، ينتصب البدن فوق القاعدة به إطار صغير يضم عقداً مفصصاً واحداً يعلوه إطار آخر مستطيل الشكل يتكون من عقدين مفصص

1-Ernest Neufert, **les éléments des Projets de Construction, démentions et Places nécessaires**, L'homme mesure de toute chose ,Traduit par Karine Ansquer Ulrick Yves bemdritter, Jean-charles Helioing et Urs Keller, 2006, p:38-39

2-محمد عمرو الطمار، مرجع سابق، ص: 11

3-Georges et William Marçais, **Les Monuments Arabes de Tlemcen**, éditeurs libraire des écoles françaises d'Athènes et de Rome, du collège de France et de l'école normal supérieure, Paris, 1903, p:137-138

يستند عليهما شبكة من المعينات التي يأتي يستند عليها هي الأخرى إطار ذو استطالة عرضية به خمسة عقود مفصّصة يكلل البدن خمسة شرافات تتوزع على الواجهات الأربع للبدن، يعلوه جوسق تتضمن واجهاته الأربعة إطاراً مستطيلاً يتواجد بداخله عقد ثلاثي تعلوه شبكة صغيرة من المعينات.⁽¹⁾

1-1-2 الجامع الكبير:

يرجع تأسيس هذه التحفة المعمارية إلى فترة المرابطين حسب ما تؤكدته الكتابة التذكارية التي تتواجد بقبة الجامع، جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم هذا ما أمر به الأمير الأجل أيده الله وأعز نصره وأدام دولته وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن علي أدام الله عزهم فتم في شهر جمادى الأخير عام ثلاثين وخمس مائة"⁽²⁾، كما توجد كتابة أخرى نُقشت على الباب الخشبي للمقصورة القديمة ترجع إلى رمضان 533هـ.

إنّ هذان التاريخان الموجودان بالجامع موافقان لسنة 1136م، يعودان إلى عهد حكم السلطان علي بن يوسف بن أبي تاشفين وهو السلطان ما قبل الأخير للمرابطين في فترة حكمه ظهر ابن تومرت الذي لُقّب نفسه بالمهدي المنتظر⁽³⁾، ومع مرور السنوات ومجيء يغمراسن بن زيان تم إضافة المئذنة على يده على حدّ قول يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسي، إذ رفض أن يسجل اسمه عليها، وبعد أن طلب منه مستشاريه ذلك جاوبهم باللهجة الزناتية قائلاً: "يَسْنَت رِي "أي" علمه عند الله"⁽⁴⁾، كما أضيفت ملحقات أخرى كمكتبة كانت توجد على يمين المحراب بنيت من طرف أبي حمو

1-Georges et William Marçais, Op.cit,p:138

2-Rachid Bourouiba, **L'art Religieux Musulman EnAlgérie**, 2^{ème} édition, SNED, Algérie, 1983, p:105

3-ibid,p:108

4-يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص116، ينظر كذلك: محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك بني تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعيد، منشورات ANEP، 2010، ص:135

موسى الثاني عام 760هـ/1359م ومكتبة أخرى يعود تاريخ بناءها إلى حكم السلطان أبي زيان في الجهة الأمامية من الجامع، إضافة إلى ذلك تمّ بناء أضرحة، واحد بالجهة الجنوبية الغربية يحتوي على قبة مضلعة وبه قبر كل من محمد بن مرزوق وأبي الحسن بن النجارية، أما بالجهة الشرقية توجد حُجرة قبر سيدي أحمد الحسن الغماري، وفيما يخص مخطط الجامع هناك انحراف أُدرج في المخطط الأصلي على مستوى الجهة الغربية، حسب الأخوان جورج و وليام مارسيه هو ناتج عن جوار بناية هامة تعدّر إزالتها وسبق وجودها تشييد الجامع، يُتمثل أن تكون لقصر قديم كان الجامع ملحقا به.⁽¹⁾

يبلغ طول الجامع الكبير 62م، وعرضه 49,3م، مساحته الإجمالية تقدر بـ3056م²، وعلى شاكلة الجوامع المرابطية المشيدة في المغرب الأوسط وهما الجامع الكبير بندرومة والجامع الكبير بالجزائر، يتميز الجامع الكبير بتلمسان في تصميمه الداخلي بنظام الأروقة العمودية على جدار القبلة، يبلغ عددها ثلاثة عشرة رواقا، وتتخللها ستة صفوف من الدعامات، أما عدد البلاطات فيبلغ ستة موازية لجدار القبلة يتألف الرواق المركزي من ثلاثة عناصر معمارية ريفية الصنع تتمثل في المحراب الذي يعد من الجانب الفني ثاني أجمل محراب بالمغرب الإسلامي بعد محراب جامع قرطبة إذ يعد نسخة طبق الأصل عنه⁽²⁾، قوسه مفصص به زخارف نباتية وكتابات بالخط الكوفي جاء فيها "بِسْمِ اللَّهِ" بالخط الكوفي مُكوناً شكل ورقة، ويتمثل العنصر المعماري الثاني في المسجد الجامع في القبة التي تتقدم المحراب بها ستة عشرة ضلعاً⁽³⁾، أما العنصر المعماري الثالث فيتمثل في القبة التي أضافها يغمراسن بن زيان، مكللاً إياها بشريا ضخمة مصنوعة من الخشب والنحاس الأصفر تحتوي على 360 شمعة، تمتد الأروقة الجانبية إلى الصحن حيث تحيط به ثلاثة من جهة الشمال وأربعة من جهة الجنوب، ينفتح بيت الصلاة الذي يبلغ طوله

1-وليام وجورج مارسيه، مرجع سابق، ص: 181

2-Georges Marçais, l'Architecture Musulmane d'Occident, Tunisie, Algérie Maroc, Espagne, Sicile, Arts et Metiers Graphiques, France, 1954, p:54

3-Rachid Bourouiba, Op.cit, p:113-114

46.30م وعرضه 22.33م على صحن مربع الشَّكْل، تتميز هندسة الجامع من الداخل باستعمال العقود على نوعين النوع الأول على شكل عقد حدوة الفرس منكسر ومتجاوز، النوع الثاني مفصَّص وهو متواجد بالقرب من المحراب.⁽¹⁾

بالنسبة لمئذنة الجامع فقد شيّدت من طرف السلطان يغمراسن بن زيان كما ذكرنا، وهي مربعة الشكل ارتفاعها الكلي يقدر بـ29.15م، يبلغ ارتفاع البرج الرئيسي 24.45م، وارتفاع غرفة المؤذن يبلغ 4.70م، طول ضلعها يقدر بـ6.30م، وعدد درجات المئذنة يبلغ 130 درجة، وفيما يخص زخارفها فقد حاول الفنان إيجاد تنوع زخرفي، إذ لجأ إلى تزيين الحنية بأربعة عقود ذات شرفة من رأسين تستند عليها شبكة من المعينات، يعلوها إطار مستطيل به خمسة عقود مفصصة ينتهي البرج الرئيسي بشرفات عددها اثنا عشرة شرفة، أما الجوسق فقوام زخارفه إطار مستطيل يحتوي على عقدين، عقد حدوي مدمج داخل عقد مفصَّص من تسعة فصوص يحيط بهما إطار من الزليج الملون بالأبيض والأخضر والبني القائم.⁽²⁾

3-1-1 مسجد أولاد سيدي الإمام:

بُني هذا المسجد في عهد الدولة الزيانية التي سجلت بصمتها ببراعة في مجال الفن المعماري الإسلامي شيده أبوحمو موسى الأول حوالي سنة 710هـ/1311م بعد مرور خمسة عشرة سنة من تشييد مسجد سيدي بلحسن المجاور له، وذلك تكريماً للعالمين الجليلين الأخوين أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى اللذين ترجع أصولهما لمدينة برشك القريبة من تنس، بعد استقرارهما بمدينة تلمسان أصبحا من أخلص المستشارين ببلاط سلاطين تلمسان، هناك من يذكر أن تاريخ وفاتهما كان عام 741هـ/1340م بالنسبة لأبي زيد عبد الرحمن و749هـ/1348م لأبي موسى عيسى، لكن الأخوان وليام وجيورج مارسيه يذكران أن تاريخ الوفاة كان في عام 1312م لأبي زيد و1317م لأبي

1-Rachid Bourouiba, Op.cit,p:109

2-ibid,p:187-189

موسى⁽¹⁾، يتشابه هذا المسجد مع مسجد سيدي بلحسن من حيث عدم احتوائه لا على صحن ولا على مدخل ضخم، للمسجد باب واحد يقع في الزاوية الشمالية، تتألف بيت صلاته من ثلاث بلاطات وثلاثة أروقة تعلوها بائكة مؤلفة من أربعة عقود، لا توجد بها أية ميزة فنية، وبجدار القبلة يوجد المحراب بنوافذه الثلاث الصغيرة ذات الشكل المقوس مقابلاً للرواق الأوسط، يحيط به إطار يتضمن بقايا تراكيب جصية طفيفة تنم عن الدقة في الصنع، قبتة مغطاة من الداخل بمقرنصات تعلوها قبة صغيرة تتألف من ستة عشرة تحريماً، ما يميز هذه القبة العمودين اللذين يحملانها، إذ تجمعها قنطرتان وضعت إحداهما فوق الأخرى، القنطرة الأولى التي لا تظهر للعيان محشوة بتقاطع شبيهة بالتي هي موجودة بمحراب مسجد سيدي أبي الحسن، أما القنطرة الأخرى، أي السفلى فهي مزخرفة بنقوش على هيئة سعف النخيل، مثل ما هو منجز بمحراب مسجد سيدي أبي مدين، وفيما يخص المئذنة يبلغ ارتفاعها 17م، وهي موجودة بالزاوية الجنوبية الشرقية من المسجد جهاتها الأربعة مزخرفة على شكل رقعة الشطرنج ومرصعة بفسيفساء مختلفة الألوان، تتراوح بين اللون الأخضر والأبيض والبني القاتم، ما يعكس براعة وإتقان المعماري المسلم في مجال الزخرفة، أما الجوسق فتتوجه أربع شرافات موجودة في الزوايا الأربعة للمئذنة.⁽²⁾

1-1-4 مسجد سيدي أبي الحسن:

شُيد هذا المسجد من طرف السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي يحيى يغمراسن، أخذ اسم العالم الجليل سيدي أبي الحسن علي بن يخلف التنسي أحد القضاة والفقهاء، يعود أصله إلى مدينة تنس ثم رحل منها إلى مدينة تلمسان، كان يلقي الدروس في هذا المسجد وكذا في الجامع الكبير⁽³⁾، في

1- وليام وجيورج مارسيه، مرجع سابق، ص: 238

2- المرجع نفسه، ص: 245

3- ابن مريم الشريف التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية 1908، ص: 66

حين أن كتابة تأسيسية منقوشة في لوحة من المرمر الأخضر اللون بخط أندلسي تنص أنه بُني للأمير أبي عامر إبراهيم، وقد جاء فيها: "بني هذا المسجد للأمير أبي عامر إبراهيم ابن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان عام 696هـ"، وقد كُتِبَ هذا النص بخط كوفي فوق الإطار الذي يلف المحراب⁽¹⁾، وذكر جيورج مارسيه أن مؤسسه السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي يحيى يغمراسن أوقف عليه بعض المنشآت المعمارية تمثلت في عشرين حانوتاً من جهة القبلة ومسكنين واحد للإمام والآخر للمؤذن.⁽²⁾

ورغم المساحة الصغيرة لهذا المسجد فهو يعتبر آية في الفن المعماري الإسلامي، يحتوي على بيت صلاة مربع الشكل تبلغ مساحته حوالي 100م²، به ثلاثة أروقة أعمدتها من الرخام متوجة بتيجان تعلوها أقواس على شكل حدوة الفرس يستند عليها سقف من الخشب، ويكتنف الجدار القبلي للمسجد المحراب مقابل الرواق الأوسط، لقد تَمَّتْ تكسيته بزخرفة رائعة الصنع، تتدلى من قبه التي تنتصب على أعمدة من الرخام المقرنصات، قوسه على شكل حدوة فرس يستند على عمودين مصنوعين من الرخام⁽³⁾، تنتصب مئذنته المربعة الشكل في الزاوية الجنوبية الشرقية من المسجد بارتفاع قدره 14.25م مبنية من الآجر، يتم الوصول إلى الجوسق بسُلَّم دائري يحيط بنواة مركزية، وفيما يخص زخرفتها فقد جاءت على شكل بوائك مستطيلة بعضها يتضمن مجموعة من المعينات المتشابكة فيما بينها، وبعضها الآخر عقود.

1-Rachid Bourouiba, **Les Inscriptions Commémoratives des Mosquées d'Algérie** société nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1979, p:77

2-Georges Marçais, **Les villes d'Arts Célèbres Tlemcen**, Librairie Renouard, Haurans, Paris 1950, p:41

3-Georges et William Marçais, **Op.cit**, p:172

وعموماً يحمل هذا المسجد بصمة معمارية فنية راقية عبر ما تضمنه من مواد بناء متناسقة مع الزخرفة التي أنجزت فوقها، وهو ما جعله يعكس ما كان للعمارة الإسلامية في الدولة الزيانية على اختلاف أنواعها خاصة الدينية ما كان لها من مستوى فني راقٍ وذائع الصيت بين قريناتها من الدول التي تنقسم معها نفس البقعة الجغرافية ونفس الدين. (1)

1-1-5 مسجد سيدي الحلوي:

يعتبر هذا المعلم الأثري أحد أهم العمائر الدينية التي برع في تشييدها المعماري المسلم إبان الفترة التي سقطت فيها تلمسان بيد المرينيين، أنشئ بعد أربعة عشرة عاما من بناء مسجد سيدي أبي مدين على يد السلطان المريني أبي عنان فارس بن أبي الحسن المريني إلى جانب الزاوية التي اندثرت معالمها كلياً، أخذ هذا المسجد اسم الفقيه أبو عبد الله الشودي الملقب بسيدي الحلوي، ذلك ما تؤكدته الكتابة التأسيسية المنقوشة بالخط الأندلسي التي نقلها بروسار Brauslard جاء فيها ما يلي: "الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك، مولانا السلطان أبو عنان فارس بن مولانا أبي الحسن علي ابن مولانا السلطان أبي عثمان بن مولانا أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام أربع وخمسين وسبعمائة" (2)، الموافق لسنة 1353م، بعد أن غادر سيدي الحلوي إشبيلية التي كان بها قاضياً إلى تلمسان عام 1266م، تبرع بكل ثروته للفقراء ليصبح بائعاً للحلوى، ونتيجة لأدبه وعلمه الذي اتصف به، التفّ الناس حوله وأكثوا له الحب والتقدير ما حرك نفسية حساده الذين دبروا له مكيدة ودسيئة لدى السلطان وذلك باتهامه بالزندقة الأمر الذي أدّى إلى تنفيذ حكم الإعدام في حقه بقطع رأسه، ليتبين فيما بعد أنه قُتل ظلماً، حينها أعاد السلطان المريني الاعتبار لهذا الفقيه، وبني له ضريحاً وأعدم مدبر المكيدة.

1-Georges et William Marçais,Op.cit,p:183

2-Charle Brosselard,Les Inscriptions Arabes de Tlemcen,In(R)Africaine ,4^{ème} année,N°19,Arnolet imprimeur-libraire,Constantine,Algérie, 1860,p:322

طبوغرافية موقع المسجد مشابحة لطبوغرافية موقع مسجد سيدي بومدين، فكلاهما يوجد على مرتفع شديد الانحدار يبلغ طول المسجد 27.50م أما عرضه 17.40م، يتم الولوج إلى داخله عبر مدخل ضخم به ستة درجات يفضي إلى باب ضخم يعلوه قوس على شكل حدوة الفرس، فيما يخص بيت الصلاة به بابين جانبيين، يبلغ طوله 17.5م أما عرضه فيبلغ 13.68م، ينقسم إلى خمسة أروقة عمودية على جدار القبلة عرض كل واحد منهما ثلاثة أمتار باستثناء الرواق الأوسط الذي يبلغ 3.35م، وأربعة بلاطات موازية لجدار القبلة، أعمدة المسجد من الرخام يبلغ ارتفاعها 2م، وأقواسه حدوية الشكل، أما محرابه فيبلغ ارتفاعه 1.90م وقطر فتحته 1.56م، تعلوه قبة مزينة بالمقرنصات، عقده على شكل حدوة الفرس، يستند على عمودين من الرخام يحملان كتابتين على التاج الأيمن جاء فيها "جامع ضريح الشيخ الولي الرضى الحلوي رحمة الله عليه" أما التاج الأيسر ف جاء فيها "أمر ببناء هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المؤمنين".⁽¹⁾

أما الصحن ف جاء شكله مربع يبلغ طول ضلعه 10.50م، يكتنفه يمينا ويسارا مجنبتات امتداد للرواق الشمالي والجنوبي لقاعة الصلاة، مئذنة المسجد توجد بالزاوية الشمالية الغربية بارتفاع يقدر بـ 25م، عدد درجاتها 88 درجة، زخرفتها عبارة عن شبكة من المعينات المستندة على مجموعة من العقود يأتي أسفلها كوة عبارة عن إطار بها قوس مفصّص، وتنتهي المئذنة بجوسق به زليج يحيط به شرافات.

1-1-6 مسجد المشور:

قَدَّم مسجد المشور دوراً ريادياً في الحياة الثقافية والحضارية عامة بتلمسان عبر فترات عديدة من حياة الدولة الزيانية، إذ كان مقصد العلماء والفقهاء والرحالة وطلبة العلم، حظي برعاية خاصة من السلاطين، بُني هذا المعلم الديني داخل القصر الملكي المشور، إلى جانب دُورٍ أنيقة ومدائن بدیعة

1-Charle Brosselard, Op.cit, p:326

ونافورات في غاية الجمال على أرض منبسطة بالزاوية الجنوبية الشرقية من القصر، حسب الأخوان جيورج ووليام مارسيه وضع أساساته الأولى أبو حمو موسى الأول، ويفترض أن معاصر لبناء مسجد أولاد الإمام، ملمحه العام مستطيل الشكل، استطالته تمتد من الشمال نحو الجنوب، يمتاز بجدرانه السميكة ومدخل واحد يفضي إلى بيت الصلاة ذات الشكل المستطيل بها ثلاثة أروقة وثلاثة بلاطات صحنه مربع عقوده حدوية الشكل أما سقفه جملوني مغطى بالقرميد، يوجد بالمسجد المقصورة التي كانت تخصص لصلاة السلطان وحاشيته.⁽¹⁾

فيما يخص المئذنة فهي تشكل نقلة نوعية في الفن الزياني، إذ تعتبر نقطة تحول في العمارة الزيانية من حيث أسلوب البناء وشكل الزخرفة هناك تقارب بينها وبين مئذنة مسجد أولاد الإمام، ما يوحي بوجود استلهام متماثل، توجد بالجهة الشرقية للمسجد بطول يبلغ 25.22م، فيما يبلغ ارتفاع البدن 19.30م، جدرانه منتظمة ذات زخارف موحدة على واجهاته الأربعة، طول ضلعه 5م، أما ارتفاع غرفة المؤذن فيبلغ 5.92م.⁽²⁾

النمط الزخرفي لمئذنة المشور لا يتكون من هندسة شبكة المعينات التي شاع استعمالها في الزخرفة عند الزيانيين والموحدين من قبلهم، هذا ما جعل شخصيتها الفنية منفردة عما كان مألوف في السابق، قام الفنان الزياني بزخرفتها مستعملا إطارات مستطيلة متتالية بدل الزخرفة، الواجهة الجنوبية

1-Georges et William Marçais,Op.cit,p:313

2-Rachid Bourouiba,L'art....,Op.cit,p:187

1-سيدي محمد بسنوسي الغوثي، الزخرفة في مساجد منطقة تلمسان، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، الجزائر 1990، ص: 314

4-محمد ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص: 403

3-وليام وجورج مارسيه، مرجع سابق، ص: 332

حمل هذا المسجد اسم الوالي الصالح سيدي أبي مدين ذي الأصل الأندلسي من مدينة إشبيلية يعد من كبار الصوفية السنيين، بعد رجوعه من المشرق الذي شارك فيه مع الحجاج المغاربة في معركة حطين إلى جانب صلاح الدين، هنا تجدر الإشارة إلى أن هذا الأخير خصص لهم حيا بالقدس الشريف صار فيما بعد يسمى باسمهم أي حي المغاربة، استقر أبومدين ببجاية وانصرف للتعليم، ذاع صيته هناك إلى الحد الذي راجت حوله فكرة خاطئة دُبرت من طرف بعض الحاسدين له، ذلك ما أقلق المنصور الموحدي الذي بعث برسالة إلى حاكم بجاية يأمره بإرسال سيدي أبي مدين إليه، لما انطلقت به القافلة وصولاً إلى حدود مدينة تلمسان، تراءى له جمال جبل العباد قال الوالي الصالح: "ما أجمل ذلك المكان للاستراحة والنوم"، لم يلبث بعدها حتى اشتد به المرض ومات ليُدفن بالعباد عام 594هـ/1196م.⁽¹⁾

من الناحية المعمارية جاء شكل هذا المسجد مستطيل بطول يبلغ 30م، وعرض يبلغ 18م، مدخله رائع الصنع علوه يبلغ 7م له مصعد من إحدى عشرة درجة يعلو هذا المدخل ظلّة مصنوعة من القرميد المحمول فوق أكتاف خشبية، كما يتوج هذا المدخل قبة مزخرفة بمقرنصات، بالنسبة لبيت الصلاة تتضمن خمسة أروقة عمودية على جدار القبلة، وأربعة بلاطات موازية لجدار القبلة فيما يخص عرض الأروقة يبلغ عرضها 3.10م باستثناء الرواق الرئيسي الذي يبلغ عرضه 3.50م، أما قاعة الصلاة فيقدر طولها بـ19م وعرضها بـ15م، يتم الولوج إليها عبر بابان جانبيين، بالنسبة للمحراب فيقع بالزاوية الجنوبية الشرقية تجويفه الداخلي ثماني الأضلاع تيجانه جيدة الصنع ورائعة الزخرفة، قبتة مخرمة ومزينة بالخزف ذي اللون الأزرق والأخضر والبني القاتم عقده حدوي وهي لا تظهر للعيان من الخارج، أما من الدخل فيبدو أنها تعرضت للترميم والإصلاح في الفترة العثمانية، تنتصب المئذنة المبنية من مادة الآجر بالزاوية

1-L'Abbé jjBargés, Op.cit,p:277

الشمالية الشرقية شكلها الخارجي رباعي كباقي مآذن مدينة تلمسان يبلغ ارتفاعها 27.50م، نسبها منسجمة ومتناغمة قوام زخارفها حشوات بها إطارات وشبكات من المعينات، عقودها مزينة بزخارف نباتية، يحتوي سلمها الذي يؤدي إلى الجوسق على 96 درجة تلتف حول النواة الرئيسية.⁽¹⁾

فيما يتعلق بالصحن جاء شكله مستطيل تتوسطه ميضأة تحيط بجهاته الشرقية والغربية أروقة تشكل امتداداً لبيت الصلاة.

1-1-8 مسجد سيدي إبراهيم المصمودي:

يعتبر هذا المسجد واحداً من المنشآت التي شيدها السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، يقع في الناحية الجنوبية الغربية لقصر المشور، تحده شمالاً مجمعات سكنية ذات طابقين وجنوباً مجمعات سكنية وشارع، أما شرقاً فيحده شارع ابن خميس يفصله عن دار الثقافة، وغرباً تحده بنايات سكنية قديمة، وشارع سيدي أبي عبد الله، لقد ذكر يحيى بن خلدون أن أبا حمو موسى الثاني بنى المجمع بما فيه المسجد، ودفن بالضريح المحاذي له والده ثم نقل إلى جواره أخويه السلطان أبي سعيد وأبي ثابت من مدفنهما بالعباد⁽²⁾، أخذ المسجد والضريح اسم العالم الفقيه سيدي إبراهيم المصمودي لاشتهار صلاحه عند الناس، وذكر الأخوين جيورج ووليام مارسيه أنه دُفن داخل أسوار المجمع ثمانين سنة بعد تأسيسه⁽³⁾، فيما يخص نفقات هذا المسجد فقد تم وقف بعض المنشآت لصالحه استناداً إلى نص وقفي

1- عبد العزيز محمود لرح، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية دراسة أثرية معمارية وفنية، رسالة دكتوراه دولة في الآثار

الإسلامية، ج2، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1999، ص: 585-612

1- يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، ص: 104

2- وليام و جيورج مارسيه، مرجع سابق، ص: 424

منقوش في بلاطتين رخاميتين موجودتين بمتحف تلمسان، تحمل كل واحدة كتابة في خمسة عشرة سطراً ارتفاعها يبلغ نصف متر أما عرضها فيبلغ 43سم، واحدة من هاتين البلاطتين مكسورة في اتجاه العرض وهي تنمة لمثلتها، مما أتلّف اثنا عشرة سطراً منها إلا أن العبارات المتبقية والمتعلقة بقرار ملكي يقضي وقف بعض الأملاك على الجمع الديني مفهومة وهذا نصها: (1)

أبى حمو ابن مولانا الأمير أبى يعقوب ابن الأمير أبى زيد ابن مولانا الأمير بن زكرياء ابن مولانا أمير المسلمين أبى يحيى يغمراسن ابن زيان وسل الله مفاخرة وخلد آثاره الكريمة ومآثره على هذه الزاوية المباركة المقامة على ضريح والد المذكور برد الله ضريحه فمن ذلك ما بداخله تلمسن المحروسة جميع الطاحونة الملاصقة للزاوية ولثلاثون حانوتا المعروفة بالصناعة القديمة والكوشة التي بمنشر الجلد وحمام الطبول وفرن مقسم الما وفندق العاليا وبخارج البلاد المذكور جميع الرحا السفلى بقلعة بني معلى والنصف شايعا في روس المنية الكاينة بالرميل وزيتون تيفدا وأرض الزيتون المذكور ثم معصرته وجميع الحبس...".

ب-البلاطة الثانية: "ملكه وشهره الجميع تغني على التحديد تحييسا تاما مطلقا عاما ووقفا ثابتا أبديا ليصرف ما يستفاد من الحبس المذكور على معلمين العلم وطالبيه وإمام ومؤذن... عام ثلاثة وستين وسبع... مائة... عام... خمسة وستين وسبع مائة..."، كما تحدث شارل بروسار عن النص معتبرا إياه وثيقة تثبت نصا تحييسيا خصصه السلطان أبوحموموسى الثاني الذي حكم البلاد ما بين سنة 760هـ/1360م و791هـ/1391م لفائدة الجمع الديني ككل. (2)

3- بسنوسى الغوثى سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 274

2- Charle Brosselard, Op.cit, p: 72

بالنسبة للوصف المعماري لمسجد سيدي إبراهيم المصمودي فقد جاء مخططه العام متطابق مع مخطط مساجد الفترة المرينية أي مسجد سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي، بيت صلاته مستطيل الشكل بمساحة قدرها 292.60م²، حيث يغلب عرضه المقدر بـ19م على عمق المقدر بـ15.40م، بها خمسة بلاطات عمودية على جدار القبلة، تقوم دعائم على شكل حرف T بتقسيم بيت الصلاة إلى بلاطات، كما أنها تحمل عقود حدوية خالية من الزخرفة، بالنسبة لسقفه فقد رمم مؤخراً بما في ذلك المسجد ككل أعيد تشكيله وفقاً لما كان عليه، لكن أضيف في عدد السقوف الجملونية مقارنة بما كان به قبل تضرره، فقد كان به سقف خشبي جملوني من الخارج يتقدم المحراب موازي لجدار القبلة طوله 7م وعرضه 3.50م، نفس الشيء بالنسبة للبلاطة الوسطى والجانبيتين، إذ جاء سقفهم جملوني بطول قدره 7م وعرض قدره 3.10م، حسب رشيد بورويبة هذا النوع من التسقيف لم يكن معمولاً به عند المرابطين ولا عند الموحدين وأنه كان من ميزات العمارة التركية.⁽¹⁾

هندسياً نجد أن المعماري المسلم بيت صلاة مسجد سيدي إبراهيم المصمودي في تصميمها الداخلي تبنّت حركة المصلي في وقوفه وركوعه وسجوده، ولكي نتبين ذلك تم دراسة عدد الصفوف وعدد المصلين على النحو التالي:

- عدد الصفوف يساوي عمق بيت الصلاة مقسوم على عمق المستطيل المحدد في الفن المعماري الحديث بـ 137.5 سم أي 1540 سم / 137.5 = 11 صفاً، وهو عدد الصفوف الموجودة في بيت صلاة مسجد سيدي إبراهيم ما يدل على اهتمام المعماري المسلم براحة الفرد أثناء عبادة ربه.

- عدد المصلين: كالتالي: 1900 سم / 75 سم = 25 إذاً عدد المصلين هو 25 مصلياً في الصف الواحد من دون احتساب الأعمدة⁽²⁾، وهو الأمر المحسد في بيت صلاة هذا المسجد.

2-Rachid Bourouiba, L'art..., Op.cit, p:185

1- بسنوسي الغوثي سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 276

كما جاءت الدعامات المستطيلة التي يبلغ عددها ثمانية في المحاور الرئيسية لبيت الصلاة، أما الدعامات على شكل حرف T فعددها أيضاً ثمانية يبلغ عددها ثمانية وتوجد على مستوى الصحن وبيت الصلاة، وبالنسبة للمتقاطعة فعددها هي الأخرى ثمانية، ستة منها توجد بالمحاور الداخلية التي تتخلل الصحن والمتبقيتان تحملان القبة التي تتقدم المحراب، هذه الأخيرة زخرفت بأحاديث يبلغ عددها أربعة وعشرون أحوداً متجمعة في مضلع يتكون من اثني عشر ضلعاً، تربطها أقبية نصف متقاطعة وتتخللها أربعة نوافذ تطل على السطح، أما قبة المحراب فهي ذات ثمانية أحاديث خالية من أية زخرفة⁽¹⁾، تنتصب مئذنة المسجد بالزاوية الشمالية الغربية منه، ارتفاعها الكلي 16.55م، برجها الرئيسي يبلغ 13.73م والجوسق 4.70م بها كَوَات تستند على ثلاثة عقود ذات شرفة من رأسين.⁽²⁾

1-1-9 مسجد الشرفاء:

يُعد هذا الأخير من مساجد الأحياء التي أنشئت بالمدن الإسلامية لأداء الصلوات الخمس، سُمي كذلك لأنه كان مجاوراً لدار القضاء الذي كان يُعرف باسم مجمع الشرفه المقصود به القضاء الذين كانوا يقومون بتأدية الصلوات فيه، يوجد بحي باب زير الواقع بالجهة الشمالية الشرقية لمدينة تلمسان عند تقاطع نهج الإخوة علالي وشارع خلدون، له واجهتان الأولى شرقية والثانية جنوبية له مدخل واحد بابه خشبي ذو مصراعين يعلوه عقد مفصص بارز والآخر منكسر غائر تعلوهما ظلّة، يتم الولوج إلى داخله عبر ممر سقفه مقبب، بيت صلاته مربع الشكل سقفه جملوني به أربعة دعامات اثنتان

2-Charle Brosselard, Op.cit, p:123

3-Rachid Bourouiba, L'art..., Opcit, p:187

مدججتان في الجدار الشمالي والجنوبي، واثنان وسط بيت الصلاة، أمّا المحراب فيوجد مقابل المدخل شكله
(1)

نقري علي الأناج تونو رزاق حسنة •

10-1-1 مسجد لالة الغربية:

يقع هذا المسجد على طول شارع خلدون بحي باب زير غير بعيد عن مسجد الشرفاء، سمي كذلك لوجود شاهد قبر امرأة مجهولة مقابل جدار القبلة، يحده شرقاً درب القران الكبير، أما شمالاً وغرباً فتحده ممرات ضيقة وجنوباً مباني سكنية، يُفضي مدخله مباشرة إلى رواق تتوسطه ميضأة⁽²⁾، بجانبه مكان خاص بالأذان عبارة عن بدن صغير يرتفع بقليل عن السقف به نافذة ينادي من خلالها المؤذن للصلاة، بيت صلاته مستطيل وحال من أية زخارف، ربما لأنه كان في أول عبارة عن ضريح للمرأة الصالحة المدفونة بداخله⁽³⁾، لقد تحدّث عنه شارل بروسيلار Charle Brosselard باسم مسجد القران نسبةً لاسم الدرب المجاور له، كما ذكر نصاً تحببياً يتكون من اثنان وثلاثين سطراً فوق لوح حجري طوله 94سم وعرضه

لطان المريني أبي الحسن، حينما نبح في احتلال المدينة، وذلك حسب ما ذكره في مؤلّفه المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن قائلاً: "قد قدمنا أن إنشاء

1- دحماني صبرينة نعيمة، جرد المعالم الأثرية والمواقع الأثرية لمدينة تلمسان - دراسة تمهيدية لوضع الخريطة الأثرية - أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم، تخصص علم الآثار والمحيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، شعبة علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، الجزائر، 2015، ص: 48-49

2- المرجع نفسه، ص: 50

3- Georges et William Marçais, Op.cit, p:325

4- Charle Brosselard, Les Inscriptions Arabes de Tlemcen, In(R) Africaine, 6^{ème} année N°31, Arnolet imprimeur-libraire, Constantine, Algérie, 1862, p: 167

المدارس كان بالمغرب غير معروف، حتى أنشأ مولانا المجاهد الملك المجاهد الملك العابد مدرسة الخلفائين بمدينة فاس...".⁽¹⁾

يبدو من وجهة نظرنا أن ابن مرزوق قد أغفل ذكر المدرسة الأولى التي شيدت من قبل السلطان أبي حمو سنة 710هـ/1310م، فحسب ما ذكره محمد بن عبد الله التنسي في كتابه تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان أن السلطان أبو حمو بعدما هدم مدينة المنصورة عقب مقتل السلطان يوسف بن يعقوب بنى مدرسة بالجنوب الغربي من تلمسان للإمامين أبي زيد وأبي موسى حمداً لله على تخليص مملكته من الحصار الذي ضرب عليه⁽²⁾، بهدف نشر التعليم والثقافة ودراسة الفقه وتفسير القرآن الكريم.

تمويل هذه المدارس كان يعتمد بالدرجة الأولى على الأوقاف التي يقفها السلاطين كمداحيل الحوانيت والطاحونات والحمامات، أو من الإعانات التي يقدمها التجار وميسوري الحال، وبمدينة تلمسان ظهرت المدارس كوحدة معمارية مهمة في نشر تعاليم الدين الحنيف والعلم، إلى جانب المسجد، يذكر الحسن الوزان وجود خمسة مدارس بقوله "... وتوجد بتلمسان مساجد... وخمس مدارس حسنة جيدة البناء مُزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنيّة شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها من فاس...".⁽³⁾

كما ذكر ذلك بن الأحمر قائلاً "... ونكتفي أن نذكر المدارس الخمس الكبرى التي أنشأت فيها (تلمسان) في أيام تلك الأسرة الطويلة العمر...".⁽¹⁾

1-2-1 مدرسة أولاد الإمام:

1- محمد ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص: 405

2- محمد بن عبد الله التنسي، مصدر سابق، ص: 145-149

3- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ص: 19

1- ابن الأحمر، مصدر سابق، ص: 48

فيما يخص مدرسة أولاد الإمام أو كما تلقب بالمدرسة القديمة لأنها أول مدرسة أنشئت بحاضرة تلمسان، شيدت من طرف السلطان أبي حمو موسى الأول عام 710هـ/1310م شكراً لله عزّ وجل وتكريماً للعالمين الجليلين أبي زيد عبد الرحمن وأخيه أبي موسى عيسى ابني الإمام أبي عبد الله محمد بن برشك.⁽¹⁾

وحسب رأي الأخوين مارسيه كانت توجد بالجهة الشمالية الغربية لمسجد أولاد الإمام، وبالنسبة لتصميمها الهندسي الداخلي كانت تتألف من قاعتين كبيرتين لتلقين الدروس على يدي الفقيهين الكريمين ابني الإمام، واصلت هذه المدرسة تأدية رسالتها إلى غاية القرن 10هـ/16م⁽²⁾، وهناك من ذكر إلى غاية القرن 13هـ/19م⁽³⁾، نفس الشيء أشار إليه القس بارجيس فقد ذكر أنه درّس بها أكثر الفقهاء علماء، أمثال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام أبو زيد، وأخيه العلامة الكبير أبو موسى عيسى، وحاليا لم يعد يوجد لها أي أثر، فقد اندثرت كلياً ولم يتبق منها أي شيء.

1-2-2 مدرسة سيدي أبي مدين:

تُعرف أيضاً باسم مدرسة العباد، تمّ تشييد مدرسة سيدي أبي مدين بعد بناء المسجد بحوالي ثمانية سنوات، أنشأها السلطان المريني أبو الحسن سنة 747هـ/1346م، كما تشير إلى ذلك كتابة منقوشة في أسفل قبة المدرسة⁽⁴⁾، ساهم مؤسسها بشكل كبير في تسيير نفقاتها بالتبرعات والهبات، تخرّج منها فقهاء ذوي شهرة من بينهم الشيخ السنوسي، وآوت داخل جدرانها العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، تقع هذه المدرسة على تلة غرب مسجد سيدي أبومدين، تنفصل عنه بممر

2- محمد بن عبد الله التنسي، مصدر سابق، ص: 149

3- Georges et William Marçais, Op.cit, p: 186

4- صالح بن قرية، سامية بوعمران، خالف محمد نجيب، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر، 2007، ص: 142

1- Rachid Bourouiba, L'art..., Op.cit, p: 281

ضيق، نلج إليها عبر مصعد يتكون من خمسة عشرة درجة بإبها مزخرف بزخارف أنيقة، يحيط به إطار به معينات زهرية وقطع من الزليج باللون البني القاتم والأخضر، وتعلوه ظلّة من القرميد أما قاعة المدرسة فتحتوي على اثنا عشرة حجرة مخصصة للدراسة، تحتوي كل واحدة على نافذة صغيرة وكوة صغيرة تسمح للطالب بوضع الشمعة وكذا الكتب، وبالطابق العلوي نجد نفس التصميم الموجود بالطابق الأرضي، أما فيما يخص الزخرفة الكتابية بالمدرسة، فيذكر الأخوان مارسيه أن القبة التي تعلو الطابق العلوي احتوت على إفريز خشبي به كتابة بالخط الأندلسي في مدح مؤسس المدرسة هذا ما جاء فيها: "الحمد لله رب العالمين أسس هذا البنيان لعبادة الله تعالى في ظل دين الإسلام أمير المؤمنين أبو الحسن الذي فاقت أخلاقه وصفاته مدائح الشعراء... ابن أبي سعيد صاحب المنازل الرفيعة، لقد أمتع بهذا البناء عيون الرجال، سماه ربه عليا ورباه حقا في الصفوف العلية... شهر ربيع الثاني من عام سبعمائة وسبعة وأربعين هجرية له السعادة السرمديّة"⁽¹⁾، ولا تزال هذه المدرسة قبلة للزائرين والمهتمين بالفن المعماري الإسلامي بتلمسان.

1-2-3 المدرسة التاشفينية:

كانت تقع هذه المدرسة على مستوى الحي المركزي للمدينة العتيقة، قام بتشييدها خامس سلاطين الدولة الزيانية أبو تاشفين عبد الرحمن بن حمو⁽²⁾، وتمييزًا عن المدرسة التي أنشأها أبوه والتي سُميت بالمدرسة القديمة (أولاد الإمام)، سميت هذه المدرسة أيضا بالمدرسة الجديدة أو التاشفينية، عكست ما كان من جمال وبديع الصنع بالمغرب الإسلامي جعل منها تحفة معمارية فريدة من نوعها، كانت موصلة بقصر المشور عبر نفق أرضي يبدأ من الزاوية الشمالية الشرقية للمشور وينتهي خلف دار البلدية⁽³⁾، تحدث عنها بارجس Bargés قائلاً: "المدرسة الجديدة تسمى أيضا المدرسة التاشفينية

2-Georges et William Marçais, Op.cit,p:277

3- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 133-134

1- سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص: 47

أسست من طرف أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى الأول... هذا السلطان المولع بالفن المعماري أراد أن يشيد معلما يليق بعاصمته... هو بالأحرى إقامة ملكية وليس كمدرسة مقارنة بضخامة مساحته، اختفى دور المعلم مع مجيء الاحتلال المريني، لكن سرعان ما أعاد السلطان أبو العباس أحمد الابن الأصغر للسلطان أبوحمو موسى الأول مجد هذه المدرسة عبر ما خصَّصه لها من نفقات...".⁽¹⁾

لملحها العام عبارة عن شكل مستطيل لها واجهتين، الأولى من جهة الشمال مقابل للجامع الكبير، والثانية من جهة الغرب لكل منهما مدخل، في حين نجد أن المدخل الغربي هو المدخل الرئيسي، وقد كانا ملبسان عبر جوانبهما بقطع زخرفية ملونة بطريقة رائعة يقودان هذان المدخلان للمسجد،

1-2-4 المدرسة اليعقوبية:

بعد أن توفي السلطان الزياني أبو يعقوب بن يوسف في شهر شعبان من عام 763هـ / 1361م دُفنت جثمانه بالقرب من باب إيلان قرب أخويه أبي سعيد وأبي ثابت⁽³⁾، في تلك الآونة قرر بنجله السلطان أبو حمو موسى الثاني تشييد مدرسة عام 765هـ / 1363م، بعد أن فرغ من بنائها، أعاد السلطان دفن جثمان والده وعميه في ضريح خاص بهم بالقرب من المدرسة، ونسبه إلى والده أبي يعقوب سميت هذه المدرسة بالمدرسة اليعقوبية⁽⁴⁾، لقد أشار إليها محمد بن عبد الله التنسي في مستهل حديثه عن الفقيه أبي عبد الله قائلاً: "...وله بنى مدرسته الكريمة... فلما كملت المدرسة نقلوا ثلاثتهم

2-L'Abbé jjBargés, Op. cit, p:332-333

3- سورة الفتح، الآية 03

1-L'Abbé jjBargés, Op. cit, p:335

2- عولي محمد لخضر، الزخرفة المعمارية في عهد المرينيين والزيانيين، دراسة تحليلية و مقارنة، رسالة دكتوراه جامعة تلمسان، قسم التاريخ وعلم الآثار، شعبة علم الآثار، 2013، ص: 279

إليها واحتفل بها وأكثر عليها من الأوقاف ورتب فيها الجرايات وقدم للتدريس فيها الشريف أبو عبد الله المذكور وحضر مجلس قرائه فيها جالسا على الحصر تواضعا للعلم وإكراما له، فلما انقضى أشهد بتلك الأوقاف وكسى طلبتها كلهم وأطعم الناس، وطول الله مُدَّتُهُ حتى ختم السيد أبو عبد الله المذكور تفسير القرآن العزيز فيها فاحتفل أيضا لحضور ذلك الختم، وأطعم فيها الناس وكان موسماً عظيماً...".⁽¹⁾ بعد أن توفي الفقيه أبو عبد الله دُفن هو الآخر معهم بنفس المكان، حسب ما ذكره برجس المدرسة اليعقوبية كانت متواجدة بالجهة الغربية للمدرسة التاشفينية ليس بعيدا عن الجامع الكبير، يتم الوصول إليها بعد الدخول من باب وهران ثم نعطف إلى قصر المشور الذي تقابله غرباً ساحة بها نافورة مياه أقامها المستعمر الفرنسي، بمحاذاتها ترتفع مئذنة أغلب أجزائها محطة فوق مصلى الذي يلتصق معه حدائق ومبنى في حالة متدهورة يرجح أنه المدرسة اليعقوبية.⁽²⁾

1-3 الأضرحة:

شُيِّدت الأضرحة بمدينة تلمسان ابتداء من الفترة الزيانية، حيث أقيمت تخليداً للعلماء وكذا السلاطين، وهي من المنشآت المعمارية التي ظهرت ابتداء من العهد العباسي المجسد في القبة الصليبية.⁽³⁾

1-3-1 ضريح سيدي أبي مدين:

بنى هذا الضريح محمد الناصر الموحد في أواخر القرن الثاني عشر ميلادي بالمكان المسمى العباد الفوقي الذي اختاره سيدي أبي مدين قبل مماته⁽¹⁾، يقع الضريح بجوار المسجد والمدرسة والحمام العمومي

3- محمد بن عبد الله التنسي، مصدر سابق، ص: 189-190

1-L'Abbé jjBargés, Op.cit, p:336 337

2- القبة الصليبية: تُعد أقدم المقابر، تتكون من غرفة مقببة تحيط بها ممرات خارجية، تقع على نهر دجلة بالقرب من سامراء، استطاع عالم الآثار الألماني أرنست هرتزفيلد إثبات أن هذا البناء هو مقبرة الخليفة العباسي المأمون، وهو ما يعني أنه شيد حوالي 828م، ينظر: ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 143

مشكلاً النواة الأساسية التي من حولها تلتف باقي المنشآت الأخرى، يعتبره الأخوان جيورج ووليام مارسيه أقدم المعالم الأثرية الشاهدة على الغنى الثقافي المادي الديني لمدينة تلمسان، من جهة يمكن اعتبار وجهة نظرهما مبالغ فيها إذا ما قارنا فترة بنائه مع الفترة التي بُني فيه الجامع الكبير، وقد أصبح الضريح مركزاً لمقبرة العباد فيما بعد.⁽²⁾

حظي باهتمام بعض السلاطين أمثال يغمراسن بن زيان وأبي الحسن المريني الذي أعاد بنائه ضمن مجمع معماري قبالة الجامع، لكن الأتراك هم من تجسّدت بصمتهم على الضريح أكثر ممن سبقوهم بعد قيامهم بعملية ترميم جزاء الحريق الذي أصابه في القرن الثامن عشرة ميلادي، شكله رباعي تعلوه قبة مقسمة إلى اثنا عشرة قسماً تلتقي في مقدمتها عند نجمة دائرية من أربعة وعشرين رأساً، أما في الخلف تكتنفها أربعة وعشرون قوساً دائرية صغيرة الحجم، تتقدمها نوافذ هي الأخرى صغيرة الحجم للتهوية والإنارة، بالنسبة للجزء السفلي من جدرانها الأربعة الداخلية فتتواجد بها أقواس على شكل حدوة الفرس، تعلوها زخرفة هندسية قوامها شبكة من المعينات مصنوعة من مادة الجص، ينفتح باب بالجدار الغربي للضريح يعلوه قوس نصف دائري.⁽³⁾

يتضمن إطاره زخرفة كتابية نفّذها فنان تركي يعود تاريخها إلى سنة 1208هـ/1793م في فترة حكم الباي محمد بن عصمان الملقب ب: لكحل (سمي كذلك لما شهدته فترة حكمه من اضطرابات)، جاء فيها مايلي "الحمد لله أمر بتنسيق هذه الروضة المباركة المشتملة على ضريح الشيخ سيدي أبي مدين أدركنا الله برضاه الأمير عبد الله السيد محمد باي أيده الله ونصره وجعل الجنة منزله عام ثمانية ومايتن وألف أنظر إلى الدر الأنيق تراه في جيد شريق نظمه فتى عشيق الهاشمي بن صرمشيق".⁽⁴⁾

3-Rachid Bourouiba, L'art..., Op.cit, p:279

2-Georges et William Marçais, Op.cit, p:230-231

1-Georges et William Marçais, Op.cit, p:232

4-Charle Brosselard, Les Inscriptions..., 4^{ème} année N° 19, Op.cit, p:87-88

1-3-2 ضريح سيدي الداودي:

يرجع نسب أبوجعفر نصر الدين الداودي الأسدي لقبيلة الأسد إحدى القبائل العربية المهاجرة من الجزيرة العربية إلى شمال إفريقيا، وُلد بالمسيلة، لا يُعرف تاريخ ميلاده، نشأ في طرابلس واتفقت المصادر على أنه توفي بتلمسان سنة 402هـ/1011م من مؤلفاته كتاب الأموال⁽¹⁾، ذكر المقرئ في مؤلفه نوح الطيّب أن ابن مرزوق الخطيب قال بيتاً شعرياً يُشيد فيه بمكانة سيدي الداودي، جاء فيه مايلي:

يكفيك أن الداودي بها دفن* مع ضجيعه ابن غزلون الفطن.⁽²⁾

يتخذ الضريح حيزاً مستطيلاً فوق تلة صغيرة، على بعد بضعة أمتار من طريق الصفصاف القديم مدخله متجه نحو أطلال باب العقبة يعلوه قوس حدوي منكسر تحيط به بائكة صماء مزينة بإكليلين مزدوجين، فوق هذه البائكة تتواجد ظلة مصنوعة من القرميد محمولة على حاملين مزدوجين صغيرين وهو في ذلك مشابه في ملمحه العام لمدخل مسجد سيدي الحلوي وسيدي بومدين به رواق يتجه من الشمال نحو الجنوب، والآخر يتجه نحو الغرب مضاءً ان بسة نوافذ تحتوي على قضبان حديدية أعمدته تحمل عقود نصف دائرية تعلوها قبة تتضمن اثنا عشرة قسماً كقبة سيدي بومدين.⁽³⁾

1-3-3 ضريح الشيخ السنوسي:

يرجع نسبة إلى قبيلة بني سنوسي، التي تقطن الجبال الواقعة غرب تلمسان على بُعد أربعين كلم، اسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، وُلد عام 832هـ/1428م نشأ في بيت علم اجتهد في طلبه حتى صار من أكبر العلماء في التفسير والحديث انتفع بعلمه خلق كثير، توفي بتلمسان عام 895هـ/1490م.

3-أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي، كتاب الأموال، تحقيق رضا محمد سالم شحادة، ط01، دار الكتب العلمية، لبنان 2008 ص:30-41

1-نقلاً عن: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، مصدر سابق، مج05، ص:344

2-Georges et William Marçais, Op.cit,p:339

عاش الشيخ السنوسي متميزاً بسمو أخلاقه وطيبته، اتسم بالتواضع والحياء، فكان يكره أن ي كاتب الأُمراء، وإذا حدث له أن كاتبهم فذلك استجابة لحيائه وكان لا يرفع صوته بل يعتدل فيه⁽¹⁾، تقع الروضة التي تحوي ضريحه بالجهة الشمالية الشرقية من مقبرة تلمسان، وهي المقبرة التي تحمل اسمه بعد أن كانت تسمى من قبل بمقبرة عين وانزوتة، أو مقبرة العباد السفلي، حسب ما ذكره الأخوان ويليام وجورج مارسيه أنه يشغل مكان مسجد قديم أنشئ في فترة سابقة، لكنهما لم يحددها لعدم توفر الأدلة المادية الكافية.⁽²⁾

بُني هذا الضريح من طرف السلطان أبي عبد الله محمد، الملقب بالتايشي، تبلغ المساحة الإجمالية للروضة حوالي 180م⁽³⁾، شكلها العام شبه منحرف قاعدتها الكبرى تتجه نحو الشمال الغربي يتم الولوج إلى الضريح بواسطة مدخل يعلوه عقد حدوي بالجدار الشمالي ويقدر عرضه بـ 91سم، وارتفاعه بـ 1.80م هذا الارتفاع يفرض على البعض الانحناء، إضفاءً لنوع من التقدير والاحترام، لا توجد أية زخرفة بالمدخل الذي كان بابه خشبي، يوجد بداخل الضريح أربعة حنيات جانبية يبلغ طول الواحدة منها 3.85م وعرضها 2.85م، أما عمقها فيبلغ 20سم، يعلوها عقد مدبب، تتخلل الحنية الجنوبية الشرقية ثلاثة فتحات وخزانة، نافذة وفتحة للتهوية والإضاءة، الخزانة عبارة عن تجويف مستطيل الشكل طوله 7سم وعرضه 67سم، بها باب خشبي كما توجد خزانتي في الحنيتين المتبقيتين تعلو إحداهما نافذة تتوسط العقد بالزاوية الشمالية الغربية، أغلب الظن أنها استعملت لحفظ الكتب، قبة الضريح مزخرفة في نصفها الأسفل ببوائك صمء عددها يساوي عدد الأضلاع الذي هو 12، يوجد أسفل هذه الأقواس أعمدة جصية بتيجان خالية من الزخرفة.

1- ابن مريم الشريف التلمساني، مصدر سابق، ص 244

1- Georges et William Marçais, Op.cit, p:340

3- مهتاري فائزة، مرجع سابق، ص: 100

فيما يخص أرضية الضريح فهي تحتوي على أشكال ومقاسات مختلفة من الزليج، أغلب الظن أنها تعود إلى الفترة العثمانية نظراً لتقارب لوّنها وأحجامها مع التي تعود لهذه الفترة الزمنية، ويغلب عليها الشكل المربع ذي المقاس 15 سم للضلع الواحد، أما ألوانها فقد جاءت متراوحة بين الأصفر والأبيض والأخضر، وهي الألوان الأكثر شيوعاً في العمائر على اختلاف طابعها سواءً كانت دينية أو مدنية.⁽¹⁾

1-3-4 ضريح الفقيه سيدي بوجمعة:

الفقيه سيدي بوجمعة من أكابر أولياء تلمسان، لُقّب باسم المعز، ينحدر أصله من جبال تارة من قبيلة مطغرة، عاش يتيماً وراعياً لماشية قبيلته في شبابه، ضريحه ملاصقٌ لباب كشوط، بقي تاريخ ميلاده مجهول، لكن يقال أنه عاش في النصف الأول من القرن الثامن هجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي في فترة ما بين الحصارين اللذين ضُربا على مدينة تلمسان من طرف المرينيين⁽²⁾، هاجر إلى مدينة تلمسان وبها بدأ حياة جديدة، يقال أنه كان يجلس في مكان الحائط الذي هو جزء من ضريحه، دُفن مع فقيه آخر يسمى بسيدي الحاج بن عامر، شاع خبره في البلاد وتشفّع به الناس إلى السلطان لقضاء حوائجهم.⁽³⁾

شكل هذا الضريح مستطيل طوله 6.55م وعرضه 4.45م، مساحته الإجمالية تقدر بـ 29.14م² يوجد بواجهته مدخل يعلوه قوس على شكل حدوة الفرس تأتي بعدها سقيفة تنتهي بباب خشبي ذي دفتين واحدة عرضها 0.40م، والأخرى عرضها 0.51م، بعد أن نلج من خلاله نجد مدخلا آخر مقوس على شكل حدوة الفرس به عمودين جانبيين، يتوسط الضريح ساحة مستطيلة الشكل طولها 5.75م، وعرضها 3.65م، تحيط بها من جوانبها الأربعة مصاطب مستطيلة، ويوجد بها قبرين، الأول

3-المرجع نفسه، ص: 100

1-Charle Brosselard, Les inscriptions..., 4^{ème} année N° 19, Op.cit, p:253-255

2-ابن مریم الشریف التلمساني، مصدر سابق، ص: 72

بلاطه بالزليج البني والأبيض المزخرف بالأزرق يرجع لصاحب الضريح أما القبر الثاني نجد فيه الزليج ذي اللون الأبيض فقط يرجع لسيدي الحاج بن عامر.

لاحظ شارل بروسيلار Charle Brausselard وجود كتابة تحتوي نصاً تحسيسياً على الجهة اليمنى من المدخل جاء فيه مايلي: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه حبس السيد محمد على الشيخ الولي الصالح سيد بوجمعة... الله علينا من ذلك النصف الواحد شايعا من جميع الروض المسمى برحات الريح مع جميع ما اشتمل عليه حبسا أبديا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين فمن بدلَّ وغيرَ فالله حسيبه وكان هذا التحسيس أوائل رمضان عام ستة عشرة وألف، يعود تاريخ إنشاء تلك الطاحونة إلى فترة الحصار الأول للمرينيين، إذ أمر بنائها أبي يعقوب يوسف.⁽¹⁾

1-3-5 ضريح أبي إسحاق الطيار:

يعد هذا الفقيه هو الآخر من أكابر الأولياء وأبرز معلمي كتاب الله عزَّ وجل وأكثرهم راويا للحديث، قيل أنه أمضى أربع وعشرين سنة صائما بالنهار قائما بالليل، مات قبل السبعمائة⁽²⁾، وتقع أطلال ضريحه فوق ربوة بالعباد السفلي، يتكون من بقايا أربعة بوائك آجرية، تعطي شكلاً مربعاً، يمتد عقد خامس منفرد على الجهة الجنوبية الشرقية، ربما تدل على وجود معلم آخر أقدم من المعلم الأول إذ ما تزال بقايا أساسات جدرانه ظاهرة، يذكر الأخوان وليام وجورج مارسيه أنه تواجد جدار بالحافة الشرقية من العقد الخامس يمتد نحو الجنوب، يعلوه بقايا سقف مسنم كان في حالة متقدمة من الخراب ويخترقه باب منخفض⁽³⁾، العقود الخارجية حدوية الشكل، أما مادة بنائه فهي الآجر والملاط.

1-3-6 ضريح سيدي يعقوب:

1-Charle Brosselard, Les inscriptions..., 4^{ème} année N° 19, Op.cit, p:257-258

2- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 34

3-Georges et William Marçais Op.cit, p:282

اسمه الكامل سيدي يعقوب بن يوسف بن عبد الواحد المغراوي يرجع أصله لقبيلة مغراوة الزناتية يقع ضريحه بمكان وافر الظلال والمياه العذبة بعين وانزوتة خارج باب الجياد⁽¹⁾، عاش أيام الاحتلال المريني وبالضبط في الفترة التي شهدت فيها تلمسان وجود النفوذ المرينيين وبالتحديد إبان حكم السلطان المريني أبي عنان فارس توفي عام 779هـ/1377م⁽²⁾، تصميم الضريح ذو مربع فئائه مكشوف، أما جدرانه مبنية بالحجر الصغير، تعلوه شرافات في زواياها الأربعة، يوجد آخر يرجح على أنه الأقدم، كما نشاهد بهذا الضريح كوة بالزاوية الجنوبية الشرقية تكشف عن وجود مصلى قديم.

2-نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية:

تميّز الفن المعماري بمدينة تلمسان بالشمولية، فقد تجسد فيه كل ما له علاقة بمصلحة المسلم وحاجاته الدنيوية باعتباره وسيلة لتحقيق ما يريده الإنسان، لذلك جاء انعكاساً لما أُنجز في المدن الإسلامية انقسمت المعالم الأثرية المدنية الإسلامية بمدينة تلمسان حسب الهدف من بنائها إلى نوعين فهناك الخاص كالمساكن والقصور والعام كالحمامات.

2-1 القصور:

توجه اهتمام الحكام لهذا النوع من العمائر بعدما اتسعت رقعة حكمهم وازداد نفوذهم، فعمدوا على تشييد مباني تعكس ثرائهم وقوتهم بأروع ما جادت به قريحة الفنان المسلم من زخرفة وتنميق في تلك الفترة الزمنية، هناك من يرى أن عمارة القصور عمارة دينية ودنيوية في نفس الوقت بحكم

1- ابن مریم الشریف التلمساني، مصدر سابق، ص: 297

1- شارل بروسار، كتابات شواهد وقيور سلاطين وأمراء بني زيان الملتقطة من روضاتهم الملكية بمدينة تلمسان، ترجمة الرزقي شرقي، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص: 349

احتوائها على المسجد من جهة والسكنى السلطان وحاشيته من جهة أخرى⁽¹⁾، نفس الأمر انتهجه السلاطين الزيانيون بمدينة تلمسان، حيث شيّدوا قصوراً خاصة بإقامتهم وكمكان للنظر في قضايا الرعية.

2-1-1 قصر المشور:

يعتبر هذا الأخير القصر الوحيد الذي لاتزال بعض معالمه ماثلة للعيان بمدينة تلمسان، يقع على ارتفاع 806م من مستوى سطح البحر⁽²⁾، يعد المكان الأول الذي اختاره يوسف بن تاشفين لضرب خيمته في الفترة التي أراد فيها احتلال مدينة أغادير، ومن بعده يغمراسن بن زيان، بعد أن هجر إقامته الملكية في القصر القديم المجاور للجامع الكبير، وذلك في أواسط القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر ميلادي، فخصّنه بأسوار شامخة الارتفاع حتى صار أشبه بمدينة مستقلة في تلمسان، واسم القصر مشتق من الشورى، وعليه فاللفظ دال على المعنى الحقيقي لوظيفته، إذ كان بمثابة المكان الذي يعقد فيه السلطان مجلسه مع وزرائه ورجال الدولة، يبدو من الخارج ذي تصميم مستطيل الشكل، يبلغ طوله 200م، وعرضه 150م، أما مساحته الإجمالية فتقدر بـ30000م²، أي ما يعادل ثلاثة هكتارات.⁽³⁾

كان السلطان أبو حمو موسى الثاني يحتفل بالمولد النبوي الشريف داخل المشور، وبتلك المناسبة عرض خزانة المجانة لرعيته إلى غاية صلاة الفجر وهي ساعة عجيبة وفريدة في الصنع من اختراع أبي الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحّام، يصفها يحيى ابن خلدون قائلاً: "وخزانة المجانة ذات تماثيل اللجين محكمة الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه ويحتاله فيهما أرقم خارج من كوة بحذر الأيكة صعدا وبصدرها أبواب مجوفة بعدد ساعات الليل الزمنية، يصاقب طرفيها بابان مجوفان

2- هنادي سمير نامق، الحليات المعمارية في القصور العثمانية في البلدة القديمة بنابلس -دراسة تحليلية-رسالة ماجستير

تخصص هندسة العمارة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية بنابلس، فلسطين، 2010، ص:35

2- سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص:39

3- عزى بوخالفة، تلمسان منارة إشعاع فكري وحضاري، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص:26

أطول من الأولى وأعرض وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك...".⁽¹⁾

2-1-2 قصر السلطان(العباد):

يقع هذا القصر بالعباد على مقربة من المجمع الديني الذي بناه أبو الحسن المريني خلال فترة سيطرته على تلمسان ما بين سنة 738هـ/1337م و748هـ/1348م⁽³⁾، سمي بدار السلطان، يرجع تاريخ بنائه حسب الأخوان جورج ووليام مارسيه يرجع إلى نفس فترة تأسيس المسجد والمدرسة وأنه أسس من طرف نفس السلطان ليملك فيه وحاشيته أيام مجيئه لزيارة ضريح سيدي أبي مدين، تهدم الجزء الأكبر منه، ولم يتبق منه إلا عدد قليل من الغرف والأروقة التي تحمل بقايا قليلة من الزخارف الجصية وقد تم الكشف عنها من قبل مصالح المعالم التاريخية الفرنسية أثناء أعمال التنقيب التي أجرتها بين سنتي 1885 و1886.⁽⁴⁾

يتضح من التفاصيل المعمارية المتبقية من القصر أن تصميمه العام صغير الحجم مقارنة بما هو مألوف في عمارة القصور، يتكون من ثلاثة أجنحة صغيرة الحجم ومتجاورة فيما بينها، يقع الجناح الأول في أقصى الزاوية الشمالية الغربية وهو عبارة عن فناء خارجي يتوسطه باب بحداره الجنوبي يفضي إلى الصحن، أما الجناح الثاني وهو المركزي فيرتبط مع الجناح الأول بمدخل صغير، يتكون من ثلاثة قاعات صغيرة، ربما كانت تستخدم للاستحمام أي القاعة الباردة والدافئة والساخنة، بالنسبة للجناح الثالث فهو يتشابه مع الجناح الأوسط إلى حد ما، ويتكون من صحن يتصل بالساحة

1- محمد بن عبد الله التنسي، مصدر سابق، ص: 172-173

1-L'Abbé jj.Bargés, Op.cit,p:358-359

2- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج07، ص: 147-148

4- Georges et William Marçais, Op.cit,p:266

الخارجية بمدخل تحفه من جهاته الثلاث قاعات، كما يوجد سُلم بأقصى الزاوية الجنوبية الشرقية يؤدي إلى حديقة تطل على الجهة الشرقية.⁽¹⁾

2-2 الحمامات:

الحمام نوع من المنشآت المعمارية المدنية التي استلهمها المعماري المسلم من الحضارات السابقة (الرومانية والبيزنطية)، وتعد مدينة تلمسان جزء لا يتجزأ لا من الحضارة الإسلامية فقد شيد بها حمامات كثيرة وقد اهتم المعماري المسلم بهذه العمائر نظر لما تقدمه من طهارة جسدية ونظافة يحث عليهما الدين الإسلامي الحنيف، وهذا ما أوجد نوعاً من العلاقة الوطيدة بين عمارة الحمام والمسجد لذلك لم يقل شأناً عنه وعن المدارس، من بين الحمامات التي أنشئت بمدينة تلمسان مايلي:

1-2-2 حمام الصباغين:

لقد ذكر الحسن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" حديثاً عن حمامات تلمسان قائلاً: "...وبها كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة لكنها ناقصة الماء بالنسبة لحمامات فاس..."⁽²⁾، يقع هذا المبنى بالحلي الشمالي الشرقي بين شارع خلدون وشارع مرابط محمد، يشهد توافداً كثيفاً نظراً لما يقدمه الحمام من راحة جسدية ونفسية للمستحم، لذلك كان يسمى عند أهالي تلمسان بالعامية 'الطيب الأبك' وهناك دافع آخر زاد من شعبية حمام الصباغين تتمثل في الاعتقاد الشعبي الذي كان سائداً على أن هذا الحمام به بركة سماوية لا تقدر بثمن، ناتجة عن تردد الولي الصالح سيدي بلحسن الغماري على حمام الصباغين إلى الحد الذي سُمي فيه باسم سيدي بلحسن.⁽³⁾

1-الرزقي شرقي، المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان في عدسات مصوري القرن 19م، نشر بن خلدون، تلمسان 2013، ص: 149-151

2-الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ص: 20

3-وليام وجورج مارسيه، مرجع سابق، ص: 203

4-Georges et William Marçais, Op.cit,p:162

تجدر الإشارة إلى أن دوره لم ينحصر فقط في إيواء الوافدين إلى المدينة فقط بل تعداه إلى غير ذلك إذ احتوى على ما يسمى بالدكانة وهي بمثابة قاعة تتم فيها عمليات البيع والشراء⁽³⁾، من بين فنادق مدينة تلمسان مايلي:

2-3-1 فندق المنصور:

يقع هذا الفندق بالجهة الجنوبية الشرقية للجامع الكبير، في نقطة تقاطع شارع مرابط محمد وشارع سيدي حامد ويعد من المعالم الأثرية التي لا زالت محافظة على وظيفتها الأصلية التي أنيطت له منذ الفترة الزيانية التي أسس فيها، تتميز واجهته بمدخل تذكاري، وهو ما جعلها تتشابه مع بعض المساجد، بغض النظر عن الزخارف والظلة التي تتميز بها مداخل باقي المعالم الأثرية كمسجد سيدي الحلوي وسيدي إبراهيم ومسجد ومدرسة سيدي أبي مدين، كانت تغرز بالجهة العلوية من الإفريز الذي يحيط بمدخله قطع خشبية تعلق عليها مصابيح الإنارة، يلي المدخل مباشرة ممر مسقف يفتح على فناء مكشوف مربع الشكل بالطابق الأرضي، تتوزع من حوله دكانات لبيع السلع وإسطبلات البهائم ومخازن العلف، وفيما يخص الطابق العلوي فقد خصص لمبيت النزلاء في غرف تصطف بشكل متقابل فيما بينها⁽⁴⁾

يتميز فندق المنصور بتصميم معماري بسيط مماثل لتصميم المساكن التي وجدت بالقرب منه، إذ يخلو من تفاصيل زخرفية سواءً بداخله أو بخارجه، وهو بذلك لا يتشابه مع فنادق المشرق الإسلامي التي

1-ibid,p:163-165

2-مارمول كاربخال، مصدر سابق، ص:298

3-سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص:70

4-المرجع نفسه، ص:67-68

تميزت بالفخامة وكبر الحجم لاستيعاب أكبر عدد من المسافرين عبر ما أنجز بها من تفاصيل معمارية وزخرفية.⁽¹⁾

2-3-2 فندق المدرس:

يوجد هذا الفندق على مقربة من ساحة الشهداء، يفضي مدخله الذي يعلوه عقد نصف دائري _____ والفواكه وتجدد الإشارة إلى أن هذا الفندق وفندق المدرس يوجدان في الحيز الذي كانت تشغله القيصارية فقد تمركزت هذه الأخيرة بالزاوية الشمالية الشرقية للجامع الكبير، يفتح المدخل الرئيسي للفندق نحو الجهة الشرقية يعلوه عقد حدوي، يوجد على يمينه حوض مائي مستطيل الشكل تحيط به بلاطات خزفية قوامها أطباق نجمية ملونة بالأخضر والأزرق والأصفر، يعقبه بهو مقبب ذو باب خشبي، يعلوه عقد منكسر يقودنا إلى صحن مستطيل أرضيته مبلطة بالحجارة وغير مستوية لمنع تجمع مياه الأمطار بها، تحيط به ثلاث غرف سقفها مقبب بقبو نصف برميلي، واحدة مربعة الشكل والمتبقيتان ذات شكل مستطيل، تقود فتحة يعلوها عقدها منفرج مفتوحة بالزاوية الشرقية من الصحن إلى الطابق العلوي عبر سلم يتكون من سبعة عشرة درجة، يتضمن الطابق العلوي ثلاث عشرة غرفة مستطيلة ومربعة مهيأة لمبيت المسافرين، كما يوجد به هو الآخر سلم يتكون من ست عشرة درجة يوصل إلى السطح، الملاحظ أن هذا الفندق من الفنادق القليلة التي حافظت نسبياً على وظيفتها الأصلية.⁽³⁾

2-3-4 فندق الرمان:

يوجد هذا المعلم الأثري وسط محلات تجارية لبيع مختلف البضائع، سمي كذلك نسبة لشجرة الرمان التي كانت توجد بوسطه، ونظراً لانعدام أي مصدر تاريخي تحدث عنه بقيت فترة تشييده مبهمه

1-الرزقي شرقي، مرجع سابق، ص: 83-84

2-دحماني صبرينة نعيمة، مرجع سابق، ص: 231

3-دحماني صبرينة نعيمة، مرجع سابق، ص: 232

إلا أن هناك من يُرجعه للفترة الزيانية، فيما يخص تصميمه الهندسي فقد تضمن طابقين، واجهته الرئيسية تتجه نحو الشمال الغربي، بها مدخل يبلغ عرضه 1.90م بابه خشبي ذي مصراعين تعلوه ظلة من القرميد الأحمر اللون، يفتح على السقيفة التي يتواجد بها مصطبتان حجرتان على جهة اليمين واليسار كانتا تستعملان للجلوس، تفضي هذه الأخيرة إلى الطابق الأرضي الذي يتضمن فناء مربع الشكل يتواجد بمركزه حوض هو الآخر مربع الشكل، تتوزع حول الفناء ثمانية غرف مختلفة الأحجام، فبالجهة الجنوبية تتواجد غرف مستطيلة أما بالجهة الجنوبية تتواجد غرف مربعة الشكل فيما يخص الطابق العلو يتم الصعود إليه بواسطة سلم يتكون من عشرة درجات، به غرفتين متقابلتين، واحدة مستطيلة والأخرى مربعة بهما نافذتان تطلان على الفناء وهو ما يعرف بمبدأ التوجه نحو الداخل.⁽¹⁾

2-4 الصهاريح:

الصّهريح لغةً حوض يجتمع فيه الماء، وهو يسمى كذلك الصّهري⁽³⁾، يعتبر من المنشآت العمرانية المائية التي أنشأها السّلاطين، تتميز بأن لها دوران أساسيان في حياة الحواضر الإسلامية قديماً، فقد قدّمت دوراً دينياً عبر توفيرها الماء الشروب لعابري السبيل، وتزويد المساجد والحمامات بالماء لطهارة الأبدان باعتباره من الجوانب المهمة في حياة المسلم، إضافة إلى دورها الاقتصادي في تشكيلها مورداً مائياً لسقي المزروعات والبساتين.⁽⁴⁾

2-4-1 الصهريح الكبير:

يوجد هذا الصهريح غرب المدينة العتيقة تلمسان بالقرب من باب كشوط أو كما يعرف بباب سيدي

1- المرجع نفسه، ص: 239-240

2- دحماني صيرينة نعيمة، مرجع سابق، ص: 241

2- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مصدر سابق، ص: 954

4- فداء محمد أحمد قعقور، الأسبلة المائية في العمارة الإسلامية، حالة الدراسة مدينة نابلس، رسالة ماجستير، تخصص هندسة معمارية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2010، ص: 02

أبي جمعة المطغري الذي سبقت الإشارة إليه، عُرف هذا المعلم باسم صهريج مَبْدَى، يقال أن هذا الاسم يعود لأميرة زيانية⁽¹⁾، تمّ بناؤه في فترة حكم السلطان أبي تاشفين الأول، يبلغ طوله قرابة المائتين متر، أما عرضه فيبلغ مائة متر، وعمقه يقدر بثلاثة أمتار.⁽²⁾

ذكر القس بارجس أن أرضيته كانت مكسوة بطبقة من الملاط القاسي الذي يمنع احتراق الماء للأرضية، يبلغ سمكها حوالي واحد متر، وفيما يتعلق بجدرانها فقد شيدت من مادة الطابية بسمك 2.05م، اختلفت الآراء حول وظيفته فحسب المؤرخ شاو Shaw خُصص لتزويد مدينة تلمسان بالماء الشروب في حالة إذا ما وقع أي حصار، لكن أزيماء دي مونتغرافيه⁽³⁾ يعارضه، حيث ذكر في كتابه نزهة أثرية "Excursion Archéologique d'Oran à Tlemcen" أنه خُصص لسقي المزروعات لأن الماء الشروب كان يأتي من مكان آخر.⁽⁴⁾

لكن ما ورد عن محمد بن عبد الله التنسي أمر مناقض لما تقدّم، إذ ذكر أن السلطان أبو تاشفين خلّد مآثر معمارية عديدة فريدة من نوعها لم يعهد بناءها من قبله، والصهريج الأعظم هو واحد من المنجزات التي ابتكرها هذا السلطان في المجال المعماري وأنه كما ذكر: "كل ذلك للمدائنه الدنياوية"⁽⁵⁾، أي أن هذا الصهريج كان القصد منه هو التنزه والاستمتاع فقط.

3-نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية:

4- سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص: 209

5- Georges et William Marçais, Op.cit, p: 126

1- أزيماء دي مونتغرافيه Azima De Montigraivier: كان نقيباً في فرقة المدفعية العسكرية الفرنسية بوهراي ألف

كتابه: Excursion Archéologique d'Oran à Tlemcen، ينظر: L'Abbéjj. Bargés, Op.cit, p: 35

2- Georges et William Marçais, Op.cit, p: 126

3- محمد بن عبد الله التنسي، مصدر سابق، ص: 150

تعد العمارة العسكرية واحدة من أهم البصمات التي تركها الإنسان قديماً عبر جميع بقاع هذه المعمورة، كضرورة ملحة نابعة من الإحساس الفطري للإنسان نحو الأمن والأمان، باعتباره أحد أهم العوامل التي ساعدت على الارتقاء في مستويات الحضارة عبر مختلف جوانبها سواء كان ذلك في المجال المعماري والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، فقبل أن تتوفر له الدراية الكاملة في البناء اتخذ من الكهوف والمغارات مأوىً له، بحثاً عن الأمن من الحيوانات المفترسة وما ينجم عن الطبيعة من ظواهر كالأعاصير والحرائق، تميزت جميع أنواع هذه العمارة بالضخامة والمتانة واستعمال أصلب مواد البناء لضمان أكبر قدر من مقاومة في ظلّ الصراع الوجودي الذي عاشه الإنسان قديماً.

3-1 الأسوار:

قدّمت الأسوار المحيطة بمدينة تلمسان وظيفتين أساسيتين، فأما الأولى فكانت عبارة عن جدار يقف بالمرصاد لاعتداءات الأعداء، وذلك ما أكده الدور الفعّال الذي قدمته خلال الحصار الأول الذي ضربه أبو يعقوب يوسف على مدينة تلمسان من سنة 698هـ/1299م إلى سنة 706هـ/1307م وأيضاً الحصار الثاني الذي ضربه أبو الحسن المريني من سنة 735هـ/1334م إلى سنة 737هـ/1336م⁽¹⁾، ولو أنه توج بالنجاح في احتلالها لكنه لم يدخلها مباشرة إنما وقف بأسوارها قرابة العامين، أما الثانية تتمثل في تحديد حدود المدينة، إذ تعتبر حيزاً أو مجالاً تتواجد بداخله العمائر المكونة للنسيج العمراني.

تعد مدينة أغادير المقر الأول للتحضر قبل بروز تلمسان كحاضرة، فحسب ما ذكره كل من اليعقوبي وابن حوقل أنها كانت محاطة بأسوار دفاعية، لكنهما اختلفا في تحديد ماهية بنائها فقد ذكر اليعقوبي مايلي: "ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تلمسان وعليها سور حجارة وخلفه سور

1- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج07، ص: 127-147

آخر حجارة...⁽¹⁾، أما ابن حوقل فقد ذكر مايلي "...تلمسان مدينة أزلية ولها أنهار جارية وعليها أرحية وفواكه كثيرة ولها سور من آجر حصين منيع...وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة...".⁽²⁾

يبدو أن ما ذكره اليعقوبي هو ربما ما تبقى من الأسوار الرومانية لأن الرومان استعملوا الحجر في بنائهم وأن هذه الأسوار قد تهدمت وتشققت نتيجة الحروب وقام سكانها بإصلاحها في عهد إدريس الثاني وقبله في عهد أبي قرّة اليفرني، أما ما ذكره ابن حوقل فلا وجود لبقايا سور من الآجر والمادة الأساسية التي اعتمدوا عليها هي الطابية التي عكف السلاطين على استخدامها اتقاءً لشّر بني حفص شرقاً وبني مرين غرباً⁽³⁾، ساعدهم في ذلك موقعها الجغرافي إذ توجد بجنوبها هضبة لآلة ستي ويجوف بها ثلاث وديان، الواد الأولى يسمى واد مشكانة الذي يأتي من الجنوب متجهاً إلى شرق المدينة والثاني يسمى بواد ماخوخ يمر بالمدينة، من الجهة الجنوبية الغربية، أما الواد الثالث فيسمى بالواد الحر ويمر بالجهة الشمالية الغربية، ويبقى شمال المدينة بأخداره يصعب من مهمة الدخول إليها، لم يتبق من السور الدفاعي إلا بعض القطع الصغيرة المفصولة عن بعضها البعض، مثل ما تبقى بالجنوب والجنوب الشرقي من المدينة، فيما يخص الأسوار الدفاعية لمدينة المنصورة جاءت كشرط أساسي يدخل ضمن نسيجها العمراني المشكل لها، نظراً لكونها أشبه بقاعدة عسكرية، دائمة الاستعداد لشن هجوم أو الدفاع عن نفسها، تماشى السور الدفاعي مع ماهية طبوغرافية الموقع، إذ سائر خطوطها التضاريسية كبقية التحصينات التي أقيمت بالمدن الإسلامية، شُيد جزء من الأسوار فوق هضبة مرتفعة، وجزء آخر فوق سهل منبسط ملامحه العامة على شكل مستطيل تقريباً لأنه غير منتظم الأضلاع، شيدت أسوار بناء الأسوار فقد شيدت على مرتين، المرة الأولى تم بناؤه على يد أبي يعقوب يوسف عام 720 هـ / 1302م أما المرة الثانية فأعيد تهيئته على يد حفيده أبي الحسن المريني ويبلغ طول الأسوار مجتمعة حوالي

2- أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح اليعقوبي، البلدان، مطبعة بريل، مدينة ليدن، 1860، ص: 146

3- أبو القاسم ابن حوقل، كتاب المسالك والممالك، مطبعة بريل، مدينة ليدن، 1872، ص: 93

3- محمد بن عمرو الطمار، مرجع سابق، ص: 10

5 كلم، سمكها يقدر بـ 1.50م يتقلص تدريجياً كلما زاد في الارتفاع الذي يصل إلى حوالي 9م، ويبلغ عرض ممر الحراسة بـ 0.80م الملاحظ أنه لا وجود لأي أثر للسلام التي كان يتم بها الصعود إلى ممرات الحراسة بالموقع الأثري، لذلك يرجح أن تلك العملية كانت تتم باستعمال سلام خشبية، وتتوج الأسوار شرافات رأسها على شكل مثلث عرضها 0.70م وارتفاعها إلى الذروة 0.80م حتى تسمح للجند رصد التحركات، أما المسافة الفاصلة بينها فتقدر بـ 1م تستخدم كفتحات لرمي الرماح والسهام وصب الزيت الحارق على العدو.⁽¹⁾

تتخلل الأسوار أبراج تؤدي وظيفة نقاط مراقبة لتساعد الجند على حفظ الأمن، حتى لا تُطرق المدينة على حين غفلة، تفتح بهذه الأبراج مزاغل تستعمل هي الأخرى لقذف السهام، وتعلوها شرافات لحماية الجند من ضربات العدو، إضافة إلى أنها تعمل على تقوية وتدعيم الأسوار، وتنقسم الأبراج إلى صنفين من حيث الشكل، أبراج مستطيلة تتمركز بوسط الأسوار وهي الأكثر عدداً، وأبراج مربعة الشكل تأخذ مكانها في زوايا انعطاف الأسوار، وتبرز هذه الأبراج عن الأسوار بحوالي 3.5م، أما طول ضلعها الموازي للسطح فيصل إلى 7م، ويصل ارتفاعها حتى القمة إلى 12م⁽²⁾، أي أنها تفوق علو الأسوار بثلاثة أمتار لتحقيق أكبر مجال من الرؤية، كل ذلك كان بمثابة ترجمة للمستوى الذي بلغه الفكر العسكري المريني، والذي يبق بطبيعة الحال جزءاً لا يتجزأ من الفكر المعماري الإسلامي ككل.

3-2 الأبواب:

تحدث بعض الجغرافيين عن مدينة تلمسان لمكانتها المرموقة آنذاك من بينهم البكري في مؤلفته المسالك والممالك فقد ذكر تلمسان قائلاً: "...وهي مدينة مسورة... ولها خمسة أبواب، ثلاثة منها في القبلة باب الحمام، باب وهب وباب الخوخة وفي الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرّة...."⁽³⁾

1-Georges et William Marçais, Op.cit,p:201

2-Georges et William Marçais, Op.cit,p:203

2-أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص: 76

من خلاله ما ورد من وصف أبي عبد الله البكري يتبين أن تلمسان القديمة (أغادير) خضعت لتنظيم معماري متقن، تجسد في وضع الأبواب بجهات معينة من المدينة وفقاً لقواعد تتمثل فيما يلي:

- دفاعية: تعتبر الميزة الأساسية التي اكتسبتها الأبواب فقد كانت تفتح بالقرب من خندق أو منحدر للحد من سرعة الحركة، كما تم إحاطتها بالستائر وهي عبارة عن أسوار قصيرة تعمل على تكسير جبهات الهجوم المنظمة من طرف العدو، إضافة إلى دور مراقبة القوافل الداخلة والخارجة من المدينة، فمثلاً كان باب القرمادين يستقبل القوافل القادمة من هنين وندرومة، أما باب كشوط فكان يستقبل القوافل الآتية من جهة الجنوب الغربي وأيضاً من الغرب التي تكون قادمة من مدينة وجدة وسجلماسة.⁽¹⁾

- طبوغرافية: وذلك في تحديدها حيز المدينة، وأيضاً في كونها الحد الفاصل بين ما هو داخل المدينة وخارجها.

يلاحظ وجود الأبواب بالقرب من أضرحة أولياء الصالحين، فحسب عرف أهالي مدينة تلمسان فقد وضعت كذلك بهدف حراسة الباب، مثل ضريح أبي عبد الله الشودي المعروف باسم سيدي الحلوي قرب باب الزاوية، باب كشوط قرب ضريح سيدي بوجمعة بالجهة الغربية، كما أخذت بعض الأبواب أسماء أولياء صالحين مثل باب سيدي وهاب، باب سيدي البرادعي.

الأبواب التي أشار إليها البكري في مؤلفه هي أبواب مدينة أغادير، وجدت ثلاثة منها بجنوب المدينة وهي باب وهب، باب الخوخة باب الحمام وواحدة أخرى وجدت بالغرب تسمى بباب أبي قرّة أما المتبقية تركزت بالشرق وتسمى بباب العقبة⁽²⁾، عُرف بذلك الاسم لانفتاحه على مكان مرتفع ووعر، كما عرف بباب سيدي الداودي نسبة للولي الصالح المدفون بجواره وأيضاً بباب أغادير إبان فترة

1- سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص: 31

2- وليام و جورج مارسيه، مرجع سابق، ص: 133

الاحتلال الفرنسي، حسب وصف "أزيمادو مونتيغرافيه" "Azima De Montigraivier"، كان هذا الباب جزءاً من الأسوار الدفاعية وبني الجزء العلوي منه بالآجر، وتمّ تلبيسه بالطابية، أما الجزء السفلي منه فقد بني بحجار مصقولة جلبت من الموقع الروماني بوماريا.⁽¹⁾

بعد البكري ذكر يحيى بن خلدون هو الآخر خمسة أبواب تختلف ثلاثة منها عما ذكره البكري في الاسم فهناك باب الجياد بالجنوب الشرقي وباب العقبة شرقاً، وغرباً باب كشوط يُقال أن أبا الحسن المريني حينما انتصر على السلطان الزياني دخل تلمسان منه، أما شمالاً باب سيدي الحلوي وباب القرمادين⁽²⁾، يقع هذا الأخير بالشمال الغربي لمدينة تلمسان وهو يعتبر نقطة دفاعية، سمي كذلك لأنه يقع على مقربة من أفران الفخار والقرميد، هناك من يرى أن هذا المعلم الأثري قلعة أمامية كقلعة ابن الجاهل التي توجد بالجهة الجنوبية للمدينة، وقلعة بيت الريش التي توجد هي الأخرى بالجهة الجنوبية الشرقية من المدينة.⁽³⁾

يُعد باب القرمادين من المنشآت النادرة التي يرجع إنشائها لفترة للموحدين بمدينة تلمسان كان بمثابة الباب الأساسي الذي يتم من خلاله دخول وخروج الفرق العسكرية للجيش الزياني من الجهة الشمالية وقد وقع بهذا المعلم الأثري حدث تاريخي بارز تمثل في محاولة الاغتيال الفاشلة لمؤسس الدولة الزيانية يغمراسن بن زيان من طرف النصارى الذين وظفهم في حاميته العسكرية، وقد راح ضحيتها محمد بن زيان أخو السلطان الزياني⁽⁴⁾، يمتزج به نوعين من الأبراج، إذ يتكون من برجين شكلهما الخارجي دائري، وبرجين مربعين، فيما يخص مادة بنائه فقد تمثلت في الحجارة التي استعملت في الأساسات ومادة الطابية التي استعملت في الأبدان، يتضمن الموقع الأثري لقي أثرية فخارية، ومن بين

3-L'Abbé jj.Bargés, Op.cit,p:167-168

1- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 19-20

2- سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص: 24

3- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج 07، ص: 113

الأبواب الأخرى التي أنشئت في الفترات اللاحقة والتي لازالت تحتفظ بأجزائها باب الخميس، لُقّب أيضاً باب الجيش يقع بالجهة الجنوبية الغربية على الطريق المؤدي للمنصورة، ملمحه العام مستطيل، ارتفاعه يبلغ 05م، يعلو مدخله قوس على شكل حدوة الفرس، أما مادة بنائه الأساسية فتمثلت في الآجر.⁽¹⁾

4-نبذة عن المواقع الأثرية:

تزخر مدينة تلمسان بعدد من المواقع الأثرية التي تشهد شهادة صادقة على استيطانها قديماً من طرف عدة دول كالرومان والأدارسة والزيانيين والمرينيين، وهي لا زالت تكتنز مجموعة من اللقى الأثرية والبقايا المعمارية المتناثرة هنا وهناك، من بين تلك المواقع تطرقنا لذكر ما حمل طابعاً إسلامياً محضاً:

4-1 الموقع الأثري المنصورة:

يوجد هذا الموقع الأثري على بُعد خمسة كيلومترات غرب مدينة تلمسان، تأسس على إثر الحصار الذي شنّه المرينيون بقيادة أبي يعقوب يوسف على مدينة تلمسان الزيانية لمدة تزيد عن الثمانية سنوات وذلك من سنة 1299م إلى سنة 1307م⁽²⁾، وإصرار السلطان المريني في إخضاع المدينة كان وراء نقله الحكم من فاس إلى المحلة المنصورة التي سميت بهذا الاسم تيمناً بانتصاره على الزيانيين. يبدو المظهر الخارجي لهذا الموقع على شكل مستطيل تقريباً، يبلغ طوله 1300م، أما عرضه فيبلغ 750م⁽³⁾، يضم مساحة تبلغ حوالي 101هكتار بها بقايا الأسوار والجامع، هذا الأخير الذي كان بمثابة آية في السعة والزخرفة، إذ اعتبر أحسن الجوامع التي شيدها المرينيون، وذلك لمزجه بين الأناقة والضخامة في آن واحد، كان سقف بيت الصلاة مرفوعاً على أعمدة مرمرية يفوق ارتفاعها العلو المألوف في بناء

4-Georges et William Marçais,Op.cit,p:21

1-عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج07، ص:127

2-L'Abbé jj.Bargés,Op.cit,p:250

مثل هذه النماذج المعمارية، نُقشت بأحد الأعمدة ساعة شمسية، هي متواجدة بقاعة صلاة مسجد سيدي الحلوي كل عمود من الأعمدة صنع من قطعة رخامية واحدة لوفرة المادة وجودتها، ما يعكس أيضاً مهارة المرينيين المئذنة التي تتوج الجامع بجدرانها السمكية وعلوها الشاهق البالغ 40م، يُقدر طول المسجد بـ85م وعرضه 60م وهو بذلك يعتبر أكبر الجوامع بعد جامع قلعة بني حماد من حيث المساحة، وقد عثر على العديد من المنجزات الفنية كقطع فخمة من العقيق وأعمدة وأحواض وضوء... إلخ⁽¹⁾، بالنسبة لأسوارها فقد قام أبو يعقوب يوسف ببناء حزام دفاعي من الأسوار الدفاعية من مادة الطابية الطابية المقاومة لعوامل الطبيعة وضربات المناجيق بسمك يصل إلى مترين.

4-2 الموقع الأثري العباد:

يعتبر هذا الأخير من المواقع التي احتفظت ببعض الأطلال الأثرية التي عكست مدى رقي الأسلاف في شتى المجالات سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو المعمارية، لقد بدأ نجم هذا المكان يسطع بعد أن أصبح قبلة للمقبلين على الآخرة والمدبرين عن الدنيا⁽²⁾، تقع هذه البلدة حوالي كيلومترين جنوبها الشرقي، ومما سهّل الاستيطان فيها وفرة المياه الجارية وتوفر عامل الأمن، إذ تحتمي بالجبل الذي تقع على سفحه⁽³⁾. ينقسم العباد حسب طبوغرافية إلى جزئين العباد السفلي والعباد الفوقي، يتميز الأول بوجود أطلال مباني يُعتقد أنها بقايا لأوقاف مسجد سيدي أبي مدين، كما يعتقد أنها كانت المركز الأصلي لقرية العباد، حسب البعض كان يضم قديماً مسجدين الأول مسجد العباد السفلي الذي لا تزال مئذنته قائمة، والثاني يظهر بعض بقاياها على مقربة من ضريح أبي إسحاق الطيّار إلى جانبه كذلك نجد ضريح الشيخ السنوسي⁽⁴⁾، وفيما يخص العباد الفوقي يقع شرق العباد السفلي، يتداول سكانه فكرة مفادها أنه

3- وليام وجورج مارسيه، مرجع سابق، ص: 257

1- الرزقي شرقي، مرجع سابق، ص: 123

3-L'Abbé jj.Bargés, Op.cit,p:260

4- Georges et William Marçais, Op.cit,p:226

كان عبارة عن مقبرة في القديم، إذ يقولون نحن نعيش مع الأموات في بيوتنا، وهناك من ذكر أن سبب ذلك يعود لكون الموقع كان قبلة لجمع غفير يأتون إليه لينالوا بركة الدفن بجوار العباد الزاهد وأن تعميره بدأ بعد مواراة الولي الصالح سيدي أبي مدين في ذلك المكان، بالمقابل مع ذلك تم إنشاء زوايا تستقبل الغرباء الذين يريدون نيل بركات هذا الولي، وذلك ما سرّع من وتيرة تعمير العباد الفوقي مقارنة بالسفلي، فقد بنى الأهالي مساكنهم على منحدراته.⁽¹⁾

حال بلدة العباد اليوم عبارة عن حي شعبي مكتظ بالمساكن، كثير منها فقد صبغته التاريخية أوهدم تماماً، إلا أن جموع الزائرين لا تزال تتوافد على ضريح سيدي أبي مدين، ومسجده كذلك لا يزال هو الآخر يؤدي وظيفته الدينية على أكمل وجه في سائر أيام الأسبوع.

3-4 الموقع الأثري بأغادير:

أغادير واحدة من المدن الضاربة جذورها في التاريخ، وجدت بالمكان الذي اتخذه الرومان فيما بعد معسكراً لهم حينها سميت بيوماريا، تجدر الإشارة إلى أن بعض الكتابات المنقوشة بالحجارة التي وجدت بالموقع دلّت على أن بوماريا انتقلت من مجرد معسكر إلى مدينة تشترك مع بقية المدن الرومانية في نفس التصميم والمرافق.⁽²⁾

أورد علي الجزنائي في مؤلفه جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ما نقله الوراق في مقابسه أن إدريس الثاني دخل أغادير وأصلح أسوارها وصنع فيه منبراً كتب عليه اسمه قائلاً: "...دخلت جامع تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحاً من بقية منبر قديم قد ثبت هناك وعليه مكتوب: "هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في شهر محرم سنة تسعة وتسعين ومائة... " ⁽³⁾، ولم يتبق من مدينة أغادير إلا

1-ibid,p:227

2-Deloum Said,Op.cit,p:20

2-علي الجزنائي، مصدر سابق، ص: 27

مئذنة مسجدتها، إذ اندثرت جميع تفاصيل عمراتها، حسب ما ذكره الأخوان وليام وجيورج مارسيه حدث ذلك المهجر خلال السيطرة التركية على مدينة تلمسان، حينها انقطع التوافد على مسجدتها.⁽¹⁾

إن مجموع التراث المبني والمواقع الأثرية المختارة كعينات للدراسة تمثل جزءاً من التراث المعماري الكلي الذي تزخر به مدينة تلمسان، إذ قمنا بتقديم 38 معلماً تاريخياً تنوعت بين الدينية والمدنية والعسكرية، فأما الدينية فبلغ عددها 18 معلماً منها 09 مساجد و04 مدارس و05 أضرحة، وفيما يخص المعالم المدنية فبلغ عددها 08 منها قصرين وحمام واحد و04 فنادق وصهريج واحد، أما المعالم الأثرية العسكرية فبلغ عددها 12 معلماً أثري منها سوران و10 أبواب.

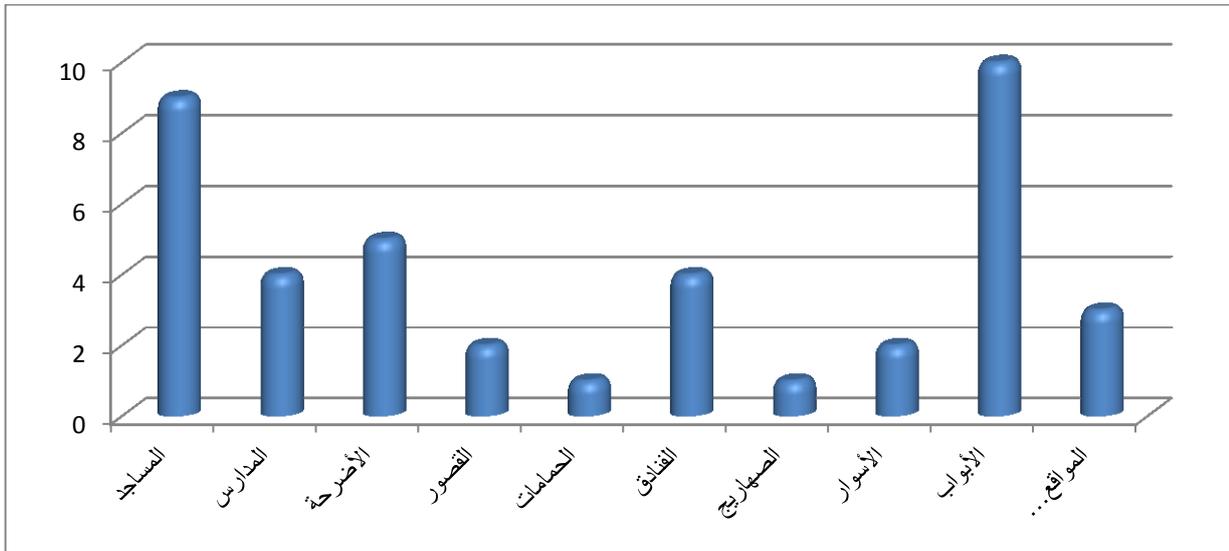
أما بالنسبة للمواقع الأثرية فعددها ثلاثة تمثلت في موقع المنصورة الأثري وموقع أغادير وموقع العباد، تجدر الإشارة إلى أن هذه المعطيات لا تعكس ما هو موجود بأرض الواقع، إذ قمنا بأخذ نماذج فقط عن كل نوع وعليه هي تعكس ما هو كائن في الدراسة فقط، ونقدّم ما تم ذكره سابقاً عدد ونسب المعالم والمواقع الأثرية في الجدول الآتي مع تبين نسبها في الدائرة النسبية والأعمدة البيانية:

النسبة المئوية	العدد الكلي	العدد	وظيفة المعلم الأثري	ماهية الأثر
%44	18	9	المساجد	1- وليام وجيورج مارسيه، مرجع سابق، ص: 168 المعالم الأثرية الإسلامية الدينية
		4	المدارس	
		5	الأضرحة	
%20	8	2	القصور	المعالم الأثرية الإسلامية المدنية
		1	الحمامات	
		4	الفنادق	
		1	الصهاريج	

%29	12	2	الأسوار	المعالم الأثرية الإسلامية العسكرية
		10	الأبواب	
%7	3	3		المواقع الأثرية
%100	41			المجموع الإجمالي

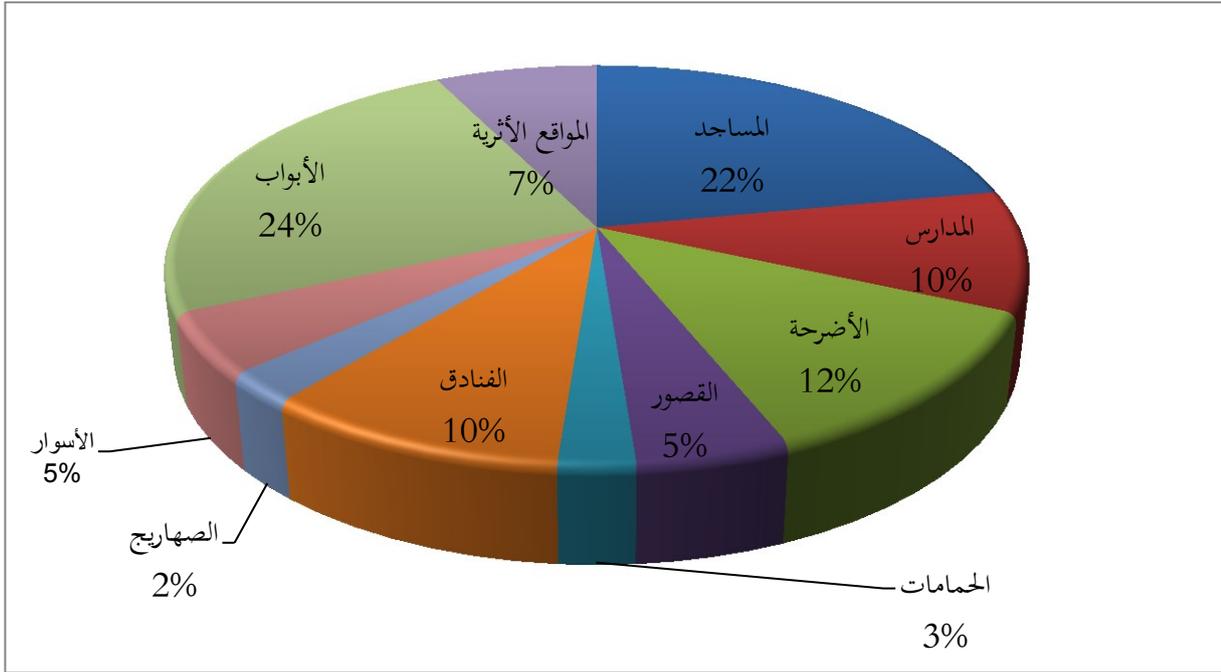
الجدول رقم 01: يبين أنواع المعالم الأثرية والمواقع الأثرية وعددها وفق العينات المختارة للدراسة بمدينة تلمسان. من إعداد الباحث

الدائرة النسبية رقم 01: تبين نسب المعالم الأثرية والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان وفق عينات الدراسة. من إعداد الباحث



الأعمدة البيانية رقم 01: تبين المعالم والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان وفق العينة المختارة للدراسة.

من إ



عداد الباحث

يتضح من الجدول والدائرة النسبية والأعمدة البيانية أعلاه الخاصة بالمعالم والمواقع الأثرية المقدمّة كعينات للدراسة من التراث المادي والمواقع الأثرية في هذا الفصل أن تلمسان كانت من الحواضر المرموقة حضارياً بحكم الفسيفساء المعمارية التي توجد بها، إذ تنوعت فيها العمائر بين ما هو ديني ومدني وعسكري وذلك لعدة اعتبارات أهمها كونها مدينة إسلامية حرص سلاطينها وساكنيها على الامتثال لتعاليم الدين الحنيف، كما أولوا أهمية للعلم والعلماء عبر ما شيد بها من مساجد لأداء الصلوات الخمس ومدارس كان يحضر دروسها بعض السلاطين وأضرحة سميت نسبة لهم مساجد وأبواب، وقد جاء عدد عينة هذه المعالم في الدراسة 18 معلماً بنسبة 43.90%، كما كانت أهلة بالسكان الذين شيّدوا فيها مساكن لم تكفنا ورقات هذا الفصل للحديث عنها، وحمامات وفنادق وغيرها، جاء عدد العينات الخاصة بها 8 معالم بنسبة 19.51% وتجدد الإشارة أنها نسبة تمثل فقط ما هو مدرّوس بالفصل أما إذ ربطنا الدراسة مع الواقع فالمعالم المدنية تمثل أكبر نسبة إذ ما أضفنا جميع المساكن المتبقية هنا وهناك لأن المسكن هو من يتحقق فيه الاستقرار البشري الذي من خلاله تنبعث بقية النشاطات الإنسانية كالتجارة والزراعة والبناء.

ولأن موقع المدينة ومقوماته الطبيعية من تربة خصبة وثروات مائية هائلة تخرشت الدول المجاورة بها، ولذلك تم بناء أسوار وأبراج وأبواب لتوفر الحماية والأمن أكبر قدر ممكن لساكينها لذلك جاء نسيجها محاطاً بهذا النوع من العمارة، وقد بلغ عدده 12 معلماً في الدراسة بنسبة 29.26%، أما المواقع الأثرية التي كانت في وقت من الأوقات محل عبادة وسكن وبيع وشراء قد جاء عددها ثلاثة بنسبة 7% من العدد الإجمالي.

خلاصة الفصل:

من خلال ما جاء في الفصل الثالث الموسوم بنبذة عن التراث المعماري والمواقع التاريخية بمدينة تلمسان، تبين جلياً أنها زاخرة بتراث معماري أصيل وذائع الصيت، لا لشيء إلا لأنها شهدت تعاقب حكم واستيطان العديد من الدول في فترة حياته، تراثها المادي الغير منقول جاء متنوعاً بين ما هوديني ومدني وعسكري، إضافة إلى وجود مواقع أثرية بالمنصورة والعباد وأغادير وهي التجمعات السكنية التي كانت موجودة على مقربة منها، ولكون تلمسان نقطة مغربة للاستيطان البشري، ومحل اهتمام السلاطين إذ تُوجت عاصمة للمغرب الأوسط لأزيد من ثلاثة قرون، عاشت خلالها فترات سياسية صعبة فاق نسيجها التاريخي نسيج مدينة ندرومة وهنين كماً وكيفاً، فمن جانب العمارة الدينية نجد على رأسها: الجامع الكبير الذي وضعت أسس نواته الأولى إبان الفترة المرابطية، مسجد سيدين بومدين سيدي الحلوي الذين يرجعان للفترة التي احتل فيها المرينيون تلمسان على يد السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان فارس، ثم مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، سيدي بلحسن التنسي، ضريح أبي إسحاق الطيار، مدرسة سيدي بومدين، المدرسة التاشفينية، المدرسة اليعقوبية... الخ.

أما العمارة المدنية فتمثلت في: حمام الصباغين، قصر المشور، الفنادق، الصهريج الأعظم... الخ جاءت كلها متنوعة بين ما هو خاص وعام خدمة للمنفعة العامة.

بخصوص العمارة العسكرية تمثلت في أسوار المدينة التي لم يتبق منها إلا القليل النادر وأسوار المنصورة، أما الأبواب، فقد انفردت بميزة التصاقها بأضرحة الأولياء، وقد ذكر أبو الفداء ثلاثة عشرة

بأباً، يوافق في هذا القول يحيى بن خلدون إذ يذكر زيادة على أبواب أغادير التي كانت متواجدة أبواب أخرى مثل: باب عمران، باب إيلان، باب البنود، باب التويتة، باب الحلوي وباب الملعب، باب زيري، باب إمن رتجم، باب علي، باب كشوط الذي يتواجد بالجهة الغربية من المدينة، سمي نسبة لضريح الولي المحاذي له سيدي بوجمعة، يقال أن أبا الحسن المريني حينما انتصر دخل تلمسان منه، وهناك باب القرماديين يقع هذا الأخير بالشمال الغربي لمدينة تلمسان.

أما المواقع الأثرية فقد وجدت على مستوى محيط المدينة وليس بداخلها وذلك بما يلي:

مدينة المنصورة: التي تضم زيادة على أسوارها موقعاً كبير الحجم يضم لقي أثرية ومسجد جامع لازالت مئذنته ظاهرة للعيان.

مئذنة أغادير: هذه الأخيرة التي كانت جزء من جامع أسس في الفترة الإدريسية، وجزء من مدينة كانت عامرة وآهلة بالسكان، اضمحل كل شيء ولم تتبق إلا النصوص التي تحدثت عنها إضافة إلى المئذنة.

العُباد: هذه الكلمة جمع عابد، تكونت نواتها على مقربة من مسجد سيدي أبي مدين، ينقسم إلى قسمين العباد السفلي والعلوي.

الفصل الثالث

نبذة عن التراث المعماري والمواقع الأثرية بمدينة ندرومة وهنين.

1- مدينة ندرومة

1-1 نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية.

2-1 نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية.

3-1 نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية.

2- مدينة هنين

1-2 نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية.

2-2 نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية.

3-2 نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية.

4-2 نبذة عن المواقع الأثرية.

1-مدينة ندرومة:

تمهيد:

مدينة ندرومة من المدن العتيقة الزاخرة بتراث إسلامي أصيل، لا يزال البعض منه باقيا للعيان رغم نوائب الدهر، ويُعد الفترة الزمنية التي شهدت ميلاده أول مرّة، اجتمع لهذه المدينة عوامل مكنتها من تبوء مكانة مرموقة بين حواضر المغرب الإسلامي، جاء في مقدمتها مكانها الاستراتيجي الذي يعتبر حصنا طبيعيا يوفر الأمن، إضافة إلى ذلك تميز بوفرة الماء والتربة الجيدة المعطاة فقد ساهمت سهولها الغنية في تلبية حاجيات سكانها وهو ما أشار إليه حسن بن محمد الوزان في حديثه عن ندرومة قائلاً: "...السهول القريبة من الساحل منتجة جدا لخصوبتها..."⁽¹⁾، شجعت المعطيات السالفة الذكر اختيارها لأن تكون حاضرة إسلامية، فقد كانت ثاني أهم الحواضر بالدولة الزيانية بعد تلمسان العاصمة الأمر الذي جعلها تكتسب معالم أثرية متنوعة دينية ومدنية وعسكرية محاطة بسور خارجي، أنظر المخطط رقم (02)، أما المواقع التاريخية فلا توجد بالمدينة، لذلك ركّزنا حديثنا على المعالم الأثرية فقط.

1-1 نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية:

لقد حظي هذا النوع من العمارة بتقدير واهتمام السلاطين بجميع دول العالم الإسلامي لحرصهم الشديد على إعلاء كلمة الله، والبقاء على المنهج الذي أتت به سنّة سيدنا محمد صلى الله عليه، لقد امتد إلى مدينة ندرومة كباقي حواضر المغرب مع مجيئ الفتح الإسلامي على يد عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية، وعليه بُنيت بها معالم دينية جسدت ذلك النقل والتواصل الحضاري.⁽²⁾

1-1-1 المساجد:

تضمن النسيج المعماري لمدينة ندرومة تخطيطاً ذي أبعاد دينية منبثقة عن التشريع الإسلامي الذي تجسّد في جميع المدن قديماً، فقد تميز بوجود مسجد جامع لتأدية صلاة الجمعة والعيدين بمركزها

1-الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ص: 10

2-محمد عمرو الطمار، مرجع سابق، ص: 16

مكوناً بذلك النواة التي تلتف من حوله بقية عمائر مدينة ندرومة، كالمساجد التي توزعت على باقي أحيائها لتأدية الصلوات الخمس والمسكن والدروب.

أ- الجامع الكبير:

اعتمدت مدينة ندرومة في تصميمها على الجامع الكبير كنواة ومركز لها تتفرع منه باقي المجالات الدنياوية الأخرى، يرجع الفضل في التعرف على تاريخ بناء هذا المعلم الأثري إلى رينيه باسي René Basset الذي اكتشف لوحة خشبية كانت جزءاً من منبر الجامع، شكلها عقد نصف دائري، تتألف من اثني عشرة سطر، يبلغ ارتفاعها 1 متر وعرضها 0.72م، تحتوي على التاريخ الإنشائي لمنبر الجامع الكبير بندرومة العتيقة، الأمر الذي دلّ على أن الجامع هو من تشييد المرابطين، يُرجّح مكتشف اللوحة أنّ المشيد هو السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين في الفترة التي أصبح فيها سلطانا فيما يقارب سنة 474/1081م⁽¹⁾، لم يكن لذلك السلطان أن يؤسس بمدينة ندرومة مسجدا جامعاً لولم تكن تتمتع بمؤهلات طبيعية تجارية وسياسية جعلتها تحظى بأهمية بالغة.

الشكل الخارجي للجامع الكبير مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب وهو مماثل في ملمحه العام للجامع الكبير بالجزائر العاصمة⁽²⁾، يبلغ طوله 28.30م وعرضه 20م، يحتوي بيت صلاته الذي يبلغ طوله 28.30م وعرضه 9.70م على تسعة بلاطات عمودية على جدار القبلة يحملها صفيان من الأعمدة تعلوها عقود حدوية⁽³⁾، محراب الجامع خماسي الأضلاع عقده مفصص وهو الوحيد من هذا النوع بالجامع، يوجد عن يمينه المنبر وعن يساره على الرواق الثاني من المحراب غرفة تستعمل كمكتبة وأمام المحراب على البلاطة المركزية مساحة مشكّلة بواسطة عقد أوسط وعقدين على شكل مربع من المحتمل أنها كانت مغطاة بقبة اندثرت في وقت لاحق، فيما يخص الصحن فيوجد به رواقين جانبيين، أما

1-René Basset, Op.cit, p:22-23

2-Georges Marçais, l'Architecture..., Op.cit, p:192

3-Rachid Bourouiba, L'art..., Op.cit, p:106

أبواب الجامع فهي ثلاثة، الأولى على اليسار المحراب مقابل البلاطة ما قبل الأخيرة والثانية في الركن الشمالي الغربي، والثالثة بجانب المئذنة في الزاوية الشمالية الشرقية.

فيما يخص المئذنة تقع بالركن الشمالي الشرقي للجامع، وقد لاحظ رينيه باسي René Basset وجود لوحة تأسيسية على يمين مدخلها تتألف من ثمانية أسطر، تشير إلى تاريخ تأسيسها هذا ما كُتب عليها: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد

...وها الصامع أهل ندرومة

بأمواهم وأنفسهم وكل احتساب

لله وانبت في خمسين يوم

بناها محمد بن عبد الحق بن عبد

الرحمن الشيصي في عام تسع وأربعين

وسبع مائة

رحمهم الله أجمعين⁽¹⁾، يوافق التاريخ الهجري المدون على اللوحة سنة 1348م، ارتفاعها شاهق مقارنة بمآذن مساجد تلمسان يتشابهان في الزخرفة أما الجوسق فهو خال من أي زخرفة، ما عدا فتحة صغيرة مستطيلة تنتهي على شكل عقد حدوي عبر جهاته الأربعة، يتألف سُلّمها من تسع وتسعين درجة⁽²⁾، ربما تعمّد المعماري إنجازَه بهذا العدد تيمناً بأسماء الله الحسنى، يبلغ ارتفاعها الكلي 24.04م، حيث يصل ارتفاع بدنها إلى 19.80م وأما الجوسق فيصل ارتفاعه إلى 4.24م ويبلغ طول ضلع قاعدتها 4.72م، يزدان البدن بزخارف هندسية على هيئة شبكة من المعينات والعقود المفصصة والمنكسرة كل واجهتين متقابلتين، نفس الشيء في هذا الجامع نجده قد تبنى المستطيل الذي حدّده الفن

1-René Basset, Op.cit, p:20

2-محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص:65

المعماري الحديث، فبعد تقسيم عرض بيت الصلاة أي 2830 سم على عرض المستطيل المحدد في الفن - شكله مستطيل تقريباً تمتد استطالته من الشمال نحو الجنوب، يبلغ طوله 13.15 م، أما عرضه فيبلغ 8 م، يوجد بيت صلاته أربعة أساكيب وثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة. 97 م، ينفتح مدخله الرئيسي بالجدار الغربي، بارتفاع يقدر بـ 2.24 م، وعرض يقدر بـ 1.45 م، أوسطهم هي الأوسع إذ يبلغ عرضها 3 م في حين يقدر عرض البلاطتين المتبقيتين 2.90 م، لقد فقد المحراب شكله الأصلي بعدما تم إعادة تهيئته بمواد بناء حديثة، يوجد عن يمينه فتحة مربعة غائرة يوضع فيها المنبر، بالنسبة للدعامات فمنها ما توسط بيت الصلاة ومنها ما يلتصق بالجدران، تعلوها أقواس على شكل حدوة الفرس يقدر عددها بإحدى عشرة قوساً، فيما يخص المئذنة فهي تتواجد بالزاوية الغربية للمسجد وهي لم تُذكر من قبل رينيه باسي René Basset عند حديثه عن المسجد، الأمر الذي يُرجح فرضية أنها أقيمت في وقت لاحق خاصة أنها تخلو من أي زخرفة ومبنية بمواد بناء حديثة السقف هو الآخر تم إعادة بنائه بمادة الآجر والحديد والإسمنت في حين يفترض أن يكون سطحه مسنماً ومصنوعاً بالخشب على غرار المساجد التي بنيت قديماً بالمغرب الإسلامي يرتفع السقف عن مستوى أرضية بيت الصلاة بـ 4.35 م.⁽⁵⁾

صُنّف هذا المعلم الأثري كآثار وطني منذ سنة 1912 م، وهو لا يزال يقدم دوره المتمثل في تأدية الصلوات الخمس إلى حدّ الساعة.

1- بسنوسي الغوثي سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 145

2-René Basset, Op.cit, p:20

3- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر الرابطين والموحدين، ط01، مكتبة الخانجي مصر، 1980، ص: 377

4- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 66

5- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 67-68

ج-مسجد لآلة الزهراء الشريفة:

سُمي هذا المسجد نسبة لمرأة تسمى بلالة الزهراء التي ذكره باسي René Basset أنها عاشت في مدينة ندرومة إبان الفترة الإدريسية⁽¹⁾، لكن ليس هناك دليل ما يثبت أنها عاشت في تلك فترة، يوجد هذا المسجد بالجهة الجنوبية على مستوى حي بني زيد وذلك على مقربة من مسجد القدارين السالف الذكر، لا يُعرف شيء عن تاريخ بنائه، إذ لم ترد أي إشارة في النصوص التاريخية حول ذلك لكن هناك ما يرجح تاريخ بنائه إلى نفس الفترة التي شُيد فيها مسجد القدارين لتشابه العناصر المعمارية المتمثلة في الدعامات والعقود، وُوظف هذا المسجد في وقت من الأوقات كمدرسة لحفظ القرآن الكريم ثم مسجد للصلوات الخمس ليتم غلقه بعد ذلك مخافة أن ينهار على المصلين للضعف الذي اعترى مواد بنائه والتلف الذي أصاب أجزائه، الملفت للانتباه أنه لم يتم تشييده كباقي مساجد المدينة فوق الأرضية إذ شُيد في الطابق العلوي فوق الحانوت.⁽²⁾

يلي المدخل الرئيسي للمسجد الذي يقع بالجهة الغربية سُلّم يتكون من تسعة عشرة درجة يتم من خلاله الصعود إلى بيت الصلاة، مظهره الخارجي مستطيل، إذ يقدر طوله بـ 9.49م وعرضه بـ 8.55م، يتكون بيت الصلاة من أسكوبين موازيين لجدار القبلة، كما يوجد به أيضاً خمسة دعامات تتشابه مع التي هي موجودة بالجامع الكبير ومسجد القدارين اثنتان منها توجد بالوسط واثنتان ملتصقتان بالحائط المتواجد على يمين ويسار جدار القبلة مع بروز قليل، والدعامات المتبقية توجد بالحائط المقابل لجدار القبلة مع بروزها أيضاً عنه، أما العقود فقد جاءت خالية من أي زخرفة وعلى نوعين الأول على شكل حدوة الفرس والثاني نصف دائري منكسر يأخذ مكانه في طرفي بيت الصلاة منكسر لصغر حجم بيت الصلاة، حيث لا يسمح بانفراج العقد إلى أقصى حدٍ ممكن.

1-René Basset, Op.cit, p:24

1-محمد رابع فيسة، مرجع السابق، ص: 70-72

بوائك هذا المسجد جاءت موازية لجدار القبلة على عكس ما هو حاصل بمسجد القدارين الذي جاءت بوائكه موازية وعمودية على جدار القبلة، يلاحظ أن بيت الصلاة تميز بميزة خاصة تتمثل في علو السقف، إذ جاء منخفض مقارنة بسقوف بقية المساجد فارتفاعه إذ لا يتجاوز 2.70م ربما مرد ذلك لتواجد المسجد بالطابق العلوي، أما مئذنة المسجد فهي حديثة العهد مقارنة بفترة بناء المسجد ومواد بنائها وكذا زخرفتها ما يدل أنها بنيت في فترة متأخرة عن بناء المبنى ككل لعدم وجود التشابه.⁽¹⁾

1-1-2 الأضرحة:

كانت مدينة ندرومة على غرار مدينة تلمسان محط اهتمام الفقهاء الذين فضلوها للعيش ونشر العلم، إذ لا تزال بعض أضرحتهم باقية على مرئى للعيان شاهدة على تفضيلهم الإقامة بالمدينة لكنها تبقى قليلة مقارنة بما هو موجود بمدينة تلمسان، كما أن المصادر التي تحدثت عنها هي الأخرى قليلة ناهيك عن بعض الإشارات التي وردت عن رينيه باسي René Basset⁽²⁾، من أبرز تلك الأضرحة مايلي:

أ- ضريح سيدي أحمد البجائي:⁽³⁾

حسب الرواية التي ذكرها رينيه باسي عن حمزة بن رحال يوجد ضريح هذا الولي الصالح في المدخل الشمالي الشرقي لمدينة ندرومة، وأنه بني بعد الحادثة التي وقعت للسلطان عبد المؤمن بن علي في تجواله رفقة جيشه حينما استقر به الأمر بقرية عين كبيرة التي تبعد عن مدينة ندرومة بحوالي 10 كلم

2- المرجع نفسه، ص: 70

2-René Basset, Op.cit, p:26-36

2- أحمد البجائي: هو إسماعيل بن يسلاّلى الهزرجي، لا يعرف شيء عن تاريخ ميلاده، كان تلميذ محمد بن تومرت في أعماط وريكة وهو يعتبر من الأصحاب العشرة له، شارك في تقويض الدولة المرابطية وتأسيس الدولة الموحدية، ولأه ابن تومرت القضاء، وكان أحد الذين تولوا عقد البيعة لعبد المؤمن بن علي بعد وفاة بن تومرت، توفي في السنة 555هـ/ 1160م على إثر محاولته المبيت في خباء عبد المؤمن بن علي لإنقاذه ممن حاولوا قتله، ينظر: أبي بكر الصنهاجي البيدق، مصدر سابق، ص: 31

وهو في خيمته دخل عليه البجائي ليُعلمه أن هناك مؤامرة تدبر له من طرف بعض قادة جيشه، فقرر أن يبيت في خيمته مكانه، وفي الليل دخل المتآمرون الخيمة وضربوا بسيوفهم جسد البجائي ضانين أنه السلطان، صباحاً أخذوا يقتسمون نشوة الانتصار لكن باغتهم عبد المؤمن بن علي وقضى عليهم، ثم أمر بوضع جثة الولي الصالح سيدي أحمد البجائي فوق ظهر ناقة وعندما انتهى بها السير بالجهة الشمالية الشرقية لندرومة أمر ببناء ضريح له.⁽¹⁾

إن الرواية التي نقلها لنا رينيه باسي René Basset عن حمزة بن رحال حول وفاة الولي الصالح تختلف عما نقله لنا ابن زرع في مكان حدوثها، إذ أشار في مؤلفه الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس إلى أن سيدي أحمد البجائي عندما قدم من إفريقية إلى طنجة مروراً بوهران مع الجيش الموحيدي من شهر ذي الحجة سنة 555هـ/1160م تفقده عبد المؤمن بن علي فوجده مقتولاً بعد أن قرر المبيت في خبائه لإنقاذه من المؤامرة التي دبرت له⁽²⁾، كما يذكر أن السلطان أمر بوضع جثته فوق ظهر ناقة وبناء قبة ومسجد ملاصق لها أين توقفت الناقة، وأمر أيضاً ببناء مدينة البطحاء، علماً أنه ذكر أنها كانت تقع بالقرب من واد شلف⁽³⁾، وهناك من ذكر أنها تمركزت على الطريق المؤدي إلى الجزائر بواد مئى بالقرب من غليزان.⁽⁴⁾

ربما يُعزى هذا الاختلاف في سرد الحقائق التاريخية إلى طغيان الذاتية عن الموضوعية عند صاحب الخبر لتمجيد أصله وموطنه وهو ما يجعل الخبر المنقول إلينا محلاً شبهة، وقد تحدّث عبد الرحمن بن خلدون عن التقديم الخاطيء للأخبار في فصل علم التاريخ بقوله: "...وكثيراً ما وقع للمؤرخين وأئمة

3-René Basset, Op.cit, p:30-31

2-أبي الحسن بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، مصدر سابق، ص:199

2-المصدر نفسه، ص:200

4-الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ص:28

النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة.... وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار...".⁽¹⁾

على العموم يتميز الهيكل الخارجي للضريح المتواجد بمدينة ندرومة بشكله المربع، إذ يبلغ طول ضلعه 5م أما ارتفاعه فيبلغ 4م، بالنسبة للمدخل لم يتجاوز ارتفاعه المتر ونصف، يتوسط قاعة الضريح مقام الولي الصالح وهو عبارة عن صندوق خشبي ارتفاعه 1.50م أما طوله فيبلغ 2م وعرضه 01م، مغطى بقماش أخضر مكتوب عليه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهُ، يعلو الضريح قبة كبيرة الحجم مقارنة بمساحته الاجمالية.

1-2 نبذة عن المعالم الأثرية المدنية:

بعد أن أصبحت مدينة ندرومة دار سكنى واستقرار للناس الذين وفدوا للعيش فيها، ازدهرت فيها الحركة المعمارية التي جاءت كنتيجة حتمية لذلك الاجتماع البشري، الأمر الذي جعل نسيجها المعماري يكتسب طابعاً مدنياً لما أنشئ بها من مباني منها ما كان خاصاً كالمساكن وقصور السلاطين وعماماً كالحمامات... إلخ، وهي المباني التي اشتملت عليها المدينة لكونها كانت من الحواضر المرموقة آنذاك.

1-2-1 1- القصور:

القصر واحد من العمائر التي أخذت حيزاً في النسيج المعماري بالمدينة العربية الإسلامية، ظهرت بعد الترف والبذخ اللذين وصلا إليهما المسلمون، مدينة ندرومة هي الأخرى عرفت وجود هذا النوع المعماري، وقد تمثل فيما يلي:

أ- قصر السلطان:

4- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج01، ص:13

مدينة ندرومة واحدة من تلك المدن التي حظيت بهذا النوع من البصمات المعمارية نظراً لأهميتها السياسية، تشير الذاكرة الشعبية بمدينة ندرومة أن هذا المعلم الأثري بني في فترة حكم السلطان الموحي عبد المؤمن بن علي التي بدأت في سنة 526هـ/1131م وانتهت في سنة 558هـ/1163م⁽¹⁾، وقد اختار له مكاناً بالجهة الجنوبية من المدينة العتيقة ليضمن له أكبر قدر من العلو والارتفاع الذي يحقق له جواً مناسباً للإقامة والاسترخاء بإطلاله على المدينة ككل، فطبوغرافية المدينة الممتدة على طول فح جبل فلاوسن اضطرته إلى ذلك، ولا زالت البعض من جدران هذا المعلم الأثري باقية لحد الساعة وقد حظي بعملية ترميم أعادت له بعضاً من بريق ماضيه وهو مصنف كمعلم أثري وطني منذ 18 سبتمبر 1912م.⁽²⁾

1-2-2 المساكن:

لا يقتصر مفهوم المسكن في كونه مجرد قشرة جوفاء تتضمن تشكياً معمارياً خاصاً، بل هو أبعد من ذلك، حيث يعتبر أهم أداة حضارية ساعدت الإنسان على المضي قُدماً في مراتب الحضارة⁽³⁾، وقد شكّل المسكن بمدينة ندرومة أهم وحدة معمارية بنسجها المعماري، حيث توزعت بجميع أحيائها السكنية، لقد حرص المعماري المسلم في تصميمه له تحصيل أكبر قدر من الأمن والراحة والحرمة والألفة بين الأسرة نفسها وبين الجيران مع بعضهم البعض، مستعملاً ما توفّر في البيئة التي تحيط به من مواد وما تجمّع له من خبرات، من ضمن تلك المساكن مايلي:

أ- دار القاضي:

1- علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص: 322-350

2- مصطفى مروان، مرجع سابق، ص: 78

1- بريشي درويش، تطور المسكن الإسلامي في مدينة تلمسان، دراسة فنية أثرية، رسالة ماجستير، تخصص فنون شعبية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2012، ص: 15

سميت كذلك نسبة للقاضي الذي عُين من طرف الأمير عبد القادر على مدينة ندرومة، بنيت له هذه الدار ليقيم بالمدينة ويكون مطلعاً على أحوال سكانها، تقع جنوب المدينة على مستوى حي بني زيد، مدخلها مفتوح بالواجهة الشمالية يعلوه عقد حدوي، يبلغ ارتفاعه 4.5م وعرضه 2م بابه حديدي ربما يرجع إلى الحقبة الاستعمارية، تليه السقيفة التي يوجد على يسارها المرحاض، تفضي مباشرة إلى فناء شكله مستطيل يقدر طوله بـ10م وعرضه بـ7م، وتحيط به أربعة غرف على يساره توجد غرفة مستطيلة يُرجح أنها استعملت لاستقبال الضيوف تبلغ مساحتها حوالي 50م²، الغرفتان المتبقيتان واحدة تقع في الزاوية الجنوبية شكلها مربع طول ضلعها 6م، بها نافذة خشبية تطل على الرواق، والأخرى في الزاوية الشمالية، أما الغرفة الرابعة فتعتبر أكبر الغرف طولها يقدر بـ10م وعرضها 6م، مساحتها 60م² لها مدخل في الزاوية اليمنى ونافذة تطل على الفناء، فيما يخص المطبخ فهو الأصغر مساحة شكله مستطيل يقدر طوله بـ6م وعرضه 4م لا يحتوي على نافذة إنما فقط على ثقبين يوجدان في أعلى زاويته اليسرى، بالنسبة للطابق العلوي فقد كان مخصصاً للأبناء الذين يستقرون به بعد أن يتزوجوا، يتم الوصول إليهم عبر السلم الذي ينطلق مباشرة من فناء الدار.⁽¹⁾

ب- مسكن الزرهوني:

يقع هذا المسكن بالجهة الجنوبية الشرقية من حي الخربة بين عدد من المساكن، رغم ما أصابه من تلف إلا أنه لا يزال يؤدي وظيفة السكن، فيما يخص تاريخ بنائه هناك من يرجح أنه يعود للفترة المرابطية للبساطة التي تميزه ومواد البناء المستعملة فيه كمادة الطابية التي اشتهر استخدامها عند المرابطين في لاسيما في المباني المدنية ولو بصورة أقل⁽²⁾، واجهته الخارجية خالية من أي زخرفة كما لا توجد بها فتحات حفاظاً على حرمة أهل، ويتألف المسكن من طابقين، يتم الولوج إلى الطابق الأرضي عبر مدخل يبلغ ارتفاعه 1.93م وعرضه 1.37م، نصل عبر السقيفة إلى فناء ذي تصميم مستطيل الشكل طوله

1- مصطفى مروان، مرجع سابق، ص: 77-78

2- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 87

11.60م وعرضه 6.50م، أرضيته مبلطة بالحجارة، يحيط به من جهاته الأربعة رواق لم تتبق منه إلا الأعمدة التي كانت تحمل سقف ذلك الرواق بواسطة بائكة، وتحيط به من جهاته الثلاث أربع غرف، اثنتان متواجدتان بجداره الجنوبي بينهما مرحاض، الأولى طولها يقدر بـ7.50م وعرضها 1.95م بها نافذة تطل نحو الفناء ارتفاعها 1.20م وعرضها 0.70م وهي تعد أكبر الغرف بهذا المسكن، يُرجح أنها خصصت لاستقبال الضيوف، أما الثانية طولها يقدر بـ4.70م وعرضها يقدر بـ2.10م، فيما يخص الغرفتين المتبقيتين أي الثالثة والرابعة توجدان بالجدار الشرقي للمسكن، شكل الغرفة الثالثة أقرب إلى المربع، إذ يبلغ طولها 2.55م وعرضها 2.32م، أما الغرفة الرابعة فشكلها مستطيل إذ يبلغ طولها 4.35م وعرضها 2.32م، أما بالنسبة للطابق العلوي فقد تهدم ولم يتبق منه إلا السلم الذي تضررت منه هو الآخر غالبية أجزائه، الملاحظ في هذا المسكن وجود غرفة أخرى على يمين المدخل الرئيسي مباشرة استخدمت كإصطبل يبلغ طولها 6.70م وعرضه 2م، لقد أختير للإصطبل مكان بحيث يمنع تعرض قاطني المسكن لأي ضرر من رائحة أو ضوضاء وهو الآخر قد تهدم سقفه، لأصحاب المسكن، ولم تتبق منه إلا الأسوار.⁽¹⁾

ج- مسكن الفتوح:

يقع هذا المنزل جنوب غرب الجامع الكبير بحي بني عفان، يعتقد البعض أنه يعود للفترة المرابطية انطلاقاً من مواد البناء التي استعملت في بنائه والبساطة التي تميزه⁽²⁾، تبقى مسألة تاريخ بنائه مبهمة لبعده فترة ميلاده خاصة أنه استخدم في الفترات اللاحقة لإنشائه الأمر الذي يفرض حدوث تعديلات على مواد بنائه وتصميمه، يعلو مدخله عقد منكسر، تليه مباشرة السقيفة سقفها من مادة الخشب والتراب، تفضي مباشرة إلى فناء المنزل شكله مستطيل يقدر طولها بـ9.60م وعرضه بـ5.70م، أرضيته مبلطة بحجارة مختلفة الأحجام والأشكال، تتوزع من حوله سبعة غرف على عكس

1- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 89

2- المرجع نفسه، ص: 92

منزل الزهوني الذي تتواجد به أربعة غرف وذلك لعدم احتوائه على الإصطبل وهي تتوزع كالتالي: الغرفة الأولى تقع بالزاوية الغربية من المنزل، حجمها صغير، إذ يبلغ طولها 2.40م وعرضها 1.57م وعليه مساحتها تُقدَّر بـ 3.76م²، أما الغرفة الثانية والثالثة فقد جاء تصميمهما منفرداً عن بقية تصاميم الغرف، إذ دعنا

مع بعضهما البعض حيث يتم الولوج إليهما بمدخل واحد، وبالنسبة للغرفة الثالثة فيبلغ طولها 2.20م وعرضها 1.44م، وفيما يخص الغرفة الرابعة فهي أوسع من الغرف السابقة الذكر، طولها يبلغ 4.16م وعرضها يبلغ 1.93م أي أن مساحتها تُقدر بـ 8.02م²، أما نافذة تطل على الفناء ارتفاعها يقدر بـ 1.05م وعرضها بـ 0.60م لتهبوية الغرفة وإضاءةها، مدخلها متسع إذ يبلغ 0.90م، وما كانت بمثابة غرفة للضيوف وهي لا تحتوي على أية زخارف، أما الغرفة الخامسة تقع بالزاوية الجنوبية من المنزل هي الأخرى كسابقها واسعة، يبلغ طولها 4.20م وعرضها 2.27م، جاء مدخلها منسجماً مع حجمها، حيث بلغ عرضه 0.98م، لا تحتوي على زخارف أو نافذة تطل على الفناء، بالنسبة للغرفة السادسة تقع بالزاوية الشرقية من المنزل، تعتبر الأكثر اتساعاً، يبلغ طولها 6.02م وعرضها 2.16م، مساحتها تقدر بـ 13م²، يوجد على يمينها نافذة كبيرة الحجم مقارنة بناوذة الغرف السابقة حيث يبلغ ارتفاعها 1.27م وعرضها 0.85م، خصصت لاستقبال الضيوف أما الغرفة السابعة فتوجد بالزاوية الشمالية، حجمها متوسط نوعاً ما، يُقدَّر طولها بـ 5.85م وعرضها بـ 1.47م مساحتها تُقدَّر بـ 8.59م²، لكن يلاحظ أن مدخلها لم ينسجم مع حجمها فقد جاء متسعاً، إذ بلغ عرضه 1م جميع الغرف صنع سقفها من مادة الخشب والتراب مثلها في ذلك مثل السقيفة⁽¹⁾.

ما يميز مسكن الفتح أيضاً وجود بئر في الزاوية الشمالية منه تحت السلم، لا زالت ناضية بالمياه لحد الساعة، قطر فتحتها تقدر بـ 1.15م، حدرانها بنيت بالحجارة الغير مشذبة، حالياً يعاني المسكن

من تصدعات وتشققات حيث انهار طابقه العلوي، وبالرغم من ذلك اتخذته عاى

لة ندرومية سكناً لها.⁽²⁾

1-2-3 الحمامات:

بعدما انتقلت عمارة الحمام إلى الحضارة الإسلامية بفعل الحركة التجارية والفتوحات الإسلامية مع بقية الحضارات العريقة السابقة أصبحت منشأة معمارية مهمة في العمارة ومتداولة في جميع المدن الإسلامية، إذ لا نكاد نجد مدينة إلا وقد خصصت مجالاً لبناء الحمام⁽³⁾، وكمثال عن هذا النوع المعماري بمدينة ندرومة نذكر:

أ- الحمام البالي:

أولَى سكان مدينة ندرومة اهتماماً بالغاً لبناء الحمامات، حتى يتقربوا من الله عزّ وجل لدوره البالغ

في طهارة البدن التي هي شرط لازم لأداء الصلوات الخمس، فشيهدوا حماماً ملاصقاً للجامع الكبير يطلق عليه اسم الحمام البالي، وهذا الحمام يدخل ضمن المرافق العامة بتسيجها العمراني.

يُعتبر من أقدم الحمامات في بلاد المغرب الإسلامي، هناك بعض الدارسين من أرجعوا بنائه إلى الفترة المرابطية لتشابه تصميمه الداخلي مع تصاميم حمامات المرابطين بالمغرب الأقصى رغم التعديلات التي

1- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 95

2- المرجع نفسه، ص: 95

3- عطى الله دهينة، تاريخ الجزائر في العصر الإسلامي، ج 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 364

لحقت به، ضف إلى ذلك قربه من الجامع الكبير يرحح الفرضية السالفة الذكر⁽¹⁾، يتمركز بوسط المدينة العتيقة خلف الجامع الكبير بحي التريعة تقدر مساحته بـ 162م²، شكله الخارجي مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب⁽²⁾، مدخله ذو باب خشبي يفتح بالجهة الشمالية يبلغ ارتفاعه حوالي 1.80م وعرضه 1.10م يعلوه عقد حدوي تستند عليه ظلة منجزة من مادتي القرميد والخشب، مستوى أرضيته منخفض عن مستوى أرضية الساحة الخارجية إذ يتم النزول إليه بدرج ينحدر نحو الأسفل بستة درجات، يلي مدخله مباشرة قاعة الاستراحة أو القاعة الباردة *Frigidarium* أقرب إلى المستطيل يقدر طولها بـ 7.70م وعرضها 6.79م بها عقدين حدويين يستندان على عمودين مصنوعين من مادة الرخام البني اللون يبلغ ارتفاعهما 1.80م، غطيت هذه القاعة بقبو نصف برميلي به فتحات للإضاءة على يمينها توجد القاعة الدافئة *Tepidarium* شكلها مستطيل تقريباً حيث يقدر طولها بـ 7.28م وعرضها بـ 6.33م، تعتبر القاعة الأكثر اتساعاً في الحمام لكي لا يحس المستحم بالضيق تعلوها أربعة أقبية نصف برميلية وقبة في الوسط بها فتحات زجاجية لإضاءة القاعة، تتوسطها أربعة أعمدة من الرخام يبلغ ارتفاعها هي الأخرى 1.80م تحمل عقود حدوية، تتوزع من حولها دكّات حجرية لجلوس المستحمين بعد الخروج من القاعة الساخنة *Caldarium*، توجد هذه الأخيرة جنوب القاعة السالفة الذكر يوجد بها حُجرة صغيرة على يسارها يقدر طولها 4.14م وعرضها 1.98م تستعمل لاغتسال الشخصيات على انفراد مدخلها يعلوه عقد حدوي، تحدّث عن مثل هذه الحجرات الحسن بن محمد الوزان في وصفه لحمامات مدينة فاس قائلاً: "...ينفردون في حُجرٍ خاصة مزخرفة يحتفظ بها في حالة نظافة جيدة لاستقبال الشخصيات السامية...".⁽³⁾

1- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 101

2- المرجع نفسه، ص: 102

3- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ج 01، ص: 230

أما الغرفة المتبقية في القاعة الساخنة فيقدر طولها 5.79م وعرضها 3.71م، بها حوضين واحد للماء البارد والآخر للساخن ودكّات حجرية لجلوس عليها أثناء الاستحمام أما فرن الحمام فيوجد أسفل القاعة الساخنة يتم النزول إليه بدرج يتكون من 13 درجة به موقد يعلوه قدر يستعمل الحطب في إيقاده، يُزود بالماء عبر أنبوب يأتيه من البئر مباشرة، وتتفرع منه أنابيب فخارية تحت أرضية الحمام⁽¹⁾، حظي الحمام البالي بعملية ترميم سنة 2003، ليفتح أبوابه بعد ذلك ويدمج في الحياة اليومية للمواطن الندرومي، لازل محافظا على الطراز المعماري للحمامات العربية الإسلامية.

3-1 نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية:

تقع مدينة ندرومة بمكان أشبه أن يكون حصنا طبيعيا ساعدها في تكوين كيان حضاري وجعلها في منى عن الأخطار التي تحدق بها من كل جانب، فمتى توفر الأمان ازدهرت الحياة الحضارية ونمت لم تترك المدينة محمية بموقعها فقط بل عمد مخططوها على إنشاء عمارة عسكرية لتعزيز تحصينها الطبيعي والوقوف ضد الاعتداءات خاصة وأنها كانت قريبة من الساحل من جهة الشمال، وفي أيام الصراع الزياني المريني أصابها ما أصاب مدينة تلمسان، إذ كانت تتعرض هي الأولى لضرباتهم، ذكر أبي الحسن بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي أنها حوصرت من قبل أبي يعقوب يوسف في المرة الثانية التي أراد فيها احتلال تلمسان، إلا أنه لم يستطع اقتحامها وأفل راجعاً إلى مملكته⁽²⁾، الأمر الذي يدل أنها كانت على درجة كبيرة من التحصين لأهميتها لدى السلاطين، وقد تمثلت أهم عمائرها الدفاعية فيما يلي:

1-3-1 الأسوار:

تعتبر الأسوار الأسلوب الأنجع في تحقيق عامل الأمن بالمدن العتيقة، لذلك لا نجد مدينة من المدن تخلو من هذا النوع العمائري حيث يذكر الإدريسي مدينة ندرومة قائلاً: "...مدينة كبيرة عامرة أهلة

2- محمد رابع فيسة، مرجع سابق، ص: 103-104

3- أبي الحسن بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، مصدر سابق، ص: 385

ذات سور...⁽¹⁾، الأمر الذي يدل أن مخططيها لم يغفلوا هذا النوع المعماري، فقد اعتبروه ضرورة ملحة ولبنة أساسية لبناء حاضرة قوية، جاء تشييد تلك الأسوار مماثلاً في بنائه لأغلب أسوار المدن المغرب الإسلامي حيث استعملت في بنائه مادة الطابية التي تعتبر أكثر المواد استعمالاً في هذا النوع من البناء، نظراً لوفرة موادها الأولية في الطبيعة، وكذا لمقاومتها عائدات الزمن سواءً كانت عوامل بشرية كالحروب أم طبيعية كالحرارة والأمطار.

أغلب بقايا الأسوار نجدها في الجهة الجنوبية للمدينة العتيقة يبلغ سمكها 1.5م وارتفاعها حوالي 5م وقد امتدت على طول قدره 30م، تتوجها شرفات ارتفاعها 0.84م وعرضها 0.50م، وتنفصل عن بعضها البعض بمسافة قدرها 0.70م تعد كفتحات لرمي السهام وصب الزيت الحارق على العدو، إذا ما أراد تسلق الأسوار، وتجدد الإشارة أن هذا الجزء المتبقي من السور الدفاعي قد حظيت بعملية الترميم سنة 2003.⁽²⁾

بالنسبة للجهة الشمالية والشرقية لم يتبق فيهما أية بقايا، أما الجهة الغربية فقد بقيت آثار السور على مرئى للعيان لوجودها في مكان صعب الوصول إليه، لأنه بني محاذياً للوادي الموجود بتلك الجهة خاصة أن طبوغرافية تلك الجهة شديدة الانحدار، مما حال دون المقدرة إلى الوصول إليه وأخذ القياسات.

1-3-2 الأبراج:

تنقسم إلى قسمين الأول يكون منفصلاً عن الأسوار كنقطة مراقبة متقدمة عن الحيز المعماري للمدينة، والثاني متصل مع الأسوار كما هو الشأن بالنسبة للبرج الموجود بالجزء الجنوبي لسور مدينة ندرومة، إضافة لدوره الدفاعي يمكن من خلاله مراقبة ورصد تحركات العدو، وهو يعتبر البرج الوحيد المتبقي بالمدينة، يقدر ارتفاعه بـ 5.40م وبروزه عن جدار السور بـ 4.10م، أما طوله 5م.

1- أبي عبد الله محمد بن إدريس الحسيني الشريف الإدريسي، مصدر سابق، ص: 534

2- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 44

1-3-3 الأبواب:

تحمل مدينة ندرومة العتيقة بين دروبها وأزقتها صفات المدن العتيقة بالمغرب الإسلامي، إذ نجدها تكتسي بطابع عمراني متناسق، يظهر جلياً في كيفية تنظيم نسيجها العمراني وتنظيم استعمالها لأراضي واحتوائها على الأبواب، تعتبر هذه الأخيرة همزة وصل بين الداخل والخارج فمن خلالها يتم دخول وخروج السكان والقوافل التجارية من وإلى المدينة، إلى جانب ذلك تؤدي دور الحماية، لقد تميزت غالبية الحواضر الإسلامية باحتواء تصميمها على أربعة أبواب، وهي الميزة نفسها التي وجدت بالمدينة، إذ تتوزع بها أربعة أبواب كالاتي:

- أ- باب المدينة: يوجد بالجهة الشمالية، تعرض لعدة تعديلات مسّت شكله الخارجي ومواد بنائه، فقد قُصص من ارتفاعه، وغيّرت مواد بنائه الأصلية واستخلفت بمواد بناء جديدة تتمثل أساساً في الإسمنت.
- ب- باب القصبه: يوجد جنوب المدينة، لقد حظي بعملية ترميم أبقت به جزءاً من شكله الأصلي.⁽¹⁾
- ج- باب الفراقي: يقع في الجهة الشرقية، ربما سمي بذلك الاسم لوجوده بمفترق الطرق التي تتجه نحو الشرق (عين كبيرة) والشمال (الغزوات) والجنوب (مغنية)، لم تتبق معالمه فقد اندثر كلياً.
- د- باب تازا⁽²⁾: يقع هذا الأخير بالناحية الغربية للمدينة العتيقة، سمي كذلك لأنه انفتح على الطرق المؤدية لمدينة تازا⁽¹⁾، لقد تهدم هذا الباب ولم تتبق معالمه هو الآخر على مرئى من العين.

1- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 48

2- تازا: من المدن المغربية، تبعد عن مدينة فاس بحوالي 100 كلم، تتضمن جامعاً أكبر من جامع فاس، وثلاثة مدارس وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق منتظمة، وقد عاش بها عدد كبير من العلماء والأخيار والأثرياء. ينظر: محمد بن الحسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص 354، وينظر كذلك: عبد الحكيم العفيفي، موسوعة 1000 مدينة إسلامية، ط 1، مكتبة الاسكندرية، مصر، 2000 ص: 155

1- محمد رابح فيسة، مرجع سابق، ص: 48

تعكس المعالم الأثرية التي تقدّم الحديث عنها جزءاً لا يتجزأ من التراث المادي لمدينة ندرومة ينقسم في محمله إلى ثلاثة أقسام منه ما هو ديني ومدني وعسكري وهي الأنواع التي رافقت العمارة الإسلامية بالمدن الإسلامية العتيقة سواءً بالمشرق أوالمغرب الإسلامي، ما يلاحظ في الموروث التاريخي لمدينة ندرومة خلّوه من المواقع الأثرية، إذ من خلال معاينتنا للمدينة ومحيطها لم نصادف وجود مساحات تتضمن بقايا أثرية ثابتة أو منقولة ربما يعزى ذلك لكون مدينة ندرومة لم تكن بحجم المدن الكبرى التي انتشر عمرانها وكثر معمارها وأستقر بها الرومان كمدينة تلمسان أو تغيرات نواتها الحضرية من مكان إلى مكان آخر.

من جملة البقايا المادية التي ورد ذكرها والحديث عنها كعينة في الدراسة 15 معلماً، منها 04 معالم دينية و 05 معالم مدنية و 06 عسكرية، بالنسبة للمعالم الدينية فقد تضمنت مسجداً جامعاً ومسجدين موزعين على الأحياء السكنية وهما مسجد القدارين ومسجد لآلة الزهراء إضافة إلى وجود ضريح واحد، أما المعالم المدنية، فقد تكونت من قصر السلطان، ومسكن القاضي والفتوح والزرهوني والحمام البالي الموجود خلف الجامع الكبير، وتجدر الإشارة أن ندرومة اختلفت عن مدينة تلمسان في موضع بناء الحمام إذ تواجد ملاصقاً للجامع الكبير، وكأن المصمم أراد تجسيد علاقة الطهارة بالعبادة في مكان واحد، وفيما يخص المعالم العسكرية فقد تمثلت في السور الذي أحاط بالمدينة والأبواب المتمثلة في باب المدينة وباب القصبة وباب الفراقى بالإضافة إلى برج يوجد بالجزء الجنوبي لسور المدينة.

ولكي نوضح أكثر نقدم ما تم ذكره سابقاً عدد ونسب المعالم والمواقع الأثرية في الجدول الآتي مع

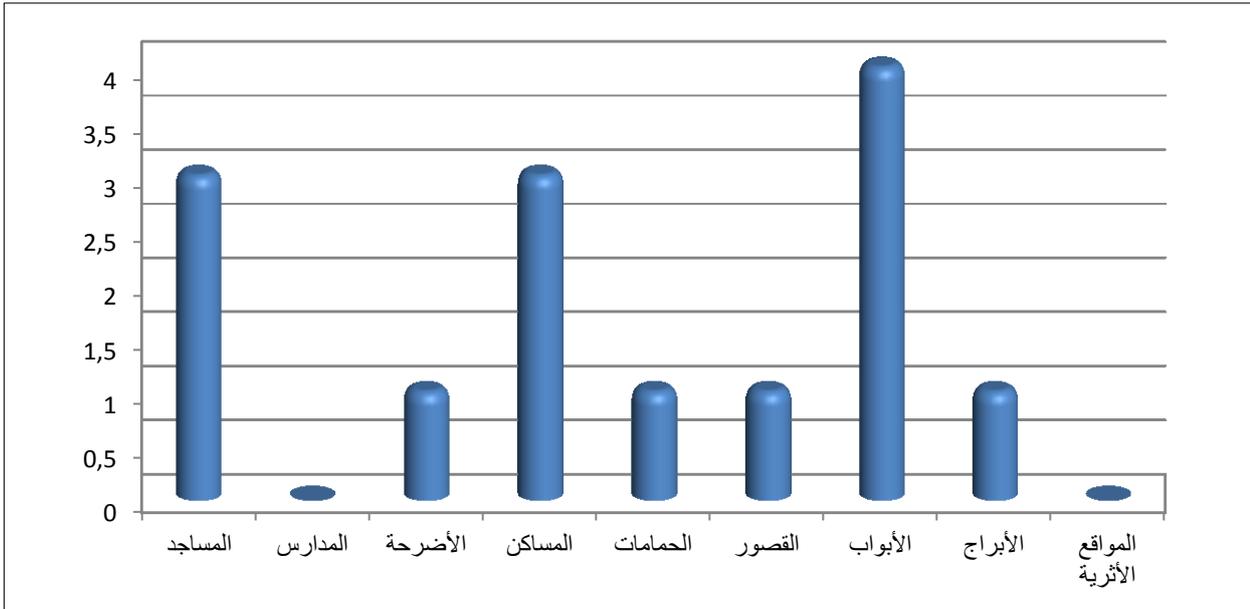
تبيين نسبها في الدائرة النسبية والأعمدة البيانية

ماهية الأثر	وظيفة المعلم الأثري	العدد	العدد الكلي	النسبة المئوية
المعالم الأثرية الإسلامية	المساجد	03	04	27%

		01	الأضرحة	الدينية
%33	05	01	القصور	المعالم الأثرية الإسلامية المدنية
		03	المساكن	
		01	الحمامات	
%41	06	01	الأسوار	المعالم الأثرية الإسلامية العسكرية
		04	الأبواب	
		01	الأبراج	
%100	15			المجموع الإجمالي

الجدول رقم 02: يبين أنواع المعالم الأثرية وعددها وفق العينات المختارة للدراسة بمدينة ندرومة.

من إعداد الباحث.



كري تبعاً لحاجة ساكنيها من العمارة، ويثبت هذا التنوع ما للمدينة من مكانة حضارية دفعت بأهاليها إلى تجسيد علاقة بينهم وبين المكان الذي سكنوه من خلال العمارة، الملاحظ في نسيجها المعماري وبالتحديد في معالمها الدينية عدم وجود المدارس مثلما كان حاصلًا بمدينة تلمسان، إذ من خلال معاينتنا الميدانية لم نصادف وجود مثل هذا النوع المعماري بالرغم من الروايات التي ذكرت أسماء عدة فقهاء سواءً ترجع أصولهم لمدينة ندرومة، أو فضلوا العيش والتعبد فيها مثلما قام به الفقيه سيدي أحمد بن الحسن الغماري.

أكبر نسبة للمعالم الأثرية ترجع للمساكن بنسبة تقدر بـ 20% وهو أمر طبيعي لأن المسكن هو أول المنجزات التي رافقت وجود الإنسان منذ أقدم العصور، إذ لا يعقل أن ترتفع مقارنة معه الحمامات أو الفنادق أو ما شابههما من العمائر.

حسب العينة المختارة للدراسة تتساوى معها في النسبة المساجد فقد شكّلت هي الأخرى 20% نفس الأمر بالنسبة للأبواب فقد شكّلت أيضاً نسبة مرتفعة بين العمائر التي تم تقديمها في الدراسة بنسبة قدرها 27% ما يعادل 04 أبواب موزعة على الجهات الأربعة لتسهيل عملية الدخول والخروج منها، ثم تأتي بعد ذلك بقية العمائر في الترتيب بدءاً بالبور الذي يلفها والضريح الموجود بها والقصر الكائن بجهتها الجنوبية.

ما يمكن قوله عن تراث المدينة أنه جاء متنوع تلبية لمتطلبات السكان الدنياوية والآخروية، ومهما أصابه من نقص أو تلف إلا أنه لا يزال المتبقي منه ينقل لنا صورة واضحة المعالم عن المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والمعماري الذي كان حاصلًا آنذاك، لأن التأمل في العمارة وما تحويه من تفاصيل يغوص بتفكيرنا إلى ما وراء تلك الأشكال التي تتجسد أمام أعيننا إلى الملامح الثقافية والظروف الاجتماعية التي كانت سائدة ومستوى الفكر المعماري الذي توصل إليه الأسلاف قديماً، عندها يستقر تفكيرنا على أن العمارة الإسلامية أكبر من تكون مجرد مواد تجتمع معا في مكان واحد لتكوّن بناءً لغرض ما، بل هي حوصلة سلسلة من الخبرات المتعاقبة، وتفاعل الزمان مع المكان.

2- مدينة هنين:

تقع مدينة هنين العتيقة بين وادين هما وادي هنين الذي يجتازها من جهة الشمال الشرقي، ووادي ريغو أو مسابي الذي يجتازها من ناحية الغرب، أنظر المخطط رقم (03)، يبدو أن اختيار موقعها من قبل المخططين لم يكن عن صدفة، بل عن دراية كاملة بالجانب الطبوغرافي، حيث استغلوا طبيعة التضاريس لتكون حصناً طبيعياً يسهل من مهمة الدفاع عنها ضد الغزاة.

تنقسم المدينة إلى قسمين، الأول منخفض يقع في الجهة الشمالية على مقربة من وادي هنين، يرحح أن هذا الجزء من المدينة كان مركز المدينة، إذ نجده يشمل جميع المنخفض المحيط بالمدينة عبر الاتجاهات الثلاثة المتمثلة في الشمال الشرقي والشمال الغربي والجنوب الشرقي الذي تمتد فيه الأحياء السكنية حالياً، أما الثاني علوي يرتفع عن سطح البحر بحوالي 30م، ويستند على منحدر جبلي تعلوه القلعة⁽¹⁾، وتحديث عدد من أمهات الكتب عن مدينة هنين، فقد ذكرها البكري أنها كانت في أول الأمر حصن⁽²⁾ ثم ذكرها الإدريسي⁽¹⁾، ومن بعده حسن بن محمد الوزان الذي ذكر أنها أصبحت من المدن

1-Georges Marçais, Recherche.... Op.cit,p:344

2-أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص: 80

العامة والآهلة بالسكان ذات مساكن جميلة التصميم إلى غير ذلك مما تشتمل عليه المدن ذات الطابع الإسلامي قديماً⁽²⁾.

2-1 نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية:

إنه لمن الصعب الحديث عن الموروث المادي لمدينة هنين لاندثار جل الشواهد الأثرية التي تركها الأسلاف بها، الأمر الذي أضفى غموضاً على تاريخها وماهية تكوينها، الملاحظ أن ما تبقى من بصماتهم بالمدينة أغلبه ذي طابع عسكري كالقلعة والأسوار والباب الشمالي، ربما لأنها كانت بعيدة عن المجال الذي حضي باهتمام السلطات المحلية لبناء مشاريعهم في الفترات اللاحقة.

2-1-1 المساجد:

فيما يخص مساجد مدينة هنين، لم ترد أي إشارات عنها ما عدا ما أورده ابن مرزوق الخطيب في مؤلفه المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن عن تكليفه من طرف هذا السلطان لشراء قطعة أرضية بغرض بناء مسجد⁽³⁾، ولم يتبق منه أي شيء إذ تمّ تحطيمه كلياً وإزالة ما تبقى منه من جدران وغيرها، وئني عوضاً عنه مسجد جديد في سبعينيات القرن الماضي، ثم تمّت توسعته فيما بعد بالتحديد سنة 1986م⁽⁴⁾.

بخصوص أبعاد المسجد والوصف الداخلي لبيت الصلاة وشكل وزخرفة المحراب فإنه لا يوجد أي نص مكتوب ما عدا ما ذكره ما ابن مرزوق على أنه مسجد خطبة⁽⁵⁾، الأمر الذي يدل على أنه كانت تؤدي فيه صلاة الجمعة والعيدان ففيهما تقدم الخطب كما يدل ذلك أنه كان كبير الحجم مقارنة بهذه

1- أبي عبد الله محمد بن إدريس الحسيني الشريف الإدريسي، مصدر سابق، مج 02، ج 01، ص: 534

4- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ج 02، ص: 15

1- محمد ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص: 403

4- Abderrahmane Khelifa, *Honaïne ancien port du royaume de Tlemcen*, édition Dalimen, Algérie, 2008, p p:309

3- محمد ابن مرزوق التلمساني، مصدر سابق، ص: 403

الوظيفة، أما الشاهد المادي فهو الآخر ينحصر فقط فيما قدمه عبد الرحمن خليفة بخصوص المئذنة عن شارل موبريكس Charle Moprix وكنال Canal اللذين رسما صورة عن نواتها المركزية التي شاهدها بين البرجين الرابع والخامس بالجهة الغربية من أسوار المدينة، يقدر ارتفاعها بـ18.50م أما ضلعها فيقدر طوله بـ1.60م، مادة بنائها من الآجر والحجر المشذب، كما تم العثور عند القيام بعملية الحفر أثناء التوسعة التي قام بها أهالي المدينة للمسجد سنة 1986 على بقايا أعمدة بيت الصلاة⁽¹⁾، إذا قارنا طول تلك النواة بطول مئذنة مسجد سيدي أبي الحسن لاحظنا أنها أطول من مئذنة المسجد البالغ ارتفاعه 14.26م، الأمر الذي يفرض احتمال أن حجم مسجد هنين كان أكبر من مسجد سيدي أبي الحسن، وهو ما يؤكد ما ذكره ابن مرزوق أنه مسجد خطبة، ذلك إذا ما سلّمنا بفرضية وجود توافق وتناسب أحجام المساجد مع المآذن التي تعلوها.

2-1-2 الأضرحة:

لم تحط بميناء مدينة هنين السفن المحملة بالسلع فقط، فلم تكن مقصد التجار لوحدهم، إنما قدم إليها سواءً من الأندلس عبر مينائها أو من المدن المجاورة لها عدد من العلماء الذين فضلوا للعيش أونشر العلم، ربما لا لشيء إلا لكونها كانت من بين الحواضر الآهلة بالسكان، ومن أولئك العلماء الذين وفدوا إليها أحمد بن الحسن الغماري الذي كان يحضر صلوات الجمعة بهنين⁽²⁾، وأبي عثمان سعيد ابن محمد العقباني، وأبو علي حسن بن السيد الشريف اللذين وليا بها قضاء الجماعة⁽³⁾، ومن بين أضرحة الموجودة بالمدينة ما يلي:

أ- ضريح إبراهيم الآبلي:

1- Abderrahmane Khelifa, Honaine Ancien.....Op..cit,p:309-310

2- ابن مریم الشریف الملبتي المديوني، مصدر سابق، ص:31

3- يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص:72

يقع فوق منحدر صخري يرتفع عن سطح البحر بـ 117م، تشير الرواية الشعبية السائدة عند سكان المدينة إلى أن هذا الولي الصالح دفن بذلك المكان ليقوم بحراسة الميناء والسفن التي ترسو به من هجمات الأعداء، وفيما يخص ميلاده أو سيرته أو وفاته فلا يُعرف عنها شيء، لكن يمكن القول أن أصله ينحدر من آبله⁽¹⁾، ذلك إذا ما ربطنا لقبه الآبلي بآبله، يتكون ضريحه من قاعتين الأولى شكلها مربع تقريباً، جدارها الشرقي والغربي متساويان بطول قدره 3.96م، أما طول الجدار الشمالي والجنوبي فهما مختلفان، إذ يبلغ طول الجدار الشمالي 3.90م في حين يبلغ طول الجدار الجنوبي 4م، تنتهي بشرفات في زواياها الأربعة، أما سمكها فقد بلغ 60سم، يوجد مدخل هذه القاعة على بُعد 60سم نحو الغرب من زاويتها الشمالية الشرقية، عرض فتحته يُقدر بـ 60سم، أما ارتفاعها فيُقدر بـ 1.40م، يلي المدخل مباشرة على بعد 1.20م قبر سيدي إبراهيم الآبلي المغطى بقماش أخضر ارتفاعه عن الأرضية يقدر بـ 20سم أما طوله فيقدر بـ 1.80م وعرضه 40سم، تتقدمه كوتان مستطيلتا الشكل بهما سواد ناتج عن إحراق شموع وغصينات الأشجار المحاورة (السنوبر) يبلغ عرضهما 20سم، لكن طولهما يختلف فالأولى يبلغ طولها 45سم والثانية يبلغ طولها 57سم تنتهي بعقد مدبب، تتوزع بالزوايا الأربعة للضريح أربعة أقواس حدوية غائرة في جدران الضريح التي تحمل كتابة الله أكبر حديثة باللون الأسود باستعمال الفحم وبعض الأشكال، تعلو تلك الأقواس قبة كروية الشكل خالية من أي زخرفة ترتفع عن الأرضية بحوالي 4.10م أما طول قطرها فيقدر بـ 3.50م، هناك من يرى أن هذا النوع من القباب لا ينسجم كثيراً مع الضريح ذي الشكل المربع لعدم توفيق الشكل الدائري مع المربع في العمارة وأن الشكل المدبب أو البصلي أو الخماسي أنسب لذلك، كما أن هذا التصميم الهندسي لا يضفي قوة ومتانة على بنائها لأن قاعدتها في هذه الحالة تتركز على أربعة نقاط فقط في حين يبقى الجزء الأكبر من مجالها الداخلي

1-آبله: مدينة تقع بشمال الأندلس، كانت جزءاً من بلاد البرتغال، وهي عبارة عن قرية مجتمعة أهلها يركبون الخيل، ينظر: أبي عبد الله

محمد بن إدريس الحسيني الشريف الإدريسي، مصدر سابق، مج 01، ص 725-733

معلقاً في الفراغ خاصة وأن قبة ضريح سيدي إبراهيم الآبلي كبيرة الحجم، الأمر الذي يفرض أن تُدعم جيداً.⁽¹⁾

فيما يخص القاعة الثانية فهي أكبر من القاعة الأولى شكلها مستطيل، ونفس الشيء بالنسبة لطول جدارها الشمالي والجنوبي فهما غير متساويان مثل القاعة الأولى إذ يبلغ طول الجدار الشمالي 5.37م أما الجنوبي فيبلغ 5.54م وبالنسبة للجدار الشرقي والغربي فهما متساويان، حيث يقدر طولهما بـ 3.48م، ما يلاحظ أنه بالرغم من التصاق القاعتين إلا أنهما لم يأتيا على استقامة واحدة، حيث انحرف الجدار الشمالي لهذه القاعة عن القاعة الثانية نحو الجنوب بـ 63سم، يبعد مدخلها عن زاويتها الشمالية الشرقية نحو الغرب بـ 2.10م، يقدر عرضه بـ 53سم، أما ارتفاعه فيبلغ 1.40م من الأرضية الداخلية للضريح، تعلو القاعة قبة أصغر حجماً من قبة القاعة الأولى، وقد تساقط جزءها الأيمن وهي لا تزال على حالها من دون أي ترميم كما أنها خالية من أي زخرفة، يبدو أن هناك عدم تناسب في حجم القبة والقاعة في هذا المعلم، حيث جاءت قبة القاعة الأولى أكبر حجماً في حين قاعتها صغيرة أما القبة الثانية فقد جاءت صغيرة في حين قاعتها أكبر، يبلغ ارتفاعها 3.90م وطول قطرها 2.53م وهي الأخرى كروية الشكل وخالية من أي زخرفة، وفيما يخص مواد البناء المستعملة في هذا المعلم الأثري فقد تمثلت في مادة الآجر والطوب لتلبس الجدران والملاط كمادة لاحمة بين الآجر، لون الجدران بيضاء من الداخل والخارج.

توجد عند حافة الجرف الصخري على يمين الضريح قاعة مستطيلة الشكل أبعاده مختلفة لكن مع فارق بسيط، إذ يبلغ طول الجدار الشمالي 8.87م والجنوبي 8.80م أما عرض الجدار الشرقي فيقدر بـ 3.80م والغربي بـ 3.65م، وبالنسبة لسمكها فقد بلغ 60سم يوجد مدخلها بالجدار الجنوبي على بعد 2.50م من زاويتها الجنوبية الغربية يبلغ عرضه 90سم وارتفاعه 1.90م عن مستوى الأرضية الداخلية التي تنخفض عن مستوى الأرضية الخارجية بحوالي 20سم، نفتح هنا قوساً للإشارة إلى أن

1- ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 32

قاعتي الضريح هما أيضاً منخفضتين عن مستوى الأرضية الخارجية بنفس المقاس، ارتفاع سقف القاعة يقدر بـ 2.35م تم إنجازه من القصب والجذوع شجر الصنوبر، الملاحظ أنه لاوجود بها لقبر أي ولي صالح، ربما كانت تستعمل لإيواء عابري السبيل أو لاستراحة زائري ضريح سيدي إبراهيم الأبلي، ناهيك عن وجود دكة حجرية طولها 1.60م وعرضها 1م أما ارتفاعها فيقدر بـ 30سم، بُنيت هذه القاعة من الحجارة الغير مشذبة والملاط كمادة لاحمة، وقد لبّست بمادة جيرية أكسبتها لوناً أبيض.

تجدر الإشارة إلى أنه عند استعلامنا من الذاكرة الشعبية لمدينة هنين عن الضريح، تمّ إبلاغنا أنه تعرض منذ سنتين لعملية نهب وسرقة فقد تم حفر أرضية الضريح لاستخراج ما يكون مدفوناً بجانب قبر الولي الصالح، لكن لم يتم العثور على أي شيء وتم إيقاف المعتدين على المعلم الأثري.

2-2 نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية:

لم تخلو مدينة هنين من هذا النوع المعماري، لكن لم يتبق من أي معلم أثري نتيجة لتأثير العوامل المختلفة سواءً بشرية أو طبيعية، بالرغم من أن مدينة هنين كانت من الحواضر الرائدة في المجال المعماري والعمراني حسب ما ذكره عنها الرحالة والجغرافيين قديماً كالإدريسي الذي وصف حالتها العامة أنها كانت عامرة بالسكان⁽¹⁾، الأمر الذي يؤكد أنها تضمنت عمارة مدنية كالمساكن والحمامات... إلخ.

2-2-1 المساكن:

ذكر الحسن بن محمد الوزان عقب زيارته التي قام بها إلى مدينة هنين في القرن 15م مايلي: "...ودورهم في غاية الجمال والزخرفة، لكل مسكن بئر من الماء العذب، وفناء مغروس بكرم معروش، أرضيتها وسطوح الحجرات مبلطة ومزينة بالزليج الملون، مزينة بنفس الزليج والجدران مكسوة كلها بالفسيفساء...".⁽²⁾

1- أبي عبد الله محمد بن إدريس الحسيني الشريف الإدريسي، مصدر سابق، مج 02، ج 01، ص 534

2- الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ج 02، ص 15

يبقى الوصف الذي قدّمه هذا الأخير أحد الطرق التي يمكن من خلالها التعرف على ماهية تصميم هذه العمارة بهنين لأنها اختلفت كلية، إذ لم يتبق أي مسكن قائم بها يمكن من خلاله بناء صورة واضحة المعالم عنها، هذا الأمر ليس وليد الساعة لكنه يعود لفترة زمنية طويلة، فحسب ما ذكره رينيه باسي René Basset الذي زار المدينة في نهاية القرن التاسع عشر أنها كانت خاوية على عروشها ولم يشاهد بقايا أي مسكن قائم داخل أسوارها⁽¹⁾، إلا أنه يمكن أمام ذلك التعرف على جزء من التصميم الهندسي لمساكنها وما تحلّت به من زخرفة ورونق فني من خلال الحفريات التي أجريت برئاسة عبد الرحمن خليفة مقابل دار البلدية⁽²⁾، والتي تعتبر مرآة تعكس ما كان قائماً بالمدينة، وستنطرق للحديث عن تصميمها بالتفصيل في عنصر المواقع الأثرية.

2-2-2 القصور:

ما تبقى من هذا النوع المعماري بالمدينة هو ما نقله لنا عبد الرحمن خليفة عن جانبيه Jannier الذي ذكر أنه شاهد بقاياها جنوب المرتفع الذي يقع فيه ضريح سيدي إبراهيم الآبلي على مقربة من واد هنين والطريق المؤدي إلى أرشقول، وقد كان يلقيه سكان المدينة حينئذ بدار سيدي محمد أودار الإمام، فيما بخص شكله فقد جاء مستطيل يبلغ طوله 60م وعرضه 40م، ومساحته تُقدر بـ 2400م² ما يفسر توجه جانبيه Jannier إلى كونه قصر صغير وليس مسكناً، لاسيما وأنه كان يتضمن أبراج متصلة بالأسوار وموزعة على زواياها الأربعة لحراسته، مادة بناء أسواره التي أحاطت به من جهاته الأربعة من مادة الطابية التي تضمن له القوة والصلابة لحماية من كان يسكنه⁽³⁾، تجدر الإشارة أننا لم نشاهد أية بقايا لهذا القصر بعد معاينتنا للمكان الذي أصبح مشغولاً بعدد من المساكن.

2-2-3 الحمامات:

1-René Basset, Op.cit, p:103-104

2-Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit, p:31

3-ibid, p:294

مما لا شك فيه أن مدينة هنين قد احتوت على الحمامات بحكم ما توفر لها من ثروة مائية وكونها من المدن الآهلة بالسكان، والمقصودة من قبل الخاص والعام لأهميتها كنقطة عبور نحو الضفة الأخرى عبر مينائها، أمام اختفاء البقايا الأثرية الخاصة بهذا المعلم الأثري في المدينة يبقى الوصف الذي قدّمه جيورج مارسيه Georges Marçais في خضم حديثه عن المعالم الأثرية وتاريخ مدينة هنين في مقاله الموسوم بعنوان: بحث أثري إسلامي بهنين هو السبيل الوحيد للتعرف على ذلك المعلم الأثري⁽¹⁾، لقد ذكر أنه كان بالقرب من الباب الشمالي للمدينة وسط البساتين التي كانت موجودة هنا كثلاثة قاعات شكلها مستطيل متجاورة فيما بينها، تبين له بعد الاستفسار عنها من أعيان المنطقة قيل له أنها كانت تشغل وظيفة حمام، وعلى بعد بعض الأمتار من هذه القاعات جهة الشرق وُجد بئر أغلب الظن كان الغرض منه هو تزويد الحمام بالماء، ناهيك أنه عثر أيضا على خزان مائي سقفه نصف أسطواني مادة بنائه من الحجارة الغير مشذبة والطابية والآجر وهو ما يدعم فكرة أن تلك القاعات كانت حماماً، إذ لا يعقل وجود هذا النوع من العمارة من دون ماء، لذلك كان لزاماً على المعماري توفير ذلك.⁽²⁾

2-2-4 الطاحونة:

تعتبر هذه الأخيرة من الانجازات المدنية التي برع المسلمون في استخدامها قديماً في مجال الزراعة وذلك منذ حوالي القرن التاسع ميلادي للحصول على منتج زراعي جيد يسمح لهم بتحقيق الاكتفاء الذاتي، وضمن الاستمرارية في الإنتاج.⁽³⁾

1-Georges Marçais,Recherche....Op.cit,p:333-350

2-ibid,p:346

3-عطية الجيار، دور العرب المسلمين في تطوير الزراعة وطرق الري في إفريقيا المسلمة لتحقيق التنمية المستدامة، الملتقى

الدولي حول مقومات تحقيق التنمية المستدامة في الاقتصاد الإسلامي، جامعة قلمة 03-04 ديسمبر 2012، الجزائر، ص: 57

لقد أشار حسن بن محمد الوزان إلى وجود طاحونات بالقرب من واد هنين الذي يجتاز المدينة من الجنوب نحو الشمال بالجهة الشرقية بالقرب من بساتين الكرز والإجاص والخوخ التي كانت تسقى من نفس الواد⁽¹⁾، حسب ما ذكره عبد الرحمن خليفة أن جزءاً من الأسوار التي كانت تستند عليها الطاحونة كانت لا تزال موجودة هناك بشكل عمودي على يمينها ويسارها، وذلك بالتحديد قبل سنة 1958م حينما كانت المدينة شبه فارغة من السكان، تنحصر وظيفتها في تثبيت الطاحونة والتحكم في سرعتها حتى يمتلئ الدولاب بالماء جيداً، أما مادة بنائها فقد كانت من الطابية التي تزيدها صلابة⁽²⁾.

2-3 نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية:

مما لاشك فيه أن وجود مدينة هنين في موقع استراتيجي حساس لإطلالته المباشرة على البحر الأبيض المتوسط واحتوائه على الميناء جعلها عرضة للخطر سواءً من قبل الدول المجاورة أو قراصنة البحر، خاصة أنها أصبحت في مرحلة من مراحل حياتها مدينة أهلة بالسكان والنشاطات المختلفة، الأمر الذي فرض تشييد منشآت ذات طابع عسكري، لتحقيق لنفسها الأمن والاستقرار اللذين يزيدان من رقيها وتقدمها على مختلف الأصعدة.

من المعالم الأثرية العسكرية التي كانت قائمة القلعة والتي سنتطرق للحديث عنها في المواقع الأثرية المتواجدة بالمدينة، لقد عرفت مدينة هنين باسم الحصن قبل أن تبرز كحاضرة على غرار حواضر المغرب الإسلامي أهلة بالسكان ومبانيهم المختلفة الطابع بين ما هو ديني ومدني وعسكري ونشاطاتهم المتنوعة بين ما هو تجاري بحكم وجودها على الساحل وامتلاكها للميناء، وبين ما هو فلاحي لجودة هوائها وتربتها وتوفر الماء لسقي المزروعات والبساتين، يُرجح أن القلعة هي من كان يقصدها البكري الذي عاش في القرن 5هـ/11م بالحصن في حديثه عن تلمسان ونواحيها ذاكراً اسم حصن

4-الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ج02، ص:16

2-Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien... Op.cit, p:310

الفروس وحصن الوردانية قائلاً أن حصن هنين هو أكثر الحصون ثماراً وبساتين⁽¹⁾، الأمر الذي يؤكد أنها أقدم المباني بمدينة هنين، لقد كانت المكان المفضل عند الإسبان ساعة احتلالهم المدينة، فقد تمركزت بها حاميته العسكرية التي استقرت بالمدينة ما بين سنتي 1531 و1534م⁽²⁾، أما فيما يخص المعالم الأثرية العسكرية الأخرى التي لازالت غالبية أجزائها قائمة مايلي:

2-3-1 الأبواب:

تميزت مدينة هنين بوجود خمسة أبواب توزعت على مستوى محيط نسيجها المعماري، منها ما اندثر تماماً ولم تبق إلا النصوص الكتابية التي تحدثت عنها مما تركه بعض المهتمين بدراسة العمارة الإسلامية تنحصر تلك الأبواب فيمايلي:

أ-الباب الشمالي:يقع هذا الأخير بالزاوية الشمالية الشرقية من السور الشرقي على مقربة من واد هنين يُعرف كذلك باسم باب السانية نسبة للطاحونة المائية التي كانت توجد بمحاذته على طول الواد مدخله يفتح نحو البحر مباشرة، يوجد على يمينه ويساره برجين لحراسته، ذكر جيورج مارسيه Georges Marçais أنه بني من الآجر ولُبس بالحصص، كما تضمن زخرفة رائعة من المعينات المتشابكة فيما بينها مصنوعة بالآجر، شبيهة بالتي هي موجودة بمذنتي مسجد سيدي الحلوي وسيدي أبي مدين⁽³⁾، لكن لم يتبق من هذا الباب أية بقايا ماعدا فتحة مدخله البالغ عرضها 10م.

ب-باب السنون:يقع هذا الباب شرق المدينة، كان يسمى أيضاً عند سكانها بباب السنون أوالتاسنون حسب الذاكرة الشعبية سمي كذلك لأنه يستعمل من الطرف النسوة عند قيامهم بغسل ملابسهم بواد هنين الذي لا يبعد عنه إلا حوالي 09م، شكله عبارة عن فتحة استطالته عرضية يقدر عرضها 4.50م أما ارتفاعها فيقدر ب 2.5م وسمك جدار الذي يتصل بها هو الآخر 2.5م وهو يخلو

2-أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص:80

3-Abderrahmane Khelifa, Honaïne à Travers...., Op.cit,p:16

1-Georges Marçais, Recherche....Op.cit,p:348

من أي زخرفة يحاط من جهة اليمين والشمال ببرجين شكلهما مربع طولهما 6.40م وعرضهما 4.50م أما ارتفاعهما 50م، حظي بعملية ترميم سنة 2001م ثم أعيدت عملية الترميم سنة 2011م لكنها لم تشمل جميع أجزاء المدينة.

ج-الباب الغربي: كان يستخدم من طرف التجار سواءً الذين قصدوا المدينة للسفر عبر مينائها أو الذين رست مراكبهم بها⁽¹⁾، لا يزال مدخله قائماً لحد الساعة وقد حظي هو الآخر بعملية ترميم سنة 2001 و 2011، ما تبقى من الباب هو فتحة عرضها 5.25م وسمك جدرانها 2م، لا يعلوه أي قوس وقد لاحظنا أنه كان مغلقاً بألواح خشبية لمنع المرور من خلاله لأنه يؤدي مباشرة إلى حديقة لأحد سكان المدينة.

د-باب الخراجة: كان هذا الباب موحداً بالبور الجنوبي للمدينة، يفتح مباشرة على جبل المنزل، وقد اندثر كلياً.

هـ-الباب البحري: سمي كذلك لانفتاحه على القناة التي تصل الميناء بالبحر ما يدل أنه كان مخصصاً فقط للسفن التجارية، يبدو أن هذا الباب كان كبير الحجم وذلك وفقاً لما ذكره جيورج مارسيه Georges Marçais عن عرض فتحة مدخله التي بلغت 8.50م، كما ذكر أن الإطار الذي كان يعلوه بقوس حدوي مزخرف بزخارف رائعة بين النباتية والهندسية تشبه إلى حد كبير على حد قوله الزخرفة الموجودة بمدخل معذنة المنصورة فقد اتفقا في وجود عنصر البنيقة وبراعم الأزهار المتشابكة فيما بينها والمرصعة بقطع من الزليج، نظراً لذلك التشابه نسب جيورج مارسيه Georges Marçais صنعه للمرينيين في الفترة التي احتل فيها أبي الحسن المريني تلمسان وبعث بفرقة من جيشه لاحتلال مدينة هنين⁽²⁾، كما سبقت الإشارة عن ذلك في الفصل الأول، بينما نسب رشيد بورويبة بنائه للزيانيين⁽¹⁾، ربما

1- Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit,p:301

2- Georges Marçais, Recherche....Op.cit,p:349

لأن المدينة عاشت تحت الحكم الزياني أكثر مما عاشته في ظل الدولة المرينية لأنها كانت الرئة الاقتصادية للزيانيين لذلك أبدعوا في تنميق وتحسين مبنائها معمارياً، ويُرجع عبد العزيز محمود لعرج هذا الاختلاف إلى أن كلاً من المرينيين والزيانيين استقوا مادة موضوعاتهم من مصدر واحد ألا وهو الموروث المرابطي والموحدي⁽²⁾، لذلك يصعب التفرقة بينهما.

2-3-2 الأسوار:

كباقي الميزات التي تواجدت بالمدن العتيقة بالمغرب الإسلامي مثل مدينة ندرومة وتلمسان، احتوت مدينة هنين على عمارة عسكرية لكونها مدينة ساحلية على درجة كبيرة من الأهمية التجارية، ولأنها جانبها الشمالي الغربي كان محدوداً بجرف صخري يمتد طوله حوالي 02 كلم بشكل عمودي على المدينة، الأمر الذي صعب عليها مراقبة تلك الجهة للانعدام الرؤية وسهّل بالمقابل مباغتتها من طرف المحتلين، لذلك اعتمدت في تحصينها على الأسوار الدفاعية المنيعة والتي لطالما كانت رادعا لها من أي هجوم قادم من البحر أو من جهة البر، وكذا الأبراج المتصلة بالأسوار والمنفصلة عنها هنا وهناك.

يقدر الطول الإجمالي لسور مدينة هنين حوالي 1200م⁽³⁾، بقيت منه بعض الأجزاء التي عكست ما كان للمدينة من مستوى معماري رفيع ينم عن مكانتها عند منشئها وعن المستوى الاجتماعي والاقتصادي للمدينة، بني من مادة الطابية لقوة تحملها ضد ضربات العدو ووفرتها بالمنطقة.

تحيط الأسوار بالمدينة العتيقة من جوانبها الأربعة مشكلة شكل شبه منحرف قاعدته الكبرى نحو الشمال، فأطول الأسوار هو السور الشمالي حيث يقدر طوله بـ 320م يتضمن سبعة أبراج مقارنة بالسور الغربي الذي يقدر طوله بـ 150م ويتضمن تسعة أبراج، ما يفسر أن المعماري وظف عبقريته

1-Rachid Bounouba, L'architecture Militaire de L'Algérie Médiévale, OPU, Alger, 1983, p:92

1-عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص: 145

3-Abderrahmane Khelifa, Honaine Ancien..., Op.cit, p:283

هناك للاستفادة من طبوغرافية الموقع الذي بنيت به المدينة، فبالجهة الشمالية يمر واد هنين الذي ساعد في تعزيز القوة الدفاعية للأسوار إذ كان بمثابة خندق مائي يقف حاجزاً أمام العدو ويعمل على تكسير جبهات الهجوم، أما الجهة الغربية فقد تقدّمها مرتفع يساعد العدو على الدخول إلى المدينة، لذلك عمد المعماري على تحصينها جيداً، يقدر ارتفاعها بحوالي 7م، لكن حسب ما ذكره عبد الرحمن خليفة أن الطول الحقيقي للأسوار ليس هو ذلك، إذ بعد إجرائه للحفريات الأثرية بالقرب منها ووصوله إلى مستوى أرضية المدينة قديماً تبين أن طوله 10م⁽¹⁾، أما فيما يخص سمكها فيبلغ 1.5م، الملاحظ أن الشرافات التي تعلوها لم تعد تظهر للعيان بصورة مكتملة نتيجةً لتلفها.

2-3-3 الأبراج:

تعد الأبراج هي الأخرى مظهراً من مظاهر القوة العسكرية لأي دولة من الدول قديماً، ومعياراً لمدى حرصها على تجسيد عامل الأمن لمجتمعها، لذلك اعتنى المعماري المسلم على تشييدها وتوزيعها وفق مقاييس مضبوطة كي تكون نقاط مراقبة للمدينة الإسلامية ومراكز لصدّ هجوم الأعداء وهي تنقسم بمدينة هنين إلى قسمين:

- الأبراج المتصلة بالأسوار الدفاعية: يقدر عددها بـ 22 برجاً بما فيها أبراج القلعة، تتباعد فيما بينها بمسافة منتظمة قدرها 14م إلى 15م، وهي توجد على مقربة من أبواب المدينة وزوايا انعطاف السور الدفاعي يصل عرضها إلى ما بين 6م و7م، أما بروزها عن الحائط فيصل إلى 3.80م⁽²⁾.

يبقى البرج الموجود بالزاوية الجنوبية الشرقية من الأسوار المشرف على كامل المدينة الوحيد الذي لازال محافظاً على عناصره المعمارية العسكرية، وهو يتكون من فراغين واحد مغطى بقبو والآخر بقبة⁽³⁾.

1- Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit, p:283

2- Abderrahmane Khelifa, Honaïne à Travers..., Op.cit, p:29

3- عبد العزيز محمود لعرج، مرجع سابق، ص: 143

-الأبراج المنفصلة عن أسوار المدينة: جاءت هذه الأخيرة كضرورة ملحة لرصد تحركات العدو قبل أن تطرق المدينة على حين غفلة، خاصة أن هنين مدينة ساحلية، الأمر الذي ضاعف احتمالية تعرضها للاعتداء مقارنة بالمدن التي تتحصن بين المرتفعات الجبلية من جهاتها الأربعة، من أهم أنواعها مايلي:

أ- برج سيدي إبراهيم الآبلي:

يعتبر هذا البرج من النقاط الدفاعية المهمة بمدينة هنين لموقعه الاستراتيجي الذي مكنه من توسيع مجال رؤيته عبر الجهات الأربعة وإشرافه على المدينة مباشرة، يقع فوق مرتفع صخري يطل من خلاله على البحر مباشرة بارتفاع يقارب 117م، مجاوراً لضريح سيدي إبراهيم الآبلي الذي أخذ اسمه منه⁽¹⁾، فيما يخص موقعه الفلكي فيقع بين خط طول 1.39°- و23.48° غرباً وبين دائرة عرض 10.35° و54.97° دقيقة شمالاً.

مظهره الخارجي مربع الشكل، طول ضلعه الجنوبي والغربي متساويان إذ يبلغان 5.50م أما طول ضلعه الشمالي والشرقي يختلفان اختلافاً طفيفاً إذ يقدر طول الضلع الشمالي بـ5.69م وطول الضلع الشرقي بـ5.55م، نفس الشيء بالنسبة للارتفاع هو الآخر يختلف اختلافاً واضحاً بين الجدارين الشمالي والشرقي اللذين يبلغ إرتفاعهما حوالي 7.30م، والجدار الجنوبي الذي يبلغ ارتفاعه 6.80م توجد به نافذة مربعة تعذر علينا أخذ مقاساتها لارتفاعها البالغ 4.50م عن الأرضية، يرجح أنها كانت تستعمل للوصول إلى أعلى البرج بواسطة سلم يتم سحبه بعد الوصول إلى أعلى حتى يبقى الحراس في مأمن من الأعداء.

أما الجدار الغربي فهو الأقل ارتفاعاً بين جدران البرج إذ يبلغ ارتفاعه 4.40م فقط ربما يكون جزئه العلوي قد تساقط في وقت سابق، بُني هذا البرج من مادة الطابية التي أُلِف معماريو المغرب

1- Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit, p:292

الإسلامي قديماً على استعمالها في البناء يمثل هذا النوع المعماري لمقاومتها العالية لعاديات الزمن، وبقاءه بالرغم من بُعد الفترة الزمنية التي شهدت ميلاده أكبر دليل.

ب- برج سبانيول:

اتفق رينيه باسي وجيورج مارسيه في تسميته ببرج سبانيول لكنهما اختلفا في تحديد مكانه، فقد ذكر رينيه باسي أنه البرج المجاور لضريح سيدي إبراهيم الآبلي السالف الذكر⁽¹⁾، في حين يُرجع جيورج مارسيه موقعه إلى جنوب القلعة ويضيف على ذلك قائلاً أنه يختلف عن البرج الموجود بالجهة الشمالية بالقرب من الضريح⁽²⁾، مشيراً إلى أن مخططه كان مستطيل الشكل يقدر طوله بـ 8.80م وعرضه 6.75م قاعدته مبنية بالطابية في حين جدرانه بُنيت من الحجر يتكون من ثلاثة طوابق أولهم سقفه مقبب، لكن لم نجد له أي بقايا أثناء معاينتنا للقلعة وما جاورها إلا كومة تراب ارتفاعها يُقدر بحوالي 1.5م تغطي أساسه الذي بني من الطابية.

تجدر الإشارة أن إرجاع بناء هذا البرج إلى الإسبان فيه نوع من المغالطة، فإذا ما تفحصنا المادة التي استعملت في بناء قاعدة جدرانه تبين أنها الطابية التي كانت خاصة بنائية وقاسماً مشتركاً تميزت بها دول المغرب الإسلامي قديماً ابتداء من العهد الموحد، باعتبارها الأكثر توفراً ومقاومة للعوامل الطبيعية والبشرية تحدت عنها عبد الرحمن بن خلدون مُسمياً إيّاها التراب المدكوك في حديثه عن صناعة البناء قائلاً "... ثم هي تتنوع أنواعا... ومنها البناء بالتراب خاصة تقام منه الحيطان...".⁽³⁾

2-4 نبذة عن المواقع الأثرية:

1-René Basset, Op.cit, p:103

2-Georges Marçais, Recherche.... Op.cit, p:350

3-عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج01، ص:511

نتيجة لتعرض هذه المدينة لعوامل مختلفة منها ما هو طبيعي ومنها ما هو بشري أصبح معظم تراثها المادي أطلاً، من ضمن مواقعها ما ورد ذكره كبناء يؤدي وظيفة خاصة به في بعض كتب الرحالة والباحثين أمثال: البكري وحسن بن محمد الوزان ومارمول كرنخال وجيورج مارسيه.

يبدو أن مجمل المواقع الأثرية بهنين هي ذات طابع إسلامي أي أن عمائرها أنشئت في الفترات التي تأسست فيها دول المغرب الإسلامي (المرابطين والموحدين والزيانيين والمرينيين)، وذلك يظهر بوضوح من البقايا الموجودة بالمواقع كمواد البناء المستعملة في بقايا الأسوار واللّقى الأثرية المتواجدة هناك وطرق الزخرفة، إضافة إلى ما تحدثت عنه كتب الدارسين الذين سلفت الإشارة إلى ذكرهم من أهم تلك المواقع الأثرية مايلي:

2-4-1 الموقع الأثري القلعة:

يتمركز في الناحية الجنوبية الغربية من المدينة فوق منحدر صخري يرتفع عن سطح البحر بحوالي 30م، فيما يخص موقعه الفلكي يقع بين خط طول 1.39° و 50.22 دقيقة غرباً ودائرة عرض 10.35° و 27.80 دقيقة شمالاً.

يُطلّ على الميناء من الجهة الشمالية والشرقية، أما من الجهة الجنوبية والغربية فيقابل جبل المنزل يتم الولوج إليه عبر ممر ملتوي، تقدر مساحته الإجمالية بحوالي 4500 م²، شكله العام أقرب إلى المستطيل يتصل شمالاً بالجرف الصخري، أضلاعه غير متساوية المقاييس، إذ يبلغ طول السور الشمالي 58.5م والسور الجنوبي 60م، أما السور الشرقي فيقدر طوله بـ 89.20م، وهو بذلك أطول الأسوار وبالنسبة للسور الغربي فيقدر طوله بـ 78.80م، نشير فقط أننا حدّدنا الاتجاهات وفقاً لمسار القبلة بالمدينة.

هذا الاختلاف لم يوجد فقط بطول الأسوار بل حتى في ارتفاعها نتيجة لما أصابها من تلف ناتج عن عملية الحث، إذ يقف هذا المعلم باتجاه مباشرة، الأمر الذي عرضه للتّيّار الهوائي المحمل بقطرات مياه وأملاح قادم من جهة البحر، يعتبر السور الجنوبي أعلى الأسوار بارتفاع قدره 12م ثم يأتي

بعده السور الغربي بارتفاع قدره حوالي 9م، أما السور الشمالي والشرقي فلم يتجاوز ارتفاع 5م كأقصى حد لمقابلتهما جهة البحر مباشرة وتأثرهما بما ورد ذكره آنفاً، تتوزع بالسور الشرقي أربعة أبراج لم يتبق منها إلا أساستها تفصلها عن بعضها البعض مسافة متساوية قدرها 20م وذلك لأنها تقابل جهة البحر والمدينة معاً، أما بقية الأسوار فلم تتضمن إلا برجين فقط في زاويا انعطافها، ولم تتبق منها هي الأخرى إلا بقايا أساسها، ويبلغ نُتُوؤها عن الجدار 3.70م وعرضها 4.85م، أما سمكها فيتراوح بين 1.30م و1.50م ومادة بنائها من الطابية الشائعة الاستعمال، ويوجد على بُعد 2.20م من الزاوية الشمالية الغربية صهريج مبني بالحجارة سقفه نصف برميلي مبني بالآجر والطابية يبلغ طوله حوالي 7م أما ارتفاعه عن الأرضية فيبلغ 2.90م، وعرضه حوالي 05م، حسب جيورج مارسيه كان يستعمل لتخزين الماء للاستفادة منه في حالات الحصار مثلاً.⁽¹⁾

الحالة الراهنة لهذا الموقع لا يمكنها أن توفر لنا صورة واضحة المعالم عن القيمة التاريخية والأثرية التي من المفروض أن تكون بارزة وموجودة فيه من كونه تراثاً مادياً تركه الأسلاف يعكس مدى قوة وبراعة المعماري المسلم في ترويض الطبيعة وما تتضمنه من مواد بناء لحماية نفسه، فبعد معاينتنا للموقع وجدنا الصهريج مملوء بالأتربة أما الموقع فقد كان مليئاً بالأعشاب وما تم زراعته فيه من طرف أحد السكان الذي قام بفلاحته، إضافة إلى وجود قارورات الزجاج، أمّا ما يهدد هذا الموقع الأثري من الطبيعة فهي الحرائق التي اكتسحت جزءاً كبيراً من الموقع المحاذي له جهة الغرب سنة 2015 وتكررت في سنة 2016، حيث لم تبعد عنه ألسنة النيران إلا حوالي 100م، لذلك لابد على القائمين على حماية الموروث المادي والمواقع الأثرية استدراك الأمر والتنبه له قبل وقوع الكارثة.

2-4-2 الموقع الأثري المقابل للبلدية:

ينقسم هذا الموقع الأثري إلى جزئين واحد على جهة اليمين والآخر على جهة اليسار يفصلهما طريق يؤدي إلى دار البلدية المقابلة لهما حالياً من جهة الغرب، فيما يخص موقعه الفلكي فهو يقع

1-Georges Marçais, Recherche....Op.cit,p:346

بين خط طول 1,39° - و 12.00 دقيقة غرباً ودائرة عرض 35.10° و 32.35 دقيقة شمالاً، تعود أولى الحفريات المقامة به إلى العقد الأخير من القرن التاسع عشرة حينما سلّم بعض سكانها وثيقة إلى مكتب العرب بتلمسان تكشف مكان وجود ما خبأه عروج أثناء محاولته الفرار من قبضة الإسبان عبر ميناء هنين، لكن عمليات البحث التي قام بها الفرنسيون لم تسفر عن أي نتائج، وبعد عقد من استقلال الجزائر وبالتحديد سنة 1971م و 1972م قامت بعثة أثرية برئاسة عبد الرحمن خليفة بإجراء حفريات بهنين ليس للكشف عن الكنز المفقود، لكن من أجل التعرف على الجانب المعماري والعمراني الذي كان سائداً في المدينة، وأعيد التنقيب في سنة 1980م مع نفس مدير الحفريات تحت وصاية وزارة الإعلام والثقافة.⁽¹⁾

تم مباشرة التنقيب بالقرب من السور الشمالي مقابل المدرسة ومكتب البريد، وذلك بعدما قُسم الموقع الأثري إلى قسمين، يتضح من خلال طريقة الحفر أنه تم إتباع طريقة ويلر Willer التي تعتمد على حفر شبكة من الممرات تفصلها ممرات للتعرف على التوضيح الطبقي La stratigraphie على مستوى الجهات الأربعة للمربع من جهة، ومن جهة أخرى تساعد على تحريك البعثة في موقع الحفر.⁽²⁾

أسفرت عملية التنقيب الأثري عن اكتشاف بقايا أساسات مساكن وعدد من القلى الأثرية متمثلة في أواني فخارية وقطع نقدية وأدوات الرينة، الأمر الذي يدل أن هذا الجزء من المدينة كان حي سكني، وقد تراوحت

المساحة الإجمالية للمسكن الواحد به بين 70م² و 100م²⁽³⁾، حسب ما ذكره عبد الرحمن خليفة في كتابه هنين أقدم ميناء مملكة تلمسان أنها كانت شبيهة بمساكن الحواضر التي كانت موجودة

آنذاك كتلمسان وندرومة، وذلك من حيث التصميم الداخلي فقد تبين من بقايا المساكن المكتشفة بالموقع الأثري أن مدخله جاء منكسراً وهو ما يعرف بالسقيفة التي تعمل على الحفاظ على حرمة أهل البيت من أنظار المارة، وقد وجدت به المراحيض حتى يمكن ربطها بسهولة مع قنوات الصرف الصحي الخاصة بالمدينة، ضف إلى ذلك وجدت بقايا أساسات غرفه ملتفة حول فناء شكله قريب إلى المستطيل مساحته تقدر بـ 17.54م² بطول يبلغ 4.28م وعرض يبلغ 4.10م يتوسطه بئر ذي شكل دائري وفي أحد زواياه يوجد بقايا سلّم، ما يؤكد أن المسكن كان ذو طابقين، وكان مبلطاً بالزليج والآجر وفقاً

1- Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit, p:313

2- رودريغو مارتين غالان، مناهج البحث الأثري ومشكلاته، ط1، ترجمة خالد غنيم، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام لبنان، 1998، ص: 150

3- Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit, p:316

لما عثر عليه بأرضيته، أما عتبات الأبواب فقد تضمنت قطع من الرخام والزليج المزخرف بزخارف هندسية تتمثل في نجمة وزخرفة نباتية تتمثل في براعم الأزهار.⁽¹⁾

تكوّن المسكن من ثلاث غرف، توجد الغرفة الأولى بالجهة الغربية، تجدر الإشارة إلى أن جميع الغرف الكبيرة الحجم قد تمركزت بالجهة الغربية من المساكن بالموقع الأثري المكتشف بالحفرية، تعتبر هذه الغرفة الأكبر مساحةً، إذ تبلغ مساحتها 20.70م²، بطول قدره 8.45م، وعرض قدره 2.45م، يتجه مدخلها الذي يفتح على الفناء بالزاوية الشرقية منها نحو الشرق ما يمكنها من استقبال أشعة الشمس صباحاً والاستفادة منها في الإضاءة يبلغ عرضه 1.30م، وهو بذلك الأكثر اتساعاً بين مداخل الغرف. أما الغرفة الثانية فقد وجدت بالجهة الجنوبية من المسكن، تقدر مساحتها بـ 9.57م²، طولها يبلغ 5.80م وعرضها 1.65م، يقدر عرض مدخلها بـ 90سم يفتح بزوايتها الشرقية، فيما يخص الغرفة الثالثة فقد وجدت بالجهة الشرقية تعد أصغر الغرف إذ تقدر مساحتها بـ 7.49م² يقدر طولها بـ 4.28م وعرضها بـ 1.75م، يفتح مدخلها بالزاوية الجنوبية بعرض قدره 1.10م⁽²⁾، ربما كانت تؤدي وظيفة المطبخ أولتخزين أغراض العائلة.

يمكن القول من خلال ما تم اكتشافه من بقايا أساسات وبلاط أرضية، ومواد بناء مستعملة في التشييد المسكن وغيرها من اللقى الأثرية، أن هذا الموقع الأثري يعكس المستوى المعماري الراقى الذي تميزت به المدينة، ويتفق أيضاً مع ما أورده الحسن بن محمد الوزان من وصف عنها عمرانها إبان القرن الخامس عشر ميلادي.

الموقع الأثري يختلف اختلافاً واضحاً عما كان عليه سابقاً، إذ اختلفت جميع تفاصيل الموقع الأثري التي اكتشفت أثناء التنقيب من أرضية وبلاط كذلك أساسات المساكن والغرف بسبب ما طال هذا الموقع من إهمال، حيث لم يتم معاودة التنقيب فيه منذ آخر عملية سنة 1980م، وعدم القيام بأعمال

1- Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op. cit, p:316

2- ibid, p:316

صيانة دورية كإقتلاع الأعشاب التي تنمو سواءً داخل مربعات الحفر أو في الممرات أو استخراج الأثرية التي طُمرت أرضية الموقع الأثري والمكتشفات التي أزيح عنها النُّقاب.

2-4-3 الموقع الأثري الميناء:

استطاعت مدينة هنين من خلال الميناء أن تكون محط اهتمام السلاطين والغزاة، لقد ساعدها في ازدهار جميع مجالاتها لاسيما الاقتصادية والاجتماعية إذ كان بمثابة الرئة الاقتصادية للدولة الزيانية وذلك وفقاً لما أورد الحسن بن محمد الوزان أنه حضر بنفسه وصول أحد كتّاب السلطان الزياني لاستلام الضرائب بميناء هنين من سفينة جنوية، وقد بلغت قيمتها خمسة عشرة ألف مثقال ذهب مسكوك.⁽¹⁾ يظهر الملمح العام للشاطئ من المنحدرات المجاورة له عبارة عن امتداد مائي للبحر على هيئة حدوده الفرس، يحيط به جرفين شديدي الانحدار، واحد من الجهة الشرقية والثاني من الجهة الغربية يمتد طوله أكثر من كيلومترين الأمر الذي قلّص من مجال الرؤية من تلك الناحية.

فيما يخص الموقع الأثري لميناء المدينة فهو ملاصق للجرف الصخري الذي تعلوه القلعة بحوالي 30م، موقعه الفلكي يقع بين خط طول 1.39° - و 25.06 دقيقة غرباً ودائرة عرض 35. 10° و 30.02 دقيقة شمالاً، شكله عبارة عن حوض مستطيل طوله 85م وعرضه 50م، حسب جيورج مارسيه Georges Marçais كان يتصل بالبحر من الزاوية الشمالية الشرقية عبر قناة تتصل بالباب البحري الذي كان يعلوه إطار ذو عقد حدوي الشكل يبلغ عرض فتحته 8.50م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن الباب البحري⁽²⁾، ويبدو أن هذه القناة كانت هي الأخرى بنفس عرض فتحة القوس حتى تسمح بتحريك المراكب من وإلى البحر، ولم يكن طولها يتجاوز حسب معاينتنا الميناء 250م، كما كان هذا الميناء محصناً ببرجين للمراقبة عن يمينه ويساره على حدّ قول مارمول

1- الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ج 02، ص: 16

2- Georges Marçais, Recherche.... Op.cit, p:344-345

كربخال⁽¹⁾، لكنهما اندثرا ولم نجد لهما أي أثر، يبدو أن ذلك حدث قبل الفترة التي زار فيها جيورج مارسيه مدينة هنين، إذ ذكر هو الآخر أنه لا وجود لهما بتاتاً.⁽²⁾

تجدر الإشارة إلى أن ما أتى على ذكره جيورج مارسيه Georges Marçais قد اختفى من الموقع الأثري، فقد اندثر الباب البحري كلية بما ذلك القناة التي كانت تصله بالبحر، لا تتوفر لدينا أي معلومة عن وقت اندثارهما، ما تبقى من الميناء تلك الساحة التي كانت ترسو بها السفن تحت الجرف الصخري مباشرة وهي اليوم مبنية بمساكن خاصة، كما تم بناء مركز للبحرية العسكرية مقابل له وتهيئة الميناء سنة 1988⁽³⁾.

2-4-4 الموقع الأثري البرج البحري:

سُمي هذا الأخير كذلك لوقوعه بالساحل على ارتفاع 15م، يوجد على نفس اتجاه برج سيدي إبراهيم الذي يتقدمه ناحية الشرق، يقع موقعه الفلكي بين خط طول 1°- و 30.39° و 34 دقيقة غرباً، ودائرة عرض 35° 10. و 45.80 دقيقة شمالاً، موقعه جد استراتيجي هو الآخر مثله مثل برج سيدي إبراهيم، إذ يشرف على المدينة وعلى الساحل الأمر الذي حقق مجال رؤية جيدة للحراس لم يتبق منه إلا بقايا أساسه الذي يبرز عن مستوى الأرضية ب 1.30م، يظهر من خلاله شكل البرج مربع، مادة بناء أساساته التي يظهر منها الشيء القليل من الحجارة الغير المشذبة المتوسطة الحجم والآجر والطوب، فيما يخص تاريخ بنائه لا يعرف شيء عنه ربما يعود للفترة التي قدّم فيها الميناء دوراً ريادياً إبان الفترة الزيانية لمراقبة الحركة التجارية وحمايته من أي اعتداء، وتجدر الإشارة أنه تم الكشف بالقرب منه أثناء إنجاز مشروع الميناء عن صهريج طوله 5.50م وعرضه 2.28م وارتفاعه 2.32م، وله فتحة طولها 60سم وعرضها 40سم وقد لبست جدرانها بمادة صلبة.

1- مارمول كربخال، مصدر سابق، ج2، ص: 296

2- Georges Marçais, Recherche.... Op.cit, p:345

3- Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien...., Op.cit, p:290

2-4-5 الموقع الأثري برج النونة:

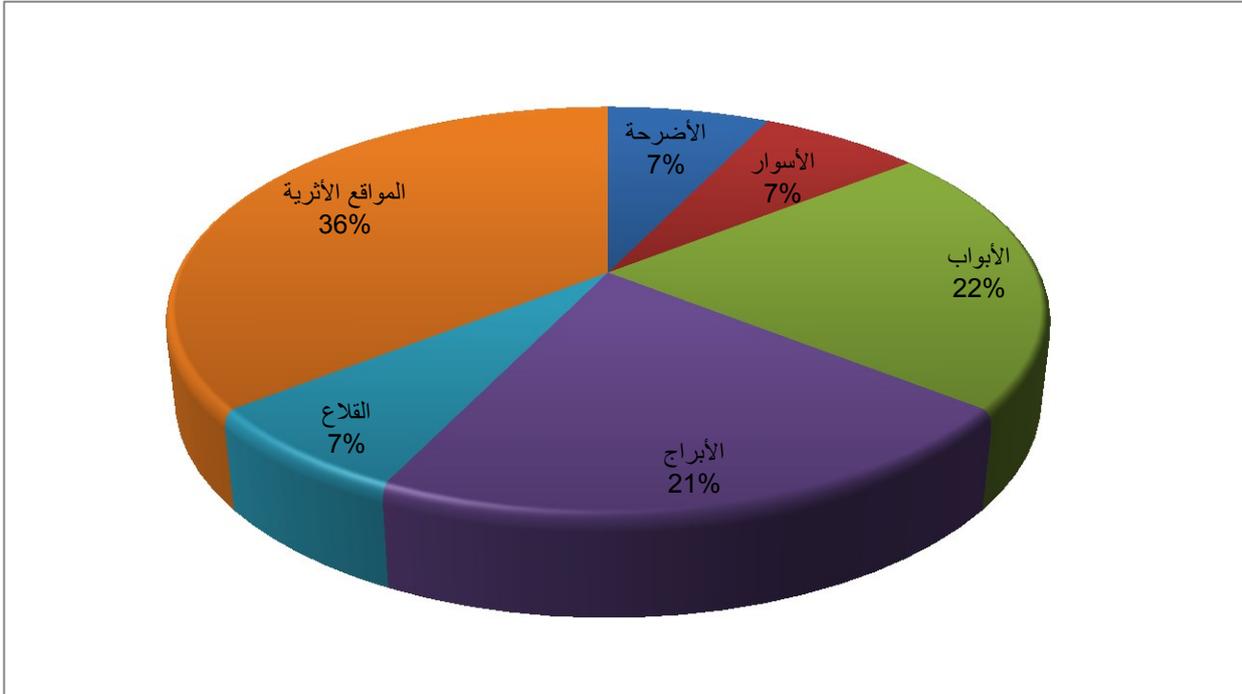
يوجد هذا البرج بالجهة الجنوبية الشرقية للمدينة، لم يتركها المخططون من دون مراقبة لرصد جميع التحركات وبالتالي تأمين المدينة كلية من جميع الجهات بالأهمية الأمن واعتباره شرط أساسي لنمو المدن، لم نعر على أي بقايا لهذا البرج بالجهة الشرقي الشرقية، لكن عن طريق التخمين يمكن القول أن مادة بنائه كانت من الطابية لكثرة استعمالها في الفترة الإسلامية.

النسبة المئوية	العدد الكلي	العدد	وظيفة المعلم الأثري	ماهية الأثر
% 7	1	0	المساجد	المعالم الأثرية الإسلامية الدينية
		0	المدارس	
		1	الأضرحة	
%0	0	0	المساكن	المعالم الأثرية الإسلامية المدنية
		0	الحمامات	
		0	القصور	
%57	08	03	الأبواب	المواقع الأثرية
		03	الأبراج	
		01	القلاع	
%36	05	05		المواقع الأثرية
%100	14			المجموع الإجمالي

الجدول رقم 03: يبين أنواع المعالم الأثرية والمواقع الأثرية وعددها وفق العينات المختارة للدراسة بمدينة

هنين. من إعداد الباحث.

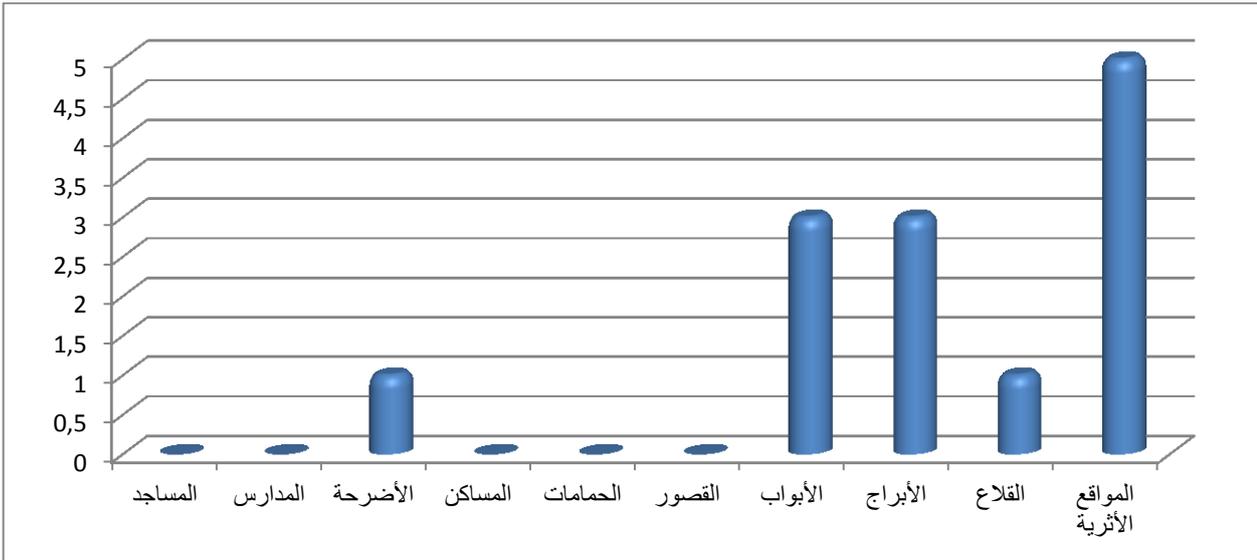
١



لدائرة النسبية رقم 03: تبين نسب المعالم الأثرية والمواقع الأثرية بمدينة هنين وفق عينات الدراسة.
من إعداد الباحث

الأعمدة البيانية رقم 03: تبين المعالم والمواقع الأثرية بمدينة هنين وفق العينة المختارة للدراسة.
من إعداد الباحث

يتضح من الجدول والدائرة النسبية والأعمدة البيانية أعلاه أن مدينة هنين تحتضن جزءاً قليلاً من تراثها المادي، نظراً لما أصاب المدينة من عوامل كان على رأسها العامل البشري الذي بدأ تأثيره من الماضي



وامتدَّ إلى الحاضر عبر العمليات التنموية التي تأتي في مقدمتها عملية التنمية الحضرية، ففي الماضي تعرضت معالمها الأثرية إلى التخطيم والإتلاف أيام الاحتلال الإسباني الذي قام بتخريب المدينة كما ذكرنا ذلك سالفاً، وذلك قبل مغادرته لها والخروج منها نهائياً، لتتغير صورتها عمّا كانت عليه والتي ذكر الجغرافيين أنها كانت في قمة الازدهار معمارياً واقتصادياً، فقد وُجد بها مساكن رائعة الصنع ومساجد زاخرة بالعلم والفقهاء ونشاط تجاري كثيف مع دول الضفة الأخرى عبر مينائها، وقد وصلت المدينة إلينا في الفترة المعاصرة لا تحمل بين طياتها إلا أجزاءً متناثرة هنا وهناك.

بالرغم من ذلك إلا أنها لا زالت تحتفظ بمآثر، أغلبها مواقع أثرية تتمثل أساساً في الموقع الأثري المقابل لمقر البلدية الذي أزاح عنه النقباب عبد الرحمن خليفة والقلعة والبرج البحري والميناء وبرج نونة كلها تتربع على مساحة معينة وتحتوي على شواهد أثرية كمواد البناء ولقى أثرية (قطع فخارية، أدوات الزينة، مسامير، قطع نقدية... إلخ)، وهي تمثل نسبة 31% من إجمالي ما تم الإشارة إليه في المعطيات السالفة الذكر، كما تحتوي إلى جانب ذلك على بعض المعالم الأثرية ذات الطابع العسكري المحض المتمثل أساساً في الأبواب والصور الذي يلف المدينة والأبراج (برج سيدي إبراهيم، برج سبانيول والقلعة التي لم يتبق منها إلا جدرانها فقط لذلك ذكرناها كمعلم وموقع أثري)، وقد بلغت 57% من إجمالي عينة الموروث المادي لمدينة هنين، وذلك راجع لقوة وصلابة المادة التي بُنيت منها هذه الأخيرة، إضافة إلى

سمك جدرانها الذي كان يصل أحياناً إلى حوالي 2م وربما لأن وجودها على أطراف المدينة ساعد على بقائها من دون ضرر بالغ إذ مكنها ذلك من الابتعاد عن المؤثرات المختلفة ما عدا أسوارها التي شكلت جزءاً من تكوينها الداخلي.

فيما يخص المعالم الأثرية الدينية والمدنية لم يتبق منها أي شاهد مادي ما عد ضريح سيدي إبراهيم الأبلي الذي لا زال ماثلاً للعيان فوق المرتفع الصخري بالجهة الشمالية الشرقية للمدينة، أما ما تبقى من قصر أو مساكن أو حمامات... إلخ فقد اندثرت كلياً واختفت معالمها، إلا ما تم الكشف عنه في الحفرة المنحزرة من طرف الأستاذ عبد الرحمن خليفة.

خلاصة الفصل:

لقد احتضنت مدينة ندرومة وهنين تراثاً مادياً ثابتاً ومتنوعاً بين ماهو ديني ومدني وعسكري، لكن المواقع الأثرية وجدت بمدينة هنين لوحدها فقط، وهما على العموم أقل كماً وكيفاً مما هو موجود بمدينة تلمسان.

بالنسبة لمدينة ندرومة فقد جاءت معالمها الأثرية قليلة في العدد لكنها متنوعة بين ماهو ديني ومدني وعسكري مثلها في ذلك مثل بقية الحواضر التي عاصرتها، تتمثل أهم معالمها الدينية في الجامع الكبير المشيد في العهد المرابطي، مسجد القدارين ومسجد لآلة الزهراء وضريح سيدي أحمد البجائي، تاريخ بناء هذين الأخيرين يبقى محل غموض فالمبنى الأول تنعدم المصادر التاريخية التي تتحدث عنه مقابل التعديلات التي طرأت عليه والتي زادت من اختفاء تفاصيله المعمارية الأصيلة التي كان يمكن من خلالها تحديد تاريخ بنائه، أما الضريح فهناك تضارب في المادة التاريخية ما أضفى عليه هو الآخر غموضاً، بالنسبة لمعالمها المدنية فتتمثل في دار القاضي، الحمام البالي، قصر السلطان السوق... إلخ وتنحصر معالمها العسكرية كبقية مدن المغرب الإسلامي التي تشترك معها في طوبوغرافية الموقع في الأسوار التي تلف المدينة مبنية بمادة الطابية، والأبواب موزعة على الجهات الأربعة لضمان أكبر قدر من المراقبة، وتتمثل في باب المدينة بالجهة الشمالية مزينة بالآجر، وقد تعرضت لعدة تعديلات، أما بجنوب

المدينة فنجد باب القصة، شكله مربع يبلغ ارتفاعه 4م، أما بشرق المدينة فتواجد الباب المسمى بالفراقي، وبالناحية الغربية تواجد باب تازة.

فيما يخص مدينة هنين وجدنا أنها تعيش فراغ تاريخي مقارنة بتلمسان وندرومة، إلى الحد الذي لا يمكن الحديث فيه عن معالمها الأثرية، نظراً لعوامل مختلفة، وبالنسبة للمعالم الدينية هناك ضريح سيدي إبراهيم، أما المعالم المدنية فهي الأخرى منعدمة، وتبقى الدلائل الأثرية المكتشفة بالحفريتين الأثريتين المنجزتين من طرف الأستاذ عبد الرحمن خليفة هي من تمدنا بمعلومات حول حي سكاني متكامل مع المخطط الداخلي للمساكن، أما المعالم العسكرية فهناك الأسوار المشيدة هي الأخرى من مادة الطابية، ضف إلى ذلك الأبواب المتمثلة في: باب البحر، الباب الشمالي، باب السانية، باب السنون، باب الخراجة، أما الأبراج فتتمثل في برج النونة، برج سيدي إبراهيم، من بين هذه المعالم ما اختفى ومنها ما لا يزال باقياً.

ومهما اعتري عمرانها من تخريب إلا أن ما تبقى يعكس مدى أهمية المدينة في الفترة الزيانية والدور الذي لعبه منائها في المبادلات التجارية، تلك الأهمية دفعت بالسلطان المريني أبي الحسن إلى تطويقها بحامية عسكرية ومن ثم بناء مسجد لأهاليها حتى يثبت لنفسه وجوده فيها، ولم يكن ليقدّم على ذلك لو لم تكن بقدر أهمية تلمسان.

الباب الثاني

مسار التنمية الحضرية في الفترة الاستعمارية وأهم عوامل انبعاثها في
منطقة تلمسان

الفصل الأول: التنمية الحضرية ماهيتها وإشكالاتها.

الفصل الثاني: مسار التنمية الحضرية في منطقة تلمسان إبان الفترة
الاستعمارية (1842-1962).

الفصل الثالث: دور العامل الاجتماعي والإداري والعولمة الثقافية
في بعث التنمية الحضرية بمنطقة تلمسان.

الفصل الأول

التنمية الحضرية ماهيتها وإشكالاتها

- 1- مفهوم الحضارة
- 2- ماهية التنمية الحضرية
- 3- أهم الاتجاهات المفسرة لنشأة التنمية الحضرية
- 4- عوامل ظهور التنمية الحضرية في المدن عامةً
- 5- خصائص التنمية الحضرية
- 6- إشكالات التنمية الحضرية
- 7- التخطيط والتنمية الحضرية
- 8- لمحة عن التأثيرات العامة لعملية التنمية الحضرية على المدن العتيقة

تمهيد:

منذ أن وُجد الإنسان على ظهر هذه البسيطة وبداية فجر الحضارات الأولى انكب اهتمامه على تكوين إطار حضاري متواضع يفي بحاجاته النفسية والاجتماعية، من أجل ضمان وسيلة تحقق له الأمن والاستقرار وبالتالي البقاء، فلجأ في بادئ الأمر إلى أمن الأشجار العالية ثم فيما بعد الكهوف والمغارات، إلى أن اهتدى إلى طريقة للبناء والتعمير بعدما اكتسب مجموعة من الخبرات استقاها من مسيرته الطويلة في صراعه مع الطبيعة، والتي درّب بها تفكيره لينتفع بها ويستفيد منها في تذليل عقبات أخرى تعيقه على تحسين ظروف معيشته.

1- مفهوم الحضارة:

يؤكد علماء الآثار أن الاكتشافات الأولى التي كوّنت خطوات التقدّم الإنساني أصبحت فيما بعد أداة أساسية بعد أن اتضّحت قيمتها العلمية وزيد من استعمالها، فزاد ذلك من قيمتها وتحسّن نوعها وهو ما يُعرف بالقيمة التراكمية للشيء⁽¹⁾، فعلى سبيل المثال بعد أن اكتشفت القيمة الغذائية لحبوب القمح البرّية، قام الإنسان بجمعه وزرعه وانتظار المحصول حتى ينضج لحصده، ومن ثمّ أكله حبّاً ثم قام بطحنه ليصبح دقيقاً، وهكذا إلى أن توصل إلى صنع الخبز، هنا تتجلّى العلاقة القائمة بين الحاجة والاختراع، وكيف أن ثمرة كل قبيلة من القبائل البدائية ساهمت في التحرك قدماً للخروج من سُكون البداوة إلى حركة الحضارة، كل ذلك لم يتأت إلا باستعمال العقل الذي اعتبره بعض العلماء أول مكتشفات الإنسان، فمن خلاله أمكن له من إدراك الأشياء وفهمها، والربط بين الظواهر التي أحاطت به مستعينا في نفس الوقت بيده لينجز ما اختزنه عقله من ملاحظات ويُخرج طاقاته الفكرية، وعلى سبيل المثال استعمل يده في توظيف العصا للدّفاع عن نفسه، وصقل الحجارة وتحويلها إلى أدوات لقضاء

1- حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول الحضارة وعوامل قيامها وتطورها، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1978، ص: 14

حاجاته اليومية، لذلك قال المتخصصون أن عقله كان دليلاً ليده ويده كانت مفتاحاً لعقله⁽¹⁾، هذا الاجتماع الوظيفي أدى إلى تحقيق خطوات عملاقة وبلوغ قمة جبل الحضارة الإنسانية وهو ما تحدّث عنه المفكر الفرنسي سان سيمون Sansimone بقوله أن الاجتماع البشري حدث بعد أن عاش الإنسان دهوراً طويلاً اقتبس من خلالها أساسيات الاستقرار المتمثلة في الزراعة واستخدام النار وطهي الطعام وصنع الفخار وقد أطلق على هذه المرحلة بسفح الجبل الذي يشبهه هنا بالحضارة، وارتقاء الإنسان في هذا الجبل هو ارتقاء في سلّم الحضارة.⁽²⁾

1-1 لغة:

يبدو أن معاجم القرن الثالث والرابع الهجري الموافق للقرن التاسع والعاشر ميلادي قد احتوت صفحاتها على كلمة حضارة، في حين ما ورد من معاجم قبل تلك الفترة لم تتعرض للحديث عن هذه الكلمة، يرجع الاشتقاق اللغوي لكلمة حضارة إلى الفعل الثلاثي حَضَرَ⁽³⁾، يذكر اللغوي ابن فارس المعروف بالزازي اللغوي أن الفعل حَضَرَ تعني إيراد الشيء ووروده ومشاهدته، ويقول أن الحضّر بالسكون خلاف البدو.⁽⁴⁾

1-2 اصطلاحاً:

أما اصطلاحاً، فالحضارة هي ثمرة كل جهد مبذول لإقامة نظام اجتماعي متكامل أساسه الأمن، لأنه إذا ما تحرر الإنسان من الخوف، تحرّرت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإبداع ما سيزيد

1- حسين مؤنس، مرجع سابق، ص: 21

2- المرجع نفسه، ص: 37

3- عمار توفيق أحمد بدوي، مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، رسالة ماجستير، تخصص أصول الدين، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2005، ص: 09

4- أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج02، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1979، ص: 75-76

من مستوى التطور والرقي الحضاري⁽¹⁾، يربط عبد الرحمن ابن خلدون مفهوم الحضارة بال عمران، إذ يعتبره جزءاً من الترف الذي ينجم عنها، ويقول في هذا الشأن: "البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعوا إليها الترف والدعة..."⁽²⁾، وهناك من عرف الحضارة على أنها محاولات الإنسان المتمثلة في الاستكشاف والتفكير والتنظيم والعمل على استغلال الطبيعة للوصول إلى مستوى حياة أفضل وهي حصيلة جهد جميع الأمم كلها.⁽³⁾

ويضيف مالك بن نبي تعريفاً للحضارة له علاقة بمعادلة كيميائية، فمثلما يتكون الماء من عنصرين أساسيين هما الهيدروجين والأكسجين كذلك الحضارة، إذ تتكون من ثلاثة عناصر أساسية تتمثل في الإنسان والتراب والوقت مقدما ذلك على شكل معادلة رياضية مفادها مايلي: الحضارة تساوي إنسان زائد تراب زائد وقت، والوقت هنا هو الزمن وهي العناصر الثلاثة التي تسمح بتوفير الإنتاج سواء كان ذلك على المستوى المادّي أو الروحي، لأن الحضارة حسب وجهة نظره إبداع وليست تقليداً، إذ أنها من بين القيم التي لا تباع ولا تشتري ولا تكون في حوزة أحد يمتنع عن إعطائها فمثلاً لا يمكن استيرادها من بلد لآخر رغم استيراد منتجات ذلك البلد.⁽⁴⁾

ويقدم مالك بن نبي شروطاً أخرى لقيام الحضارة يمكن أن نوجزها في ثلاثة نقاط أساسية هي كالآتي:

- الإنسان: باعتباره المحرك الأساسي في مسار الحضارة لامتلاكه القدرات العقلية والبدنية التي تؤهله

1- ول ويريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، تقديم محي الدين صابر، مج 01، ج 01، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، (دت)، ص: 03

2- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج 1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ص: 172

3- أبوخليل شوقي، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ج 1، ط 2، دمشق، دار الفكر المعاصر 1996، ص: 20

4- مالك بن نبي، تأملات، ط 5، دار الفكر، دمشق، 1991، ص: 30

على التفاعل مع البيئة والتكيف معها للاستفادة منها بهدف تحقيق ما يصبو إليه من طموح في هذه الحياة.

- البيئة الملائمة: يقصد بها المكان الذي لا بد أن تتوفر فيه أسباب الاستقرار النفسي المتمثل في الأمن والمادي المتمثل في جودة الماء والتراب والهواء، جُل الحضارات القديمة قامت على ضفاف الأنهار بما في ذلك المدن التي بلغت أوج عظمتها من المكان الذي وجدت فيه.

- الاجتماع البشري: أي الحياة ضمن الجماعة نتيجة لما تفرضه الغريزة البشرية التي أجبرت الإنسان على الاختلاط، فمثلاً غريزة حب البقاء دفعته للعيش مع الآخرين لدرء الأخطار المشتركة كهجوم الحيوانات المفترسة وباختلاطه لا بد أن يشكل تنظيم اجتماعياً يُوزع فيه بواسطة الحقوق والواجبات بين الأفراد باعتبار أن الحضارة في مجملها أسلوب معيشي يعتاد عليه الفرد من تفاصيل صغيرة إلى تفاصيل أكبر يعيشها في مجتمعه.⁽¹⁾

يُعتبر عبد الرحمن بن خلدون على رأس الدارسين الذين تحدثوا عن مراحل الاجتماع البشري إذ يرى أن كل جماعة تمرّ بثلاثة مراحل أساسية تتمثل فيما يلي:

- مرحلة البداوة: تمثل الحياة البدوية المرحلة الأولى لكل قبيلة، يمتاز البدو بالحركة والتنقل الدائم، يقتاتون من القطعان التي يرعونها، ويتبعون نظام العصبية الذي يمنح القبيلة الألفة والدفاع عن المصالح المشتركة وهو الذي يجعلها قادرة على الانتقال إلى الطور الثاني.

- مرحلة الغزو: فيها يتم التأسيس إذ تغزو قبائل أخرى أضعف منها لتزيد من اتساع رقعتها الجغرافية ومن حجم ممتلكاتها التي تساعد على البقاء.

- مرحلة التحضر: تعتبر المرحلة الأخيرة في حياة القبائل قديماً، يتم فيها تدوين الدواوين وتقنين

القوانين وتمديد المدن والأمصار، تبدأ بعد ذلك في الميل للملذات والمسرات ونسيان الحرب والكفاح لتضعف شيئا فشيئا إلى أن تضعف وتتغلب عليها قبيلة أخرى غازية فتفترسها وتستولي على ما كانت تملكه.⁽²⁾

1- مالك بن نبي، شروط النهضة، ط4، ترجمة عمر كامل، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1987، ص: 51

1- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة بن خلدون، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2004، ص: 07

من خلال ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون يتبين أن هناك ثلاث عوامل تسقط الأمم وتُنهى حياتها أولها: ضعف الإشراف، ثانياً تشدد الجنود المرتزة ثالثها الترف، كما ذكر أن الدول لا يطول عمرها أكثر من ثلاثة أجيال، وأن لهم كالفرد طفولة وشباباً وشيخوخة، ولكن هذا لا يمنع أن تخففي في أول مراحل

حياتها لأسباب أخرى.⁽¹⁾

يعتبر التغيير من الميزات الأساسية للحضارة الإنسانية، فقد حظي مسارها التطوري بكم هائل منه، وهو ما جعله سمة الوجود الإنساني، وحقيقة متأصلة في طبيعة المجتمعات منذ فجر نشأتها إلى غاية عصرنا الحاضر، الأمر الذي أضفى إلى كونه أحد السنن المستلم بما اللازمة لبقاء الجنس البشري، وهو يعني التحول والتعديل الحاصل في الهيكل العام للمجتمع عبر مختلف المجالات سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو عمرانية. من العلماء الذين تحدّثوا عن ماهية التغيير العالم الاجتماعي هو *Hobhawch*، الذي وضع فرقاً بين التقدّم والتغيّر، فالقدّم حسب رأيه لا يُعتبر عملية أوتوماتيكية، أي أنه لا يحدث إلا إذا أخضعه الإنسان لعامل الإدراك ودور العقل، ما يؤكد أن الإنسان حسب وجهة نظره له القدرة على صنع الحياة أما التغيير فيحدث بصورة مستمرة وثلقائية بفعل عوامل مختلفة يكون فيها الإنسان الأداة التي تجتهد على أرض الواقع لا أكثر ولا أقل⁽²⁾، أضف إلى ذلك التغيير لا يتجه دوماً نحو الأفضل وهو ما ذهب إليه عبد الرحمن فوزي الفخري قائلاً أن المدن ككل في حالة تغيّر دائم هداماً وبناءً.⁽³⁾ من هذا المنطلق، يمكن القول أن التغيير يتضمن مجموعة من التعديلات تتجه إما سلبياً أو إيجابياً كماً وكيفياً، ويتفق في شيء واحد مع التقدّم في أنهما تتحدا عن الطموح الأمتاهي للإنسان في تكوين إطار حضاري يفي بجميع رغباته النفسية والاجتماعية، ولكي يصل مجتمع ما لقمة التغيير الفعلي لا بد له أن يمرّ بأربعة مراحل تتمثل في ما يلي:

-مرحلة التحدي: تكون هذه المرحلة نقطة البداية لولوج مسار التطور، وهو يزداد بازدياد احتياج المجتمع إلى متطلبات جديدة.

-مرحلة الانتقال: يتم في هذه المرحلة الانتقال التدريجي من تقليد إلى الابتكار، الأمر الذي سينجم عنه صراع بين القديم والحديث، يؤدي إلى ظهور انقسام ضمن الكيان الواحد للمجتمع.

-مرحلة تطبيق الأفكار الجديدة: ويقصد بها إعادة التنظيم الجذري لبناء جديد من جميع الجوانب وفقاً للمكتسبات الجديدة التي تحصل عليها ويتبين في هذه المرحلة كيفية التغيير وكيفية تحديد أسس جديدة متطورة ومتعددة النواحي سواء كان ذلك في الجانب الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي وبذلك يصل المجتمع إلى قمة التغيير الفعلي والخروج من حالة الجمود التي كانت مهيمنة عليه⁽⁴⁾، هناك بعض المفكرين من فرضوا حتمية حدوث تغيّر داخل النسق العام للحضارة، فمثلاً يشير ماركس صاحب نظرية الحتمية الاقتصادية إلى أن الظروف الاقتصادية تشكل أساس البناء الاجتماعي وتؤثر تأثيراً عميقاً في جميع الجوانب المرتبطة بالنشاط البشري.⁽⁵⁾

2-المصدر نفسه، ص: 08

2-يوسف عناد زامل، سوسيولوجيا التغيير قراءة مفاهيمية (في ماهية التغيير واتجاهاته الفكرية)، ص: 05 www.isaj.net

3-عبد الرحمن فوزي الفخري، الرائد في فن التنقيب عن الآثار، ط2، منشورات جامعة قارونس، ليبيا، 1993، ص: 260

1-أمينة علي كاظم، التغيير الاجتماعي والثقافي في المجتمع القطري، هجر للطباعة والنشر، مصر، 1993، ص: 104

2-محمد سعيد فرح، ما علم الاجتماع، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1987، ص: 275

أما العالم دوركايم Dorkayme، فقد قال أن المجتمع يتحول من مجتمع ميكانيكي إلى مجتمع عضوي نتيجة للتحضر الاجتماعي المتزايد في الحياة، أي أنه يسير من حالة البساطة إلى حالة التعقّد أما نظرية التغيّر الاجتماعي الدائري فيفسرُ روادها نشأة التغيّر انطلاقاً من فكرة قيام المجتمعات وتطورها واختفائها مع ما يحدث في الطبيعة من نمو وإذلال وتحلّل إلى جانب هذه النظرية، هناك نظرية أخرى تسمى بنظرية الانتخاب الطبيعي من روادها العالم البيولوجي داروين Darwin تشير هذه الأخيرة إلى أن كل نظام حضاري يحمل بين طيّاته بذور التغيّر.⁽¹⁾

2- ماهية التنمية الحضرية:

ينقسم مصطلح التنمية الحضرية إلى جزئين أساسيين هما التنمية والحضرية، كلاهما من المترادفات التي أوجدها النشاط الإنساني على هذه المعمورة مع حقيقة التغيّر التي تصاحب النسق الحضاري ككل منذ بروز الطموح البشري.

2-1 مفهوم التنمية وأنواعها:

قام الإنسان بتجسيد رغباته منذ القدم في تحسين محيطه وظروف معيشته عبر عمليات نفذها على أرض الواقع انطوت تحت مفهوم التنمية، هذه الأخيرة لا يمكن من دونها أن يحدث تغيّر في النسق الحضاري والرّقمي الاجتماعي والاقتصادي، لقد استقطبت اهتماماً كبيراً من قبل الدارسين في مختلف التخصصات العلمية، لكونها ترجمة مباشرة للجهد العقلي والبدني الذي بذله الإنسان فوق هذه المعمورة منذ أن بدأ بحثه عن السبل التي من شأنها أن تعمل على تأمين البقاء والاستمرار وتوفير له التآقلم مع البيئة التي وُجد فيها.

2-1-1 لغة:

يرجع الاشتقاق اللّغوي لكلمة تنمية إلى الفعل نَمَى يُنْمِي بتشديد النون وهو يعني الزيادة بفعل فاعل كأن نقول مثلاً نَمَى النار أي أشبع وقودها، نَمَّ بإنتاجه زاده وكَثَره، نَمَى ذاكرته أي قَوَّاهها وهناك الفعل نما من دون شدة بمعنى الزيادة من تلقاء نفسه، يُقال نَمًا، نَمياً ونمَاءً أي زاد وكثر، والنماء يعني أن الشيء يزيد

1- يوسف عناد زامل، مرجع سابق، ص: 13

حالا بعد حال من دون أن يضاف إليه شيء، فمثلاً يقال لمن أشعل النار نمَّها أما من زاد ماله عن طريق ميراث فيقال له نما ماله لأنه زاد من تلقاء نفسه⁽¹⁾، لذلك أمكن القول أن كلمة التنمية ترجع إلى الفعل الأول نمَّى بتشديد الميم لأن الإنسان يقف وراءها، ويسعى لتحصيلها على أرض الواقع تحقيقاً لهدف لهدف يسعى إليه.

2-1-2 اصطلاحاً:

يُقصد بها مجموعة الوسائل والطرق والإمكانات المستخدمة من أجل تحسين المستوى المعيشي من مختلف النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وهي عملية استحداث تكيّف مقصود مع الطبيعة أو هي التغيّر العمدي داخل المجتمع، وهي تنتج عن تحلي المجتمعات المتخلفة عن كل ما هو تقليدي وتبني كل ما هو جديد من المجتمعات المتقدمة، أو هي عملية تحرر إنساني تشمل تحرير الفرد من الفقر والقهر والاستغلال وتقييد الحرية، كما تشمل تحرير المجتمع من دُلال الاعتماد على الخارج وتحليصه من قيود التبعية.⁽²⁾

من خلال ما ورد من التعريفات السابقة يتضح أن التنمية جهد منظم يستند إلى تخطيط سليم وأن أفراد المجتمع هم هدف التنمية ووسيلتها، وهناك فرق بينها وبين النمو، إذ أن التنمية عبارة عن عملية شاملة اقتصادية واجتماعية وسياسية على نقيض النمو الذي ينحصر في الجانب المادي والذي يحدث في المجتمعات دون تخطيط مسبق كالنمو الديموغرافي على سبيل المثال لا الحصر، ضف إلى ذلك هناك علاقة طردية بين التنمية والتغّير، إذ كلما زادت وثيرتها زادت وتيرة التغيّر، فمثلاً موجة هذا الأخير التي اكتسحت العالم بأسره نتجت عنه التنمية الاقتصادية التي حوّلت المجتمع من مجتمع زراعي

2- الفيروزآبادي، مصدر سابق، ص: 1654-1655

1- إبراهيم العيسوي، التنمية في عالم متغير، دراسة في مفهوم التنمية ومؤشراتها، ط01، دار الشروق، 2001، ص: 94

إلى صناعي بعد أن حلّت الآلات الميكانيكية محل العامل، ما زاد في هجرة السكان من الأرياف إلى المدن ليزيد اتساعها كمّاً وكيفاً.⁽¹⁾

2-1-3 أنواع التنمية:

لم يبق مصطلح التنمية محصوراً في عالم الاقتصاد، إنما انتقل إلى حقل السياسة منذ ستينات القرن الماضي، وهي تُعرف على أنها فن ممارسة القيادة والحكم وعلم السلطة أو الدولة، ثم اتّسع فيما بعد مفهومها ليأخذ جانباً معرفياً بعدد من التخصصات العلمية الأخرى، فمثلاً أصبح هناك ما يعرف بالتنمية الثقافية التي تهدف إلى رفع المستوى الفكري للمجتمع، هناك أيضاً ما يسمى بالتنمية الاجتماعية، ويقصد بها توحيد جهود الأفراد وكذا الهيئات الحكومية لتحسين الظروف المعيشية في المجتمعات كتوفير السكن والصحة والتعليم... إلخ، من جهتها كذلك قدّمت هيئة الأمم المتحدة تعريفاً مقارياً للتعريف السابق، مفاده أن التنمية الاجتماعية لا تتضمن فقط تحسين الأحوال الاجتماعية إنما تحسين حتى الأوضاع الاقتصادية والثقافية عبر تضافر جهود المواطنين والحكومة لتحقيق تكامل في المجتمعات، وتجسيد مفهوم التقدّم القومي⁽²⁾، موازاًً مع التنمية الاجتماعية ظهر نوع آخر يتمثل في التنمية البشرية يقوم مفهومها على أساس أن البشر هم الثروة الحقيقية للأمم وأن التنمية البشرية هي عملية توسيع خيارات البشر، لقد برز هذا المصطلح من البرنامج الإنمائي الذي أعلنته الأمم المتحدة، مشيراً إلى أن الإنسان هو أداة وغاية التنمية، أي أنها تتجسد بالبشر لصالح البشر، باعتبار الفرد والمكون الأساسي للمجتمع ومنظّمه وقائده ومجده.⁽³⁾

2-2 مفهوم الحضرية:

-
- 2- يوسف بن عثمان بن حزم، أفكار في التنمية السياسية، مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي، الرياض، 2011، ص: 30
- 2- ساعد هماش، التصنيع والتنمية الحضرية، دراسة تحليلية بمدينة العلمة ولاية سطيف، مذكرة ماجستير، قسم علم الاجتماع جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، ص: 16
- 2- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 17

لقد أجمع عدد من الباحثين على أن القرن العشرين هو قرن التحضر العالمي وظهور البيئات الحضرية إذ شهد العالم خلاله نمواً وازدهاراً خاصة في النصف الثاني منه، ما انعكس بشكل مباشر على مورفولوجية المدن كمّاً وكيفاً، فحسب ما أشارت إليه إحصائيات صندوق السكان التابع لهيئة الأمم المتحدة أن نسبة قاطني المدن التي لم تتجاوز 13% مع مطلع القرن العشرين قد وصلت إلى 50% قبل نهايته، وذلك في حدود عام 1992م بالضبط، وذلك نتيجة إحتواء المدن على ثلاثة جوانب مختلفة ومتكاملة فيما بينها، إذ تعتبر سكن لأفراد المجتمع بالدرجة الأولى، وأماكن للعمل والإنتاج الاقتصادي والعلمي والتقني والفني بالدرجة الثانية ومراكز لتقديم الخدمات بالدرجة الثالثة، كل ذلك ناتج عن كون المدينة الوعاء الذي تنصب فيه جميع أنواع التنمية، وهي على هذا النحو منذ أن تكونت أولى المجتمعات، وعليه أمكن القول أنها المهده الذي ترعرع فيه طفولة الحضارة.⁽¹⁾

هناك بعض الدارسين من استبدل كلمة الحضرية بكلمة المدنية مثل جورجى زيدان في كتابه التمدن الإسلامي قائلاً في هذا الشأن أن الحضارة هي كل ما وُفق الإنسان في تحصيله، تحسناً لأحواله المعيشية معتمداً في ذلك على التجربة المنبثقة عن التفكير، أما المدنية فهي جميع ما توصل إليه البشر من تقدم ورقي عبر مختلف الميادين بعد حدوث الاجتماع البشري في وعاء يسمى بالمدينة، فما تم تحقيقه في عصور ما قبل التاريخ من طرف الإنسان بمفرده يسمى حضارة لأنها كانت بمثابة خطوات عملاقة وثمره جهد ذاتي وريقي بعد أن نشأت المدن وتكوّن نظامها الاجتماعي فيسمى بالمدينة أو الحضرية لأنها نتجا عن خبرات سابقة وارتبطا بالمدينة، حيث لا يمكن أن يحدثا في فراغ ولا الحديث عنهما سواءً من الجانب الكمي أو الكيفي في ظل غياب مجال جغرافي وثقافي واقتصادي واجتماعي يتميز بنمط خاص، الأمر الذي أحدث تقارب في الكلمتين.⁽²⁾

1- محمد صافيتا، ظاهرة التحضر أو البيئات الحضرية في الوطن العربي، واقعها، سماتها، مشكلاتها، الآفاق المستقبلية لتطويرها

ص: 01 www.4beographie.com

2- جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج 01، دار الهلال، القاهرة، 1973، ص: 05

2-2-1 لغة:

فيما يخص كلمة حضرية يرجع اشتقاقها اللغوي من الفعل حضر يحضر حضوراً، ضد غاب يغيب مغيباً، وهناك الفعل أحضر وهو فعل متعد، معناه قَدَم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتُ﴾⁽¹⁾، أي ما قَدَمْتُ، والحَضْرَة هي المدينة ويقال لها كذلك عُدَّة البناء من الآجر والجص وغيرها والحِضْرَة بكسر الحاء، أي الإقامة بالحاضرة التي هي خلاف البادية والحاضر خلاف البادي نسبة لمكان سكنى كل واحد⁽²⁾، عن أنس رضي الله عنه قال: "نَهَى الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ"، جاء هذا النهي المطلق في البيع والشراء لأنه في عهده صلى الله عليه وسلم كان أهل البادية يأتون بسلعهم لبيعها بالمدن وكان التجار يتسارعون لشرائها من البادي قبل دخولها إلى السوق لاحتكارها والمغالاة في ثمنها فيما بعد، هذا العمل محرّم لما فيه إضرار بالمسلمين.⁽³⁾

2-2-2 اصطلاحاً:

تشير الحضرية إلى طريقة العيش والحياة المميزة لأهل المدن التي انبثقت عن الخصائص الثقافية والاجتماعية والمؤهلات الاقتصادية السائدة في المجتمع ككل، وهي تنقسم إلى قسمين يكمل أحدهما الآخر في المكان نفسه:

-القسم المادّي: يتمثل في كل ما له علاقة بمتطلبات الإنسان المادية الناجمة عن الرغبة الشديدة في حياة أفضل لمسايرة تحديات العصر وإثبات الذات عبر جميع الجوانب التي كالمدراس والمستشفيات وشبكة الطرق والشوارع الواسعة والعمارات الشاهقة الارتفاع والمصانع والبنوك ووسائل النقل وأماكن

1-سورة التكويد، الآية 13

1-الفيروزآبادي، مصدر سابق، ص: 373

2-أبي زكريا يحيى بن شرف النّووي الدّمشقي، رياض الصالحين، تحقيق محمد ناصر الدّين الألباني، ط01، المكتب الإسلامي، بيروت

1979، ص: 620

الترفيه والتسلية، أي كل ما هو موجه لخدمة المصلحة الفردية والعامّة للمجتمع وجلب المنفعة وإبعاد الضرر.

-القسم الغير مادّي: يتمثل في الجانب الثقافي والاجتماعي الذي يوجّه أسلوب العيش داخل المدن، أي أنّها طريقة ذات نسق معين في الحياة، وعليه هناك الحضري الذي يعيش في المدينة داخل مسكن ذي نمط معيّن، وله حرفة غير الزراعة، وهناك أنصاف الحضري الذين يخرجون من منازلهم للعمل بالمدن ثم مساءً⁽¹⁾، وفي نفس السياق، تحدّث الكاتب الألماني توماس مان "Tomas Man" عن الحضريّة قائلاً: "الحضارة هي الروح العميقة للمجتمع والحضريّة هي الآلية الصمّاء"، أي أنّها النواة والمركز الذي تنبعث منه التجهيزات الاجتماعية والثقافية والإدارية المكونة للهيكل الحضاري العام للمجتمع، وعليه فإن مدى تطور الحضريّة يدل على الارتقاء الحضاري، وهي أيضاً بناء اجتماعي ينشأ وينمو ويتطور حسب الوضعية التي يعيشها المجتمع نفسه لأنّها تنبعث من الذات الفردية والجماعية معاً.⁽²⁾

2-3 مفهوم مصطلح التنمية الحضرية:

لقد حظي مفهوم مصطلح التنمية الحضرية باهتمام المفكرين الغربيين منذ بداية القرن العشرين، حيث قدّم لويس ويرث "Louis Wert" أحد زعماء المدرسة الأنثروبولوجية الحضرية سنة 1939م مقالاً تحت عنوان "الحضرية كأسلوب حياة" عن مدينة شيكاغو معتبراً فيه الحضريّة طريقة معينة في الحياة لا تحدّد وفقاً لمقاييس إحصائية ككثافة السكان، وإنما تحدّد انطلاقاً من أنماط السلوك الاجتماعي الذي يمثل قلب الحياة الحضرية، واعتبر المدينة مجالاً حيوي يتمييز بـكبر الحجم والكثافة السكانية العالية، واللاتجانس في طريقة العيش بين الأفراد.⁽³⁾

1-قارني جاكلين بوجو، الجغرافية الحضرية، ترجمة حلمي عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص: 19

2-صابر محي الدين، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1962، ص: 40

3-فادية عمر الجولاني، علم الاجتماع الحضري، دار عامر للكتب، الرياض، 1984، ص: 78

كما حظيت باهتمام هيئة الأمم المتحدة، إذ قدّمت دوراً فعالاً في نشر فكرتها وذلك منذ عام 1951م حينما قامت بإعداد دراسة حول المراكز الاجتماعية المتواجدة بالأرياف، معتبرة فيها التنمية الحضرية عمليةً تركز على التعاون المتبادل بين السكان والحكومات لتحسين الأوضاع الاجتماعية المختلفة، لكن بعد صدور التقرير الدولي عن الحالة الاجتماعية لسكان العالم سنة 1957م

تغير مفهوم التنمية الحضرية وأصبح يحمل معنى جديد يتمثل في تغيير المجتمع الريفي إلى مجتمع متحضر عبر توفير جملة من الخدمات الأساسية، وهذا ما جعل التنمية الحضرية تشير إلى زيادة الكثافة السكانية بما يتعدى 2000ن/كلم²، وكبر حجم المدينة بتعداد قدره 10 000 نسمة، وسيادة المهن التجارية والصناعية، ووجود قدر عالي من التقدّم التكنولوجي وتشديد العمارات الشاهقة وإنشاء الشوارع الواسعة والأحياء الكبيرة وغرس الأشجار.⁽¹⁾

أبرز المفكرين الذين اهتموا بتقديم تعريف للتنمية الحضرية محمد عبد الفتاح محمد الذي عرّفها على أنها مجموعة من العمليات التي تعلّم الاعتماد على النفس وتعبئة كافة الإمكانيات والطاقات والجهود مع تحديد أوجه التقدم على ضوء التفاعل بين الطاقة الوظيفية وبين القوى المعاصرة⁽²⁾، لذلك تعتبر تغييراً موجهاً يساهم فيه أفراد المجتمع مع حكوماتهم في تنفيذها اعتماداً على الإمكانيات المتاحة ووفقاً للطبيعة التاريخية والثقافية للمجتمع وواقعه المعاصر الذي يعيشه الآن.⁽³⁾

يتضح جلياً من التعريف السالفة الذكر، أن التنمية الحضرية هي مظهر من مظاهر العمران البشري والتقدّم العلمي، أو بعبارة أخرى هي الأشكال المادية الناتجة عن الطموح

للأمتناهي للإنسان وصراعه مع الطبيعة لتحسين ظروف معيشته، وهي صورة من صور الحضارة ومرتبة من مراتبها وانتقال من نمط قائم من أنماط الحياة إلى نمط آخر، أي من مرحلة البداوة إلى مرحلة التمدّن، معتمد في ذلك على التخطيط السليم القائم على خبرات المجتمعات في تنظيم مدنها ضف إلى ذلك.⁽⁴⁾

من هذا المنطلق أمكن اعتبارها الاسم الأخير للاستقرار البشري الذي رسمه الإنسان بتفكيره وحقّقه على أرض الواقع، الأمر الذي جعل منها عملية إنسانية ترافق الوجود البشري وأداة فعّالة يتبث

1- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 18

2- محمد عبد الفتاح محمد، الاتجاهات التنموية في ممارسة الخدمة الاجتماعية، للكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2002، ص: 311

3- حكيمة بولعشب، مشكلات التنمية الحضرية بالمدينة الصحراوية، دراسة ميدانية بمنطقة عين الصحراء بمدينة توقرت، رسالة ماجستير، علم الاجتماع الحضري، جامعة قسنطينة، 2007، ص: 18

4- بتول أحمد جندية، على عتبات الحضارة، بحث في السنن وعوامل التخلّق والانهيّار، دار الملتقى، ط 01، سوريا

2011، ص: 12

من خلالها الإنسان ذاته ووجوده على أرض الواقع ويلبي متطلباته عبر علاقة تأثير وتأثر تجري أحداثها داخل المدن التي أصبحت تمثل انعكاساً لعلاقة تتفاعل فيها الجوانب الاقتصادية مع جهود التطور التقني والعبرية الخلافة للمهندسين المعماريين والضغط الإداري، والعادات اليومية من أجل تفعيل النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي في المدينة الواحدة⁽¹⁾، وقد برز بالموازاة مع التنمية التي تقام في المدن المسماة بالتنمية الحضرية، تنمية أخرى يطلق عليها اسم التنمية الريفية التي يكون موضع إجراءاتها في الأرياف، وهي تتفق حسب رأينا مع التنمية الحضرية في توفيرها للمتطلبات الأساسية لسكانه من مسكن لائق ومدرسة وقاعة علاج.

3- أهم الاتجاهات المفسرة لنشأة التنمية الحضرية:

نظراً لأهمية التنمية الحضرية في تكوّن الحضارة الإنسانية، وتطورها عبر مختلف المجالات اهتم بتفسير نشأتها عدد من الباحثين سواء كانوا مؤرخين أو اجتماعيين أو اقتصاديين، خاصة مع تفاقمها في العصر الحديث إلى الحدّ الذي أصبحت تشكل الإطار العام والهيكلي الأساسي الذي تُمارَس فيه الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ما جعل منها واقعاً ملموساً ومحركاً أساسياً لنمو الحضارة الإنسانية⁽²⁾، لذلك تعددت النظريات التي تحدثت عنها، خاصة أنّ لكل ظاهرة أو عملية تاريخاً يشكل جزءاً لا يتجزأ من حاضرها وبعدها معرفياً يساعد بشكل كبير في تفسيرها لتوضيح معالمها وأصول نشأتها وتحليلها من أهم الاتجاهات التي اهتمت بتفسيرها مايلي:

3-1 الاتجاه الاجتماعي:

يعتبر عبد الرحمن بن خلدون من المسلمين الأوائل الذين درسوا الظاهرة الحضرية، حسب وجهة رأيه المدينة بنية اجتماعية في تطور دائم، وأن الإنسان حضري بطبعه وتكوّن المجتمع ناجم عن علاقة طردية مفادها أنه كلما ازدادت الرفاهية وتحسّن المستوى المعيشي كلما كبر حجم السكان، مؤكداً أن البدو

1-قارني جاكدين بوجو، مرجع سابق، ص:14

2-المرجع نفسه، ص:15

أصل التجمع البشري وأن البادية هي أصل الحواضر التي تكونت فيما بعد بأسس اجتماعية كانت سائدة عند البوادي من قبل، فعملية التحضر في نظره صفة طبيعية ومتجددة في النفس البشرية بحكم أن الإنسان في سعي دائم لتغيير محيطه من وضع إلى وضع أحسن منه⁽¹⁾، كما قسّم الأقاليم الجغرافية إلى سبعة أقاليم وفقاً لطبيعة المناخ، ما يؤكد حسب وجهة نظره أن للمكان والمناخ تأثير بارز على ماهية المدن كمّاً وكيفاً، وأن ثمرة الاجتماع البشري لا تنتج إلا من رقي التفاعل الإنساني في مكان وزمان واحد تحت إدارة رشيدة.⁽²⁾

تلك هي وجهة نظر عبد الرحمن بن خلدون حول التحضر كأسلوب عيش، وكوجه للتنمية بالمدن وعلاقته مع ماهية الثقافة السائدة في المجتمع الذي ينمو فيه ذلك التحضر، ودوره في التعبير عن حجم التقدم الفكري للمجتمعات قاطبة.

اهتم علماء الاجتماع من بعده بتفسير بروز عملية التنمية الحضرية بالمدن انطلاقاً من الوضع الاجتماعي السائد فيها، والمتمثل أساساً في حجم السكان وتوزيع الجنسين ومعدل المواليد والوفيات والهجرة، لذلك يشير التحضر إلى تجمع سكاني ذو حجم معيّن وخصائص معينة تتمثل في العمر والنوع المستوى المعيشي والحالة المهنية... إلخ، من رواد هذه النظرية إدالو "Idalou" الذي لخص آراء بعض المتخصصين حول التنمية الحضرية في معنى ما قاله أن الحضرية موجودة بالفعل وهي الإطار الذي تمارس فيه الوظيفة الاجتماعية، والكيان الذي يستمد استمراره من النشاط الذي يقوم به أفراد المجتمع أي أن المجتمع هو من يصنع تحضره وتنميته⁽³⁾، لذلك تعتمد بعض الدول على عدد السكان كمعيارٍ لقياس معدلات التنمية الحضرية، وهو يختلف من دولة إلى أخرى، إذ يتراوح بين 250 نسمة في الدانمارك و2000 نسمة في فرنسا و30000 نسمة في اليابان، في حين هناك دول أخرى كالولايات المتحدة

1- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج01، ص: 115-152

2- المصدر نفسه، ص: 63

3- قارني جاكلين، مرجع سابق، ص: 15

الأمريكية وكندا اتخذت معيارين وهما عدد السكان والتنظيم الإداري السائد لقياس مدى انتشار التنمية الحضرية بمدنهم.⁽¹⁾

تبعاً لهذه المعطيات، يتضح أن هذا الاتجاه ترجمة مباشرة لتأثير الحجم السكاني في نشأة التنمية الحضرية وانبعثها، فالمدينة التي تحظى بكثافة سكانية مرتفعة تمنح وجهاً يختلف تماماً عن الوجه الذي تمنحه مدينة أقل كثافة، إذ تقل بها المرافق التي تنبثق عن حاجة السكان لها، فمثلاً مدينة ذات حجم سكاني هائل لا تحتاج إلى مدرسة واحدة فقط ولا إلى مستوصف واحد، إنما إلى مدارس ومستشفيات ما يؤكد أن هناك علاقة طردية بين مدى تحضر المدن ومقدار اجتماع البشر بداخلها، وفيما يخص فتروفيوس، فقد أشار إلى أن تحضر المدن لا يتحقق إلاً بإحكام النسب واستخدام المقاييس الإنسانية في العمران، عبر تحصينها وتوفير شروط معيشية جيدة على يد معماري أخلاقي منتمٍ لمجتمعه وملمّ بعلوم الهندسة والطب والفلك، لذلك أمكن اعتبار المدينة من أهم الإنجازات التي توصل إلى تحقيقها الإنسان عبر التاريخ.⁽²⁾

3-2 الاتجاه التاريخي:

يهتم هذا الاتجاه بدراسة تطور أشكال المجتمعات المحلية الحضرية الأولى، من روادها جُوراس "Jorasse" وكريستاليرو "Kristaliro" وأولمان "Auliman"، اهتموا بالجذور التاريخية للمناطق الحضرية من حيث طبيعتها وتنوعها وخصائصها، فيما عدا هؤلاء الدارسين، برز في هذا الاتجاه جُوردن تشيله "Jordan Tchilih" بمصطلح جديد أطلق عليه اسم "الثورة الحضرية المبكرة"، قاصداً به الاستيطان الدائم في صورة تجمعات كثيفة وبداية العمل بالنشاطات غير زراعية وفرض الضرائب وتراكم رؤوس الأموال وإقامة المباني الضخمة وتطور فنون الكتابة وتعلم مبادئ الحساب والفلك من

1-قارني جاكليين، مرجع سابق، ص:18:15

2-يسار عابدين، بييرنانو، مفهوم الفضيلة في مصطلح المدينة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، العدد 01، مج 28، دمشق

2012، ص:162

جهته عرض المفكر لويس مَمْفورد "Louis Memfourd" وجهة نظره حول الظاهرة الحضرية ودورها في نمو المدن مشيراً إلى أنها تنقل المدن من مرحلة إلى أخرى أولها مرحلة النشأة تليها مرحلة المدينة الكبيرة، وبعدها مرحلة المدينة العظمى، ثم مرحلة مدينة تيرانوبوليس Tiranopoulis، وفي الأخير مرحلة مدينة النيكروبوليس Nicropoulis، أما المفكر إيريك لمبارد "Erik Lambard" فقد حدّد أربعة مراحل مرّ بها العالم في تكوينه الحضري رابطاً إيّاها بالمظاهر التي تميزها وهي كالتالي:

-مرحلة التحضر البدائي: تمثل هذه المرحلة تلك المحاولات الأولى التي قام بها الإنسان من أجل إحداث تكيف مع البيئة التي وجد بها وإيجاد ترابط بين الجانب المادّي والمعنوي لضمان استمراره في الحياة.

-مرحلة التحضر المميز: بدأت في هذه المرحلة تظهر الملامح الأولى لتكون الاجتماع البشري، كما بدأت تتحدد أهم خصائصه وأهم المشاكل التي تعترض طريقه واهتماماته الأساسية كيفية استغلال ما يحيط به لتأمين غذائه.

-مرحلة التحضر الكلاسيكي: شهدت هذه المرحلة تمركزاً مكثفاً لسكان بالعواصم ويؤكد إيريك لامبارد "Erik Lambard" أن هذه المرحلة تمثل بداية الاستقرار الحضري الحقيقي.

-مرحلة التحضر الصنّاعي: تعتبر هذه الأخيرة، آخر مرحلة من مراحل التكوين الحضري، بدأت ملاحظها بالظهور مع بداية القرن العشرين نتيجة لتدفق الأعداد الكبيرة للوافدين من الأرياف والمناطق الزراعية إلى المدن الكبيرة، لذلك سجلت المدن في العالم ككل نمواً سريعاً وازدادت وتيرة النمو الحضري، بلغت نسبة سكان المدن في بداية القرن العشرين 14% ثم ارتفعت إلى 30% في سنة 1950م لتصل إلى 47% سنة 1999م⁽¹⁾، وفي خضم كل ذلك برز إلى الوجود أنموذج جديد في البناء الحضري أخذ يزداد كُمه يسمى بالمدن المليونية، فقد سُجّل في بداية القرن العشرين وجود مدينة مليونية واحدة في العالم فقط سنة 1970م.⁽²⁾

1- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 56

2- حسن عبد الحميد أحمد رشوان، مشكلات المدينة، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، 2002، ص: 95

من خلال المراحل التي تم ذكرها، تبين أن التنمية الحضرية عملية إنسانية بالدرجة الأولى، ترتبط في نموها بالظروف التي تحيط بها.

3-3 الاتجاه الاقتصادي:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن التنمية الحضرية مرحلة متقدمة من مراحل النمو الاقتصادي، حيث كلما ازدادت حركة التصنيع وتشعبت طرقها كلما ازدادت وتيرة التنمية عامة، ففي الوقت الذي كانت فيه أساليب العمل والإنتاج بسيطة وبدائية كانت عملية التنمية الحضرية هي الأخرى بسيطة وبطيئة النمو، ومظاهرها تكاد تنعدم، وتتغير أساليب الاقتصاد وتطورها أو بعبارة أخرى الانتقال من نمط اقتصاد المعيشة الذي كان يعتمد بشكل مباشر على الفلاحة بمختلف أنواعها، ويرتكز على ثلاثة نقاط أساسية تتمثل في الأرض واليد العاملة ورأس المال لذلك عرف باسم الاقتصاد التقليدي إلى نمط اقتصاد السوق أو ما يعرف بالاقتصاد الحر، لأن الليبرالية الاقتصادية هي المكون الرئيسي له وهو يعتمد على فكرة الحرية الفردية وعدم تدخل الدولة في الأنشطة الاقتصادية ويخضع في عمله على قانون العرض والطلب، ومع ذلك فإن اقتصاد السوق لا يعني الغياب الكلي للقطاع العام ودور الدولة في تنظيم الحياة الاقتصادية.

من أبرز رواد هذه النظرية المفكر الاقتصادي جراس "Jerasse"، بدراسته التي حاول من خلالها استعراض التاريخ الاقتصادي للحضارة الغربية سنة 1932م، لقد وجد علاقة وطيدة بين النمو الاقتصادي الحاصل في دولة ما مع مقدار تحضرها، وأن المناطق الاقتصادية هي الأكثر تحضراً مقارنة مع المناطق الأخرى.⁽¹⁾

3-4 الاتجاه النموذجي:

من الرواد البارزين في هذا الاتجاه المفكر الألماني ماكس فيبر "Max Fiber"، أحد مؤسسي علم

1- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 59

الاجتماع الحديث، تنحصر وجهة نظره حول عملية التنمية الحضرية في كونها نموذج لأحد أنواع الفعل الإنساني الذي انبثق عن المحيط الذي يعيش فيه، وأنها واقع من دون أي تخطيط مسبق لأنه حسب رأيه لا يمكن التعامل مع المدينة ككل وكأنها مادة جامدة يمكن ضبطها ضبطاً رقمياً كما هو الحال بالنسبة للظواهر الفيزيائية، بل هي وما تتضمنه من تنمية حضرية عبارة عن رد فعل تتجاوب من خلاله مع المحيط الذي توجد فيه⁽¹⁾، تنحصر سلبيات هذا الاتجاه في إنقاصه لقيمة التخطيط ودوره في توجيه المسار التطوري للمدن فحتى وإن كانت هذه الأخيرة ردة فعل لمجموعة من المعطيات التي تنحصر في الاجتماع البشري والاستقرار وتوفير مستوى معين من الترف، لا بد أن تتقيد بقوانين تنظيمية لتفادي حدوث نمو عشوائي.

3-5 الاتجاه الإيكولوجي:

يعتمد هذا الاتجاه في تفسيره لعملية التنمية الحضرية على التفاعل القائم بين الإنسان وبيئته التي يعيش فيها، بدأت فكرة هذه النظرية على يد العالم البيولوجي لُدوينغ فون بيرتيلانفي "Lodouing Vonberalanffy" في العشرينيات من القرن الماضي، محاولاً الوقوف على أهم القوانين التي تحكم حياة الأفراد داخل المدن، ارتكزت نظريته حول فكرة التغير الذي يطرأ على أحد عناصر النظام المكوّن للمحيط الذي يعيش فيه الإنسان، سيؤدّي حتماً إلى حدوث تغيرات في التركيب الداخلي للمدن، الذي تعتبر التنمية الحضرية جزءاً لا يتجزأ منه، ويقصد بها حضرياً ذلك التفاعل وتنظيماتها ومؤسساتها التي تخدم مصالح أفراد المجتمع، في هذا المجال قام دانكان "Dankan" بدراسة تتمحور حول التحقق من الفرضية التالية: هناك علاقة ارتباط بين الجمال المكاني وبين حجم وتوزيع الجماعات تعرف باسم فرضية بارك "Bark" وقد توصل إلى مايلي:

-يساعد التحليل الإيكولوجي على تفسير الارتباط بين المساحة ومقدار الاجتماع.

1- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 60

- يتم قياس ذلك الارتباط من خلال مؤشرات الوضع السوسيوولوجي والاقتصادي والاختلاف في المهنة.

- تعدد نقاط السكن وحدوث التوسعات العمرانية يرتبط بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي للمدينة.⁽¹⁾

تبعاً لهذه المعطيات، يتبين أن النسق الإيكولوجي عبارة عن أداة لدراسة العلاقات القائمة بين المتغيرات أو الظواهر الحيوية المعلنة داخل المدن، والفرد فيه عضو في التشكيلة الاجتماعية يتأثر بما يحيطه، وعليه يكون كل نشاط تابع له انعكاس مباشر لطبيعة المكان الذي يقطنه، كعملية التنمية الحضرية التي تُعتبر بالدرجة الأولى فعل إنساني وتعبير مباشر لمفهوم التغيير المقصود، لذلك يمكنها أن تتأثر بطبيعة الجماعة في كيفية عملها وبنائها الاجتماعي، انطلاقاً هذه المعطيات وطريقة تفسير العلاقة القائمة بين المحيط والتحضر تعتبر هذه النظرية واحدة من الطرق المهمة لفهم النمو الحضري والإطلاع على المتغيرات الإيكولوجية المساعدة على تحديد المناطق المتجانسة والغير متجانسة فيما بينها من حيث النمو.

3-6 الاتجاه الحضري:

يفسر هذا الاتجاه انبعاث التنمية الحضرية بالمدن إلى ماهية الموقع الجغرافي من حيث احتوائه على الموارد الأولية والإمكانات الإنتاجية باعتبارها عوامل أساسية في دفع عجلة النمو باختلاف أشكاله سواءً كان اجتماعي كالنمو الديموغرافي أو معماري كانتشار البنايات المتعددة الأغراض، عُرفت هذه النظرية باسم آخر وهو نظرية الحتمية الحضارية وتتلخص فكرتها في أن التنمية الحضرية يتمشى وفقاً لموقع الدولة، فالدول المتخلفة تتواجد إما في مناطق شديدة الحرارة أو شديدة البرودة ولا توجد فيها تنمية حضرية، بينما الدول المتقدمة تتواجد بالمناطق المعتدلة وتتمتع بتنمية

1- رياض تومي، أدوات التهيئة والتعمير وإشكالية التنمية الحضرية، مدينة الحروش نموذجاً، رسالة ماجستير تخصص علم

الاجتماع، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص: 28

الحضرية جيدة، بالرغم من بعض الموضوعية التي تتميز بها هذه النظرية، إلا أنها تعرّضت للانتقاد لأنها تتعارض مع ما جاء في الواقع، هناك بعض الدول التي تفتقر إلى كثير من الموارد وتعتبر من الدول الرائدة في التنمية الحضرية كاليابان، سويسرا نتيجة اعتمادها على البحث العلمي وإرساء سياسة رشيدة.⁽¹⁾

مما تقدّم ذكره عن الاتجاهات المفسرة لعملية التنمية الحضرية، يتضح وجود اختلاف في تفسيرها راجع لاختلاف مستوى وبيئة التفكير عند أصحاب تلك الاتجاهات، فهناك المتخصص في علم الاجتماع والتاريخ والبيولوجيا والاقتصاد، ومن جهة أخرى هناك من ينتمي إلى بلد نام وآخر متقدم، وعموماً تلتقي جميعها في أن التنمية الحضرية عملية إنسانية بالدرجة الأولى وأنها ابنة بيئتها بالدرجة الثانية، فهي منتعشة في البلدان المتقدمة وتمدّهورة في البلدان السائرة في طريق النمو.

4- عوامل ظهور التنمية الحضرية في المدن عامة:

باعتبار التنمية الحضرية أداة ربط بين الجانب الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والجانب المعماري وحتى السياسي للمجتمع لتكوين مجال حضاري مسير لمتطلبات المكان والزمان يسمى بالمدينة ومبلي لجميع متطلبات أفرادها تعددت عوامل انبعاثها ولم تنحصر في عامل واحد، وهي تتمثل فيما يلي:

4-1 العامل الاجتماعي:

يرى عالم الاجتماع الفرنسي حابويال لوبرا "Haboyal Lobra" أن التنمية الحضرية بمفهومها الواسع ليست عملية واحدة ذات طابع اقتصادي، إنما هي مجموعة من العمليات ذات الطبيعة السوسيوولوجية والنفسية وحتى البيولوجية، بمعنى أنها عمل مركب يحتاج إلى فهم سلوك الأفراد، وما تقوم بينهم من علاقات، وما يترتب عنها من أنظمة تؤثر على المجتمع ككل، ولتحقيق تنمية حضرية بالمدن لابد من

1- سعيد فكرون، استراتيجية التصنيع والتنمية بالمجتمعات النامية- حالة الجزائر دراسة نظرية- أطروحة دكتوراه دولة تخصص علم اجتماع التنمية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005، ص: 98-99

الاعتناء بثلاثة جوانب أساسية وهي الجانب الخدماتي أي كل ما يهم أفراد المجتمع من مرافق عمومية⁽¹⁾، ثم الجانب الثقافي عبر توفير أكبر عدد من المدارس والجامعات وفي الأخير النشاط المصاحب لأفراد المجتمع كالعلاقات الاجتماعية، التجارة، الانتقال من مكان لآخر... إلخ، وعليه الحديث عن التنمية الحضرية هو الحديث عن مشروع حضاري متعدد الجوانب يهدف إلى إضفاء تغير جذري على المجتمع، كتحسين أوضاعهم المعيشية في مجال السكن والصحة والتعليم والمواصلات لأن جوهر التنمية الحضرية تحصيل اجتماع بشري في مكان واحد لتحقيق مستوى معين.⁽²⁾

4-2 العامل السياسي:

تعد قضية التنمية عموماً من أهم القضايا المحورية التي تحظى باهتمام بالغ من طرف الباحثين والمفكرين والسياسيين بجمع بلدان العالم، خاصة البلدان الحديثة الاستقلال التي اتخذت من التنمية شعاراً للطموح والجهد والانجاز لإحراز تغيير واسع النطاق نحو الاتجاهات المرغوبة، تتطلب هذه العملية في جوهرها تضافر جميع الجهود عبر مختلف المجالات عبر سياسة حكيمه، تضمن تحقيق مبدأ العدل والمساواة بين أفراد المجتمع، من هذا المنطلق، اعتبر السياسيون المدن كتلة حكومية تمارس فيها مجموعة من مظاهر القوة، وتؤدّي فيها واجبات من نوع خاص، أي أنها تمثل توازن بين قوى المصالح المختلفة التي تعمل في الأخير على تنفيذ سياسة توجه مسألة النظام وتحدّد مسؤولية إدارة المدينة وفق قوانين ومواد تنظيمية.⁽³⁾

1- اليمين بن منصور، دور القيم الدينية في التنمية الاجتماعية، دراسة ميدانية حول الميزابيين المقيمين بمدينة باتنة، رسالة

ماجستير، تخصص علم الاجتماع الديني، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2010، ص: 38

2- Abdelatif Benachenhou, *Conférence sur le Développement Territorial en Algérie*, à la salle des conférences d'Aboukassam SaâdAllah, Faculté des Sciences Humaines et Sociales, Université d'Abou Bakr Belkaïd, Tlemcen, Algérie Le: 28/01/1016

3- محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (دت)، ص: 62

من خلال وجهة نظر السياسيين للمدينة، يعتبر التسيير الحضري ترجمة مباشرة لمجموعة القوانين المنبثقة عن السلطة الحاكمة، وهو كذلك إستراتيجية تتبعها مراكز اتخاذ القرار لتحسين كل ما علاقة بمستوى عيش الفرد داخل البيئات الحضرية، لذلك هو الأداة المناسبة في تفعيل السياسة المدنية التي تعني مجموعة القواعد والمبادئ التي يلتزم بها المخططون في كل مراحل العمل وهي تدخل ضمن السياسات الاجتماعية التي تعلنها الحكومات في بلدانها، إضافة إلى ذلك تعمل الأحزاب السياسية عبر برامجها على بعث التنمية الحضرية بالمدن، فهي تعتبر حسب ما ذكره دافيد أبتز "David Apter" أهم وظائفه زيادة على تنظيم وتوجيه الرأي العام، وتلمس احتياجات الناس ونقلها إلى الأجهزة المسؤولة، وبهذا الشكل يحدث تقارب بين الحكام والمحكومين.⁽¹⁾

لذلك تعتبر الأحزاب السياسية قوى مدنية منظمة تضم مجموعة من الأفراد يشتركون في أفكار وتصورات معينة تعمل على تعبئة الرأي العام للتأثير على السلطة الحاكمة من جهة، ومن جهة أخرى تلعب الدور الرقابي على الأجهزة الحكومية الثلاثة والمتمثلة في الجهاز التنفيذي والتشريعي والقضائي، وعليه تعتبر الأحزاب السياسية من أفضل الوسائل والآليات المتاحة في أي مجتمع من المجتمعات لتحقيق التنمية الحضرية والتكامل بين المتطلبات الأساسية للمجتمع.

3-4 العامل الاقتصادي:

1-حسيبة غارو، دور الأحزاب السياسية في رسم السياسة العامة، دراسة حالة الجزائر من 1997-2007، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تخصص تنظيمات سياسية وعلاقات دولية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود معمور، تيزي وزو، 2012، ص: 24

تحتل المدن أبرز إنجازات الحضارة الإنسانية التي نتجت عن تفاعل القيم المعنوية الفكرية مع القيم المادية، التي تنحصر بشكل مباشر في الجانب الاقتصادي بالدرجة الأولى، فمن خلاله يتم الانتقال من حالة التخلف إلى حالة التقدم باعتباره عاملاً مهماً في إحداث التنمية عبر مختلف المجالات وهو ما حدث لدول أوروبا.

بعد ظهور النهضة الاقتصادية منذ منتصف القرن الثامن عشرة ميلادي ببريطانيا وتعميمها على باقي الدول، تحسّن المستوى المعيشي للفرد وتغيرت ملامح المدن، الأمر الذي ساعد على ظهور علم جديد يهتم بالتنظيم المدني سمي بعلم التخطيط الحضري، لإيجاد توازن بين التقدم الاقتصادي والجانب المعماري، فمثلاً تمّ في باريس استحداث تخطيط عمراني جديد يسمى بمخطط هاوسمان نسبة لمبتكره وهو يعتمد على فتح الشوارع العريضة، تماشياً مع حركة التصنيع الناتجة عن الثورة الصناعية التي أتاحت إمكانات مادية لتجسيد ذلك ولو أن العامل السياسي كان حاضراً هو الآخر في هذه العملية، وقد عمّت هذه المخططات باقي عواصم أوروبا.⁽¹⁾

وفقاً لما تمّ ذكره يتضح أن مسار التنمية الحضرية في أي مجتمع على اختلاف مرجعيته الدينية والثقافية ومستواه الاقتصادي عبارة عن رد فعل للمتطلبات الزمانية والمكانية المتضمنة لمجموعة من العوامل سواءً كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، إلاّ أنّها في الأخير تعتبر كلها بمثابة القاسم المشترك من حيث الأهمية لدى جميع الدول، إذ لا يمكن أن تكتمل التنمية الحضرية بعامل واحد فقط.

5- خصائص التنمية الحضرية:

تنشق عملية التنمية الحضرية من المدن، ما جعلها تكتسب خصائص تميزها عن غيرها من العمليات فهي بالإضافة إلى كونها عملية، هي عبارة عن سلوك اجتماعي له طريقته الخاصة وسماته التي تميزه عن غيره، وهي ليست تعبيراً مقصوداً على سكان المدن فقط، إنّما يمكن لأي فرد أن يكتسب التحضر

1- نبيل الكردي، التجربة الغربية في التوفيق بين التخطيط العمراني والحركة والنقل والمرور، مجلة العمران والتقنيات الحضرية، العدد 03، الأردن، 2008، ص: 01

بالتغير السريع سواءً من حيث النمو الديموغرافي، أو من حيث النظم الاجتماعية والاقتصادية، بالإضافة إلى ذلك نجد أن التنمية الحضرية تتميز بما يلي:

- جوهر نشأتها نابع عن طموح وتغير إرادي وُلد كفكرة نتجت عن الحاجة الماسّة لوضع أحسن، فرضته سُنّة التجديد والاجتماع البشري.

- تعتبر عملية إنسانية مقصودة لأن الإنسان هو المحرك الأساسي فيها كما ذكر ذلك بن نبي في تعريفه للحضارة، وهي تتميز بطابع الاستدامة أي أنها تعمل على تحقيق أهداف المجتمع الذي توجد فيه من دون الإضرار بمتطلبات الأجيال اللاحقة، كما أنها تعتبر ضرورية لكل مجتمع بغض النظر عن مستواه المعيشي وهي تمتاز بالديناميكية والتعاون بين مختلف الهيئات لأنها عملية متعددة الجوانب فليست معمارية فقط إنما اجتماعية وثقافية واقتصادية، لذلك تستوجب تضافر جميع الجهود لنقل المجتمع من وضع سلبى إلى وضع إيجابى عبر إعلان المشاريع التنموية بمجاله الجغرافى وهو ما يسمح تحويل البادية إلى مدينة والمدينة الصغيرة إلى مدينة كبيرة تحيط بها البنايات الشاهقة الارتفاع، وتكتنفها مجموعة من شبكة الطرقات المعقدة.

- تتميز بنمط سوسيوثقافى خاص متناقض مع ما كان سائداً في المدن العتيقة، وتقسيم العمل واتساع نطاقه وزيادة التعقد الاجتماعى بالمدن، إذ أن التنمية الحضرية تفرض أسلوباً معيشياً واسع وغير محدود بعيد عن قيود العادات والتقاليد التي تحكم الحياة الريفية، كما يكتنفه التجديد والإبداع فلكل شخص معين مثلاً عمل خاص به.

- تتناسب عملية التنمية الحضرية تناسباً طردياً مع عدد السكان المدينة، إذ كلما زاد عددهم ازدادت التنمية الحضرية لاستيعاب متطلباتهم كطرق المواصلات ومراكز التعلم والصحة ومختلف الخدمات الأخرى.

-تعتمد على أغلفة مالية معتبرة لتحقيق أهدافها وفي حالة إذا لم ترصد لها أغلفة مالية كافية فإنها ستواجه عقبةً في تحقيق أهدافها ما سيؤدي إلى تراجع المستوى المعيشي للسكان.

-الاعتماد على مخططات تسيير واستغلال الأراضي كمخطط شغل الأراضي POS والمخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (PDAU) ومخطط التعمير الموجه (PUD) والمخطط العمراني المؤقت (PUP)⁽¹⁾، التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

-تعتبر عملية داخلية ذاتية، أي أن مقوماتها وبوادرها وجودها تنبثق عن الحيز الذي توجد فيه ما يؤكد أنها انعكاس مباشر لمعطيات اقتصادية وجغرافية وتاريخية وثقافية الخاصة بالمجتمع

-تعتبر عمليةً تجتمع فيها القوة الاقتصادية وجهود التطور التقني والعنصرية الخلاقة للمهندسين المعماريين والقوانين الإدارية في مجال التعمير وكذا التطلعات اليومية للسكان، ويمتاز المجتمع الذي حظي بعملية تنمية حضرية بالمرونة والنشاط والتغير السريع، إذ بالإمكان أن يتحصّل الفرد على جميع الضروريات كالعمل والسكن والخدمات الصحية والتعليم، لذلك تعتبر المدن نقطة جذب للسكان.⁽²⁾

6- إشكالات التنمية الحضرية:

تتطلب عملية التنمية الحضرية مجموعة من العوامل التي يمكن من خلالها أن تتحقق أهدافها وتُفَعَّلَ برامجها التنموية التي تخدم أفراد المجتمع بجميع مستوياته، عبر مختلف المجالات داخل المدن لكن إذ لم تتضافر جميع الجهود فيما بينها، أو لم تحتوي العوامل على قدر كافٍ من الإمكانيات، ستعترضها

1- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 73

1- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 75

مجموعة من العقبات تحول دون قيامها وتجعل منها عوائق في حد ذاتها على أرض الواقع، الأمر الذي ينجم عنه حدوث انعكاسات سلبية على المجتمع، تنحصر أهم الإشكالات فيما يلي:

6-1 الإشكال الاقتصادي:

يرتبط العامل الاقتصادي ارتباطاً وثيقاً مع عملية التنمية الحضرية، إذ يعتبر المحرك الأساسي لها ولأي عملية تنموية أخرى، وإذا ما حدث أي خلل به في أي مجتمع سيؤدي إلى حدوث تراجع في مستوى عيش الفرد من أهم ما ينجم عنه ما يلي:

- نقص رؤوس الأموال المستثمرة بالنسبة إلى عدد السكان أي نصيب الفرد من الأرصدة المالية المخصصة للتنمية، الأمر الذي يحدث تفشي مستويات عالية من البطالة المتنوعة داخل المجتمع، منها بطالة موسمية يكون فيه عدد من أفراد المجتمع في حالة ركود جزئي أثناء السنة، وبالنسبة للبطالة المقنعة فهي عمل من دون إنتاج، أما البطالة الكلية فهي الركود الكلي لمجموعة كبيرة من السكان.⁽¹⁾

- ضعف البنيان الصناعي الذي يعد أحد المقومات الأساسية لعملية التنمية الحضرية، فهو يعمل على تحريك مختلف الأنشطة المتواجدة بالمدينة، فمثلاً وجود المصانع وإنتاج البضائع يستدعي توفير وسائل النقل والمواصلات لتسويقها ما يتطلب إعداد شبكة من الطرق التي من دونها لن تكون هناك حركة ولا تجارة، ومن دون التجارة لن تكون القرى والمدن.⁽²⁾

لهذا كله يعتبر ضعف العامل الاقتصادي أحد أهم وأبرز العراقيل التي تواجه عملية التنمية الحضرية في تجسيد مشاريعها على أرض الواقع ومن ثم الاستجابة لمتطلبات أفراد المجتمع، ضف إلى ذلك عدم وجود حركية صناعية بالمدن يؤدي إلى هجرها بحثاً عن أماكن جديدة توفر سوق العمل وتساعد على العيش.

6-2 الإشكال الاجتماعي:

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 153-157

2- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 75

يقصد بالإشكال الاجتماعي كل ما له علاقة بالمدينة باعتبار هذه الأخيرة الوعاء الذي يوجد وينمو العمران البشري فيه، ولكي تحقق التنمية الحضرية أهدافها، لا بد أن يتماشى المجتمع الذي يصنعها كماً مع ماهية مؤهلات الدولة التي يتواجد فيها، إذ أن ارتفاع معدلات النمو الديموغرافي وركود المجال الاقتصادي يؤدي بشكل مباشر إلى استحداث اختلالات تنعكس سلباً على مسار عملية التنمية الحضرية، فتزايد عدد السكان يتطلب توفير أكبر قدر من السكن وأماكن للعمل ومراكز للعلاج لأن تدهور الوضع الصحي للسكان يؤدي إلى تراجع مستوى التنمية الحضرية، فكلما تحسّن مستوى الصحة لدى الأسرة كلما ازدادت وتيرة التنمية على اختلاف أنواعها، لأن الأسرة البنية الأساسية التي تنشأ من خلالها مختلف التجمعات البشرية، وقد سعى علماء الاجتماع والأوبئة إلى تفسير الصلة الرابطة بين الصحة والمتغيرات الاجتماعية مثل الطبقة ونوع الجنس والعرق، أي أصل الإنسان وطول العمر⁽¹⁾، كما يؤدي عدم وجود توازن في توزيع البرامج الإنمائية المختلفة الجانب، والاهتمام بجهة معينة من المدينة مقارنة بأخرى، إضافة إلى زيادة نمو السكان سواءً بفعل الزيادة الطبيعية أو بعامل الهجرة نحو المدن إلى بروز ظاهرة الثنائية الحضرية التي برزت إلى الوجود مع خضوع بعض الدول للاستعمار الذي جسّد نوعاً جديداً في التعمير يتناقض مع التركيبة العمرانية التي كانت أصل البناء الحضري، كما هو موجود بمدينة الجزائر ومدينة تينوشيتلان التي حلّت محلها مدينة مكسيكو.⁽²⁾

تفادياً لوقوع ذلك الأمر لا بد من أخذ المتطلبات الأساسية لجميع نواحي المدينة بعين الاعتبار ووضع أساليب أنجع لمواجهة تلك العوائق عبر رصد الأغلفة المالية الكافية لتغطية الاحتياجات المتعددة واعتماد مخططات معمارية توجه المسار التطوري للمدينة ببعده مستقبلي وفقاً لمعطيات اجتماعية واقتصادية.

3-6 الإشكال الإداري:

1- أنتوني غدنز وكارين بيردسال، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصباغ، ط04، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، (دت)، ص: 226

2- قارني جاكلين، مرجع سابق، ص: 96-97

لاشك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلا بورقة هي شهادة الميلاد ولا تنتهي رسمياً إلا بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽¹⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدّين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

-عدم نزاهة المسؤولين ونقص خباراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.

-التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمتطلبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.

-عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرقات... إلخ، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.

-البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللازمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.

-عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباه.⁽²⁾

4-6 الإشكالات السياسي:

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27.

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158.

يؤدي العامل السياسي هو الآخر إلى عرقلة المسار التنموي بمختلف أنواعه، بما في ذلك التنمية الحضرية، باعتباره النقطة التي تنبثق منها جميع القرارات الريادية في أي دولة من الدول، من أهم ما يجعل الجانب السياسي عائقاً في تحقيق متطلبات المجتمع وبعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ما يلي:

- أحادية القرار وعدم تعدد الأفكار والرؤى فيما يخص تسيير العمليات التنموية، ما سيؤدي إلى إعلان مشاريع لتحقيق أهداف محصورة في مجال معين، كالمجال السياسي فقط، وبالتالي البقاء في نفس المشكل وضعف الوعي السياسي لدى أفراد المجتمع، الأمر الذي من شأنه إحداث تخلخل في التركيبة السياسية لدى الحكومات، مثلاً كعدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

- التبعية السياسية للدول المتقدمة التي تمارس ضغوطاً على الدول النامية من أجل إحداث اضطرابات اجتماعية واقتصادية داخل مجتمعاتها، عبر عدد من القرارات الجائرة كالحصار الاقتصادي الطويل الأمد.

- عدم فعالية السياسات المنتهجة في توجيه النشاط الذي يقوم بتعمير منطقة معينة لرفع مستواها الاجتماعي أو الاقتصادي، وذلك نتيجة افتقارها لتخطيط عقلائي مسبق مبني على أسس علمية دقيقة ذات أبعاد مختلفة، فمثلاً غياب البعد السوسولوجي من مجموعة السياسات المنتهجة يؤدي إلى عدم توافق التنمية الحضرية مع متطلبات المجتمع وتاريخه، لانبثاقها عن رؤى أجنبية تتعارض مع خصوصية المناطق محل انجاز المشاريع التنموية، الأمر الذي سيحول دون تحقيق تنمية متكاملة.

- الافتقار إلى تشريعات صارمة في مجال التعمير، وعجز أجهزة الدولة على السيطرة على التوسع العمراني، وإيجاد بالمقابل حلول جذرية مع فرض رقابة في تجسيدها للسياسية العامة الخاصة بضبط المجالات المتعلقة بالمجال الحضري والتحكم في البناء الاجتماعي للمجتمع ككل.

- عدم تبني مفهوم التخطيط الحضري عند إعداد استراتيجيات لتحقيق التنمية داخل المدن من قبل الجهات المسؤولة عند ذلك متجاهلة مفهومه على أنه وسيلة لتوجيه وضبط التوسع العمراني والتحكم في مستقبل المدن تماشياً مع فلسفة المجتمع السياسية والاجتماعية المتفقة مع تكوينه الثقافي.

-وجود فجوة واسعة بين صانعي القرار في مؤسسات المجتمع من جهة، وبين الواقع الذي يعيشه أفراد مجتمع من جهة أخرى، الأمر الذي سيؤدي في نهاية المطاف إلى انتفاع أقلية دون أخرى في المجتمع الواحد.

-افتقار السياسات الحضرية لمبدأ التنسيق المتبادل مع مختلف القطاعات وكذا لمبدأ المراقبة والمتابعة الجادة للعمليات التنموية المنفذة على أرض الواقع، بغية الوقوف على ما يعرقل حركتها ومن تم إيجاد الحلول المناسبة لها حتى لا تتعرض للفشل.⁽¹⁾

-غياب مفهوم التوازن الإقليمي وطابع الشمولية في إعداد السياسات التوجيهية للبلاد عامة كالاهتمام بالجانب الصناعي وتطويره ورصد مبالغ مالية معتبرة لتنميته، في حين تُهمل قطاعات أخرى سيؤدي إلى تنمية مناطق وقطاعات على حساب مناطق أخرى لم تمسها عملية التنمية بمختلف أنواعها، وهو الإشكال الأول الذي واجهته الدولة الجزائرية عقب استقلالها مباشرة، وأثناء استحداثها للمخططات الرباعية الأولى من سنة 1970 إلى سنة 1977.⁽²⁾

-تجاهل المشاركة الشعبية وعدم وضعها ضمن أولويات إعلان المشاريع، سيؤدي لا محالة إلى عدم بلوغ الهدف المتوخى لديهم، لذلك الاستجابة للقرارات لها تأثير وانعكاس على انجاز البرامج، فمن المعلوم أنّ أي تغيير لا يتم إلا إذا انبثق عن رغبة واقتناع من الذين يتسببون في إحداثه أو من يتأثرون به، وهم أفراد المجتمع الذين تحكمهم عادات وتقاليد تجعلهم في بعض الأحيان يرفضون كل ما هو جديد يمس بنمط عيشهم الذي ألفوه، وفي حالة إذا ما تمّ استشارتهم والتواصل معهم وإعلامهم سيؤدي ذلك من

1-آمال لبعل، آلية التسيير الحضري والتنمية المحلية، حالة مدينة بسكرة، رسالة ماجستير، تخصص علم الاجتماع، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2004، ص:44

1-بولعشب حكيمة، مرجع سابق، ص:92

دون شك إلى إزالة حجرة عثرة عن طريق التنمية الحضرية، إذ في بعض الأحيان يفضلون مشروعاً عن آخر لعلاقته المباشرة مع متطلبات واقعهم، أو أن محل إنجاز المشروع يكون ملكاً لورثة.⁽¹⁾

7- التخطيط والتنمية الحضرية:

التخطيط أسلوب تنظيمي يهدف إلى تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية بما في ذلك التنمية الحضرية عن طريق حصر إمكانيات المجتمع المادية والبشرية وتعبئتها وتحريكها نحو تحقيق أهداف المجتمع وغاياته، ويُعرّف كذلك على أنه الطريقة العقلانية والمنظمة في صنع القرارات وحل المشاكل.⁽²⁾

لقد ربط المخطط الأمريكي أولستد "Aulested" التخطيط بالتوجيه والإشراف السليم للنمو الطبيعي الكامل للمدن، لأنه السبيل الوحيد للتغلب على المشاكل المختلفة الجانب كالحمد من مشكلة تكدس السكان بجهة دون الأخرى في المدينة الواحدة، وأن كل مدينة عليها عاجلاً أم آجلاً الاعتراف بضرورة استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة و أيضاً الأسلوب السياسي والنمط الاقتصادي السليم.⁽³⁾

7-1 مبادئ التخطيط: لا شك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته

رسمياً إلا بورقة هي شهادة الميلاد ولا تنتهي رسمياً إلا بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽⁴⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية

2- المرجع نفسه، ص: 27

3- جيمس آرشيرومان، التخطيط أول خطوات النجاح، ترجمة محمد طه علي، مؤسسة الريان، الرياض، 2010، ص: 22

4- حكيمة بولعشب، مرجع سابق، ص: 40

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27

التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

- عدم نزاهة المسؤولين ونقص خبراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.
- التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمتطلبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.
- عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرق... إلخ، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.
- البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللازمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.
- عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباه.⁽¹⁾

4-6 الإشكال السياسي:

لبلوغ أهداف التنمية الحضرية عبر التخطيط، لا بد من الاعتماد على فكريتي العملية والبرنامج باعتبارها أي التنمية الحضرية ستحدث تغير اجتماعي واقتصادي وحتى ثقافي بالمجتمع، إذ لا يعقل أن تنتج من العدم، لذلك يجب أن يكون للتخطيط قواعد ومبادئ ينطلق منها تتمثل في مايلي:

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158

- أن تكون أجهزة التخطيط في المجتمع الحضري ذات مقدرة على الاقتراح لتجاوز الصراعات في عملية التخطيط.

- أن يكون في ذهن المخططين المحليين أن رفاهية المجتمع المحلي جزء من رفاهية المجتمع ككل وأن الرفاهية العامة هي الهدف الأول لعملية التنمية الحضرية، إضافة إلى اعتبار التخطيط الاجتماعي القاعدة التي تنبعث منها كل أنواع التخطيط لأن المجتمع هو الفاعل الرئيسي في تحريك وتيرة التنمية.

- أن تكون الأجهزة المسؤولة قادرة على التنسيق بين المجالات المختلفة التي لها علاقة وطيدة بالحياة الحضرية.⁽¹⁾

7-2 أنماط التخطيط:

ينقسم التخطيط الذي يُعنى بتنظيم المجال الحضري داخل المدن إلى نوعين يتمثل الأول في التخطيط المكاني والثاني يتمثل في التخطيط الاجتماعي، وهما متداخلان فيما بينهما خاصة على المستوى المحلي لأن استخدام الأرض وتحديد الجانب المورفولوجي للبناء يتماشى وفقا لقيم المجتمع وطريقة عيشه ومن أنماطه الأخرى التخطيط الإصلاحي الذي يهتم بإصلاح وعلاج المشاكل العالقة بالمجتمع الحضري، كتهيئة شبكة المواصلات، تقريب الإدارة من المواطنين... إلخ، أي أنه يهتم عموما بعلاج النقائص المتواجدة داخل المجال الحضري، وهناك التخطيط الإبداعي الذي يتّصف بطابع الشمولية ويعمل على إيجاد مناطق حضرية جديدة بجميع مرافقها الحيوية الضرورية وفق قالب حديث يأخذ بعين الاعتبار مبدأ التنمية المستدامة للمجتمع، يرى بعض علماء الاجتماع أن التخطيط الإصلاحي مقدمة ضرورية للتخطيط الإبداعي.⁽²⁾

1- محمد علي محمد، دراسات في التنمية والتخطيط الاجتماعي، دار النهضة العربية، لبنان، 1986، ص: 299

1- بولعش حكيمة، مرجع سابق، ص: 41

3-7 دور التخطيط في التنمية الحضرية:

تتمثل حقيقة التخطيط في كونه عملية ذات طابع اجتماعي بالدرجة الأولى، وإذا كانت هذه حقيقة فهذا يعني أنه ينطلق من الواقع الاجتماعي متجها نحو المستقبل، أي من الوجود الفعلي إلى الوجود الذي يحسن من وضعية أفراد المجتمع وفي جميع حاجاتهم، ينحصر دوره فيما يلي:

- يعمل التخطيط على تنظيم البرامج والتنسيق فيما بينها، ما سيوفر الجهد والوقت والتكاليف ويضمن سلامة التنفيذ.

- يوازن التخطيط بين الموارد المتاحة والاحتياجات التي يتطلبها أفراد المجتمع، ويعمل على استخدام الإمكانيات بأقصى طاقتها، وعلى أحسن وجه، دون أن يترك قطاعات معطّلة ومجالات للإسراف.

- يعمل التخطيط على دقة التنبؤ بالنتائج وما يكتنفها من صعوبات يعالجها بالدراسة والفهم معتمداً في ذلك على أسس علمية في البحث والتحليل والتقييم الصحيح، كما يعمل على تطوير المناهج والطرق التي تكفل تجسيد أهداف التنمية الحضرية.

- يقوم بتكليف القرارات السياسية بما يخدم أهداف عملية التنمية الحضرية لمنع حدوث دون تصادم بينهما ينجم عنه عدم تلبية ما يتوخاه أفراد المجتمع من الطبقة السياسية، لذلك يتم قبل الإعلان عن أي برنامج سياسي مسبقاً وضع تخطيط عقلائي عبر جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضرية بما يتناسب وواقع المجتمع كمستواه الثقافي وميولاته وأهم النقائص التي توجد في كيانه.

- يساعد التخطيط في الاستفادة من كل الطاقات البشرية المتاحة للعمل بها، كالأخذ برأيها ومشاركتها في اقتراح الخطط التنموية التي لها علاقة مباشرة بمصلحة المواطن.⁽¹⁾

تزداد أهمية التخطيط الحضري بالمدن مع كبر حجمها وتفاقم المتطلبات، فمثلاً تظهر الحاجة إلى مراكز للترفيه ومراكز للعلاج والتمدن، الحد من التلوث بشتى أنواعه سواء كان بيئي أو وضائحي

1- محمد عبد الفتاح، التنمية الاجتماعية من منظور الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، 2005

أي ما يصدر من أصوات مزعجة ناجمة سواءً عن السيارات أو ورشات الصناعة، وتنظيم شبكة المواصلات لتسهيل حركة تنقل الأفراد والبضائع داخل المدن وحتى خارجها باتجاه الموانئ.⁽¹⁾

إذا ما تكوّنت المدن من دون تخطيط مسبق يوضح مسار الرؤية المستقبلية لنمو المدينة، ستعترض عملية التنمية الحضرية مجموعة من المشاكل، وبالتالي ستعجز على تجسيد أهدافها على أرض الواقع ما سيؤدّي في نهاية المطاف إلى انتشار الأحياء المتخلفة، وحدوث نقص في تلبية مطالب السكان والتخبّط بنفس المشاكل، وحتى ما إذا أعلنت برامج تنمية فإنها لن تخضع لمبدأ الشمولية وستعني بجانب واحد دون الجوانب الأخرى يتمخض عنه خلل في التركيبة المورفولوجية للمدينة.

نتيجة لهذه الأهمية، فرض التخطيط الحضري نفسه على جميع الإدارات التي أوكلت لها مهمة توزيع وترتيب استعمال الراضي سواءً كانت في دول متخلفة أو متقدّمة باعتباره علم وفن، إذ من خلاله تكتسب المدينة ككل صورة متجانسة ومنظمة، لذلك أصبح لزاماً على القائمين على تنظيم المدن القيام بعملية تخطيط دقيقة مسبقة وفق دراسة معمّقة ومختلفة الجوانب حول التركيبة الديموغرافية والإمكانيات الاقتصادية المتاحة والجانب الثقافي أيضاً عبر اطلاعه على الماضي ومكوناته للتعرف على ماهيته ومن تم ربطه بالتقدم العلمي والثقافي السائد حالياً في المجتمع ليكتمل المشروع الحضري من جميع جوانبه.

8-لمحة عن التأثيرات العامة للتنمية الحضرية على المدن العتيقة:

يجسد الموروث الثقافي المادي علاقة بين ماضي الأمم وحاضرها، إذ يعد شواهد ملموسة عمّا أنجزه الأسلاف في جميع الجوانب الحياتية سواءً كانت عمرانية أو اجتماعية أو اقتصادية، لأنها لم تكن مجرد قشرة فارغة فقط، لكنها كانت وعاءاً صبّ فيه المعماري المسلم خالص عبقريته في البناء، حتى ينعم

2-حسن عبد الحميد أحمد رشوان، التخطيط الحضري، مركز الإسكندرية للكتاب، 2005، ص: 77

ساكنه بالراحة والأمان، وقد تحدّث عبد الرحمن بن خلدون عن ذلك مشيراً إلى أن البناء هو أقدم الصنائع التي عرفها الإنسان فوق ظهر هذه البسيطة، وهي تعني معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان⁽¹⁾، ومن بين العمليات المرادفة لمسار الإنسان في الحضارة هو الانتقال من وضع إلى وضع، فقد ولد ونمى معه ورافق وجوده منذ البدايات الأولى في جميع المجالات، لذلك يمكن اعتباره سنة من سنن الحياة، فلولاها لما انتقل الإنسان من طور البداوة إلى طور الحضارة، ولما وصلت إلى ماهي عليه اليوم، هذا الأمر هو ما دفع عبد الرحمن بن خلدون إلى تشبيه المسار الحضاري بعمر الواحد منا، يتغير ويتبدل مع توالي السنين، فكما يولد الإنسان طفلاً لا يفقه شيئاً، ثم يبدأ في اكتساب المعارف والتعلم مما يحيط به إلى أن يبلغ سن الأربعين فتزداد قوته ويرجح عقله، ومن ثم يتوقف نموه برهة من الزمن ليبدأ في التقهقر والانحطاط⁽²⁾، من هنا تتأكد ملازمة التغير للحضارة.

ولكون المدن العتيقة جزءاً لا يتجزأ من البناء الحضاري وفضاء ذي ميزة اجتماعية وثقافية خاصة، فقد تأثر تأثراً مباشراً بالتغير الذي نتج عن طموح المجتمع المدني في الحصول على مرافق وخدمات وأسلوب معيشي جديد يلي حاجياتهم اليومية⁽³⁾، ولتحصيل ذلك عمد صانعوا القرار اتباع طريق جديد يسمى بالتنمية الحضرية التي تعتبر نمطاً حياتياً وتعبيراً مادياً للطموح اللامتناهي للإنسان في حياة أفضل، وهي تعتمد في الحصول على أهدافها وبناء هيكلها على التخطيط المبني على الأفكار والقرارات التي تُترجم إلى مشاريع تنموية، وفقاً للإمكانيات المتاحة والاحتياجات السكانية الموجودة على أرض الواقع، وهي بذلك عبارة عن طريق معبّد يعكس جانب مهم من الحضارة، عبر تحقيق مستوى معين من الرفاهية وإحداث ديناميكية اجتماعية وثقافية واقتصادية ومعمارية داخل المدينة.

1- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص: 509

2- المصدر نفسه، ج1، ص: 465

3- بولعشب حكيمة، مرجع سابق، ص: 02

عكست هذه المعطيات ما للتنمية الحضرية من دور فعّال وإيجابي في تحسين المستوى الاجتماعي والثقافي بالمدن على اختلاف أصولها الجغرافية ومذاهبها الدينية، وذلك عبر ما يتحقق بموجبها من متطلبات تتماشى في سياق واحد مع الوقت الراهن كالحصول على سكن فردي والعلاج في المستشفيات والتعلم في المدارس والجامعات والتنقل بوسائل نقل سريعة ومريحة، والتزود بالماء الشروب والإنارة وقنوات الاتصال السلكي واللاسلكي. بالرغم من هذه الميزات التي تقدمها لسكان المدن، لكنها سيف ذي حدين، فقد أدّت إلى استقطاب عدد كبير من أصحاب الأرياف رغبة منهم في الحصول على الامتيازات السالفة الذكر، الأمر الذي أدّى إلى بروز عدد من السلبيات المتمثلة في ظهور الأحياء العشوائية لضيق الوعاء العقاري وانتشار أماكن رمي القمامة بالطرق العامة وأماكن البيع، وعجز المستشفيات والمدارس وعدد من مراكز الخدمات الأخرى على احتواء العدد المتزايد من السكان⁽¹⁾، ولم ينته الوجه السلبى للتنمية الحضرية عند ذلك فقط، بل تجاوزه إلى حدّ إهمال التراث الثقافي الذي يشاركها الفضاء العمراني، حيث وضعت في خانة النسيان.

أمام هذا الوضع حدث اصطدام بين الأصالة والمعاصرة، لأنه لم يعد مفهوم الشواهد المادية مجرد بقايا متناثرة هنا وهناك من دون قيمة، فقد سَطَّر لها إطار قانوني يكفل حمايتها لأنها بمثابة أداة فعالة في بعث التنمية بمختلف أنواعها من ثقافية واجتماعية واقتصادية، فضلاً أنها تشكل الهوية والمرجع الذي يكون الشخصية العامة للأمة ككل، إلا أن كفة الميزان رجحت لصالح التنمية الحضرية التي شهدت انبعاشاً مع بروز الثورة الصناعية في سنة 1760م ببريطانيا، وشهدت من خلالها دول أوروبا تغييراً عميقاً في أسلوب معيشتها نظراً للاكتشافات التي توصل إليها المهندسون كالمحرك البخاري وآلات غزل لاشك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلا بورقة هي شهادة الميلاد

1- ليليا حفيظي، المدن الجديدة ومشكلة الاسكان الحضري، دراسة ميدانية بالوحدة الجوارية رقم 07 المدينة الجديدة علي منجلي، مذكرة ماجستير تخصص علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، ص: 59

ولا تنتهي رسمياً إلا بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽¹⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

- عدم نزاهة المسؤولين ونقص خبراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.
- التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمطالبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.
- عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرق... إلخ، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.
- البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللازمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.
- عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباه.⁽²⁾

4-6 الإشكال السياسي:

الصفوف ونسجه وتنقية الحديد والصلب باستخدام الفحم بدلاً من الخشب⁽¹⁾، وبالمقابل مع ذلك لم تظهر أول التفاتة لحماية التراث إلا مع مجيء سنة 1863م، والتي تمثلت في قانون ليير ثم بدأت تُعلن

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة

الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27.

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158.

بعض الاتفاقيات الدولية كاتفاقية لاهائي سنة 1899م و1907م، وكانت في مجملها تكملة للقانون الأول.⁽²⁾

وحسب دراسة أُعدت حول المدن العتيقة بالعالم العربي، فقد تبين أنها فقدت أكثر من 70% من نسيجها المعماري العتيق خلال العقود الخمسة الأخيرة من القرن المنصرم⁽³⁾، بفعل سياسة التجديد الحضري، المنبثقة كما سلفت الإشارة عن ظهور الثورة الصناعية التي قلبت المفاهيم عبر مختلف المجالات سواءً الاقتصادية منها أو الاجتماعية أو الثقافية، مما سيؤدي لا محالة إلى زوال 30% المتبقية إن لم تدركها اليد الماهرة والعقل الواعي قبل فوات الأوان، وتتنحصر أهم انعكاسات عملية التنمية الحضرية على المدن العتيقة فيما يلي:

8-1 على المستوى العمراني:

تميزت المورفولوجية العمرانية بالمدن العتيقة سواءً بالمشرق أو بالمغرب الإسلامي بميزة خاصة، وهو ما ذكره جرونبايم Grunebaum عند تحدّثه عن النمط العمراني بالمدن الإسلامية في كافة أرجاء العالم الإسلامي، مشيراً إلى الأحياء السكنية المسوّرة وإلى نظام البوابات التي تغلق الأحياء في الليل وإلى عدم وجود ساحات مفتوحة أو ميادين داخل المدينة، في حين يفتح فضاء بالمساكن⁽⁴⁾، ما يوضح حرص المعماري المسلم على تجسيد مبدأ الخصوصية، وإضفاء أكبر قدر من الأمن على النسيج المعماري الداخلي عبر استحداث ممرات منعرجة وضيقة، لكن مع بروز التنمية الحضرية كعملية إنسانية ذات أبعاد اجتماعية ومعمارية هبّت رياح التغيير على الموروث المعماري، وكان لهذه العملية رغبة جامحة لاقتلاع

1- روبرت سي آلن، التاريخ الاقتصادي العالمي مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد سعيد طنطاوي، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص:36

2- حبيبة بوزار، واقع وآفاق الحماية القانونية للتراث المادي الأثري في الجزائر، ولاية تلمسان دراسة حالة، دراسة قانونية، مذكرة ماجستير تخصص فنون شعبية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2008، ص:04

3- نعيم الطاهر، إلياس سراب، مبادئ السياحة، دار المسيرة، ط1، الأردن، 2001، ص:281

1- صالح الهذلول، مرجع سابق، ص:20

جذور كل ماله علاقة بالتراث، وطمس معالمه والبدء من نقطة الصفر، أو حسب تعبير الفيلسوف النمساوي كارل بوبر Karl Popper تنظيف الخيمة وإفراغها من كل محتوياتها القديمة⁽¹⁾، وكأمثلة عن المدن التي عانت من تبعيات هذه العملية مدينة الدمام بالمملكة العربية السعودية، إذ نمت عمرانها وفقاً لمنظور غربي في وقت كانت فيه بلدة صغيرة ذات تخطيط معماري إسلامي يزاوّل سكانها حرفة صيد الأسماك، حدث هذا التغيير بعد اكتشاف حقول البترول بالقرب منها، وانفجار ثورة صناعية دفعت ببعض الشركات المنقبة هناك كشركة الزيت العربية الأمريكية أرامكو Aramco إلى نصب مساكن جاهزة بدءاً من سنة 1938م لفائدة العمال⁽²⁾، الأمر الذي أدى إلى تكوّن نواة حضرية خارج أسوار المدينة بنمط معماري غربي شطرنجي الشكل.

مثال آخر عن المدن العتيقة التي توسع عمرانها خارج أسوارها، ولكن هذه المرة ليس بالمشرق الإسلامي إنما بالمغرب الإسلامي، بالتحديد مدينة وجدة المتاخمة للحدود الجزائرية، تكوّنت نواة هذه المدينة على يد زيري بن عطية المغراوي سنة 348هـ/994م في صورة تجمع سكاني محاط على غرار المدن العتيقة بأسوار تفتتح بها أربعة أبواب⁽³⁾.

لم تتغير مورفولوجية هذه المدينة من منطلق اقتصادي كما حدث بمدينة الدمام، لكنها تغيرت بعد خضوعها كباقي مدن المغرب الأقصى للحماية الفرنسية، فقد ارتقت إلى مستوى بلدية سنة 1915م ما شجّع المعمارين على السكن فيها وتنافسهم على شراء القطع الأرضية التي ارتفع ثمنها من 10 و15 فرنك للهكتار إلى 125 و175 فرنك للهكتار، كما أدى هذا التوافد المكثف إلى حدوث نمو ديمغرافي ضاق به حجم المدينة، فعمد المستعمر الفرنسي على تحطيم السور الدفاعي بالجهة

2- المرجع نفسه، ص: 30-06

3- فايز محمد العيسوي، مدينة الدمام - دراسة في النمو السكاني والعمراني، المجلة الجغرافية العربية، العدد 24، الجمعية الجغرافية العربية مصر، 1992، ص: 111

4- الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ج2، ص: 12

الغربية، وبناء عدد من المساكن لاستيعاب الحجم المتزايد للسكان، ثم تتابعت عمليات الهدم والبناء، إذ مع مجيء سنة 1931م قامت السلطات الفرنسية بهدم السور الشمالي لتمرير طريق من هناك ورافق هذا المشروع بناء سكنات على طول الطريق تحولت إلى امتداد عمراني من تلك الجهة فيما بعد.⁽¹⁾

توالى عمليات التمدن بالمدينة واستولى النمط المعماري الغربي على مركز المدينة عقب إنشاء بنك المغرب والمحافظة العقارية ودار البلدية ومصلحة البريد، والمستشفى وثانوية الفتيات، أمام هذا الوضع انحصر النسيج المعماري العتيق لمدينة وجدة في مجال ضيق مربع الشكل لا يتجاوز طول ضلعه 400م، وبرزت ثنائية حضرية مكوّنة من نواتين، واحدة شكلها شطرنجي بالشمال والغرب، والثانية صغيرة الحجم بطراز معماري إسلامي.⁽²⁾

لم تكن المعالم التاريخية المكوّنة للنسيج الحضري بالمدن العتيقة أو المواقع الأثرية التي جسّدت في وقت من الأوقات نشاطاً إنسانياً في مجال معين مجرد مكان للمأوى أو العمل أو الحراسة، بل هي مرآة عاكسة وشاهد حي عن بيئة عمرانية متوازنة، ناتجة عن قيم ذات بُعد إسلامي محض حدّدت المفهوم الاجتماعي لدى سكان المدينة، لقد تمثّل ذلك المفهوم في تحقيق نوع من القرابة والتواصل بين السكان سواء أثناء تأدية الصلوات في المساجد أو نشاطاتهم في ورشاتهم العرفية.⁽³⁾

من المظاهر الأخرى التي نتجت عن التنمية الحضرية وأثّرت على النسيج المعماري للمدن العتيقة اجتماعياً، زوال الأنشطة الحرفية التي كانت مرآة عاكسة للترابط الوظيفي بين السكان ومبانيهم وأحيائهم، وكذا العمود الفقري لاقتصاد المدينة الإسلامية سواء بالشرق أو بالمغرب.

1- عبد القادر أسباعي، هشام لسكع، مصطفى فتان، مدينة وجدة التطور البيئي وتوجهات التهيئة، الملتقى الوطني الثالث والعشرين

حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبد اللطيف معزوز، الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، ماي 2012، ص: 344-346

2- المرجع نفسه، ص: 346

1- شذى عباس حسن، التواصل المعماري والحضري للتراث العربي الإسلامي، مجلة المخطط والتنمية، العدد 25، جامعة

بغداد، 2012، ص: 79

تعرّضت مدينة فاس لمثل هذا المظهر الجديد بعد أن كانت من الحواضر المرموقة في مختلف المجالات منذ أن أسسها إدريس الثاني في القرن 193هـ/808م لتكون دار إقامته⁽²⁾، يتميز عمرانها الحضري بوجود توافق بين النشاطات الحرفية والعمائر الدينية والمدنية، وقد ابتعد البعض منها عن المساكن والمساجد لتفادي حدوث أي ضرر كانبعث الروائح وحدوث الاهتزازات والأصوات المزعجة، ما سيعزز من تجسيد مبدأ الخصوصية، ويسمح بتوفير أكبر قدر من الراحة للسكان تساعد على تأدية واجباتهم الدينية والدنيوية، لكن مع استجابة هذه المدينة لمتطلبات التنمية الحضرية انبثق نمو معماري وتغيير اجتماعي، وبرزت تجمعات سكنية جديدة بنمط غربي يعتمد على الشكل الشطرنجي، الأمر الذي أدّى إلى إهمال المدينة العتيقة، وهجرها من طرف السكان لأنها لم تعد تلبي متطلباتهم، وبالموازاة مع ذلك تراجع الاهتمام بالنشاط الحرفي، إذ حلَّ محلّه نشاط جديد يعتمد على الآلات الميكانيكية، وكذا العمل في قطاعات أخرى كالتعليم والصحة والنقل... إلخ، ليصبح إجمالي ما تتضمنه المدينة العتيقة من النشاط التجاري والصناعي الحديث حوالي 60%⁽³⁾، نجمت هذه النسبة عن تحلي العديد من العاملين في الصناعات الحرفية عنها لأنها محدودة الدخل، إذ لم يعد بمقدورها توفير ما يحتاجه العامل فيها من متطلبات العيش لقلّة الإقبال عليها، نتيجة غزو السلع والمنتجات الأجنبية للأسواق الداخلية، لكن في خضم كل ذلك، تبقى القيمة الحقيقية للصناعات الحرفية في الدلالة الثقافية والاجتماعية التي وضعها فيها الأسلاف قديماً.

8-2 على مستوى المحيط:

تتماشى الشخصية المحلية للمعالم التاريخية والمواقع الأثرية مع البيئة التي تحيط بها، فقد استطاعت التكيف معها، وتكوين جوٍّ ملائم يضمن الراحة الجسدية والنفسية والبصرية لمن يسكنها، محققة في نفس

2- أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص: 115-116

3- إبراهيم عبد الباقي، تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية مصر، 1982، ص: 123

الوقت مبدأ الخصوصية أحياناً، ومبدأ التعايش مع أفراد المجتمع أحياناً أخرى، وهو الأمر نفسه بالنسبة للمدينة ككل، إذ نجد أنها تعتمد في بعض المرات على نفسها في توفير ما يحتاجه السكان من مأكلا ومشرب وملبس، وفي حالة عجزها عن ذلك تحتك مع المدن المجاورة عبر التجارة، وقد انقسمت البيئة إلى نوعين الأولى طبيعية والثانية مصطنعة.⁽¹⁾

وافق ظهور النمط الغربي في الإعمار وانتشاره بشكل مكثف في عمليات التنمية الحضرية بروز عدد من النتائج السلبية المتمثلة في التلوث، ففي الوقت الذي كانت فيه العمارة الإسلامية صديقة للبيئة تستمد أسباب بقائها منها، تغير الوضع بينهما وبرز صراع كانت فيه الغلبة للتلوث بمختلف أنواعه، هذا الأخير الذي يعد انعكاس مباشر لأنانية الإنسان في الحصول على ما يريده من رفاهية وطغيان مصالحه الفردية وقلة تبصره للأمر، فهذا هو اليوم يعقد المؤتمرات لاستدراك ما يمكن استدراكه، بعدما طفت إلى السطح العواقب الوخيمة للطريق الذي سلكه بالأمس، لتحقيق تطلعاته المختلف الطابع كالمعمارية والاجتماعية والاقتصادية، حتى يستطيع تكييف الطبيعة وفقاً لاستعداداته الجسمية والعقلية لضمان إطار معيشي مريح.⁽²⁾

تمكّن مخططوا المدن العتيقة قديماً بامتياز تشكيل مجال حضري بأسلوب حضاري، فقد أولوا اهتماماً للعمائر الدينية والمدنية والعسكرية، على حدّ السواء من دون إلحاق الضرر بالبيئة الطبيعية التي تحيط بهم أو البيئة الحضرية التي تتضمن جميع نشاطاتهم التجارية والصناعية، ما يؤكد حرصهم البالغ على تجسيد مبدأ الاستدامة في جميع مجالات الحياة، وهو المبدأ الذي ساعدهم على تسجيل وجودهم في الحضارة الإنسانية لمدة زمنية طويلة، ومهما أضفوا من تعديلات على البيئة التي اختاروها دار إقامة لهم، لكنها جاءت متوافقة فيما بينهما ولم تتضرر بها عناصر البيئة كالمياه والغطاء النباتي، لأن هذه

1- صالح العربي، البيئة الحضرية اخل الأنسجة العمرانية العتيقة والتنمية المستدامة، حالة قسنطينة، مذكرة ماجستير، تخصص

التسيير الإيكولوجي للمحيط الحضري، معهد تسيير التقنيات الحضرية، جامعة المسيلة، 2009، ص: 55

2- المرجع نفسه، ص: 59-69

الأخيرة كانت بمثابة المقومات الأساسية لعيشهم، وهو ما أتى على ذكره ابن الربيع في كتابه سلوك الممالك في تدبير الممالك على التمام والكمال، حيث حدّد ستة شروط لإنشاء بيئة حضرية مستدامة تفي بحاجيات السكان كلها تنبثق عن الطبيعة⁽¹⁾، لذلك بقيت متوازنة بالرغم من عمليات التمدن التي خضعت لها، خصوصاً أن هذه العمليات كانت تتم من منطلق ديني، وتتجسد أشكالها المعمارية من مواد البناء التي توجد في الطبيعة التي تحتضنها، فمثلاً بُنيت أغلب العماثر بالمغرب الإسلامي من مادة الطابية لوفرتها وسهولة الحصول عليها.

تعرّضت المعالم الأثرية والمواقع التاريخية إلى نوعين من التلوث، يتمثلان في الغير مادي والمادي، وينقسم النوع الأول إلى صنفين البيئي والبصري، وهما متقاربان في حدّة التأثير، ويتمثل الصنف الأول في انبعاث الغازات التي دخلت إلى رئة الموروث المادي قبل رئة الإنسان نفسه، وقد نتج عن احتراق وقود المركبات الميكانيكية والنشاطات الصناعية بالمصانع كمصنع الإسمنت وحرق النفايات... إلخ، إضافة إلى ذلك نتج هذا النوع من التلوث عن احتباس الجسيمات السّامة داخل المساكن كدخان السجائر، والغازات المنبعثة من المواقد والأفران⁽²⁾

أما الصنف الثاني فيُقصد به ضياع القيمة التاريخية والفنية والاجتماعية التي أوجدها المعماري المسلم في المباني لأنهم لم تكن فقط مجرد كتل من الآجر والحجارة والطابية الصمّاء لا توحى بأي شيء، بل هي المستوى الفكري الذي كان سائداً⁽³⁾، وبالنسبة للنوع الثاني المتمثل في التلوث المادي فينحصر أساساً في النفايات الصناعية، أو كما يسميها البعض بالمخلّفات الصلبة، وهي كل ما يتنج عن نشاط الإنسان

1- شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، مصدر سابق، ص: 152

2- صالح العريبي، مرجع سابق، ص: 71

1-Islam Benarbia, L'évaluation de La Valeur Esthétique des Monuments Historiques, Cas de La Grande Mosquée de Nédroma, Mémoire de Magistère en architecture, option ville, patrimoine et urbanisme, département d'architecture faculté de technologie, université de tlemcen, 2012, p: 15

في قيامه بنشاط صناعي، أو غيره من بقايا المصانع كالتقطع الحديدية والمرافق العمومية كالأسواق وأماكن الذبح... إلخ، وكذا القمامة الناتجة عن الاستهلاك اليومي للأسر، حيث تتكدس بصورة متكررة في دروب وأحياء المدن العتيقة، مكوّنة بذلك انطباعاً سيئاً، وصورة أفقدت الموروث المادي أصالته وجمالية مظهره الخارجي، ناهيك عن الروائح الكريهة الناتجة عن تعفنها، ويزداد حجم تأثير هذا النوع من التلوث بالمدن العتيقة أكثر من المدن حديثة التصميم، بسبب الكثافة السكانية العالية، وضيق الدروب وتعرجها وانحدارها الذي يصل في بعض الأحيان إلى 30%، وهو ما صعّب من عمليات جمع القمامة والتخلص منها، كما تأثرت قنوات الصرف الصحي التي كانت مهياًة لحجم معين من السكان بالمدن العتيقة بسبب الضغط العالي الناتج عن ارتفاع عدد السكان ما أدّى إلى تسرب المياه منها إلى الخارج⁽¹⁾، محدثة بذلك رطوبة ترتقي إلى الأعلى بواسطة الخاصية الشعرية Remontée Capillaire، ينجر عنها أضرار جسيمة تصيب الجدران والأعمدة والزخارف، إذ تُضعف مواد البناء وتُسقط طبقاتها الخارجية بفعل تزهّر الأملاح الناتج عن جفاف مياه الرطوبة، وحين يتم ذلك يكون قد اختفى جزءٌ مهم من أصالة الشواهد الأثرية لتصبح مجرد أمكنة لا قيمة لها⁽²⁾، هذا المظهر الجديد من التلوث لم يكن معروفاً بالمدن العتيقة، فعلى سبيل المثال لا الحصر قام عبيد الله المهدي ببناء مدينة المهديّة إلى جانب مدينة الزويلة، وجعل منها داراً لإقامته، بينما أسكن رعيته بمدينة الزويلة، وأبقى على نشاطاتهم بالمدينة التي سكنها، حرصاً منه على تجسيد مبدأ الراحة النفسية لهم وتهيئة جوٍّ ملائم يساعدهم على الإنتاج⁽³⁾.

1- صالح العربي، مرجع سابق، ص: 71

1-Estel Colas, **Impact de l'humidité et des solutions saline sur le comportement dimensionnel de grès du Buntsandstein: contribution à la sélection de faciès de restauration**, thèse du doctorat, discipline : Biosciences Ecole doctorale sciences Technologie santé, université de Reims Champagne-Ardenne, France 2011, p:34-53

3- زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (دت)، ص: 94

لم تخرج منطقة تلمسان عمّا خضعت له المناطق الأثرية بالعالم العربي، فقد تعرضت مدنها التاريخية المأخوذة كعينات للدراسة لتأثيرات مختلفة، أفقدتها جزءاً معتبراً من تراثها المادي وقطعت تواصلها الحضاري هذا الواقع تجسّد نتيجة أسباب تمثّلت أساساً في العامل التاريخي الذي فرضته السياسة الاستعمارية بحجّة تحديث النسيج المعماري، لأنه لم يتلائم مع النمط المعيشي الذي اعتاد عليه، ولم يخدم أيضاً مصالحه وأهدافه العسكرية التي تستدعي التنقل في أحيائها لإحكام القبضة جيداً، إضافة إلى العامل الاجتماعي المتمثل في تزايد عدد سكان مدنها التاريخية، إما نتيجة نمو طبيعي بفعل المواليد الجدد، أو نتيجة الهجرة إليها لاحتوائها على ظروف معيشية لائقة، وما زاد الطين بلّة هو الإغفال الإداري وإعداد مخططات تعميمية لا تتوافق مع ما تنص عليه حماية التراث المادي المنصوص عليها في القانون 04/98 كما سلفت الإشارة إلى ذلك، خاصة أن العامل الثقافي المتمثل في ظاهرة العولمة المعمارية، قد ترسّخ في فكر جيل المعماريين القائمين على إنجاز المشاريع التنموية والمرافق الخدماتية بالمدن.

خلاصة الفصل:

من خلال ما تمّ التعرّض له في هذا الفصل الموسوم بمهاية التنمية الحضرية، تبين أن الإنسان تعلم مبادئ التحضر مع بدايات وجوده على هذه المعمورة، وهو يعني الرغبة في تحسين المحيط واستحداث تكيّف مقصود مع الطبيعة أوهو التغيّر العمدي الذي يحدثه الإنسان وهو عامل أساسي لحصول عملية التنمية بمختلف أشكالها في المجتمعات التي من أنواعها التنمية الحضرية التي تشير لطريقة العيش والحياة المميزة لأهل المدن المنبثقة عن الخصائص الثقافية والاجتماعية السائدة في المجتمع، وهي تنقسم إلى قسمين، القسم الأول مادي، ويتمثل في العمائر وطرق تشييدها وكيفية إعداد شبكة الطرقات واستحداث المراكز الخدماتية، أما القسم الثاني فهو الغير المادي، ويتمثل في الجانب الثقافي والاجتماعي الذي يوجه أسلوب العيش.

وكتعريف شامل للتنمية الحضرية يمكن القول أنها صورة من صور الحضارة في شقّها المادي والمعنوي، ومرتبة من مراتبها وانتقال من نمط قائم من أنماط الحياة إلى نمط آخر.

تنحصر عوامل ظهورها بصفة عامة في العامل التاريخي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي ولكونها عملية إنسانية بالدرجة الأولى، فقد حملت ميزات نذكر منها أنها عبارة عن سلوك اجتماعي له طريقته الخاصة وسماته التي تميّزه، وهي تتناسب تناسباً طردياً مع عدد السكان، إذ كلما زاد عدد السكان كلما ازدادت وتيرتها، ضف إلى ذلك تتميز بكونها عملية عقلية يُخطط لها مسبقاً ثم تُجسد على أرض الواقع، كما أنها تعتبر عملية داخلية ذاتية، أي بؤادر وجودها تنبثق عن الحيز الذي توجد فيه، وفي بعض الأحيان تشكل بعض العوامل التي تكون سببا في ظهورها عائقا يحول دون تجسدها بالمدينة، فمثلا العامل الاجتماعي بظاهرة النمو الديموغرافي المفرط، يقف حجرة عثرة أمام المشاريع التي تنجز، إضافة إلى ذلك هناك العامل الاقتصادي الذي له ارتباط وثيق بعملية التنمية الحضرية والعامل السياسي الذي ينعكس سلباً إذا ما تم العمل بأحادية القرار وعدم الأخذ بمشورة المختصين، ولتجنب ذلك لا بد أن تتوفر الإمكانيات المناسبة لذلك، وأن تسبق عملية التنمية الحضرية تخطيط مسبق، وهو

الفصل الثاني

مسار التنمية الحضرية في منطقة تلمسان إبان الفترة الاستعمارية

(1842-1962).

1- التراكم الأثري في منطقة تلمسان

2- المشاريع التنموية الحضرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي بمدينة تلمسان وندرومة

وهنين

1-2 بداية الاحتلال الفرنسي لمنطقة تلمسان

2-2 السياسة العمرانية الفرنسية في منطقة تلمسان

1-2 -2 مدينة تلمسان

2-2-2 مدينة ندرومة

3-2-2 مدينة هنين

تمهيد:

تعتبر المدن على اختلاف أصولها الجغرافية ومرجعياتها الدينية المهمد الذي تتعرض فيه طفولة الحضارة وتبنى فيه المجتمعات، إذ لم تشهد الإنسانية حضارة راقية وتنظيماً اجتماعياً محكماً إلا بعد تكوّن المدن مثل مدينة سومر بالعراق وأثينا باليونان، وذلك بحكم ما لها من دور استراتيجي في استقرار الإنسان وخلق تعايش بينه وبين المحيط الذي يزاوّل فيه جميع نشاطاته الدينية والدينيوية⁽¹⁾، وبالرغم من تشابهها في الهدف الذي أنشئت من أجله والمتمثل في تكوين إطار حضاري يستجيب لمتطلبات ساكنيها فإنه يبقى لكل واحدة منها خاصية تنفرد بها تنبع عن طبيعة التفكير الإنساني الموجود فيها لذا فإن ما تتضمنه من مبان تعكس تماماً طريقة التفكير السائدة عند مؤسسها ومخططيها⁽²⁾، من هذا المنطلق أمكن القول أن المدن خلاصة تاريخ الحياة الحضرية وأصدق صورة عن مراحل القوة والضعف اللذين مرت بهما في فترات حياتها.⁽³⁾

على غرار مدن العالم لم تكن المدن الإسلامية سواء بالشرق أو المغرب الإسلامي مجرد كيانات سياسية خاضعة لسلطة الحاكم فقط، وإنما كانت وحدة معمارية تدب فيها الحياة عبر تفاعل ساكنيها مع عمائرهم التي قاموا بتشييدها كالمساكن والمساجد والأسوار والحمامات ... إلخ، منها ما اندثر تماماً، ومنها ما لا يزال ماثلاً للعيان كسجلٍ بالغ الدقة عمّا أبدعه الأسلاف قديماً في مجال الفن المعماري، ومدى ميولهم نحو إضفاء قيمة جمالية عليه، فقد كانوا بحاجة إلى ذلك بنفس حاجتهم إلى إشباع رغباتهم الضرورية التي

1- محمد أزلماط، آليات الحكامة في تدبير سياسة المدينة، الملتقى الوطني الثالث والعشرين حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبد

اللطيف معروز، الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، 2012، ص: 131

2- حيدر عبد الرواق كمونة، عبد الصاحب ناجي البغدادي، سبل المحافظة على هوية المدينة العربية، المعاصرة من ظاهرة

العولمة، مجلة أداب الكوفة، العدد 06، كلية الآداب، جامعة الكوفة، العراق، 2010، ص: 21

3- إياد جميل أحمد صالح، اتجاهات التطور العمراني في مدينة طوباس، دراسة في مورفولوجيا المدينة، مذكرة ماجستير تخصص

للتخطيط والإقليمي، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية نابلس، فلسطين، 2009، ص: 17

تعينهم على الحياة، لذلك كان عمر الفن هو عمر الإنسان وتاريخه هو تاريخ البشرية، لقد أصبحت تلك الإنجازات في عُرفنا اليوم على اختلاف أنواعها سواء كانت أواني أو عظام أو قطع نقدية، الغث منها أو الثمين تراثاً إنسانياً تكمن أهميته الأولى والأخيرة في معرفة صورة المستوى الحضاري لمنجزها وخبراتهم المختلفة في الأزمنة القديمة، فبالرغم من مرور آلاف بل ملايين السنين عن ميلادها أول مرة إلا أنها لا تزال تحمل صورة صادقة خالية من أي ذاتية عن الإنجازات الحاصلة آنذاك، فكم من أثر أقامه حاكم ما نسبه حاكم آخر لنفسه ودوّن ذلك في المخطوطات، مثلما قام به تحتمس الثالث عندما أزال اسم الملكة حتشبسوت من مبانيها ووضع اسمه، نفس الشيء بالنسبة لرمسيس الثاني الذي نقش اسمه على كثير من المباني التي أقامها فراعنة مصر من قبله، إضافة إلى ذلك تُبرز المساهمة التي قدمتها جماعة بشرية في مكان ما من هذا العالم، وتسهّل على الأجيال الحالية والأحفقة معرفة أنفسهم في المجتمع البشري من خلال شعورهم بالانتماء لماضيهم، لكن ذلك لن يتحقّق إلا إذا استنطق عالم الآثار تلك المكتشفات، كوّن لها الجو المناسب لحفظها من عاديات الزمن سواءً كانت بشرية أم طبيعية، لأنه لا يمكن استرجاعها في أي حال من الأحوال.⁽¹⁾

1- التراكم الأثري في منطقة تلمسان:

يقودنا الحديث السالف الذكر للوقوف على الوضعية التي يعيشها التراث الأثري المادي الثابت الذي ينقسم إلى منقول يمكن حمله كاللقى الأثرية وغير منقول ثابت في مكانه كالمباني على اختلاف أنواعها الثلاث الدينية والمدنية والعسكرية التي تعتبر من أهم الإنجازات البشرية، ذلك ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون في الجزء الأول من كتابه العبر مسمى إياها صناعة البناء، قائلاً أنها أول صنائع العمران الحضري، أي أن الإنسان لم يهتد إلى معرفة معنى الرفاهية إلا بعد أن تكونت المدن، وقد عبّر عن ذلك بقوله خشونة البداوة قبل رِقّة الحضارة.⁽²⁾

1- عبد الرحمن فوزي الفخراي، مرجع سابق، ص: 19-22

2- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج 01، ص: 152-509

إنطلاقاً من ذلك أمكن القول أن التحضر كان قائماً منذ القدم وأنه تآتى للإنسان بعد خروجه من مرحلة البداوة، وقد بقي مستمراً استمرار الطموح اللامتناهي للإنسان في حياة أفضل، والملاحظ في خضم كل ذلك أن المدن الإسلامية حينما توارث فيها السلاطين الحكم أحياناً اتسعت رقعتها لم تتغير مورفولوجيتها الحضرية لا في شقها المادي أو المعنوي، لعدم تغير المبدأ الذي انبعث منه المستنبط من تعاليم الدين الحنيف⁽¹⁾، وهو ما جعل العمارة موحّدة الطابع ومتشابهة الروح في شتى أنحاء العالم الإسلامي، من أواسط آسيا شرقاً إلى غاية المحيط الأطلسي غرباً، ومهما طالت يد التجديد والترميم عقب إنشائها، إلا أن المعمارين المسلمين وأصحاب الحرف كانوا أشد الحرص على رعاية طابعها الأصلي وبصمة صانعيها، مثل ما تجلّى في مسجد ابن طولون بالقاهرة عندما أوصى المملوك "حسام الدين لاجين" بترميمه بعد مرور أربع مائة سنة من تأسيسه.⁽²⁾

لكن سرعان ما تلاشى ذلك الاهتمام بالقيمة الفنية والتاريخية التي ميزت المعالم الأثرية والمواقع التاريخية بعد هبوب رياح التغيير على المدن بفعل بُغية الارتقاء في المستوى الاجتماعي، وتأثره بالثقافات الغربية من جهة أخرى، ناهيك عن الاستعمار الذي كان قد مهّد في وقت سابق دخول مثل تلك التيارات التي انعكست بالدرجة الأولى في ترسيخ نمط حضري يخدم مصالحه العسكرية ويجسد هويته الثقافية، بحجّة تحديث وتنمية المجال الحضري بالمدن العتيقة، لأنه لم يعد يستوفي متطلبات العصر، أي أنه أحدث بها منعرجاً وتوجهاً جديداً في بنيتها أدّى إلى تغير مورفولوجيتها الحضرية وملامحها العمرانية، فلم تبقى قابضة داخل أسوارها الحصينة بل تجاوزتها إلى ما ورائها، كما غابت معها الروح الجماعية التي ميزتها⁽³⁾، لأن العمارة الإسلامية قدّمت حلولاً تماشت مع معتقدات وأساليب الحياة من حيث التواصل

1- محمد عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص: 09

2- ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 57

3- عبد الرحمن الدكاري، سياسة المدينة بين إكراهات السياسات الحضرية المتعاقبة والرغبة في تجاوز مظاهر الأزمة، الملتقى الوطني الثالث والعشرين حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبد اللطيف معزو، الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، ماي 2002، ص:

والترابط الحضري فالعناصر الموجودة بها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعادات والتقاليد والقيمة الدينية للمجتمع وتجاوبت مع المفهوم السلوكي لأفراده في تعاملاتهم التجارية ومنتجاتهم.⁽¹⁾

يعتبر التوجه الجديد في البناء والتعمير الذي طُبّق بالمدن عامة العتيقة منها والحديثة ترجمة مباشرة لمفهوم التنمية الحضرية التي تعتبر تنمية مكانية تشمل إنجاز المشاريع العمرانية ومختلف أعمال الحفر والبناء وشق الطرقات، من أجل تطوير البنية التحتية للمدن وتلبية جميع المتطلبات التي يحتاجها أفراد المجتمع خصوصاً أن المجتمع الحضري الحديث يتميز بالتعقيد المتباين وتقسيم العمل وارتفاع مستوى التكنولوجيا وتباين السلوك، وتعدد أنساق التفاعل واللاتجانس وشدة الحراك الاجتماعي وكثافة السكان وكبر الحجم⁽²⁾، لذلك عمدت الدول الإسلامية على تبني سياسة التنمية الحضرية من أجل تأهيل المدن لاستيعاب الكم الهائل من السكان لكن دون إدماج وتكسير مفهوم الفكر العمراني الإسلامي منتهجة لما هو دخيل من طرق في تحقيق الوجود المادي⁽³⁾، لقد جاءت عملية التنمية الحضرية كنتيجة حتمية للتغير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والتاريخي الذي انتشرت بوارده في المجتمع العربي الإسلامي من دون إغفال الجانب السياسي الذي فرض هو الآخر نمطاً جديداً في العيش وتبعية في كيفية التصميم الحضري، لذلك لم تعد جزءاً ثانوياً من عملية التنمية الشاملة، بل جوهرها لاشتمالها على جميع الجوانب السالفة الذكر، أي أنها لا تقتصر على إيجاد حلول للمشاكل الاجتماعية كتوفير السكن والمرافق العامة فقط، بل هي فن تشكيل العلاقة المتبادلة بين المجتمع والمكان والعناصر المعمارية المنجزة داخل

1- عبد الجليل ضاري سعدون، الاعتبارات التخطيطية والتصميمية للمدن التاريخية القديمة العربية حالة دراسية (مدينة كربلاء)، مجلة كلية التربية، واسط فيفري 2015، ص: 327

2- محمد بومدين دهماني، اندماج المهاجرين الريفيين، في الوسط الحضري، دراسة ميدانية بمدينة الجلفة، رسالة ماجستير علم الاجتماع، تخصص علم اجتماع العائلة والسكان، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2009، ص: 70

3- بديع العابد، الفكر المعماري العربي الإسلامي، البداية، التشكيل، التكوين، مجلة كان التاريخية، العدد 14، الكويت، 2011، ص: 69

المدينة الواحدة⁽¹⁾، لقد أحدثت بالمقابل صراعاً عميقاً بين ثقافتين في مكان واحد، إذ أثرت بالسلب على المعالم الأثرية والمواقع التاريخية، فقد هُدم العديد منها وطُمر تحت الأرض بفعل ما تم إنجازه من مشاريع تنموية في إطار التنمية الحضرية، وهو ما أدى في الأخير إلى ضياع حلقة مهمة من حلقات التواصل الحضاري.

من المناطق التي تميزت بوجود تراث مادي يعاني من ويلات التنمية الحضرية منطقة تلمسان التي اكتسبت إرثاً معمارياً أصيلاً عبر الحياة التي كانت تدب فيها وما شيد فيها، وهو ما عكس مكانتها الحضارية المرموقة بمختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إذ تدل منشآت الأسلاف بها على ذلك، كمئذنة جامع أعادير والجامع الكبير وأطلال جامع المنصورة وأسوارها التي لازالت شاخصة في مدينة تلمسان، إلى غير ذلك من المرافق العامة والخاصة، وما تبقى من شواهد أثرية بمدينة ندرومة كجامعها الكبير و مساجد أحيائها ومساكنها العتيقة، نفس الأمر بالنسبة لمدينة هنين التي لا تزال عمائرها العسكرية ماثلة للعيان كالأسوار والأبراج والقلعة التي أشار البكري إليها في حديثه عن المنطقة ككل أنها أقدم الحصون.⁽²⁾

إضافة إلى هذه الشواهد المادية هناك عدد من المصادر والمراجع التي تحدثت عن عراقية المنطقة ككتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري الذي تقدّم ذكره، وكتاب البلدان لأحمد بن واضح اليعقوبي وكتاب وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان، وقد تبعهم في هذا المجال بعض الباحثين في الفترة الحديثة أمثال رينيه باسي بكتابه المعنون ب: ندرومة وترارة، والأخوان جورج ووليام مارسيه بكتبهما المعالم الأثرية العربية لتلمسان، ورشيد بورويبة في كتابه العمارة الدينية الإسلامية بالجزائر وعبد الرحمن خليفة بمؤلفة هنين الميناء القديم لمملكة تلمسان، كل ذلك يؤكد أن منطقة تلمسان

1- عبيد محمد رضا الشاكر، هشام محمد جلال أبو سعدة، فن وعلم بناء عمارة وعمرن المدائن الحضرية، مجلة الإمارات للبحوث

الهندسية، العدد 18، الإمارات، 2013، ص: 08

2- أبو عبيد الله البكري، مصدر سابق، ص: 80

عرفت نشاطاً إنسانياً معتبراً ونمو عدد من الحواضر، وأنها أصبحت في فترة من فتراتها التاريخية مجالاً جغرافياً وسياسياً لأحد أهم وأبرز دول المغرب الإسلامي المتمثلة في الدولة المرابطية والموحدية والزيانية، وذلك لمدة تزيد عن الأربعة قرون (من القرن الرابع 5هـ/11م إلى القرن 9هـ/16م).

تعتبر مدينة تلمسان وندرومة وهنين من أغنى مدن المنطقة تراثاً كما سلفت الإشارة إلى ذلك في الفصل الثاني والثالث، حيث تحتضن إرثاً معمارياً متنوعاً بين ما هو ديني ومدني وعسكري وذلك لمجموعة من العوامل، فمدينة تلمسان اكتسبت موقعا جغرافيا استراتيجيا أشبه أن يكون حصناً طبيعياً بين البساتين الكثير والحصول والواسعة⁽¹⁾، ضف إلى ذلك كانت بمثابة همزة وصل بين مدينة فاس وتونس في الميدان التجاري، ناهيك عن قربها من الساحل جعلها تمتلك مرفأين كما سبق وأن أشرنا، كل ذلك أهلها لأن تكون العاصمة السياسية والاقتصادية للدولة الزيانية.

أما فيما يخص مدينة ندرومة فقد تركزت هي الأخرى في موقع محصن، إذ توجد بقلب سلسلة جبال تارة المعروفة بمسالكها الصعبة، ما جعلها في منأى عن الأخطار ومكاناً مفضلاً للسكن والإقامة وبالنسبة مدينة هنين فوجودها على مقربة من البحر جعلها تمتلك ميناء تحددت عنه المؤرخون كما ذكرنا ذلك سالفاً أنه عاد عليها بالنفع إلى الحد الذي أصبحت فيه بمثابة الرئة الاقتصادية للدولة الزيانية آنذاك، وقد زاد في عمرانها وجمالية بناءها للاشتغال غالبية سكانها في تجارة القطن والقماش التي ضمنت لهم ربحاً وفيراً، ذلك ما أشار إليه المؤرخون أمثال حسن بن محمد.⁽²⁾

تعكس جميع هذه المميزات التاريخية صورة ما اكتسبته تلك المدن الثلاث من تراث معماري ثمين جاء حصيلة إنجازات عبر المراحل التاريخية المتتالية، تكاملت مع بعضها البعض عبر الزمن، لتشكل في الأخير كياناً موحد ذي خاصية ثقافية معينة يمتزج فيها المعنوي بالمادي، تلبية للمصلحة الخاصة بالآخرة

1- عبد العزيز فيلال، تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية، ج1، موفم للنشر، الجزائر، 2002، ص: 167

2- الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ج2، ص: 15

والدنيا، فقد كان ذلك القاعدة التي انطلقت منها جميع حواضر العالم الإسلامي.⁽¹⁾ ونتيجة عوامل متعددة ومختلفة بدأت تلك الخاصية الثقافية التي تميزت بها مدينة تلمسان وندرومة وهنين عن غيرهم من المدن تتلاشى وتختفي تحت وطأة التنمية الحضرية التي أدخلت إلى نسيجهم التاريخي تعديلات عميقة، تماشياً مع سنة التغيير والتجديد، وتلبيةً لرغبة أفراد المجتمع الملحة في اكتساب وضع أفضل من الوضع الذي يعيشونه عبر مختلف المجالات كالسكن الصحة المواصلات... إلخ، ومن ثم أصبحت التنمية الحضرية مشكلة تراث، تهدد المعالم الأثرية والمواقع التاريخية لهذه المدن الثلاث، وتفقدتها شخصيتها وملاحمها الأصلية، فكثيراً من النشاطات التقليدية كصناعة الزربية، البلغة الصوف... إلخ قد اضمحلت تماماً من النسيج التاريخي للمدن، وهو ما زاد في اتساع الهوة بين ماضي هذه المدن وحاضرها.

2- المشاريع التنموية الحضرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي بمدينة تلمسان وندرومة وهنين:

احتل المستعمر الفرنسي كامل المناطق التابعة لأيالة الجزائر آنذاك بما في ذلك منطقة تلمسان التي شهدت أحداثاً سياسية بارزة، وبمجرد استيلائه عليها حتى بدأ في تطبيق مجموعة من الإجراءات التي تخدم مصالحه العسكرية والسياسية والاجتماعية، ليستنزف أكبر قدر من الثروات، وقد مسّت عملية الاحتلال والتحطيم والبناء والاستنزاف كلاً من مدينة تلمسان وندرومة وهنين باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من الجزائر.

تعتبر مرحلة الاحتلال الفرنسي من الأسباب الأولى والمباشرة في إدخال مفهوم جديد للتخطيط العمراني وأسلوب مغاير عن الذي ألفه الفرد الجزائري في العيش، فقد أدّى إلى حدوث ذوبان للشخصية الحضارية التي تميزت بها حواضر المغرب الأوسط وزوال طابعها المعماري في وعاء مملوء بمؤثرات غريبة

1- كامل بشير كاظم الكنانى، تخطيط المدينة العربية الإسلامية، الخصوصية والحداثة، مجلة المخطط والتنمية، العدد 15 بغداد، 2006، ص: 86

عن الهوية والثقافة العربية الأصيلة التي توارثتها الأجيال عن الأسلاف، وهو ما جعلها بمثابة الحلقة الرابطة بينهم.

1-2 بداية الاحتلال الفرنسي لمنطقة تلمسان:

لم يكن إعلان الحرب على الجزائر مجرد انتقام للإهانة التي تعرض لها قنصلها المسمى ديفال "Dival" إنما يعود لسنوات سابقة عن سنة 1830م، فقد قدّم القنصل كيرسي "Kirssi" مقترحاً لفرنسا سنة 1782م لاحتلال الجزائر، وأعاد بعد تسعة أعوام من التفكير في كيفية اقتحام الجزائر اقتراح مشروع احتلالها للخارجية الفرنسية سنة 1791م، محدداً فيه أهم النقاط التي تساعد على دخول الجزائر⁽¹⁾، لكن حصانة مدينة الجزائر وقدراتها الدفاعية حال دون تطبيق ذلك المخطط، الأمر الذي اعترف به هو نفس قائلاً: "...إنّ الجزائر هي المدينة الوحيدة في العالم التي تستحق أن تسحق بواسطة آلة جهنمية، لكننا لسنا متأكدين من تأثير ذلك لكي تُقدم على المحاولة ..."، وبعد أن لاحظت فرنسا أن السياسة الاستعمارية للدول الأوروبية بدأت تطفو إلى السطح عقب قيام الثورة الصناعية وتزايد الحاجة إلى استغلال رؤوس الأموال الفائضة، إضافة إلى ظهور الأطماع البريطانية من خلال الحملة التي شنّها إكسموت "Ixmot" سنة 1816م لاحتلال الجزائر، سارعت إلى توطيد علاقاتها عبر إبرام صفقات للاصطياد المرجان وبناء الحصون كحصن الباستيون والحصول على امتيازات من السلطان العثماني سليم الأول لكن بقي الهدف الأول والأخير هو الاحتلال، فعمدت على تكليف قنصلها ديفال "Dival" إلى حُبك مؤامرة لاستفزازه، فكانت حادثة المروحة المنعرج الخطير الذي غير مجرى الأمور وساهم في احتلال الجزائر سنة 1830م.⁽²⁾

بعدها بسطت فرنسا هيمنتها على الجزائر العاصمة، انكب اهتمامها الكامل على تجسيد سياستها الاستعمارية التوسعية داخل البلاد، فوصل مدّها الاستعماري إلى منطقة تلمسان التي اصطدمت فيها

1- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، (د ت)، ص: 276

2- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مرجع سابق، ص: 271-275

بمقاومة الأمير عبد القادر، عندها لجأت إلى عقد معاهدة معه سميت بمعاهدة تافنة، التي تم بموجبها تحديد الأماكن التابعة لحكم الأمير، لكن سرعان ما نقضتها وضربت بنودها عرض الحائط رافضة فكرة الاحتلال المحدود لتستولي على مدينة تلمسان نهائياً بقيادة الجنرال "بوجو" Bugeaud في 30 جانفي من عام 1842م، ومن بعدها مدينة ندرومة في شهر أفريل من نفس السنة بعد اشتباكات عنيفة مع الأمير عبد القادر والجنرال بيدو Bèdeau، ليشمل الاحتلال باقي تراب منطقة تلمسان بما في ذلك مدينة هنين، بعدما التحق الأمير عبد القادر بمدينة معسكر لمواجهة الجنرال الفرنسي "لاموريسيار" الذي حقق نجاحاً عسكرياً هناك.⁽¹⁾

2-2 السياسة العمرانية الفرنسية في منطقة تلمسان:

قام المستعمر الفرنسي عقب استيلائه على منطقة تلمسان بتطبيق مجموعة من العمليات المنسقة والمتكاملة تشمل أساساً التخطيط والتنظيم ووضع الرقابة الكاملة والتوجيه وفق إستراتيجية توفيق بين الظرف المكاني والتكوين الاجتماعي لسكان المنطقة، وبناءً على ذلك اعتمدت على السياسة الحضرية كأداة فعالة ومناسبة لتجسيد سياستها الاستعمارية التي تحولت إلى سياسة استيطانية، باعتبارها ترجمة مباشرة وفعالية لمراقبة وتنظيم التخطيط المعماري والاجتماعي على أرض الواقع، وكذا لكون المدينة هي الحضارة، وأن أي تغير يطالها سيغال النسق الاجتماعي والثقافي للمجتمع ككل.⁽²⁾

من هذا المنطلق أعلنت فرنسا سياستها الاستعمارية العمرانية داخل مدينة تلمسان وندرومة وهنين إذ عملت على إعادة تشكيل بنيتها بطابع معماري غربي عبر شق طرق متعامدة فيما بينها، واستحداث توسعات معمارية بجانب مدنتي تلمسان وندرومة، ما نجم عنه بروز ثنائية حضرية متجاورة في المكان لكنها متنافرة من حيث الطابع، استجابة لمتطلبات المستوطنين باعتبارهم الطريق المختصر لتحقيق الأهداف الاستعمارية الفرنسية، وذلك ما أكدّه الباحث الفرنسي صباستيه "Sabastier" حين

1- شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص: 117-119

2- محمد عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص: 06

قال: "...إن لفرنسا فائدةً كبيرة جداً في جلب أعداد معتبرة من الفرنسيين إلى الجزائر، لأنها الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من تثبيت هيمنتها على شمال إفريقيا، ويجب أن تحقق ذلك الآن وليس بعد نصف قرن لأنه سيكون قد فات الأوان..."⁽¹⁾، وهي الفكرة نفسها أكدها الجنرال الفرنسي بيجو "Bugeaud" بقوله الغزو سيكون عقيماً إذا لم يتبع بالاستيطان⁽²⁾، وأيضاً لتكسير المفهوم الغربي الأصيل في العمارة والهوية الإسلامية التي يعكسها العمران الإسلامي بهذه المدن الثلاث، وإحداث قطيعة بين الماضي والحاضر.

كما تلائم التخطيط الحضري الاستعماري مع الهدف العسكري، المتمثل في إحكام قبضة اليد على المدن تحسباً لمنع حدوث أي انزلاقات أمنية داخل المدينة، مستفيدة في ذلك مما قام به نابليون أثناء الثورة الفرنسية، إذ طلب من المهندس المعماري هاوسمان "Hawsmann" إيجاد تخطيط معماري يساعد على قمع الثورات بباريس، فقام هذا الأخير على إعادة تخطيط المدينة بالمخطط الشعاعي الذي يسهل ببساطة نصب المدافع في الميدان باتجاه الشوارع المستقيمة، بدلاً من مطاردة الثائرين في الشوارع المتعرجة وهو ما قامت به بالمدن العتيقة⁽³⁾، لأن نسيجها المعماري العتيق شكّل حجرة عثرة أمام السياسة الاستعمارية، وذلك ما ذكره الكاتب الفرنسي بلانكي "Blanqui" في حديثه عن الوضع الاقتصادي وممتلكات الدولة الفرنسية، مؤكداً أن تطبيق الإصلاحات الكبرى هي القادرة لوحدها على تحويل الإقليم الذي تم احتلاله بواسطة الأسلحة إلى مستعمرة حقيقية، وأن ذلك لا يتم إلا عن طريق إزاحة النسيج

1-E.Sabastier, **Quelques Mots sur l'Algérie**, imprimerie Henry Michel, Nimes, 1892, p: 19, In: Gallica.Bnf.fr

2- صالح حمير، السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر بداية الاحتلال (1830-1840)، مجلة كان التاريخية، العدد 22 الكويت، 2013، ص: 129

3-Ministre de la Guerre, **Tableau de la situation des établissements Français dans l'Algérie en 1840**, imprimerie Royale, Paris, 1841, p: 72

المعماري العتيق من المدن كلبية⁽¹⁾، لذلك كانت السياسة العمرانية جوهر السياسة الاستعمارية، وبغض النظر عن الاعتبارات السالفة الذكر يَعدّ الفضاء العمراني المادة الأولية لأي عملية استعمار.⁽²⁾

تماشياً مع ما تمّ ذكره قامت فرنسا بإخضاع كل الأملاك المسيرة بالقانون الإسلامي قبل احتلالها للجزائر لقوانينها المحددة لآليات الملكية العقارية نهائياً، حتى تبسط هيمنتها وتستحوذ على جميع الممتلكات المعمارية⁽³⁾، فما كادت تمر شهران عن اتفاقية الجزائر التي أبرمتها مع الداوي حسين في 05 جويلية 1830م، والتي قضت احترام الديانة المحمدية وحرية السكان وممتلكاتهم وتجارتهم وصناعاتهم⁽⁴⁾، حتى أعلنت عن قرارات كان أولها القرار الصادر في 8 سبتمبر 1830م، المتضمن إنشاء قطاع أملاك الدولة *Domaine* ضاربةً عرض الحائط ما نصت عليه بنود الاتفاقية وكاشفةً عن نواياها الخفية، ومن بين ما نصّ عليه ما جاء في مادته الأولى: "كل المنازل والمخازن والدكاكين الأراضي والمؤسسات التي كانت سابقاً تحت سلطة الأتراك الذين غادروا الجزائر أو التي خصصت لمكة والمدينة تحت أي عقد ستؤول إلى قطاع أملاك الدولة وتُسيّر لفائدته"⁽⁵⁾، لقد أتبع هذا القرار بقرار آخر أصدر من طرف الجنرال كلوزيل بتاريخ 7 ديسمبر 1830م يهدف إلى تدعيم القرار السابق ويجسده على أرض الواقع.

1-M.Blanqui, *Algérie, rapport sur la situation économique de nos possession dans le nord de l'afrique*, W.Coquebert éditeur, Paris, 1840, p:28, In:books .google.dz

2-صالح حمير، مرجع سابق، ص: 129

3-عيسى يزيد، السياسة الفرنسية تجاه الملكية العقارية في الجزائر 1830-1714، مذكرة ماجستير تخصص تاريخ معاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000، ص: 51

4-أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص: 13

5-صالح حمير، مرجع سابق، ص: 124

يتضح من هذين القرارين أن المستعمر الفرنسي أراد ضرب الهوية الإسلامية منذ الأيام الأولى لوجوده بالجزائر، ليمضي قُدماً في سياسته التي لن تتحقق ولن تُؤت ثمرها ما دامت الحياة الاجتماعية والثقافية يدب أجيحها في المجتمع الجزائري وفقاً للمنظور الإسلامي، وتواصل فيما بعد إصدار القرارات التعسفية والقوانين المجحفة، ففي سنة 1873م تم إصدار قانون "فاريني" أو كما يعرف باسم قانون المعمرين لأنه جاء تحقيقاً لأهدافهم في نهب الأرض والممتلكات العقارية، وقد نصَّ على وجوب إشراف الإدارة الفرنسية على كل شيء لإزالة التشريع الإسلامي المنظم لل عمران بالمدن، وذلك حسب ما جاء في مادته الأولى التي تضمنت ما يلي: "إن تأسيس الملكية العقارية بالجزائر والانتقال التعاقدية للملكيات والحقوق العقارية مهما كان أصحابها تخضع للقانون الفرنسي".⁽¹⁾

يتضح جلياً من جميع ما تقدّم ذكره عن السياسة الاستعمارية الفرنسية العمرانية بالجزائر، أنها كانت انعكاساً مباشراً لاستعمار استيطاني، عمل على تحطيم تراثها المادي وكسّر الهوية والعلاقة التي كانت قائمة بين ماضي هذه الأمة وحاضرها، حتى يتسنى له إرساء دعائم دولة جديدة وإيجاد تبرير لاحتلاله الجزائر.

إنّ ما طال الجزائر في تلك المرحلة الزمنية من تخريب وإتلاف للمقومات الحضارية هو ما طال مدينة تلمسان وندرومة وهنين، لكونهم أولاً مدناً ذات أهمية من حيث الموقع وثروات، وثانياً لاحتوائهم على جانب مهم من بصمات الأسلاف في عدّة مجالات، فأصبحت هي الأخرى بعد أن كانت تتميز بتلاحم مفرداتها المعمارية وتكامل مكوناتها في كيان عضوي موحد عتيق، تبدو في مجملها منسجمة ومتجانسة ضمن إطاره الكلي الذي يتوسطه المسجد الجامع، مكتسبة من خلال هذا التصميم العتيق شخصية منفردة، بدأت تفاصيلها تذوب شيئاً فشيئاً في وعاء غريب عن العمران

1- عدة بن داهة، الخلفيات الحقيقية للتشريعات العقارية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1870-1873)، أشغال

الملتقى الوطني الأول حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962)، منشورات وزارة المجاهدين

الجزائر، 2007، ص: 149

الإسلامي كليةً، لا من حيث الطراز المعتمد في البناء، ولا من حيث مواد البناء المستعملة أو الشكل الخارجي للمباني.⁽¹⁾

2-2-1 مدينة تلمسان: لا شك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلاً بورقة هي شهادة الميلاد ولا تنتهي رسمياً إلاً بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽²⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

- عدم نزاهة المسؤولين ونقص خبراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.
- التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمتطلبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.
- عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرق... الخ، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.
- البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللازمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.
- عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباها.⁽³⁾

1- أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص: 14

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158

4-6 الإشكال السياسي:

وفقا للمرسوم التنفيذي رقم 403/09 صنف مدينة تلمسان العتيقة كقطاع محمي مساحته الإجمالية تقدر بـ 51 هكتار يقع بين خط طول 1.18° و 55° دقيقة شمالا ودائرة عرض 34.53° و 02 دقيقة شرقا، يحدها شمالا شارع غازي أول محمد وجنوبا شارع حمصالي سايح، أما شرقا فيحدها شارع قوار حسين وغربا شارع الاستقلال وشارع الرائد جبار⁽¹⁾، يبدو أن هذان الشارعين يوجدان ضمن النسيج المعماري وليس على مشارف حدودها الغربية، كما أن مساحة المدينة أكبر من أن تنتهي عندهما، أما الشارع الغربي الذي يحدها فهو ما كان يعرف باسم شارع الصنوبر "L'allé de pin" في الفترة الاستعمارية وهو اليوم شارع العزوني رمضان.

عاش هذا القطاع المحمي تحولات عميقة في تكوينها المعماري خلال فترة حياتها، فقد بدأت كنقطة مراقبة للطريق التجاري الذي يمر نحو المغرب الأقصى وسميت آنذاك بيوماريا، ومع وصول المد الإسلامي إلى شمال إفريقية ظهرت في نفس المكان نواة جديدة زاد عمرها اتساعاً خلال الفترة الزيانية وأصبحت تسمى تلمسان، ينقسم عمرها إلى أربعة أقسام ديني وسياسي وتجاري وسكني، ما يؤكد زيادة حجم المدينة اجتماعياً ومعمارياً إلى الحد الذي تقلدت فيه مكانة مرموقة بين حواضر المغرب والمشرق الإسلامي، وحتى بعد زوال الدولة الزيانية وحلول العثمانيين محلهم لم تتغير مورفولوجية المدينة كثيراً، ولم يختلف طابعها المعماري العتيق إلى حد ما، لأن ما تم استحداثه من قبلهم لم يخرج عن مفهوم العمران الإسلامي، وهو ما ولد انسجام وتوافق مع العمران الموجود من ذي قبل، أنظر الصورة رقم (01).

2- الجريدة الرسمية، مرسوم تنفيذي رقم 403/09 مؤرخ في 12 ذي الحجة 1430هـ، الموافق لـ 29 نوفمبر 2009، متضمن

إنشاء القطاع المحفوظ للمدينة العتيقة تلمسان وتعيين حدوده، العدد 71، الجزائر، 2009، ص: 6-7

لكن مجيء الفرنسيين واحتلالهم لها سنة 1842م أفقدوها عراقتها وهويتها الإسلامية، بسبب ما أسمته سياسة التحديث، وكأنها كانت تعتبر ما كان منجزاً ضرباً من ضروب الجهل وقلة الوعي، حقيقة تلك السياسة كان شيئاً آخر، وهو محاولة الرجوع بالمدينة إلى النواة الأولى التي تكونت فيها على يد الرومان ومحو كل ماله علاقة بالهوية العربية الإسلامية، وقد برز خلال فترة الاحتلال طراز معماري أطلق عليه المعمار يون الفرنسيون اسم الطراز العربي "Arabisance" قاصدين به في نفس الوقت تلك الحركة الدؤوبة في البحث عن كل ما هو جديد لتحديث النسيج المعماري العتيق وفقاً لقواعد العمارة الرومانية كما عُرف أيضاً باسم الطراز الكولونيالي.⁽¹⁾

ارتكز الطراز الجديد على استحداث جملة من التفاصيل العمرانية كإنشاء الشوارع بمسارٍ مستقيم ومتعامد مع بعضه البعض، وفتح عدد من الساحات وبناء مساكن عمودية بطابق أو طابقين لاستيعاب أكبر قدر من المعمارين الذين كان أغلبهم ذو مرجعية دينية يهودية⁽²⁾، بحكم أن الاستيطان أداة فعالة لإنجاح المشروع الاستعماري تستخدمه أي دولة مستعمرة لتحقيق أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها مثلما قامت به إسرائيل في فلسطين إبان القرن الماضي⁽³⁾، وقد انحصر أهم ما قام به في مايلي:

أ- استغلال المعالم التاريخية: لاشك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلا بورقة هي شهادة الميلاد ولا تنتهي رسمياً إلا بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بما يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ

1- ندى الحلاق، الكولونيالي في الشخصية المحلية في العمارة والعمران، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، العدد 01، مج 28 دمشق 2012، ص: 248

2-Djilali Sari, Tlemcen, La Cité-Patrimoine à Sauvegarder, La Tachfinya à Reconstruire Imperativement, édition ANEP, Algérie, 2006, p: 77

3- مجي وزيري، التطور العمراني والتراث المعماري لمدينة القدس الشريف، الدار الثقافية للنشر، فلسطين، (دت)، ص: 80

به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽¹⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدّين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

- عدم نزاهة المسؤولين ونقص خبراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.
- التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمتطلبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.
- عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرق... إلخ، ما سيؤدّي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.
- البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللاّزمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.
- عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدّي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباها.⁽²⁾

4-6 الإشكال السياسي:

بعد تمكن المستعمر الفرنسي من احتلال مدينة تلمسان واستيلائه عليها نهائياً في 30 نوفمبر

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلّم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27.

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158.

1842م توجّه اهتمامه لإضفاء تعديلات على النسيج المعماري، من أجل تكييفه وفقاً لمتطلباته العسكرية، ومن أجل ذلك قرّر الحاكم العام للجزائر وضع خطة عمل لإعادة إعمار وتنظيم المدينة، فأمر مدير المالية لمقاطعة وهران أن يبعث أحد موظفيه لتحضير تقرير كامل عن المدينة، وما يلزمها من غلاف مالي لتجسيد عملية التنمية الحضرية، طبعاً وفقاً للمنظور الغربي، ونزولاً لأوامره أرسل هذا الأخير نائب مفتش المالية المسمى "لوكلرك" M.Leclercq، إلى مدينة تلمسان⁽¹⁾، وبعد وصوله إليها بعث برسالة إلى مديره بوهران يقول فيها: "... بعد ستة أيام من المشي الشاق تحت الأمطار الغزيرة وصلت إلى مدينة تلمسان والتقيت بالجنرال بيدو الذي أعلم مسبقاً بمجيء من طرف الحاكم العام للجزائر، لقد وجدت هذا الجنرال على أهبة الاستعداد لمواجهة أي مقاومة بالمدينة والنواحي المجاورة، ووجدت المدينة في حالة متقدمة من التدهور تعمها الفوضى والدمار والخراب يرتسم لمن يراها صورة البؤس والحزن، إذ بالكاد ما تجد مبنى لا يزال محتفظاً بكامل تفاصيله ومن دون يصاب بأي ضرر، حسب رأبي لا بد من إجراء جرد عاجل للمباني للمدينة، لذلك يجب أن تضعوا في خدمتي أحد المتخصصين في المسح ميداني ومجموعة من الوسائل التي تساعد في تحديد الأماكن، خصوصاً أن دروب المدينة لا تحمل لوحات التسمية وغير مرقمة..."، وبعد الإطلاع على رسالة نائب مفتش المالية لوكلرك M.Leclercq وعقد عدد من الاجتماعات أصدر الحاكم العام للجزائر في 24 فيفري 1842م قراراً يهدف إلى مصادرة جميع الممتلكات سواءً كانت ريفية أو مدنية، وقد صنفت هذه الأخيرة تبعاً لطبيعتها وحالتها التي هي عليها وأصلها لأي فترة يعود تاريخ بنائها وأهميتها وكذا الشوارع التي تحدها⁽²⁾، كما قام المستعمر على إثر الرسالة السابقة بتقوية المباني وتحصينات المدينة، وذلك بموجب القرار الصادر في 26 فيفري 1843م من طرف الحاكم للجزائر آنذاك، والذي أكد على ضرورة

1-André Lecocq, **Tlemcen Ville Française (1842-1871)**, l'administration Militaire (1842-1852), Tome 01, éditions internationales, Tanger, 1949, p:80
2-ibid, p:82-85

إعادة تهيئة المنشآت كقصر المشور ليصبح النواة السياسية والإدارية والعسكرية للمستعمر، وبعد استكمال الأشغال أصدرت اللجنة الهندسية العسكرية تقرير حول تقوية وإصلاح السور الشمالي والجنوبي والشرقي، أما السور الغربي فقد تعذر إصلاحه لالتصاقه مع المستشفى المؤقت⁽¹⁾، وهكذا برزت أولى التعديلات الحضرية على المدينة.

نقل القس بارجس l'Abbé Bargés أحد الفرنسيين الذين استقروا بمدينة تلمسان في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي حقائق وشهادات مرئية عمّا قام به المستعمر لإعادة هيكلة مورفولوجية المدينة خدمة لمصالحه السياسية والاجتماعية، فقد اهتم في بادئ الأمر بقصر المشور الذي اتخذ منه مركزاً إدارياً وعسكرياً، بعد أن حطّم المساكن المجاورة له والتي فاق عددها المائتين مسكن عبر الجهة الشمالية والغربية، ذكر هذا القس أن عملية الهدم قد طالت أيضاً ضريح كان موجوداً بالقرب من قصر المشور⁽²⁾، وفي سنة 1843م أقدم المستعمر على تحطيم أسوار مسجد أغادير التي كانت لا تزال جاثمة تشهد على عمق تاريخ المدينة مبقياً في الوقت نفسه المئذنة على حالها⁽³⁾، ويُعتقد أن الإبقاء على المئذنة كان سبب احتواء بدنها على حجارة تحمل نصوص لاتينية، وهذا ما سيساعد فرنسا على إبراز علاقتها القديمة بشمال إفريقيا وتأكيد مشروعيتها احتلالها للجزائر عامة، باعتبار فرنسا جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الرومانية التي وصل مدّها العسكري إلى مدينة تلمسان، كما أن ذلك تعبير مباشر عن رغبتها في قراءة تاريخ الجزائر بأعين فرنسية، وتفسيره بما يتناسب مع الحاضر الذي يخدم مصالحها⁽⁴⁾.

1-Abdelkader Tahar, *Médina de Tlemcen Mutation, Sauvegarde et Durabilité*, Thèse de Doctorat en histoire et archéologie et Arts populaires, réalisée en cotutelle entre l'université Nice Sophia Antipolis-France et l'aboratoire du patrimoine archéologique et sa valorisation L'université de Tlemcen, Nice, 2015, p:111-112

2-L'abbé Bargés, Op.cit, p:359-387

3-ibid, p:164

4-محمد البشير شنيقي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، بحوث ودراسات، دار الحكمة، الجزائر، 2003، ص:07

استقرار المستعمر الفرنسي بقصر المشور فرض إجراء تعديلات عليه كما ورد ذكره، خصوصاً أنه وجده في حالة متقدمة من الخراب والدمار، فعمد على إزالة ما تضمن من عمائر آيلة للسقوط بعد أن حطمها كلية لإنشاء مستشفى عسكري وثكنة للجند، بالموازاة مع ذلك قام بتقوية تحصيناته وتعزيز جانبه الدفاعي عبر إصلاح أبوابه وأسواره المتضررة، فقد جعل ارتفاعها إلى خمسة أمتار وسمكها إلى واحد متر مستعملاً مادة الحجر في البناء، كما قام بفتح باب ضخم بوسط السور الشمالي للمشور يصل ارتفاعه إلى غاية الشرافات، إلى جانب ذلك استعمل بنايتين وجدتا بالقرب من الباب الذي أنجزه يُرجح أنهما بقايا قصر قديم لإيواء ما يقارب أربعين جندي لحراسة تلك الجهة، لقد بلغت تكلفة تلك الأشغال ثلاث مائة ألف فرنك فرنسي⁽¹⁾، وقد خصّص المستعمر الجهة الجنوبية من القصر لإنشاء إسطبلات لحوالي 800 رأس من الأبقار، إضافة إلى مستودعات للقمح تأميناً لمأونة الجنود الفرنسيين.⁽²⁾

لم تستثن السياسة العسكرية الفرنسية مسجد قصر المشور، الذي يرجع تاريخ تأسيسه حسب الأخوين جيورج ووليام مارسيه لفترة حكم السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول، وأنه خضع لعدة تعديلات في فترة حكم الأتراك مسّت بيت الصلاة وزخارفه وحتى بلاط أرضيته الذي أقتلع كلياً⁽³⁾، وعقب تمركز المستعمر الفرنسي بقصر المشور أجرى عليه هو الآخر عدة تعديلات شوّهت فنّه المعماري الأصيل وأفقدته أصالته ليتناسب مع وظيفته الجديدة كمستودع للمستشفى العسكري، وذلك استناداً لما جاء في تقرير رئيس مصلحة الهندسة بتاريخ 23 جوان 1863م الذي تم الإشارة فيه إلى ضرورة استخدام مسجد المشور كمستودع، وبعد مرور تسعة سنوات تقريبا وبالتحديد في 09 جوان 1872م قدّم حاكم المقاطعة رداً على هذه القضية في رسالة بعث بها إلى الجنرال يأمرها فيها إجراء التعديلات اللازمة التي وردت في تقرير رئيس المصلحة الهندسية، وبقي المسجد كمستودع حربي لمدة ستة سنوات، أي لغاية

1- André Lecocq, Op.cit, p:68

2- ibid, p:72

3- Georges et william Marçais, Op.cit, p:313

سنة 1878م، أين تم تحويله إلى كنيسة تابعة للمستشفى العسكري⁽¹⁾، لقد فرضت هذه الوظيفة الجديدة أيضاً إجراء تعديلات هندسية عميقة تمثلت في تحطيم سقفه المسنّم واستبداله بسقف شبيه بسقف الكنائس وتحطيم القبة وإزالة المحراب ووضع ثلاثة نوافذ بأعلى جداره الشرقي على شكل صليب، كما قام على إثر ذلك بنقل أعمدة رخام الأونيكس Onyx التي كانت قد جلبت في وقت سابق من موقع المنصورة إليه، ثم نُقلت لمسجد أبي الحسن التنسي، وهي لا تزال موجودة هناك إلى حدّ الساعة.⁽²⁾

اعترف المستشرق شارل بروسيلار Charle Brausselard أن كل التعديلات التي أجراها المستعمر الفرنسي على مسجد المشور كانت إعتداءً مباشراً على القيمة الفنية المعمارية التي وضعها فيه المعماري الزباني، فلم يبق منه ما يثير اهتمام دراسي الفن الإسلامي، إلاّ مئذنته التي لم يمسسها لحاجته الماسة لها باعتبارها مكاناً مرتفعاً وقريباً من السور الغربي لقصر المشور تساعد في مراقبة تلك الناحية أما ما تبقى فقد تلاشى تحت ضربات المعول ومواد البناء التي أعيد بها تصميمه ككنيسة.⁽³⁾

استخدام المستعمر أيضاً بعض المساكن التي لا تزال محتفظة بأجزائها كاملة كمراكز لإيواء جنود الجيش الفرنسي مثل استغلال مسكن ضخم كان ملاصقاً للسور الشرقي للمشور، يعود لأحد القادة العسكريين الأتراك المسمى "المصطفى"، وذلك بعدما تم زيادة طابق فوقه حتى يتمكن من استيعاب أكبر عدد من الجنود، وأصبح يسمى فيما بعد بثكنة "المصطفى" نسبة لصاحبه، كما استغل المستعمر الفرنسي ثكنة "البايلك" التي وُجدت بالجهة الشمالية الشرقية للجامع الكبير، بعد أن قام بإعادة تهيئتها لأنها كانت هي الأخرى في حالة من الخراب، تجدر الإشارة إلى أن هذه الثكنة أُسّست إبان تواجد الأتراك بمدينة "تلمسان"، ما يؤكد أنهم سبقوا المستعمر الفرنسي في تحطيم النسيج المعماري العتيق لإحكام قبضتهم على المدينة ونواحيها، وقد ضمّ هذا المسكن نصف كتيبة عسكرية فرنسية بين المشاة وفرقتين

4-Abdelkadar Tahar, Opcit, p:109

1-شرقي الرزقي، مرجع سابق، ص:116

2-Charle Brosselard, Les Inscriptions...., 4^{ème} année N° 19, Op. cit, p:246

من الفرسان بقيادة برنارد ماثياس "Bernard Mathias Henry"⁽¹⁾، إضافة لذلك استغل مجموعة من المساكن كانت توجد بين ساحة الانتصار وشارع معسكر (مرابط محمد حالياً)، وقد سميت بثكنة المعزوز نسبة لاسم المحي الذي وجدت فيه⁽¹⁾، واستغل أيضاً متانة أسوار القيصارية، وكبر حجمها كمخزن للعتاد الحربي بعدما أفرغها من وظيفتها الأصلية.⁽²⁾

وأمام تزايد عدد أطفال المعمرين خاصة اختار المستعمر مسكن موجود على مستوى طريق الأسوار Rue du Rampart، لقد أنجز هذا الأخير في نفس مسار السور الدفاعي الذي كان موجوداً من قبل، بعدما تحطمت غالبية أجزائه جراء الاشتباكات، وذلك لتسهيل عملية مراقبة حدود المدينة، وقد تراوح عرضه ما بين 7م و9م، كما اختار المستعمر مبنى آخر بنفس المكان لإسكان المعلمة آن ماري جرارد Anna Marie Gérard التي بدأ عملها يوم 01 أكتوبر 1845 بتدريس 23 تلميذ من بينهم 13 إناث و10 ذكور.⁽³⁾

كان لهذا الاستحداث الجديد للمدرسة تعرض مورفولوجية النسيج المعماري العتيق لتغير جوهري في هيكله العام، بفعل دور النمو السكاني الناتج عن تنامي أعداد المعمرين كما سنرى ذلك، وما نتج عنه من متطلبات، وليس فقط المورفولوجية فقد تغيرت طريقة التعليم، فقد كان يتم تلقيه في مدينة تلمسان بالكتاتيب والمدارس القرآنية.

إنّ مثل هذه التعديلات وغيرها تؤكد أن السياسة الاستعمارية لم تستثن أي شيء له علاقة بالهوية المعمارية الإسلامية سواء كان مبنى أو تصميم خاص بحي، كما تماشى ذلك مع بعث التنمية الحضرية

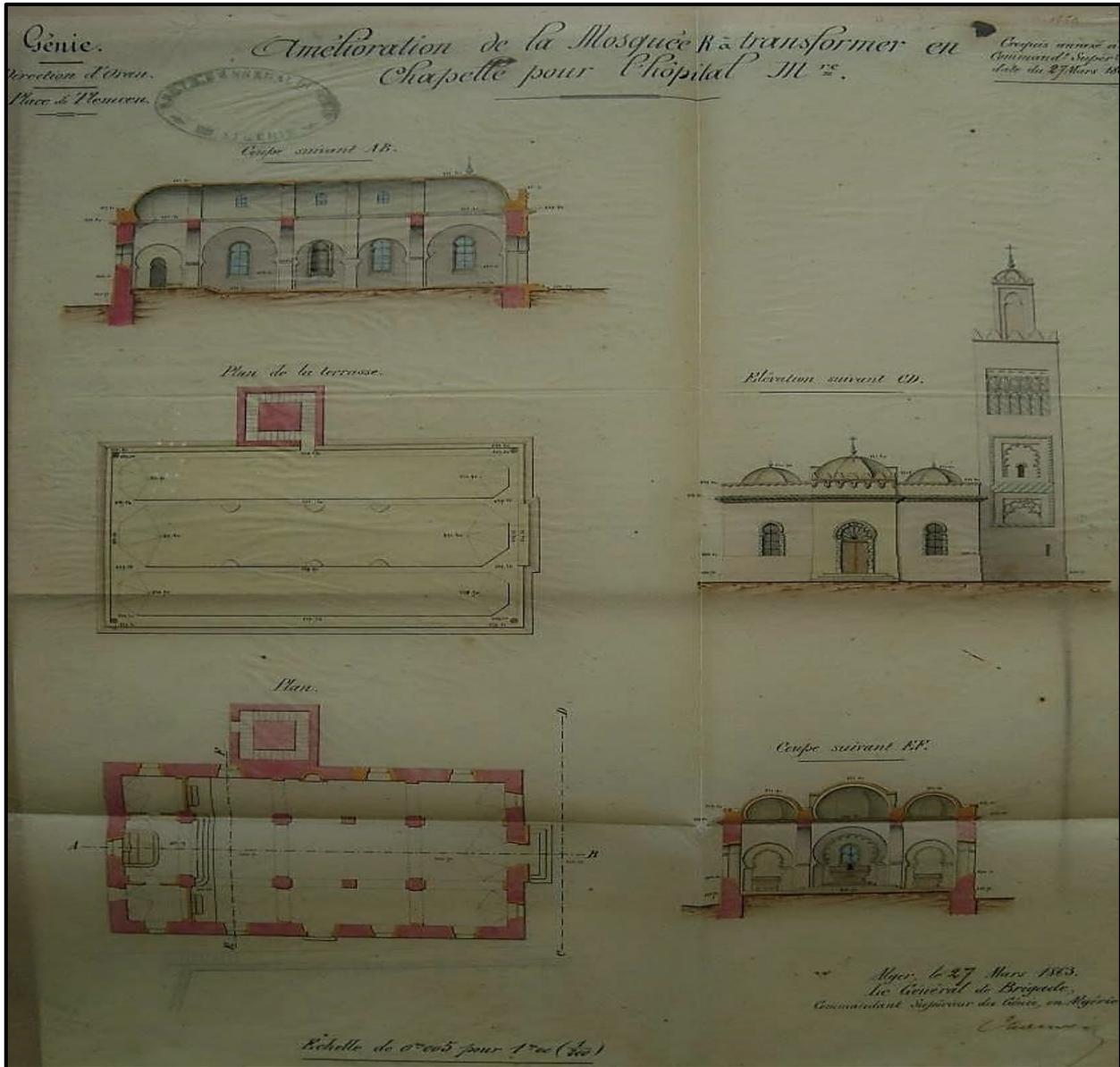
3-André Lecocq,Op.cit,p:69-112

1-André Lecocq,Op.cit,p:69

2-Sidi Mohamed Negadi, Michel Terrasse,Agnés Charpentier,L'image de Tlemcen dans Les Archives Françaises,Imprimerie Mauguin,Algérie, 2011,p:149

3-André Lecocq,Op.cit,p:164-165

بمدينة تلمسان لتحديث النسيج المعماري، والرسم التخطيطي الموالي يبين التعديلات الهندسية التي قامت بها الإدارة الاستعمارية لتحويل مسجد المشور إلى كنيسة.



الرسم التخطيطي رقم 01: يبين المقاطع الأفقية والعمودية الخاصة بتحويل مسجد المشور إلى كنيسة

المستشفى العسكري. عن: Abdelkader Tahar, Op.cit, p:110. (بدون مقياس)

ب- إنشاء الساحات العمومية:

حظي الفضاء العمراني لمدينة تلمسان باهتمام الإدارة العسكرية الفرنسية، لا لكونه تميز بمميزات حضارية خاصة، بل لأنه شكّل حجرة عثرة أمام سياسته الاستعمارية، لذلك عمد على إرساء أنموذج معماري غربي يتماشى مع مبادئه وأهدافه العسكرية عبر تشييده امتدادات من المساكن المنتظمة بطابق أو طابقين، وشق شوارع مستقيمة واستحداث ساحات فسيحة، لقد أعتبرت هذه الأخيرة أحد أبرز العناصر المعمارية الأفقية التي تميز بها التكوين العمراني الغربي الروماني واليوناني على حد سواء، وقد خدمت كل الشرائح الاجتماعية للالتقاء فيما بينهم أو لبيع سلعهم، كما كانت تستعمل في حالات الحرب لتجمع الجنود أثناء تجهزهم للخروج للحرب، والساحة لغة كلمة ذات أصل لاتيني مشتقة من بلاتيا "Platea"، وكانت تعرف عند اليونان باسم الأقورة "Agora" المشتقة من الفعل "Agreisein" الذي يعني اجتمع ونمى ضمن حيز مفتوح، في حين عُرفت عند الرومان باسم الفورم "Forum".⁽¹⁾

أما اصطلاحاً فهي مساحة كبيرة الحجم فارغة محاطة بمجموعة من الأبنية ومفتوحة على الشوارع وهي على ثلاثة أنواع، النوع الأول منها يكون مستوى أرضيته بنفس مستوى الأرضية الطبيعية، والثاني يكون مستوى أرضيته مرتفع قليلاً عن مستوى الأرضية الطبيعية ليعطيها تميزاً أكبر، أما الثالث فيكون مستوى أرضيته منخفض عن مستوى الأرضية الطبيعية⁽²⁾، ووُظف هذا العنصر المحلي في التصميم العمراني المستحدث من طرف المستعمر بمدينة تلمسان والجزائر عامةً بعد القرار الصادر في 18 أبريل 1841م من طرف الحاكم العام الجنرال بيغو "Bugeaud" لجلب المعمرين الذين لم يكن بإمكانهم الاستقرار في بيئة عمرانية تختلف عما ألفوه معمارياً عن المدن الفرنسية⁽³⁾، وحتى يتمكن

1-Fadila Kettaf, *La Fabrique des espaces, Conceptions, Formes et des Places d'Oran (Algerie)*, Thèse du Doctorat, Discipline, géographie et aménagement de l'espace, L'université Paul-Valéry-Montpellier 3, France, 2013, p: 53-56

2- أسامة عبد الله صالح مصطفى، تشكيل الفراغات، الساحات العامة في البلدة القديمة في مدينة نابلس، تحليلها مقترحات تطويرها، رسالة ماجستير، تخصص هندسة المعمارية، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2010، ص: 14-15

المستعمر الفرنسي من تجسيد ذلك بمدينة تلمسان عمد على إجراء تعديلات عبر تخطيط عدد من المساكن، ولعل أبرز ما قامت به في هذا المجال تخطيط أحد أبرز المعالم الأثرية بالمدينة والمتمثلة في المدرسة التاشفينية⁽¹⁾ التي سبق وأن تحدثنا عنها.

لقد عُدت من أنذر التحف المعمارية بالمغرب الإسلامي وأبرز منابر العلم في تلك الحقبة الزمنية، مثلها في ذلك مثل جامعة أكسفورد Oxford وبلندن والسوربون Sorbone بباريس المشيدتين في القرن 13م، احتلت المدرسة التاشفينية موقعا استراتيجيا يليق بمكانتها العلمية فقد بنيت على بعد 25م جنوب الجامع الكبير بالنواة المركزية للمدينة بين عدد من المنشآت التي تقاسمت معها الأهمية، كمسجد سيدي بلحسن التنسي وقصر المشور⁽²⁾، استعمالها للمستعمر الفرنسي كمكان للإيواء جنده ساعة دخوله إلى المدينة، إذ كان شغله الشاغل هو إحكام القبضة لمنع حدوث أي اعتداء عليه خاصة وأن المدرسة كبيرة الحجم وتوجد بمكان قريب من قصر المشور الذي اتخذ منه مركزا إداريا وعسكريا، وسميت آنذاك بثكنة المدرسة، ومع مجيء سنة 1845م حوّلها المستعمر إلى مخزن لكلاء الأبقار⁽³⁾، وبعدها توطدت قدماه جيدا واتسعت دائرة سيطرته وزاد نفوذه جعل من قاعاتها محلات تجارية، ومن بيت صلاتها قاعة للحفلات الأمر الذي أفقدها قيمتها الدينية كليا.⁽¹⁾

3-Tarik Bellahsene, **La colonisation en Algérie: processus et procédures de création des centres de peuplement, institutions, intervenants et outils, le cas de centres en kabylie du Djurdjura 1857-1899, une illustration de la plaine vers la montagne**, Thèse de Doctorat, Discipline ville et environnement, Université de Paris 08 Vincennes, Saint-Denis, Paris, 2006, p:295

1-التاشفينية: شُيدت هذه الأخيرة في الفترة التي شهدت فيها الدولة الزيانية أوج ازدهارها على يد السلطان عبد الرحمن أبو تاشفين الذي تحدث عنه يحيى بن خلدون قائلاً: "...وُلع ببناء الدور وتجهيز القصور وتشديد المصانع واغتراس المنتزهات... فخلد آثاراً لم تكن قبله لملك ولا عرف لها بمشارك الأرض ومغارها..."، وذكر أيضاً يحيى بن خلدون أن تاريخ بنائها يرجع إلى النصف الأول من القرن 8هـ/14م، ما بين سنة 718هـ و737هـ الموافق لسنتي 1318م و1337م، أنظر: يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 133-134

2-Djilali Sari, Op.cit, p:107-109

3-André Lecocq, Op.cit, p:72

وفي سنة 1860م قدّم المجلس البلدي لمدينة تلمسان طلبا إلى القائد العسكري ليسلمه ملكية المدرسة التاشفينية، لكن هذا الأخير رفض طلبه، وبعد المداوات التي اجتمع فيها المجلس البلدي في 22 فيفري 1865م أعاد تقديم طلبه، ومن جهته حاكم مقاطعة وهران بعث برسالة تحت رقم 5028 إلى مدير التحصينات يطلب فيها الاستحواذ على ملكية المدرسة لتحويلها إلى سوق للخضر والفواكه، في حين كان طلب المجلس البلدي لمدينة تلمسان قدّم بهدف تدميرها لإنجاز ساحة مكانها ونافورة مياه على شاكلة الساحات الأوروبية، بعد عدة مفاوضات عرض قائد الهندسة العسكرية تقريراً في 18 جانفي 1867م حول تسليم المدرسة بشرط أن يقوم المجلس البلدي بإنجاز أشغال إنجاز بناية ذات 78 غرفة بحي الفرسان، وبعد سنة من هذا العرض أرسل الحاكم العام للجزائر رسالة بتاريخ 27 مارس 1868م يعلمه فيها بموافقة على التنازل عن المدرسة مقابل مبلغ مالي لتحويلها إلى سوق للخضر والفواكه وموجب ذلك تم الاتفاق على مبلغ 6000 فرنك، يُدفع على ثلاثة أقساط، ومع مجيء سنة 1873م أصدر المجلس البلدي قرار تدميرها حسب ما كان مسطراً له في مخطط التهيئة العمرانية المنجز من قبل في 08 جويلية 1859م لإنجاز ساحة عامة يلتقي فيها المعمرون فقط.⁽²⁾

وبذلك يكون المستعمر الفرنسي قد نجح في إحداث مقارنة بين الواقع الذي وجدته بالمدينة وما يريده خدمة لمصالحه تجسيدا لمفهومه في التنمية الحضرية، وقد كان لتخطيط المدرسة التاشفينية أثرٌ بالغ على نفسية أحد الفرنسيين الرائدتين في مجال الفن المعماري ذي الطابع الإسلامي في المشرق والمغرب وهو يسمّى بإيدموند دوتوا Edmond Duthoit⁽³⁾، وقد تأثر بها لتمييزها بثناء فني وزخرفي رائع

4- محمد لخضر عولمي، الزخرفة المعمارية في عهد المرينيين والزيانيين، دراسة تحليلية مقارنة، رسالة لنيل الدكتوراه، تخصص الآثار الإسلامية، قسم علم الآثار والتاريخ، شعبة علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013، ص: 261

1- Abdelkader Tahar, Op. cit, p: 214-215

3- إيدموند دوتوا (Edmond Duthoit): وُلد سنة 1837 في مدينة أميانس الفرنسية، ينحدر من عائلة مرموقة في مجال الرسم والهندسة، اهتم بدراسة الفن العربي بالشرق والمغرب الإسلامي، عين بقرار وزاري في 14 ماي 1872م بالفتشية العامة المختصة بدراسة المعالم التاريخية في الجزائر، توفي سنة 1889 في مسقط رأسه، أنظر:

الصنع، فبعد قدومه إلى مدينة تلمسان بعد سنة من تعيينه شدّت المدرسة التاشفينية اهتمامه، وعندما مباشرة تخطيطها وتخريبها بعث رسالة إلى وزير التعليم والفنون الجميلة الفرنسي، جاء فيها ما يلي: إنه ليشرفني أن أقترح على معاليكم صرف نفقة مقدارها 1500 فرنك فرنسي، من أجل انتزاع قطع الزليج الفائقة الجمال التي تزين مدخل المدرسة التاشفينية، وجمعها لعرضها بمتحف اللوفر، سيكون من المؤسف جداً أن يضيع ما تبقي من هذه الزخرفة الرائعة الصنع إلى الأبد.

استجاب الوزير للرسالة وأمر بصرف المبلغ المالي المطلوب، وتم نقل ما تألقت به المدرسة التاشفينية من زخرفة، لكن ليس كما كان مقرراً إلى متحف اللوفر، إنما إلى متحف كلوني "Musée de Cluny" بمدينة باريس، تجدر الإشارة فقط إلى أن هذا الأخير يضم أندر ما جادت به قريحة الإنسان في هذا العالم من تحف فنية على اختلاف أنواعها وأصلها ومادة صنعها، ثم أرجعت فيما بعد إلى متحف الجزائر العاصمة، وحالياً تُعرض بعض من قطعها كالزليج والزخرفة الجصية بالمتحف العمومي للفن والتاريخ بتلمسان.⁽¹⁾

بالرغم ما طال المدرسة التاشفينية من تخريب وتخطيط، فإنه لا يزال بعض من أجزاء أساساتها وبلاط أرضيتها قابع في باطن الأرض، وذلك حسب ما شاهده السيد سيدي محمد نقادي أثناء تمرير قنوات الغاز الطبيعي سنة 1991م بمحاذاة الباب الرئيسي (الشمالي) لدار البلدية المنجزة من طرف المستعمر الفرنسي، لقد بدا له مما رآه أن بلاط أرضية المدرسة يتشابه مع بلاط قصر المشور الذي كشفت عنه

Nabila Oulebsir, **Edmond Dethoit, un architecte néogothique et moderne, entre Picardie et Méditerranée**, Actes du colloque international sur les orientalismes en architecture à l'épreuve des savoirs, Europe et monde extra-européen 19-20^{ème} Siecles, institut national d'histoire de l'art, 4 et 5 mai 2006, Paris, p:16

1-Djilali Sari, Op.cit, p:52

الحفريات التي أقيمت به من حيث الشكل الخارجي (اللّون والحجم)، ما يؤكد أنها تحلّت بفن راق ينم عن الذوق الرفيع للمعماري الزياني.⁽¹⁾

لم يتوقف استحداث الساحات العامة بالنسيج المعماري العتيق، حيث فتحت ساحة أخرى بالتحديد جنوب شرق الجامع الكبير، وقد أُطلق عليها اسم ساحة النصر (ساحة البشير إبراهيمي حالياً)، وعلى نفس الاتجاه بالجهة الشمالية الشرقية أنجزت ساحة أخرى سميت ساحة "بيجو" Bugeaud (ساحة الشهداء حالياً).

ج- إنجاز عدد من المباني:

توجه اهتمام المستعمر الفرنسي بعد تمكنه من إحكام قبضته لجميع المناطق التي احتلها، للتكوين الداخلي للنسيج المعماري، من أجل إضفاء صبغة عمرانية غريبة عليه تجعله ملائماً لعيش المعمرين، لأنه أُعتبر على حدّ تفكيره تصميماً عمرانياً فوضوياً وغير منظم، يخلو من أية مرجعية هندسية، ضف أن ذلك يتوافق مع ما أشارنا إلى ما ذكره الكاتب الفرنسي بلانكي "Blanqui".

ما حدث بالنواة المركزية للمدينة هو نفسه ما حدث للقيصرية بالفضاء التجاري في مجال التهديم والتخريب، هناك من يرى أن اسم القيصارية مرادف للكلمة الإسبانية "Caseria" التي تعني مجموعة من المساكن، وهناك من يرى أنها للكلمة الإيطالية "Caséro" التي تعني الحصن المنيع⁽²⁾، باعتبار أن مفهوم "القيصرية" معمارياً عبارة من مكان يضم عدداً من البنايات المحاطة بسور عال، في حين يرى البعض الآخر أنها اشتقت من اللقب الروماني قيصر وهي تعني مدينة القيصر.⁽³⁾

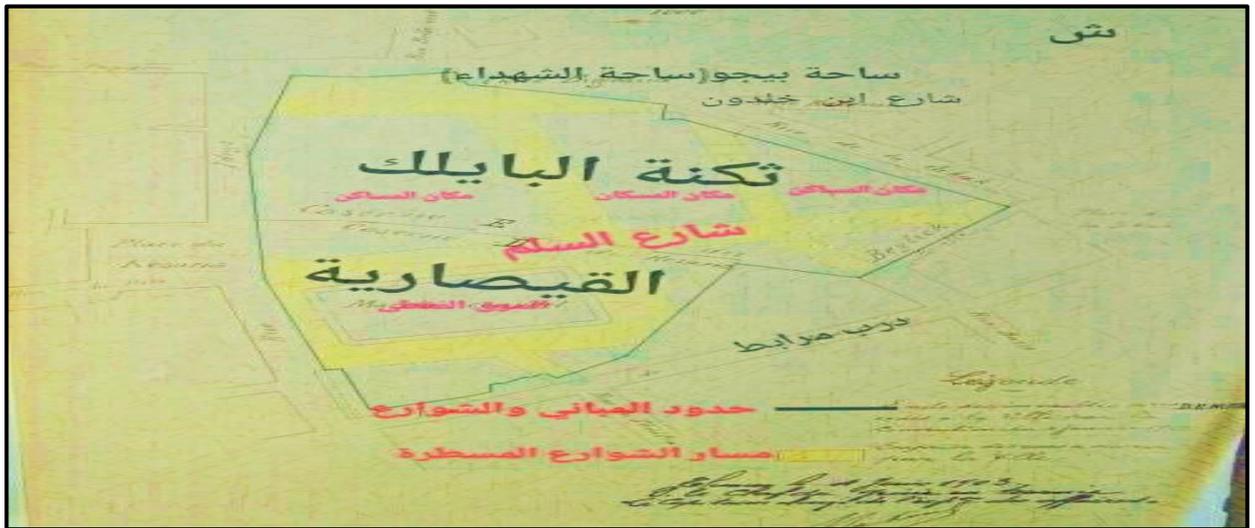
2- مقابلة شفوية مع السيد سيدي محمد نقادي، عضو سابق في جمعية المحافظة على البيئة، A.S.P.E.W.I.T، وهو حالياً يشغل منصب أستاذ محاضر بقسم علم الآثار في جامعة تلمسان، أجريت المقابلة بتاريخ يوم: الأحد 17 جانفي 2016، على الساعة 14:40 مساءً.

1-Charle Brosselard, Les Inscriptions Arabes de Tlemcen, In (R) Africaine, 5^{ème} année, N°25, Arnolet imprimeur-libraire, Constantine, Algérie 1861, p:167

2- سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص: 45

كانت توجد القيصارية بالجهة الشمالية الشرقية للجامع الكبير، شكلها الخارجي عبارة عن شبه منحرف قاعدته الكبرى تتجه نحو الغرب، ولدواع أمنية أحيطت بسور عال له باب واحد كبير الحجم كأبواب المدن الخارجية، كان يمتد من وراء مدرسة البشير الإبراهيمي جنوباً باتجاه ثكنة البايكك شمالاً ثم ينعطف غرباً إلى الجهة الشمالية للجامع الكبير، وينحني ليتلقى بالباب الرئيسي شرقاً بالقرب من مسجد سيدي البناء، عُلق على بابها الذراع الملكي، لوحة رخامية طولها 47سم، أخذت كقياس موحد لفض النزعات بين تجار القماش، ولم تحتوي القيصارية على المحلات التجارية والورشات الحرفية فحسب، لكنها احتوت أيضاً على الحمامات والفنادق وكنيسة تلبية لمختلف متطلبات التجار الوافدين إليها من الضفة الأخرى.⁽¹⁾

تر
بعت
القي
صار
ية
على
مساح



ة قدرها خمسة هكتارات وهي مساحة كبيرة إذ ما قورنت بمساحة المدينة العتيقة بتونس التي تقدر بستة هكتارات⁽²⁾، الأمر الذي يؤكد أنها كانت على قدر كبير من الأهمية في النسيج المعماري، وأن مدينة

1- سيدي محمد نقادي، مرجع سابق، ص: 60-62

2-Souria Baba Ahmed Kassab, **Antagonisme entre espaces historiques et développement l'urbain, cas de Tlemcen**, Thèse Doctorat d'état en Architecture et urbanisme, option préservation des sites et monuments historiques, Ecole polytechnique d'architecture et urbanisme, Algérie, 2007, p:241

تلمسان كانت ذات مكانة مرموقة في التجارة ليس فقط بين حواضر المغرب الإسلامي بل حتى المشرق الإسلامي، انحصر اهتمام المستعمر الفرنسي بعد دخوله المدينة ترسيخ أقدامه أقصى ما يمكن لذلك عمد على استغلال بعض المباني التي تميزت بالمتانة كالقيصارية التي سلفت الإشارة إليها، ما كان ليقع اختياره عليها لولم تتميز بخصائص تؤهلها لهذه المهمة الحساسة، وهو حسب ضننا بمثابة اعتراف غير مباشر على دراية المعماري الزباني بقواعد البناء والتعمير.

بقيت القيصارية على ذلك الحال إلى أن تم التنازل عنها لصالح المجلس البلدي مقابل مبلغ مالي مثلما حدث للمدرسة التاشفينية، عقب التقرير الذي أعده مدير الهندسة العسكرية في 10 فيفري 1896م المتضمن قرار بيع ثكنة البايك والقيصارية، وأيضاً عدد من المساكن المجاورة لهما بمساحة إجمالية قدرت بـ1 هكتار و24 آر و50 سنتار، لم يتم تحديد ثمن البيع في هذا التقرير، كما لم تكتمل إجراءات نقل الملكية إلا مع مجيء سنة 1903م، وبحلول سنة 1904م قامت إدارة المجلس البلدي لتلمسان بتحطيم ما اشترته بما في ذلك القيصارية وأعدت مخططاً يوضح التهيئة الحضرية الجديدة التي ستجزها، وقد تمثلت في إنجاز مشروع 28 مسكن للمعمرين الذين جلبوا في إطار سياسة الاستيطان التي بادرت بها فرنسا ساعة دخولها إلى الجزائر، أنجزت بطراز غربي خالص وتم أيضاً إنجاز سوق مغطى بالجنوب الغربي من القيصارية التي قام بتحطيمها المستعمر وتشييده⁽¹⁾، وكأنه تعمّد وضع أسسه هناك باعتبار أن ذلك المكان كان يستعمل للتجار لهذا تأكد المستعمر الفرنسي أنه المكان الأمثل لإنشائه، والرسم التخطيطي الموالي يوضح التعديل الهندسي الجرى على ثكنة البايك والقيصارية.

الرسم التخطيطي رقم 02: يبين التعديل الهندسي المنفذ على القيصارية و ثكنة البايك لإنشاء السوق

المغطى ومشروع 28 مسكن وعدد من الشوارع، عن: Abdelkader Tahar, Op.cit, p154

1-Abdelkader Tahar, Op.cit, p:212

لا يبعد موضع السوق المغطى الذي كان مكان وجود القيصارية سابقاً عن الجامع الكبير إلاّ حوالي 45م، شكله الخارجي مستطيل يقدر طوله بـ45م أما عرضه فيقدر بـ25م، مساحته الإجمالية تقدر بـ1125م²، قاعدة جدرانها مبنية بحجارة مستطيلة ومنحوتة، أما ما تبقى فقد بُني بالآجر، فيما يخص سقفه، فقد جاء شبيهاً بسقف الكنائس إلى حد ما، فُتح في وسط واجهاته الأربعة أبواب تتقدمها سلالم لارتفاع أرضيته عن مستوى أرضية الشوارع التي تحيط به.

إضافة إلى السوق المغطى أنجز المستعمر المدرسة الجديدة التي تشرف على شارع هايدو Haëdo (شارع معركة فلاوسن) الرابط بين الطريق رقم 07 ومركز المدينة، وهي تشغل اليوم وظيفة متحف تم تدشينها في 07 ماي 1905م من طرف الحاكم العام جونارت "Jonnart"⁽¹⁾، تجدر الإشارة إلى أن مدخلها شيد بطراز إسلامي محض رغبة من المستعمر في استرجاع صورة مشابهة للمدرسة التاشفينية التي كانت على قدر كبير من الإبداع الفني.

الملفت للانتباه أن تلك النقاط العسكرية نُصبت داخل النسيج المعماري العتيق بالجهتين الشرقية والجنوبية الشرقية على استقامة واحدة إذا ما استثنينا ثكنة "غورماله" التي أنشئت في وقت لاحق مقابل المركز الإداري والعسكري المشور، وقد تم إنشائها بعد أن قامت الإدارة الفرنسية بتطبيق قانون المصلحة العامة والذي يقضي بمصادرة جميع الممتلكات للإنجاز مشاريع ذات طابع عام من هذا المنطلق قام المستعمر بمصادرة اثني عشرة مسكن تحمل الأرقام التالية: -1453-1454-1452 (bis) 1455-1417-1117-1460-1461-1465 ترجع ملكيتها لعائلة غورماله التي تلقى فيها المدعو "أحمد غورماله" تعويضاً يتمثل في مقهى كانت تقع بالقرب من المحكمة مقابل المشور، بعد الانتهاء من تشييدها تمكن المستعمر الفرنسي من حل مشكلة إسكان كتائبه العسكرية.⁽²⁾

1-Louis Abadi, **Tlemcen au Passé Retrouvé**, édition Gandini, France, 1994, p:63

2-André Lecocq, Op.cit, p:72

كما تم بالموازاة مع ذلك إنجاز مشروع الإنارة باعتباره عاملاً مساعداً في رصد التحركات واستتباب الأمن بالمدينة، لقد خُصص له مبلغ قدره 6000.00 فرنك فرنسي لتوفير المعدات اللازمة كالأعمدة والزيت والخيط، وقام أيضاً بتوصيل الماء الشروب للثكنات العسكرية والمقرات الإدارية المهمة بعد أن أعاد تهيئة قنوات المياه التي كانت موجودة، كما نصَّب نافورة للمياه شرق مسجد سيدي بلحسن.⁽¹⁾

د- فتح الشوارع المستقيمة والعريضة:

وجود المستعمر الفرنسي في مدينة تلمسان هو وجود لثقافته وانتمائه للحضارة الرومانية ذلك ما سعى إلى تجسيده على أرض الواقع، لأنهما جزءان لا يتجزآن من مشروعه الاستعماري أو هما الاستعمار كله

ولكي ينجح في ذلك فرض شخصيته المعمارية الغربية على المدينة وأهاليها الذين عاشوا لقرون عديدة تحت ظل شخصية معمارية وعمرانية نابعة عن تعالم الدين الحنيف، منذ أن خطَّ بها إدريس الأول مسجداً بأغادير سنة 174هـ/789م⁽²⁾، إلى غاية مجيء الأتراك واستقرارهم بها بعد أن ألحقها البايبراي صالح رايس بالجزائر العاصمة سنة 1554م.⁽³⁾

تجلَّت تلك الشخصية المعمارية في الشوارع المستقيمة والعريضة التي تم شقها داخل المدينة باعتبارها مكوناً أساسياً للنمط العمراني الغربي وشرياناً حيويّاً لتنقل جنود المستعمر الفرنسي، حتى لا يبقى أي مكان في المدينة إلا ويصله جنوده، وقد باشر المستعمر تجسيد ذلك في السنوات الأولى للاحتلال حيث كلفَّ الجنرال بيجو Bugeaud العقيد شرون Charon مدير الهندسة بالجزائر إعداد دراسة بهدف إنجاز مجموعة من المدن بها مع مراعاة طبوغرافية المنطقة ونوعية المناخ السائد فيها، وفي شهر أوت من سنة 1844م أعدَّت مجموعة من المهندسين الفرنسيين من بينهم المهندس رافوزي Ravoisie تقريراً

3-ibid,p:238-240

1-عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج07، ص:102

2-يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص:329

يتضمن جملة من التوجيهات المعمارية لبناء مدن تتماشى مع المعطيات السالفة الذكر على شاكلة المدن الأوروبية⁽¹⁾، وقد فرضت تلك التوجيهات هدم وتخطيط المباني التي شيدت في فترات سابقة وشق شوارع مستقيمة وعريضة وتوسيع الدروب التي أنجزها المعماري المسلم بميزة خاصة، وكان ذلك بمثابة شرح للتواصل الحضاري الذي عرفته المدينة، فقد خضع نسيجها المعماري لعدّة تغيرات عميقة على إثر غزو التنمية الحضرية الغربية لبعض أحيائها.

تم الاتفاق بعد عدّة اجتماعات ومراسلات توسيع حدود مدينة تلمسان العتيقة على ما كانت عليه إلى حدود 70 هكتار لتستعيب حجم السكان المتزايد في العشرين سنة المقبلة، أوكلت هذه المهمة لرئيس الفرقة الهندسية حسب ما جاء في المراسلة رقم 388 التي بعث بها الحاكم العام للجزائر في 15 مارس 1853م إلى وزير الحرب الفرنسي، وبموجب ذلك تمّ توسعة مدار الأسوار ليشمل الجهة الشمالية المسماة بتافرات والجهة الشمالية الغربية والجنوبية الغربية المحاذية للصهريج الكبير، لقد جاءت جميع التفاصيل المعمارية متوافقة مع الأهداف العسكرية التي سطرها المستعمر الفرنسي، فمثلاً تمّ استحداث طريق مُلاصق للصور الخارجي للمدينة على مدار مساره، سمي بطريق التحصينات وكذلك بالطريق العسكري تجدر الإشارة إلى أن طريقة التخطيط العمراني شهد تعديلاً في كيفية إعداده، فبعد أن كان مقتصراً على إدارة الهندسة لوحدها فقط، أصبح إعداده بدءاً من سنة 1853 مشتركاً بين إدارة المباني العمومية المدنية التي كانت تحت إشراف المهندس المعماري "فيلا دوسربي" Viala de Sorbier والمجلس البلدي ولجنة التهيئة المؤسسة بقرار ولائي في 30 أفريل 1853م، تحت رئاسة شارل بروسلاز Charl Brosselard بغرض إنشاء مخطط متكامل من جميع الجوانب⁽²⁾، وفيما يخص أهم الشوارع التي تم إنجازها نذكر مايلي:

3-Abdelkader Tahar,Op.cit,p:114

1-Abdelkader Tahar,Op.cit,p:115-206

➤ شارع السلم Rue de la paix (أنظر المخطط رقم 04): لا يزال يسمى بهذا الاسم لحد الساعة قام المستعمر الفرنسي بشقه من غرب المدينة إلى شرقها مروراً بالجامع الكبير من الجهة الشمالية إلى غاية الحي الأوربي الجديد، أثناء عملية تجسيد مخطط هذا الشارع اعترض مساره مسكن يعود لأحد العسكريين الفرنسيين يسمى سيور باشمان Sieur Bachman الذي رفض التنازل بعد التفاوض معه لكزنه أحد العسكريين فرنسيين، فقام المجلس البلدي لتلمسان باستعمال القوة القانون المتمثلة في حق المنفعة العامة من أجل تحقيق هدفه، وبعد تقديمه طلباً في 18 نوفمبر 1868 و 26 أبريل 1869م لمجلس الحكومة أعلن هذا الأخير في جلسته رقم 2201 المنعقدة بشهر فيفري 1870م تطبيق حق المنفعة العامة، ثم أعقبها قرار الحاكم العام الصادر بتاريخ 11 مارس 1870م لمباشرة الأشغال فتح شارع السلم⁽¹⁾، وقد بلغ عرضه بـ 10م، أما طوله فيقدر بـ 765م.

➤ شارع فرنسا Rue de France (أنظر المخطط رقم 04): يسمى حالياً بشوارع الاستقلال، تم شقّه في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي لربط المشور الذي كان مركزاً عسكرياً وإدارياً مع الجهة الشمالية والجنوبية، بحكم المسار الذي يسلكه، إذ ينطلق من الباب الشمالي ويتجه نحو الباب الجنوبي خلف المشور مروراً بـ غرب الجامع الكبير، يُقدر عرضه بـ 10م أما طوله فيقدر بحوالي 500م انتهاءً عند شارع غازي أول محمد، لقد أُستحدث هذا الشارع للأغراض عسكرية محضة، وفيما يخص تاريخ إنشائه فيُستنتج من الرسالة التي نشرها المسمى المنصور في جريدة تافنة التي كانت تصدر في مدينة تلمسان حول مدينة تلمسان ونواحيها وجهها لحاكم وهران بتاريخ 10 ماي 1893 واصفاً الحالة المزرية التي تعيشها المدينة بقوله أن المباني تنهار الواحدة تلو الأخرى ويوماً بعد يوم كذوبان قطع السكر في كأس ماء، وشارع فرنسا الذي أنجز قُرابة خمس وثلاثين سنة يعيش هو الآخر فراغاً تجارياً⁽²⁾.

1- Abdelkader Tahar, Op.cit, p:228

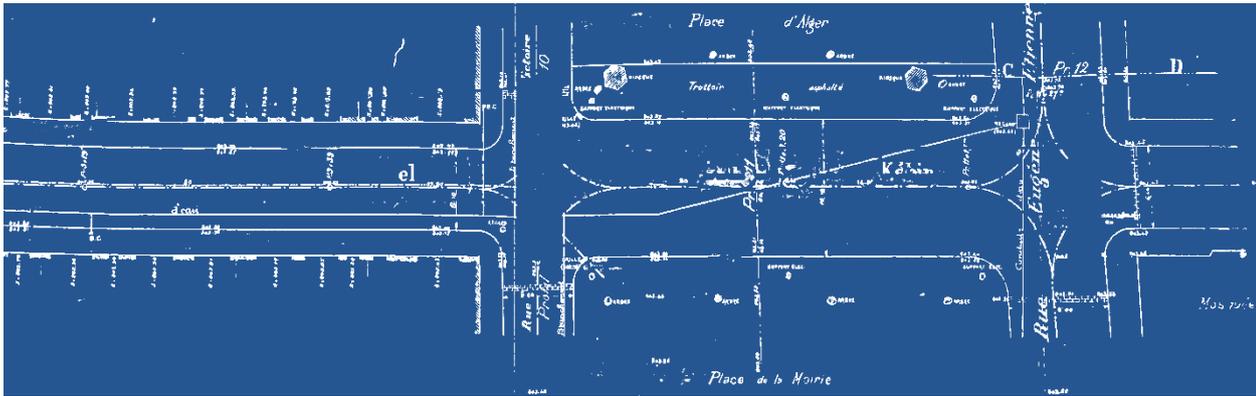
2- ibid, p:210

لم تحتوي هذه الرسالة وصفاً دقيقاً لشارع فرنسا فحسب بل للمدينة ككل، فقد تدهورت مساكنها وأخذت تتساقط وتنهار كلية، من دون أن يعير لها المستعمر الفرنسي أي أهمية لانشغاله بأمور عسكرية، ناهيك أن ذلك كان يصب في مصلحته، فإختفاء أكبر قدر من المباني هو إخلاء الطريق لبلوغ أحد أهم أهدافه الاستعمارية المتمثلة في محو الهوية المعمارية الإسلامية التي تشكل أهم روافد الهوية الوطنية، إضافة إلى ذلك يتضح أن سنة انجاز الشارع كانت سنة 1858م أي أنه أنجز بعد 16 سنة من احتلال مدينة تلمسان، ونظراً لدوره الريادي في الحركة لقرية من قصر المشور فقد قسم إلى قسمين واحد للذهاب والآخر للإياب حتى لا تتعرقل حركة العربات العسكرية، وهو ما يظهر في الرسم التخطيطي الموالي الذي يعتبر جزءاً من المشروع الخاص بالطريق رقم 07 الذي سيأتي الحديث عنه:

الرسم التخطيطي رقم 03: يبين التصميم الهندسي لشارع فرنسا (شارع الاستقلال حالياً) المنجز من طرف مصلحة الهندسة العسكرية الفرنسية، عن: مديرية الأشغال العمومية، الأرشيف، علبه رقم 370، ملف دون رقم، الورقة 18.

➤ الشارع الوطني Rue national (أنظر المخطط رقم 04): يسمى حالياً بشارع العقيد لطفي يعتبر هذا الأخير من أهم الإنجازات التي أنشأها المستعمر بمدينة تلمسان لأنه لعب دوراً كبيراً في ربط المدينة مع ما يحيط بها من المناطق، يُطلق عليه اليوم شارع العقيد لطفي، وقد أُطلق عليه في أول الأمر قبل تسميته بالشارع الوطني باسم شارع نابليون، مساره العام يبدأ غرباً من باب وهران إلى ساحة بيجو شرقاً التي كانت تسمى هي الأخرى بساحة نابليون⁽¹⁾، اختلف في تحديد عرضه، حيث اقترح المهندس فيلا دوسورييه Viala de Sorbier رئيس مصلحة مباني المدينة عرضاً قدره 32م، في حين اقترح المجلس البلدي للمدينة عرض قدره 12م فقط، لكن بعد المداولات التي قامت بها لجنة الترصيف بتاريخ 22 ماي 1857م حسمت الموقف لصالح رئيس مصلحة المباني المدنية، في حين بقي الشطر الثاني منه، وهو التمديد إلى غاية ساحة بيجو (ساحة الشهداء حالياً) قيد حيز التنفيذ إلى غاية 25 جويلية

1903م تاريخ اجتماع المجلس البلدي الذي قرّر تمديده بعرض قدره 12م، لكنه جُوبه بالرفض من عدة جهات وهو ما تم الإعلان عنه في المقال الذي نشر بجريدة تافنة بتاريخ 24 أوت 1904م، فأحيلت القضية إلى التصويت الذي تمخّض عنه في 26 أفريل 1905م قرار لتمديد الشارع الوطني إلى غاية ساحة بيجو (ساحة الشهداء حالياً) بعرض قدره 20م، يبلغ طوله الإجمالي حوالي 640م، تزامن اتخاذ هذا القرار مع انجاز السوق المغطى السالف الذكر مكان القيصارية، لذلك كان لزاماً على



المخططين انجازه بذلك العرض لتسهيل حركة تنقل الأشخاص والبضائع وحتى الجنود.⁽²⁾

➤ شارع هايدو Rue Haëdo (أنظر المخطط رقم 04): يسمى حالياً بشارع معركة فلاوسن ينطلق محوره العام من باب كشوط المتواجد بالجنوب الغربي للمدينة مروراً بالمدرسة الفرنسية الإسلامية وصولاً إلى ساحة الجزائر (ساحة محمد خميسي حالياً) الموجودة بقلب المدينة، يسمى حالياً بشارع معركة فلاوسن، تم التعرض لقضية انجازه في أواخر القرن التاسع عشرة ميلادي، وذلك حسب ما جاء في جريدة بريد تلمسان Le Courier de Tlemcen الصادرة بتاريخ 10 فيفري 1893م، حيث أعلن رئيس المجلس البلدي لتلمسان عن فتح تحقيق إداري للوقوف على سلبات وإيجابيات استحداث هذا الشارع وذلك من 01 إلى 17 فيفري 1893م.⁽³⁾

1-Abdelkader Tahar,Op.cit,p:234

1-Abdelkader Tahar,Op.cit,p:232

2-ibid,p:234

بعد الانتهاء من التحقيق بعث رئيس المجلس البلدي رسالة في 03 ماي 1893 إلى السيد ربنيس Rabnis رئيس مصلحة الهندسة العسكرية بالمدينة تحت رقم 744 يطلب فيها هدم المساكن التي توجد على طول مسار الشارع المراد شقّه، وبعد قيام هذا الأخير بمباشرة التحقيق الميداني وجد ثمانية عشرة بناية لا بد من تحطيمها من بينها بناية عسكرية تأوي بعض الجنود، لذلك اضطر إلى إعلام الجهات العليا أنه تلقى رسالة من رئيس المجلس البلدي لهدم مساكن من بينها بناية عسكرية، وفي نفس الوقت أعلم رئيس المجلس البلدي بملاحظاته في رسالة بتاريخ 09 ماي 1893م، لم يتوقف مشروع فتح الشارع، بل تم انجازه نظراً لأهميته وفق خط مستقيم مع ترك أرصفة مع الجانبين لممر الراجلين بعرض قدره 09م يبدأ في التقصص إلى 06م عند اقترابه من ساحة الجزائر (ساحة محمد خميسي حالياً)، ازدادت أهمية هذا الشارع عندما تم ربطه مع الطريق الوطني رقم 07 عقب اجتماع المجلس البلدي المنعقد بتاريخ 16 جويلية 1931م، فأصبح بذلك همزة وصل بين وسط المدينة وخارجها.

➤ شارع المسرح: Rue de Théâtre (أنظر المخطط رقم 04): يسمى حالياً بشارع الرائد مختار بوزيدي يتجه المسار العام لهذا الشارع من الشمال إلى الجنوب انطلاقاً من السوق المغطى إلى ساحة المشور جنوباً وفق محور أفقي مستقيم طوله 260م وعرض قدره 07م، سمي بذلك الاسم نسبة للمسرح الذي بني في تلك الناحية من طرف المهندس تريديني Tribaudini، تم ربطه فيما بعد مع شارع معسكر Ruede Mascara (شارع مرابط محمد حالياً)⁽¹⁾، حتى يتمكن جنود المستعمر الفرنسي من الولوج إلى داخل النسيج المعماري العتيق بحي باب زير ليصل من خلاله إلى باب الجياد التي وجدت بالجهة الشرقية من المدينة، وبذلك يكون قد أوصل المشور الذي تمركز فيه عقب دخوله مباشرة إلى المدينة مع باقي الأحياء الأخرى.

1- Abdelkader Tahar, Op.cit, p:221-233

➤ شارع كسيميناس: Rue de Ximénes (أنظر المخطط رقم 04): يسمى حالياً بشارع بن خمسين كان يسمى في أول الأمر شارع فرنسا Rue de France، ثم سمي بشارع كسيميناس Rue de Ximénes نسبة لأحد رؤساء الأساقفة الملقب بكسيميناس دوسييسنرس Ximénes de Cisneros، يبدأ مساره من الشمال مروراً بساحة كافيناك Place Cavaignac (ساحة أول ماي حالياً)، وساحة القديس ميشال Place Saint Michel (ساحة القيروان حالياً) وصولاً إلى حي الكراغلة المقابل للمشور من جهة الجنوب الغربي، أين يمر هناك بمحاذاة مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، يقدر عرضه بـ 10م ثم يتقلص إلى 08م في نهايته، أما طوله فيقدر بحوالي 700م، تطلب إنجازه هو الآخر تهديم المساكن التي وجدت في طريقه كبقية الشوارع التي استحدثت، وقد تم التطرق لهذه القضية في اجتماع المجلس البلدي بتاريخ 28 ماي 1862، من أجل تحطيم تلك البنايات وتعويض ملاكها.⁽¹⁾

تجدر الإشارة أن فتح الشارع كان بمثابة نقطة النهاية لما تبقى من المدرسة اليعقوبية، فقد ذكر القس برجس Bargés أنها كانت في حالة متدهورة ومهجورة، ولأنها كانت تقع في المسار المخصص لشارع كسيميناس Ximénis لم يتوان المستعمر الفرنسي عن تحطيمها للوصول إلى داخل الحي السكني.⁽²⁾

لقد أُشير في اجتماع المجلس البلدي السالف الذكر صاحب المسكن رقم 1178 المسمى بيدرا SrPedra وصاحب المسكن رقم 2112 المسمى حاج محمد بندي ولد بلحاج اللذين رفضا التخلي عن مسكنهما مقابل تعويضهما، ونتيجة لذلك بعد طلب المجلس البلدي بعث حاكم وهران في 27 ديسمبر 1862 رسالة يأمره فيها بتطبيق مبدأ المنفعة العامة لتحطيم المسكنين، ثم أعبقت هذه الرسالة بقرار رقم 758 الصادر بتاريخ 14 جانفي 1863 يؤكد حق المنفعة العامة، انتهى الأمر بتحطيمهما

1-Abdelkader Tahar,Op.cit,p:222

2-L'abbé Bargés,Op.cit,p:336-337

وإنجاز المشروع حسب ما كان مسطراً له في المخطط⁽¹⁾، وذكر من جهته أندريه لوكوك André Lecocq أن شق هذا الشارع أدى أيضاً إلى تحطيم نافورة المياه والمراحيض الخاصة لمسجد سيدي إبراهيم المصمودي⁽²⁾، وهو ما تسبب في ضياع تصميمه الأصلي وبالتالي تشويه ميزته الفنية والتاريخية.

➤ شارع سيدي بلعباس: Rue Sidi Bel Abbés (أنظر المخطط رقم 04): يسمى بشارع أول نوفمبر في الوقت الراهن، يعتبر هذا الشارع من ضمن الشوارع الأولى التي شقت في النسيج التاريخي لحي الرحبية مدينة تلمسان حتى يتم ربط المركز الإداري والعسكري المشور بباب سيدي بومدين الذي سمي في أول الأمر باسمه قبل أن يسمى بشارع سيدي بلعباس، تم الاتفاق على إنجازها بعد الاجتماع الذي جمع بين ممثل المجلس الأعلى والرائد المكلف بالهندسة العسكرية بالجزائر عامة حول دراسة مشروع إعادة توجيه الشوارع وتسويتها في مدينة تلمسان بتاريخ 06 أكتوبر 1845م، فتقرر تعديل مخطط شارع الإخوة والمحاسب وبومدين، وبعد ثلاثة سنوات اقترح الرائد المكلف بالهندسة العسكرية زيادة توسيع شارع سيدي بلعباس إلى عشرة أمتار، ثم اقترحت بعد ذلك لجنة إعادة توجيه الشوارع في جلستها المنعقدة بتاريخ 15 نوفمبر 1860 تغيير اتجاهه، الأمر الذي فرض عليها تحطيم مسكن يقع في مساره يعود لورثة بن جبار الذين تجاوبوا مع مطلب اللجنة مقابل تعويضهم بملكية أخرى، تمت عملية التبادل بين اللجنة والورثة بعد إعداد ملف خاص يتكون من عقد التبادل ومحضر كتابي خاص بتقرير الخبرة العقارية والمخطط المعماري للشارع سيدي بلعباس.⁽³⁾

➤ شارع المنصور: Rue Almansour (أنظر المخطط رقم 04): يحمل حالياً اسم شارع عيسات إيدير، لقد شكّل هذا الأخير أحد دروب حي الرحبية الشمالي، وهو يتقاطع مع شارع بلعباس (شارع أول

3- Abdelkader Tahar, Op.cit, p:222

4- André Lecocq, Op.cit, p:236

1- Abdelkader Tahar, Op.cit, p:225-226

نوفمبر حالياً) وشارع لاموريسيار (شارع الإخوة بن شقرة حالياً)، قام المستعمر الفرنسي بتوسيعه وتمديده ليربط الشارعين اللذين سلف ذكرهما، تسهياً لحركة تنقل الجنود وفك العزلة عن تلك الناحية من المدينة العتيقة، تقرر تنفيذ أشغاله توسعته بعد اجتماع المجلس البلدي لتلمسان بتاريخ 29 أوت 1863م أي بعد حوالي عقدين من دخول المستعمر للمدينة، وقد نجم عن توسعته مصادرة بعض المساكن التي حالت دون إنجاز التوسعة الخاصة بالشارع وفقاً لما هو معمول به في المادة 26 من القانون الصادر بتاريخ 01 أكتوبر 1844 والمادة 02 من القانون الصادر بتاريخ 08 سبتمبر 1859م، اللتين تؤكدان شرعية استعمال حق المنفعة العامة، وذلك بعدما رفض أصحاب بعض المساكن التنازل للمجلس البلدي حسب ما جاء في تقرير المبعوث إلى الحاكم العام من طرف مديرية المنشآت المدنية تحت رقم 126 بتاريخ 08 أبريل 1864، لقد ركز التقرير على ذكر اسم "الحاج عبد القادر بريكسي" صاحب المسكن رقم 2569 وورثة "محمد كوردالي" أصحاب المسكن رقم 2572 والمسكن رقم 2585 الذين رفضوا رفضاً قاطعاً تسليم مساكنهم⁽¹⁾، لكن أهمية إنجاز ذلك الشارع ضربت عرض الحائط اهتمامات السكان وما يملكونه، إذ تم في الأخير تهدم المباني وتمير الشارع.

➤ شارع المعصرة: Rue de l'huilerie (أنظر المخطط رقم 04): أطلق عليه اسم شارع سيدي حامد حالياً بعد الاستقلال، يعتبر هذا الأخير من دروب حي الرحبية الشمالي تشابحت عملية توسعة هذا الشارع مع شارع "المنصور" (شارع عيسات إيدير حالياً)، فقد تم تعديله ليتوافق مع ما يريده المستعمر من استقامة وعرض لأنه كان درباً من درب الحي التي تميزت بتعرجاتها وضيقها، سُمي بذلك الاسم لوقوعه بالقرب من معاصر الزيتون التي كانت موجودة هناك، أطلق عليه المستعمر اسم جرمان سباتيه Germain Sabatier رئيس بلدية تلمسان بين سنة 1888م و1892م، وذلك مع مطلع القرن العشرين، وتم مباشرة تحقيق ميداني بطلب من رئيس بلدية تلمسان حول المساكن الواقعة في مساره، وقد دام ذلك إحدى عشرة يوماً بدءاً من 01 إلى 11 مارس 1861م، وانتهت العملية بإحصاء عدد من

1- Abdelkader Tahar, Op.cit, p:224

المساكن التي لا بد من تحطيمها للإيجاز مشروع التوسعة التي تفتنّ المستعمر لأهميتها بهذا الحي منذ السنوات الأولى التي دخل فيها المدينة، ففي المراسلة رقم 1053 الصادر بتاريخ 19 مارس 1847م أمر الحاكم العام للجزائر الرائد المكلف بالهندسة إجراء تعديلات على بعض دروب مدينة تلمسان التي من بينها درب المعصرة، بعد إعلام أصحاب المسكن رقم 779، تقدّم مالكة السيد عبد القادر وأخوه محمد بوعياذ بطلب مبلغ مالي قدره عشرة آلاف فرنك فرنسي مقابل التنازل عن مسكنهما الواقع في مسار توسعة الدرب، لكن رئيس بلدية تلمسان رفض طلبهما واعتبر المبلغ المالي مبالغ فيه، الأمر الذي دفعه إلى

استخدام قوّة

القانون عبر تجسيد

حق المنفعة العامة

على غرار ما

استعمل في جميع

الشوارع التي تمّ

فتحها أو توسعتها

بالنسيج المعماري



للمدينة⁽¹⁾، وقد كان إقدام المستعمر على تحطيم ما تبقى من الأسوار الدفاعية التي كانت تضيء على المدن الإسلامية جمالية وهيبّة، أثر بالغ على القيمة التاريخية للمدينة⁽²⁾، فبعدما أعاد المستعمر الفرنسي بنائها وفق المسار الذي كانت تمرّ فيه بموادّ بناء تختلف عن تلك التي كان يستعملها البناؤون في العمائر المشيّدّة بمدينة تلمسان سواء كانت دينية أو مدنية أو عسكرية، فجميعها بنيت بمواد

2-ibid,p:220

2-زهير البحيري، المدينة العتيقة بصفرو بين التدهور وردّ الاعتبار، الملتقى الوطني الثالث والعشرين حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبد اللطيف معزوز، الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، ماي 2012، ص: 184

تتوفّر عليها البيئة التي وجدت فيها، لقد استعمل المستعمر مادة الحجر المصقول في إعادة بناء السور الدفاعي، ووجدنا عند معاينتنا له بالزاوية الجنوبية الغربية مقابل ثانوية الدكتور بن عودة بن زرجب بالجهة الغربية من المدينة العتيقة كلمة "Maillet"⁽¹⁾، أنظر الصورة الآتية:

الصورة رقم (02): تبين سنة بناء السور الجديد الذي يحيط بمدينة تلمسان من الجهة الجنوبية الغربية

(مقابل ثانوية الدكتور بن زرجب)

بعد استكمال ما كان مسطراً له في مشروعه الاستعماري قام بتشديد عدد من المؤسسات المختلفة الطابع بالجهة الشمالية الغربية للجامع الكبير تمثلت في محكمة ومقر المحافظة ومقر للحرس الوطني وكنيسة، هذه الأخيرة التي قام بنقلها من مكان مجاور للبلدية إلى الجهة الغربية للجامع الكبير على بعد حوالي 200م بالمكان المسمى تافرات، بعد ما كثر عدد المعمرين المسيحي وضاق مجالها بهم، شُرع في إنجازها سنة 1863م تحت إشراف فيلا دوسرييه Viala de Sorbier رئيس مصلحة الهندسة بمقاطعة

1- تعني كلمة "Maillet" مطرقة كبيرة الحجم ذات رأسين مصنوعة من اللوح الصلب، تستعمل لصقل الحجارة بواسطة الإزميل
أنظر:

Chantal Lambrechts, Line Karoubi, Bruno Durand et autres, **Le Petit Larousse En Grand Format**, dictionnaire Français-français, Maury imprimeur S.A Malsherbes, Paris, 2005, p:652

وهران، وقد وضع بها جزء من نافورة مياه مصنوعة من المرمر اكتشفها القديس بروفي Brevet في الحفريات التي أجراها بالمنصورة.⁽¹⁾

لقد واصل المستعمر اهتمامه في تحديث الفضاء المعماري عبر استحداث توسعات عمرانية خارج الأسوار باتجاه الجنوب الغربي والشرقي، وقد تميزت الأحياء الجديدة بطابع غربي محض، شوارعها متعامدة ومقاييس عريضة كحي الأفق الجميل والهواء الجميل والقلعة الذي يوجد على طول نسيج هضبة لالة ستي، لذلك رافق هذا التوجه الجديد تغيير في المورفولوجية الحضرية التي كانت عليها المدينة وظهور ضغوطات على المورث العمراني، فقد أدى تزايد السكان إلى تمزيق الفضاء المكاني للنسيج المعماري العتيق والتوسع وراء أسواره التي كانت في يوم من الأيام الذرع الواقي للمدينة من هجوم الأعداء وآخر العناصر المعمارية للمدينة والحد الفاصل بين ما هو بداخلها وخارجها، لقد غابت هذه الرمزية في التصميم العمراني بمدينة تلمسان وأصبح هو بحد ذاته جزء من التكوين الداخلي، بل أكثر من ذلك فقد اختفت معالمه تماماً، ولم يتبق منه إلا القليل النادر على مستوى الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية.

يمكن القول ممّا سبق ذكره عن جملة التدخل الاستعماري في مدينة تلمسان، أن السياسة الاستعمارية لفرنسا توافقت مع عامل الزمان والمكان، إذ قام بتقسيم مشروعه الاستعماري إلى مرحلتين أساسيتين الأولى اعتنى فيها بالجانب الداخلي للمدن وإحكام قبضته جيداً عبر إنشاء عدد من الشككات وتقوية التحصينات، إضافة إلى إعادة ضبط المورفولوجية الحضرية لمدينة تلمسان العتيقة وفقاً لفكره التنموي الغربي المتوافق مع مصالحه السياسية والاجتماعية وحتى الثقافية، أما الثانية فقد اهتم فيها بإعداد البنية التحتية عبر تشييد مجموعة من المشاريع التنموية التي تساعده في استدامة وجود واستنزاف الثروات أقصى ما يمكن لتحويلها إلى بلده.

1-Louis abadi, Op.cit,p:58

من بين أهم ما انصب اهتمامه على تشييد ما له علاقة بالبنية التحتية والمنفعة العامة خارج النسيج التاريخي، ولكن بالقرب من المعالم التاريخية والمواقع الأثرية السكك الحديدية وشبكة طرق، نظراً لأهميتها إذ تعتبر شريان الحياة الاقتصادية والاجتماعية وأهم ما يساعد في تحقيق أهداف التنمية الحضرية، لأنها عبارة عن مسالك عمومية مهيأة بشكل جيد من حيث الطول والعرض وقدرة الاستيعاب يحتاجها العام والخاص⁽¹⁾، بالنسبة للمستعمر الفرنسي كانت أكثر من ضرورة، بل واحدة من الأهداف التي سَطَّرت عقب احتلاله للجزائر، حيث لم تكن مجرد وسيلة نقل، بل محركاً اقتصادياً يربط مكان الإنتاج بالموانئ لتصديرها إلى فرنسا، وأداة عسكرية تُحكم من خلالها قبضتها على المناطق المحتلة عبر تسهيل تنقل فرقه العسكرية بين المدن الجزائرية التي احتلها.

انقسمت الطرق التي أوكلت مهمة إنجازها لمديرية الجسور والطرق إلى ثلاثة أقسام أساسية وذلك حسب الهدف المسطر لها، فأما القسم الأول فحُصص لأغراض عسكرية وسياسية أشترط في إنجازها وجود وعامل الأمن لذلك تم تمريرها على مقربة من نقاط المراقبة، وأما القسم الثاني فقد قدم دوراً مدنياً محض، إذ تم استعماله للمنفعة العامة وتنقل الأشخاص أنجزت على نفقة مديرية المنشآت المدنية، وأما بالنسبة للقسم الثالث فقد تمثل في الطرق الثانوية القصيرة المدى، خصصت تكاليف أشغالها من الغلاف المالي المتحصل عليه من عائدات الضرائب المفروضة على الشعب الجزائري⁽²⁾، وكمثال عن هذا الأمر نشير إلى حصيلة المداخل التي تحصل من الضرائب والغرامات المفروضة على سكان مدينة تلمسان ومصادرة أموال الأوقاف سنة 1846.

-ضرائب عمليات البيع بالجملة: 1.199.20 فرنك فرنسي.

-الغرامات المالية الناجمة عن التجاوزات: 32.296.30 فرنك فرنسي.

1-نجلاء جرم ميلي، النقل شبه الحضري بولاية عنابة، واقع وآفاق، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم التهيئة العمرانية، تخصص

التهيئة الإقليمية، كلية علوم الأرض والجغرافية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، ص: 123

1-Ministère de la guerre, Op.cit, p:81

-الأوقاف المخصصة للمساجد هي الأخرى استحوذت عليها وقد بلغت مداخيلها ما يعادل 22.599.92 فرنك فرنسي.⁽¹⁾

يعتبر الطريق الوطني رقم 07 الذي لا يزال يؤدي دور لحد الساعة من بين المشاريع المهمة التي عكف المستعمر على إنجازها بمنطقة تلمسان، فقط أصبح شرياناً اقتصادياً بالغ الأهمية وعامل سياسي يساعد في تنقل المستعمرين المناطق التي يمر بها، وذلك ما تضمنته المراسلة التي بعث بها السيد دوكوسوت "M.Ducoussot" رئيس مصلحة الهندسة بالدائرة الثانية لمقاطعة وهران التابعة للمديرية العامة للجسور والطرق إلى نضيره رئيس مصلحة الهندسة بالدائرة الأولى بنفس المقاطعة بتاريخ 14 جوان 1954م، كما ذكر أن الطرق الأكثر استعمالاً بالجهة الغربية للجزائر هي كالتالي:

-الطريق الوطني رقم 02: يربط هذا الأخير مدينة وهران بالحدود المغربية.

-الطريق الوطني رقم 07: لأنه يربط بين عدة مناطق كغليزان، معسكر، سيدي بلعباس، تلمسان، مغنية.

-الطريق الوطني رقم 13: لأنه يعتبر من بين الطرق ذات الطابع التجاري، فقد أنجزه المستعمر للاستنزاف الثروات الطبيعية من المناطق الجنوبية الغربية باتجاه ميناء أرزيو.⁽²⁾

قامت الإدارة الاستعمارية بتميرير الطريق الوطني رقم 07 عند وصول أشغاله إلى مدينة تلمسان بحي باب زير الموجود بالجهة الشرقية لمدينة تلمسان بطول قدره 212 م⁽³⁾، عبر شارع خلدون الذي تمت توسعته عرضياً بمقدار 08م في وقت سابق بمحاذاة مسجدين، الأول مسجد الشرفاء والثاني مسجد لالة الغربية، (قد سبق الحديث عنهما في الفصل الثالث من الأطروحة)، وصولاً إلى ساحة الشهداء (ساحة بيجو Bugeaud إبان الاستعمار)، أين كان يرتبط مع شارع العقيد لطفى (الشارع الوطني إبان

2-André Lecocq,Op.cit,p:109

3-مديرية الأشغال العمومية لولاية تلمسان، الأرشيف، علبة رقم 170، ملف (دون رقم)، الورقة 15

1-بلدية تلمسان، المصلحة التقنية.

الاستعمار) وفق مسار يتجه من الشرق إلى الغرب بطول قدره 629م وعرض قدره 32م، ثم ينعطف الطريق رقم 07 بعد ذلك جنوباً مروراً بشوارع العزون رضوان (ممر الصنوبر L'allée de Pins إبان الفترة الاستعمارية)، ثم يمر شرق الصهريج الكبير وفق طول قدره 371م وعرضه 24.5م، أنظر الصورة الموالية.



الصورة رقم (03): تبين مسار الطريق رقم 07 باللون الأصفر مروراً بالجهة الشمالية الشرقية من نسيجها

المعماري والموقع الأثري المنصورة، عن: www.google earth.com (بتصرف)

الملاحظ أن المستعمر الفرنسي تعمد تمرير خط الطريق الوطني رقم 07 بالشوارع العريضة حتى تسهل حركة السيارات داخل المدينة، ثم ينعرج مسار الطريق غرباً مروراً بالصهريج الكبير جنوباً، ليخرج من المدينة باتجاه الموقع الأثري المنصورة التي يلجها من جهتها الشرقية فوق أحد المآثر المدنية التي سيأتي الحديث عنها في فصل التأثيرات من هذه الأطروحة.

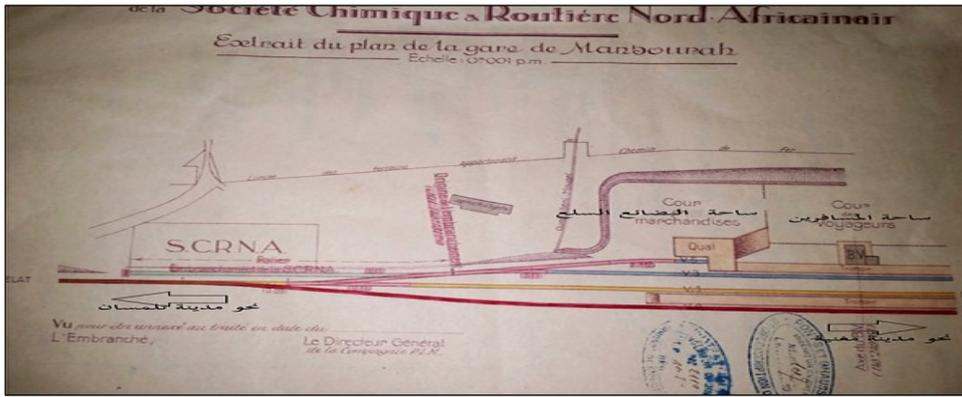
أعتبر إنجاز هذا الطريق أمراً مهماً للغاية على الصعيد السياسي والاقتصادي، إذ من خلاله تمكن المستعمر الفرنسي من ربط المناطق الحدودية مع المناطق الداخلية، لتسهيل تحركه وإحكام قبضته جيداً على المناطق التي يمر بها، كما استطاع أيضاً من خلاله نقل وتحويل الثورات الطبيعية كالمحاصيل الزراعية والمواد الأولية إلى فرنسا عبر الموانئ، بالموازاة مع إنجازها قامت إدارة الجسور والطرق بإنشاء خط للسكة

الحديديّة يتجه هو الآخر إلى الحدود المغربية، باعتبار هذا النوع من النقل الأكثر شيوعاً في تلك الفترة الزمنية والأكثر أمناً وحمولة للمسافرين والبضائع، كما أن له أثر بالغ في تدعيم سلطة المستعمر من خلال تيسير تنقل فرقه العسكرية بين المناطق، لذلك لم تغفل السياسة الاستعمارية عن هذا الجانب، إذ بمجرد ما توطدت أقدامه بإيالة الجزائر أصدر نابليون الثالث ملك فرنسا مرسوم ملكي في 08 أفريل 1957م لإنجاز خط للسكة الحديدية بطول قدره 1357 كلم منها 80 كلم تمر بالقرب من السواحل بدءاً من قسنطينة نحو الجزائر العاصمة ثم إلى وهران مروراً ببليدة وسطيف، تجدر الإشارة إلى أن دراسة المشروع كانت قد أعدت في وقت سابق يرجع إلى سنة 1830م من قبل المهندس إيميل بيغيغ "Emile Pereire" بمساعدة بعض من أصدقائه المهندسين، تم البدء في هذا المشروع في 12 ديسمبر 1859م وأنهى منه في 08 سبتمبر 1862م، وبعد ذلك انتقل المستعمر الفرنسي لإنجاز مشروع خط ثاني في 18 جويلية 1879م لصالح المنفعة العامة بطول قدره 1747 كلم، وقد أوكلت مهمة إنجازها إلى شركات خاصة والسلطات المحلية، تمكن المستعمر من خلال هذا الخط ربط عدد كبير من المناطق مع بعضها البعض، إذ تم ربط سطيف مع البويرة، أرزيو مع سعيدة ومستغانم مع غليزان، سيدي بلعباس مع تلمسان ومن ثمّ إلى الحدود المغربية، وبعد الانتهاء من المشروع باشر المستعمر في إنجاز خط ثالث وذلك في سنة 1907م بطول يقدر بـ 1614 كلم لربط المناطق الشمالية بالجنوبية وهو ما سيسمح له بتجسيد سياسته الاقتصادية والعسكرية بنجاح.⁽¹⁾

فيما يخص خط السكة الحديدية الرابط بين تلمسان والحدود المغربية، فقد تمّ التعرض لمجريات قضية إنجازها في المراسلة رقم 433 التي بعث بها المدير العام لمديرية السكك الحديدية بالجزائر إلى السيد رئيس مصلحة الجسور والطرق لمقاطعة وهران بتاريخ 01 جويلية 1907م، وقد استهل حديثه فيها عن موعد بداية الأشغال الذي كان قد تقرّر في الفاتح من شهر جانفي من سنة 1904م، عقب الاتفاقية التي أبرمت مع صاحب المقاوله بتاريخ 03 ديسمبر 1903م، على أن ينتهي منها في أجل لا يتعدى أربع

1- www.encyclopedi-afn.org/index.php/Algérie_chemin_de_fer.

في



سنوات أي

حدود سنة

1908 م⁽¹⁾، ثم عرج للتنويه ببعض النقاط المتعلقة بالمستوى الذي وصل إليه المشروع قيد الإنجاز المتمثلة فيما يلي:⁽²⁾

-الخط الرابط بين مدينة تلمسان وتوران Turenne صبرة حاليا لم يكتمل إنجازها بعد، وهو يمثل ما يقارب نصف طول المشروع الإجمالي للخط.

-تكلفة الأشغال التي تم إنفاقها بعد مرور وأكثر من ثلاث سنوات بلغت 5.524.000 فرنك فرنسي من المبلغ الإجمالي للمشروع والمقدر ب: 10.350.000 فرنك فرنسي.

كما عمل المستعمر الفرنسي على استحداث محطة لنقل المسافرين والبضائع خارج مدينة تلمسان بالجهة الشمالية الشرقية على مقربة من باب الجياد بالجهة الشمالية الشرقية، والرسم التخطيطي الموالي يوضح تصميمها الهندسي المنجز من طرف المؤسسة الكيميائية والطرقية لشمال إفريقيا، وقد أطلق عليها اسم المنصورة، أنظر الصورة الآتية:

2- مديرية الأشغال العمومية لولاية تلمسان، الأرشيف، علبة رقم 382، ملف رقم 892، الورقة 01

3- مديرية الأشغال العمومية لولاية تلمسان، الأرشيف، علبة رقم 383، ملف رقم 893، الورقة 01

الرسم التخطيطي رقم 04: يبين التصميم الهندسي لمحطة المنصورة بمدينة تلمسان، عن: مديرية الأشغال

العمومية لولاية تلمسان، الأرشيف علية رقم 382، ملف رقم 889، الورقة 03

استجابة للتعليمات السالفة الذكر، تم إعداد محضر عن أهم المراحل التي اجتازها المشروع من طرف السيد بلاتل "Platel" مهندس بمصلحة الجسور والطرق مختص بمراقبة المشاريع والسيد شولات "Cholet" مهندس بمصلحة البناء بالجهة الغربية للجزائر، تضمن مايلي:

-المسار: يبدأ مسار هذا الخط من مدينة تلمسان إلى الحدود المغربية أي من الشرق نحو الغرب ثم ينعطف جنوب الطريق الوطني رقم 07 باتجاه سيدي مجاهد ومدينة مغنية بطول قدره 39.607 كلم.
-المعابر: تمثلت في إعداد مجموعة من الجسور والأنفاق طولها الإجمالي قدر بـ 1063م، كما ورد في الاتفاقية التي عقدت مع المقول في 03 ديسمبر 1903م.

-المحطات: توزعت هذه الأخيرة على طول مسار الخط بلغ عددها خمسة، وتوزعت كالاتي: مدينة تلمسان كما تقدم ذكره، سيدي مجاهد، تغاليمات، مغنية الحدود المغربية، تضمنت بناية من الطابقين وثلاث مساحات الأولى للمسافرين والثانية للبضائع والثالثة خصصت للجنود، إضافة إلى مستودع للفحم وصهريج للماء، باستثناء محطة تغاليمات فقد كانت عبارة عن موقف يخلو من أي مرفق.

-المسلك: يتكون الأخير من خطين متوازيين مصنوعين من الفولاذ تتقاطع معهما قطع فولاذية طول كل واحدة منها 1.20م وعرضها 20سم تنفصل عن بعضها البعض بمسافة قدرها نصف متر.⁽¹⁾

بعد الانتهاء من الأشغال بعث مهندسي مصلحة السكك الحديدية لمقاطعة وهران مراسلة رقم 427 إلى السيد المدير العام لمديرية السكك الحديدية بالجزائر تتعلق بموضوع تاريخ الافتتاح، فقام هذا الأخير بالرد على طلبهم بتاريخ في المراسلة رقم 1579، بعد أن قام بتكليف لجنة مراقبة المشاريع على

1- مديرية الأشغال العمومية لولاية تلمسان، الأرشيف، علية رقم 383، ملف رقم 898، الورقة 07

مستوى مديريته إعداد تقرير مفصل عن المشروع، وقد جاء فيها أنه لم يتبق عن الانتهاء من المشروع إلا عشرين يوماً، بناءً على ذلك قرر المدير العام افتتاح الخط واستغلاله ابتداء من 18 أكتوبر 1907.⁽¹⁾

يتضح مما سبق ذكره أن ما أنجزته فرنسا بمدينة تلمسان من تدخلات في النسيج المعماري العتيق لم تكن ضئيلة الحجم، وذلك لأهمية الموقع الاستراتيجي الذي تتبوأه تلمسان، والمدة الزمنية التي مكثت فيها ويتضح من خلال هذه المشاريع التنموية الحضرية أنه أراد البقاء في المدينة إلى الأبد، كما يتبين أيضاً أن البدايات الأولى لحدوث شرح وانفصال في الكيان الذي كان سائداً في المدينة العتيقة جاء على يد فرنسا، فقد جسدت ثقافتها ومرجعيتها الدّينية في التركيب العمراني التاريخي الذي يعتبر نتاج فكرٍ عقلائي، وبصمة يدٍ ماهرة انبثقا معاً عن ثقافة إسلامية متأصلة.

2-2-2 مدينة ندرومة:

مدينة ندرومة واحدة من المدن الضاربة في التاريخ التي تشكل عمرانها حول النواة المركزية الجامع الكبير أنظر الصورة رقم (04)، فقد احتضنت بين دروبها وأحيائها شواهد مادية على ما مر بها من دول كدولة المرابطين والموحدين والزيانيين مثلاً، ولم يكن أن تستقر بها هذه الدول لو لم تتميز بمؤهلات تماشت مع ما ذكره علي الجزنائي في مؤلفه جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس عمّا قاله الحكماء عن أفضل البقاع عيشاً، فقد استوجبوا اجتماع عدد من الشروط المتمثلة في نهر جاري ومحرت طيب وحطب قريب وسور حصين يكفل حمايتها⁽²⁾، ويبدو أنّها الشروط نفسها التي اجتمعت لمدينة ندرومة، حيث تركزت في حصن طبيعي ذي تربة خصبة ومياه وفيرة عاد عليها بالنعف من الجانب الاقتصادي، حيث سهّل عليها استقطاب التجار إلى الحد الذي أصبحت فيه نقطة التقاء القوافل التجارية القادمة من الجنوب وسكان البوادي المجاورة لها، ودول الضفة الأخرى الذين وفدوا إليها عبر ميناء هنين الذي لم يبعد عنها إلا 30 كلم، والذي اعتبر الرئة الاقتصادية للدولة الزيانية، ومن بعده ميناء

1- مديرية الأشغال العمومية لولاية تلمسان، الأرشيف، علبة رقم 383، ملف رقم 898، الورقة 10

2- علي الجزنائي، مصدر سابق، ص: 33

الغزوات الذي لم يبعد عنها هو الآخر إلا حوالي 10 كلم⁽¹⁾، لقد صاحب ازدهار النشاط التجاري حركة معمارية ذؤوبة، فقد انتشرت عمائرهما وزادت رقعتها عما كانت عليه، كما صاحب ذلك النشاط حركة علمية واسعة فقد كانت قبلة الفقهاء كالفقيه أحمد بن الحسن الغماري الذي تحدث عنه ابن مريم التلمساني في كتابه البستان في ذكر أولياء تلمسان أنه من أكابر أولياء الله تعالى المنقطعين لعبادته، وأنه بقي بمدينة ندرومة زمناً طويلاً يتعبد فيها بالجامع الكبير⁽²⁾، ونظراً للعراقة المستمدة من مآثرها التاريخية صنف طبقاً للمرسوم التنفيذي رقم 402/09 كقطاع محفوظ مساحته الإجمالية تقدر بـ 23 هكتار، يقع بين خط طول 1° و 44 دقيقة غرباً ودائرة عرض 35° و 0 شمالاً، يحده شمالاً شارع جيش التحرير الوطني، وجنوباً حمصالي سايح ميلود، أما شرقاً فيحده شارع 20 أوت 1956 وغرباً وادي زيغة.⁽³⁾

ينقسم نسيجها إلى أربعة أحياء سكنية تلتقي كلها في الساحة المركزية المسماة بالتربيعة التي يوجد بها الجامع الكبير، وهي كالتالي: حي بني زيد، حي بني عفان، حي السوق، حي الخربة، ولا زالت تحتفظ بأسمائها لحد الساعة.⁽⁴⁾

عاشت مدينة ندرومة أوقات عصيبة في الفترة الوسطى، فقد تعرضت لويلات الصراع الزباني المريني باعتبارها المدينة الأولى التي كانوا يصادفونها في طريقهم إلى تلمسان العاصمة خاصة أنها كانت تكتسب أهمية بالغة عند سلاطين الدولة الزيانية، فحسب ما رواه يحيى بن خلدون أن السلطان عثمان بن يعمراسن استاء كثيراً بعد سقوطها بيدي السلطان المريني أبو يعقوب يوسف⁽¹⁾، كما ذكر محمد بن

1-Abderrahmen Khelifa, Op.cit,p:177

2-ابن مريم الشريف الملبتي المديوني، مصدر سابق، ص: 31

3-الجريدة الرسمية، مرسوم تنفيذي رقم 402/09، مرجع سابق، ص: 5-6

4-محمد بن زغادي، تأثير التنمية الحضرية على المعالم الأثرية-ندرومة نموذجاً-، رسالة ماجستير، تخصص علم الآثار والمحيط، قسم علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2010، ص: 17

1-يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ص: 120

عبد الله التنسي أن الأمير أبو يعقوب بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ترك مدينة تلمسان وقصورها ومُنياتها واستقر بندرومة للتعبد فيها والخلو بنفسه عن الدنيا لمدة أربع سنوات متتالية. (2)

عقب تدهور الأوضاع في الدولة الزيانية وظهور الخطر الاسباني على سواحلها تعرضت مدينة ندرومة للتخريب والتدمير، وقد ذكر مارمول كرنخال ذلك قائلاً: "...وهي في حالة من التخريب بحيث يُجبل لمن دخلها أنها فناء للدواجن لشدة رداءة مساكنها..." (3)، يؤكد هذا التقديم ما اعترى المدينة من ضرر في نسيجها المعماري جراء الاعتداء الاسباني الذي طالها بحكم موقعها القريب من الساحل.

انضوت بعد ذلك المدينة تحت الحكم العثماني ثم الاحتلال الفرنسي الذي خضعت له بعدما جرت عدة معارك طاحنة بين الجنرال بيدو Bèdeau والأمير عبد القادر، انتهت باحتلالها نتيجة رجوع الأمير عبد القادر إلى مدينة معسكر لمواجهة الجنرال لاموريسيار الذي حقق نجاحاً عسكرياً هناك (4)، وما زاد الطين بلة هو تنصيب المستعمر للمدافع بجبل فلاوسن المحاذي لها لقصفها، حينئذ قرّر أهاليها الخضوع لحكم المحتل. (5)

يبدو أن المستعمر الفرنسي لم يول لهذه المدينة نفس الاهتمام الذي أولاه لمدينة تلمسان، ربما لأنها كانت مدينة صغيرة ولم تكن بنفس الأهمية التي تبوأتها مدينة تلمسان، فهذه الأخيرة كانت العاصمة السياسية والاقتصادية للدولة الزيانية، وحتى في فترة حكم العثمانيين شكلت دوراً محورياً في سير الأحداث السياسية، فضلاً عما هو موجود فيها من مبانٍ ساعدت المستعمر على إيواء فرقته

2- محمد بن عبد الله التنسي، مصدر سابق، ص: 150

3- مارمول كرنخال، مصدر سابق، ج 02، ص: 195

4- شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص: 197

5- مصطفى جباري، ندرومة مدينة تاريخية مهد الموحدين، الملتقى الوطني الأول حول تاريخ مدينة ندرومة وضواحيها

ندرومة، 1987، ص: 03

انضوت مدينة هنين وهي على تلك الحال مجدداً تحت حكم الدولة الزيانية التي كانت تعيش أيامها الأخيرة بفعل الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي كانت حاصلة، بعدما عاشت لأكثر من ثلاثة قرون متتالية حالة من الرخاء والرقى، حيث سجّلت خلالها إنجازات في عدّة مجالات مختلفة بين ما هو سياسي واجتماعي واقتصادي ومعماري⁽²⁾، ويبدو أن وضع مدينة هنين بقي على ما هو عليه منذ تحطيمها على يد الإسبان، لأننا لا نملك أي إشارة تاريخية تدل على رجوعها إلى سابق عهدها في فترة حكم العثمانيين لذلك نرجّح أنها بقيت على حالتها مهجورة بعد أن كانت مدينة عريقة في التمدن وذات مكانة مرموقة بين حواضر المغرب الإسلامي.

بعد تلاشي الحكم العثماني وحلول المستعمر الفرنسي محلّهم بالجزائر، انضوت مدينة هنين كباقي المدن تحت حكمه، لم نصادف ذكر تاريخ محدد لاحتلالها في المراجع التاريخية، ولكن يتّصل أنها خضعت له قبل اكتمال سنة 1258هـ/1842م، لأنه في حدود هذه السنة كان المستعمر الفرنسي قد بسط هيمنته على جميع المدن والمناطق الأمر الذي دفع بالأمير عبد القادر إلى اتخاذ عاصمة مؤلفة من خيام كثيرة يرتحل بها من مكان إلى آخر⁽³⁾، ضف إلى ذلك أنه تم احتلال مدينة ندرومة القريبة منها في سنة 1842م⁽⁴⁾، وهو ما يرجّح فكرة احتلاله هي الأخرى في نفس السنة.

تحدّث رينيه باسي René Basset عن مدينة هنين بعد زيارته لها في نهاية القرن 19م أثناء

قيامه بجمع المادة العلمية لتأليف كتابه الموسوم بعنوان ندرومة وترارة Nedromah et les Traras

2- ابن الأحرر، مصدر سابق، ص: 15

3- محمد عمرو الطمار، مرجع سابق، ص: 260

4- شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص: 197

أنها كانت عبارة عن حطام وركام من تراب متناثر هنا وهناك بين أشجار التين والكرز والإجاص وأنه لم يلاحظ وجود أي مسكن مكتمل، ويضيف قائلاً أن ذلك الخراب يمر به وادين واحد من جهة الشرق يسمى واد هنين والآخر من جهة الغرب يسمى بواد ريغو، والملاحظ في حديث رينيه باسي عن هنين أنه لم يرد في سياق أسلوب وصفه اسم مدينة "Ville" بل وصف ما شاهده مستعملاً كلمة خراب "La Ruine" فقط، وهو ما يدل دلالة واضحة عما آلت إليه المدينة والتغير الجذري الذي اعتري مسارها الحضاري مند تخريبها على يد الحامية الإسبانية.

قدّم جيورج مارسيه هو الآخر وصفاً مشابهاً لما قدّمه رينيه باسي René Basset عقب زيارته لها لتحرير مقاله الموسوم بعنوان بحث أثري إسلامي لمدينة هنين، لقد أشار صراحة أنها فقدت رونقها ومستواها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الذي تتم عنه تلك الشواهد الأثرية المتبقية من محيط المدينة والقلعة، وأصبحت صورتها العمرانية مختلفة ومتناقضة مع الأوصاف التي وردت عنها في كتب الرحالة الجغرافيين أمثال أبو عبيد الله البكري وأبو عبد الله الشريف الإدريسي وشهاب الدين ياقوت الحموي والحسن بن محمد الوزان، الجدير بالذكر أن جيورج مارسيه ختم سياق حديثه بقوله مدينة هنين لن تعود أبداً لسابق عهدها في أي مجال من المجالات سواءً كانت معمارية أو اقتصادية أو اجتماعية.⁽¹⁾

في فترة مقارنة لما قدّمه رينيه باسي وجيورج مارسيه من معطيات تاريخية وأثرية عن المدينة، قدّم عدد من الدارسين الفرنسيين الذين زاروها في إطار المهمة العلمية التي أنيطت لهم من طرف الإدارة الفرنسية ما له علاقة بوضعيتها المعمارية، فقد ذكر عبد الرحمن خليفة في هذا الشأن ما ذكره كلٌّ من الباحثين أردوان دومازيت Ardouin De Mazet وشارل موبركس Charle Mauprix عن المدينة، فقد جاء في تقرير أردوان دومازيت وصف دقيق وتعبير صريح يعكس بوضوح الوضعية التي يعيشها أحد أبرز

1-George Marçais, Recherche...., Op.cit,p:344

الموانئ الساحلية في المغرب الإسلامي، ملخصاً قوله أن هنين مدينة بومي الثانية⁽¹⁾، وذلك لشدة الخراب الذي وجده بها، وتغير ملامح عمرانها بعدما كانت ذات مستوى حضاري ذائع الصيت، أما شارل مويركس فقد ذكر وجود كتل من التراب والحجارة لا أقل ولا أكثر، تتخللها مجموعة من الأشجار، وتحيط بها الأسوار التي حال سمكها البالغ 2م من تحطمها⁽²⁾، أنظر الصورة رقم (05).

من خلال ما تم الإشارة إليه من طرف جميع الدارسين من بداية القرن العشرين إلى منتصفه، يتضح جلياً أن سنة 1534م كانت نقطة النهاية المأساوية لمدينة هنين، جرّاء ما قام به الإسبان ساعة خروجهم منها وقيامهم بتخريب عمرانها، فكان ذلك بمثابة الضربة القاضية لتصميمها العمراني الذي تميز بمساكنه الفاخرة، ونشاطه التجاري والعلمي المكثف والصناعات الرائدة آنذاك، كما ورد ذكره عن محمد حسن بن الوزان في وصفه لها قبل أن تدمر عن آخرها.⁽³⁾

يبدو أنها بقيت على حالتها في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، لأن المستعمر لم يكثرث لما آلت إليه مدينة هنين، ولما جاء في التقارير التي أعدّها الدارسون الذين أوفدتهم لمعاينتها، فقد أشاروا إلى حجم الكارثة التي أصابت نسيجها المعماري العتيق في جانبه المادي والمعنوي، ربما كان ذلك بالنسبة له ضربة حظ فلو لم تقم الحامية العسكرية الإسبانية بتخريب المدينة وجعل عاليها سافلها، كان سيُقدم هو على فعل ذلك، لأن ما بلغته من كمال في العمران وتألّق في الفن المعماري، سيفشل لا محالة مخطّطه الاستعماري الذي تأسّس على هدفين أساسيين، الأول يتمثل في توسيع خارطته السياسية والاستحواذ على المواقع الاستراتيجية ذات الثروات الطبيعية لتحويلها إلى بلده، أما الهدف الثاني وهو الأهم، فيتتمثل في القضاء على الهوية العربية الإسلامية ليكتمل المشروع الاستعماري من جميع جوانبه خاصة وأنه

1-بومي: مدينة رومانية بلغت مستوى مرموقاً في مراتب الحضارة، وقد دُمّرت على إثر ثوران بركان فيزوف سنة 79م، تم اكتشاف أطلالها سنة 1738م، ينظر عبد الرحمن فوزي الفخراي، مرجع سابق، ص: 25

2-Abderrahmane Khelifa, Honaine ancien..., Op.cit,p:271

3-محمد بن الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص: 15

لم يفكر في مغادرة الجزائر بل قرّر البقاء فيها للأبد⁽¹⁾، وبعد أن تأتّى له هذا الأمر بمدينة هنين وجّه كامل اهتمامه لاستنزاف ثرواتها، خصوصاً أن تضاريسها غنية بالمعادن كالحديد والرصاص والزنك والرخام ذي النوعية الجيدة الذي كانت تصدر كميات معتبرة منه نحو الضفة الأخرى⁽²⁾، إضافة إلى ذلك احتوت على كميات معتبرة من مادة الجبس وهو ما جعلها تسمى بجبساريا في الفترة القديمة قبل ظهور الدول الإسلامية بشمال إفريقيا⁽³⁾، في هذا السياق قام المستعمر الفرنسي بتكليف عدد من الجيولوجيين لمعاينة تضاريس التي وجدوها لا تساعد على تكوين نواة حضرية للمعمرين بحكم الموقع الذي توجد فيه فعالية الأماكن المجاورة لها عبر الجهات الثلاث منها تلقّب إما بجبل (montagne)، أو رأس (cap)، أو ركبة (Colline)⁽⁴⁾، وأمام وجودها بين هذه المرتفعات، سيستهل تعرض المعمرين إذا ما استوطنوها لهجوم الأمير عبد القادر الذي كان يقود مقاومة شرسة ضد المستعمر بنواحيها، فقد قامت بينه وبين الجنرال بيدو Bèdeau معركة حامية الوطيس بالقرب من هنين في شهر مارس وأفريل سنة 1842.⁽⁵⁾

من بين من أشاروا إلى تضاريسها الوعرة بغاغد M.Berard الذي كُلف من طرف وزارة الدفاع الفرنسية لمعاينة طبوغرافية الجزائر عامة بين سنتي 1832م و1835م، أي غداة احتلال الجزائر مباشرة، وقد أشار إلى طابعها الطبوغرافي المعقّد، نفس الشيء ذكره شارل موبركس الذي تجوّل في منطقة تارة كلية بما في ذلك مدينة هنين على ظهر حصانه، وقد أشار إلى أنّ طبوغرافيتها مختلفة عما رآه في أمكنة أخرى، نفس الفكرة

1-نادية قجال، الوظائف الأساسية للرسم الاستشراقي قبيل وإبان الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، مجلة إنسانيات، العدد 46 وهران، ديسمبر 2009، ص: 73

2-Abdelaziz Gawar, Op.cit, p:37

3-Mac Carthy, Op.cit, p:169

4-Abderrahmane Khelifa, Honaïne ancien..., Op.cit, p:30

5-شارل هنري شرشل، مرجع سابق، ص: 197

ذهب إليها دولوغال E.Delorral الذي زار المدينة سنة 1875م، فقد ذكر أن مسالكها وعرة والولوج إليها صعب، وتضاريسها تحمل ميزة خاصة، وهو ما يؤكد أن جميع هذه الإشارات تتوافق مع ما ذكره الجغرافيون في الفترة القديمة حول طبوغرافية المدينة، إذ وصفوها بالواجهة المغلقة *Littus Importuosum* أو *Façade Sans Fenêtre*.⁽¹⁾

كانت هذه المعطيات من الأسباب المباشرة لعدم اهتمام المستعمر انشاء تجمع مكاني جديد بالمدينة لكنه بالمقابل لم يتوان عن استنزاف ثروتها المعدنية بعدما أكد عدد من الجيولوجيين غنى تضاريسها بالمعادن أمثال غوتيه F.Gautier وبرنارد A.Bernard وفيشور E.Fischeur ولويس جونتيل LouisGentil الذي قضى وقتاً طويلاً في دراسة جيولوجية المدينة وكامل الساحل التلمساني.⁽²⁾

تجدر الإشارة أنه قد ذكر في وقت سابق على هؤلاء الجيولوجيين الفرنسيين مارمول كرنخال وجود معدن الحديد بكثرة في الجبل المحاذي لها⁽³⁾، وما من شك أنه جبل تاجرة الذي لا يبعد عنها إلا حوالي 03 كلم، كما أشار في نفس السياق عبد الرحمن خليفة إلى وجود عدة قطع أثرية من مادة الحديد في الحفريات التي أجراها بالمدينة كانت عبارة مسامير وسكاكين وحلقات دائرية وقلادات، ما يؤكد استغلال المنجم الذي أشار إليه مارمول كرنخال من طرف ساكنيها، وابتداءً من سنة 1877م توّصل المستعمر إلى اكتشاف عدّة مناجم بالساحل التلمساني من بينهم منجم يقع في جنوبها الشرقي على بُعد حوالي 06 كلم، وحسب المهندس م. فيل M.Ville تضمّن المنجم خليط من الكوارتز أبيض اللون وزجاجي

وفلدسبات ذي لون أبيض شاحب ينتمي إلى مجموعة الصخور المتحولة، لقد تم استغلاله مع بقية المناجم الأخرى من طرف شركة موكتا الحديد Mokta Elhadid التي استخرجت كمية تقدر بـ 235408 طن من الحديد وصدّرتها نحو الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وبلجيكا عبر ميناء بني صاف وهنين باستعمال

1- Abderrahmane Khelifa, Honaine ancien..., Op.cit, p:33-34

2- ibid, p:40-41

3- مارمول كرنخال، مصدر سابق، ج 02، ص: 297

العربات، ومع مجيء سنة 1912م، تضاعف الإنتاج إلى 750 000 طن ووظفت الشركة حينذاك 5000 عامل⁽¹⁾، وبعد هذا الاكتشاف بعشر سنوات تقريباً، بالتحديد ما بين سنتي 1886 و1887 تمكن المستعمر من إزاحة النّقاب عن منجمين آخرين، الأول من مادة الفوسفات يقع بالجانب الشرقي من جبل تاجرة رغبة منه في توفير الإمكانيات اللازمة لإنشاء مزارع وبساتين، إذ يعتبر هذا الأخير بمثابة سماد جيد لذلك، خصوصاً أن المدينة تحتوي على ثروة مائية معتبرة تساعد على توفير إنتاج لا بأس به من الخضار والفواكه والحبوب⁽²⁾، وهو الأمر الذي ذكره رينيه باسي عقب زيارته لها، حينما ذكر وجود بساتين التين والكرز والإحاص داخل أسوار المدينة على مقربة من واد هنين الذي يمر بها ناحية الشرق، أما المنجم الثاني فهو من مادة الجير يقع بالجهة الجنوبية الشرقية من المدينة وقد وصل عمق الحفر بهذه المناجم إلى 50م.⁽³⁾

يتضح جلياً أن استغلال المستعمر الفرنسي للثروة المعدنية تجسيداً واضح للهدف الأول من احتلاله للجزائر وهو استنزاف ثرواتها أكبر قدر ممكن، فبمجرد دخوله إليها أوفد مجموعة من الدارسين لاستكشافها والبحث عما تكتنزه تضاريسها، ولعلّ مدينة هنين خير دليل على ذلك، حيث بدأ في استغلال مناجمها الواحد تلو الآخر من دون أن يقيم تجمعا عمرانياً بها، وهو ما يفسر التوجه الذي ذهب إليه جيورج مارسيه حينما أشار في مقاله عن المدينة ومآثرها أنها لن تعود إلى سابق عهدها.⁽⁴⁾

خلاصة الفصل:

تمّ التطرق في هذا الفصل إلى مسار التنمية الحضرية بمنطقة تلمسان، وبالتحديد في كلٍّ من مدينة

1- Abderrahmane Khelifa, Honaïne ancien..., Op.cit, p:46-47

2- ibid, p:45-46

3- René Basset, Op.cit, p:103

4- George Marçais, Recherche....., Op.cit, p:344

تلمسان وندرومة وهنين عينات الدراسة، في الفترة الممتدة من سنة احتلاله لها إلى غاية مغادرته لها كباقي مناطق الوطن، أي من سنة 1842 إلى سنة 1962، لقد تخلّلت هذه الفترة الزمنية الطويلة المقدّرة بـ 120 سنة بتجسيد عدّة منجزات حضرية مختلفة المجالات في إطار تكوين البنية التحتية التي لها علاقة مباشرة بمصلحة المستعمر والمعمرين الذين تمّ المجيء بهم لإنجاح المشروع الاستعماري، وقد ترسخت أقدامه في بادئ الأمر بمدينة تلمسان التي كانت على قدر كبير من الأهمية بهذه المنطقة، وقد ركّزنا في دراستنا لمسار التنمية الحضرية إبان الفترة الاستعمارية ما أنجز بالحيز المعلن عنه قطاعاً محفوظاً بموجب المرسوم التنفيذي رقم 403/09.

أول ما قام به المستعمر هو استغلال المباني التي تؤمن له الحماية، فاتخذ مثلاً من قصر المشور مقراً له، وقام بإجراء تعديلات عليه كما ورد ذكره خصوصاً أنه وجده في حالة متقدمة من الخراب والدمار، فعمد على إزالة ما تضمن من عمائر آيلة للسقوط بعد أن حطمها كلية لإنشاء مستشفى عسكري وثكنة للجند، بالموازاة مع ذلك قام بتقوية تحصيناته وتعزيز جانبه الدفاعي عبر إصلاح أبوابه وأسواره المتضررة، فقد جعل ارتفاعها إلى خمسة أمتار وسمكها إلى واحد متر مستعملاً مادة الحجر في البناء، ثم انتقل بعد أن ترسخت قدماه جيداً إلى إعلان برامجه المعمارية ذات الطابع الغربي، فقام حيال ذلك فتح الساحات وشق الشوارع وبناء المساكن للمعمرين وإنجاز السوق المغطى والكنيسة ومركز البريد والضرائب والمحكمة ومقر الدرك وعدد من الأحياء السكنية خارج المدينة كحي النيجري (شتوان) وبرية (أبوتاشفين) والمنصورة والصفصيف، إضافة على ذلك أنجز خط للسكة الحديدية وطريق يربط المدينة مع الحدود المغربية.

وفي مدينة ندرومة تكرّر الأمر نفسه مع الموروث المادي المكوّن للنسيج التاريخي للمدينة العتيقة، فهو الآخر أصابته يد المستعمر حينما إستولى عليها، لكن يبدو أنه لم يوليها نفس الاهتمام الذي أولاه لمدينة تلمسان، ربما يعزى ذلك لطبوغرافية موقعها المتميزة بانحدارها، وهو الأمر الذي لا يساعد في استحداث

نواة حضرية فرنسية، لاعتماد مخططها الشطرنجي على الأرضية المنبسطة التي تسمح بتعامد وتقاطع الشوارع فيما بينها.

وبالنسبة لمدينة هنين فلم تنجز فيها نواة حضرية على غرار ما أنجز بمدينة تلمسان وهنين، وهو ما يؤكد الحكم الذي أصدره فيها جيورج مارسيه، وذلك لما وجدته بها من خراب وما كانت عليه في الماضي، إذ بالرغم من مرور أكثر من ثلاثة قرون (مقارنة بفترة زيارة جيورج مارسيه) من تخريبها على يد الاسبان إبان جوده بها، إلا أنها بقيت فارغة من دن أي نشاط يذكر، لقد بعث المستعمر إليها عدداً من الدارسين لمعاينتها، وبعدها تبين غناها بالحديد والجبس والرخام ذو النوعية الجيدة.

الفصل الثالث

دور العامل الاجتماعي والإداري والعولمة الثقافية في بعث التنمية الحضرية

بمنطقة تلمسان.

1-العامل الاجتماعي

1-1 مدينة تلمسان

2-1 مدينة ندرومة

3-1 مدينة هنين

2-العامل الإداري

1-2 تاريخ بداية الإدارة الحضرية

2-2 خصائص إدارات التنمية الحضرية

3-2 إدارة التعمير في منطقة تلمسان ومخططات التنمية

4-2 ملحة عن أهم المواد المقننة لحماية الموروث المادي والمواقع التاريخية في القانون

04/98

3-العولمة الثقافية

1-3 مفهوم العولمة

2-3 دوافع تفشي العولمة

3-3 أصول ومظاهر العولمة الثقافية المعمارية في منطقة تلمسان

1-العامل الاجتماعي:

يشكّل العامل الاجتماعي عنصراً مهماً في بعث عملية التنمية الحضرية بمنطقة تلمسان، وهو لا يقل شأنًا عن بقية العوامل الأخرى للعلاقة الوطيدة بين التنمية والإنسان، إذ تقوم به ومن أجله لأنه السبب والهدف في الوقت نفسه، ومن خلال ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون في المقدمة يتضح أن لهذا العامل دوراً قديماً في إحداث متغيرات حضرية بالمدن، لأن تكوّن المجتمع وفق نظام خاص يقودهم ملك هو السبب القائم وراء تكون الاجتماع البشري الذي هو أساس تكون الحضارة، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "... إذ أمور الحضارة من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الحاكم ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة من الأراضي..."⁽¹⁾، وذكر أيضاً أن الترف يزيد الدولة قوة وعدداً والسبب في ذلك أن أهل الدولة إذا تحسّن وضعهم المعيشي كثر التناسل والولد فكثرت عددهم واستكثروا من الموالي والصنائع وربيت أجيالهم⁽²⁾، وهذا ما يبين أن هناك علاقة سببية بين الحضارة في جميع مجالاتها ووضعية ساكنيها، لذلك أمكن اعتبار العامل الاجتماعي ركيزة أساسية في استحداث المتغيرات الاقتصادية والسياسية وخاصة العمرانية فإلا لما كان أداة المجتمع ووسيلته لصياغة وتحديد معارفه ومفاهيمه الأساسية وشحن طاقات أفراده الإبداعية المختلفة.⁽³⁾

تتفق هذه الفكرة مع ما أشار إليه المفكر مالك بن نبي في كتابه تأملات حول كون الحضارة ككل ظاهرة إنسانية، والعمارة هي لغة الإنسان فيها، مقدماً ذلك على شكل معادلة كيميائية، فمثلما يتكون الماء من عنصرين مهمين هما الهيدروجين والأكسجين، الحضارة هي كذلك تتكون من عناصر مهمة لقيامها، تتمثل في الإنسان والتراب والزمن، أي أن الحضارة = إنسان + تراب + زمن، وهي المقومات لاشك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلا بورقة هي شهادة الميلاد

1- عبد الرحمن بن خلدون، مصدر سابق، ج 01، ص: 218

2- المصدر نفسه، ص: 218

3- إبراهيم عبد الباقي، الأمير... ومدرسة العمارة، مجلة عالم البناء، العدد 107، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1990

ولا تنتهي رسمياً إلا بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽¹⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

- عدم نزاهة المسؤولين ونقص خبراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.
- التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمطالبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.
- عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرق... إلخ، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.
- البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللازمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.
- عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباه.⁽²⁾

4-6 الإشكال السياسي:

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158

الأساسية التي تسمح بتوفير الإنتاج والرفي، سواءً كان ذلك في المجال المادي أو الروحي، لأن الحضارة حسب وجهة نظره هي عبارة عن إبداع متجدد وليس تقليداً، وتتميز بقيم تنبع عن المجتمع الذي يتبناها ويقوم باستحداثها.⁽¹⁾

ويتضح من خلال هذا الربط وجود قوّة كامنة لدى أفراد المجتمع على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية يستطيعون بواسطتها التأثير في البيئة التي يعيشون فيها إما بالإيجاب أو السلب لذلك كانوا من ضمن العوامل المؤثرة في تشكيل ملامح الشخصية الحضرية المعاصرة بالمدن⁽²⁾، فقد أوجبوا على المخططين في العصر الحديث إتباع منهج معين بحكم كون الطبيعة المعمارية هي عبارة عن تصميم متماسك ومنظم يؤسس لواقع عمراني مرغوب فيه⁽³⁾، كما يعتبر هذا العامل ترجمة مباشرة لزيادة عدد السكان وحدوث النمو الديموغرافي، وما يصاحبها من الأنشطة الاقتصادية، وهو يتماشى وفقاً للإمكانات المتاحة في المدينة المحسدة لمفهوم التنمية الاجتماعية التي تعني حركة الارتقاء الجذري لأفراد المجتمع ووصولهم لمرحلة الرخاء والترف والرضى النفسي عن مستواهم المعيشي.⁽⁴⁾

وبحكم وجود تنمية حضرية بالمدن الأثرية الثلاث تلمسان وندرومة وهنين سنقوم بعرض واقعها الاجتماعي، فمتى كانت هناك تنمية حضرية كان وراءها حجم سكاني يفرض طموحه العامل الاجتماعي المنحصر في الإنسان هو المحرك الأساسي في التنمية الحرة وغيرها من الأنواع الأخرى.⁽⁵⁾

1- مالك بن نبي، تأملات....، مرجع سابق، ص: 30

2- عثمان محمد غنيم، دور العامل الاجتماعي في تشكيل ملامح الشخصية الحضرية المعاصرة وتحديد لها لمدينة السلط بالأردن، مجلة جامعة دمشق، مجلد 18، العدد 03، دمشق، 2002، ص: 109

3- الطاهر لدرع، الاتجاهات الحديثة في نظرية التخطيط العمراني: من عموميات النظريات المعمارية إلى خصوصيات الممارسة بحكمة الواقع، مجلة بريد العلم (Courier de Savoie)، العدد 16، جامعة الملك آل سعود، 2013، ص: 107

4- الطيب هاشمي، التوجه الجديد لسياسية لتنمية الريفية في الجزائر، أطروحة دكتوراة، تخصص اقتصاد التنمية، قسم العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2014، ص: 27

5- عثمان محمد غنيم، مرجع سابق، ص: 116

لاشك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلاً بورقة هي شهادة الميلاد ولا تنتهي رسمياً إلاً بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽¹⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

-عدم نزاهة المسؤولين ونقص خباراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.

-التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمتطلبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.

-عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرق... إلخ، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.

-البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللازمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.

-عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباه.⁽²⁾

4-6 الإشكال السياسي:

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة

الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27.

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158.

1-1 مدينة تلمسان:

عاشت هذه المدينة ولا زالت تعيش نموا ديموغرافياً هائلاً، باعتبارها كانت حاضرة من حواضر المغرب الأوسط في العصر الوسيط وعاصمة الدولة الزيانية، فكثير الوافدون إليها طلباً لوضع معيشي أفضل، وهذا ما جعل المجتمع التلمساني يتشكل من انتماءات عرقية مختلفة انحدرت من القبائل المجاورة لها، ولم تكن مجرد دار سكني بل كانت زيادة على ذلك مركزاً تجارياً هاماً وورشة صناعية ذائعة الصيت للاشتغال أهاليها بمختلف الحرف والصناعات.⁽¹⁾

أشار إلى هذا حسن الوزان في حديثه عن مدينة تلمسان قائلاً: "...وقد توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها ستة عشرة ألف كانون على عهد السلطان أبي تاشفين وبلغت درجة عالية من الازدهار ..."⁽²⁾، ونفس الأمر أكدّه مارمول كزبخال إذ ذكر هو الآخر ذلك قائلاً: "...أصبحت تلمسان في عهد أبي تاشفين من العظمة بمكان، حتى أنها كانت تضم ستة عشرة ألف دار مسكونة وتقام فيها أغلى تجارة بإفريقيا ..."⁽³⁾.

يدل هذا التقديم على احتواء تلمسان منذ الفترة الوسطى على تركيبة سكانية ذات كثافة عالية، ففي حالة افتراضنا وجود ستة أفراد في الأسرة الواحدة، علماً أنها كانت أسر ممتدة وليست نووية، أي أنها تكونت من الجد والجددة والأولاد المتزوجين وأبنائهم، سيصل عددهم في الفترة التي أشار إليها المؤرخين إلى 96000 نسمة، عاشوا في أحياء سكنية عتيقة مساحتها لا تتعدى 15 هكتار⁽⁴⁾، وعليه نستنتج أن الكثافة السكانية كانت عالية جداً، حيث قدرت بـ 6.4م/م².

وأمام نقص المصادر والمراجع التي تتحدث عن نمو السكان بمدينة تلمسان، يتعذر علينا وضع صورة

1- عبد العزيز فيلاي، مرجع سابق، ص: 167-171

2- الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، ج 02، ص: 17

3- مارمول كزبخال، مصدر سابق، ج 02، ص: 302

واضحة المعالم عن ذلك، خصوصاً أنها عاشت اضطرابات سياسية بحكم ما تميزت به من موقع استراتيجي مغربي للعيش وتفشي الأمراض الفتاكة والأوبئة، لذلك يمتلك القول عن طريق التخمين أنها عاشت حركة مدّ وجزر في نمو سكانها، تبعاً للظروف السائدة فيها آنذاك، وتؤكد هذه الفكرة ممّا ذكره لويس أبادي Louis Abadi عن حجم ساكنيها في فترة حكم العثمانيين، حيث تناقص بشكل كبير وملفت للانتباه.⁽¹⁾

1-1-1 الواقع السكاني لمدينة تلمسان في الفترة الاستعمارية:

أول إشارة عن عدد سكان مدينة تلمسان في الفترة الاستعمارية، ما أشار إليه تقرير المارشال كلوزيل Clauzel الذي أعد ساعة دخوله إليها برفقة مصطفى بن سماعيل قائد قبيلة أنقاد في 13 جانفي 1836، وقد جاء فيه وجود 300 أسرة يهودية و500 أسرة من الكراغلة وذكر أن مجموعهم يقارب 4500 نسمة، وحوالي 4000 نسمة من السكان الأصليين⁽²⁾، ولا ندري الأسباب التي وقفت وراء تراجع عدد السكان بشكل ملفت للانتباه عمّا كان عليه في الفترة الزبانية السالفة الذكر. ونوضح ما جاء في تقريره بالجدول التالي والدائرة النسبية، مفترضين عدد الكراغلة 2500 نسمة نظراً لكبر عدد أسرهم كما ورد في التقرير، وعدد اليهود 2000 نسمة.

المجموع	اليهود	الكراغلة	السكان الأصليين
8500ن	2000ن	2500ن	4000ن

الجدول رقم 04: يبين عدد سكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1836.

ونوضح ذلك أيضاً في الدائرة النسبية التالية:

1-Louis abadi,Op.cit,p:92

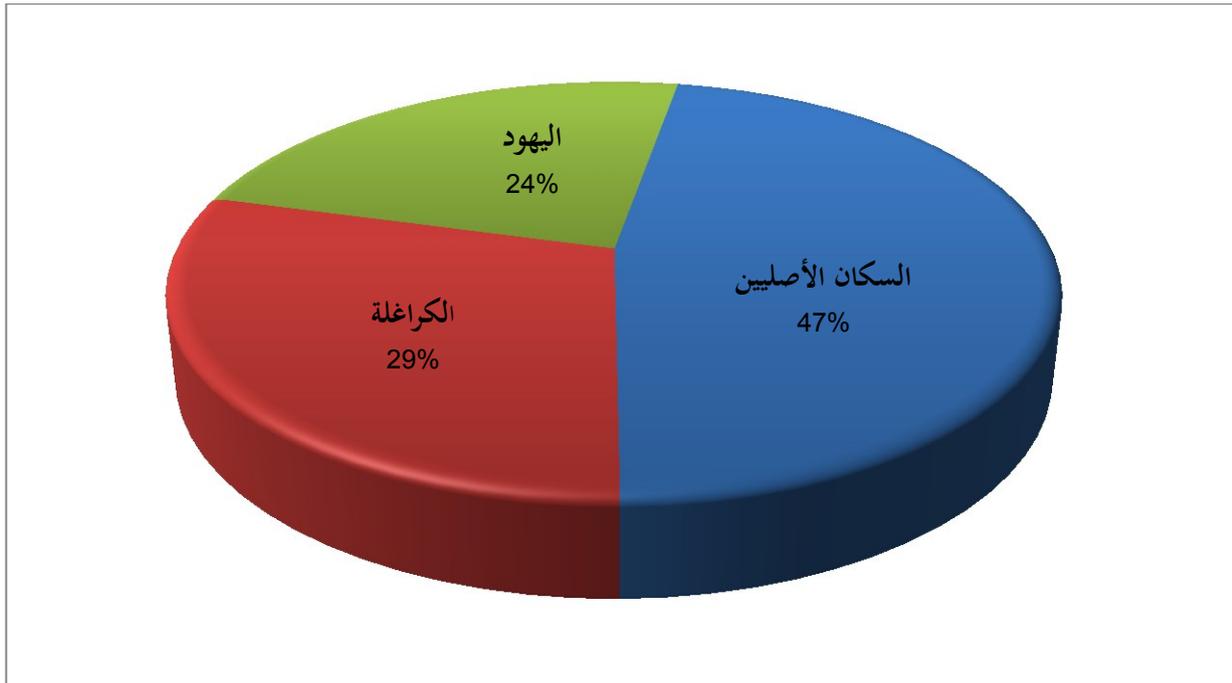
2-André Leocoq,Op.cit,p:7-8

الدائرة النسبية رقم 04: تبين النسبة المئوية لسكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1836.

يتضح من الجدول والدائرة النسبية رقم 04، أن التركيبة السكانية تتكون من خليط بين السكان الأفراد الأصليين والكراغلة واليهود الذين وفدوا إليها قديماً، ويتضح أيضاً أن عددهم تراجع كثيراً مقارنة بالإشارة التي قدمها حسن الوزان ومارمول كرنخال في الفترة الزبانية، وفيما يخص توزيعهم المكاني فقد ذكر غوبار Gaubert نقيب في الهندسة العسكرية أن هذه الفرق الثلاث لم توجد بمكان واحد من المدينة فقد استقر الكراغلة في الجهة الغربية وهو الجزء العلوي للمدينة، والحضر استقروا بالجهة الشرقية وهو الجزء السفلي منها، أما اليهود فقد تمركزوا بوسطها بالتحديد مقابل قصر المشور من جهة الشمال.⁽¹⁾

يؤكد هذا التنوع في التركيبة السكانية والتراجع في أعدادها مقارنة بما كانت عليه أمرين أساسيين يتمثلان من جهة في أهمية المدينة بين حواض

1-Tahar Abdelkader, Op.cit, p:216



ر المغرب الإسلامي، إذ لو لم تكن كذلك لما قصدتها

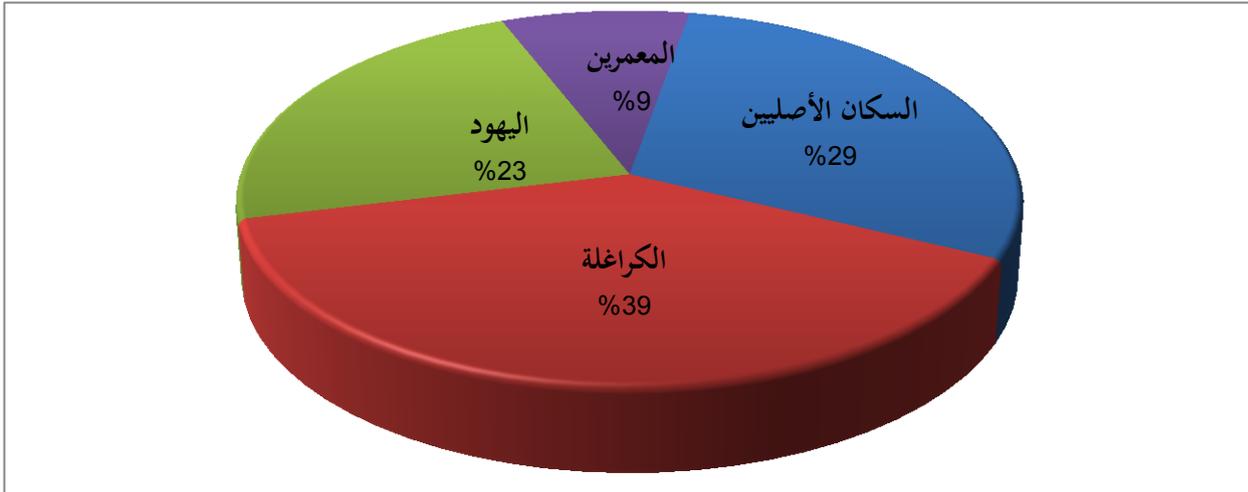
الناس من كل حدب وصوب، ومن جهة أخرى في حدوث الاضطرابات السياسية وانتشار الأوبئة والكوارث الطبيعية، وبالرغم الظروف التي مرّت بها فإن سكانها الأصليين لم يغادروها كليةً، بل فضلوا البقاء فيها، ومن الإشارات الإحصائية الأخرى التي وردت عقب تقرير الماريشال كلوزيل Clauzel ما ذكره القس بارجيس Bargés، إذ أشار إلى أن التركيبة الاجتماعية كانت تتشكل من أربع فئات اجتماعية نبيها في الجدول الآتي: (1)

المجموع	اليهود	المعمرين	الكراغلة	السكان الأصليين
6865 ن	1585 ن	600 ن	2670 ن	2010 ن

الجدول رقم 05: يبين عدد سكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1845.

ونوضح ذلك أيضاً في الدائرة النسبية الآتية:

1-L'abbé Bargés, Op.cit,p:428



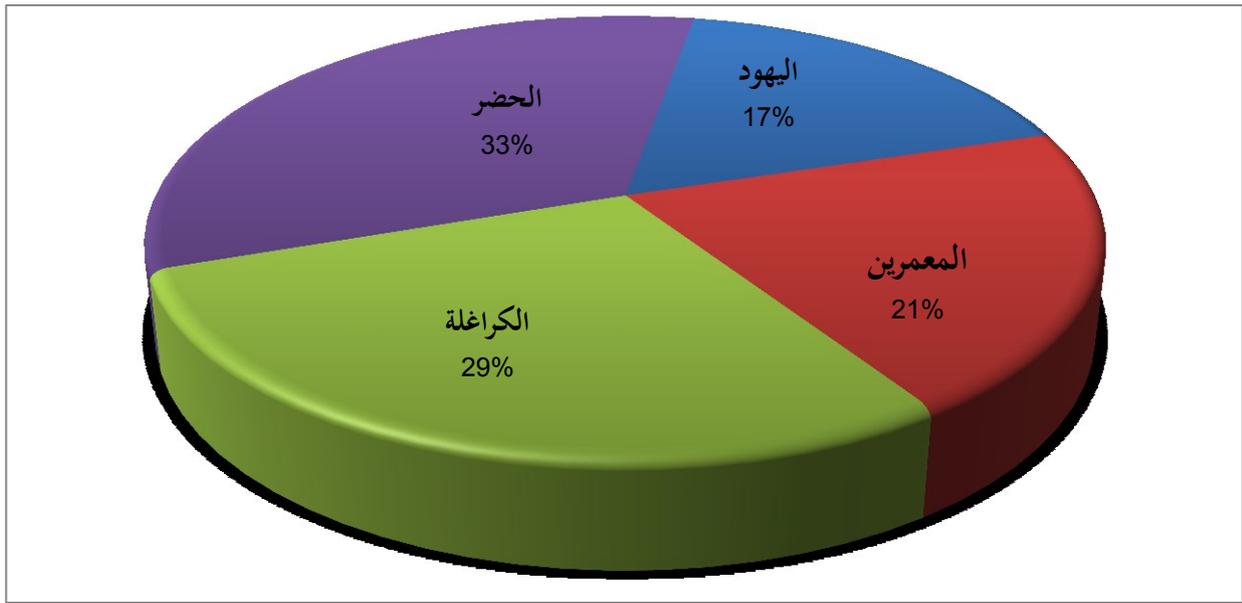
الدائرة النسبية رقم 05: تبين النسبة المئوية لفئات سكان مدينة تلمسان سنة 1845.

يتضح من الجدول والدائرة النسبية أعلاه، أن العدد الإجمالي لسكان المدينة وصل إلى 6865 نسمة وتجدر الإشارة إلى أن هذا العدد وجدناه 6855 نسمة في تقديم القس بارجس، ربما يعزى ذلك إلى خطأ في الحساب، يبدو أن مسار النمو الديموغرافي للسكان قد تراجع مسجلاً انخفاضاً قدره 1500 نسمة وذلك راجع لنقص عدد سكان الحضر من 4000 نسمة سنة 1836 إلى 2010 فرد سنة 1845 وهو ما يعادل نسبة 29% من إجمالي السكان، مرد ذلك يرجع إلى هجرة سكان تلمسان نحو الخارج هرباً من المستعمر الفرنسي الذي كان قد احتل المدينة في جانفي 1842 أو ربما لسقوط قتلى منهم في محاولتهم ردع المستعمر، على عكس ذلك نجد أن الكراغلة قد ازداد عددهم وذلك من 2500 نسمة سنة 1836 إلى 2670 نسمة سنة 1845 وهو ما جعلهم يشكلون أكبر نسبة في عدد سكان المدينة، إذ قُدرت بـ 39% من إجمالي السكان، ربما يرجع ذلك لعودتهم إلى مساكنهم بعد خروج المدينة عن حكم الأمير عبد القادر الذي دخلوا معه في مناوشات، أما بالنسبة لفئة اليهود فيبدو أن عددها تناقص مقارنة بما تم الإشارة إليه سابقاً ليس بمدينة تلمسان لوحدها بل في جميع المدن، وهو ما دفع بالملك الفرنسي إلى استصدار مرسوم بشأنهم في نفس السنة أي في 1845 ينظم الديانة اليهودية في الجزائر عامة، ويمنح لهم حق الاستقرار تحفيزاً لهم على العيش

فيها⁽¹⁾، وقد شكلوا نسبة قدرها 23% من العدد الكلي، وذلك لتفعيل سياسة الاستيطان التي بدأ في تطبيقها المستعمر ساعة دخوله للجزائر حتى ينجح إحتلاله، فكما ذكر الجنرال بيجو Bugeaud سيكون الغزو عقيماً إن لم يتبع بالاستيطان.⁽²⁾

أمّا إحصاء سنة 1845م فتميز بظهور فئة جديدة وهي فئة المعمرين الذين أوفدتهم فرنسا تبعاً

للسياسة السلفية



الذكر، وقد بلغ عددهم 600 معمر دون احتساب الحامية العسكرية، استفادوا من مزايا مادية كالمنازل والقطع الصالحة للزراعة، وأخرى روحية تمثلت في استحداث كنيسة ملاصقة لدار البلدية بالجهة الشرقية تشرف على شارع كلوزال Clauzel (شارع الدكتور بن زرجب حالياً)، ودشنت من طرف الأسقف دوبوش Doubouche وبحضور القس بارجس⁽³⁾، هذا ما يثبت بوضوح الوجه الآخر للاحتلال الفرنسي للجزائر، كان قدوم المعمرين إلى المدينة واستقرارهم بها بمثابة بداية نمو ديمغرافي

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط01، ج06، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص: 396

2- صالح حمير، مرجع سابق، ص: 129

1- أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج06، ص: 113

الفصل الثالث دور العامل الاجتماعي والإداري والعولمة الثقافية في بعث التسمية الحضرية بمنطقة تلمسان

في المدينة، الأمر الذي فرض على الإدارة الاستعمارية البحث عن وعاء عقاري يحوي العدد الهائل من الوافدين على مدينة تلمسان ولتوفير المرافق الضرورية لهم كالسكن والصحة والتعليم، هذا الأخير الذي سبق الحديث عنه.

ومع مجيء سنة 1847 سجّل عدد المعمرين ارتفاعاً ملحوظاً إذ قفز عددهم من 600 معمر سنة 1845 إلى 759 معمر، في حين بلغ العدد الإجمالي لسكان 7268 نسمة ما يبرز ارتفاع الحجم السكاني ككل عن الذي كان عليه وذلك راجع لاستقرار أنصار القائد بن سماعيل مصطفى داخل المدينة، بعد دعوة المستعمر لهم ليكونوا في مأمن من انتقام الأمير عبد القادر لمساعدتهم المستعمر، تواصل عدد المعمرين في الارتفاع فوفقاً لما قدمه وزير الدفاع للحاكم العام لعمالة وهران في الرسالة المؤرخة بتاريخ 31 جويلية 1849 أن عددهم ازداد في سنة 1848 بـ 393 معمر جديد ليصبح عددهم الإجمالي 1152 معمر⁽¹⁾، وفي سنة 1851 قدّم الباحث كتلوب Catteloup في دراسة قام بها حول مدينة تلمسان ونواحيها عدد سكانها كما هو مبين في الجدول الآتي⁽³⁾، والدائرة النسبية:

المجموع	اليهود	المعمرين	الكراغلة	الحضر
12095 ن	2100 ن	2495 ن	3500 ن	4000 ن

الجدول رقم 06: يبين عدد سكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1851.

ونوضح ذلك أيضاً في الدائرة النسبية التالية:

الدائرة النسبية رقم 06: تبين عدد سكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1851 م.

2- André Leocoq, Op.cit, p: 190-193

3- Tahar Abdelkader, Op.cit, p: 107-202

يتضح من المعطيات أعلاه، أن النمو السكاني في تزايد مستمر بمدينة تلمسان وأن تركيبها السكانية بقيت متكونة من أربعة فئات، وقد أصبحت فئة سكان الحضر هي الفئة الأساسية المكونة للمجتمع التلمساني بالرغم من تزايد أعداد الفئات الأخرى، لقد واصل عدد سكان الحضر إلى 4000 نسمة بعد أن كانوا في تعداد 1845 ما يعادل 2010 نسمة فقط، وإذا ما رجعنا إلى تعداد 1836 وجدنا عددهم كان 4000 نسمة أي نفسه في سنة 1851، وكان نفس العنصر البشري الذي تناقص في تلك السنة هو الذي رجع إلى المدينة مشكلاً نسبة 33.07%، وتأتي في المرتبة الثانية فئة الكراغلة التي ازداد عددها بـ 830 نسمة، ربما هم من كانوا يسكنون المدينة قبل تردي الأوضاع الأمنية بها وحينما استتب للمستعمر الفرنسي رجعت مساكنها لتشكّل 28.93%، نفس الأمر بالنسبة لليهود هم كذلك ازداد عددهم، وقد شكلوا نسبة 17.36% بزيادة قدرها 515 نسمة، أما الزيادة الملفتة للانتباه فكانت لفئة المعمرين، فقد قفز عددهم من 600 معمر إلى 2495 معمر وهو ما يعكس بشكل مباشر نجاح سياسة الاستيطان التي باشرت فرنسا ساعة دخولها إلى الجزائر، الوصول إلى هذا العدد في مدينة تلمسان فرض على الإدارة الاستعمارية إيجاد توازن بينهم وبين الوعاء العقاري.

لم ينعكس النمو الديموغرافي على إعادة هيكلة التصميم الداخلي للمدينة فقط، فقد قام بإنشاء تجمعات سكانية حولها عبارة عن قرى فلاحية تمثلت فيما يلي: (1)

-القرية الفلاحية برية: Village Bréa (أبو تاشفين حالياً)، سميت هذه القرية بهذا الاسم نسبة للجنرال الفرنسي Bréa، تقع شمال مدينة تلمسان على بُعد 02 كلم، تأسست بموجب المرسوم المؤرخ في 11 جانفي 1849 بمساحة قدرها 360 هكتار.

-القرية الفلاحية نيغريي: Village Négrier (شتوان حالياً)، حملت هذه القرية هي الأخرى اسم واحد من جنرالات فرنسا، تقع على بُعد 04 كلم شمال شرق مدينة تلمسان، لم تكن بحجم حي برية ولم تشهد أيضاً نمو سريعاً مثله.

1-Louis Abadi, Op.cit, p: 79-83

-القرية الفلاحية Village Mansourah: أنشئت داخل أسوار الموقع الأثري المنصورة الذي عن مركز المدينة بحوالي 03 كلم جنوباً، وذلك بموجب المرسوم المؤرخ في المؤرخ في 06 ماي 1850، وزاد اتساع القرية الفلاحية اليوم يتربع على مساحة تقدر بحوالي 10 هكتار.

-القرية الفلاحية صفصيف Village Safsaf: سميت هذه القرية نسبة للواد الذي يمر بالقرب منها تأسست بموجب نفس المرسوم الخاص بقرية منصورة، وقد قدرت مساحتها حينذاك بـ 294 هكتار.

بحكم الموقع الذي وجدت به هذه القرى الأربعة كانت التجمعات السكانية ذات طابع ريفي للاشتغال جميع سكانها بالأعمال الفلاحية، فقد وهبت الإدارة الاستعمارية قطعاً أرضية كانت ملك سكان مدينة تلمسان للمعمرين في إطار الامتيازات التابعة لسياسة الاستيطان، وقد قدمت نتائج إيجابية من حيث جانب السياسي والجانب الفلاحي، إذ ساهمت هذه الأحياء في توفير إنتاج معتبر من القمح والشعير إضافة إلى منتجات أخرى، فمثلاً تم إنتاج أجود أنواع العنب والقطن بمنصورة والذرة والزيتون.⁽¹⁾ مع مطلع القرن العشرين وبالتحديد سنة 1906م أي بعد مرور 55 سنة عن آخر سنة توفرنا فيها على احصاء عدد السكان، قفز العدد الاجمالي لسكان مدينة تلمسان إلى 25000 نسمة بعد أن كانوا 12095 نسمة، وكان أكثر من نصفهم أي ما يعادل 14567 نسمة يقطنون الأحياء السكنية العتيقة وما تبقى من عددهم المقدّر بـ 10433 نسمة فقد تركزوا بالمساكن التي شيدها المستعمر الفرنسي في الجهة الشمالية (تافرات) والشمالية الغربية والجنوبية⁽²⁾، فلم يعد الوعاء العقاري يكفي العدد الهائل منهم خاصة أن تصميمه لم يتماشى مع نمط عيشهم لارتباط الأسلوب الاجتماعي بالتصميم المعماري وهو الحال بالنسبة لجميع الأمم، فالعمارة ليس مجرد بناء بمواد معينة، بل هي أكثر من ذلك، فهي ثقافة

2-ibid,p:73-83

1-بشير يلس شاوش، تقرير باربيديث حول هجرة تلمسان سنة 1911، مجلة أفكار وآفاق، العدد 3، جامعة الجزائر، 02، 2012،

تجسد طريقة تفكير وعيش، لذلك كانت بمثابة المرآة العاكسة لجميع المجالات الموجودة بالمدن سواء الاقتصادية منها أو الاجتماعية أو الثقافية.⁽¹⁾

تجدر الإشارة إلى أن النمو الديموغرافي للسكان تعرّض بين سنتي 1910م و1911م إلى اضطراب وانخفاض بسبب هجرة العديد من الأسر نحو المغرب الأقصى ودمشق، وقد بلغ عدد الذين تركوا ديارهم 1200 مهاجر، وكان هذا العدد مرجحاً للارتفاع، وقد أرجع الحاكم العام للجزائر في جلسة البرلمان المنعقدة بتاريخ 31 ديسمبر 1912م سبب ذلك إلى قانون التجنيد الإجباري الصادر في 17 جويلية 1908، وأيضاً لتحريض الزوايا، ونضيف سبباً آخر يتمثل في العامل التجاري، فبعد دخول خط السكة الحديدية حيز الخدمة فقدت مدينة تلمسان دورها التجاري، لغزو أسواقها بالسلع القادمة من المناطق الأخرى، خاصة أن بعض المؤسسات الفرنسية قد باشرت بيع بعض السلع المحلية كخياطة الجلابة بثمان لم يتعدى 06 فرنك في حين كان يقدر ثمن الجلابة التلمسانية بـ 18 فرنك.⁽²⁾

لم يستقر التعداد السكاني للمدينة عند العدد السالف الذكر، فقد تواصل في الارتفاع إلى مستويات أعلى، وهو ما يعكس بشكل واضح نجاح مخططة الاستيطاني، حيث ازداد توافد المعمارين على مدينة تلمسان ليصبح بذلك مظهرها الاجتماعي والثقافي غريباً، أي أن مورفولوجيتها الحضرية توافقت مع مورفولوجيتها الاجتماعية⁽²⁾، ورغم الواقع السياسي الذي مرت به فرنسا في الحرب العالمية الأولى والثانية إلا أنها بقيت متمسكة بمستعمرتها الجزائر لا لشيء، إلا لكونها كانت ممولاً أساسياً لاقتصادها وسوقاً

2- لطرش بمدينة سارة، تأثير النمو السكاني في تغيير مولفوجية المدينة، دراسة ميدانية بمدينة سطيف، تخصص الديموغرافيا الحضرية، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة فرحات عباس، سطيف 2011، ص: 59

1- بشير يلس شاوش، مرجع سابق، ص: 83-91

2- أوترحوت رشيد، من سياسة المدينة... إلى مدينة السياسة سوسولوجيا الاحتجاج الاجتماعي بالمجال العام بالمغرب، الملتقى الوطني الثالث والعشرون حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبداللطيف معزوز، الشركة العامة للتجهيز والطبع فاس، ماي 2012، ص: 95

جديدة لبيع منتجاتها، كما حدث لصناعة الجلابة التي اكتسحت أسواق مدينة تلمسان في وقت كانت هي الرائدة في ذلك.

ينعكس ما أتينا على ذكره فيما قدّمه لويس أبادي حول المسار التطوري لسكان المدينة ابتداءً من سنة 1911م إلى غاية سنة 1960، آخر سنة قام فيها المستعمر بإجراء إحصاء، وقد جمع هذه الإحصاءات من المؤرخين وعلماء اجتماع والمعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية (I.N.S.E.E)، ونبين ذلك في الجدول الآتي:⁽³⁾

3-Louis Abadi,Op.cit,p:12

المجموع	فئات السكان		السكان الأصليين	السنوات
	المعمرين	الفرنسيين		
38276 نسمة	جنسيات أخرى	الفرنسيين	25519 ن	1911
	1203 ن	11554 ن		
43090 نسمة	2315 ن	11147	29628 ن	1921
46030 نسمة	1960 ن	11653 ن	32441 ن	1931
52530 نسمة	/	12551 ن	39979 ن	1936
68631 نسمة	328 ن	12634 ن	55669 ن	1948
70946 نسمة	181 ن	11668 ن	59097 ن	1954
79166 نسمة	470 ن	10843 ن	67853 ن	1960

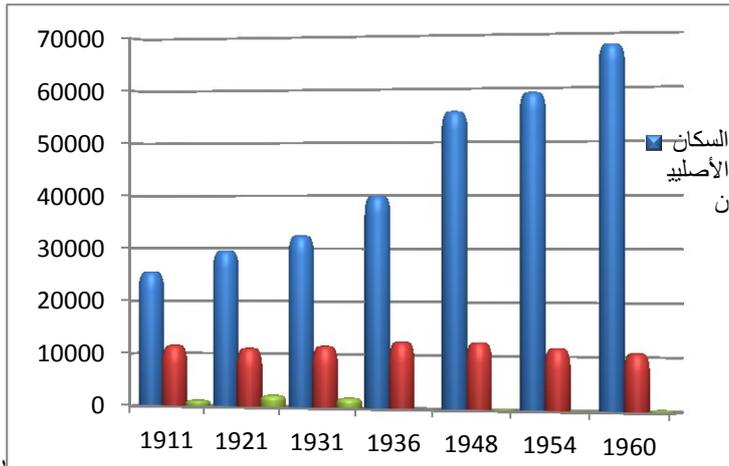
الجدول رقم 07: يبين عدد سكان مدينة تلمسان من سنة 1911 إلى غاية سنة 1960.

ونوضح ما جاء في الجدول بالأعمدة البيانية التالية:

الأعمدة البيانية رقم 04: تبين المسار التطوري لسكان مدينة تلمسان من سنة 1911 إلى غاية سنة

1960م.

يتضح من خلال الجدول والأعمدة البيانية المبينة أعلاه، أن النمو السكاني لمدينة تلمسان من سنة 1911م إلى سنة 1960م كان يسير وفق مسار تصاعدي، رغم ما أصاب المجتمع التلمساني من



انتشار للأوبئة وحدوث الكوارث

الطبيعية، ويلاحظ أن سكان المدينة انقسموا إلى ثلاثة فئات أوبالأحرى فئتين لأن مجموعة الفرنسيين والجنسيات الأخرى تمثل فئة واحدة هي فئة المعمرين، وقد تكوّنت من أروبيين أوفدتهم فرنسا في السنوات الأولى لاحتلالها لتلمسان.

الملفت للانتباه أن السكان الأصليين الذين لم يتجاوز عددهم سنة 1851م ما مقداره 4000 نسمة ارتفع عددهم إلى 25519 نسمة سنة 1911، ربما ذلك راجع إلى هجرة سكان الأرياف المجاورة إليها، لأن المستعمر طبّق سياسة الأرض المحروقة حتى يقضي على مصدر رزقهم ويجبرهم على التخلي عن أراضيهم ليقطع علاقتهم مع المقاومين، لذلك زاد عددهم في الارتفاع، ويتضح أيضاً أن عدد السكان الأصليين تضاعف ثلاث مرات في المرحلة الزمنية المشار إليها في الجدول أعلاه، في حين عرفت فئة المعمرين تذبذباً، فقد كانت مرات تتصاعد ومرات تنخفض بفارق بسيط، إلا أن المعمرين من

الجنسيات المختلفة قد عرفوا تراجعاً منذ سنة 1911 إلى سنة 1960، حيث تناقصوا بالضَّعف عمَّا كانوا عليه.

وعموماً يمكن القول أنه بغض النظر عن التحولات التي طرأت على ماهية التركيبة السكانية، يبقى الجانب الكمي هو جوهر الدراسة، لما له من علاقة وطيدة ومباشرة مع الوعاء العقاري، وبعث التنمية الحضرية، خاصة أن مدينة تلمسان تحتضن موروثاً معمارياً ذي طابع عمراني إسلامي ومواقع أثرية تأثرت بالنمو السكاني الذي تعرضت له في الفترة الاستعمارية.

1-1-2 الواقع السكاني لمدينة تلمسان بعد الاستقلال:

مما لا شك فيه أن طول مدة الاحتلال الفرنسي للجزائر كان له بالغ الأثر عليها في جميع الجوانب سواء الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهو ما تعرضت له مدينة تلمسان، حيث عاشت كبقية المدن الجزائرية رحيلاً مكثفاً للمعمرين عقب استقلال البلاد، مخلفين وراءهم فراغاً عمرانياً بالأحياء السكنية العتيقة التي كان قد تحلَّى عنها الأهالي، ومع دخول سكان الأرياف نحو المدينة واستقرارهم بها، ارتفع عدد السكان الحضر بالجزائر عامة إلى أربعة ملايين نسمة.⁽¹⁾

لقد تغير الوضع الاجتماعي بمدينة تلمسان بعد الاستقلال بفعل النقص الفادح الذي طرأ على تركيبها السكانية، وبالأخص فئة المعمرين التي تراجع عددها إلى الحد الذي اختفت كلياً، نفس الشيء بالنسبة للسكان الأصليين الذين هاجر منهم البعض إلى فرنسا بحثاً عن العمل ووضع اجتماعي أفضل نتيجة تردي المستوى الاقتصادي.

أ- إحصاء سنة 1966:

يُعد أول إحصاء قامت به الدولة الجزائري للوقوف على عدد سكان البلاد حتى تتمكن من ضبط

1- بنجامين ستوار، تاريخ الجزائر بعد الاستقلال 1962-1988، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2012

جميع الجوانب التي لها علاقة بالمجال الاجتماعي كالسكن والصحة والتعليم... إلخ، وفيما يخص عدد السكان الإجمالي لمدينة تلمسان فقد بلغ 75432 نسمة⁽¹⁾، في حين بلغ عدد سكان المدينة العتيقة لوحدها 18045 نسمة.⁽²⁾

ب- إحصاء سنة 1977:

تواصل إجراء هذه العملية لما لها من دور بالغ الأهمية في بناء صرح الدولة، وقد بلغ العدد الكلي لسكان مدينة تلمسان 98177 نسمة⁽³⁾، من بينهم 22685 نسمة تم إحصائها في المدينة لسكان العتيقة.⁽⁴⁾

ج- إحصاء سنة 1987:

لقد تم إجراء هذا الإحصاء في ظروف شهدت إنجاز عدد من المنشآت القاعدية، وقد قدر العدد الإجمالي لمدينة تلمسان بـ 111908 نسمة⁽⁵⁾، أما سكان المدينة العتيقة فقد بلغ عددهم 17305 نسمة.⁽⁶⁾

د- إحصاء سنة 1998:

1-الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1966

2-L'agence National d'aménagement du Territoire, **Rapport de POS du Tlemcen Phase Final**, Tlemcen, 1998, p:47

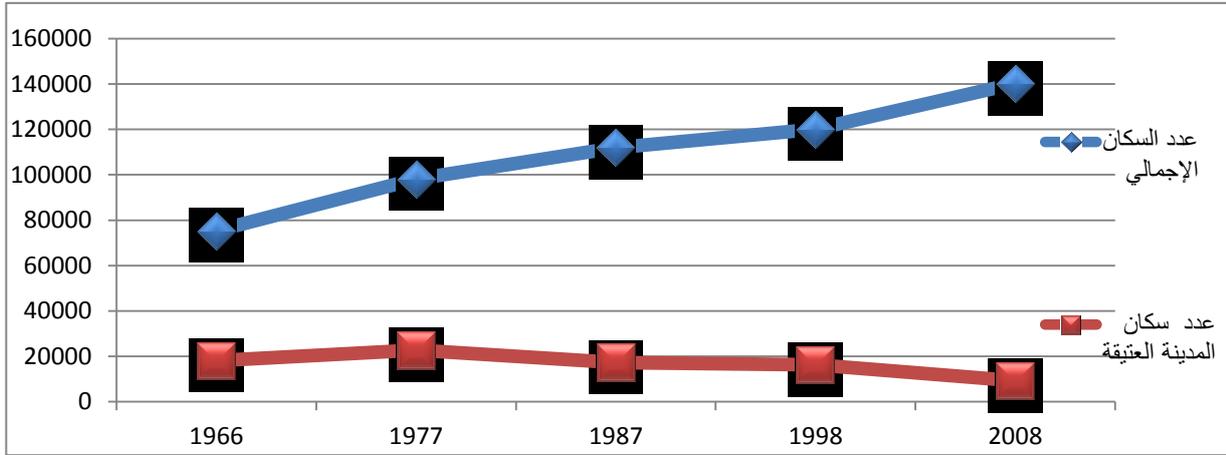
3-الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1977

4-L'agence National d'aménagement du Territoire, **Rapport de POS..... Op.cit** p:47

5-الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1987

6-L'agence d'aménagement du Territoire, **Rapport de POS.....Op.cit**, p:47

بلغ تعداد س



كان المدينة ككل في هذا الإحصاء ما يعادل 120126 نسمة⁽¹⁾، أما سكان المدينة العتيقة فقد بلغ عددهم 16302 نسمة⁽²⁾.

هـ- إحصاء سنة 2008:

فيما يخص هذا الأخير فقد قدر العدد الإجمالي لسكان المدينة 140158 نسمة، أما سكان

المدينة العتيقة فقد بلغ عددهم 9264 نسمة⁽³⁾، ونبين ما تم ذكره سابقاً في الجدول التالي:

سنة الإحصاء	عدد السكان الإجمالي	عدد سكان المدينة العتيقة
1966	75432	18045
1977	98177	22686
1987	111908	17305
1998	120126	16302
2008	140158	9264

7-الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1998

8-L'agence d'aménagement du Territoire, Rapport de POS.....Op.cit,p:47

1- الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 2008

الجدول رقم 08: يبين عدد سكان مدينة تلمسان الإجمالي والمدينة العتيقة من إحصاء سنة 1966 إلى سنة 2008 .

ونوضح معطيات جدول في المنحنى البياني التالي:

المنحنى البياني رقم 01: يبين المسار التطوري للعدد الإجمالي لسكان مدينة تلمسان والمدينة العتيقة بعد الاستقلال

من خلال المعطيات السابقة و المنحنى البياني أعلاه يتضح أن هناك اختلافا في مسار نمو سكان المدينة العتيقة وخارجها، ونبين ذلك في المراحل الآتية:

أ- مرحلة 1966-1977:

لقد عرف عدد سكان هذه المرحلة تزايداً مستمراً بعد الاستقلال في الأحياء السكنية خارج المدينة العتيقة، هذا التغير في مكان التعمير راجع لهجرة السكان الأصليين من المدينة إلى تلك الأحياء التي أنشأها المستعمر الفرنسي في الثلاثينيات من القرن العشرين كحي الكرز وحي الأفق الجميل والهواء الجميل والقلعة، واستخلافهم بقاطني التجمعات السكانية المجاورة للمدينة، وحتى سكان المدينة العتيقة الذين غادروا مساكنهم للحصول على سكن أفضل، خاصة أن منازل المعمرين كانت واسعة وتحتوي على حديقة.

ب- مرحلة 1977-1987:

تميزت هذه المرحلة بإنجاز العديد من المشاريع البالغة الأهمية في المجال الاقتصادي والاجتماعي، وقد أدت هذه القفزة النوعية إلى زيادة نسبة النمو الحضري بالمدن، لم تخرج مدينة تلمسان عن هذه القاعدة حيث استفادت هي الأخرى من عدة مشاريع تنموية، كان أبرزها استحداث المنطقة الصناعية بعين

الدفلى⁽¹⁾، وبالنسبة لنسبة التمرکز السكاني فقد وصلت إلى غاية 1987 لحوالي 80% داخل المدينة فيما تبقت نسبة 20% متمركزة بنواحيها.⁽²⁾

وفيما يخص معدل شغل السكن، فقد ارتفع من أربعة أفراد في المسكن الواحد إلى حوالي سبعة أفراد مقارنة بالمدينة العتيقة التي عرفت تراجعاً في عدد المساكن والسكان، بسبب هجرة ساكنيها إلى مدن أخرى كمدينة الجزائر ووهران وكذا الأحياء المجاورة المستحدثة في المرحلة الأولى، كما ارتفع عدد المساكن خارج المدينة العتيقة تماشياً مع تزايد عدد السكان، وقد بلغ عددها حوالي 13528 مسكن أي بزيادة قدرها 541 مسكن.⁽³⁾

تميزت هذه المرحلة بارتفاع عدد ساكني الحي القصديري بودغن المتواجد على سفح هضبة لالة ستي بالجهة الجنوبية من المدينة، ترجع بوادر تشكل هذا الحي إلى البدو الرُّحل الذين كانوا يأتون إلى تلمسان لاقتناء بعض الحاجيات، فقاموا بضرب خيمهم بقطعة أرضية تعرف باسم جنان العرقي، ليقوموا بعد ذلك ببناء مساكن من دون رخصة بناء⁽⁴⁾، وفي الجدول التالي نوضح مسار تطور أعداد ساكني حي بودغن.

1-Houcine Rahoui, **Les Formes d'appropriation de l'espace urbain Tlemcenien aux époques pré-coloniale et coloniale et Durant la periode contemporaine**, In (R) maghrébine de recherche en urbanisme et aménagement. [www.urbamag.net/ document .php](http://www.urbamag.net/document.php), p:06

2-Direction de l'urbanisme et la construction, **Le groupement des communes de Tlemcen, Mansourah, Chetouane et Béni Mester, Un espace urbain de cohérence et de solidarité intercommunal**, étude de Révision du PDAU Rapport final, Avril 2007, p:17

1-APC de Tlemcen, **Plan d'urbanisme directeur**, 1977, p:87

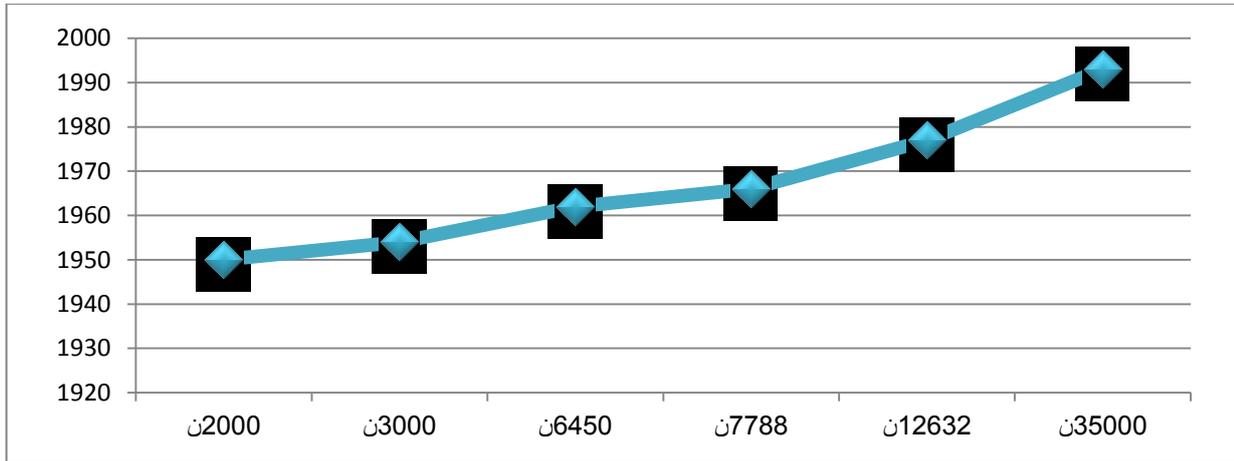
2-Hocine Rahoui, Op.cit, p:06

السنة	1950	1954	1962	1966	1977	1993	2013 ⁽¹⁾
العدد	2000ن	3000ن	6450ن	7788ن	12632ن	35000ن	12103ن

الجدول رقم 09: يبين عدد سكان حي بودغن القصديري بدءًا من سنة 1950 إلى سنة 2013. عن:

Hocine Rahoui, Op.cit, p:06

ونوضح ذلك أيضا بمنحنى بياني من أجل إضفاء صورة واضحة المعالم عن الحجم الديموغرافي لسكان هذا الحي القصديري ومدى تأثيره على المورفولوجية الحضرية العامة للمدينة، وكذا على جانبها الاجتماعي، ونضيف المنحنى البياني التالي لتوضيح مسار نمو السكان حي بودغن:



المنحنى البياني رقم 02: يبين المسار التطوري لعدد سكان الحي القصديري بودغن من سنة 1950

إلى غاية سنة 2013.

من خلال هذا المنحنى البياني والجدول السالف الذكر يتبين أن حي بودغن قد برز إلى الوجود منذ الفترة الاستعمارية، وأخذ يزداد نموه بعد الاستقلال حتى تضاعف حوالي ستة مرات سنة 1977 بدءًا من سنة 1950 وذلك لاستحداث عدة ورشات صناعية بالمدينة نجم عنها وجود مناصب عمل وتواصل ارتفاع أعدادهم إلى أن وصل إلى 35000 نسمة في تسعينات القرن العشرين، وهو عدد مرتفع

1- بلدية تلمسان، مصلحة الإحصاء.

جداً مقارنة بحجم المكان وطبوغرافيته التي لا تساعد على انتشار عمليات البناء به لانحداره الشديد ويرجع هذا الارتفاع إلى تدهور الأوضاع الأمنية آنذاك، وهجرة سكان البلديات المجاورة للعيش هناك، ومع توالي السنين أخذت أعداد القاطنين به تتراجع حتى وصلت إلى حوالي 12103 نسمة، وذلك راجع لاستفادتهم من السكن الاجتماعي الذي أنجزته الدولة، ما أدى إلى رحيل الكثير من العائلات نحو حي أبي تاشفين وشتوان.

ج- مرحلة 1987-1998:

ما ميّز هذه المرحلة هي عمليات البناء الواسعة التي تم إجراؤها على مستوى المدينة ونواحيها، فقد زاد توسع المجال العمراني للأحياء التي كانت قبل ذلك مجرد مساحات واسعة تتخللها بعض المنازل هنا وهناك، أول تلك الأحياء حي الكيفان الموجود بالجهة الشمالية الغربية من المدينة، تضاعف عدد

سكان هذا الحي في هذه الفترة الزمنية بعد أن تم إنجاز عدد من المشاريع التنموية ذات طابع اجتماعي كمقر الخزينة العمومية ومدرسة ومركز للعلاج ... إلخ، إلى جانب ذلك أنجز عدد من العمارات ذات خمس وست طوابق، وتواصل نموه ليصل إلى حي إمامة الذي أصبح هو الآخر من بين الأحياء الأكثر إعماراً بمدينة تلمسان، إذ استفاد من مشاريع تنموية ذات طابع اجتماعي على رأسها مشروع 1079 سكن وهي حصة كبيرة مقارنة بما أنجز بحي الكيفان، اتجه التوسع العمراني نحو هذه الناحية نتيجة طبوغرافية المدينة، حيث تحدها جنوباً هضبة لالة ستي، وهو ما جعلها حاجز منيع ضد التوسعات العمرانية.

نفس الشيء بالنسبة للجهة الشمالية الشرقية، فلم تكن محدودة بحاجز طبيعي بل بما أنجز بها من مؤسسات صناعية، لذلك فضل المخططون التوجه إلى الجهة الغربية والشمالية الغربية لإنجاز مشاريع تنموية مختلفة الطابع، مثل هذه الإجراءات نجم عنها ازدياد العدد الإجمالي لسكان المدينة، فقد بلغ في الإحصاء الخاص بهذه المرحلة 120126 نسمة، لذلك أصبح لزاماً على السلطات المحلية إيجاد

الوعاء العقاري لإسكان العدد المتزايد للسكان، خاصة مع ظهور حي قصيديري جديد يسمى بالكدية لتمركزه بمرتفع يقع شمال المدينة، وقد نتج كإفراز مباشر لضيق المدينة بالسكان وعدم قدرتها على استيعاب الكم الهائل من القاطنين بها والوافدين إليها من النواحي المجاورة.⁽¹⁾

د-مرحلة 1998-2008:

تميزت هذه المرحلة بارتفاع عدد سكان مدينة تلمسان مقارنة بالمراحل السابقة، إذ قدرت الزيادة بحوالي 20000 نسمة أي ما يعادل نسبة 16.67%، وهو عدد يكفي لإسكان مدينة بأكملها، إذا ما قارناه بأعداد سكان المدن الجزائرية في بعض المناطق من الجزائر، وبالمقابل مع ذلك نجد أن سكان المدينة العتيقة قد انخفض بحوالي النصف، إذ بلغ عددهم في إحصاء هذه المرحلة 9264 نسمة بعد أن وصل في الإحصاء السابق 16302 نسمة، أي أنه تراجع بنسبة قدرها 43.17%، وهو ما يدل أن ساكنيها هاجروها إلى أحياء أخرى، بالموازاة مع ذلك نجد أنه قد ظهرت في هذه المرحلة أحياء جديدة تتمثل في حي أوجليدة الذي بلغ عدد سكانه في الإحصاء الأخير 9365 نسمة⁽²⁾، وهو ما يدل دلالة واضحة على ارتفاع مستوى درجة التعمير خارج المدينة العتيقة، وأيضاً مدى ارتفاع عدد سكان الحي القصديري ربما يعزى ذلك إلى عدم مقدرة ساكنيه على اقتناء مسكن لائق، ولحدّ الساعة لازالت عمليات البناء تتواصل خارج المدينة من طرف الخواص الذين يبنون مساكن فردية، ومؤسسات الدولة لاستيعاب العدد الكبير لسكان مدينة تلمسان، حتى يتم القضاء على الأحياء القصديرية من جهة وتوفير سكن لائق للمواطنين من جهة أخرى، لذلك تمّ الإعلان عن المشروع السكني مؤخراً المسمّى بوجليدة الذي تم الانتهاء من إنجازها.

وعموماً يثبت كل ما أتينا على ذكره حول الواقع السكاني لمدينة تلمسان في فترة الاحتلال الفرنسي وبعد الاستقلال، أنه كلما زاد عدد السكان زاد اتساع حجم المدينة وتغيرت ملامحها تلبية لحاجيات

1-Houcine Rahoui, Op.cit,p:08

1-بلدية تلمسان، إحصاء سنة 2008

ساكنيها، فلا يعقل أن تزداد أعدادهم وتبقى المدينة جائمة داخل حيزها القديم، هذه العلاقة الطردية لا يمكن التحكم فيها، لأنها تعبير مباشر عن طموح الإنسان اللامتناهي في حياة أفضل، والذي قام بتجسيده في شكل عمليات تنموية تنطوي تحت اسم عملية التنمية الحضرية هذه الأخيرة التي وقفت وراء تغيير الملمح العام والجوهر الداخلي لمدينة تلمسان.

1-2 مدينة ندرومة:

تميزت مدينة ندرومة بقيم حضارية متشعبة بالثقافة الإسلامية التي تحلّت بها من كونها جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، ولاشك أن ما تبقى بها من عمائر مختلفة الطابع كما مرّ بنا ذكرها بالإضافة إلى التصميم العمراني، لنماذج ناطقة عن مدى ارتباطها الوثيق مادياً ومعنوياً بالدين الإسلامي، وكذا بالبيئة التي وجدت فيها، ولمّا كان الإنسان المحرك الأساسي للحضارة منذ القدم، كان لأفراد المجتمع دور مباشر في تحديد مورفولوجية البيئة التي يعيشون فيها بُغية الحصول على وضع أفضل، يمكن لهم من خلاله فرض شخصيتهم والقيام بجميع نشاطاتهم في ظروف مريحة، ومن تم توفير جميع متطلباتهم، هذه العلاقة القائمة بين الإنسان والمكان قديمة ومتبادلة، فكما تمكن للإنسان أن يؤثر على المكان، تمكن هذا الأخير أن يؤثر عليه عبر ما يفرضه من مواد وطريقة بناء، ونظام غذاء .

لقد عاشت مدينة ندرومة العتيقة تحولات عميقة في تركيبها الاجتماعية، نجم عنها ظهور ضغوط حضرية على تراثها المادي بفعل المتطلبات الجديدة للسكان، بدأت أولى التغيرات تطفو على السطح بعد تعرضها للاحتلال الفرنسي، فقد قام بجلب المعمرين من أوروبا للعيش فيها، منتهجة بذلك نفس النهج الذي قامت به في مدينة تلمسان وباقي المدن الجزائرية.

1-2-1 الواقع السكاني لمدينة ندرومة في الفترة الاستعمارية:

استناداً إلى وثائق من الأرشيف الفرنسي أشار الباحث الفرنسي جيلبار جراند غيوم *Gilbert Grandguillaume* إلى أن مساحة مدينة ندرومة سنة 1867م قدرت بـ 2154 هكتار مقسّمة على النحو الآتي:

المجموع	مساحة الملكية العامة	مساحة الأراضي الزراعية	مساحة ملكية الأوقاف	مساحة الملكية الخاصة
23.16 هـ	1.8 هـ	4.62 هـ	1.50 هـ	15.24 هـ

الجدول رقم 10: يبين مساحة مدينة ندرومة العتيقة سنة 1867 ونوعية الملكية الموجودة بها.

يتضح من الجدول أعلاه أن مساحة المدينة العتيقة كانت أقل من مساحة مدينة تلمسان، وهو أمر طبيعي بالنظر إلى كونها من المدن الثانوية ولم تكن عاصمة، وهو السبب المباشر الذي يجعل المدن عامة نقاط جذب للسكان ومن ثم تزداد مساحتها.

نفتح قوساً للإشارة فقط إلى أن العدد الذي ذكره جلابر جراندغيوم لم يمكن هو الحاصل الناتج عن جمع المساحات التي ذكرها، فقد وجدنا مجموعها هو 23.16 هكتار كما هو وارد في الجدول، ونشير أيضاً إلى أن أنه قد تقلص حالياً حيث أصبح لا تتعدى 09 هكتارات وفقاً لما تم ذكره في المرسوم التنفيذي رقم 402/09⁽¹⁾، لقد كانت أكبر مساحة بالمدينة خاصة بالملكية الخاصة المتمثلة أساساً في المساكن وورشاتهم الحرفية ودكاكينهم، ثم يأتي بعدها مساحة الأراضي الزراعية، وبالنسبة لملكية الأوقاف فقد بلغت مساحتها 1.50 هكتار، وهي الأخرى مساحة معتبرة، إذ ما قورنت بالدور الذي تؤديه، وأغلب الظن أن أكبر جزء منه كان عبارة عن أراضي فلاحية أو بساتين تخصص ريعها لصالح المساجد وغيرها على النحو الذي كان معمولاً به في المدن الإسلامية، وما تبقى كان عبارة عن ملكية عامة كالمقابر وغيرها، بالموازاة مع المساحة المخصصة للملكية الخاصة المقدرة بـ 15.34 هكتار بلغ عدد السكان فيها في أول إحصاء قام به المستعمر الفرنسي سنة 1867م ما يعادل 2545 نسمة، وقد كانوا منقسمين إلى فئتين الأولى فئة السكان الأصليين والثانية لليهود موزعين حسب الجدول الآتي:⁽²⁾

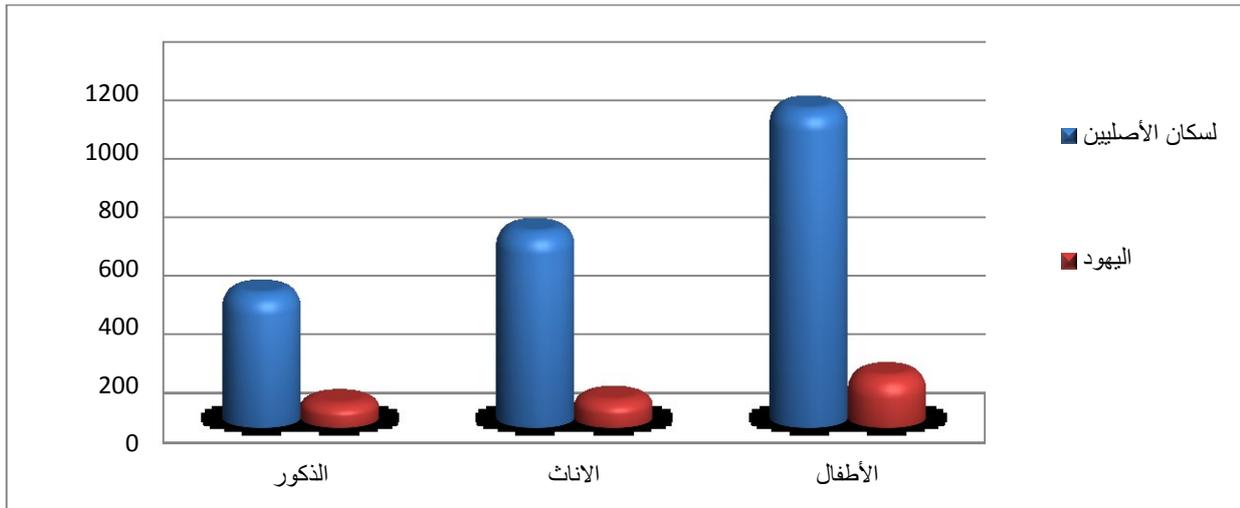
1- الجريدة الرسمية، مرسوم تنفيذي رقم 402/09، مرجع سابق، ص: 5-6

2-Gilbert Grandguillaume, Op.cit,p:63

المجموع الكلي	المجموع الجزئي	الأطفال	الإناث	الذكور	السكان الأصليين
2545 ن	2205	1085	665	455	السكان الأصليين
	340	172	90	78	اليهود

الجدول رقم 11: يبين عدد الذكور والإناث والأطفال في فئتي السكان الأصليين واليهود بمدينة ندرومة العتيقة سنة 1867م.

ونوضح أعداد كلا الفئتين في الأعمدة البيانية التالية:



الأعمدة البيانية رقم 05: تبين عدد الذكور والإناث والأطفال في فئة السكان الأصليين واليهود بمدينة ندرومة العتيقة سنة 1867م.

يتضح من الجدول والأعمدة البيانية الخاصة بتعداد سكان مدينة ندرومة سنة 1867م أنها تكونت من فئتين الأولى فئة السكان الأصليين (المسلمين) والثانية فئة اليهود، ويتبين جلياً أن فئة السكان الأصليين هي الأكثر عدداً، إذ شكّلوا ما يعادل 86.64% من المجموع الكلي مكونين حسب ما ذكر جيلسبار غراند غيوم 236 عائلة، شكّل وجود الأطفال والنساء الجزء الأكبر إذ بلغت نسبة الأطفال

في هذه الفئة 47.98% تليها نسبة الإناث بـ 29.47%، أما نسبة الذكور فكانت هي الأقل عدداً في هذه الفئة، إذ بلغت 20.63%، ربما يعزى ذلك إلى مقتل العديد منهم في المعارك التي دارت راحاها بين أهالي المدينة بقيادة الأمير عبد القادر حينما انضموا تحت رايته لطرد المستعمر الغاشم. وبالنسبة لفئة اليهود فقد شكّلوا نسبة 13.35% من إجمالي السكان، أما عدد عائلاتهم فقد بلغ 70 عائلة، نفس لشيء بالنسبة لعدد الذكور فقد جاء أقل من عدد الإناث ولأطفال إذ شكّلوا نسبة 23.94% فقط من العدد الإجمالي في حين شكّل عدد الأطفال أكبر نسبة، إذ قدرت بـ 50.58% ثم تليها نسبة الإناث بـ 26.47%.

بقيت مدينة ندرومة محتفظة بتركيبها السكانية المتكونة من فئتين فقط، لكن من حيث الكم يمكن القول أنها تعرضت للنقصان والزيادة تماشياً مع الظروف التي أحاطت بها، لقد زاول سكان المدينة نشاطات حرفية وأخرى فلاحية وقد بين إحصاء سنة 1867 أنه وجد آنذاك 148 عامل في النسيج و17 ورشة لصناعة الفخار، وهناك بعض الصناعات التي كان اليهود يمارسونها بالمدينة كصناعة الحلبي التي كان يمتنها 06 صنّاع، وصناعة الأسلحة التي امتنها صانعان وصناعة البلغة التي اشتغل فيها 09 صنّاع، بالإضافة إلى هذه النشاطات امتلك سكان المدينة سوقاً أسبوعياً يقام كل يوم خميس، وهو لا يزال يقام لحد الساعة كل يوم خميس بجانب السور المشيد من طرف المستعمر شمال المدينة، وجه الاختلاف فقط في السلع فقد كان تباع فيه البهائم فقط، أما بقية السلع كالحبوب والصوف واللحم كانت تباع في ساحة التربيعة داخل النسيج المعماري للمدينة بمحاذاة الجامع مع الكبير، لقد أكسب هذا النشاط التجاري المدينة مكانة مرموقة بين البوادي المحيطة بها وجعلها قبلة الجهة الشرقية من إقليم ترارة والغزوات ومغنية وجباله وحتى مدينة وجدة المغربية⁽¹⁾، تدل هذه المعطيات على وجود تعايش بين الفئتين وأن مدينة ندرومة كانت هي الأخرى من الحواضر المرموقة تجارياً عبر ما تجسد بها من صنائع ومعاملات تجارية.

1-Gilbert Grandguillaume, Op.cit,p:62

لم تبق التركيبة السكانية عما كانت عليه فدخول المستعمر الفرنسي إليها جلب معه المعمرين إلى المدينة، وكما أشارنا في مسار التنمية الحضرية بمنطقة تلمسان ما بين سنة 1842 و1962، فقد شهدت سنة 1852 استقرار معمر واحد منح له المحتل 14 هكتار من الأراضي كامتياز على مجيئه للعيش بالمدينة، وهي مساحة جد معتبرة الغرض منها تحفيز بقية المعمرين، وعمد المستعمر على إنشاء مدرسة فرنسية سنة 1865م تحت إدارة السيد بودات M.Baudet لتدريس أبناء المعمرين⁽¹⁾، وهو ما يدل أن أعدادهم بدأت تزداد لذلك بدأ بوضع حجر الأساس للمدرسة التي تعد من بين أهم المشاريع التنموية الحضرية ذات الطابع الاجتماعي الأمر الذي يبين علاقة الجانب الاجتماعي بالتنمية الحضرية.

أمام غياب المعطيات الإحصائية لهذه الفترة الزمنية لم نستطع ضبط عدد سكان المدينة في السنوات الأخيرة من القرن 19م، إلا أنه يمكن القول تماشياً مع أولى التوسعات العمرانية التي حدثت بعد سنة 1884 أن عدد سكان المدينة بدأ يزداد لأن العمارة تدل على احتياج ضروري للسكان.

ومع بداية القرن العشرين بالتحديد بين سنتي 1901 و1911م نزح من البوادي المجاورة للمدينة ما لا يقل عن 300 فرد من الأهالي نتيجة لسوء الأوضاع المعيشية والاضطهاد المتبع ضدهم من قبل المستعمر الفرنسي لوقوفهم إلى جانب الأمير عبد القادر في معاركه التي شنّها ضده، خاصة أن المدينة تعززت بإنشاء المدرسة وبدأت تتوسع خارج الأسوار جهة الشرق، خاصة أن توافد الأهالي نحو المدينة كان يخدم مصالح المستعمر في إعمارها وكذا في الحصول على اليد العاملة لإنجاز المشاريع التنموية الموجهة للمعمرين، إضافة إلى أنه وجد فيهم مورداً بشرياً مهماً في الحرب العالمية الأولى بعدما فرض عليهم قانون التجنيد الإجباري، الأمر الذي أدّى إلى رحيلهم مع سكان مدينة تلمسان إلى المشرق والمغرب الأقصى تعبيراً عن رفضهم لذلك القانون، وهو ما أحدث تراجعاً طفيفاً في عدد السكان، لكن أحد المؤرخين أشار إلى أن الفترة الزمنية الممتدة من سنة 1872 إلى غاية سنة 1921 قد شهدت

ارتفاعاً محسوساً في عدد سكانها المدن الجزائرية المتمركزة بالقرب من الساحل وقد تماشى ذلك مع تحسن بنيتها الحضرية⁽¹⁾، ويبدو أن مدينة ندرومة كانت من بين المدن التي ازداد عددها في هذه الفترة لكونها هي الأخرى مدينة ساحلية.

مع مطلع الأربعينات من القرن العشرين وفدت إلى المدينة موجة ثانية من المهاجرين النازحين من الأرياف المجاورة كبني مسهل وبني منير وجباله، وقد بلغ عددهم 859 نسمة ليصل بذلك التعداد الإجمالي إلى حوالي 7745 نسمة⁽²⁾، وذلك راجع لاتساع الهوة بينها وبين الأرياف المجاورة لها في مجال السكن والمرافق الضرورية، فمثلاً وجد بمدينة ندرومة مركز البريد الذي احتاج سكان الأرياف المجاورة لخدماته حتى يستلموا الحوالات المالية التي كان يبعث بها أهاليهم من فرنسا، بعد أن هاجروا إليها في وقت سابق طلباً للعمل ووضع أفضل، لقد عرف عدد المعمرين تراجعاً بعد سنة 1948 أمام ارتفاع عدد المهاجرين بمدينة ندرومة وهو نفس الأمر الذي عرفته جل المدن الجزائرية فقد انخفض بها عدد المعمرين بنسبة 60% وبالمقابل زاد ارتفاع عدد السكان الأصليين بنسبة 35% في السنة وذلك بالتحديد بين سنتي 1926 و1948.⁽³⁾

في الإحصاء الذي قامت به فرنسا سنة 1954م، صُنفت مدينة ندرومة من بين المدن المكتظة بالسكان وذلك مقارنة بمساحتها الصغيرة، فقد بلغ عدد سكانها 9009 نسمة من ضمنهم 560 معمر فقط متمركزين في مساحة قدرها 23.16 هكتار⁽⁴⁾، تجدر الإشارة إلى أن مساحتها ازدادت عمّا

1-Kamal Katab, **Européenes, Indigènes et Juifs en Algérie (1830-1962) Représentation et réalité des populations**, L'institut National d'études démographiques, Paris, 2001, p:25

1-Sidi Mohammed Trache, **Exurbanisation et mobilités résidentielles à Nédroma (1990-2000)**, In (R) Insanyat n°28, CRASC, Oran, p:25

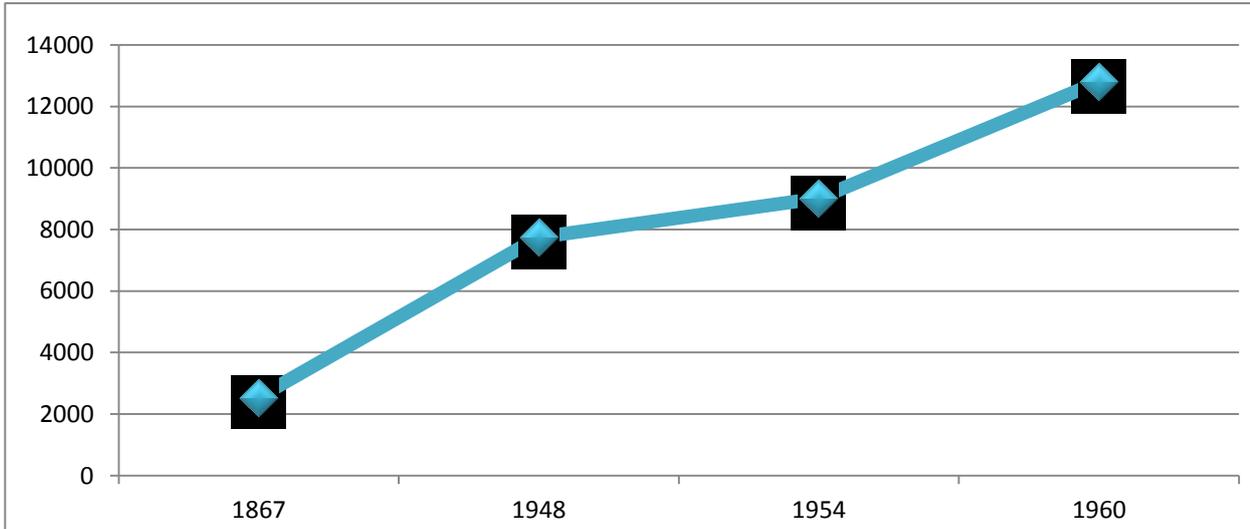
2-Kamal Katab, Op.cit, p:271

3-Sidi Mohammed Trache, Op.cit, p:271

كانت عليه بما يعادل 06 هكتارات، وعليه بلغت نسبة الكثافة السكانية بها 3.75 ن/م² وهي كثافة عالية نوعاً ما أمام المساحة الاجمالية السالفة الذكر، ما يؤكد أن النمو السكاني لم يتمشى في خط واحد مع التنظيم المجالي، حيث لم تتسع مساحتها عمّا كانت عليه إذا ما قارناها بسنة 1867م إلاّ بضع هكتارات معدودة في حين تضاعف عدد سكانها عن تلك السنة بحوالي ثلاثة مرات، ومع مجيء سنة 1960م ازداد ارتفاع عدد سكان المدينة إلى 12801 نسمة⁽⁴⁾، وسنقوم بتوضيح ما أتينا على ذكره بمنحى بياني وفقاً لما تحصلنا عليه من معلومات عن ذلك.

المنحى البياني رقم 03: يوضح المسار التطوري لسكان مدينة ندرومة في الفترة الاستعمارية (1867-1960).

يتضح من المنحى البياني التالي



ياني أعلاه أن عدد سكان مدينة ندرومة تضاعف بشكل تدريجي منذ أن خضعت

4-Djilali Sari, *Les villes Précoloniales de L'Algérie Occidentale Nédroma Maz -oun ,Klâa*, 2^{ème} édition, société nationale d'édition et de diffusion, 1978, Alger, p:155

للمستعمر الفرنسي، بفعل الهجرة الريفية لأصحاب القرى المجاورة وسياسة الاستيطان التي طبقتها المستعمر في جميع المدن، الأمر الذي نجم عنه بروز كثافة سكانية عالية بلغت أعلى نسبة لها 5.94م²/نم² قبيل الاستقلال وبالتحديد سنة 1960، وهي السنة التي سجلت ارتفاعاً كبيراً نتيجة رحيل المعمرين من المدينة وتزايد هجرة أصحاب القرى المجاورة إليها للسكن في مساكنهم التي بقيت فارغة، وعليه يمكن القول أن المسار التطوري لعدد سكان المدينة سرى وفق منحنى تصاعدي في الفترة الاستعمارية في حين لم يتغير حجم الوعاء العقاري كثيراً، لأن المستعمر لم يقيم بإنجاز عدد كبير من المباني بل اكتفى بما هو ضروري فقط.

1-2-2-1 الواقع السكاني لمدينة ندرومة بعد الاستقلال:

على غرار المدن الجزائرية استقلت مدينة ندرومة من قبضة الاحتلال الفرنسي الذي استعمرها منذ سنة 1842م، بعدما عرفت تحولاً في مورفولوجيتها الحضرية والاجتماعية في فترة احتلالها، دخلت بعد الاستقلال في سبات من جانب إنشاء وحدات صناعية وتجهيزات إدارية وغيرها من المراكز التي تخدم مصالح المواطنين سواء المقيمين بها أو سكان القرى المجاورة، وبالرغم من ذلك فضل ساكنيها المكوث بها وعدم الرحيل منها⁽¹⁾، ولم يكن ذلك مقتصرًا على مدينة دون أخرى، بالموازاة مع الوضع الذي مرّت به ندرومة آنذاك شهدت توافداً أكبر من ذي قبل لسكان الأرياف بفعل الرحيل المكثف للمعمرين تسميتهم بالأقدام السوداء تاركين وراءهم مساكنهم وبقية ممتلكاتهم.

لقد نجم عن هذه الهجرة المكثفة بروز الأحياء القصديرية بالمدينة، فلم يعد النسيج المعماري العتيق كافياً لاستيعاب العدد الهائل لسكان الأرياف الوافدين، الأمر الذي دفع بهم إلى بناء مساكن بالجهة الجنوبية على منحدرات جبل فلاوسن وقد عُرف ذلك التجمع باسم حي سيدي عبد الرحمن، نفس الشيء وقع بالجهة الغربية حيث تكوّن تجمع آخر سمي بحي الرمل، (لأن مكانه يتكون من كريات صغيرة تشبه الرمال)، والملاحظ أن هذه التجمعات تركزت بالقرب من المدينة العتيقة ولم تتعد عنها

1-Sidi Mohammed Trache, Op.cit, p:33

ما يؤكد أنها كانت في تلك الفترة القلب النابض للنواحي المجاورة، وأنها كانت تتضمن جميع المتطلبات التي يحتاجونها سواء الدينية أو الدنياوية، وإضافة إلى عامل الهجرة الذي أدى إلى حدوث هذه التوسعات العشوائية، زاد عامل السبات التنموي الذي عرفته المدينة من تزايد حدة الوضع، حيث لم تستفد في فترة الستينيات من أي مشروع سكني، نظراً للوضع الاقتصادي الذي كانت تمر به الجزائر آنذاك، هذه الظروف أدت لهجرة سكان المدينة وكذلك النواحي المجاورة إلى المدن الكبرى مثل مدينة وهران والجزائر العاصمة وحتى فرنسا لضمان مستوى لائق في العيش.⁽¹⁾

لقد أثرت الهجرة التي قام بها المعمرون بعد مغادرتهم للمدينة على العدد الإجمالي للسكان، فقد انخفض عمّا كان عليه بحوالي 646 نسمة ليصل عددهم في الإحصاء الأول الذي قامت به الجزائر سنة 1966 إلى حوالي 12155 نسمة⁽²⁾، أي أن أعدادهم تراجعت بنسبة 5.04%.

لقد عرفت مرحلة السبعينيات بالموازاة استفادة المدينة من بعض المنجزات المعمارية، مما أدى إلى ارتفاع عدد سكان المدينة، بعدما توافد إليها عدد كبير من المهاجرين، وقد ظهر ذلك جلياً في إحصاء سنة 1977، إذ بلغ تعدادها 13489 نسمة⁽³⁾، أي بزيادة قدرها 10.97%.

مع مجيء الثمانينات عرفت المدينة تجسيد مشاريع لها علاقة مباشرة بالمواطن الندرومي ومتطلباته في مجال التعليم والصحة والسكن، وفي سنة 1987 شهدت المدينة ارتفاعاً محسوساً في عدد سكانها بلغ 17164 نسمة⁽⁴⁾، وأمام الوضع السياسي الذي عاشته البلاد في بداية التسعينات هاجرت إلى المدينة موجة أخرى من السكان بحثاً عن الأمن والاستقرار، وهذا ما أدى إلى توسعها نحو الجهة الشمالية التي تكونت بها على غرار حي بن باديس ثلاثة أحياء أخرى، وهي حي عبد المؤمن بن علي، حي

2-ibid,p:36

2-الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1966

2-الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1977

3-الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1987

داقيوس، حي عين الزبدة⁽¹⁾، شكَّلت هذه المرحلة بداية الانفصال عن المدينة العتيقة في الجانب المادي والمعنوي، لأن التغير الحاصل مسَّ كذلك الجانب التجاري، فقد انتقلت جل النشاطات التي كان يمارسها السكان بالمدينة العتيقة نحو الأحياء الجديدة، وقد غادرها ما يقارب 175 عائلة من مجموع 622 عائلة، أي ما يعادل نسبة 28.13 %، وزاد في تحريك رغبتهم في المغادرة ذلك التقسيم العقاري الذي قامت به البلدية في بداية التسعينات، إذ تمَّ توزيع 23 قطعة أرضية على المواطنين لبناء مساكن فردية⁽²⁾، وقد بلغ عدد سكان المدينة ككل 20324 نسمة في إحصاء سنة 1998م.⁽³⁾

بعد هذه السنة زادت مغادرة سكان المدينة العتيقة إلى الأحياء الجديدة، وتجدد الإشارة أنها أصبحت تسمى بالمدينة القديمة في المنطوق المحلي مقارنة مع الأحياء المنجزة بالجهة الشمالية التي أصبحت تسمى بالمدينة الجديدة، وقد تميزت هذه الفترة بانقطاع الهجرة الخارجية وبقاء الهجرة الداخلية فقط التي انحصرت فيما ذكرناه سابقاً⁽⁴⁾، وقد شهدت هذه الفترة أيضاً هجرة سكان المدينة العتيقة إلى الحد الذي أصبحت فيه لا تأوي إلا حوالي 20% من مجموع السكان الإجمالي لمدينة ندرومة⁽⁵⁾، بالموازاة مع ما ذلك زاد ارتفاع عدد سكان المدينة الجديدة بشكل ملفت للانتباه عما كان عليه سابقاً، حيث بلغ العدد الإجمالي أي لسكانها إضافة لسكاني المدينة العتيقة حوالي 32498 نسمة في إحصاء سنة 2008.⁽⁶⁾

بعد هذا الإحصاء في السنوات القليلة الأخيرة اتسعت الفجوة بين المدينة العتيقة والمدينة الجديدة في جميع الجوانب سواء المعمارية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، فمن جانب المساحة زاد حجم المدينة

4- بلدية ندرومة، المصلحة التقنية

5- بلدية ندرومة، المصلحة التقنية

6- الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1998

1-Sidi Mohammed Trache, Op.cit, p:42

2-ibid, p:49

3- الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 2008

الفصل الثالث دور العامل الاجتماعي والإداري والعولمة الثقافية في بعث التسمية الحضرية بمنطقة تلمسان

الجديدة عمّا كان عليه بمساحة قدرها حوالي 02 كلم² من المباني التي جاءت في معظمها عبارة عن مساكن فردية من طابق أو طابقين، ولتوضيح الصورة جيداً نقدم المعطيات الإحصائية في الجدول والمنحنى البياني الآتي :

السنة	1966	1977	1987	1998	2008
عدد السكان	12155 ن	13489 ن	17164 ن	20324 ن	32498 ن

الجدول رقم 12: يوضح العدد الإجمالي لسكان مدينة ندرومة بعد الاستقلال (1966-2008).

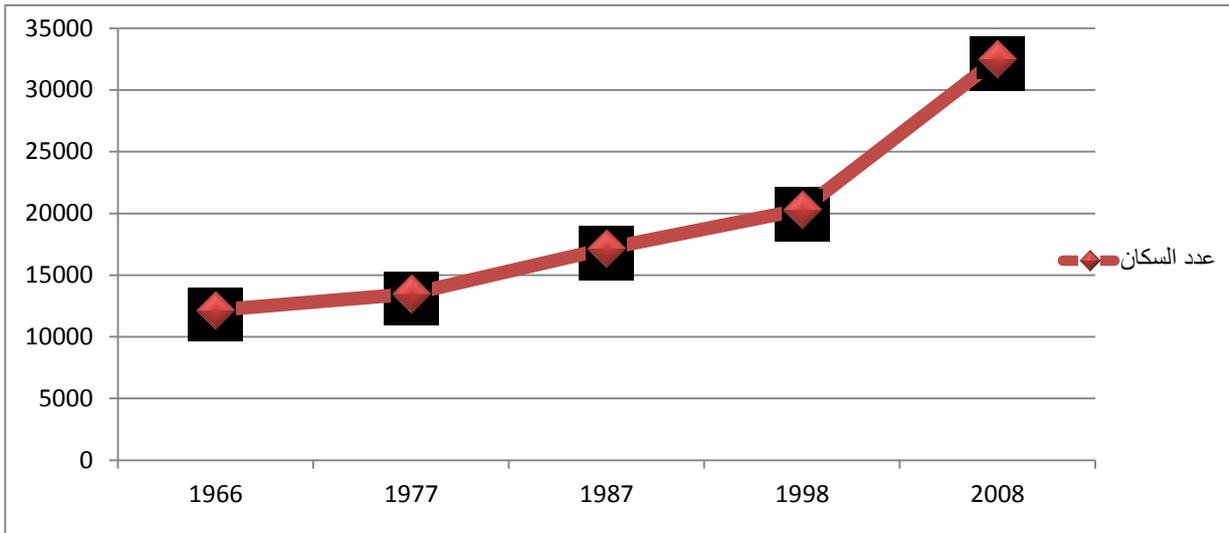
ونوضح ما جاء في الجدول بالمنحنى البياني الآتي:

المنحنى البياني رقم 04: يبين مسار تطور العدد الإجمالي لسكان مدينة ندرومة بعد الاستقلال (1966-2008).

تبعاً لما هو مبين في الجدول والمنحنى البياني أعلاه، يتضح جلياً أن المسار التطوري لسكان مدينة ندرومة كان يسير وفق منحنى تصاعدي من إحصاء الآخر، إلا أنه إذا ما قارنا إحصاء الأول لسكان المدينة مع ما تقدمه في سنة 1960 يتضح أن أعدادهم تراجعت بنسبة 5.04 %، وذلك راجع لتقهقر الوضع الاقتصادي للبلاد عامة وهجرة بعضهم نحو المدن الكبرى، كما لا ننس فئة الأشخاص الذين كانوا موالين لفرنسا والذين فروا من البلاد ولحقوا بها ساعة خروجها، ولا شك أن مدينة ندرومة هي الأخرى هاجرت منها هذه الفئة، ما يلاحظ أن الزيادة الحاصلة في أعدادهم في إحصاء سنة 1977 لم تكن بالكبيرة، إذ بلغت 11.04 %، في حين كانت أعلى بالضعف في إحصاء سنة 1987، إذ بلغت 27.24 % وهو ما يعد ترجمة مباشرة لتحسن الوضع الاجتماعي بالمدينة، نظراً لاستفادتها من بعض المشاريع التنموية بعدما تم ترقيتها إلى رتبة دائرة وهو ما فرض لزاماً على أصحاب القرار تجهيزها بما يتناسب مع ذلك، الملفت للانتباه أن النسيج التاريخي عاش حينها كثافة سكانية عالية

لعدم وجود مكان آخر للسكن، وكذا لتوفره على معظم ما يحتاجونه آنذاك، كما أن المستعمر الفرنسي لم يترك إلا عدداً قليلاً من المساكن وتجهيزات أخرى أتينا على ذكرها خارج أسوار، وهو ما جعل المدينة

العتيقة مكاناً مفضلاً للعيش، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار مساحتها التي لم تتغير عما كانت عليه في الفترة الاسـ... ترمية، أي 2334 هـ



كتار لوجدنا أن كثافتها بلغت 7.94 ن/م²، ما يدل دلالة واضحة أنها عاشت نمو ديموغرافيا بالغ الحدة في الثمانينيات من القرن المنصرم.

مما لاشك فيه أن لهذا الواقع الاجتماعي تأثير مباشر وسلي على مورفولوجية المدينة العتيقة وعلى الوحدات المعمارية لنسيجها العمراني، التي تأتي في مقدمتها المساكن باعتبارها المكان الذي يحتضن وجود أولئك السكان، خاصة في ظل وجود كثافة سكانية عالية كالتالي وصلت إليها المدينة العتيقة، إلا أن التوسعات العمرانية التي عرفتها في فترة التسعينات اتجه الشمال على طول سهلها خفف من حدة الكثافة السكانية، حيث انتقلت العديد من الأسر إلى هناك بعد استفادتها من السكن أو من القطع الأرضية الصالحة للبناء التي قامت بتوزيعها دائرة ندرومة آنذاك، هذا التحسن زاد من عدد سكانها بنسبة 18.41% عن الإحصاء السابق، وهو ما أدى إلى وفود العديد الأسر إلى المدينة العتيقة لتشغل المساكن التي غادرها أصحابها عقب تدهور الوضع الأمني للبلاد عامة ومرورها بعشرية سوداء.

فيما يخص الإحصاء سنة 2008 فقد سُجِّل فيه أكبر نسبة في نمو السكان بندرومة بين عمليات الإحصاء السابقة، إذ بلغت نسبة الزيادة 59.89%، وهو ما زاد في اتساع المدينة نحو الشمال والغربي وبرزت ثلاثة أحياء جديدة، الذي تأسَّس فيما قبل وهي حي عبد المؤمن وحي بن علي وحي داقبوس وحي عين الزيدة إضافة إلى حي بن باديس.

بعد خمس سنوات الإحصاء السالف الذكر زاد عدد سكان المدينة، ففي آخر تقدير للبلدية زاد عددهم في سنة 2013م، ليصل إلى حوالي 33295 نسمة⁽¹⁾، أي بزيادة قدرها 2.45%.

أصبحت مدينة ندرومة حالياً متسعة ومنقسمة إلى جزئين، جزء يسمى بالمدينة القديمة، والآخر يسمى بالمدينة الجديدة، وهي تشهد توسعاً عمرانياً متزيداً، وإنجاز تجهيزات جديدة أهمها المركز الاستشفائي والمقر الجديد للحكمة والضمان الاجتماعي، أما المدينة العتيقة فقد عرفت تراجعاً في قيمتها الفنية والتاريخية لأنها أصبحت هي الأخرى تمشي على خطى التمدن العمراني الجديد الذي تجسدت معالمه على مرئى منها في الأحياء الجديدة.

3-1 مدينة هنين:

تمركز مدينة هنين على غرار مدينة ندرومة بإقليم ترارة، وقد كانت هي الأخرى جزءاً لا يتجزأ من قبيلة كومية التي يرجع مسقط رأس عبد المؤمن بن علي إلى أحد جبالها المسمّى بتاجرة الذي لا يبعد عنها إلا حوالي 03 كلم⁽²⁾، لقد عاشت فترات زمنية من الرخاء الاقتصادي والنشاط الثقافي والعلمي والمعماري لكونها كانت من المدن الآهلة بالسكان، وقد تأتت لها ذلك من موقعها الاستراتيجي الذي ساعد على العيش والعمل، ففي الوقت الذي تقابل فيه زرقة البحر جزئها الآخر يقابل حضرة الجبال التي تركزت بين مرتفعاتها، ومن جهة أخرى امتلكت ميناء تجارياً في الفترة الإسلامية أكسب سكانها مداخيل عادت عليهم وعلى الدولة الزيانية عامة بالريح الوفير، وذلك حسب ما أورده عنها

1- بلدية ندرومة، المصلحة التقنية

1- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، مصدر سابق، ص: 99

حسن بن محمد الوزان⁽¹⁾، وبحكم ما مرَّ بالدولة الزيانية التي كانت مدينة هنين إحدى أهم مدنها تغيَّر وضعها عمّا كان عليه إلى الحدّ الذي تلاشت فيه من الوجود تقريباً، ولم يتبق منها إلاّ بعض المعالم التاريخية التي جاء أغلبها ذي طابع عسكري وعدد من المواقع الأثرية الموجودة هنا وهناك، وبالرغم من تعاقب الأتراك على الحكم بعد اضمحلال الدول الزيانية، لكنها بقيت مهجورة ولم يعد لها بريقها الذي عرفته سابقاً، إذ لم نجد بها أي معلم أثري يعود لفترة حكمهم أثناء معاينتنا الميدانية للموروث المادي للمدينة.

هناك بعض الدارسين قدّموا صورة تقريبية عن تعداد سكان مدينة هنين قبل تخريبها على يد الإسبان وذلك انطلاقاً من المعطيات المتحصل عليها من الحفريات التي أجراها عبد الرحمن خليفة، جاء في التقرير الذي تحدّث عن هذا الموضوع أن المساحة الإجمالية للمدينة في أقصى امتداد لها بلغ حوالي 11 هكتار تراوحت المساحة المبنية منها ما بين 7 و8 هكتارات، بالموازاة مع ذلك تراوحت مساحة مساكنها ما بين 70م² و100م² ومباني أخرى تراوحت مساحتها ما بين 30م² و40م²، ربما كانت ورشات حرفية أو دكاكين... إلخ، وعليه إذا أخذنا بعين الاعتبار متوسط مساحة المباني الموجودة على اختلافها بنسجها المعماري في حدود 60م² سنجد العدد الإجمالي للمباني في حالة إذا ما ارتكزنا على مساحة 7 هكتار أي (70000م²)، وقسّمناه على متوسط مساحة المباني الذي هو 60م² سيكون الناتج 1166 مبنى، وفي حالة إذا ما أردنا ضبط عدد سكان المدينة مفترضين متوسط العائلة الواحدة هو 04 أفراد في ظل عدم وجود نصوص تاريخية أو معطيات أثرية تشير بوضوح إلى ذلك، وإذا ما افترضنا وجود نسبة 80% من المباني عبارة عن مساكن أي حوالي 928 مسكن، من هذا المنطلق يتبين أن عددهم قُدِّر حسب المعطيات السالفة الذكر 3712 نسمة⁽²⁾، ربما يمكن أن يكون عددهم أكبر من ذلك لأن

2-الحسن بن محمد الوزان الفاسي، مصدر سابق، ج02، ص:15

1-Djilali Sari, *La Re-naissance d'un Ancien débouché de l'or Transaharien ,Honaine passé et transformation en cours*, Office des publications universitaires, Algérie, 1991, p:55

العائلات قديماً كانت تعيش مجتمعة أي أنها كانت تتكون من الجد والجدة وأبنائهم وأحفادهم، الأمر الذي يبرّح فرضية أن عددهم الإجمالي كان أكبر من ذلك.

فيما يخص الفترة التي تلت اضمحلال الدولة الزيانية، فتبقى غامضة ويكتنفها الغموض في جميع الجوانب المتعلقة بالواقع السكاني لمدينة هنين لذلك تعدّر علينا الإشارة إلى ذلك.

1-3-1 الواقع السكاني لمدينة هنين في الفترة الاستعمارية:

لقد كان الاحتلال الإسباني للمدينة بمثابة نقطة تحول في مسار تطورها، فمع تلقّيهم الإذن بالمغادرة منها، أمر قائدهم العسكري جنوده بالإغارة عليها وتخريبها ليتزكوها حاوية على عروشها ومخزّبة كما رأينا ذلك سابقاً⁽¹⁾، كان الهدف من وراء هذا التخريب هو تحطيم أحد الروافد الاقتصادية المهمة للدولة الزيانية حتى لا تتمكن من بناء نفسها خاصة أنها كانت تمر بظروف سياسية واقتصادية صعبة.

انضوت مدينة هنين ونواحيها بعد تلاشي حكم الأتراك من المغرب الأوسط تحت الاحتلال الفرنسي كبقية المدن الأخرى، وبمجرد إحكام قبضته على الجزائر بدأ باكتشاف ثرواتها ليقوم بتحويلها إلى بلده الأم، وقد كانت من بين الأماكن التي قام جغرافيوه وغيرهم من الجيولوجيين والأثريين بزيارتها بناءً على ما توفر لديهم من معلومات عن الجغرافيين والمؤرخين القدامى، وتميزت التقارير التي أدلوا بها بنوع من التأسف لمعرفة السابقة بالوضعية التي كانت عليها وما آلت إليه، ولقد أكّدت أن المدينة بقيت مهجورة إلى حدّ ما إلى غاية الاحتلال الفرنسي، وهو يؤكد أنها بقيت على الصورة التي وصفها القائد دون إينكو فالجو بانشيكو Don Ingo De Vallejo Pacheco في الرسالة التي بعث بها إلى الملك شارلكان بعدما أتمّ تحطيم عمائرها التي كانت موجودة بها قائلاً أنه أتمّ تخريب المدينة وجعلها

2-Georges Marçais, Recherche..., Op.cit,p:344

أكواماً من التراب مترامية هنا وهناك، ولم يترك فيها أي مسكن قائم وأضاف أيضاً أنها لن تعود لسابق عهدها أبداً.⁽¹⁾

ولعل أبرز مثال عن ذلك، ما ذكره أردوان دومازات Ardouin De Mazet عن حالة المدينة عن كونها مدينة بومي الثانية لشدة ما اعتراها من هجر وتخريب⁽²⁾، كما يتفق ما ذكره القائد العسكري دون إينغو فالجو بانشيكو Don Ingo De Vallejo Pacheco مع ما نقله الباحثون الفرنسيون حول وضعية سكان المدينة في نهاية القرن 19م، حيث أشاروا أن السكان كانوا يقطنون بمحاذاة المدينة على مقربة من الأراضي الزراعية، لأن النشاط التجاري الذي كان سائداً بها اختفى كلية بعد النكسة التي تعرض لها الميناء والمدينة ككل، لذلك أصبحت هذه الأخيرة مصدر عيشهم الوحيد آنذاك، الملفت للانتباه أنهم أشاروا أيضاً إلى أن سكانها كانوا يعيشون في الخيام عوضاً عن المساكن، وكأنهم قبائل رحّل وأن أصولهم لا تنحدر من ذلك المكان⁽³⁾، ربما يرجع ذلك إلى عقدة الخوف التي ورثوها عن أسلافهم عبر ما نُقل إليهم من أخبار عن الاعتداء الذي تعرضت له المدينة من قبل الجنود الإسبان، ذلك ما أدّى إلى انعدام الثقة مع البحر الذي كان مصدر رزق أسلافهم، وهو ما جعلهم يسكنون بنواحيها في الخيام، حتى يكونوا في مأمن من أي اعتداء يأتيهم من جهة البحر.

فيما يخص أعدادهم فقد قدرت بـ 3568 نسمة بين سنتي 1893 و1894، ولأن أوضاعهم المعيشية لم تكن مستقرة إضافة إلى مرحلة الجفاف التي عرفتها المنطقة في أواخر القرن 19م وارتباطهم وثيق بالأرض فقد توفي الكثير منهم بسبب المجاعة والأمراض التي تفشّت فيهم، لكن مع بداية القرن 20م وبالتحديد في سنة 1906 سُجّل ارتفاع في أعدادهم ولو أنه طفيف قدر بحوالي

1-F.Primaudaie,Op.cit,p:275

2-Abderrahmen Khelifa,Honaine ancien...,Op.cit,p:271

1-Djilali Sari,La Re-naissance....Op.cit,p:76

892 نسمة⁽¹⁾، أي ما يعادل 25% بمعدل 1.92% لكل سنة، ولم يتغير مصدر عيشهم بل بقي على حاله متمثلاً في فلاحه الأرض وتربية المواشي فقط، وقد ظهرت آنذاك فئة من العاملين في الأراضي الفلاحية يسمون بالحمّاسين الذين كانوا يتحصلون على أجرهم من المزروعات لا غير، تجدر الإشارة إلى أن أغلب تلك الأراضي كانت بعيدة عن مصادر، وأنها كانت تسقى من مياه الأمطار فقط وهو ما زاد الوضع سوءاً، إذ بقي مصدر رزقهم محصوراً في جانب واحد، وإذا ما انقطع فإنهم يستعرضون حتماً للهلاك.

تعكس هذه المعطيات الوضع الذي آلت إليه المدينة التي كانت في يوم من الأيام إحدى أغنى الحواضر الإسلامية لتوفرها على الميناء واشتغال سكانها بالتجارة مع دول الضفة الأخرى، وهو ما ورد ذكره في كتب الرحّالة الجغرافيين القدامى الذين زاروها في وقت رخائها الاقتصادي، لكن وضعها المزري الذي وصلت إليه سرعان ما بدأ يتغير مع قيام المستعمر الفرنسي باستغلال منجم الحديد المسمى بغار المَدَّان الأكثر قُرباً من المناجم الأخرى للمدينة، وأيضاً الأكثر إنتاجاً بين المناجم التي تم اكتشافها في تلك النواحي، لقد أحدث هذا الأخير تغييراً في المشهد السوسيوولوجي للمدينة، فقد تمّ من خلاله استحداث مناصب للعمل إضافة إلى إنجاز عدد من المساكن لفائدة المعمرين الذين جلبتهم للإشراف على سير المشروع⁽²⁾، وكذلك لمهمات أخرى لها علاقة بما تحويه تضاريس المدينة، فقد تمّ على سبيل المثال في تلك الفترة الزمنية على حدّ قول جورج مارسيه Georges Marçais إنجاز مسكن للقائم على حراسة الغابة لأن بعض من سكان نواحيها كانوا يمتنون قطع الأشجار لبيع جذوعها التي كانت

2-ibid,p:74-75

1-Djilali Sari,Honâine:de l'aggravation des déséquilibres à l'urgence d'un plan de developpement global,Colloque National sur Honâine passé et present,Université d'Oran,Février1985,p:50

تستعمل في النشاطات اليومية وهو ما يتعارض مع السياسة الاقتصادية الاستعمارية التي كانت تهتم بتصديره نحو الخارج.⁽¹⁾

لقد كان لهذه الارتكازات الجديدة للمستعمر تأثير مباشر على أهالي القبائل المجاورة التي كانت تسكن في الخيام، إذ شجّعهم ذلك على الرجوع إلى المدينة والاستقرار فيها مجدداً، خاصة أنهم تركوا فلاحه الأرض وتربية المواشي بعدما استخدمتهم الإدارة الاستعمارية في استخراج خام الحديد من منجم غار المدان ومن ثم نقله نحو البحر.

بلغ عدد السكان الذين تمّ إحصاؤهم من قبل الإدارة الاستعمارية سنة 1911م حوالي 5947 نسمة⁽²⁾، ما يدل دلالة واضحة أن العمل في المنجم كان له دور بارز في جلب اليد العاملة التي استقرت هناك، وهو ما يظهر إذا ما قارنا التعداد الجديد مع تعداد سنتي 1893م و1894م، وبحلول سنة 1921م بلغ عدد السكان حوالي 5449 نسمة⁽³⁾، وأمام هذا الإقبال المتزايد على نواحي مدينة هنين أصبحت من أكبر التجمعات السكانية في منطقة تارة التابعة للبلدية المختلطة ندرومة آنذاك⁽⁴⁾، وبقي المسار التطوري متصاعداً بالتوازي مع تواصل العمل في المناجم الموجودة هناك، فبعد أربع سنوات من آخر إحصاء أي سنة 1926م تمّ تسجيل زيادة قدرها 83 نسمة بمعدل 20 نسمة كل سنة ليصبح تعدادهم الإجمالي 5532 نسمة، ومع مجيء سنة 1931م ازداد عدد السكان، ليصبح عددهم الإجمالي 5602 نسمة، وبحلول سنة 1948 سُجّل ارتفاع محسوس في أعدادهم، إذ وصل إلى 8260 نسمة⁽⁵⁾، ونوضح هذه المعطيات في الجدول التالي مرفقاً بالمنحنى البياني:

2-Georges Marçais,Recherche...,Op.cit,p:344

3-Djilali Sari,La Re-naissance...,Op.cit,p:85

4-Djilali Sari,Honaïne:de l'aggravation...,Op.cit,p:49

1-Djilali Sari,La Re-naissance...,Op.cit,p:85

2-Djilali Sari,Honaïne:de l'aggravation...,Op.cit,p:49

المعدل الوطني	النمو السكاني		عدد السكان	سنوات الإحصاء
	نسبة النمو السكاني	عدد النمو السكاني		
/	/	/	3568 ن	ما بين 1893 و 1894
/	27.52%	982 ن	4550 ن	1906
5.6%	4.59%	209 ن	4759 ن	1911
3.8%	14.4%	690 ن	5449 ن	1921
4.6%	1.5%	83 ن	5532 ن	1926
8.4%	1.2%	70 ن	5602 ن	1931
10%	1.1%	62 ن	6664 ن	1936
20%	24.3%	1576 ن	8260 ن	1948
17%	6.7%	554 ن	8794 ن	1954

الجدول رقم 13: يبين عدد سكان مدينة هنين ونسبة نموهم مقارنة بالمعدل الوطني في الفترة الاستعمارية. عن

Djilali Sari, La Re-naissance..., Op.cit, p:85

المنحنى البياني رقم 05: يبين المسار التطوري لسكان مدينة هنين في الفترة الاستعمارية.

يتضح من خلال الجدول والمنحنى البياني أعلاه أن سكان مدينة هنين عرفوا تغيراً في نمط معيشتهم بعدما هاجروا إلى النواحي المجاورة نتيجة تدني المستوى المعيشي بالمدينة، إضافة إلى عقدة الخوف التي ورثوها عن أسلافهم بفعل الاعتداء الإسباني الذي أحدث فيها تغيراً عميقاً في مختلف الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية.

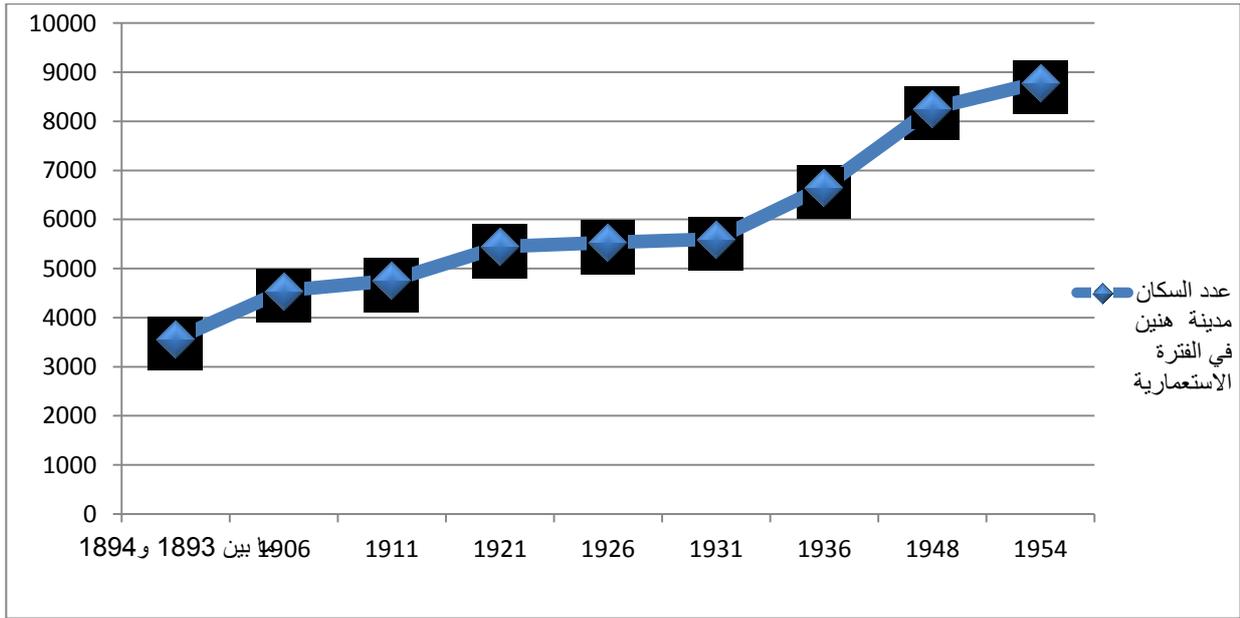
فمنذ أن قام المستعمر الفرنسي باستكشافها والتعرف على ما تحتزنه تضاريسها من معادن وجّه كامل اهتمامه إلى استنزاف ثرواتها المعدنية وتحويلها إلى بلده، وذلك في العقدين الأخيرين من القرن

19م، بالموازاة مع ذلك عمل على إحصاء السكان المتواجدين على مقربة من المدينة التي لم يتبق منها إلا أسوارها ربما للوقوف على اليد العاملة التي يمكن استخدامها في المناجم، لقد كان العمل فيها متنفساً جديداً للسكان مقارنة بالوضع المزري الذي كانوا يمرون به، وبالموازاة مع ذلك بدأ تعداد السكان يزداد شيئاً فشيئاً، إلى الحد الذي كان فيه يتجاوز المعدل العام المتوسط للسكان في الجزائر، فمثلاً في سنة 1921م حقق توافد العمال على هنين زيادة قدرها 14.4% في تعداد ساكني النواحي مقارنة بالمعدل المتوسط الوطني آنذاك الذي كان يقدر بـ 3.8%.⁽¹⁾

لم يبق المسار التطوري لنمو سكان على نفس المنوال، فمع مجيء سنة 1931 و 1936م لم يتعد معدل نمو السكان 1.2%، الأمر الذي جعله ضعيفاً جداً مقارنة بالمعدل المتوسط الوطني الذي تراوح ما بين 8.4% و 10%، ربما يعزى ذلك الأمر إلى هجرة البعض منهم إلى مناطق أخرى أو إلى فرنسا لتحسين مستواهم المعيشي، كما حدث لسكان مدينة ندرومة أو لكثرة الوفيات في صفوف العاملين بالمناجم للمخاطر الناجمة عن طبيعة العمل، فقد كانوا يصلون إلى عمق 50م بالحفر تحت الأرض⁽²⁾، تزامنت هذه المرحلة مع بداية الحرب العالمية الثانية الأمر الذي يُرجح قيام المستعمر بتجنيد البعض منهم في تلك الحرب مثلما قام به في الحرب العالمية الأولى، ومع حلول سنة 1948م التي سُجِّل فيها ارتفاع محسوس في عدد السكان قدر بـ 1576 نسمة ما يعادل 24.3% وهي نسبة أعلى من المعدل المتوسط الوطني الذي قدر آنذاك بـ 20%، مـ

1-Djilali Sari, La Re-naissance..., Op.cit, p:85

2-Abderrahmane Khelifa, Honaïne ancien..., Op.cit, p:46



د هذه الزيادة في النسبة إلى مغادرة الفرق العسكرية لهنين وتركهم لما أنجزوه بها فارغاً، ذلك شجعهم على الرجوع للسكن في المدينة، إذ تمركزوا بالجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية بالقرب من باب السنون. في خضم كل هذه المعطيات أمكن القول أن بداية استغلال تضاريس المدينة واستخراج ثرواتها المعدنية شكّل منعطفاً جديداً في مشهدها العمراني في شقيه الاجتماعي والمعماري.

1-3-2 الواقع السكاني لمدينة هنين بعد الاستقلال:

شهدت مدينة هنين اختلالاً في مشهدها العمراني من جديد بعد الإغلاق النهائي للمناجم عقب مغادرة المستعمر الفرنسي، وحصولها على الاستقلال كبقية المدن الجزائرية في 05 جويلية 1962م، لقد دفع هذا الواقع الجديد سكانها إلى الهجرة نحو المدن الكبرى وفرنسا، بحثاً عن العمل وظروف معيشية أحسن لكون الجزائر عامة ورثت اقتصاداً هشاً في تلك الآونة، لذلك كانت الهجرة السبيل الوحيد للحصول على مبتغاهم، باعتبار هذه الأخيرة تعبير مباشر عن رفضهم للواقع المعيشي الذي كان سائداً آنذاك، وهو ما جعلها في معناها العام دلالة واضحة عن التغير الدائم للمكان الجغرافي الذي يكون في معظمه من المناطق الريفية إلى الحضرية للخلاص من العوز والفاقة.⁽¹⁾

1- ساعد هماش، مرجع سابق، ص: 49-103

أمام هذا الواقع تم تسجيل 8885 نسمة في الإحصاء الأول الذي قامت به الدولة الجزائرية سنة 1966م بزيادة قدرها 91 نسمة فقط أي بنسبة قدرها 1.03%⁽¹⁾، لكن سرعان ما تغير الوضع بشكل جذري، إذ ارتفع عدد سكان المدينة بـ 1018 نسمة، وهو عدد جد مرتفع مقارنة بالعدد الذي تم تسجيله في الإحصاء الماضي، وقد بلغ العدد الإجمالي 9903 نسمة في إحصاء 1977⁽²⁾، وهذا راجع إلى استفادة المدينة من الهياكل الضرورية التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، بالموازاة مع ذلك تلاشت عمليات الهجرة من المدينة، وأصبحت هي في حد ذاتها مقصد الكثير من ساكني القرى المجاورة كبني خلاد وسوق الخميس، ومع مطلع الثمانينات ارتقت هنين إلى رتبة بلدية عقب التقسيم الإداري المنجز سنة 1984م⁽³⁾، وبذلك أصبحت من المدن العامرة بالسكان والمتوفرة على أكبر قدر من المرافق الضرورية.

شهدت هذه الفترة عودة استغلال ثروات الطبيعة للمدينة، فقد تم إنجاز مشروع محجرتين على بعد 10 كلم بالجهة الجنوبية الغربية منها ووحدتين لإنتاج البلاط الأرضي (Carrelage) والأخرى لمسحوق الرخام، وقد وصلت كمية الإنتاج بعد خمس سنوات من إنشائها 152920م² للبلاط الأرضي و1326 طن بالنسبة لمسحوق الرخام⁽⁴⁾، أما عدد العاملين فقد بلغ 75 عامل من مدينة هنين من بينهم 07 إداريين⁽⁵⁾، إضافة إلى ذلك تم في هذه الفترة تعبيد الطريق الرابط بين هنين وندرومة مروراً بجبل تاجرة الذي أعيد مؤخراً تهيئته، وكذا استحداث طريق يربط بين هنين وسيدي إدريس لتكون على مقربة من الطريق الوطني رقم 22 الرابط بين وهران وتلمسان، وتم أيضاً إنجاز طريق آخر يبلغ طوله

2-Djilali Sari,Honaine:de l'aggravation...,Op.cit,p:49

3-ibid,p:49

4-Djilali sari,La Re-naissance...Op.cit,p:112

1-Djilali sari,La Re-naissance...Op.cit,p:130

2-Djilali Sari,Honaine:de l'aggravation...,Op.cit,p:112-118

12 كلم يربطها مع سوق الخميس، إضافة إلى ذلك بدأت تظهر بالمدينة حركة تجارية تمثلت في فتح عدد من المحلات لبيع مختلف السلع كالمواد الغذائية والخضر والفواكه، وتم أيضا فتح صيدلية لبيع الأدوية لتصبح بذلك هنين من بين المدن المتوفرة على أغلب ما يحتاجه أفراد المجتمع خاصة مع زيادة تعميم الكهرباء بجميع أحيائها سواء للمساكن أو الشوارع⁽¹⁾، وفيما يخص تعداد سكانها فقد عرف زيادة طفيفة قدرت بـ 0.97% سنة 1989م بعدد إجمالي قدره 10000 شخص، وتجدد الإشارة أنه في هذه السنة تم تسجيل حوالي 70.7% من السكان المقيمين بالمدينة و 29.3% مقيمين بالنواحي المجاورة لها.⁽²⁾

ارتقت مدينة هنين بحلول سنة 1991م من بلدية إلى دائرة وهو ما جعلها تستفيد من مؤسسات إدارية جديدة تماشياً مع الرتبة الإدارية الجديدة، من بين تلك التجهيزات مقر الدائرة الذي تمّ تنصيبه، لكن بالرغم من ذلك لم يشهد تعداد السكان ارتفاعاً، إذ على العكس فقد عرف تراجعاً كبيراً مقارنة بما كان موجوداً في التعداد السابق حيث قدر عددهم في سنة 1998م حوالي 500 شخص⁽³⁾، أي بانخفاض قدره 50% وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى الظروف السياسية المتدهورة المنحصرة في العشرية السوداء التي امتد سوادها لمدة عشرة سنوات دفعت بمعظم السكان للرحيل من المدينة، خاصة وأن موقعها المعزول نوعاً ما والمتمركز بين الجبال ضاعف من تعرضهم لخطر العمليات الإرهابية، وهو ما استقيناها من السكان الذين عاشوا ويلات تلك الفترة الزمنية، ومع بداية العقد الأول من هذا القرن، بدأت الأوضاع الاجتماعية تتغير بعدما شهدت مدينة هنين كباقي مدن الجزائر نوعاً من الاستقرار السياسي، لكن بالرغم من ذلك فإن عدد السكان لم يتغير عمّا كان ذي قبل إلا بنسبة قليلة، فقد بلغ عددهم الإجمالي 5408 نسمة، من بينهم 4689 نسمة يقطنون داخل المدينة

3-Djilali sari, La Re-naissance..., Op.cit,p:112-118

4-ibid,p:119-121

5-بلدية هنين، إحصاء سنة 1998

و719 نسمة يقطنون بالنواحي المجاورة⁽¹⁾، ومن أجل توضيح ماتم ذكره نصوغ ما تم ذكره في الجدول والمنحنى البياني التاليين:

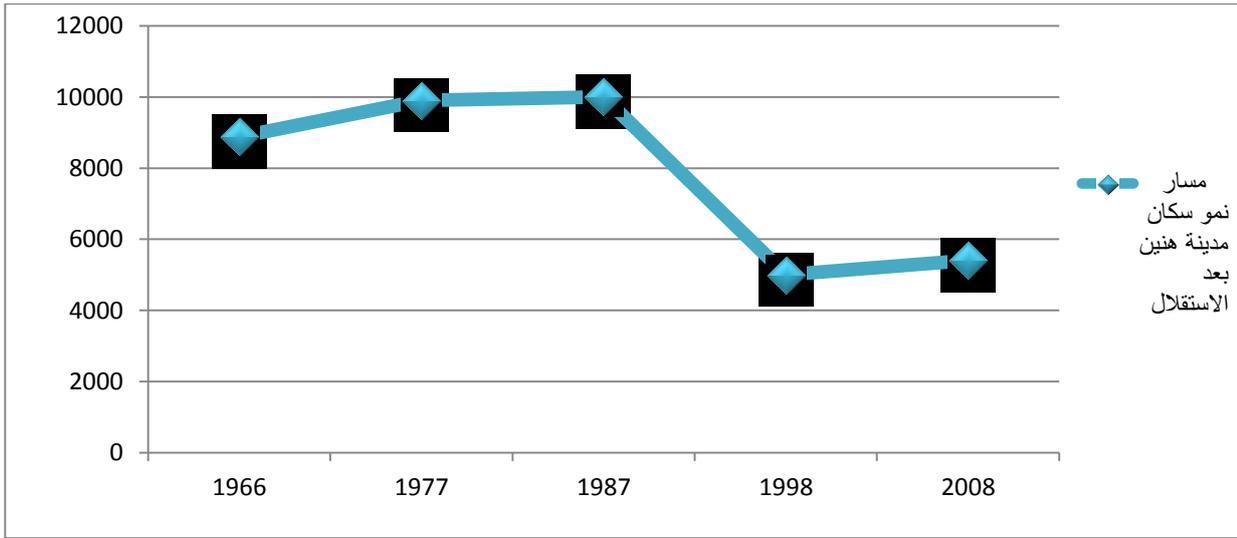
سنة الإحصاء	1966	1977	1987	1998	2008
عدد السكان	8885ن	9903ن	10000ن	5000ن	5408ن

الجدول رقم 14: يبين عدد سكان مدينة هنين بعد الاستقلال. (1966-2008)، عن: بلدية هنين.

المنحنى البياني رقم 06: يوضح المسار التطوري لنمو سكان مدينة هنين بعد الاستقلال.

يتضح جلياً من خلال ما ورد ذكره عن الواقع السكاني لمدينة هنين بعد الاستقلال أنه شهد تغيراً ملحوظاً في تعداد السكان، حيث عرف ارتفاعاً محسوساً بعد الاستقلال، ولو أنه لم يكن بالقدر الكبير في السنوات الأولى، إذ لم تتجاوز نسبة الزيادة 1.03%، وذلك راجع في المقام الأول لكثرة الوفيات بسبب حرب التحرير التي قدّم خلالها أهالي المدينة بلاءً حسناً، فقد قُتل منهم ما يقارب 510 نسمة خلال ستة سنوات فقط⁽²⁾، ومع بداية السبعينات بدأ هذا الواقع يتغير من حيث عدد السكان، حيث سجلت في هذه المرحلة نسبة قدرها 11.45%، وهي أعلى من ذي قبل بفعل الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي عرفته الجزائر عامة، والذي استفادت منه مدينة هنين، فقد بدأت في هذه الفترة بواد التنمية الحضرية بالظهور في شتى المجالات كالتعليم والصحة وتعبيد الطرق وتزويد المدينة بالإنارة، وقد تواصل نمو المسار التطوري في مرحلة الثمانينات بالموازاة مع تواصل تجسيد العمليات التنموية الحضرية التي مست الجانب الاجتماعي بالدرجة، فمثلاً تم في هذه المرحلة تعميم الاستفادة من الكهرباء سواء للمنزل أو الشارع كما تم إن

1- بلدية هنين، إحصاء سنة 2008



شاء محلات تجارية وسوق للخضر والفواكه بالضفة اليمنى لواد هنين بالإضافة إلى ارتقاء المدينة إلى مرتبة بلدية في سنة 1984م، وهو ما مكنها من الاستفادة من عدة تجهيزات إدارية ومشاريع اقتصادية كوحدة إنتاج البلاط الأرضي ومسحوق الرخام، وأعيد استخدام الميناء في اصطياد السمك وليس في المبادلات التجارية التي كانت تتم من خلاله مع دول الضفة الأخرى قديماً، لقد بلغت نسبة الزيادة 0.97% في إحصاء 1987 بالرغم من المزايا التي استفادت منها المدينة وذلك للهجرة المكثفة للسكان نحو فرنسا للحاق بأفراد عائلاتهم الذين هاجروا إليها في وقت سابق، وكذا لتوجههم نحو مدينة الرمشي التي كانت طبوغرافيتها أفضل ومكانها أقرب لتلمسان التي احتوت على مرافق ضرورية.

لكن تراجع عدد سكان المدينة في العقد الأخير من القرن العشرين بصورة ملفتة للانتباه، حيث قدر عددهم في إحصاء 1998 حوالي 5000 شخص، أي بنسبة انخفاض قدرها 50% للدوافع الأمنية كما أسلفنا الذكر، ومع انقشاع تلك السحابة التي كانت تلبد سماء الجزائر عامة، بدأت الأوضاع تتغير في مدينة هنين وبدأ عهداً جديداً بالظهور، حيث تم تجديد جميع المقرات الإدارية تقريباً، لكن نمو السكان لم يكن مرتفعاً، فلم تتجاوز نسبة 08.16% مقارنة بالتحسن المسجل في مجال التنمية الحضرية في السنوات الأخيرة ومقارنة كذلك بمثيلتيها من المدن القديمة في التمدن كمدينة تلمسان وندرومة.

2- العامل الإداري:

مما لاشك فيه أن مفهوم الإدارة أصبح واسعاً بحكم كونها القاسم المشترك بين جميع القطاعات على اختلافها سواءً في الصحة أو التعليم أو الثقافة أو الاقتصاد، لأنها المكان الذي تقام فيه العمليات التخطيطية، وتُستصدر فيه القرارات الرسمية التي تنظم شؤون أفراد المجتمع، لذلك تعتبر المحرك الأساسي لأي عملية تنموية على اختلاف المجال الذي ستجسد فيه.

لم تعد الإدارة في الوقت الحالي مجرد مجموعة من المكاتب ورفوف الأوراق وعدد من العاملين فيها، فقد أصبحت من اللبّات الأساسية التي تكوّن الصّرح العام لأي أمة من الأمم، وذلك لسببين الأول يتمثل في علاقة الإنسان الوطيدة والمباشرة مع المحيط الذي يوجد فيه، وهو ما يفرض عليه التخطيط المسبق لتكييف ما يوجد في الواقع وفقاً لما يحتاجه، أمّا الثاني فيتمثل في ثورة المعلومات التي عرفتها البشرية في الألفية الثالثة، وما تحتاجه من دقّة متناهي، الأمر الذي دفع بالقائمين على شؤون السكان تخصيص حيز زمني ومكاني تدرس فيه مثل تلك الأمور يسمى بالإدارة.⁽¹⁾

مهما تعدّدت التعاريف وأوجه النظر حول الإدارة فهي تبقى أحد القنوات المهمّة لربط الطموح البشري بالواقع الذي يعيش فيه، ضف إلى ذلك تعتبر أهم جهة في هرم السلطة، وهو ما جعلها موجودة في جميع المؤسسات على اختلاف توجهاتها، نظراً للأهمية البالغة التي تكتسيها في دفع عجلة التنمية عبر تنفيذ المشاريع ومراقبة مدى تقدمها وضمان نجاحها، وقد ظهر في الآونة الأخيرة مصطلح جديد خاص بها يسمى بالتنمية الإدارية يعني تكوين جهاز إداري متكامل فيما بينه يكفل إنجاح مختلف البرامج التنموية التي تعلنها الحكومة في مختلف الجوانب السياسية منها والاجتماعية

1- أونان بومدين، دور نظم المعلومات في تفعيل أداء مجلس الإدارة، أطروحة دكتوراه، تخصص تسيير قسم العلوم الاقتصادية كلية

العلوم الاقتصادية والتجارية والتسيير، جامعة تلمسان، 2011، ص: 10

والاقتصادية، وعليه عُرِّفت أنها حركية مستمرة ومتطورة ومتجددة وشاملة تقوم على خمسة أركان رئيسية تتمثل فيما يلي: (1)

- فهم العوامل البيئية المؤثرة في المدينة أو الدولة ككل، والوقوف على تفاعلها معها وأهم انعكاساتها عليها لاتخاذ التدابير اللازمة التي من شأنها الحد من الأضرار الناجمة عنها في حالة وقوع مدينة ما في مسار تيار هوائي حاد، أو قريبة من خط زلزالي نشيط.

- تنمية الموارد البشرية عبر إيجاد العنصر البشري المؤهل الذي يترجم أهداف الإدارة إلى أفعال، وهذا يتطلب إيجاد نظام فعّال في العمل يقوم على التوازن في مبدأ الثواب والعقاب، ويهدف إلى تشجيع الموظفين على بذل قصارى جهدهم لبلوغ أعلى المستويات في النتائج بأقل وقت ممكن، وبأقل تكلفة ممكنة.

- تصميم البناء الإداري القادر على استيعاب أنشطة الإدارة لإنشاء وحدة إدارية دون أن يسبقها في الظهور نشاط يتطلب الرعاية، ومن ثمة إيجاد قنوات الاتصال السليمة والنظم الفعالة للمعلومات لترشيد القرارات الإدارية.

- دراسة أساليب وإجراءات العمل القائمة وتبسيطها وكسر حلقات الروتين المعقّد.

- دراسة وتحديث الأنظمة التي تحكم العمل، حتى تتناسب مع بيئته وتواكب متطلبات العصر. (2)

2-1 تاريخ بداية الإدارة الحضرية:

لم تبرز إدارة خاصة بالتنمية الحضرية لها استقلال مادي ومقر خاص وطاقم من الموظفين في أوّل الأمر بل ظهرت آلياتها فقط، وذلك في المرحلة التي شهدت فيها أوروبا انبعاث الثورة الصناعية التي نجم

1- رفيق بن مرسل، الأساليب الحديثة للتنمية الإدارية بين حتمية التغيير ومعوقات التطبيق، دراسة حالة الجزائر 2001-

2011، مذكرة ماجستير، تخصص تنظيمات سياسية وعلاقات دولية، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة

مولود معمري، تيزي وزو، 2011، ص: 23

2- المرجع نفسه، ص: 24

عنها توسع معماري سريع، والأخطر من ذلك فوضوي، نتيجة توفر الإمكانيات المادية لدى أفراد المجتمع عقب حصولهم على العمل في المصانع وتحسن مداخيلهم، الأمر الذي دفع بالدول الأوربية إلى وضع حدٍ لتلك التجاوزات بإخضاع التنمية الحضرية ككل إلى نموذج عمراني يُخطط له مسبقاً، وكانت ألبانيا أول دولة تقوم بذلك مع نهاية القرن 19م، ثم تبعتها إنجلترا وفرنسا، وقد تمّ التركيز على الحفاظ على الطابع العام المميز للبيئة الحضرية وتناسق عناصرها والتأكيد على تنظيم الوظائف الرئيسية للمدن المتمثلة في السكن والعمل والترفيه وغيرها من التجهيزات والمرافق الحضرية الضرورية والنقل ومراكز العلاج... إلخ⁽¹⁾، وكان ذلك بمثابة البدايات الأولى لتفعيل نظام التخطيط الحضري في بناء المدن وتحقيق التنمية الحضرية بها.

وبالنسبة لاستحداث إدارة في مجال تنظيم المدن وتوجيهها بما يتوافق مع المؤهلات الاقتصادية والنمو الديمغرافي الحاصل فيها، فقد برز بالتحديد عقب الحرب العالمية الثانية حينما أقدمت الدول الأوربية على إصلاح الدمار الذي عمّ جميع مدنها بفعل الحرب، وتم استحداث آنذاك وزارة خاصة بالبناء والتشييد، فمثلاً أنشئ بفرنسا بموجب القانون الصادر في 10 أكتوبر 1940 المحافظة التقنية لإعادة البناء العقاري لبعض مدنها المنكوبة جرّاء الحرب، عبر إعداد المخططات الحضرية جديدة، وفي سنة 1943م أصبحت تسمى بمديرية التعمير تعمل كإدارة مستقلة في مجال البناء والتشييد، وبعد عشرة سنوات، أي في سنة 1953م عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية كلية استحدثت وزارة في هذا المجال سميت بوزارة إعادة البناء والتعمير *Ministère de la reconstruction et de l'urbanisme* لتصبح وزارة البناء *Ministère de Construction* في سنة 1966 بعدما أُعيد إصلاح ما خربته الحرب، وهي اليوم

1- باية بوزغاية، توسع المجال الحضري ومشروعات التنمية المستدامة مدينة بسكرة أنموذجاً، أطروحة دكتوراه علوم، تخصص

علم الاجتماع الحضري، قسم الاجتماع كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمدخضير، بسكرة 2016، ص: 247

تسمى بوزارة تهيئة الإقليم والريف⁽¹⁾، وبما أن الجزائر كانت محتلة من طرفها، فقد ورثت عنها جملة من القوانين التي كان معمولاً بها في مجال البناء والتعمير، وهو ما يعكس التأثير المباشر بطول الفترة الاستعمارية التي فرضت إضافة إلى النمط العمراني الغربي تشريعاً معمارياً استمر العمل به إلى غاية الثمانينات من القرن العشرين.⁽²⁾

2-2 خصائص إدارات التنمية الحضرية:

أمام تعقد الحياة الاجتماعية تحدت المجالات التي تخصص فيها الإدارة، فلم يعد هناك نوع واحد، بل يوجد أكثر من نوع تتفرع عنه إدارات جهوية، ثم إدارات محلية أو ولائية تجسداً لنظام اللامركزية وعلى الرغم من اختلافها في الهدف الذي تسعى إليه، إلا أنها في الأخير تتكامل مع بعضها البعض لتجسد الهدف المنشود، والمتمثل في التنمية التي تعتبر الشغل الشاغل لأفراد المجتمع وحكوماتهم، ولذلك يجب أن تكون الإدارة متحركة ونشطة تتماشى مع البيئة المحيطة بها باعتبار الزمن الذي نحي فيه ديناميكياً متحركاً ومتغيراً، وعليه يجب عليها أن تسير الوقت، فإذا ما توقفت وتعطلت سبقها الزمن وتراكت عليها متطلبات المجتمع⁽³⁾، وفي هذه الحالة ستصبح في حد ذاتها عائقاً من عوائق التنمية بشتى أنواعها، وحتى تتمكن الإدارة من الوصول إلى نتائج مرضية على أرض الواقع بالنسبة لها أولاً باعتبارها جهاز مسؤول عن تأدية تلك الوظائف، وثانياً بالنسبة لأفراد المجتمع الذين ينتظرون منها الاستجابة لمطالبهم المختلفة، لذلك لا بد أن تتميز بما يلي:

1-Bestrand Vayssière, **Relever la France dans les Après-guerres: Reconstruction ou Réaménagement?**, In (R) guerres mondiales et conflits contemporains, N°236, Presses universitaires de France, 2009, p.47-60

2-رياض تومي، مرجع سابق، ص: 03

3-حنان شكري، واقع إدارة الوقت لدى العاملين في القنوات الفضائية العاملة في قطاع غزة، مذكرة ماجستير، تخصص إدارة الأعمال، قسم إدارة العمال، كلية التجارة، الجامعة الإسلامية غزة، فاسطين، 2010، ص: 03

-القدرة على المراقبة والسهر الجيد على جدية العمل:تعتبر هذه الميزة أهم خطوة عند الشروع في انجاز مشروع تنموي على أرض الواقع،وأي تخلف عن ذلك سيجعل منها مجرد جماد وتكوين معنوي فارغ لأن المشاريع يمكن لها أن تتعطل إن لم تراقب.⁽¹⁾

-التأقلم:أي لا يجب على الإدارة العاملة في مجال التنمية الحضرية أن تؤدي مهامها في معزل عن المجتمع الذي توجد فيه،وأن تتماشى في خطٍ واحد مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية للمجتمع،كما يجب أن تُسائر التطورات الراهنة في مجال المعلوماتية كاستخدام الإعلام الآلي والبرامج الحديثة في معالجة المعلومة وتخزينها.

-المصدقية:تعتبر هذه الأخيرة من أهم الميزات على غرار بقية الميزات السالفة الذكر،إلا أنه يمكن القول أنها الأهم لكونها جوهر العمل الإداري الحضري وأساس تكوينه،فلا جدوى من فتح الإدارة وتنصيبها إن لم تتعامل بشفافية مطلقة مع جميع القضايا المتعلقة بمجال تخصصها.⁽²⁾

2-3 إدارة التعمير في منطقة تلمسان ومخططات التنمية:

يتضح جلياً مما أتينا على ذكره أن للإدارة علاقةً وطيدةً بالتنمية،وعليه أمكن القول أنه كلما تحسنت الوظيفة الإدارية زادت وثيرة التنمية،لأن جميع المشاريع التنموية عملية عقلية تخطيطية بالدرجة الأولى قبل أن تُجسد على أرض الواقع،وليست عملية عفوية تتم من غير تمحيص وتدقيق،خاصة أن المتغيرات التي تحكم الواقع لا يمكن التعرف عليها،إلا إذا توبعت بدقة من قبل جهاز خاص يسمى بالإدارة،تبعاً لذلك يتضح أنّ هناك تأثيراً واضحاً للإدارة على التنمية،فمثلاً إذا تشبعت بثقافة غريبة عمّا هو السائد في تلك الدولة،سينجم حتماً تحولٌ وتغيّرٌ في الملمح العام الخاص بالمدينة محل إجراء المشاريع التنموية،ومن هذا المنطلق أعتبر العمل الإداري علم وفن في نفس الوقت،وكذا مؤهلات

1-قارة تركي إلهام،آليات الرقابة في مجال التهيئة والتعمير،مذكرة ماجستير،تخصص القانون العام،قسم العلوم القانونية والإدارية كلية الحقوق والعلوم السياسية،جامعة تلمسان،2013،ص:08

2-أونان بومدين،مرجع سابق،ص:16

قيادية ومهنية لا يستطيع أن يمارسها إلا ذوو الاختصاص والخبرة.⁽¹⁾

إضافة إلى حركة الزمن التي كنا قد تحدّثنا عنه، أدّى تغير الظروف التي تحيط بالدولة من الجانب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وحتى الثقافي إلى حتمية التعامل بالإدارة مع الجوانب الأساسية المكونة لكيان الدولة، وهو ما انتهجته الجزائر على غرار الدول الأخرى عقب حصولها على استقلالها خاصة أن واقعها الاجتماعي بدأ يتغير وبدأت تظهر معه عدة متطلبات جديدة.

من هذا المنطلق عمدت على إعداد خطط التنمية الأّزمة، وقد كان أبرزها على الإطلاق الثورة الزراعية وغيرها من البرامج التنموية التي تساعد في بناء صرح الدولة، وظهرت منذ تلك الفترة الزمنية عدّة إدارات تعمل في جوانب مختلفة كالعليم والصحة والبريد والمواصلات والتهيئة العمرانية، وفي هذه الأخيرة برزت الحاجة إلى تفعيل دور الإدارة فيها، لأنها تحتاج بشكل مباشر لعمل تنظيمي وتخطيط مسبق قبل تجسيده في أرض الواقع خاصة في ظلّ التوافد المستمر للسكان على المدن في الجزائر.⁽²⁾

مّا لاشك فيه أن موضوع التنمية الحضرية هو من بين المواضيع المهمة التي حرصت الجزائر على تجسيده، نظراً لتغير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد اعتمدت في ذلك على استحداث جملة من الإدارات التي تكفل السير الحسن والاستعانة بمجموعة من أدوات التهيئة القانونية لتحديد المجال والأراضي التي ستنجز فوقها المشاريع التنموية، إدراكاً من المشرّع الجزائري أن التخطيط والعمل الإداري أكثر من ضرورة لضمان تنظيم جيد، وتحقيق رقابة دائمة ومستمرة على عمليات البناء التي يقوم بها الخواص، حتى لا يعتري مجالها الحضري الفوضى، ويصبح عاجزاً عن مُسايرة متطلبات المجتمع.⁽³⁾

انطوى مفهوم التخطيط الحضري في أول الأمر على استعمال مجموعة من الأدوات التي تساعد

1- رفيق بن مرسل، مرجع سابق، ص 20

2- مايكل جونز، حالة المدن العربية 2012-2013، تحديدات التحول الحضري، ترجمة ديانا نغوي، ط 02، المكتب الإقليمي للدول العربية، الكويت، 2012، ص: 14

3- جبري محمد، التأطير القانوني للتعمير في ولاية الجزائر، رسالة ماجستير، تخصص إدارة ومالية، قسم العلوم القانونية والإدارية كلية الحقوق، جامعة الجزائر، 2013، ص: 09

على تنظيم المدن وتوزيع المرافق الضرورية بطريقة مدروسة وفقاً لما يحتاجه أفراد تلك المدينة، فمثلاً وجود أطفال استوفوا السن القانونية للمدرسة يستوجب إنجاز مدرسة.

تمّ العمل في منطقة تلمسان بأدوات التهيئة التي كانت سائرة المفعول إبان الفترة الاستعمارية، بسبب قلة خبرة المسيرين الجدد وهجرة جميع الموظفين الإداريين الفرنسيين الذين لم يبق منهم من ينقل خبراتهم في التسيير، وقد كانت تلك الأدوات في مجملها تنجز في البلديات باعتبار هذه الأخيرة آنذاك الإدارة الوحيدة في تنظيم البلد وهي الأقرب للمواطن، إذ تقوم بترتيب أولوياته وأهم الحاجات المحلية، وهو ما جاء في المادة 157 و158 من الأمر رقم 24/67⁽¹⁾، وتمثلت تلك الأدوات فيما يلي:

2-3-1 مخطط التعمير الموجه: (PUD) Plan d'Urbanisme Directeur

يعتبر هذا المخطط من الأدوات التي ورثتها الجزائر عن فرنسا والذي طُبق بها في فترة الاحتلال بهدف إلى تجسيد السياسة التنموية والتهيئة الحضرية من خلال التنظيم والهيكلية العامة لفترة تستمر من 10 إلى 15 سنة، ويُعرّف على أنه مجموع الملفات التي تتجسد من خلال المعطيات المتمثلة في الإطار القانوني والوظيفي والتقني للمخطط⁽²⁾، ويبقى الهدف الأساسي لمخطط التعمير الموجه (PUD) هو الحيلولة دون الاستعمال الفوضوي للأراضي، لذلك يهتم بدراسة كل ماله علاقة أو تأثير على المكان سواءً كان ذلك اجتماعياً أو اقتصادياً أو حتى ثقافياً.

فيما يخص مدينة تلمسان فقد استفادت من مخطط التعمير الموجه (PUD) في سنة 1971 المنجز من طرف بلدية تلمسان، وبالفعل لم يحتوي في عدد أوراقه المقدرة بـ 80 صفحة إلا وصف للجانب التاريخي للمدينة والمؤسسات التي تحتضنها في مختلف المجالات، وكذلك الجانب الاجتماعي المتمثل بالدرجة الأولى في تعداد السكان ومكان عملهم ونوع النشاط التجاري الذي يمارسونه والأماكن

1- الجريدة الرسمية، الأمر رقم 24/67 مؤرخ في 07 شوال 1386 هـ الموافق لـ 18 يناير 1967، متضمن القانون البلدي، السنة

الرابعة، العدد 06، الجزائر 1967، ص: 99-103

2- رياض تومي، مرجع سابق، ص: 69

السياحية الموجودة بها، وقد أشار إلى أن مدينة تلمسان حالة خاصة في الجزائر بحكم مؤهلاتها المختلفة وستعرضها عدّة مشاكل، إذا ما تضاعف عدد سكانها، لانعدام الوعاء العقاري الذي يمكن أن يستوعبهم الأمر الذي سيحدث ضغوط حضرية على بنائها خاصة أنها تتضمن نسيجاً معمارياً تاريخياً يعود لفترة زمنية غابرة.⁽¹⁾

وجاء في هذا المخطط أيضاً أن نمو المدينة شبيه ببقعة زيت "Une Tache d'Huile" وذلك للأسباب التالية:

- عدم انتظام حدودها الخارجية.
- تغلب المنحدرات على طابعها الطبوغرافي.
- يحيط بها الغطاء نباتي من جهة دون أخرى، فمثلاً الجهة الشمالية هي أقل غطاء من الجهة الجنوبية التي توجد بها أشجار كثيفة جداً.
- اكتظاظ نسيجها المعماري في حيز دون الآخر خاصة في المكان الذي تتركز فيه المستعمر الفرنسي بقلب المدينة.

وخلّص تقرير هذا المخطط التأكيد على ضرورة الحفاظ على الخاصية المعمارية الموجودة بالمدينة واحترام عراقتها التاريخية، والوقوف على مبدأ التواصل الحضري في عملية التنمية الحضرية التي تستفيد منها المدينة مستقبلاً، حتى ترجع المدينة إلى سابق عهدها، وبالموازاة مع ذلك تمّ التأكيد أيضاً على ضرورة الحفاظ على خضرة المدينة ونظافتها عبر القيام بتشجيرها وصيانة قنوات صرف المياه.⁽²⁾

2-3-2 مخطط التعمير المؤقت: (PUP) Plan d'urbanisme Provisoire

ظهر هذا المخطط كأداة فعّالة في تهيئة المدن وتنظيم مجالها الحضري وتحسين مظهرها العام، وقد تم العمل به بعد مخطط التعمير المباشر (PUD)، وذلك مع بداية الثمانينات واستمر إلى غاية سنة

1-Apc de Tlemcen, PUD....Op.cit,p:42

2-رياض تومي، مرجع سابق، ص: 70

1990، يتم من خلاله تحديد التوسع المستقبلي للتجمعات الحضرية على المدى القريب في حدود خمس سنوات على الأكثر، بمراعاة أهم احتياجات السكان من مختلف الجوانب التي يقتضيها الوقت الراهن والمكان الذي يقيموا فيه، من أجل توزيعها بطريقة تكفل تحقيق الهدف من بنائها كأن يُراعى فيها القرب من الأحياء السكنية وطاقاتها الاستيعابية... إلخ.

بعد الانتهاء من إعداد مشروع المخطط، ترسل نسخة منه إلى السيد والي الولاية قصد إبداء رأيه فيه في مهلة أقصاها شهرين، وفي حالة إذا ما صادق عليه سيعتبر المخطط حينئذ قانونياً ومؤهلاً لتطبيقه على أرض الواقع، ومما يجب مراعاته في إعدادده ما يلي:

- الوقوف على علو المباني المسموح به، والحرص على عدم تجاوزه من قبل ملائكتها.

- الحفاظ على الأراضي الفلاحية.

- حساب الأراضي القابلة للتعمير على مدى 10 سنوات إلى 15 سنة.

- تنظيم عمليات بناء المساكن وفق وحدات منسجمة ومتناسقة.

- تخصيص أراضي لمزاولة النشاط الصناعي.

- ضبط عرض الشوارع المسموح به والحرص عليه هو الآخر على عدم تضيقه.⁽¹⁾

يظهر جلياً أن هذا المخطط يعمل على إنتاج تنظيم عمراني مكامل، وذلك باهتمامه بأصغر

التفاصيل الهندسية.

3-3-2 مخطط المناطق السكنية الحضرية الجديدة: Plan des zones d'habitat

urbain nouvelle(ZHUN)

أستحدث هذا المخطط بعدما طفت إلى السطح عدد من الأحياء العشوائية بالمدن نتيجة تآزم الوضع الاجتماعي لسكانها، ظهرت هذه الأداة الحضرية سنة 1975م بالجزائر استجابة لمطلب السكن لأنها تهتم بذلك الجانب، إذ تعتبر همزة وصل بين العاملين في مجال التخطيط والعاملين في مجال السكن

1-رياض تومي، مرجع سابق، ص:70

والبناء، ومن بين ما تقوم به هذه الأداة في هذا المجال هو توزيع قطع أرضية صالحة للبناء بعد القيام بتجزئتها، على أن يقوم المستفيد منها بدفع مبلغ مالي رمزي، ويتم تنظيم ذلك في دفتر شروط ورخصة بناء مسلّمة من قبل مديرية التعمير التي تحدد له الشروط المتعلقة بطريقة البناء، والتي يجب عليه الالتزام بها، وهي تتمثل فيما يلي:

-الالتزام بالمظهر الخارجي الذي تتم تحديده رسمه في دفتر الشروط.

-الالتزام بالارتفاع الخاص بالمسكن الذي تتم تحديده هو الآخر في دفتر الشروط.

-الالتزام بمعامل استخدام الأرض (COS) ومعامل الاستيلاء (CES) وكذا بمدة الإنجاز وفيما سيستخدم البناء بعد استكمالها.⁽¹⁾

2-3-4 مخطط المناطق الصناعية ومناطق النشاطات:

Plan des zones industrielles et zones d'activité (ZI-ZAC).

يهتم هذا المخطط بمنطقتين الأولى تتمثل في منطقة الصناعات، حيث يتم فيها تشكيل تجمع عمراني انطلاقاً من تأسيس وحدات صناعية تكون قادرة على توفير ألف منصب عمل أو أكثر، كما يجب أن تتوفر مساحة تصل إلى 2000 هكتار، إلا أن هناك مشاكل صادفت تسيير ومتابعة نمو النسيج المعماري الخاص بها، إضافة إلى أن البيئة التي توجد فيها هذه المناطق أصبحت في حالة مزرية بسبب النفايات التي رميت فيها سواء الناتجة عن الاستهلاك العائلي أو ما يتم طرحه من الورشات الصناعية، وهو ما دفع بالسلطات العمومية إلى التوقف عن برمجة مثل هذه المناطق والاقتصر على تسيير المنطقة الثانية المتمثلة في منطقة النشاطات التي تهتم بالصناعات الصغيرة والمتوسط، وتدمج في إطار المناطق الحضرية والمراكز المناسبة، لكن هذه المناطق لاقت نفس ما آلت إليه المناطق

1-رياض تومي، مرجع سابق، ص: 71-72

الصناعية، وهو ما أدى إلى الاستغناء عن العمل بمخطط المناطق الصناعية ومناطق النشاطات، والاعتماد على مخططات أخرى لتسيير المشهد الحضري للمدن الجزائرية من دون إلحاق الضرر بالمحيط.⁽¹⁾ استفادت مدينة تلمسان من المخطط الخاص بالمناطق الصناعية والنشاطات، وقد تم إنجاز ما أقر بموجبه من وحدات صناعية بالجهة الشمالية الشرقية على بعد حوالي 03 كلم من مركز المدينة بالتحديد في المكان المسمى عين الدفلى الذي ساعدت طبوغرافيته على استقطاب تلك الوحدات بغض النظر عن الانحدار الطفيف المقدر بـ5%، تحدها شمالاً أراضي فلاحية ومبنى المستشفى الجديد، أما جنوباً فيحدها حي سيدي عثمان، وغرباً حي سيدي سعيد، وشرقاً مساكن فردية قدرت كثافتها بـ 25 مسكن/هكتار.⁽²⁾

وقد توسّعت دائرة المنطقة الصناعية اليوم، وأصبحت تضم عدداً من الوحدات الأخرى كمصلحة الحبوب ومؤسسة تركيب العتاد والفلاحي... إلخ، وإضافة إلى ذلك تدعّم هذا الحي بمجموعة من المرافق الضرورية ذات الطابع الاجتماعي المتمثلة أساساً في قاعة علاج ومدرسة وإكماله وثانوية وملعب.

نفس الأمر بالنسبة لمدينة ندرومة فقد أنجز بها في إطار تنفيذ ما جاء في مخطط المناطق الصناعية ومنطقة النشاطات عدد من المؤسسات الصناعية ذات الطابع الاقتصادي المحض، مثل المؤسسة الوطنية للفلين والخشب (SNLB) التي أصبحت تسمى فيما بعد المؤسسة الوطنية للنجارة العامة والجاهزة (ENATB)، وقد دخلت حيز الخدمة سنة 1978، وتمّ إنشاء أيضاً مؤسسة الصناعة التقليدية (ETICO)، وأخرى للصناعات النسيجية والحربية (SOITEX)، كمثيلتها التي أنشئت بمدينة تلمسان وقد أدّت هذه الوحدات الصناعية إلى تكوين تجمع سكاني بشمال المدينة الذي أنجزت به على شاكلة التجمع الذي تكوّن بالمنطقة الصناعية شتوان.

1- رياض تومي، مرجع سابق، ص: 72

2- دائرة شتوان، المصلحة التقنية، 2016

2-3-5 المخطط التوجيهي للبناء والتعمير (PDAU) ومخطط شغل الأراضي (POS):

أمام تزايد تعقد الحياة الاجتماعية بالمدن وما نجم عنها من امتداد عمراني ملفت للإنتباه، برزت عدّة ظواهر سلبية لها علاقة مباشرة وطيدة بالجانب العمراني كتنامي ظاهرة الأحياء القصدية هذه القضية تعد بمثابة ترجمة مباشرة لمفهوم التغير لكن في شقّه السلبي، لأنه لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يكون دائماً إيجابياً، لذلك ذهب بعض المفكرين إلى اعتبار حركة التعمير المصاحبة للمدن ذات قطبين موجب وسالب تزن وتضع ثقلها على مستقبل المدينة سواءً في بعث نموها أو في فرمتها، أي أنها ربما تستخدم مستقبلها أو ستكون معول هدم لكيانها الذي كوّنته عبر سنوات طويلة، ولأن الإنسان منذ وجوده وهو في سعي دائم لتحقيق طموحه وإطار معيشي لائق، فقد قام بإيجاد طرق لتجسيد ذلك على أرض الواقع، من هذا المنطق تم الاعتماد في الآونة الأخيرة على التخطيط الحضري كوسيلة ناجحة لتنظيم المدن.⁽¹⁾

ونتيجة بروز ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية وحتى ثقافية جديدة، أصبحت أدوات التهيئة التي كان معمولاً بها في الجزائر غير قادرة على التحكم في التكوين المادي للمدن، وتوزيع المرافق الضرورية التي تكفل تقديم الخدمات التي يحتاجها جميع أفراد المجتمع على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم، خاصة أن النمو الديمغرافي يعرف تزايد بمدن الجزائر عامة، إذ أشارت أرقام آخر إحصاء أن عدد المدن التي يفوق ساكنها 100.000 نسمة قد وصل إلى 32 مدينة في وقت كانت توجد فيه على الأكثر مدينتان لا يتجاوز عدد ساكنها 30000 نسمة في بداية القرن العشرين.⁽²⁾

مما لا شك فيه أن تبني ما هو جديد في التنظيم الحضري هو الحل الأمثل للحيلولة دون الوقوع في المشاكل التي لا يمكن تداركها فيما بعد، وعليه كان لزاماً على القائمين على ذلك التفكير في العمل بمخططات أكثر نجاعة وتنظيم بداية من سنة 1990، أين تمّ اعتماد مخططين جديدين لتجسيد

1-قارفي جاكدين بوجو، مرجع سابق، ص: 15-30

2-رياض تومي، مرجع سابق، ص: 78

مقتضيات التنمية الحضرية بعد التوجه الجديد التي انتهجته الجزائر عقب أحداث أكتوبر 1988م التي كانت منعرجاً في مسار التوجيه العقاري وعمليات البناء، أي كل ماله علاقة بالأنشطة العمرانية، وقد تمثلا في المخطط التوجيهي للبناء والتعمير (PDAU) *Plan directeur d'aménagement urbain* ومخطط شغل الأراضي (POS) *Plan d'occupation de sol*، اللذان أقرهما المشرع الجزائري بموجب

القانون 29/90⁽¹⁾

ومن أهم الأهداف المسطرة فيهما ما يلي:

- التحكم في النمو الحضري والعمراني.

- القضاء على البيوت القصدية.

- إيقاف ظاهرة النزوح الريفي.

- الحفاظ على خصوصية الأماكن سواء ذات الطابع التاريخي أو الفلاحي.

بالنسبة للمخطط التوجيهي للبناء والتعمير (PDAU)، فقد أُعلن عنه بموجب القانون السالف الذكر، وهو يعتبر أداة للتخطيط المجالي والتسيير الحضري، يحدد التوجيهات الأساسية للتهيئة العمرانية للبلدية أو البلديات المعنية، آخذاً بعين الاعتبار تصاميم التهيئة ومخططات التنمية ويضبط الصيغ المرجعية لمخطط شغل الأراضي (POS)، ويحدد هذا المخطط التخصيص العام للأراضي على مجموع تراب بلدية واحدة أو مجموعة من البلديات، إضافة إلى تحديد مناطق التدخل في الأنسجة الحضرية والمناطق الواجب حمايتها، أي أنه يعمل على تنظيم استعمال الأراضي عبر تقسيمها إلى أربعة قطاعات تتمثل في القطاعات المعمرة، والقطاعات المبرجة للتعمير، وقطاعات التعمير المستقبلية والقطاعات الغير قابلة للتعمير وتصدر الإشارة إلى أن المشرع الجزائري أقرَّ شرطاً لإنجاز المشاريع بهذه القطاعات ينحصر في

1- الجريدة الرسمية، قانون 29/90 مؤرخ في 15 جمادى الأولى 1411هـ، الموافق لـ 02 ديسمبر 1990، متضمن قانون التهيئة

والتعمير، السنة السابعة والعشرون، العدد، 52، الجزائر، 1990، ص: 4-5

الوضع العام السائد بالمجال المكاني، فإذا لم يعد كافياً ولم يعد باستطاعته تلبية متطلبات ساكنيه، سيتم إعداد مخطط جديد لتحديد القطاعات السالفة الذكر بذلك المكان، وذلك في مدى يقدر بعشرين سنة مقبلة، وبعد الانتهاء من إعداد المسودة الأولى منه ترسل نسخة منه لتتم المصادقة عليه من طرف رئيس البلدية والوالي وحتى وزير القطاع، في حالة إذا ما كانت المساحة المعنية بالتعمير يفوق عدد ساكنيها 500.000 نسمة.⁽¹⁾

فيما يخص مخطط شغل الأراضي (POS) فهو الآخر من الأدوات الجديدة في التهيئة والتعمير مثله في ذلك مثل المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير (PDAU)، وهو يُعنى بالكمية الكبرى والصغرى الخاصة بمعدل شغل مساحة معينة، كما يحدد المظهر الخارجي للمساكن، وكذا عرض الشوارع والمساحات العامة والمواقع المخصصة للمنشآت ذات المصلحة العامة، ويخضع بعد الانتهاء من إعداده إلى تحقيق عام من طرف رئيس المجلس الشعبي البلدي في مدة أقصاها 60 يوم، وبعد أن تتم الموافقة عليه يُعلن عليه أمام أفراد المجتمع لمدة زمنية تقدر بشهرين قبل مباشرة تنفيذه لإبداء رأيهم في حالة إذا ما تعارض المشروع مع مصالحهم الفردية.⁽²⁾

ما يلاحظ حول المخطط التوجيهي للبناء والتعمير (PDAU) ومخطط شغل الأراضي (POS) أنهما لم يتعرّضا بشكل مكثّف في موادهما لما له علاقة بالحفاظ على التراث المادي الثابت، بغض النظر عن المادتين الموجودتين في الفصل الرابع والخامس فقط، واللّتين لَمَّحَ فيهما المشرّع إلى ضرورة الحفاظ على ما له علاقة بالتراث على اختلاف أنواعه سواء كان تاريخياً أو طبيعياً، وقد جاء في المادة 45 ما يلي: "يجب أن يحافظ التوسع العمراني بالساحل على المساحات، وأن يبرز قيمة المواقع والمناظر المميزة للتراث الوطني الطبيعي، والثقافي والتاريخي للساحل والبيئات اللّازمة للتوازنات البيولوجية، ويجب أن يتم هذا طبقاً لأحكام شغل الأراضي"، أما المادة الثانية فهي رقم 69، وتضمنت ما يلي: "لا يخصص بأي بناء

1- الجريدة الرسمية، قانون 29/90، مرجع سابق، ص: 04

2- الجريدة الرسمية، القانون 29/90، مرجع سابق، ص: 05

أوهدم من شأنه أن يمس بالتراث الطبيعي والتاريخي والثقافي أويشكل خطراً إلا بعد استشارة وموافقة المصالح المتخصصة في هذا المجال وفقاً للقوانين والتنظيمات السارية المفعول".⁽¹⁾

يبدو من خلال ما ورد في المادتين أن القانون 29/90 الخاص بالمخطط التوجيهي للبناء والتعمير (PDAU)، ومخطط شغل الأراضي (POS) قد تضمننا الحفاظ على جميع أنواع التراث.

2-4 لمححة عن أهم المواد المقننة لحماية الموروث المادي والمواقع التاريخية في القانون

:04/98

بالموازاة مع ما ذكرناه، وبالنظر إلى ما هو موجود على أرض الواقع من تجاوزات في مجال تطبيق المادتين يبقى العمل الإداري ناقصاً وحبيس المكاتب فقط، وما تم تقنينه مجرد حبر على ورق لا أكثر ولا أقل، الأمر الذي يدل دلالة واضحة أن مفهوم الحفاظ على التراث يتلاشى تماماً أمام مفهوم التنمية الحضرية، التي تبقى المشاريع المحسّدة في إطارها هي سيدة الموقف في نهاية المطاف.

وردت النصوص صريحة في مواد القانون 04/98 الذي تمّ استحداثه من طرف الإدارة المكلفة بحماية الموروث المادي، لقد نصّت مواده على ضرورة حفظ وصيانة المعالم التاريخية والمواقع الأثرية، باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الذاكرة الجماعية للأمة ككل، وقد بلغ عدد مواده 108 مادة تضمنت كلها أحكامها متعلقة بالحماية التراثية، وقد عرّف في المادة الثانية من الباب الأول أن التراث مجموعة الممتلكات الثقافية الغير مادية والعقارية والمنقولة⁽²⁾، ودُكر فيه أن الممتلكات الثقافية العقارية تنقسم إلى معالم تاريخية ومواقع أثرية ومجموعات حضرية وريفية، وتم تعريفهم في الباب الثاني وفقاً للمواد التالية: -المادة 17: تُعرف المعالم التاريخية بأنها أي إنشاء هندسي معماري، منفرد ومجموع يقوم شاهداً على حضارة معينة أو على تطور هام.

1- الجريدة الرسمية، القانون 29/90، مرجع سابق، ص: 7-9

2- الجريدة الرسمية، القانون 04/98 المؤرخ في 22 صفر 1419 هـ الموافق لـ 17 يونيو 1998، المتضمن حماية التراث الثقافي، السنة الخامسة والثلاثون، العدد 44، الجزائر 1998، ص: 04

-المادة 28: تُعرّف المواقع الأثرية بأنها مساحات مبنية أو غير مبنية دونما وظيفة نشطة، وتشهد بأعمال الإنسان أو بتفاعله مع الطبيعة بما في ذلك باطن الأراضي المتصلة بها، ولها قيمة من الوجهة التاريخية أو الأثرية أو الدينية أو الفنية أو العلمية أو الأثولوجية أو الأنتروبولوجية، والمقصود بها على الخصوص المواقع الأثرية بها فيها المحميات الأثرية والحظائر الثقافية.

-المادة 41: تُعرّف المجموعات الحضرية والريفية على أنها القصبات والمدن والقصور والقرى والمجمّعات السكنية التقليدية المتميزة بغلبة المنطقة السكنية فيها، والتي تكتسي بتجانسها ووحدها المعمارية والجمالية أهمية تاريخية أو معمارية أو فنية أو تقليدية من شأنها أن تبرر حمايتها وإصلاحها وإعادة تأهيلها وتثمينها.⁽¹⁾

ولكون الإرادة الإنسانية هي الموجه الأساسي حركة التاريخ التي تصنع أحداثه ضمن نظام من القوانين⁽²⁾، كان لابدّ على المشرع الجزائري أن يسنّ في القانون 04/98 مجموعة من الأحكام الصارمة التي من شأنها أن تقف بالمرصاد لما سينجم عن تلك الإرادة من جهة، ولإحياء التراث المادي وإحداث توازن بين الاحتياجات المادية والمعنوية ضماناً للاستمرار الحضاري من جهة أخرى⁽³⁾، خاصة أن التغيير واضح بين التصميم القديم والحديث، فقد تأسّس تخطيط الهيكل العام للمدينة العربية القديمة على أساس المقياس الإنساني المتولد عن الحركة الطبيعية للإنسان والدواب، في حين تأسّس الهيكل العام للمدينة المعاصرة على أساس الحركة الميكانيكية الناجمة عن اكتشاف الآلة عقب بروز الثورة الصناعية، الأمر الذي أحدث تبايناً واضحاً بين التخطيطين، خاصة أنّ المقياس الثاني أصبح الفكر الأساسي المهيمن

1- الجريدة الرسمية، القانون 04/98، مرجع سابق، ص: 06-10

2- بتول أحمد جندية، على عتبات الحضارة، بحث في السنن وعوامل النخلق والانهيار، دار الملتقى، حلب، 2011، ص: 20

3- إبراهيم عبد الباقي، التراث الحضارة في المدينة العربية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية (CPAS)، مصر (دت)، ص: 12

على تخطيط أي مدينة في الوقت الراهن⁽¹⁾، من جملة المواد القانونية التي وضعت في القانون 04/98 لتفادي وقوع الموروث المادي على اختلافه في خانة النسيان، وكذا الحدّ من التأثيرات الناجمة عن التنمية الحضرية المادة 17 التي تم التأكيد فيها على أن قرار التصنيف يجب تمديده إلى العقارات المبنية والغير مبنية الواقعة في منطقة محمية، أي كل ماله علاقة بمجال رؤية المعلم التاريخي، وتمّ التنويه في هذه المادة أيضاً على توسعة مجال الرؤية بمسافة لا تقل عن مائتي متر لتفادي إتلاف المنظورات العلمية، ويمكن أن تخضع هذه التوسعة لتقدير وزير الثقافة بناءً على ما ستقترحه اللجنة الوطنية للممتلكات الثقافية.⁽²⁾

إضافة إلى المواد التي أقرّت مبدأ الحماية المادة 21 في الفقرة الأخيرة منها، والتي جاء بموجبها إلزامية الحصول على ترخيص مسبق من مصالح وزارة الثقافة في حالة مباشرة أشغال المنشآت القاعدية، مثل تركيب الشبكات الكهربائية والهاتفية الجوفية وأنابيب الغاز ومياه الشرب، وأقنونات التطهير وإنشاء المصانع أو القيام بأشغال كبرى مماثلة له سواءً عمومية أو خاصة، وكذلك أشغال قطع الأشجار أو غرسها، إذا كان من شأنها أن تمثل اعتداءً بصري يلحق ضررًا بالجانب المعماري للمعلم أو الموقع الأثري.⁽³⁾

كما منع المشرع الجزائري منعاً باتاً وضع اللافتات واللوحات الإشهارية أو لصاقها على المعالم التاريخية في المادة 22، وأوجب في المادة 23 الحصول على رخصة بناء في حالة القيام بأشغال على معلم تاريخي مصنف أو مقترح تصنيفه، أو على عقار يستند إلى معلم تاريخي مصنف أو واقع في منطقة محمية، وأكد في المادة 37 أن اكتشاف أي آثار مدفونة بواسطة عملية بحث أثري يؤدي إلى إعلان ذلك المكان موقعاً أثرياً يخضع لتسييره للأحكام الواردة في القانون 04/98، أما المادة 96 من الباب

1- إبراهيم عبد الباقي، مرجع سابق، ص: 83

2- الجريدة الرسمية، القانون 04/98، مرجع سابق، ص: 06

3- الجريدة الرسمية، القانون 04/98، مرجع سابق، ص: 07

الثامن الخاص بالمراقبة والعقوبات، فقد تعرّض فيه إلى أنه يُعاقب كل من يتلف أو يشوه عمداً أحد الممتلكات الثقافية المنقولة منها أو الثابتة، المقترحة للتصنيف أو المصنفة أو المسجّلة في قائمة الجرد الإضافي بالحبس مدة سنتين إلى خمس سنوات، وبغرامة مالية من 20.000 دج إلى 200.000 دج.⁽¹⁾ لم يُشرّع في هذا القانون ما تمّ ذكره فقط في مجال الحماية وتطبيق العقوبات اللازمة، لكن تمّ أيضاً سنّ عدد لا بأس به من المواد التي تجمع بين كيفية التصنيف والتسجيل، وجرد التراث المادي الثابت والمنقول واستحداث قطاعات المحفوظة والمحميات الأثرية... إلخ، أي كل ماله علاقة بالشواهد الأثرية التي تركها الأسلاف في مكان معين.

كما سلفت الإشارة إلى أن دور الحماية والرقابة الإدارية يتلاشي أمام المشاريع التي يُراد إنجازها في إطار التنمية الحضرية، وبالرغم من سنّ التشريعات التي تحافظ على الموروث المادي، إلا أن التجاوزات الحاصلة على أرض الواقع تدل دلالة واضحة أن الرقابة الإدارية غائبة تماماً في بعض الأماكن حتى لا يجوز التعميم، وفيما يخص أهم القضايا التي لها علاقة مباشرة بالتجاوزات الحاصلة ضد الموروث المادي بسبب العمل الإداري الخاص بمخططات التعمير التي كانت بمثابة المحرك الأساسي لعملية التنمية الحضرية وبسبب غياب الرقابة الإدارية وتطبيق ما تضمنته المواد الرديعية الواردة في القانون 04/98 سنأتي على ذكره في الجانب الخاص بالتأثيرات الناجمة عن ذلك، إلا أننا نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما ستعتمد السلطات المحلية على إنجازها في مجال تنمية وسائل النقل والمواصلات، فبعد الإعلان عن المشروع الوطني المتعلق بخط السكة الحديدية الجديد شرق غرب بواسطة القطار الفائق السرعة (LGV) الذي تتجاوز سرعته 220 كلم/سا تقرّر تمرير مساره في مدينة تلمسان مع خط السكة الحديدية المنجزة من طرف المستعمر، وهذا ما يعني أنه سيمر بالجهة الشمالية الموقع الأثري المنصورة والجهة الجنوبية لباب القرمادين، أنظر المخطط رقم (05)، وفي مقابل الخدمات التي سيقدمها للمواطن، سيعرّض بقايا سور الموقع الأثري وباب القرمادين للضرر الميكانيكي المنحصر أساساً

1- الجريدة الرسمية، القانون 04/98، مرجع سابق، ص 08-18

في الشروخ والشقوق بفعل الاهتزازات التي ستتولد عن حركته، وهذا ما سنتعرض للحديث عنه بالتفصيل في فصل التأثيرات.

يثبت مثل هذا المشروع التنموي المبرمج من طرف مديرية النقل ومديرية البناء والتعمير إثباتاً قاطعاً أن الكثير من مواد الحماية التراثية لا تُطبَّق على أرض الواقع سواءً المتعلقة بالمادتين 45 و69 من قانون البناء والتعمير 29/90 أو المتعلقة بالقانون 04/98، الأمر الذي يدل أن الإدارة عامل مباشر في بعث وتوجيه التنمية الحضرية، باعتبارها إن صحَّ التعبير الرأس المدبّر، وأحد الأسباب الرئيسية في ضياع التراث المادي وتلاشيه.

3-العولمة الثقافية:

خضع تنظيم النسيج المعماري الحضري في المدن الإسلامية لضوابط ناتجة عن البيئة التي يوجد فيها والمرجعية الدينية التي يتبناها سكانه، فجاء نسيجه متميزاً عن الأنسجة المعمارية التي تكوّنت في مناطق أخرى من العالم، وقد توّصل إلى هذا الموضوع عدد من الباحثين مثل الباحثة جانيت أبولغد، التي أشارت بعد دراستها لعدد من المدن الإسلامية أنها تسير وفق ضوابط بيئية ودينية حدّدت أشكال العمائر خاصة منها المدنية، للحفاظ على حرمة المسلمين وتوزيع المرافق التي يحتاجونها وتنظيم العلاقات فيما بينهم، وقد أشارت أيضاً إلى أن هناك اختلاف واضح بينها وبين المدن الرومانية.⁽¹⁾

لذلك أعتبرت المدن على مرّ العصور المرآة التي ينعكس على وجهها المعماري باختلاف أنواعه كل الخصائص الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وكل ماله علاقة بالمقومات الحضرية لسكانها⁽²⁾، ولا زالت هذه العلاقات لحدّ الساعة قائمة بين المدينة، وما تحويه من خصائص من خلال ما يتم بنائه من مشاريع في مختلف المجالات لبعث التنمية الحضرية.

ظهر إلى الوجود مع بداية القرن 19م توجهٌ جديد، أثر تأثيراً بالغاً على القيم الحضرية للمدن

1- محمد عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص: 08

2- عبد الباقي إبراهيم، التراث، ...، مرجع سابق، ص: 10

الإسلامية، وأدخل إليها مبانٍ لا علاقة لها بالهوية التي اكتسبتها قديماً، وكان ذلك بداية المنعطف في مسارها الذي دام لقرون، فبعد أن عاشت الدول الإسلامية مُنازلات عسكرية منذ المراحل الأولى لتكوّنها ضد الدول الأجنبية كالرومان والفرس واليونان تارة، وتارة أخرى ضد بعضها البعض من أجل اكتساب أكبر قدر من المجال الجغرافي باستعمال السيف والرمح والمنجنيق، دعاها اليوم عدوٌ آخر يتمثل في الزخم الهائل من الرسائل الحضارية المسماة بالعولمة التي حملتها عدّة قنوات إلى عقول أفراد مجتمعاتها للنزول إلى ساحة المعركة التي يبدو أنها قد خسرتها في نهاية المطاف.⁽¹⁾

3-1 مفهوم العولمة:

3-1-1 لغة: يرجع الاشتقاق اللغوي لكلمة عولمة إلى الفعل عِلِم أي عرف، وعالمه أي غلبه علماً، وعِلِم الأمر أي أتقنه، والعِلْم الرأية، العالم الخلق كله، والعِلَامِي هو الإنسان الحذق الذكي، والعِلْمَاء هي الذرع المستعملة في الحرب.⁽²⁾

3-1-2 اصطلاحاً: العولمة هي غياب البعد الوطني أو القومي المكون لشخصية المجتمع، والدَّرْع الواقعي له في فوضى اللاهوية ومعركة الاستعمار الجديد⁽³⁾، وهي تهم الجانب الثقافي بالدرجة الأولى باعتباره ذلك الكل المعقد المتشابك من أساليب الحياة، وللعولمة نوعين الأول غير مادي والثاني مادي، بحكم كونها جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الإنسان الذي يعيش الجانبين معاً، يتضمن الجانب الأول القيم والنظم والاعتقادات والتقاليد، أما الثاني فيمثل التجسيد المحسوس لما هو معنوي فيما يصاغ من عمائر وأدوات يستعملها الإنسان في قضاء حوائجه اليومية واللباس ووسائل الاتصال والمواد الاستهلاكية... إلخ، وقد سهّل انتشارها بين الدول بنوعيتها (المادي واللامادي) صفة التغير التي تطبع

1- أحمد القصص، نشوء الحضارة الإسلامية، ص: 04 www.alkutubcafe.com

2- فيروز آبادي، مصدر سابق، ص: 1136-1137

3- صامويل هنتجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صلاح قنصوه، يسمون شوستر، إمريكا، 1996، ص: 19

المجتمعات وإقبالها على كل ما هو جديد، إضافة إلى سيادة النظام الرأسمالي وسقوط النظام الاشتراكي في نهاية القرن 20م، حيث عَجَّل من انتشار العولمة أو ما يسمى بتجانس الثقافة⁽¹⁾، ولأن هذه الأخيرة معنيّ في التاريخ دقّت العديد من الدول ناقوس الخطر، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه، والعولمة من شأنها أن تحدث تأثيراً جوهرياً فيها، فهي تعمل إن صحَّ التعبير على قطع الحبل السري بين الوسط الذي تتكون فيه كل جزئية المسمى بالمجتمع والذي يشبه في هذا الحالة الجنين والحضارة الشبيهة بالأم التي يتربى في أحشائها، لأنها الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر.

3-2 دوافع تفشي العولمة:

يقودنا الحديث عن العولمة إلى الحديث عن الحرية في استقبال كل ما هو جديد، فهي ليست مجرد اختيار أو تعبير عن ضرورة باطنة يُحقق فعلها بسهولة ويسر، بل هي أكثر من ذلك، إذ تعتبر سبباً وهدفاً في حدّ ذاتها، وهي الحقيقة الأولى التي عرفها الإنسان وحرص على الحفاظ عليها، لأنه من خلالها تمكّن من بلوغ مراتب الحضارة، إلا أنها تكون في بعض الأحيان من بين الأسباب المباشرة التي تحدث منعرجاً خطيراً في حياتنا، وهو ما جعل بعض المفكرين يؤكدون في حديثهم عنها أنها تنطوي على مبدأ هدام يكون من شأنه القضاء على المقومات الأساسية التي قامت عليها أي حضارة⁽²⁾، لذلك أمكن القول أنها كانت من الأسباب الأولى لدخول التيارات الغربية واستقرارها في المجتمعات على شكل مادي ومعنوي، كما كان للهيمنة السياسية الأمريكية وانتهاء مطاف الحرب الباردة التي كانت قائمة بينها وبين الاتحاد السوفياتي لصالحها⁽³⁾، دور كبير في تجسيد ظاهرة العولمة التي أُطلق عليها في بعض الأحيان مصطلح أمركة العالم، حيث حرصت أمريكا على بلورة مفهوم موحد تكون فيه قيمها سيدة المطاف، وقد

1- صامويل هنتجتون، مرجع سابق، ص: 20-21

2- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، مشكلة الثقافة، ط18، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2015، ص: 76-77

3- زكرياء إبراهيم، مشكلات فلسفية، مشكلة الحرية، ط2، دار الطباعة الحديثة، مصر، 1963، ص: 71

اعتمدت من أجل ذلك على العامل الاقتصادي، عبر استعمالها لنظام مالي أثقل الدول النامية بالديون وحال دون تكوينهم لقاعدة اقتصادية تجعلهم في منى عن التبعية لها.⁽¹⁾

وبذلك بدأت عجلة العولمة تسير بشكل متسارع ومظاهرها تنتشر في كل مكان سواءً في الدول المتقدمة التي تحسن تسييرها وتوظيفها لمصلحتها، أو الدول المتخلفة التي تبوء بآثامها، نتيجة عدم وعيها وقلة حيلتها بما يخفيه الوجه الحقيقي لمظهر التقدم، وقد ساعد في نشرها وبث سمومها في المجتمعات إضافة إلى العاملين السابقين وسائل الاتصال وأوعية الإعلام التي اختزلت المسافات وأسقطت مفهوم الحدود، حيث أصبح ممكناً اليوم أن نزرع مدينة من مدن العالم من شاشات الحواسيب الموصلة بشبكات الإنترنت بصور عالية الدقة والجودة، تدخل إلى عقول مشاهديها لتزرع فيهم ثقافة جديدة وغريبة عن الهوية التي ترعرعت فيها قيمهم وشخصيتهم، كما ظهرت في شاشات التلفاز بعض من الحصص تحمل أسماء تخدم مفهوم العولمة من قرب أو بعيد، مثل أطباء بلا حدود ومراسلين بلا حدود وحوارات بلا حدود... الخ.⁽²⁾

شكّل المجال التجاري هو الآخر عاملاً جوهرياً في تجسيد مفهوم العولمة بين الدول باعتبارها القاسم المشترك بينها، لقد أصبح وسيلة ناجحة للترويج للعولمة، وذلك عن طريق نظام عالمي موحد يعمل على إرساء قواعد تجارية مشتركة وفقاً لمبدأ حرية التبادل الذي تعمل على تجسيده منظمة التجارة العالمية التي أنشئت سنة 1994م، وذلك بعد عدد من الاتفاقيات التي بدأت منذ سنة 1947م⁽³⁾، وقد زاد في حدة انتشار العولمة، إضافة إلى ما تمّ تقديمه، أدّى التقدم المذهل الذي عرفه انتقال البشر وما يحتاجونه بواسطة الطائرات والسفن إلى انتشار العولمة بين الدول، فمثلاً ساهمت طائرات البوينغ وإرباص بنقل عدد

1- محمد مراد بركات، ظاهرة العولمة بين رفض العرب والإسلاميين والترويج الغربي، رؤية تقنية، ص: 25، أنظر: www.kotob-arabia.com

2- محمد مراد بركات، مرجع سابق، ص: 21

3- عياش قويدر، إبراهيم عبد الله، آثار انضمام المنظمة العالمية للتجارة بين التفاؤل والتشاؤم، مجلة اقتصاديات شمال إفريقيا، العدد 02، مخبر العولمة واقتصاديات شمال إفريقيا، جامعة حسينة بن بوعلي، الشلف، 2005، ص: 53

هائل من البشر بين القارات منذ تسعينات القرن الماضي⁽¹⁾، وعليه تكون قد أدّت دوراً ريادياً في انتشار

مبادئ العولمة التي حملها أولئك السياح إلى الوجهة المقصودة يمكن فهم أن يأتوا كما يمكن فهم أن يأتوا ويظلون ما تشيخوا به من ثقافة إلى مجتمعهم الأصلي، ومن ثمّ يكونوا قد أدخلوا مفهوم العولمة بطريقة غير مباشرة إلى بلدانهم الأصلية. لم تكن مظاهر العولمة ثابتة في مجال واحد بل جاءت شاملة لجميع الميادين، فكما سبقت الإشارة إلى ذلك اعتمدت بالتحال السياسي والاقتصادي، وهما المحركان الأساسيان للدولاب القوى في العا لم حتى تستقر في الأخير من بسط ثقافة موحدة، والوصول إلى ذلك هو تجسيد للعولمة في جميع الميادين والمجالات التي يهتم به أفراد المجتمعات باعتبار الثقافة، وعلى حد قول مالك بن نبي هي علاقة متبادلة تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد فتصبح البشرية في بداياته الأولى الملاحظة والتفكير فيما يدور من حوله قبل البدء في يعيش معيها في حوز دائم.⁽²⁾

3-3 أصول ومظاهر العولمة الثقافية المعمارية في منطقة تلمسان:

من المرفأ الأساسية للثقافة من الثقافة ماله علاقة بالجانب المعماري، إذ يتبع ما له علاقة بفكر البائين الأمر الذي جعل من العولمة وفقاً لمفهومها ومبادئها، عبر قيامها بتحويل الإنتاج المعماري من عملية تحكمها خواريط وأسس غريبة عن المجتمعات التي تحيا بها، إلى أسلوبها لا يسيء إلا لأنها انبثقت عن ثقافة ليست لها رابط مع ما هو سائد في المجتمعات، وقد أدى ذلك إلى وضع المباني الأثرية التي تعبر المنظر الأساسي للوجه المعمارية في محيط تعيب فيه قيمة الفنية والتاريخية، لأنها لا تستجيب إلى ما تنطه الحياة المعاصرة من الاحتياجات المادية والعلوية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الحضرية المستوردة من الخارج⁽³⁾، لذلك كان تغيير الطابع المعماري من أولويات القائمين على بسط العولمة في العا لم، من بين الركائز المهمة في تكوين الخصوصية الحضريّة لأي أمة من الأمم، فتركز العا لم في التاريخية في حارة النسيان، وإعلان مشاريع تسمية وإنشاء مساكن وغيرها من المباني وفق مبادئ معمارية لا تحت بصلة إلى ماضي الأما، يسكنون ذلك بمثابة ضياء للتميز الثقافي الخاصة بما هو من تعرض للنسق الحضري ويمنه إلى الشكل والتلاشي ليحل محله طابع حضري جديد.

ارتبط الفكر المعماري الحديث لمناهل لما له علاقة بالوات المعماري بوزن الثورة الصناعية الغربية التي تخلت جميع الميادين حائرة معها كثيراً من القيم الإنسانية، بعد أن دخلت الآلة حياة الإنسان وأصبح التصنيع وورقة الإنتاج العملاق للتمسكان في تمت عيشه وتوجه نحو المدن، وبناء العمار التي كان يعيش فيها⁽⁴⁾، ومع بداية القرن العشرين بالتحديد سنة 1903 ظهرت حركات معمارية تادت بالحدثة والإبعاد عن الكلاسيكية المعمارية، من روادها المهندس الفرنسي لوكوروزيه والألماني هروبيوس وإلسان جونيه سوت والأمريكي ميس فانرو.

انبثقت الحزير الأولى لمصطلح العولمة المعمارية التي تجسدت تعاقبها في كل من مدينة تلمسان وندروم وحين عن مصطلح عمارة الحدثة التي استحدثت أول مرة من قبل المعماري تشارلز رينيه مانتوش Charles Rennie Mackintosh، في رسالته التي بعث بها إلى المعماري فرنز والندروف Frits wandover، مشيراً فيها أن الحركة للمعمارية الحديثة هي حركة حياة، وهي الفن الجديد للمناهل للتوجهات المعمارية التي كانت سائدة في القرن 18م و19م⁽⁵⁾، ثم ظهرت بعدها حركة أخرى تسمى عمارة ما بعد الحدثة التي انبثقت عن الحركة السابقة واحتلقت عنها في الوجه، إذ دعيت إلى الرجوع إلى الأصول للمعمارية التراثية مع الحفاظ في نفس الوقت على المكتسبات الحديثة، تعود بداية ظهورها في السنوات الأولى للتسعينات، وقد بقيت في غاية الطراف امتداد للحدثة فقط، فقد دعيت هي الأولى إلى الخروج من التاريخ، القادوت وراء ما هو حديث وأهملت الجانب الآخر⁽⁶⁾، وظهرت بعدها العمارة الفكرية التي تنفق إلى حد بعيد معها في كونها أحدثاً نوعاً ملحوظاً وثورة على الفراغ المعماري، إلا أن هذه الأخيرة لم تنجح مكاناً في تقويمها لكلمة تراث وهي الحركة التي توابك الفترة المعاصرة⁽⁷⁾، ويؤكد من ذكر أن العمارة الكلاسيكية كتحل بعشى إلى الأمام وتظهر إلى الخلف، والمعاصر الحديثة كتحل بعشى إلى الأمام وتظهر إلى الخلف، وتظهر إلى الأمام وتظهر إلى الخلف، وتظهر إلى الأمام وتظهر إلى الخلف.

وفي ستينات القرن الماضي هبّت رايح التفرع على الوضع الاقتصادي، بفعل ارتفاع أسعار البترول جراء الحرب العربية الإسرائيلية، فبدأ المعماريون الغربيون إزاء ذلك الوضع إلى تبني أسلوب معماري جديد يتماشى مع ضعف المستوى الاقتصادي للدول الأوروبية، وبقله الإحصادات المالية المتعمدة في مجال البناء، وبوقوعها باستخدام مادة غير الإصمت والأجر تثلت في الزجاج البصيح المبني كحليلة عبارة صندوق زجاجي رعاً للجمال والوقت.⁽⁸⁾

تقد ساعدت الظروف الحاققة التي تمر بها عدد من الدول للحوه إلى نمط عمريان غريب عنها، فتشدهر

الوضع الاقتصادي الذي دفع معماري أوروبا إلى الاستعداد بالزجاج، وأزيد عدد السكان الذي أدى إلى التوجه نحو الزجاج، ونقائص أخرى ذات طابع اجتماعي محض، تمّ

التوجه للمباني العمودية الجماعية المعروفة باسم العمارات لأنها أقل تكلفة، وهو تجسيد غير مباشر لمفهوم العولمة، وما يثير الانتباه هو الغياب الكلي للجانب التخطيطي الذي يمكن من خلاله ترويض ما يتم

1- جيران ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت 2004، ص: 21

2- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص: 43- 55

1- عبد الباقي إبراهيم، التراث....، مرجع سابق، ص: 64

2- عبد الباقي إبراهيم، العمارة العربية بين المحلية والعالمية، مجلة عالم البناء، العدد 22، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر 1982، ص: 05

3- عمر جلال حفطي، التصميم المعماري الداخلي بين تعددية المفاهيم الفكرية في القرن العشرين، حالة مقارنة بين عمارة الحدثة وعمارة ما بعد الحدثة، رسالة ماجستير تخصص هندسة العمارة، جامعة النجاح نابلس، فلسطين، 2012، ص: 44

1- محمد أركون، ما بعد الحدثة حنين إلى ما قبل الحدثة، ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توفال للنشر، الدار البيضاء، 2007، ص: 48

2- نوبي محمد حسن، الفراغ المعماري من الحدثة إلى التفكيك، رؤية نقدية، مجلة العلوم الهندسية، المجلد 35، العدد 03، جامعة أسيوط، مصر 2007، ص: 838

3- هاني خليل الفران، محددات تأكيد الهوية الثقافية العربية في التصميم المعماري من خلال الأسلوب البنائي الحديث، ص: 05، staff.najah.edu

4- صلاح زيتون، نظرة على العمارة العالمية، مجلة عالم البناء، العدد 144، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1993، ص:

استيراده وفقاً للثقافة الخاصة بالدولة محلّ انجاز المشروع، بحكم كونه دراسات اقتصادية واجتماعية وعمرانية تُبنى على معطيات تاريخية وإحصائية وتحليلية وهندسية خاصة بالدولة.⁽¹⁾

عمد القائمون على تخطيط المدن بالعالم الإسلامي على إتباع خطوات التصميم الحضري الغربي إذ بدأوا بشبكة الطرق المحلية المحددة لأماكن المرافق الضرورية التي يحتاجها أفراد المجتمع، بما في ذلك الجزء المخصص لإسكانهم، كما عمدوا على إعمار أطراف المدينة وليس مراكزها بالسكان، وهي إحدى السمات المعمارية الجديدة في تخطيط المدن، وقد جُلبت من الدول التي تروّج لمفهوم العولمة لتعمّم ثقافتها وتطفوا بها إلى السطح، وانعكس هذا التوجه في البناء على الميدان الاجتماعي، فقد أصبحت تلك الشوارع الرئيسية بمثابة حدود تفرق بين الأحياء السكنية، بعد أن كانت في وقت مضى في المدن الإسلامية العتيقة نقطة التقاءهم والجلوس تحت السقيفات التي تنتشر بها في أيام الصيف الحارة لتبادل الحديث، عندما كانت محاور للترابط الاجتماعي وعلى علاقة وطيدة بالمقياس الإنساني، ولكن اليوم أصبحت على علاقة إن صحَّ التعبير مباشرة بما أنتجته يد الإنسان من تكنولوجيا في مختلف المجالات، هذا التغيير في المفهوم العمراني نجم كما سبقت الإشارة عن دخول التيارات الفكرية الغربية عن طريق الذين تأثروا بمبادئها إضافة إلى ما فرضته سنة التجديد.⁽²⁾ لا شك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلاً بورقة هي شهادة الميلاد ولا تنتهي رسمياً إلاً بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽³⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي

1- كمال أميمة، تجربة المساكن الجاهزة هل نحن في حاجة إليها؟، مجلة عالم البناء، العدد 05، مركز الدراسات التخطيطية والعمارية، مصر، 1980، ص: 12-14

2- عبد الباقي إبراهيم، إحياء القيم في تخطيط المدينة الإسلامية، مجلة عالم البناء، العدد 05، مركز الدراسات التخطيطية والعمارية، مصر، 1980، ص: 22

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27

حدّين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

- عدم نزاهة المسؤولين ونقص خبراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.
- التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمتطلبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.
- عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرق... إلخ، ما سيؤدّي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.
- البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللازمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.
- عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدّي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباه.⁽¹⁾

6-4 الإشكال السياسي:

في العالم العربي تأرجح الفكر الهندسي آنذاك بين النظرة المحلية والعالمية، فهناك من رأى ضرورة تأصيل العمارة والرجوع إلى التراث، وهناك فريق آخر انصاغ وراء النظرة الحديثة في البناء والتشييد قاطعاً بذلك الاتصال الحضاري بين الماضي والحاضر، وهو ما حدث بعد تلاشي الصبغة التاريخية للمدن، وتساقط المباني التاريخية الواحدة تلوى الأخرى ويوماً بعد يوم، محدثة بذلك انفصاماً في الشخصية المعمارية

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158

وتراجع الأصول الحضريّة أمام الازدهار والرخاء المادي، والاتجاه نحو الاستهلاك بدلاً من الإبداع والمحافظة على التراث المعماري، ومحاولة تنميته ليواكب المتطلبات الجديدة التي يحتاجها أفراد المجتمع، لقد أشار إلى جزء من مضمون هذا الواقع التلفزيون البريطاني في سنة 1986م، حيث ذكر المعماري عبد الباقي إبراهيم أنه تمّ تقديم حلقات إعلامية بعنوان العمارة في مفترق الطرق، عاجلت مختلف الاتجاهات المعمارية المعاصرة متنقلة بين طرزها وأساليبها التصميمية، وقد خُصّصت من بين تلك الحلقات واحدة حول العمارة الإسلامية، تمّ الإشارة فيها إلى مميزات، وإلى شيء آخر تمثل في تأثيرها العميق بالفكر الغربي الذي تسلّل إلى عقول المعماريين عبر عدّة قنوات، إمّا عن طريق الاحتكاك مع المعماريين الغربيين، أو زيارة بلدانهم والدراسة فيها، أو الاطلاع على مشاريعهم في المقالات وغيرها، وذكر أيضاً أنه بعد أن سجّل الحلقة الخاصة بالعمارة الإسلامية ليقوم بعرضها على زملائه المعماريين بمركز الدراسات التخطيطية والمعمارية لم يحضر إلاّ نفرٌ قليل، الأمر الذي يعكس الارتباط الشديد للمعماريين بما وصلت إليه الدول الأوروبية، ضنّاً منهم أنها بلغت سِدرة المنتهى في العمارة.⁽¹⁾

أشار أحد الدراسين إلى ما آلت إليه الثقافة المعمارية الخاصة بالدول الإسلامية مُعبراً عنها بمصطلح اللاتاريخية، أي غياب الفعل العقلي التاريخي الذي يتأسس بموجبه التواصل الحضاري لأمة من الأمم وهو الواقع الذي تعرضت له جملة من المدن العتيقة الزاخرة بتراث عربي إسلامي مادي⁽²⁾، التي من بينها مدينة تلمسان وندرومة وهنين، وبالرغم من تداول الدول على الاستقرار فيها، وتركها لعدّة منجزات في مختلف المجالات، اندثر منها البعض وبقي البعض الآخر شاهداً على مستوى رقيها وصورة ثقافتها في صراع دائم مع الزمن وسنّة التغيير والتجديد التي فرضها الإنسان المعاصر، بُغية تحسين إطاره المعيشي

1- عبد الباقي إبراهيم، العمارة أم المعماريون في مفترق الطرق، مجلة عالم البناء، العدد 81، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر 1987، ص: 05

2- هدى محروس توفيق، التشكيل المعماري والعمراني وهوية بعض مناطق مدينة القاهرة، ملتقى العمارة والعمران في إطار التنمية المستدامة، جامعة القاهرة، كلية الهندسة، القاهرة، 24-26 فيفري 2004، ص: 02

ومواكبة التطورات الحاصلة في المجتمعات التي تأثرت بها فكرياً تحت عامل العولمة، لما أرسته من مفاهيم للفكر المادي تتعد كل الابتعاد عن الجوانب الروحية والتراثية، لانبعائها من مدرسة البهاوس المتأسسة بشرق ألمانيا، وفيها تمّ إجراء الاجتماع العلمي لعمارة الحدّثة سنة 1928م بحضور المهندس لوكوربوزيه وقد أُشير فيه إلى أن الأخذ بالمبادئ المعمارية الموروثة عن الأسلاف رجوع إلى الوراء وتخلّف كبير، فتمّ منذ ذلك الحين الاتجاه إلى العمارة الصرّحية، وساهمت الأفكار التي طرحها المعماري الألماني ميس فاندره Mies Van Derroh الملخّصة في مقولته الشهيرة: "الأقل هو الأكثر"، أي الاعتماد على مباني صغيرة الحجم تتضمن عدد كبير عائلات، وهو ما أدّى إلى ميلاد ما يسمى العلب الكبريتية أو العمارات.⁽¹⁾

تنتشر بكل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين مجموعة من العمارات التي أنشئت سواء على يد الخواص أو من طرف الحكومة الجزائرية بنمط معماري غربي، وذلك في إطار تجسيد ما تقتضيه عملية التنمية الحضريّة من استحداث مشاريع تنموية تلي رغبات المواطنين المختلفة، كطرق المواصلات ومراكز لعلاج والبريد وأماكن العمل والتعلم والسكن ... إلخ.

لا تكمن المشكلة في إنجاز مثل هذه المشاريع، لكن المشكلة في كيفية وكذا مكان بنائها، فما تميز به كل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين، يفرض مراعاة الموضوع الخاص بالتراث ومكانته في الحاضر والمستقبل، إذ لا يمكن في أي من الأحوال تفضيل واحد على آخر، لكن الواقع المعاش دلّ على تفوق العولمة الثقافية على ما له علاقة بالمورث المعماري، فمثلاً أنجز بمدينة تلمسان عدد هائل من المباني بأسلوب معماري يربطها بمرجع غريب عنها، لا شيء حسب وجهة نظرنا إلا لأن المعماريين تبنا المنهج الذي فرضته العولمة، دون تمحيصه والوقوف على مدى ملائمته للماضي المعماري وهويته، الأمر الذي أحدث تنافر وتناقض واضح يدركه العام قبل الخاص.

ومن جملة المنشآت المتأثرة بالقيم الاجتماعية والثقافية لدول أخرى، المقرات الإدارية المنجزة مؤخراً بدائرة منصورّة على مقربة من المقر الأول لجامعة أبي بكر بلقايد، والمقر الجديد للجامعة هو في حدّ ذاته

1- هدى محروس توفيق، مرجع سابق، ص: 02

خلى إلى حدٍّ ما من التفاصيل المعمارية الأصيلة التي تميز بها الطابع العمراني للمدينة، المتضمن لتشكيل معماري خاص ذي دروب ملتوية ومستوى خط السماء موحد، وإضافة إلى ما تمّ ذكره هناك عدد من المباني القريبة من المعالم التاريخية التي تجسد الارتباط الوثيق مع الأشكال الحديثة.

لم يتوقف تأثير العولمة عند طريقة البناء، وتوجيهه إلى فكر جديد وبعيد عن الهوية العربية الإسلامية بل تعدّاه إلى تغيير المخطّط المعمول به في ترتيب الفضاءات الحضرية، فمثلاً انتشرت بمدينة ندرومة أحياء جديدة، وفق مخطط يتماشى مع ما تتطلبه السيارة والمواصلات وليس المقياس الإنساني، كما كان معمولاً به في تصميمات المدن العتيقة، فتغير نتيجة لذلك ملمحها العام وأصبحت المدينة النواة الأولى ملجأ لمعسوري الحال الذين لم يستطيعوا اقتناء مسكن بالأحياء التي تترجم بشكل مباشر المنعطف الذي انتهجته العمارة في مدينة تلمسان وندرومة وأيضاً مدينة هنين.

كل ما تقدّم ذكره حول التحول الناجم عن العولمة المعمارية وإرساء مفاهيم جديدة في مجال التخطيط والانشاء الهندسي، سنتعرض له بالتفصيل في الجزء الخاص بالتلوث البصري بأنواعه الذي نجم عن دخول نمط غريب على خصوصيات المنطقة.

خلاصة الفصل:

لقد خلصت معطيات هذا الفصل إلى أن قلة وتفاقم أعداد السكان لها تأثير في تنمية المجال الحضري، أو بالأحرى عملية التنمية الحضرية، لا طالما أن توابع الحضارة هي من المتطلبات الأساسية التي يسعى لتحقيقها الإنسان، أي أن هنا علاقة طردية بين مقدار حصول التنمية الحضرية وبين عدد السكان في المدينة، فمثلاً وجود تجمع بشري يستلزم بناء سكنات ومركز للاستشفاء وآخر خاص بالتعلم وغيرها من المقرات الإدارية التي تسير شؤونهم.

هذه العلاقة بدت واضحة في كل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين، فمدينة تلمسان التي كان عدد سكانها قبل الاستقلال حوالي 79166 نسمة وذلك في آخر إحصاء قام به المستعمر في سنة 1960 وصل إلى حدود 140158 نسمة سنة 2008، أي أنه تضاعف بحوالي مرتين، وقد رافق هذه الزيادة

تضاعف مساحتها بشكل ملفت للانتباه، ففي الوقت الذي لم تتجاوز فيه 15 هـا عندما احتلها المستعمر الفرنسي، ثم زادت مساحتها لتصل إلى أكثر من 53 هـا في الفترة الاستعمارية إذا ما حسبنا الأحياء السكنية المنجزة كالأفق الجميل والكرز، لتصل إلى 3300 هـا ما يعادل 33 كلم²، أي أنها تضاعفت بحوالي 220 مرة عن المرحلة الأولى التي تأسست قبل مجيء المستعمر.

وفيما يخص مدينة العتيقة بندرومة فقد عرفت الأخرى اكتضاضاً سكانياً فقد تضاعف عددها بشكل تدريجي منذ أن خضعت للمستعمر الفرنسي بفعل الهجرة الريفية لأصحاب القرى المجاورة وسياسة الاستيطان التي طبقها المستعمر في جميع المدن، الأمر الذي نجم عنه بروز كثافة سكانية عالية بلغت أعلى نسبة لها 5.94 ن/م² قبيل الاستقلال وبالتحديد سنة 1960، وعموماً يمكن القول أن نفس الأمر الذي حدث للمدينة العتيقة لتلمسان تكرر في ندرومة، إذ زادت مساحتها من 2.154 هكتار سنة 1867 حسب ما ذكره جراند جغيوم إلى حوالي 9 هكتار عقب انشاء المستعمر الفرنسي مجموعة من المساكن لاسكان المعمرين الذي أوفدهم إليها، لتصل حالياً إلى حوالي 230 هكتار ما يعادل 2.30 كلم²، أي أنها تضاعفت بحوالي 106 مرة عن المرحلة الأولى التي تأسست فيها.

أمّا العامل الإداري والعولمة الثقافية المعمارية، فكلاهما يعبران عن فكر إنساني نابع عن واقع معين خاص ببيئة معينة، فبالنسبة لدور الإدارة في مجال تنظيم المدن وتوجيهها بما يتوافق مع المؤهلات الاقتصادية والنمو الديمغرافي الحاصل فيها، فقد أصبحت من اللبّات الأساسية التي تكوّن الصرح العام لأي أمة من الأمم وفيما يخص آليات عملها في التنمية الحضرية، فقد عمد المشرع الجزائري على إعداد مجموعة من المخططات التعميرية التي من شأنها تنظيم المجال العمراني وتحقيق ما يحتاجه أفراد المجتمع وأمام هذه المخططات قامت الإدارة الوصية على حماية الموروث المادي إعداد مجموعة من المواد القانونية صاغتها في القانون 04/98 للحفاظ ووقاية الموروث المادي، لكن بقي هذا العمل مجرد حبر على ورق مقارنة مع الواقع الذي تعيشه المعالم التاريخية المواقع الأثرية في المنطقة.

وفيما يخص العولمة الثقافية المعمارية فهي لا تقل شأنًا عن العامل السابق لقيامها بتحويل الإنتاج العمراني من عملية ذات منهج إبداعي إلى عملية تحكمها ضوابط وأسس غريبة عن المجتمعات التي تحيا بداخلها لا لشيء إلا لأنها انبثقت عن ثقافة ليست لها رابط مع ما هو سائد في المجتمعات، وقد أدّى ذلك إلى وضع المباني التاريخية التي تعتبر المصدر الأساسي للهوية المعمارية في محيط تغيب فيه قيمه الفنية والتاريخية، وهو الواقع الذي تعيشه كل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين، إذ تتشكل فيها كتل معمارية عمودية غريبة عن البيئة المحلية وما احتضنته في الماضي وما لا يزال باقياً فيها، وذلك سواءً عند الخواص كالمساكن أو القطاع العام كالمنشآت الخاصة بما يحتاجه أفراد المجتمع، ولعلّ أهم ما ساعد في تجسد العولمة الثقافية هو تأثير المهندسين والعامة من الناس بالثقافة المعمارية الأجنبية الوافدة عبر قنوات الإتصال كالتلفزيون والإنترنت.

الباب الثالث

تأثيرات التنمية الحضرية على المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بمنطقة

تلمسان وطرق المعالجة.

الفصل الأول: مظاهر التلوث البصري في منطقة تلمسان.

الفصل الثاني: الضرر الفيزيوكيميائي والضرر الميكانيكي واعتداءات

التحطيم والتخريب.

الفصل الثالث: طرق المعالجة.

الفصل الأول

مظاهر التلوث البصري في مدينة تلمسان وندرومة وهنين.

- 1- ماهية التلوث البصري.
- 2- تأثيرات التلوث البصري من الاحتلال الفرنسي إلى الوقت الراهن على مدينة تلمسان.
 - 1-2 تأثيرات التلوث البصري على المدينة العتيقة.
 - 2-2 تأثيرات التلوث البصري على الموقع الأثري منصور.
- 3- تأثيرات التلوث البصري على مدينة ندرومة العتيقة من الفترة الاستعمارية إلى الوقت الراهن.
- 4- تأثيرات التلوث البصري من الاحتلال الفرنسي إلى الوقت الراهن في مدينة هنين.

تمهيد:

يعتبر التلوث بصفة عامة أحد الأوجه السلبية للسعي الغير العقلاني للإنسان وراء تحقيق المتطلبات المادية من دون مراعاة ما سينجم عنه، ويعدّ التلوث البصري أحد أبرز أنواع التلوث المنبثق عن العصرنة المفرطة، والتمدن الذي جسّدته الحكومات على أرض الواقع في الجانب المادي واللامادي تلبيةً لمتطلبات السكان بواسطة عملية التنمية الحضرية، وهو من الأخطار التي تشوه جمال وتاريخ الموروث المادي لأنه اعتداء مباشر على الأصالة التي لها صلة بالهوية والتفرد والتميز⁽¹⁾، والمتعارف عليه عند دارسي العمارة الإسلامية أن جانباً مهماً من القيمة الجمالية والتاريخية للموروث المادي يرتبط بالمحيط ويقف على مدى انسجامه فيه، وعلى الرغم من بقائها على مرأى للعيان، فإنها إذا ما وُجدت في وسط غريب فسيتلاشى جوهرها.

1- ماهية التلوث البصري: لاشك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلاّ بورقة هي شهادة الميلاد ولا تنتهي رسمياً إلاّ بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به أهداف السياسة العامة للبلاد⁽²⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدّين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

-عدم نزاهة المسؤولين ونقص خباراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.

-التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمتطلبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.

1- عفيف البهنسي، مرجع سابق، ص: 150

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27

-عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرقات... إلخ، ما سيؤدّي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.

-البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللازمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.

-عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدّي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباه.⁽¹⁾

4-6 الإشكال السياسي:

تميزت المدن محلّ الدراسة بتمائل تكوينها المعماري وطابعها المشترك، لاحتوائهم نسيجاً معمارياً متراصاً ينبض بالنشاط التجاري والعلمي عبر دروبها المتنوية، ومما لا شك فيه أن ذلك التخطيط المتحرر من قيود المعادلات الرياضية هو سر جمال المدن الإسلامية العتيقة⁽²⁾، هذه الميزة هي من تتعرض للصراع مع الحداثة التي يبدو أنها تفوقت عليها، وهناك من يرى أنه أيضاً صراع بين النوستالجيا⁽³⁾ والبراغماتية.⁽⁴⁾

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158

2- ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 67

3- النوستالجيا (La nostalgie): الكلمة الأولى لاتينية الأصل مركبة من جزأين: نوستوس "Nostos" أي العودة وألغوس "Algos" أي الألم، والكلمة ككل تحمل مدلول الألم العائد، وفي وقتنا الحالي تستعمل الكلمة للدلالة على الحنين والشوق المزوج بالكآبة والحزن، ينظر: رهييف فياض، العمارة في لبنان بين التراث والحداثة، مجلة المهندس، العدد 27 دوتس (Dots) بيروت، 2011، ص: 26

4- البراغماتية Pragmatisme: هي الأخرى لاتينية الأصل مركبة من جزأين براغما "Pragma" أي عمل وتوس "Tos" أي ماء، والكلمة ككل تعني عمل شيء ما وهي اليوم تدلّ على مبدأ المنفعة وتحقيق أكبر قدر منها، ينظر: رهييف فياض، مرجع سابق، ص: 26

ينحصر مفهوم التلوث البصري في كونه أحد النتائج المباشرة لاختفاء القيمة الجمالية لشيء ما، وهو حدوث نوع من الامتعاض للنفس البشرية نتيجة مشاهدتها بعض مظاهر القبح، ويتجسد هذا الأمر في النسيج العمراني العتيق بسبب المؤثرات الناتجة عن الإفراط في السعي وراء ماله علاقة بالعصرنة كبعث عمليات تنموية تمس الجانب العمراني للمدن من أجل مواكبة تحديات العصر، وهو ما ألغى الميزات التي قدّمها الموروث المادي، ففيما عدا الميزة الفنية توجد القيمة التاريخية التي نجمت عن كون المعلم التاريخي أو الموقع الأثري يرجع إلى فترة زمنية بعيدة عن الفترة التي نعيش فيها، وأنه يحمل بصمة خاصة بتلك الفترة، إضافة إلى ذلك القيمة العلمية بحكم ما تحمله من دلالات حضارية تمّ التوصل إلى تفعيلها باستعمال العقل والرجوع إلى الخبرات التي سبقتهم في ذلك المجال، سواءً كان مادياً أو معنوياً، ويتضمن الموروث المادي قيمة عملية تتمثل في الدور الوظيفي الذي تقدّمه في إطار دفع عجلة التنمية للمجتمع⁽¹⁾، فهي المادة الخام للصناعة السياحية التي تعتبر صناعة القرن الواحد والعشرين، فقد باتت من المواضيع التي حظيت بعناية كبيرة، لما تدره من دخل لا بأس به.⁽²⁾

1-1 مفهوم التلوث:

1-1-1 لغة: يرجع الاشتقاق اللغوي للتلوث إلى الفعل لَوَّثَ يَلَوِّثُ، أي لَطَّحَ يُلَطِّحُ الشيء، ويقال نبات لائث، أي إلْتَفَّ بعضه ببعض، واختلط مع بعضه البعض في نموه، ومنه الإلتياث أي الاختلاط والالتفاف حول شيء ما، وهو لاشك أن الإدارة جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان، حيث لا تبدأ حياته رسمياً إلا بورقة هي شهادة الميلاد ولا تنتهي رسمياً إلا بورقة أخرى هي شهادة الوفاة، وهي أسلوب من أساليب التنظيم المحلي لها إطارها القانوني الخاص بها يضبط توجهاتها ولها جانب مالي تنفذ به

1-Islam Benarbia, Op.cit, p:18-19

2-حميد عبد النبي الطائي، أصول الصناعة السياحية، ط2، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن، 2006، ص: 21-27

أهداف السياسة العامة للبلاد⁽¹⁾، وهي في الحقيقة سلاح ذي حدّين، فمن جهة يمكن من خلالها بعث عملية التنمية الحضرية بالمدن ومن جهة أخرى يمكن أن تكون بمثابة حجرة عثرة في طريقها وذلك للأسباب التالية:

- عدم نزاهة المسؤولين ونقص خبراتهم في تسيير الشؤون العامة للمجتمع.
- التخلف الإداري، ومعناه عجز الأجهزة الإدارية عن تحقيق الأهداف المطلوب منها، وعدم الاستجابة لمتطلبات المواطنين أو من يباشرون إنشاء مجموعة من المشاريع كالمقاولين والمستثمرين.
- عدم واقعية الأهداف التي تُحدّد عند إعلان المشاريع التنموية ضمن البرنامج المسطر لها سواءً كان ذلك على مستوى التخطيط أو أثناء القيام بالبناء وشق الطرق... إلخ، ما سيؤدّي في نهاية المطاف إلى استنزاف الموارد الطبيعية والطاقات البشرية.
- البطء الشديد في تنفيذ المشاريع التنموية وكذا الإجراءات اللاّزمة لتسيير الموارد البشرية والمالية.
- عدم تفعيل مبدأ المراقبة أثناء تجسيد المشاريع، ما سيؤدّي إلى حدوث عواقب وخيمة لا تحمد عقباها.⁽²⁾

4-6 الإشكال السياسي:

ما يدل أنّ معنى التلوث يفيد تغيير شيء ما، بعد أن يضاف إليه ما يضيفي عليه صورة جديدة.⁽³⁾

1-1-2 اصطلاحاً: التلوث هو قيام الإنسان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بإلحاق الأضرار بالبيئة

3- أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلّم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007، ص: 27

1- سعيد فكرون، مرجع سابق، ص: 158

3- الفيروزآبادي، مصدر سابق، ص: 1493

الطبيعية التي يعيش فيها، وهناك بعض الباحثين من عرّفوه أنه طارئٌ أُدخِل على التركيبة الطبيعية، أي الكيميائية والفيزيولوجية والبيولوجية للهواء والأرض والماء أدّى إلى تغير وتدنٍ وفساد في نوعية تلك العناصر، وقَدّم فريق من علماء الكيمياء في جامعة ستراسبورغ الفرنسية يترأسه البروفيسور روبير أنّ التلوث يعني وجود أشياء غريبة في غير مكانها وزمانها بنسب عالية تشكّل مصدر خطر للإنسان والحيوان والنبات كونه سببا مباشرا في إحداث خلل بالنظام البيئي، وهو يأخذ عدّة أشكال، فعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك التلوث الإشعاعي والتلوث البيولوجي والكيميائي، إضافة إلى التلوث البصري، وهي كلها ناجمة عن مصدر واحد وهو النشاط الإنساني على ظهر هذه البسيطة.⁽¹⁾

وحسب ما ذكره بعض الدارسين أن لفظ تلوث تمّ تداوله بعد ظهور الثورة الصناعية التي قلبت مسار المعيشة في الدول الأوروبية من الطابع الفلاحي إلى الاعتماد على الآلات الميكانيكية، والتوجه نحو التصنيع.⁽²⁾

1-2 مفهوم البصري:

1-2-1 لغة: البصر لغة من الفعل بَصَرَ يُبْصِرُ أي نَظَرَ يَنْظُرُ، ويقال أيضا بَصَّرَهُ تَبَصَّرَ أي عرّفه وأوضحه، مصدر التبصّر أي التأمل والتعرّف، وعليه كلمة البصري تعني المشاهد والمرئي بالتمحيص والتدقيق، أي أنه أعلى مرتبة من النظر لأنه يتضمن اشتراك العين والقلب معا⁽³⁾، قال عزّ وجل: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾⁽¹⁾، أي واضحة وبينة ترونها بعيونكم وتحسونها بقلوبكم.

1-2-2 اصطلاحا: البصر هو حركة العين وما يترتب عنها من انطباعات وصور تترسّب على شبكة العين لتنقلها الأعصاب إلى الجهة المسؤولة عن تمحيصها في الدماغ، حتى تضفي عليها دلالة تميّزها من حيث اللون والشكل والنمط والحجم ودرجة الوضوح، وحسب ما قدّمه أصحاب نظرية إدراك

1- عامر طواف، التلوث البيئي والعلاقات الدولية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 2008، ص: 18

2- المرجع نفسه، ص: 19

3- الفيروز آبادي، مصدر سابق، ص: 134-135

الأشكال فإنَّ إِبصار الأشياء يمر بثلاثة مراحل أساسية، في المرحلة الأولى تسقط الأشعة الضوئية من المصدر على سطح الأشكال لكي تكشف عن ملامحه التي تميّزه، أمّا المرحلة الثانية ففيها تستقبل العين الأشعة الضوئية التي تنعكس من سطح الشكل، والتي تتضمن الخصائص البصرية الخاصة به وفي المرحلة الثالثة يتم فيها تجميع المعلومات البصرية التي تتلقاها المستقبليات الضوئية في شبكة العين، وتحوّلها إلى نبضات عصبية يتم إرسالها إلى مراكز المعالجة العصبية بالقشرة المخية، حيث يتم تشفيرها ومعالجتها إدراكياً، من خلال ما تمّ ذكره يتبين بوضوح أن البصر أعمق من النظر والمشاهدة.⁽²⁾

1-3 مفهوم مصطلح التلوث البصري:

مما سبق ذكره عن مفهوم التلوث والبصري لغةً واصطلاحاً، يتّضح أن اجتماع المصطلحين له علاقة بما لا تستسيغه النفس البشرية من صورٍ، أمّا لعدم احتوائها على ما أَلِفَ الإنسان مشاهدته، أو لأنها تحمل دلالات تتناقض مع ثقافته، وتفسد القيمة الجمالية للمكان الذي وقع عليه البصر، ويُقصد به غياب التلاؤم والانسجام بين شيئين نتيجة تراكم عناصر جديدة على ذلك الشكل، وهو أحد أكبر مشكلات العصر الحديث التي تسبّب في حدوثها الإنسان، ويعد الموروث المعماري أحد أهم المجالات المتضررة التي تعاني من التلوث البصري، نتيجة افتقاد البيئة البصرية الخاصة به إلى القيم التي تميّزه بفعل ما تفرزه التنمية الحضرية من مباني وطرق، شكّلت مادةً متنافرة مع ما هو موجود بالمدينة من معالم تاريخية ومواقع أثرية والأحياء السكنية المتضمّنة لمساكن ودروب منجزة وفق نمط إسلامي خاص.⁽³⁾

1- سورة الإسراء، الآية 12

2- خديجة بن فليس، أنماط السيادة النصفية للمخ والإدراك والذاكرة البصريين، دراسة مقارنة بين تلاميذ ذوي صعوبات تعلّم (الكتابة والرياضيات) والعاديين، أطروحة دكتوراه، تخصص علم النفس التربوي، قسم علم النفس وعلوم التربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2015، ص: 100-104

3- عامر شاكر الكناني، خولة كريم كوثر، التلوث البصري وتأثيره في المشهد الحضري للمدينة العراقية، (الكاظمية شارعي باب القبلة وباب المراد)، المؤتمر العلمي الخامس حول استراتيجية التنمية والاستثمار المكاني في العراق، معهد التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا، جامعة بغداد، 23 و 24 أكتوبر 2009، ص: 01

وهناك من عرفه على أنه إلغاء كَلِّي للدور الذي تلعبه المؤتمرات البصرية والجمالية في المدينة عند تحرك السكان في شوارعها ومشاهدتهم لمبانيها وأشجارها⁽¹⁾، وعُرِّفَ أيضاً أنه تغير غير مرغوب فيه في أحد عناصر البيئة يؤدي إلى الإخلال بتوازنها، أو هو الإحساس بالنفور فور رؤية مناظر أو مظاهر غير جمالية في عناصر البيئة المعمارية من كتل بنائية أو فراغات أو طرق تتعارض مع كل من البيئة الطبيعية والمناخية أو القيم الدينية والخلقية أو الحضارية، بما فيها القيم الجمالية والمعمارية.⁽²⁾

من خلال هذه التعاريف، يمكن القول أن التلوث البصري هو مرادف للتشويه الجمالي وعدم الارتياح النفسي لرؤيته، وأنه المرض الذي يصيب كل ما له قيمة سواء معنوية أو مادية، وهو أحد المحصّلات الناتجة عن السعي وراء كل ما هو جديد، وتغير كل ماله علاقة بالثقافة الموروثة عن الأسلاف في مجالات الحياة.

1-4 أنواع التلوث البصري:

تنقسم أنواع التلوث البصري وفقاً للمكان الذي يتركز ومقدار المجال الذي يأخذه وعليه يوجد:

1-4-1 التلوث النقطي: وهو الذي يتمركز فيه التلوث في مساحة صغيرة جداً، كدهان جزء من واجهة مبنى دون باقي الواجهة، أو إضافة شيء ما إلى مبنى تاريخي في جزء من أجزائه، بطريقة تتعارض مع التركيبة المعمارية للمبنى ككل، لانتمائه إلى فترة زمنية قديمة تختلف طريقة فيها عن الوقت الحالي.

1-4-2 التلوث الخطّي: سمي كذلك لأن مسبباته أشبه بالخطوط التي يتم رسمها في لوحة ما، ومن الأمثلة التي لها علاقة بهذا النوع أعمدة الإنارة بأشكالها المجردة من كل لمسة فنية، أو التي أصابها الصداً

1- علي شعبان عبد الحميد، هاني خليل الفران، أهمية الخصائص والعناصر البصرية والجمالية في المدينة، دراسة تحليلية لوسط مدينة نابلس، مجلة العمران والتقنيات الحضرية، العدد 04، الجزائر، 2008، ص: 10

2- أحمد جميل شامية، دراسة تحليلية للتلوث البصري في مدينة غزة، منطقة الجندي المجهول حالة دراسة، رسالة ماجستير، تخصص هندسة معمارية، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، الجامعة الإسلامية غزة، فلسطين، 2013، ص: 29

والمكسرة وغير المنتظمة، وأيضاً الأسلاك الكهربائية والتليفونية الممتدة بين الأعمدة مروراً بالواجهات السكنية حاجبة بذلك النظر عنها، ومضيغة صورة مشوّهة للملح للمدينة ككل.

1-4-3 تلوث المستوى: يقف وراء حدوث هذا النوع من التلوث المباني المرتفعة التي تمّ تشييدها بمحاذاة مبانٍ أقل ارتفاعاً، ما تسبّب في تغيير خط السماء، إذ يظهر تنافر واضح بينها يحدّش الذوق الأصيل للمدن العتيقة.

1-4-4 التلوث الكتلي: وهو الذي يحدث جرّاء تجاور مجموعة من المباني في الحي الواحد تتنافر في الطراز والانتظام أي التراصّف، فترى مبنى يتقدّم آخر نحو الأمام أو يوجد مقابل مسار شارع، وأيضاً الاختلاف في مواد البناء، إذ كثيراً ما توجد مساكن بُنيت في فترة ما بمواد خاصة بها، فيُبنى أمامها مسكن أو مقر إداري بمواد بناء جديدة تُحدث تنافراً في التكوين العام لذلك الحي أو المدينة، ناهيك عن وجود مباني مهجورة تظهر عليها مظاهر الإهمال كنمو النباتات بجدرانها، أو فوق سقفونها أو وضع القمامة أمامها الأمر الذي ينجم عنه مظهر مشوّه للكتلة المعمارية لذلك المكان.⁽¹⁾

قد تكون هذه الأنواع الخاصة بالتلوث البصري ناتجة إمّا عن سكان الحي الواحد، أي سبب داخلي أو عن عوامل خارجية كاستحداث جملة من التعديلات التي تقوم بإنشائها جهة خارجية من الدولة.⁽²⁾

2- تأثيرات التلوث البصري من الاحتلال الفرنسي إلى الوقت الرّاهن على مدينة تلمسان:

تعتبر كلٌّ من مدينة تلمسان وندرومة وهنين من أبرز مدن منطقة تلمسان احتواءً على بصمة الأسلاف في مجال العمارة، بحكم ما يوجد فيها من مآثر معمارية مختلفة الطابع، وتصميم عمراي ظلّ إلى حدٍّ ما محتفظاً بقدرٍ قليل من أصالته، وقد تجسّد فيها ذلك عندما استوطنها الأسلاف قديماً، وذلك لتمييزها بمميزات طبيعية أهلّتها لأن تكون نقاطاً مغرية للسكن ومزاولة نشاطاتهم اليومية.

1- أحمد جميل شامية، مرجع سابق، ص: 29

2- المرجع نفسه، ص: 30

إرتأينا أن نأخذ عينتين من مدينة تلمسان للحديث عن مظاهر التلوث البصري إلى مكانين، الأول يخص المدينة العتيقة التي أعلنت قطاعاً محفوظاً، والثاني الموقع الأثري منصور، وذلك لكونهما الأكثر احتكاكاً مع التصميم العمراني الناجم عن التنمية الحضرية.

1-2 تأثيرات التلوث البصري على المدينة العتيقة:

تضمّنت مدينة تلمسان العتيقة نسيجاً عمرانياً يحمل دلالات ثقافية واجتماعية واقتصادية عن شخصية المجتمع الذي سكنه آنذاك، وهي الآن تعكس اليوم صورة ثانية تتمثل في البيئة المعمارية الجديدة التي ورثتها عن المستعمر، والتي تمّ إنشاؤها غداة الاستقلال إلى يومنا هذا في إطار تجسيد مشاريع التنمية الحضرية الموجهة للمصلحة العامة لسكان المدينة، وذلك تلبيةً لحاجياتهم التي نجمت عن سنة التغير المفروضة في أرض الواقع، نتيجة الطموح اللامتناهي للإنسان في توفير إطار معيشي أكثر رفاهية وراحة وأمن، الأمر الذي نجم عنه صراع بين النواتين العمرانيتين، أي بين القديم والحديث وبين الأصالة والمعاصرة، وهو ما جعل النسيج المعماري العتيق بمدينة تلمسان يتعرض لضغوط حضرية تمثلت في التلوث البصري الذي يعتري جميع مبانيه نتيجة اختفاء القيم التي تميّزه، والمتمثلة أساساً في القيمة التاريخية والفنية والعلمية والعملية، حيث يكمن دورها في تشكيلها للمشهد الحسي لمدينة تلمسان العتيقة، باعتبارها أحد مظاهر الشكل العمراني، وحصيلة تخطيطها وعلاقات أفرادها مع بعضهم البعض⁽¹⁾، وبالرغم من ذلك لا زالت تتضمن نسيج معماري متراس ومتلاصق فيما بينه على شاكلة المدن الإسلامية العتيقة، تتخلله دروب متعرجة وملتوية، وتوزّع به المساجد والمسكن والأفران والفنادق ويتوسطه المسجد الجامع، متضمناً بذلك الوظائف الأساسية المتمثلة في الوظيفة الدينية والسياسية والتجارية والسكنية، وعن أهم أحيائها فهي: حي بني زير وحي باب علي وحي المدرس وحي الرحبية وقد حدّدت مساحتها الإجمالية على إثر إعلانها قطاعاً محمياً بموجب المرسوم التنفيذي رقم 403/09

1- كامل الكناني، تخطيط المدينة العربية الإسلامية، الخصوصية والحداثة، مجلة المخطط والتنمية، العدد 15، المعهد العالي

للتخطيط الحضري والإقليمي، جامعة بغداد، 2006، ص: 04

بـ51 هكتار، محدودة من جهة بشارع غازي أول محمد وجنوباً شارع حمصالي سايح، أما شرقاً فيحدها شارع قوار حسين وغرباً ممر الصنوبر.⁽¹⁾

يبدو من خلال هذه التحديدات أنّ الجهات القائمة على المدينة العتيقة، قد دججت المجال الخاص بالمباني المنجزة من طرف المستعر الفرنسي أثناء وجوده بالمدينة، فممر الصنوبر الواقع غرب المدينة والمسمى اليوم بشارع العزوني رمضان يأتي وراء التوسّع الذي استحدثه المستعمر بالقرب من المدينة العتيقة.

يمكن تقسيم أبعاد أو مظاهر التلوث البصري بمدينة تلمسان إلى قسمين، الأول خارجي والثاني داخلي فالمتعمّن في مورفولوجية المدينة يلاحظ تلك الاختلالات والخروقات في تصميم المدينة من حيث اصطفا المباني وعلوها ومواد بنائها ومظهرها الخارجي ومسار دروبها، نفس الشيء بالنسبة للتصميم الداخلي للمساكن، فقد خضعت هي الأخرى لتعديلات كزيادة غرفة أو تسقيف وسط الدار، أو إعادة طلائها بمواد جديدة... إلخ، كل ذلك ناجم عن علاقة غير مباشرة تتمثل في تغيير الفكر المعماري لدى المهندسين والمخططين القائمين على تجسيد عملية التنمية الحضرية التي أصبحت في الآونة الأخيرة من أهم عوامل اندثار التراث المادي الثابت وإتلاف المواقع الأثرية، باعتبارها انعكاس مباشر لما يهتم المجتمع الحالي من مسكن وعمل ونقل وصحة وتمدرس... إلخ، أي أنّها طريقة مغايرة للعيش سواءً فيما تعلق بالجانب المادي الملموس أو المعنوي، وكأنّها ترجمة مباشرة لمفهوم جديد مناقض لما كان معمولاً به في الماضي، وكأنّ البنية الحضرية التي بناها الأسلاف، إمّا أنّها لا تَف بالعرض، أو أنّها نسيج معماري عشوائي يخلو من أية دلالة ثقافية واجتماعية وعشوائي، لكنه حسب رأينا ليس في الحقيقة إلاّ انقياد وراء النزعة الذاتية لأفراد المجتمع على اختلاف مستوياتهم في التغيير ومواكبة تطورات العصر، وقد انحصرت مظاهر التلوث البصري في المدينة العتيقة بتلمسان في مايلي:

1- الجريدة الرسمية، المرسوم التنفيذي رقم 403/09، مرجع سابق، ص: 6-7

2-1-1 تأثيرات التلوث البصري في الفترة الاستعمارية:

جاء التلوث البصري في مجمله إبان هذه المرحلة كتلياً، وذلك لما شهدته المدينة من امتداد عمراني شوّه مورفولوجية المدينة العتيقة، أي الشكل الخارجي المميّز للمدينة الذي يتحدّد وفقاً لكيفية استخدام الأراضي وترتيبها بطريقة معينة، أو بعبارة أوضح هي كيان فيزيائي ذي هيئة معينة⁽¹⁾، وليس هذا فحسب بل شهدت بروز مباني جديدة عصرية، إمّا داخل نسيجها أو بالقرب منها.

بدأت بوادر الازدواجية الحضرية في جميع المدن التي طالها الميد الاستعماري كمدينة الجزائر، حيث تظهر فيها المدينة العتيقة المتمثلة في القصبة والمدينة الجديدة التي أسّس نواتها الأولى المستعمر الفرنسي⁽²⁾، وفي مدينة تلمسان ظهرت مع الاحتلال الفرنسي في 31 جانفي 1842⁽³⁾، فقد ذكر أندريه لوكوك André Lecocq أنه عندما دخلت الفرق العسكرية إلى مدينة تلمسان وجدتها حينذاك في حالة من الخراب⁽⁴⁾، وهو ما أشار إليه القس برجس l'abbé Barges عند وصوله إليها، لكن هذا الأخير ذكر أن حالة البؤس والخراب نجمت عما قام به جنود المستعمر، وأضاف أن تصميمها العمراني كان مختلف عمّا رآه بالمدن الفرنسية، فقد تميز بالدروب الضيقة والمساكن الملبّسة بالطين وفضلات الأبقار وغير ذلك⁽⁵⁾، وذكر أندريه لوكوك أن اللجنة الاحصائية قامت في سنة 1847 بحساب المساحة الإجمالية التي تتربع عليها المدينة، وقد قدّرت بـ 42,83 هكتار، من بينها حوالي 19,83 هكتار مساحة مبنية والباقي عبارة عن بساتين وحقول، وذكر أيضاً أن المساحة ازدادت كثيراً

1-أصداء عبد الحميد التحافي وآخرون، التكوين الشكلي للخانات في العمارة الإسلامية، دراسة تحليلية، مجلة الرافدين للهندسة

المجلد 17، العدد 04، بغداد، 2009، ص: 81

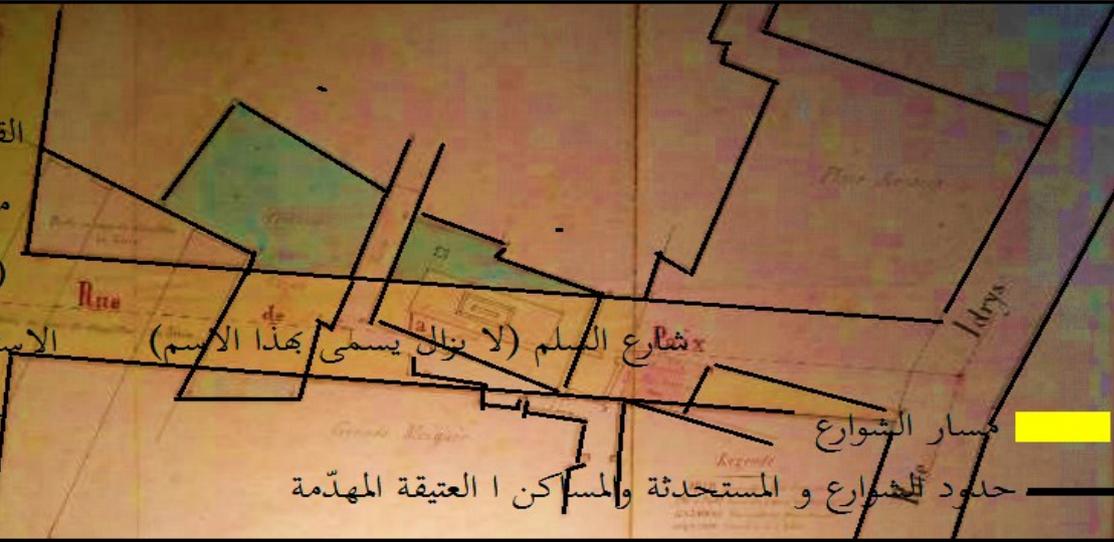
2-قارني جاكلين بوجو، مرجع سابق، ص: 96

3-شارل هنري تشرشل، مرجع سابق، ص: 191

4-L'Abbé Bargés, Op.cit, p:86

5-André Lecocq, Op.cit, p:231

بعد ذلك لتصل إلى حدود 76 هكتار⁽¹⁾، وهو ما يبرز تكون نواة جديدة، لقد كان ذلك بمثابة إعلان عن تشويه المجال الحضري للمدينة العتيقة، خاصة أن هذه التوسعات جُسدت بنمط معماري غربي، أخذ يزداد انتشاراً بعدما أحكمت فرنسا قبضتها الرخامية على الجزائر، وقامت بجلب أعداد كبيرة من الفرنسيين وأفواج أخرى من الدول الأوروبية.⁽²⁾



من أهم مظاهر التلوث البصري بمدينة تلمسان التوسع العمراني الذي قامت الإدارة الاسـتعـمارية بإنجازه، والذي أخفى

الميزة العمرانية للمدينة العتيقة، خاصة أنها أرفقت ذلك التوسع بعملية تهديم المباني سواء كانت مساكن أو أضرحة، مثلما قامت به أثناء فصلها لقصر المشور عن المساكن الملتصقة به، حينما أقدمت على تحطيم ضريح مع عدد كبير من المساكن التي قدر عددها بحوالي 200 مسكن⁽³⁾، إضافة إلى ذلك قامت الإدارة الفرنسية، بتحطيم واحدة من أبرز مدارس المغرب الإسلامي المسماة بالمدرسة التاشفينية لفتح ساحة مركزية على شاكلة الساحات التي اعتمدها المدن الرومانية واليونانية كعنصر أساسي في تخطيط

1-André Lecocq,Op.cit,p:23

2-نادية فجال، مرجع سابق، ص:132

3-L'Abbé Bargés,Op.cit,p:359-387

مدنها⁽¹⁾، وهناك خاصية أخرى تميّزت بها المدن الغربية وهي الشوارع المتعامدة والمستقيمة أو كما تسمى الكاردو *Cardo* والديكيومانوس *Decumanus*.⁽²⁾

من بين الشوارع التي شقّت على هذا النحو شارع فرنسا المسمى (شارع الاستقلال حالياً)، وشارع السّلم (لا يزال يسمى بذلك الاسم)، شارع لارموسيار (شارع أول نوفمبر حالياً)، وشارع باريس (شارع الدكتور دمرجي حالياً)، وشارع هايدو (شارع معركة فلاوسن حالياً)، وغيرها من الشوارع الأخرى. لقد شوّهت هذه الشوارع المتعامدة المسار العمراني العتيق لمدينة تلمسان الموروث عن الأسلاف لمدينة. ومن بين الرسوم التخطيطية التي تبرز التشويه المورفولوجي الحضري فيما يتعلق بتخطيط الدروب وتوجيهها وتنظيم المساكن ما يلي:

الرسم التخطيطي رقم 05: يبين التلوث البصري الناجم عن شق شارع السّلم والقديس ميشال (شارع

الاستقلال حالياً) عن: **Abdelkader Tahar, Op.cit, p:233**

تجدد الإشارة إلى تسمية شارع القديس ميشال أطلقت في أول الأمر على شارع فرنسا الذي أصبح يسمّى بشارع الاستقلال حالياً، يمر هذا الأخير كما سلفت الإشارة إلى ذلك بالجهة الغربية للجامع الكبير ملاصقاً له، أما شارع السّلم فيمر هو الآخر ملاصقاً للجامع الكبير لكن بالجهة الشمالية، يظهر من خلال الرسم التخطيطي أن حدود الشارعين المتعامدين مع بعضهما البعض تأخذ جزءاً من المباني التي كانت موجودة والتي من ضمنها جزء خاص بالجامع الكبير ومسكن، يفصلهما حسب التنظيم العمراني درب ضيق، وقد تمّ إضفاء ميزات هندسية خاصة بالفكر الغربي، ففي تقاطع الشوارع تمّ تبليط الأرضية، وقد جسّد ذلك في تقاطع شارع أوجان إتيان *Etienne Eugène* (شارع الرائد جبار حالياً) الذي يمتد مساره من الغرب نحو الشرق ملاصقاً للجامع الكبير من الجهة الجنوبية، أي أنه من المحاور الأفقية الموازية للشارع الوطني (شارع العقيد لظفي حالياً)، يتقاطع مع شارع المدارس *Les*

4-Abdelkader Taher, Op.cit, p:215

5-قارني حاكّين بوجو، مرجع سابق، ص: 106

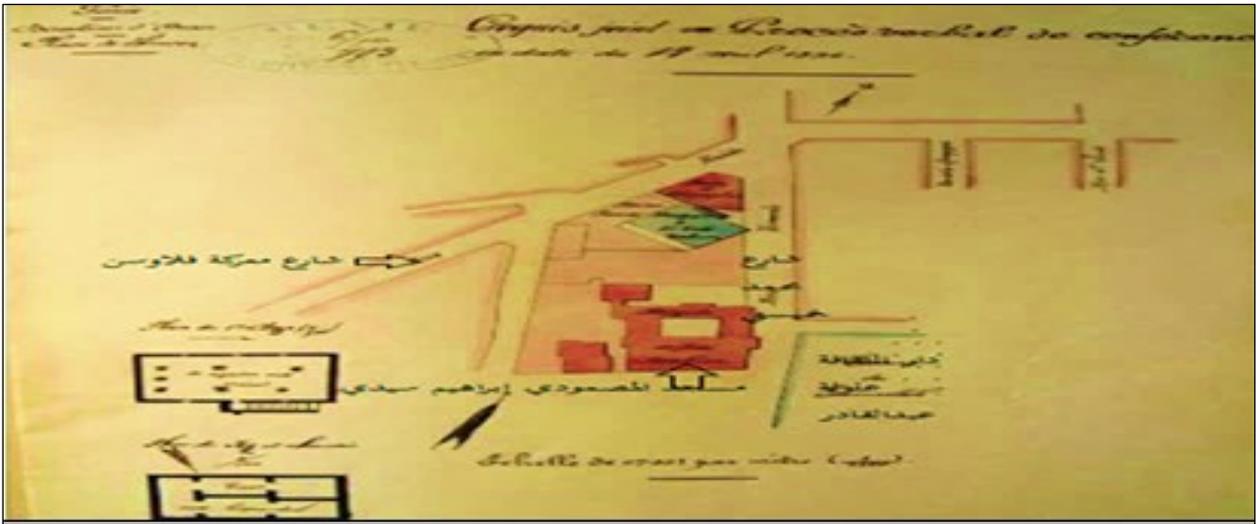
écoles (شارع بلحاجي بوسيف حالياً) وشارع فرنسا(شارع الإستقلال حالياً) العموديان، نقطة الالتقاء أعطى لها المهندس الفرنسي ميزة خاصة دخيلة على التصميم العمراني العتيق، وهي البلاط، أنظر الرسم التخطيطي:

الرسم التخطيطي رقم 06: يوضح نقطة تقاطع شارع أوجان إتيان وشارع فرنسا والمدارس جنوب الجامع

الكبير، عن: مديرية الأشغال العمومية، علبه رقم 370، ملف دون رقم، الورقة 18.

ونجم أيضاً عن شقّ شارع كسيميناس وهايبدو الإخلال بمورفولوجية المدينة من الجهة الغربية، أنظر

الرسم التخطيطي الموالي:



الرسم التخطيطي رقم 07: يبين التلوث البصري الناجم عن شق كسيميناس وشارع هايبدو، عن:

.Abdelkader Tahar, Op.cit,p:228

وحسب التاريخ الموجود في الرسم التخطيطي، يتبين أن إنجازهما كان في سنة 1896م، وتمّ شقهما بالحي السكني الخاص بالكراغلة كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقاً، وقد نجم عن هذا المشروع تحطيم عدد لا بأس به من المساكن، إضافة إلى تحطيم نافورة المياه ومراحم مسجد سيدي إبراهيم المصمودي



التي كانت موجودة

بالجهة الشرقية منه المقابلة للمشور.⁽¹⁾

يتضح جلياً من خلال المخططات المعدة من طرف المصلحة الهندسية الاستعمارية آنذاك، تكوّن التلوث البصري الذي ساد بالمدينة العتيقة، جزاء إعلان المستعمر حركة معمارية دؤوبة في نسيجها المعماري، فارضاً من خلالها تنظيماً حضرياً نسخاً طبق الأصل عن المدن الفرنسية التي تعود جذورها الحضرية إلى المدن الرومانية، ولعل ما أسهم في التوجه لذلك كون باريس أصبحت مركز ثقل بالنسبة للعمارة الأوروبية، وهو ما جعلها تفرض شخصيتها في المستعمرات التابعة لها⁽²⁾، والحقيقة التي تمّ الوقوف عليها في التغير الذي استحدثت بمدينة تلمسان من طرف المستعمر، ومحاولته الحثيثة للتجديد في المدينة هو تكسير للهوية المعمارية الإسلامية ككل، وهذا الأمر لا يقل ضرراً كما أشار إلى ذلك ثروت عكاشة عن ضرر الحروب والفتن بالنسبة للبشر، لأن القيم الجمالية في العمارة الإسلامية هي غيرها في العمارة الأوروبية⁽³⁾، فتعرج دروب المدينة الإسلامية قدّم للمار فيها ميزة نفسية مريحة من خلال توفيره للظل والهواء الرطب، بالمقابل لا يوفر الشارع المستقيم هذه الميزة، كما أنّ ضيقها عوضه المعماري المسلم بالفناء الذي يتوسط جميع المساكن لالتقاء العائلة ومزاولة بعض النشاطات... إلخ حفاظاً على حرمة المسلم، ويتضح أمر آخر من خلال هذا التنظيم ينحصر في التشكيك الذي أثاره بعض مؤرخي الغرب حول التصميم المعماري للمدن الإسلامية سواءً بالمشرق أو المغرب لا سند له من الواقع، بل من الواضح أنّ ثمة إدراك كامل بقواعد الهندسة والقيم الجمالية.⁽⁴⁾

1- André Lecocq, Op.cit, p:236

2- ندى الحلاق، مرجع سابق، ص: 249

3- ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 52-55

4- ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 65-67

وبالموازاة مع شق مسار الشوارع بأحياء المدينة، قام المستعمر الفرنسي ببناء عدد من المساكن وأحياء سكنية خارج أسوار المدينة بشوارع متعامدة، ومساكن تختلف كل الاختلاف عن مساكن المدينة العتيقة فقد كُلت واجهاتها بالنوافذ المفتوحة على الشارع، وأرفقوها بعنصر معماري جديد يتمثل في الشرفة تستند على عنصر معماري له شكل زاوية قائمة مجسدة بذلك مبدأ التوجّه نحو الخارج، وكأن هدف العمارة الغربية هو إبراز القوة والرّقي والفخامة المعمارية، خاصة أن الوجود الفرنسي في تلمسان تزامن مع ظهور حركة الفن الجديدة التي انطلقت في سنة 1880م، وتميّزت أيضا بارتفاعها وبسقفها الجملوني المصنوع من مادة القرميد.⁽¹⁾

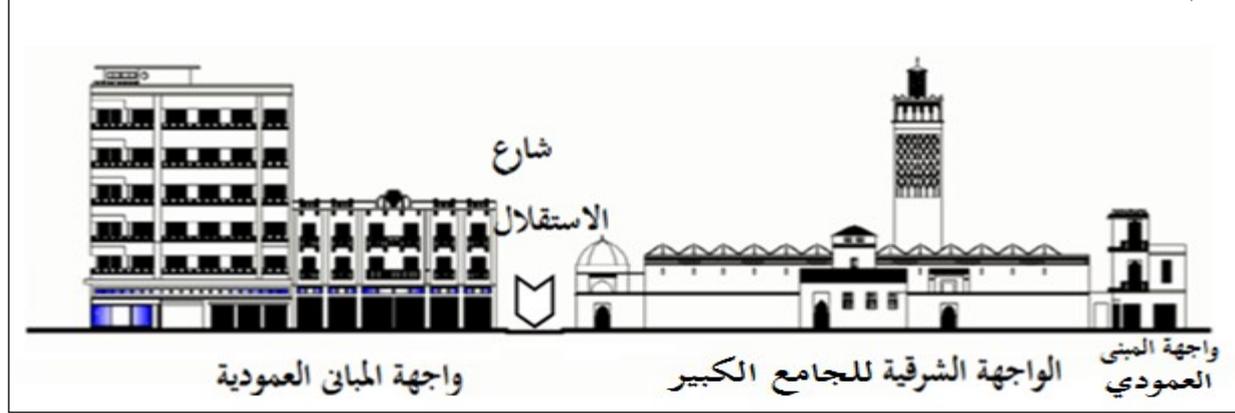
رافق التلوث البصري المستحدث بالشوارع الشطرنجية، تغير في المظهر الخارجي للشكل العام للمدينة فقد كانت تتميز بشكل دائري ملتف حول الجامع الكبير وفق حدود معينة هي اليوم جزء من القطاع المحفوظ، وقد بدأ ذلك منذ السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي، وهو ما يظهر جليا من خلال المخططات العمرانية التي تشير إلى تكوّن نواة معمارية تتجاوز جنبا إلى جنب مع النواة الأولى، وتختلف معها في كل شيء سواء المظهر الخارجي أو الداخلي كتصميم المساكن... إلخ.

من بين المخططات المنجزة في تلك الفترة ما يرجع إلى سنة 1842م، يتضح جيدا من خلاله بروز الحدود الخاصة بالنسيج العمراني العتيق من دون تغير في مورفولوجيته الأصلية، أنظر المخطط رقم (06)، لكن بعد ثلاثة سنوات أي سنة 1845م، بدأت المورفولوجية الحضرية للمدينة العتيقة بالجهة الشمالية للمشور تعرف بعض التعديل الجوهري الذي استحدثته الإدارة الاستعمارية، عند قيامها بفتح الشوارع باتجاه ساحة القوافل التجارية، التي كان يمكن من خلالها الوصول إلى الباب الشمالي، وبالتالي فكّ العزلة عن المقر العسكري والإداري المشور، فيما عدا ذلك بقي النسيج المعماري على حالته

1- ندى الحلاق، مرجع سابق، ص: 253

الأصلية، أنظر المخطط رقم (07)، ومع قرب نهاية القرن 19م تكوّنت نواة حضرية فرنسية أثرت بالسلب على الملمح الذي كانت تختص به المدينة العتيقة، وهو ما يظهر من خلال مخطط مدينة تلمسان في نهاية القرن 19م، أنظر المخطط رقم (08).

لم يتوقف النمو العمراني المستحدث من طرف المستعمر عند هذا الحدّ، بل تجاوزه إلى ما وراء الأسوار



التي كانت تحدد الحيز الذي يلف تلمسان، حيث تكوّنت أحياء سكنية بالجهة الجنوبية الغربية من المدينة تمثلت في حي الهواء الجميل والأفق الجميل والكرز، وأصبحت مع ما تمّ إنجازه بالجهة الشمالية مكاناً يستقطب اهتمام العديد من المعمرين الأوربيين، وهو ما أدّى إلى اتساع الرقعة الحضرية الغربية.

ناهيك عن تغيير المورفولوجية الدائرية الشكل بفعل الامتداد العمراني ذي الطابع الغربي، تغيرت أيضاً بعض التفاصيل التي لها علاقة مباشرة بماهية العمران الإسلامي، فمثلاً ميزة ارتفاع المساكن والارتقاء في البناء التي لم تكن مطلقة، بل مشروطة بعدم الإضرار بالجوار، وفق الفقه العمراني الإسلامي⁽¹⁾، لقد



1- محمد عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص: 296-297

تلاشت هذه الخاصية كلياً بعدما قامت الإدارة الاستعمارية بتجسيد أمودجها المعماري، إذ تختلف ارتفاع المباني المتجاورة فيما بينها الأمر الذي أخفى القيمة الفنية للنسيج المعماري العتيق، المتمثلة في ذلك الانسجام والتوافق في المظهر والارتفاع الذي كانت تنفرد به مئذنة الجامع الكبير لوحدها فقط، كتعبير عن سمو ورفعة الدين الحنيف، وانقياد أفراد المدينة وراء تعاليمه في جميع مجالات الحياة.

يسمى هذا النوع من التلوث البصري بتغيير خط السماء، أي المسار الأفقي الذي ترسمه سقوف المباني الموجودة في مكان معين⁽¹⁾، ويوجد هذا الأخير في المدن العتيقة التي تعرف ازدواج المواضيع العمرانية مثل مدينة تلمسان، كما استعمل المستعمر مادة أخرى أحدثت طفرة في عالم البناء والتجديد الحضري، تمثلت في مادة الإسمنت، لقد كان لاستعمالها مع الخرسانة المسلحة دور في تعديل جميع المبادئ الهندسية التي كانت سائدة من قبل، نظراً لخصائصها التي تمكّنها من تجاوز بعض التقاليد المعمارية، فقد أمكن بواسطتها مثلاً البناء إلى ارتفاعات شاهقة، مثلما تجسد عن يمين ويسار الجامع الكبير، ونوضح اللائحانسان الناجم عنها في الرسم التخطيطي الموالي:

الرسم التخطيطي رقم (08): يبين التنافر في المظهر الخارجي بين الجامع الكبير والمباني المصطفة معه جهة

اليمن واليسار، عن: Benguella Sonia Wassila, Op.cit, p134

نفس الشيء بالنسبة للجهة المقابلة للجامع الكبير التي يوجد بها مقر البلدية التي تشغل اليوم متحف الفن والتاريخ، وبجواره عدد من المباني العمودية الشكل، وتدخلها شوارع عريضة ومستقيمة، ونوضح ذلك في الرسم التخطيطي الآتي:



علي سليم صقر، دراسة بصرية لمحيط دمشق القديمة (لتحقيق الاستمرارية البصرية وانعكاس الداخل على المحيط)، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، العدد 03، المجلد 36، الأذقية، 2014، ص: 271

الرسم التخطيطي رقم(09): يبين التنافر في المظهر الخارجي من حيث الشكل والارتفاع بين الجامع

الكبير والمباني المقابلة له جهة الشرق، عن: Benguella Sonia Wassila, Op.cit, p:135

مسجد سيدي بلحسن الموجود غرب الجامع الكبير على بعد حوالي 100م هو الآخر تعرّض للتلوث البصري، بفعل المباني التي تحيط به من جهة الشمال والغرب والجنوب، نتيجة ارتفاعها واختلافها في تصميمها وموادّ بنائها عنه، يوجد خلفه مباشرة مبنى خاص بالمركز الثقافي الفرنسي، ويقابله من جهة الجنوب مطعم ومحلات تجارية، وهو ما يتضح في الرسم التخطيطي أسفله:

الرسم التخطيطي رقم(10): يبين التلوث الناتج عن التنافر في المظهر الخارجي من حيث الشكل والارتفاع

بين مسجد سيدي بلحسن والمباني المحيطة به جهة الغرب والجنوب، عن:

Benguella sonia Wassila, Op.cit, p:13

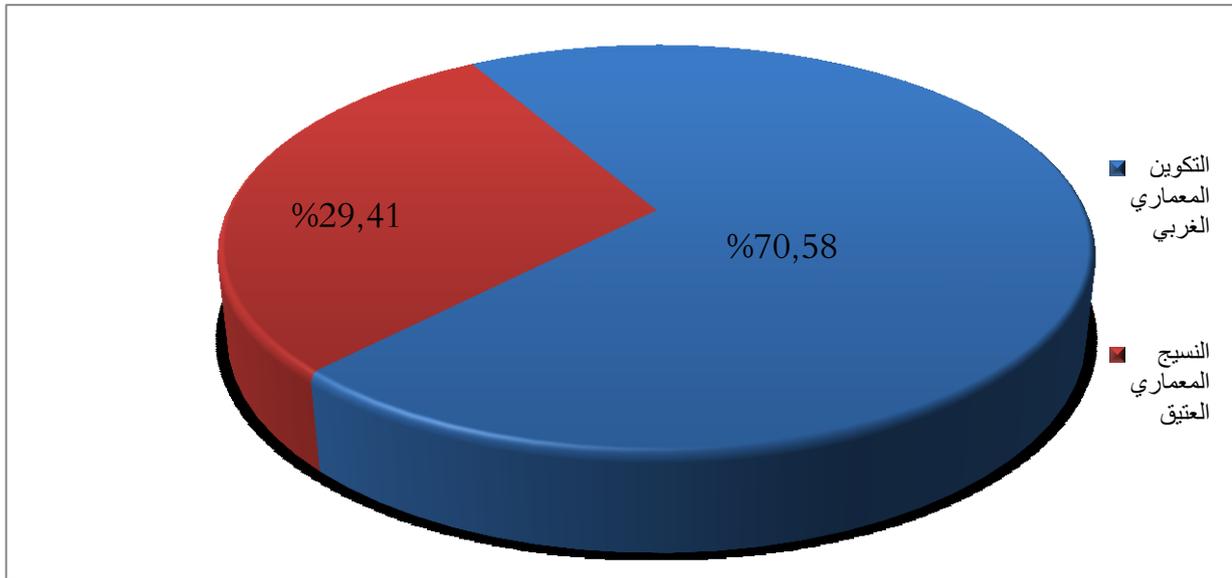
وبعد الرجوع إلى موقع *Google Earth* للوقوف على المساحة الخاصة بالنواتين الحضريتين وذلك بالمجال الذي حدّده المشرع الجزائري كقطاع محفوظ بمساحة قدرها 51 هكتار⁽¹⁾، يتضح لنا أن ما يقارب 36 هكتار من المساحة الإجمالية للقطاع المحفوظ هي خاصة بالتصميم العمراني الفرنسي، فيما تبقت 15 هكتار فقط خاصة بالنسيج المعماري العتيق الذي خلفه الأسلاف، ونوضح نسب كلاً من المجالين العمرانيين في الدائرة النسبية التالية:

الدائرة النسبية رقم(07): تبين النسبة المئوية الخاصة بالنسيج المعماري العتيق والتكوين المعماري

المستحدث من قبل المستعمر.

1- المرسوم التنفيذي رقم 09/403، مرجع سابق، ص: 06

يتضح من خلال ما تقدّم ذكره، أن التلوث البصري استفحل بالمدينة العتيقة بفعل ما استحدثت من طرف فرنسا من مبانٍ ذات طراز معماري غربي لتكوين نواة حضرية على النحو الذي كان مجسّداً بمدنه في فرنسا، وقد عمل من أجل ذلك على تحطيم العمائر التي كانت تقف في طريق مشاريعه التنموية، مثلما قام به في ساحة الجزائر (محمد خميسي حالياً)، إذ حطّم المدرسة التاشفينية التي كانت حسب المختصين في الفن المعماري الإسلامي مثل إيدموند دوتوا الذي أشاد بجمالها المعماري⁽¹⁾، ولم تكن الوحيدة التي حُطّمت، بل طال التهديم عدد من المساكن التي وجدت في المسار المخصص للشوارع المستحدثة، ما يعني أنها أعلنت حرباً ضدّ كل ماله علاقة بالهوية العربية الإسلامية، نتيجة لذلك لم يتبق من النسيج المعماري العتيق إلاّ شريط من المباني والدروب المتعرجة على طول الجهة الشرقية، بدءاً من حي باب زير شمالاً إلى غاية حي الرحبية جنوباً، بمساحة قدرها حوالي 15 هكتار، أي ما يعادل نسبة 29,41% من مساحة القطاع المحفوظ، وكأنّ المستعمر كان يحاول إخراج المباني وكل ماله علاقة بالتراث المعماري الإسلامي من المدينة، ربما عدلت عن فعل ذلك بعدما قرّر التوسع بالجهة الغربية والجنوبية، نتيجة لهذِهِ السياساتُ ظهرت الازدواجية الح



ضرية التي أنتجت صورة مرئية غير متناسقة ومختلفة من حيث الانتماء الحضاري والهندسة، الأمر الذي

1-Nabila Oulebsir, Op.cit, p: 16

أحدث حالة من الفوضى التصميمية في المدينة، انبعث عنها تلوث بصري أحلَّ بالقيمة الفنية والتاريخية للموروث المادي الذي حمل في طياته ميزات خاصة بالمجتمع الذي صنعه.

ما بدأه المستعمر الفرنسي تواصل تجسيده بمدينة تلمسان وجميع المدن، فقد اهتمت الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال ببناء كيانها السياسي والاقتصادي والمعماري، حيث نهجت فيه نفس المنهج المتبع عند فرنسا من حيث مواد البناء والشكل العام للمبنى الذي يعرف باسم البناء العمودي، لأن المرحلة الأولى من الاستقلال تطلبت السرعة في الإنجاز، وفي أثناء هذه المرحلة أصبحت استعمالات بعض مواد البناء أساسية كالجير الذي أصبح مادة تستعمل في تلبيس الجدران الداخلية، بالموازاة مع ذلك استخدمت الهياكل الإنشائية المصنعة وتركيبها للحصول على مباني جاهز للاستعمال ربحاً للوقت.⁽¹⁾

الملاحظ أن الدولة الجزائرية انقادت وراء النظام العمراني والمعماري الغربي الذي دخل إليها عبر الاستعمار الفرنسي، وكأنه تجسيد لما ذكره عبد الرحمن بن خلدون حول تأثر المغلوب بالغالب في شعار وزيه ونخلته وسائر أحواله وعوائده، وذلك راجع حسب رأيه لكمال الغالب أي الممتلك للقوة والحضارة وقد ضرب مثالا لذلك عن تأثر الأندلس بأمم الجلالقة⁽²⁾، حيث تشبَّهت بها في ملابسهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم.⁽³⁾

نتيجة للحركة المعمارية الواسعة التي شهدتها مدينة تلمسان لكونها المركز الإداري للولاية، زادت مساحتها عما كانت عليه في الفترة الاستعمارية، حيث أشار إلى ذلك أندريه لوكوك أنّ مساحة النسيج المعماري العتيق قُدّرت بـ 19,83 هكتار في السنة التي احتلت فيها فرنسا المدينة، أي سنة 1842

1-Abdellatif Megnounif,Fouad Ghomari,Latifa Sail,**Historicité du matériaux béton dans la ville de Tlemcen**,In (R) Nature et Technologie,n°05,Université Hassiba Benbouali,Chlef,2011,p:39

2-الملاحقة:بلاد كانت تقع شمال غرب الأندلس وكان لسان سكانها يختلف عن سكان الافرنجة والصقالبة، يُنظر: بن حوقل، مصدر سابق،ص:13

3-عبد الرحمن بن خلدون،المقدمة،مصدر سابق،ص:184

وذكر أنها ازدادت لتصل إلى حدود 76 هكتار مع نهاية القرن 19م⁽¹⁾، بعد هذه الفترة عاشت مدينة تلمسان المزيد من التحولات في نسيجها المعماري، وهي اليوم تتربع على مساحة إجمالية قدرها 4000 هكتار أي 40,11 كلم²⁽²⁾، أي أن مساحة مدينة تلمسان العتيقة تضاعفت إلى ما يقارب 21 مرة وهو ما جعل النسيج العمراني أشبه بنقطة ماء في بحر، نظراً لكبر الرقعة الجغرافية، أنظر الصورة رقم (06)، كل ذلك يبين بوضوح درجة التلوث البصري المورفولوجي الذي يعيشه النسيج المعماري العتيق في الوقت الراهن، أنظر الصورة رقم (07).

لم تتكون الازدواجية الحضرية في مدينة تلمسان، ضربة واحدة، إنما مرت بمراحل بدءاً من دخول المستعمر الفرنسي إليها، ولم تتوقف هذه الازدواجية، بل تواصلت بعد خروجه منها، وهو ما زاد في اتساع الهوة بين النواة القديمة والنواة الجديدة، وانفصام شخصية المدينة ككل، وتغير المورفولوجية الحضرية التي صمّمها الأسلاف قديماً بفكر هندسي خاص إلى منهج الحداثة الغربي الذي يعتمد على المقياس الرياضي، القائم على مبادئ التناسب والتناظر والتقابل في المجال العمراني، الأمر الذي وضع مدينة تلمسان العتيقة في حالة من التكريب⁽³⁾، لعدم تلائمها وخضوعها للمفاهيم الهندسية الجديدة.

2-1-2 تأثيرات التلوث البصري من الاستقلال (1962م) إلى نهاية التسعينيات:

بدأت بوادر التغير تظهر على المدينة العتيقة بنفس الصورة التي عرفتها في الفترة الاستعمارية بعد إعلان تلمسان ولاية غداة الاستقلال، وقد تكوّنت حينها من 05 دوائر تنطوي عنها 30 بلدية، وكان لدائرة تلمسان 08 بلديات، ونتيجة لهذه الأهمية الإدارية احتضنت عدداً كبيراً من المرافق الضرورية ووجب حينذاك ربطها بشبكة طريقية بين هذه المرافق من جهة، وبين الدوائر الأخرى المحيطة بها من جهة أخرى تجسيدا لما تقتضيه عملية التنمية الحضرية التي تمّت مباشرة، وقد تنوّعت مجالاتها، فمثلاً تمّ

1- André Lecocq, Op.cit, p:231

2- بلدية تلمسان، 2013

3- بوجمة خلف الله، المدينة الجزائرية والبحث عن الهوية، بريد العلم، العدد 04، جامعة بسكرة، 2003، ص: 95

في السبعينات إنشاء وحدة صناعة النسيج والأقمشة، وكذلك وحدة صناعة الأجهزة الإلكترونية، وتمّ بالموازاة مع ذلك إنشاء عدد من المؤسسات التربوية والمعاهد والمرافق الصحية⁽¹⁾، ومن جانب آخر تمّ بموجب القرار الوزاري المؤرخ في 15 فيفري 1970، تزويد جميع أحياء المدينة ومساكنها بالإنارة بواسطة الأسلاك الكهربائية التي أضفت صورة مشوّهة للمعالم التاريخية الموجودة بوسط المدينة.

وصل عدد المباني بمدينة تلمسان سنة 1966 حوالي 15 334 مبنى منها 10 257 مبنى أنجز قبل سنة 1945 و5077 مبنى أنجز بعد سنة 1945، كما هو موضح في الدائرة النسبية التالية:

الدائرة النسبية رقم (08): تبين النسبة المئوية الخاصة بالمباني المنجزة إلى غاية سنة 1966.

يتضح جلياً أن الفترة الزمنية الأولى أي قبل سنة 1945 كانت أكبر نسبة في الجانب المعماري من المرحلة الثانية الممتدة من سنة 1945 إلى سنة 1966 تاريخ أول إحصاء قامت به الدولة الجزائرية بعد استقلالها، إذ لم تتعد نسبة المباني 33,10%، لكن إذا أمعنا النظر جيّداً في عدد سنوات المرحلة الأخيرة وجدنا أنها أقل من سابقتها، وهو ما يؤكد أنها شهدت حركة معمارية دؤوبة بحكم العدد الذي تمّ تسجيله في هذه المرحلة التي لم تتجاوز 21 سنة، مقابل المرحلة الأولى التي تشير إلى فترة زمنية طويلة ربما تعود جذورها إلى بداية تأسيس النواة الحضرية لمدينة تلمسان.

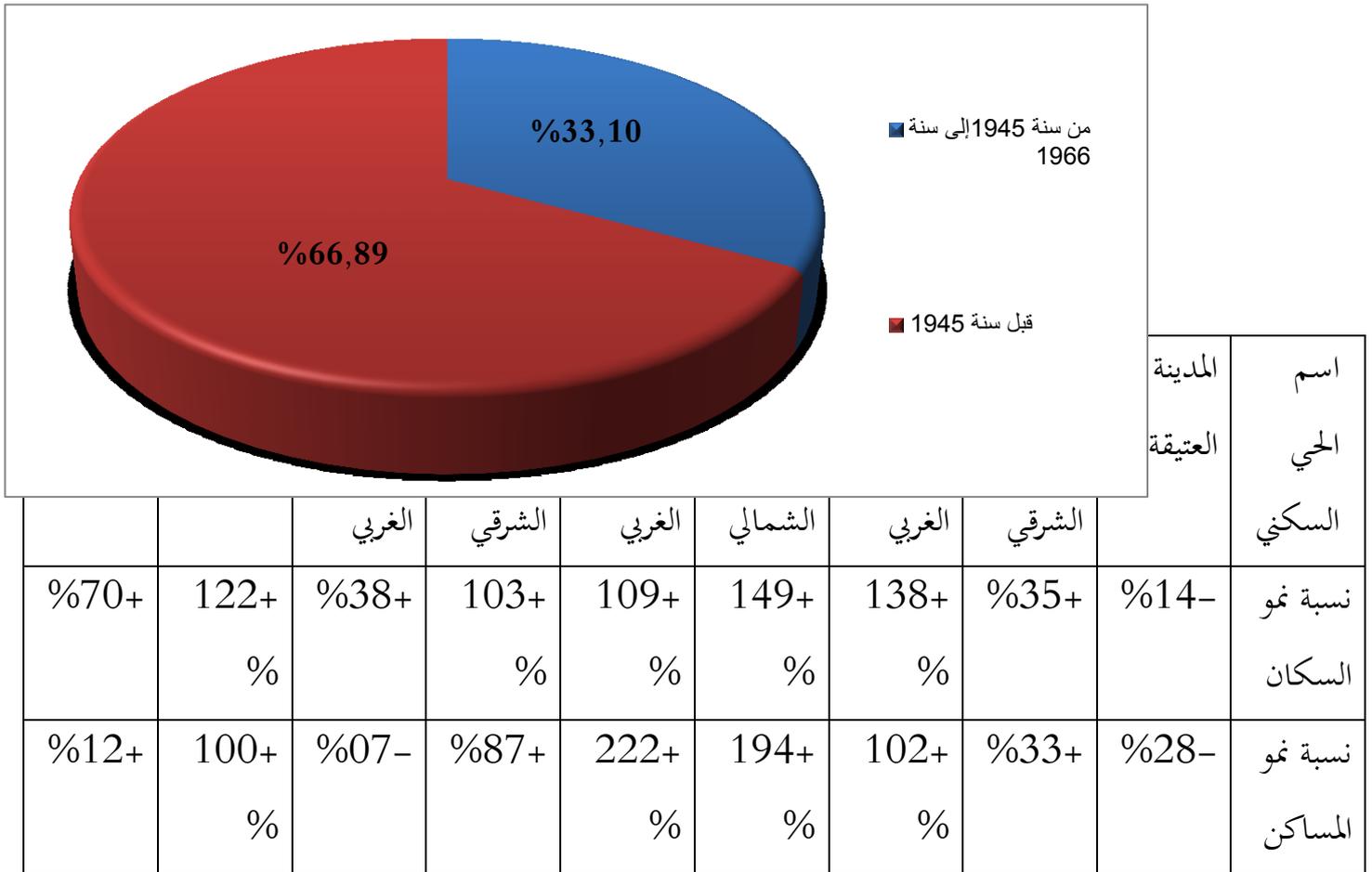
لكن يلاحظ أن هذا العدد ارتفع في الإحصاء الثاني الذي قامت به الدولة الجزائرية في سنة 1977م إذ بلغ عدد المباني حوالي 16 700 مبنى، أي بزيادة قدرها 1366 مبنى أي بنسبة 8,90%⁽²⁾، وهو الأمر الذي أدّى إلى حدوث ضغوطات على النسيج المعماري التاريخي لوقوعه بمركز المدينة الذي يشهد حركة تجارية واسعة النطاق، ووفرة الكثير من المرافق الضرورية للحياة، ونتيجة لذلك أصبح قبله جميع السكان الذين بلغ تعدادهم في المدينة العتيقة 22 685 نسمة في إحصاء سنة 1977⁽³⁾، مقابل

1-APC de Tlemcen,pud.....,Op.cit,p34-39

1-APC de Tlemcen,Pud.....,Op.cit,p:87

2-L'Agence National d'Aménagement du Territoire,Pos....,Op.cit,p:47

18 045 نسمة في إحصاء سنة 1966، أدى هذا الوضع إلى بروز مسار جديد في حركة السكان فقد اتجهت نحو الأحياء التي تركها المستعمر الفرنسي أو التي تكوّنت كحي بودغن القصديري الذي وصل عدد ساكنيه إلى 12 623 نسمة في سنة 1977م⁽¹⁾، وفي الجدول التالي يتّضح جليا تحوّل نمو السكان إلى الأحياء المجاورة للمدينة العتيقة ونسبة نمو السكان بها:



الجدول رقم (15): يمثل نسبة نمو السكان والمساكن ببعض الأحياء التي رافقت ظهور تنمية حضرية في

المدينة سنة 1977م، عن: APC de Tlemcen, Pud...., Op.cit, p:89

يتضح من هذا الجدول أهم الأحياء التي حظيت بنموّ سكاني ومعماري، وقد كان أبرزها عين النجار الشمالي والجنوبي المتواجد بالجهة الغربية على مقربة من المنصورة، ثمّ يأتي بعده حي باب وهران الغربي ثمّ حي بودغن الشرقي، وهي في غالبيتها أحياء جديدة برزت بعد الاستقلال، ويلاحظ من خلال الجدول أيضاً أن عملية البناء والتعمير تساوت إلى حدّ ما مع نسبة السكان الموجودة، وهو ما يؤكّد الدور البارز للعامل الاجتماعي في تغيير المورفولوجية العامة للمدن، كما حدث بمدينة تلمسان، والحقيقة التي وقفنا عليها في هذا الموضوع أن علاقة التنمية الحضرية بالعامل الاجتماعي هي علاقة متبادلة فأحيانا هي من تزيد من تفاقم أعداد أفراد المجتمع وهي من تجلبهم للعيش بالمراكز الحضرية التي تحظى بوجود أهم المرافق التي يحتاجونها، وأحيانا أخرى يؤدي العامل الاجتماعي إلى بعث التنمية الحضرية عن طريق استجابة الدولة لمتطلبات أفراد المجتمع.

يُستنتج أيضاً من الجدول أن النسيج المعماري العتيق بدأ في هذه المرحلة يسجّل تراجعاً في عدد السكان، لعدم استجابته لشروط الحياة الأساسية في فترة الثمانينات والتسعينات، بالمقابل زادت وتيرة التنمية الحضرية بالمدينة وبرزت أحياء سكنية أخرى تحمل تصميمات عمرايا غربياً، وتوسعت حدود المدينة في عدة اتجاهات ليصل في هذه الفترة ناحية الشمال الغربي بحي الكيفان الجديد الذي شهد تشييد بعض المرافق الضرورية، كما أنشئت به مشاريع سكنية عبارة عن عمارات⁽¹⁾، مثلما حدث بحي الكيفان وإمامة وبوهناق، وهو ما زاد في تغريب المدينة العتيقة عن ماضيها وأصولها، أنظر المخطط رقم (09) و(10)، لم تنتشر هذه التوسعات في جهة واحدة في الثمانينات، بل تشعبت وأصبحت الجهة الشمالية من مدينة تلمسان مقصد العديد من السكان، ففي الوقت الذي كان يلقّب ساكني حي سيدي الحلوي قديماً بالحوزي، أي سكان النواحي أصبحوا في فترة الثمانينات من سكان الحضر.⁽²⁾

1- بوجعة خلف الله، مرجع سابق، ص: 100

2-L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:26

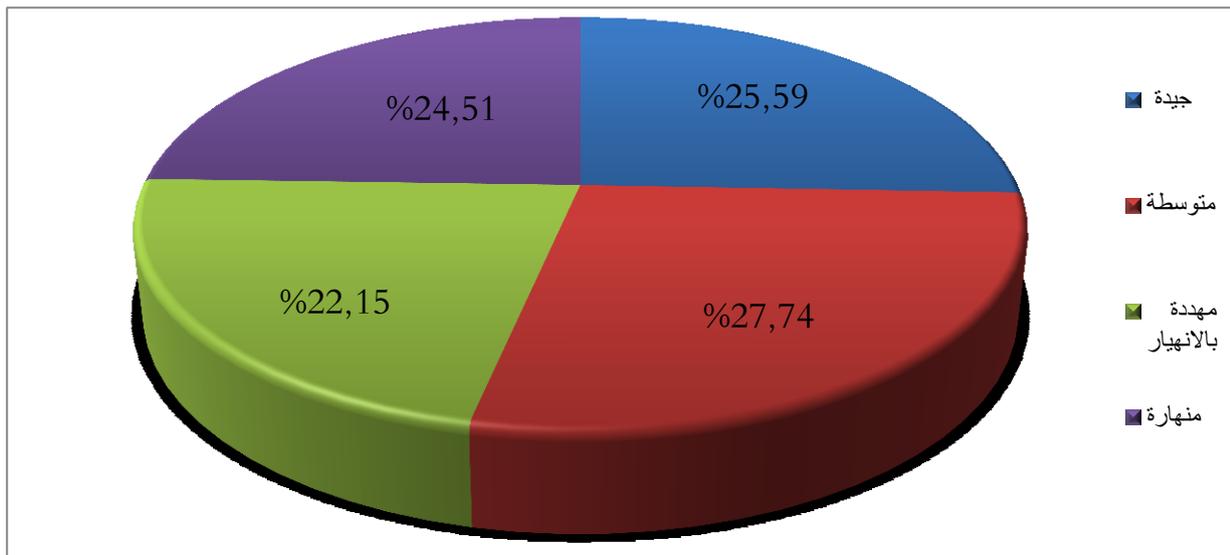
حسب ما جاء في التحقيق الميداني المنجز سنة 1991م، حول عينة من المباني لمدينة تلمسان العتيقة والذي تمّت الإشارة إليه في مخطط الأراضي المنجز سنة 1998م أن نسيجها المعماري كان يعيش حالة متدهورة تعُمّها الفوضى، وغالبية المساكن إمّا منهارّة أو مهددة بالانهيار، وقنوات صرف صحي مهترئة أما عن كثافة المباني فقد قدرت بـ 50 مبنى/هكتار، وتمّ إجراء تحقيق ميداني حول 465 مبنى للوقوف على حالتها العامة كعينة من المساحة العامة للنسيج المعماري المقدر بحوالي 15 هكتار، بهدف تحضير مخطّط يهدف إلى تحقيق ثلاثة نقاط أساسية تتمثل في الترميم والتهيئة والتجديد، وقد تبين بعد استكمال التحقيق ما هو موضح في الجدول والدائرة النسبية:

جيدة	متوسطة	مهددة بالانهيار	منهارّة
119 مبنى	129 مبنى	103 مبنى	114 مبنى

الجدول رقم(16): يوضح عدد المباني الموجودة بالنسيج المعماري وفقاً للحالة الجيدة والمهددة بالانهيار والمتوسطة والجيدة في سنة 1991م، عن:

L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:391

ونوضح الأعداد المذكورة في الجدول في الدائرة النسبية التالية:



الدائرة النسبية رقم (09): تبين النسبة المئوية الخاصة بحالات المباني المكونة للنسيج العمراني لمدينة

تلمسان العتيقة.

تعكس هذه المعطيات حالة المباني بالنسيج المعماري العتيق وفق العينة المختارة للدراسة التي بلغ عددها الإجمالي 465 مبنى بمختلف الأحياء السكنية بالمدينة العتيقة، وقد تبين أن مجموع المباني غير الصالحة للسكن، أي المنهارة أو المهتدة بالانهيار، تقدر نسبتها مجتمعة بـ 46,66% حوالي النصف تقريبا ما يعادل 217 مبنى، وهو ما يدل على أن النسيج المعماري كان يعيش آنذاك حالة متدهورة، إذا ما استثنينا باقي المباني التي تميّزت بنوع من المتانة والصلابة أهلّتها لأن تقدم دور السكن. هذه الوضعية لم تأتي صدفة، بل عن أسباب تكمن أساساً في الحجر الذي طال المباني، فإذا ما قارنا هذه الوضعية بالجانب الديمغرافي الذي أعلن عنه في الإحصاءات السكانية، لوجدنا فعلاً أنّ النسيج المعماري عرف هجراً من طرف السكان، وهو ما جعله عرضة للإهمال، ومن ثمّ السقوط والتلاشي كلياً، لقد وصل عدد سكان النسيج المعماري العتيق في إحصاء سنة 1987م ما يعادل 17 305 نسمة ليسجل تراجعاً بعد ذلك في إحصاء سنة 1998 بحوالي 1000 نسمة⁽¹⁾، لقد تكوّن هذا الفراغ من التنمية الحضرية التي تجسدت مظاهرها بمدينة تلمسان عبر ما تمّ تشييده من مساكن حديثة وأحياء عصرية بالجهة الشمالية والجنوبية.

لم يتغير الوضع عمّا كان عليه في فترة التسعينات، فمع نهايتها برزت تأثيرات على النسيج المعماري نتيجة لسببين متباينين، الأول يتمثل في الكثافة السكانية المرتفعة التي أحدثت ضغوطاً لا بأس بها كحي باب زير ودرب القران والرحيبة اللذين تراوحت كثافتهم ما بين 60 و80 نسمة، والثاني يتمثل في الحجر والفراغ الذي يعتري بعض الأماكن التي لم تزد كثافتها عن 100 نسمة كدرب سيدي حامد وخلدون اللذين أفرغا من وظيفة السكن وأصبحا مخصصين للتجارة⁽²⁾، ومن ضمن مظاهر التلوث البصري ما

1-L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:47

1-L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:49

تعرّض له النسيج المعماري تدهور المباني ورداءة جدرانها وبيوتها، وهو ما جعلها مهدّدة بالانهيار في أي لحظة، إن لم تدركها الأيدي الماهرة في الترميم لإنقاذها، خاصة أنها قديمة العهد ومواد بنائها هشة وتصميمها لا يتوافق مع المتطلبات العصرية للسكان، إضافة إلى ذلك أصبحت قنوات الصرف الصحي التي ترجع إلى فترات قديمة غير قادرة على تأدية وظيفتها نتيجةً للضغط المرتفع الذي تعرّضت له، وقد نجم عن ذلك تعرّض النسيج المعماري لرطوبة مرتفعة أتلفت مواد بناء المساكن وزادت من تدهورها، وكوّنت صورة يعترها التلوث البصري، حيث اختفت قيمتها الفنية والتاريخية التي يفترض أن تكون موجودة فيها، لكونها موروثاً مادياً خلفه الأسلاف قديماً وفق نمط معين، وقد تبين من خلال التدخلات التي قامت بها السلطات المحلية من أجل إصلاحها أن شبكة القنوات التي كانت تسمى قديماً بالسلوكية⁽¹⁾، انقسمت في مدينة تلمسان إلى ثلاثة أقسام أساسية مبنية بالآجر وحجارة مصقولة مختلفة الأحجام، حتى تمنع حدوث أي تسرب للمياه القذرة إلى المياه الجوفية التي كانت تشكل مصدر مياه الآبار الموجودة بالمساكن، بالنسبة للقسم الأول فيسمى بالشبكة الأرضية وهي عبارة عن قناة صغيرة الحجم تصل المساكن بالدروب، أين ترتبط هناك بالقسم الثاني المتمثل في قنوات فرعية شكلها دائري، وهي كبيرة نسبياً مقارنة بالشبكة الرئيسية التي تعتبر نقطة تجمع للشبكات الأرضية المنتشرة عبر الأحياء السكنية، وغالباً ما توجد في مكان منحدر حتى تتمكن من تأدية دورها على أكمل وجه، فذلك الانحدار كان يسهل جريان المياه داخل القناة إلى خارج المدينة، أمّا حجم قطرها فكان أكبر

2- السلوكية: ظهرت هذه التقنية في صرف المياه عند الفرس، ثم انتقلت إلى الأندلس أين تمّ اعتمادها على نطاق واسع في مدنها وما لبثت أن دخلت إلى المغرب الإسلامي في الفترة المرابطية على يد يوسف بن تاشفين، أنظر:

M.Bensliman,A.Hamimed,A.Seddini, **Contribution de l'hydraulique médiéval dans la dynamique urbaine du Maghreb, cas de la médina de Tlemcen en Algérie**, In (R)Lorhyss journal, N° 13, Biskra, 2013, p:82

من القناتين السالفتين الذكر، فقد كان بطول قامة إنسان بالغ، وقد وُجدت واحدة منها بالجهة الشمالية للمشور تتجه نحو واد مشكانة.⁽¹⁾

ونشير فقط أنّ الضرر الناجم عن تدهور شبكة الصرف الصحي، لم ينحصر فقط في تكوين صورة مشوهة للمباني عبر ما استحدثته من رطوبة بأساسها، بل تعدّى ذلك ليؤثر على قاطني الأحياء السكنية المتضررة كدرب سيدي اليدون ودرب مسوفة وشارع قوار حسين القريب من حي باب زير، حيث أثبتت التحاليل الكيميائية الخاصة بالجراثيم وجود بكتيريا خطيرة تسمى بالكليفورم Coliforme وستربتوكوك Streptocoque بكميات كبيرة في المياه الخاصة بالشرب في مختلف أحياء المدينة، وقد تبين أن السبب الذي وقف وراء ذلك هو تلف قنوات الصرف الصحي التي كما أشرنا سالفاً تعرضت إمّا للضغط العالي الناجم عن ازدياد الكثافة السكانية أو الهجر التام، وعدم خضوعها لأعمال الصيانة الدورية، شأنها في ذلك شأن المساكن التي لم تخضع غالبيتها لعمليات الصيانة من قبل ساكنيها، فقد اكتفوا باستغلالها دون الاهتمام بهيكلها وتصميمها العام، وذلك لكونها في نظرهم قشرة خالية من أي وظيفة عصرية، وهو ما يفسر اتخاذها نقطة عبور إن صح التعبير، ومكان غير دائم ريثما يتحصلون على سكن أفضل من طرف الدولة.

1-L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:92

تبين هذا الأمر من خلال التحقيق الميداني المحرر من طرف الوكالة الوطنية لتهيئة الإقليم (ANAT) لسنة 1998م، فقد تمّ تحديد ما يقارب 1000 عائلة مستأجرة من بين 1977 عائلة موجودة بالنسيج المعماري العتيق لمدينة تلمسان أي ما يعادل نسبة 50,58% من العدد الإجمالي، وهو ما يبرز أن نصف السكان مستأجرين⁽²⁾، اختيارهم لهذا المكان نابع عن كونه مركز المدينة، وعلى مقربة من المرافق التي يحتاجونها كالمؤسسات التعليمية والصحية، وباقي المراكز الخدمائية الأخرى كالسوق

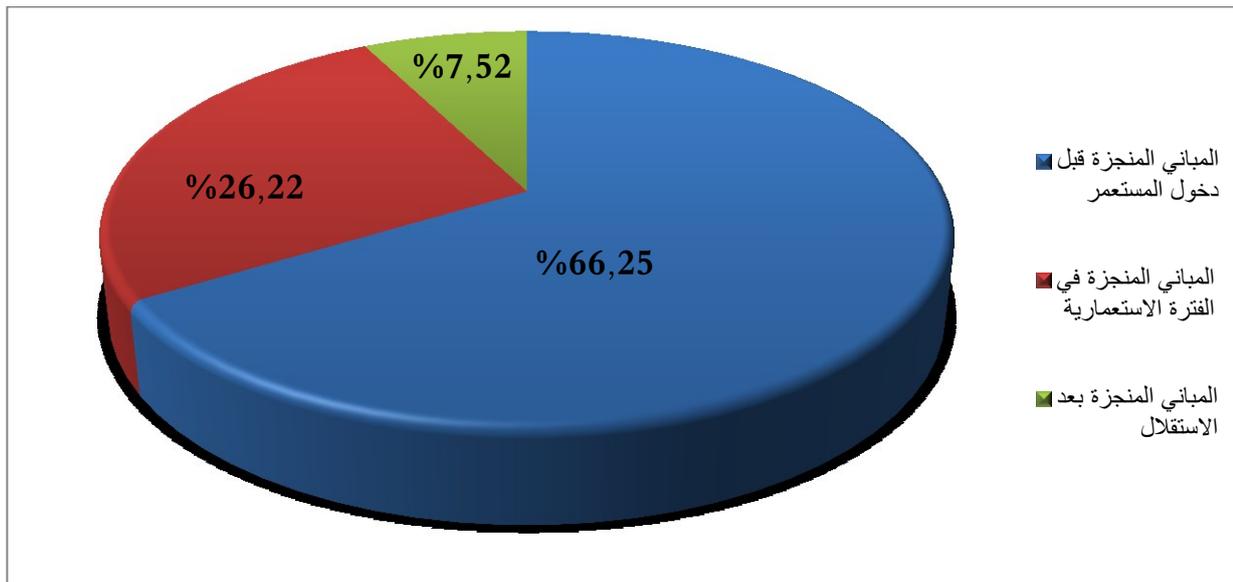
1-L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:65

المغطى مثلاً، خاصة أن مدينة تلمسان عرفت تنمية حضرية شجعت توافدهم بقوة على مساكن المدينة العتيقة، وتجدد الإشارة أن هذا التحقيق شمل جميع أقسامها الثلاث، القسم الذي كان خاصا بالسكان الأصليين الموجود بشرق المدينة والقسم الخاص باليهود الموجود مقابل المشور والقسم الذي كان خاصاً بالكراغلة الموجود بغرب المدينة، وهو الحيز العام الذي أصطلح على تسميته بالقطاع المحفوظ في سنة 2009. وقد تضمن النسيج المعماري حوالي 1449 مبنى من بينها 960 مبنى ذي طراز إسلامي و380 مبنى ذو طراز غربي تم إنجازه في الفترة الاستعمارية، وحوالي 109 مبنى أنجز بعد الاستقلال وفق مبادئ معمارية تتشابه إلى حد ما مع ما أنجزه المستعمر، ويتعارض كلياً مع المباني ذات الطراز الإسلامي من حيث مواد البناء والتصميم الخارجي... إلخ، ونوضح عدد المباني في الجدول والدائرة النسبية التاليين:

العدد	نوع المبنى
960مبنى	المباني المنجزة قبل مجيء المستعمر
380مبنى	المباني المنجزة في الفترة الاستعمارية
109مبنى	المباني المنجزة بعد الاستقلال

الجدول رقم(17): يبين عدد المباني وفق الفترة التي أنجز فيها بالقطاع المحفوظ في مدينة تلمسان، عن:

L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:63



نوع التعديل	إصلاح السقف	تلبيس الجدران بالإسمنت	إعادة تهيئة قنوات الصرف الصحي	إعادة تهيئة قنوات الصرف الصحي	فتح النوافذ	تعديلات أخرى
العدد	472	413	349	54	58	943

الدائرة النسبية رقم(10): تبين النسب المئوية الخاصة بالمباني المنجزة قبل دخول المستعمر وفي فترة

الاحتلال وبعد الاستقلال في مدينة تلمسان العتيقة.

يتضح جلياً من الجدول والدائرة النسبية أعلاه مدى تعرض التكوين المعماري العتيق لفقدان القيمة الفنية والتاريخية التي تميزه، نتيجة عمليات البناء التي أُنجزت به من قبل المستعمر الفرنسي، ثم من قبل الساكنين فيه، وذلك محاولة منهم تجديد الوعاء العقاري بما يتناسب مع المتطلبات العصرية، وهو الأمر الذي أدخل مفهوماً تصميمياً جديداً للنسيج المعماري العتيق، ويتمركز غالبية المساكن ذات الطراز الاسلامي في حي باب زير وباب علي سيدي الجبار ودرج السنسلة وحي الرحبية، أما فيما يخص الجهة الشمالية والجنوبية الغربية، فتقل فيها المباني ذات الطراز الإسلامي بفعل ما قام به المستعمر الفرنسي من تخطيط وتشبيد في نفس الوقت، يوجد من مجموع المباني ما يقارب 1214 مبنى يقدم وظيفة السكن و233 مبنى يستعمل من طرف ملائكة للنشاط التجاري، نظراً لوقوع هذه المباني بمركز المدينة الذي يحظى بحركية واسعة، و233 مبنى مهجور تماماً لا يستعمل لأي غرض، وهناك عدد لا بأس به من المساكن طرأت عليها بعض التعديلات نذكرها في الجدول الآتي:

الجدول رقم(18): يبين التعديلات المستحدثة بعينة من المساكن الموجودة في أحياء المدينة العتيقة

وعددتها، عن: L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:68

تشير المعطيات الواردة في الجدول أعلاه إلى نوع التدخلات التي مسّت التكوين المعماري لمدينة تلمسان العتيقة وأيضاً أعدادها، وذلك سعيًا من ساكنيها جعلها ملائمة للتصميم الهندسي الجديد

الذي تمّ استيراده من ثقافات غريبة عنّا، كانت قد بدأت بوادرها مع دخول المستعمر الفرنسي، وإرسائه لقواعد معمارية ساهمت في تكوين نتاج عمراي تحكمه ضوابط وأسس بعيدة كل البعد عمّا هو موجود بمدينة تلمسان، الأمر الذي أحدث تلوثاً بصرياً فيها.

لم يبق التلوث البصري مجسّداً في الإخلال بالتنظيم الخارجي للمدينة، بل وصل إلى أبعد من ذلك إذ دخل إلى المساكن التي تحتوي على الميزات الهندسية الأصيلة كوسط الدار والسقيفة والإيوان والدكّات الحجرية والأقواس، عبر ما تمّ استحداثه من تعديلات بأسلوب جديد.

يتضح من خلال التدخلات المنجزة من قبل ساكني المساكن العتيقة أنّها تعلقت بتقوية المبنى ومنعه من الإنهيار، خاصة الأسطح التي بدأت تنفذ منها مياه الأمطار، ولم تعد تؤدي وظيفتها جيّداً، نتيجة قدم مواد بنائها، نفس الأمر بالنسبة للجدران التي أعيد تلييسها بمادة بناء مغايرة تتمثل في الإسمنت البورتلاندي الذي ظهر كمادة بناء أساسية في أوروبا، وهو ما أضفى تنافراً في المسكن بين مواد البناء المستعملة فيه، والمضافة إليه بهدف التقوية، وهو ما ساهم في فقدان المعالم التاريخية إحدى قيمها المميزة لها، كما تمّ بالموازاة مع ذلك إجراء عمليات هدم وتحطيم جزء من جدران المساكن بهدف فتح نوافذ وأبواب، الأمر الذي زاد الطين بلّة، لأن ذلك سيشكل لها نقاط ضعف من شأنها إحداث انهيار للمسكن، ومن جهة أخرى تضفي صورة مشوهة للمسكن لعدم تناسقها مع المورفولوجية الداخلية التي بني وفقاً لها المبنى من قبل الأسلاف، تعكس هذه التدخلات رغبة الإنسان على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية تحقيق إطار معيشي لائق، فجميع ما تمّ استحداثه في المساكن العتيقة يحمل دلالة واضحة على هذا الموضوع.

عدد الدروب	عدد الدروب	عدد الدروب	المساحة غير	المساحة المبنية	المساحة الإجمالية	رقم المجموعة الأولى	الفصل الأول
المهددة بالخراب	المتلغفة	المبينة	مظاهر التلوث البصري في مدينة تلمسان وندرومة وهنين			التشكيبية	
01	03	02	² م352,28	² م398,8	² م751	11	اسـ
00	17	05	² م2087,81	² م750,23	² م2838	12	تتاداً
00	05	00	² م608,4	/	² م608,4	26	على
02	01	12	/	² م 968,62	² م 968,62	27	ذلك

يمكن

فهم آلية حصول عملية الإدراك البصري للعناصر المعمارية المكونة للقيمة الجمالية والتاريخية، فبقدر ما يكون التناسق والانسجام في المبنى موجود ومجسّد بطريقة عقلانية، كلما ارتقى مبدأ الجمال المعماري، وهو ما أشارت إليه الباحثة بال "Ball" في تعريفها له، قائلة أنه نوع من الفعالية المتداخلة ما بين المتأمل والبيئة المرئية⁽¹⁾، بالموازاة مع التعديلات التي قام بها أصحاب المساكن، أقتراح في تقرير مخطط شغل الأراضي الخاص بالمدينة العتيقة توسعة الدروب الموجودة بحي باب زير، كشارع بن خلدون إلى 6,5م أي بزيادة 1م في عرضه، وتوسعه درب بنو زيان إلى 5م، بزيادة قدرها 2م في عرضه، وقد ورد في الاقتراح كلمة مسار منظم "Tracé régulier"، وهو ما يستلزم هدم أجزاء من المساكن الموجودة على مستوى الدروب

وإضافة إلى ذلك تمّ اقتراح انجاز مركزين تجاريين بالجهة الشرقية لحي باب زير⁽²⁾، لكن لم تتم الموافقة على استحداث مثل هذه الإضافات، بالمقابل مع ذلك عمل بعض المالكين على القيام بما لم يسمح به في الاقتراح، فقد تمّ غلق عدد من الدروب، وأخرى أتلفت نتيجة الإهمال والهجر الذي أصابها جرّاء عدم استعمال المساكن الموجودة، وعن أهم هذه الحالات نوردتها في الجدول الآتي:

1- علي شعبان عبد الحميد، هاني خليل الفران، مرجع سابق، ص: 10

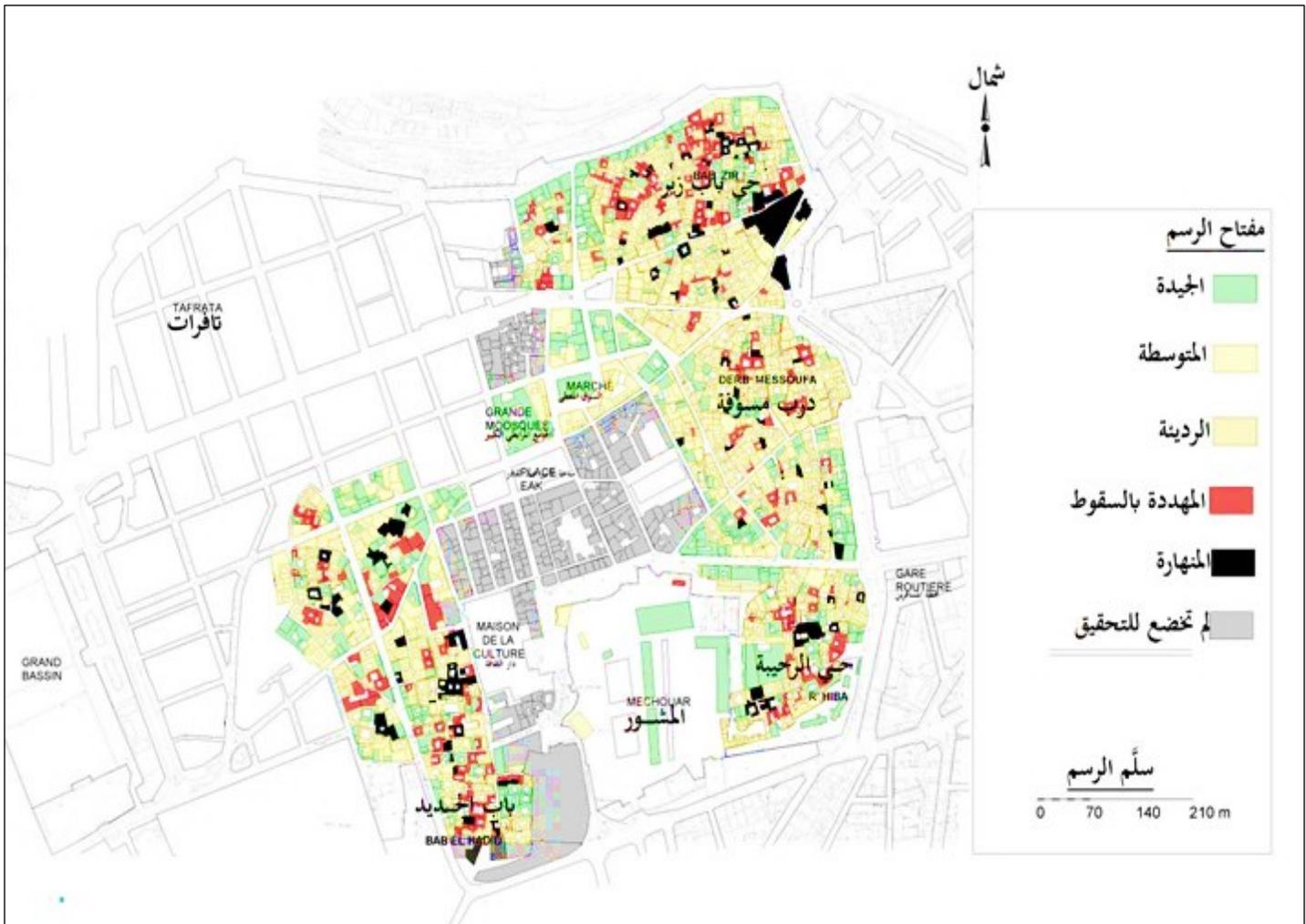
2-L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit, p:110

الجدول رقم(19): يبيّن حالة جزء من النسيج المعماري لحيّ باب زير وما تمّ استحداثه بدروبه عن:

L'Agence National d'Aménagement Territoire du ,Pos... ,Op.cit ,p:110

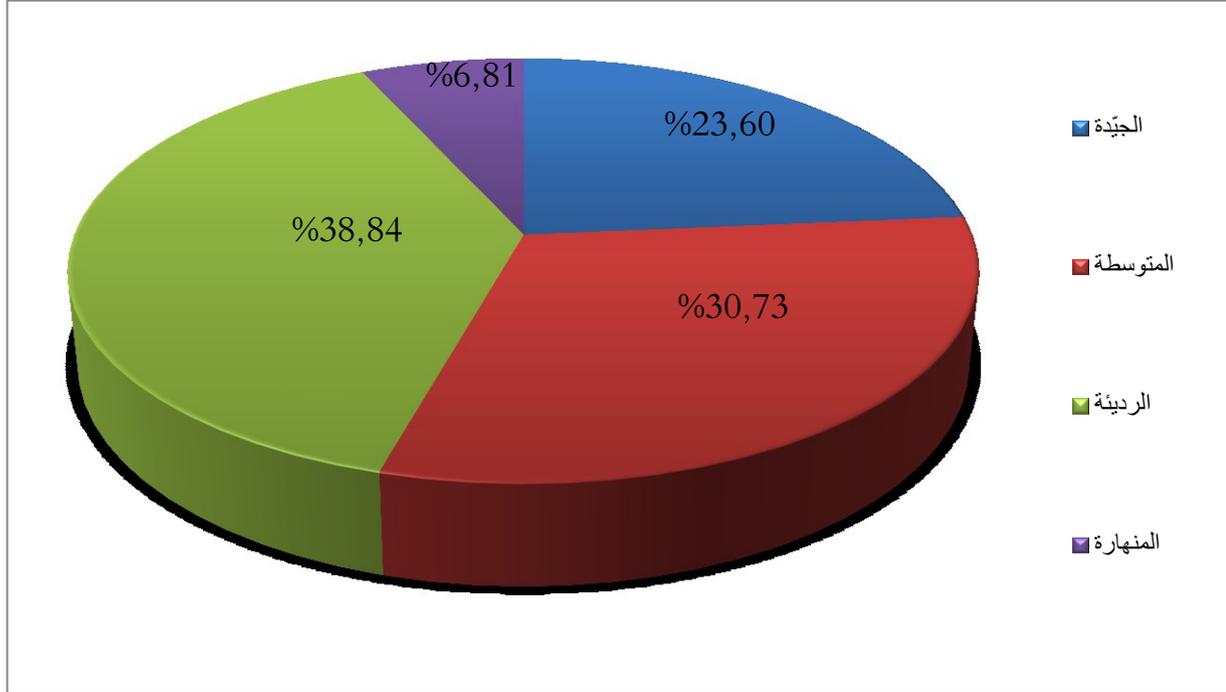
تنتمي المجموعات السكنية المذكورة في الجدول لحي باب زير الأكثر استقطاباً للسكان في مدينة تلمسان العتيقة، بحكم قربه من مركز المدينة المتميّز بجركية تجارية واسعة، ويتضح جلياً أن عدد الدروب التي لم تعد تقدم أي وظيفة، ولا تستعمل من طرف السكان قد بلغ 17 درباً بالمجموعة السكنية رقم 12 الأكبر مساحة بين المجموعات المذكورة في الجدول، إذ تقدر مساحته بـ 2 838 م²، ربما يُعزى ذلك لعدم ملائمة المساكن لوظيفة السكن، وعدم استغلالها يؤدي بالضرورة لخراها وخراب حتى الدروب التي توّصل إليها، وفيما يخص الدروب التي تمّ إزالتها لتوسعة المساكن، فقد بلغ عددها 12 درباً كأكبر عدد له بالمجموعة السكنية رقم 12، الملاحظ من خلال المعاينة الميدانية التي قمنا بها في المجموعة السكنية رقم 27 أنها تحظى بنشاط تجاري متنوع، حيث يوجد به الباعة المتجولين ومحلات المواد الغذائية ومواد التجميل وجزار وبائع الخردوات... إلخ، ربما لهذا السبب أصبح مكاناً مناسباً للإقامة، الأمر الذي دفع بالسكان إلى غلق بعض الدروب لكسب أكبر قدر من المجال يضاف إلى مساكنهم، وعليه نستنتج أن هناك علاقة طردية بين حجم التدخلات والتعديلات مع أهمية المكان، فكلما كانت المجموعة السكنية أكثر توفراً على المرافق الضرورية، وأكثر نشاطاً زاد عدد سكانها وزادت معهم التعديلات لربح أكبر مجال، لأنّ جلّ المساكن العتيقة لا تتوفر على مساحة واسعة، خاصة مع وجود عنصر الفناء الذي أخذ حيزاً لا بأس به من المساكن، هذه التعديلات هي عبارة عن تجاوزات في المقام الأول، لأنها تتلف وتشوّه التصميم العمراني الأصيل وتنتج تلوثاً بصرياً في الأحياء العتيقة.

أمام هذه المعطيات المتعلقة بما عاشه النسيج المعماري العتيق، وفي خضم كل ما تم ذكره عن الواقع الذي عاشه جزاء تنامي عملية التنمية الحضرية بمدينة تلمسان عامة، وما صاحبها من مظاهر جديدة في عمليات البناء والتدخلات المنجزة في التركيب العمراني على مستوى المساكن، والدروب المصممة



بميزات خاصة في نهاية العقد الأخير من القرن المنصرم، تبين أنه عاش حالة من الفوضى وعدم التوافق والانسجام في تفاصيله العمرانية، إذ بات منقسماً في وضعية مبانيه منها ما هو في حالة منهارة تماماً ومنها ما هو في حالة رديئة لا يستطيع تأدية وظيفته أو متوسطة أو جيدة لا تزال تؤدي وظيفتها، مع وجود بعض التعديلات لتقويتها، وهو الأمر الذي حجب صورتها الأصلية واستخلفها بصورة مشوهة لا

تحمل أي ميزة من الميزات العميقة للمباني والدروب والأحياء، أي أحدث تلوث بصري، وعليه لم يعد الموروث المادي الثابت في مدينة تلمسان يبعث في متأمليه ومشاهديه الإحساس بالبعد التاريخي



والجمالي، وبصمة الأسلاف وجوانبهم الاجتماعية والثقافية السائدة آنذاك، والتي تنتمي إلينا بحكم كوننا خلفاً لهم، وفي ظلّ هذا الوضع أصبحت المدينة العتيقة بتلمسان مجرد ملجأ للعائلات المعسورة الحال، تتخذ من مساكنها مأوى لها يستأجرونها ريثما يجدون سكناً أفضل لهم، أي أنه مرحلة انتقالية، لذلك لا يُحْمَلون أنفسهم عبأ صيانتها وإصلاح ما تساقط منها. وحسب ما أسفر عنه التحقيق الميداني المنجز من قبل الوكالة الوطنية لتهيئة الاقليم ANAT، فقد تنوّعت الوضعية التي شهدتها النسيج المعماري العتيق نهاية العقد الأخير من القرن المنصرم، وبالتحديد سنة 1998، لقد أجري هذا التحقيق على كامل القطاع المحفوظ، أي على المباني المنجزة في الفترة الإسلامية بطراز عربي خالص، والمباني المنجزة في فترة الاحتلال الفرنسي بطراز غربي، ويتبين مدى استفحال التلوث البصري من الأعداد المذكورة في الجدول الآتي والدائرة النسبية:

الدائرة النسبية رقم (11): تبين حالة النسيج المعماري لمدينة تلمسان العتيقة في سنة 1998.

حالة المبنى	المنهارة	الردئية	المتوسطة	الجيدة
العدد	106	604	478	367

الجدول رقم (20): يبين حالة النسيج المعماري لمدينة تلمسان وعدد كل حالة سنة 1998، عن:

L'Agence National d'Aménagement du Territoire, Pos..., Op.cit,p:66.

يتضح جلياً من الجدول والدائرة النسبية أن التلوث البصري قد استفحل في المدينة، عبر انقسام العمائر الموجودة فيها إلى حالات مختلفة، بعد ما كانت تتصف بالانسجام والتوافق وبنيتها جيدة، وقد فقدت ذلك لعدم خضوعها لأعمال الصيانة وإهمالها، نتيجة تفضيل مالكيها الأحياء الجديدة التي برزت مع تطور عملية التنمية الحضرية، وتكوينها إطار حضري جديد يعتمد على مقاييس غير التي كانت معتمدة في تصميم الأحياء السكنية قديماً، فقد أصبحت الشوارع أكثر اتساعاً وزادت المساكن ارتفاعاً وتباعداً وتغير تخطيطها الداخلي، ما يؤكد هذا التوجه هو الهجر المتزايد لملاك المساكن واستخلافهم بالمستأجرين حيث بلغ عددهم حوالي 900 عائلة، أي ما يعادل 46% من مجموع السكان، أنظر المخطط الآتي:

المخطط رقم (11): يبين حالات المباني الموجودة في أحياء المدينة العتيقة، عن: الوكالة الوطنية لهيئة

الإقليم (ANAT) 1998.

يتبين جلياً من المخطط المنجز سنة 1998 أن أغلب العمائر تعيش وضعية رديئة، وهي تعتبر الحالة الأكثر انتشاراً في الأحياء السكنية المحقق معها وذلك من حي باب زير الموجود بالشمال الشرقي إلى حي الرحبية الموجود بالجنوب الشرقي، وهي تتلخص في كون المبنى مهجور لا يقدم أي وظيفة ويظهر عليه التدهور عبر ما يوجد به من رطوبة ومواد بناء ساقطة ومهترئة وأعشاب تنمو بجدرانها... إلخ، وهو ما يدل دلالة واضحة أنه غير مشغول من طرف ملائكه، ثم تأتي في المرتبة الثانية المباني المتوسطة الحالة ويلاحظ أيضاً أنها تركزت بجميع الأحياء السكنية تقريباً، لكنها تتفاوت من حي

لآخر، إذ كثر عددها بحي الكراغلة وحي باب علي وحتى درب مسوفة، في حين قلت في حي باب زير، أما فيما يخص المباني التي كانت بحالة جيدة، فقد وُجِدَت هي الأخرى في جميع الأحياء السكنية، لكن لم يكن عددها كبير، ويلاحظ أن أغلبها تركز في أطراف الأحياء السكنية، ربما لأن ذلك التمرکز شجّع ملاًكها على البقاء فيها وعدم هجرها، الأمر الذي ساعد في صيانتها والاعتناء بها لا طالما كانت تقدم دورها الوظيفي على أكمل وجه، ويدل هذا الأمر دلالة واضحة أن التصميم المعماري للأحياء السكنية المتميزة بتعرج دروبه وضيقتها هو الذي أفسح المجال للأحياء السكنية الجديدة المنجزة في إطار التنمية الحضرية كحي الكيفان وإمامة... إلخ لاستقطاب أكبر عدد من السكان وتبقى في المرتبة الأخيرة المباني المنهارة تماماً التي أصبحت خراباً وحطاماً، تركزت في جميع الأحياء السكنية مع اختلاف واضح في أعدادها من حي لآخر، إذ توجد بكثرة في حي باب زير وحي الرحبية وحي الكراغلة.

كل هذه المعطيات تعكس مدى استفحال التلوث البصري الناتج عن انعدام التناسق والانسجام داخل النسيج العمراني العتيق، والوضعية التي آل إليها بفعل تراجع دوره ووظيفته أمام ما أفرزته التنمية الحضرية، كل ذلك يدفعنا للقول أن النسيج المعماري العتيق لمدينة تلمسان العتيقة الموجود ضمن القطاع المحفوظ عاش في العقد الأخير من القرن العشرين حالة من الفوضى واللاتنظيم، نجم عنها انتشار تلوث بصري بالغ الحدة، وضياع كُلي لقيمه وميزاته التي اكتسبها من كونه بصمة من بصمات الأسلاف، وهو ما جعله في نهاية المطاف كتلاً معمارية متنافرة.

لم يبق في مدينة تلمسان ذلك الإيقاع المعين المتميز بالأصالة في مجال تصميم وتخطيط المدن أو في البناء والتشييد أو صنع بعض الأدوات التي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية، وهو في الأخير أي الإيقاع ثقافة خاصة بجيل معين وبيئة معينة، باعتبار الثقافة هي كل ما يعطي الحضارة سميتها الخاصة

ويحدد جوهرها الداخلي⁽¹⁾، لقد تمخض هذا التغير عن الواقع الذي فرضته عملية التنمية الحضرية، والنقل المكثف للفكر الهندسي الغربي في طريقة البناء إلى المدن الإسلامية عامة، فقد تمّ من خلالها استيراد النمط الغربي في تخطيط المدن، وبناء العمائر وتصميم أحياء كاملة بشوارع عريضة ومستقيمة بجميع مرافقها الضرورية التي يحتاجها المواطن، وهو الأمر الذي دفع بهذا الأخير لترك هويته المعمارية، والانقياد وراء أنموذج عمراني غريب عنه، وأمام كل ذلك تراجعت مكانة ودور النسيج المعماري العتيق، وأصبح حسب ما جاء في التحقيق المعلن عنه من قبل الوكالة الوطنية لتهيئة الإقليم ملجأً لعدد من العائلات المستأجرة التي اضطرتها ظروف الحياة للاستعانة.

2-1-3 تأثيرات التلوث البصري من نهاية التسعينيات إلى الوقت الرّاهن:

ما زاد في حدّة التلوث البصري وغياب جمالية المشهد في التكوين المعماري، فقدانه لميزاته التي ينفرد بها، نتيجة انتشار عدد من المظاهر الحضرية الجديدة سواءً التي أنتجتها جهة إدارية بغرض تحصيل تنظيم ما أو من طرف السكان، وذلك لما نجم عن تصورهم الجديد في كيفية البناء والعيش كالعادات الاستهلاكية الجديدة، وتنحصر أهم الأنواع والمظاهر التي كوّنت تلوثاً بصرياً، ونفت وجود اللّمسات العمرانية الأصيلة التي وضعها الأسلاف قديماً فيما يلي:

أ- التلوث البصري النقطي:

كما سلفت الإشارة إلى هذا النوع سابقاً، فهو يعتبر من الإفرازات المباشرة المشكلة للتنافر والالأنسجام نتيجة دخول التقنيات المصاحبة للتنمية الحضرية إلى الأحياء ذات الصبغة التاريخية، وقد انحصرت أهم مظاهره في مايلي:

أ-1 اللوحات الإعلانية:

أصبحت هذه اللوحات إحدى أهم الوسائل الناجحة في إيصال المعلومة إلى أفراد المجتمع في التخطيط العمراني الحضري الجديد، حيث اعتمد عليها عدد من القائمين على تخطيط المدن الحديثة

1-مالك بن نبي، مشكلات الحضارة...، مرجع سابق، ص: 77

في التصاميم الحضرية الجديدة، وهي تكون إما لوحات دلالية أو شهرية أو ملصقات لحملات دعائية وإعلانية، وهي تختلف عن بعضها البعض، حسب الهدف المرجو منها.⁽¹⁾

هناك علاقة وطيدة بين هذه الظاهرة والتلوث البصري بالمدن العتيقة، باعتبار هذا الأخير مصطلح يُطلق على العناصر البصرية غير الجذابة وغير متوافقة مع ماهية المكان التي تعمل على تشويه المنظر الذي تقع عليه عين الإنسان، وتبعث فيه عدم الارتياح النفسي والذوق الفني.⁽²⁾

ينتشر في النسيج المعماري لمدينة تلمسان عدد من اللوحات الإعلانية عبارة عن عناصر دخيلة لكونها لمسات تحتوي دلالات جديدة لا من حيث الموضوع، ولا من حيث الشكل الخارجي ومادة الصنع، الأمر الذي جسّد صورة تخلو من أي توافق في وحدة المنظر، وأتلف القيمة الجمالية والتاريخية للموروث المادي الثابت، خاصة أن بقاء تلك القيم مجسّدة في أرض الواقع يقف على مدى انسجام المعالم التاريخية مع المحيط الذي توجد فيه، الجدير بالذكر أن المشرّع الجزائري أقرّ في المادة رقم 22 من القانون 04/98 منع وضع اللافتات أو الإعلانات أيّاً كان موضوعها على المعالم التاريخية⁽³⁾، لكن يبدو أن ذلك بقي مجرد حبر على ورق، إذ تنتشر لوحات الدلالة على جدران المعالم التاريخية، وهي تحمل مضمون الإشارات المرورية لتوجيه حركة المرور الآلي داخل المدينة، خاصة أنها تتوفر على أهم ما يحتاجه المواطنين في حياتهم اليومية كالسوق المغطى والمحلات التجارية ومقر البريد والمواصلات والمحكمة والبنوك وبعض المؤسسات التعليمية... إلخ، لكن مهما اقتضى الأمر من ضرورة وجود هذه الإشارات، كان من اللازم تفادي وضعها على جدران المعالم التاريخية التي لا تتفق في مظهرها الخارجي المنفرد، والضّارب جذوره في التاريخ مع اللوحات الإشهارية بغض النظر عن شكلها أو مضمونها.

1- مظهر عباس أحمد، عادل حاتم نوار، دور لوحات الإعلان التجارية في التلوث البصري للبيئة العمرانية في المدن العراقية، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، العدد 20، جامعة واسط، 2013، ص: 331-334

2- المرجع نفسه، ص: 333

3- الجزية الرسمية، القانون 04/98، مرجع سابق، ص: 08

بعد التحقيق الميداني الذي قمنا به داخل القطاع المحفوظ لاحتظنا وجود عدد من حالات الاعتداء البصري الناجمة عن وجود عدد من اللوحات الإعلانية.

ومن بين الأمثلة التي استوقفنا ما تعرض له الجامع الكبير، حيث تلتصق بجداره الجنوبي الغربي إشارة مرورية تمنع التوقف أنظر الصورة رقم (09)، تسببت هذه الأخيرة في تلوث بصري لهذا المعلم التاريخي، إذ تشوهت منظر الجامع، الأمر الذي أحدث خللاً في ملمحه العام، ويتكرر هذا الوضع في مسجد سيدي البناء، يوجد به أيضاً إشارة مرورية بالركن الغربي أنظر الصورة رقم (10) لمنع حركة المرور الآلي.

لم يسلم السور الشمالي للمشور هو الآخر من وضع الإشارات المرورية، إذ تلتصق بجداره الشمالي بمحاذاة البرج الشمالي إشارة مرورية لمنع التوقف ترتفع عن الأرضية بحوالي 2,20م، كما توجد بالقرب منها لوحة إخبارية لشركة السياحة والسفر تارة، وكذا بناء مربع الشكل يبدو من التاريخ الموجود فيه أنه أنجز في الفترة الاستعمارية أنظر الصورة رقم (11)، نفس الأمر موجود بالزاوية الشمالية الشرقية من ذلك الجدار، حيث توجد إشارة مرورية أخرى تمنع أيضاً التوقف، لقد جاء وضع هذه اللافتات والإشارات المرورية كنتيجة حتمية للتخطيط العمراني الجديد الذي اعتمد في تجسيده للتصاميم على ما تستوجهه المركبات، فأصبح بموجب ذلك فتح شوارع عريضة ومستقيمة، وتم أيضاً توزيع الإشارات المرورية لتنظيم سيرها، هذه الحتمية أحدثت تلوثاً بصرياً للمعالم التاريخية والتصميم العمراني المميز للنسيج التاريخي ككل.

أ-2 انتشار النفايات:

تعتبر من المظاهر السلبية الناجمة عما يستهلكه البشر من مواد غذائية وغيرها، وهي تنتشر في المدينة العتيقة بتلمسان لما عرفته من تنمية حضرية استقطبت معها عدداً لا بأس به السكان، وإضافة للتلوث البيئي النجم عنها، فهي تحدث أيضاً تلوثاً بصرياً نقطي.

أول الحالات الناجمة عن هذه النفايات التي استوقفنا خلال معاينتنا الميدانية للنسيج المعماري ما يوجد خلف الجدار الغربي للبرج الملاصق لباب الحديد، أنظر الصورة رقم (12)، حيث تتراكم هناك

القمامة الناجمة عن الاستهلاك العائلي، والغريب في الأمر أن البلدية ممثلة في مصلحة النظافة وضعت صندوق بلاستيكي أخضر اللون حتى تؤكد أنه المكان الأنسب لجمع القمامة غير آبهة بقيمة المعلم التاريخي والجدير بها أن تغير كلياً مكان جمعها، لقد أدى كل ذلك إلى فقدان برج باب الحديد قيمته التاريخية والفنية، ونفور الأعين من مشاهدته أو التمعن في تفاصيل بنائه.

نفس الحالة توجد بحي الرحبية وذلك في المساكن المهذمة، حيث قام السكان برمي القمامة فيه لتصبح أشبه بمفرغة عمومية شوّهت ملمح الحي ككل، وأبعدته عن ميزته العمرانية الأصيلة، فالزائر لا يمكن له أن يستشعر تلك الميزة، أنظر الصورة رقم (13)، وينعكس الوضع الناجم عن الغياب الكلي لثقافة الاستهلاك أو المحافظة على الأصالة التي يميّز بها النسيج المعماري التاريخي، أيضاً حي باب زير الذي استوقفنا خلال معاينتنا الميدانية له أكوام القمامة المنتشرة بالجهة الشمالية الشرقية منه، انعكست بالسلب على كامل ذلك الحي أو بالأحرى على مدينة تلمسان العتيقة ككل، أنظر في الصورة رقم (14)، ولم يقتصر وجود هذه القمامات في فضاءات المساكن المنهارة فقط، بل انتشرت في دروب المدينة العتيقة، مثلما هو موجود في حي سيدي الجبار الذي تراكم في أحد دروبه كومة من النفايات المعبأة داخل أكياس بالجهة الشمالية منه أنظر الصورة رقم (15)، ويتضح من معاينتها أنها مجموع البقايا المنزلية التي نجمت عن الاستهلاك العائلي، وهي توجد تحت سقيفة طولها 10م وعرضها 2.20م، وقد قام أصحاب المساكن المجاورة باستنكار هذا العمل، معبرين عن ذلك بكتابة على الحائط، جاء فيها ممنوع رمي الأوساخ على طول جدار السقيفة، ولو أن هذا التصرف هو في حد ذاته وجه آخر للتلوث البصري، لعدم توافقها مع المكان المتميز بميزات خاصة كمواد وطريقة البناء، وملمحه العام الذي يحمل صبغة تاريخية محضة.

أ-3 انتشار المكيفات الهوائية:

تعتبر هذه الأخيرة من بين الوسائل التي ظهرت مع النمط الجديد في البناء والتعمير المحسد بالتنمية الحضرية، فقد تسبب التغيير الطارئ على مورفولوجية المسكن في الاستعانة بمثل هذه الوسيلة، الحديث عن ذلك يرجع بنا للحديث عن المسكن الإسلامي، وما تميز به من تصميم أغنى ساكنيه للجوء إلى وسائل تحقق لهم الراحة والرفاهية، فمعظم مدن العالم الإسلامي كانت تتبع في بناء هذا النوع المعماري تصميماً مشتركاً إلى حد ما في هيكله العام، تُراعى فيه ظروف المناخ السائدة ليوفر الجو الملائم للسكن ويقي من لفحات الحر، وقد استعان لتحصيل ذلك بالفناء لتكييف حرارة الجو، لأن الهواء البارد يهبط إلى أدنى مستوياته ليلاً ليتسرب إلى الغرف ويلطف حرارتها، ويبقى محصوراً بين جدران الفناء لساعات متأخرة من النهار، وكأنه بمثابة خزّان لتكييف الهواء، كما أضاف المعماري المسلم عنصر الإيوان لتفادي أشعة الشمس والجلوس في الفناء من دون أن يحسّ أهل المسكن بحرارتها، ووضع أيضاً مقعد حجري، أو كما يسمى بالدكّانة في السقيفة التي تفتح على الصحن للجلوس فيها⁽¹⁾، لقد ساعدت جميع هذه التفاصيل الهندسية على تكييف المحيط وفق ما يحتاجه الإنسان بصورة طبيعية من دون اللجوء إلى وسائل أخرى مثل التي تمّ توظيفها في الفترة الراهنة كالمكيفات الهوائية.

الملاحظة التي أثار انتباهنا عند قيامنا بالتحقيق الميداني حول التلوث البصري النقطي الناجم عن وضع هذه الوسيلة على واجهات المساكن العتيقة، أنها قليلة الوجود بجميع أحياء المدينة، وهو ما يؤكد أن المعماري المسلم تمكّن من بناء مساكن ذاتية الحماية والتكييف على النحو الذي ذكره ثروت عكاشة وعدد آخر من الباحثين، وكأمثلة عن المساكن التي زوّدت بالمكيفات الهوائية المسكن الموجود بدرب مسوفة أنظر الصورة رقم (16)، حيث يلاحظ وجود مكيف هوائي ملتصق بالجدار الجنوبي الذي

1- ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 92

يعلو مدخل السقيفة، ويلاحظ أيضا وجود بعض التعديلات على المسكن نُقِدت بمواد بناء جديدة كالإسمنت والآجر، وهو ما أضفى ملمحاً مشوهاً على المبنى ككل لتناقض ما تمّ استحدثه مع طبيعة المبنى.

نفس الحالة توجد بأحد المساكن الكائنة بحي الرحبية، إذ تلتصق بجداره الخارجي المطل على الدرب مكيف هوائي، أنظر الصورة رقم (17)، وتكرّر الأمر مع حي باب زير، حيث تلتصق بجدران مساكنه مكيفات هوائية، أنظر الصورة رقم (18) التي تبين أحد الأمثلة عن ذلك، وهو الوضع الذي تعيشه بعض المساكن في حي باب علي، مثل المسكن رقم 20، أنظر الصورة رقم (19)، الملفت للانتباه أن المساكن التي لاحظنا احتوائها على المكيفات الهوائية، قد خضعت لتعديلات من طرف ملاكها، كما هو مبين في بعض الصور الملتقطة إذ تظهر إضافات بمواد بناء جديدة وطلاء بغية تقوية المسكن وتحسين هيكله العام.

أ-4 انتشار المقعرات الهوائية:

أمام الزخم الهائل من القنوات الفضائية العربية والغير عربية، بات استعمال أجهزة الاستقبال أمراً ضرورياً لجميع شرائح المجتمع وفي جميع الأماكن، بصرف النظر إن كانت ريفية أو حضرية، حديثة أم عتيقة، وهذا ما صادفناه منتشراً في النسيج المعماري العتيق لمدينة تلمسان، حيث تعلو أسطح وجدران المساكن مقعرات هوائية مختلفة الأحجام تشوّه منظر المبنى الذي تعلوه المتميز بالعراقة والأقدمية اللّتين منحته ميزة خاصّة ينفرد بها عن العمائر الجديدة شكلاً ومضموناً، وهو الأمر الذي أنتج تلوث بصري للتناقض الحاصل بين ما تتميز به المقعرات الهوائية والمكان بصفة عامة.

وعموماً لم يقتصر ما ينجم عنها من تلوث بصري في المدن العتيقة، إنما انتشرت في المباني العمودية على وجه الخصوص في العمارات، فقد أصدر مؤخراً والي ولاية الجزائر قراراً يقضي بنزع المقعرات الهوائية التي تتوّج شرفات العمارات، إذ باتت تعكس منظرًا مشوهاً لها، وقد تمّ البدء في هذه الحملة في بلدية

المحمدية كأمودج أولي في هذا المجال تحت إشراف مصالح ولاية الجزائر⁽¹⁾، ومن خلال هذه المبادرة يمكن أن تتصور حجم الضرر الذي تلحقه مثل تلك الوسائل المنبثقة عن التغيير في أسلوب العيش، وكذا طريقة البناء، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بما هو تاريخي وعتيق، سيكون التأثير واضحاً وأعمق بكثير مما هو حاصل في المباني الحديثة، فالمباني التاريخية تتضمن بعداً تاريخياً واجتماعياً وثقافياً يشكل ذاكرة جماعية لأمة ككل⁽²⁾، أي أنها الهوية المحددة لشخصية الأمة ككل والتي تعتبر المعنى الأول والأخير لمعنى للأصالة⁽³⁾.

وأهم الحالات التي وقفنا عليها أثناء معاينتنا الميدانية للأحياء العتيقة، ما يوجد في المسكن رقم 32 بحي باب زير، إذ تعلوه مقعرات هوائية تصطف جنباً إلى جنب، أنظر الصورة رقم (20)، جميعها ذات لون أبيض ومتساوية الحجم يبلغ قطر كل واحد منها 65 سم، وما زاد في تشويهها للملح العام للمساكن العتيقة هو ظهور بقع الصدأ عليها لقدمها، نفس الشيء بالنسبة للمسكن رقم 06 بحي الرحبية، هو الآخر يعلوه مقعرين هوائيين طول قطرها 65 سم أنظر الصورة رقم (21)، وقد انتشرت في جميع أحياء المدينة مثلها مثل المكيفات الهوائية، وهو ما تؤكد الصور التي التقطناها أثناء المعاينة الميدانية، فمثلاً وجدت بحي سيدي الجبار، حيث يعلو المسكن رقم 26 مقعر هوائي كما هو مبين في الصورة رقم (22)، طول قطره هو الآخر 65 سم، ونفس الشيء يوجد في درب مسوفة، فهو الآخر توجد بمساكنه ظاهرة المقعرات الهوائية المشوهة لماهية المبنى وخصوصيته، وقد سجلنا وجود ذلك على سبيل المثال في المسكن رقم 10، أنظر الصورة رقم (23).

1- جريدة البلاد، الصادرة يوم: السبت 21 جانفي 2017، الموافق لـ 22 ربيع الثاني 1437 هـ، العدد 5220، ص: 05

2- محمد بن زغادي، دور المعالم الأثرية في إرساء التنمية بالجزائر، مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، العدد 02، مخبر المجتمع ومشاكل التنمية المحلية في الجزائر، جامعة الشلف، 2015، ص: 295

3- عفيف البهنسي، جمالية الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص: 143

لقد أدت هذه الإضافات التقنية الحضرية إلى حدوث تعديل على المظهر العام للمساكن، والحكي ككل، حيث تعكس رؤيتها نوعاً من اللاّجانس، وعدم التوافق مع ماهية المكان، الأمر الذي أخفى القيمة الفنية والجمالية للمساكن العتيقة المكونة للنسيج التاريخي لمدينة تلمسان العتيقة، الأمر الذي أسقطها في جبّ لا قاع له.

أ-5 انتشار عدّادات الكهرباء والماء والغاز:

وليس هذا فحسب، فقد تمّ أيضاً وضع عدّادات خاصة بالكهرباء والماء في جدران المساكن زادت الطين بلّة، لأنها هي الأخرى تضفي لمسة حدائثة وصورة مشوهة، نظراً لشكلها ومادتها المصنوعة من الحديد والمغطاة بقطع حديدية مربعة الشكل.

من بين الحالات التي استوقفنا في المعاينة الميدانية لأحياء المدينة مسجد لآلة الروية أو كما وجدناها مكتوبة فوق مدخل المسجد لآلة الروية الموجود بدرب مسوفة، تتوزع بجداره الشرقي عدّادين الأول خاص بالكهرباء والثاني خاص بالماء أنظر الصورة رقم (24)، نفس الوضع تعيشه بقية مساكن الأحياء العتيقة، حيث تأخذ هذه العدّادات حيزاً من جدرانها الخارجية، مشوهة بذلك صورة المسكن العتيق، لما تتميز به هذه الأخيرة من ميزة فنية ترجع لفترة زمنية بعيدة، وعلى سبيل الأمثلة لا الحصر المسكن الموجود بحي القران الكبير أنظر الصورة رقم (25)، وقد لاحظنا أثناء المعاينة الميدانية أن تجهيز المساكن بهذه المتطلبات الضرورية لم يقتصر على الموجودة في أطراف الأحياء، بل على حدّ سواء فحتى الموجودة داخلها بين الدروب الملتوية قد زوّدت بالكهرباء والغاز والماء الشروب، أنظر الصورتين رقم (26) و(27).

ب- التلوث البصري الخطي:

لقد تجسّد هذا النوع من التلوث البصري في مدينة تلمسان العتيقة كنتيجة حتمية لما نتج عن التنمية الحضرية من تحضر في طريقة العيش، وقد انحصر في مايلي:

ب-1 انتشار أعمدة الإنارة والأسلاك الكهربائية:

مما لاشك فيه أن المدن العتيقة تبنت طرقاً تختلف أشد الاختلاف عمّا هو معمول به اليوم في إنارة المساكن وغيرها، فقد لجأ المعماري المسلم في مدينة تلمسان مثلاً في إضاءة الدروب إلى توظيف واجهة السقيفة ومواد بسيطة توضع في فتحات تعلو القوس الحدوي للسقيفة مباشرة، وقد تلاشى تماماً جزاء ظهور التقنيات الجديدة المصاحبة للتنمية الحضرية، إذ لم ينجم عنها فقط تغير في طريقة التخطيط الحضري والتشييد، بل حتى في الوسائل المعتمدة في تحصيل عامل الرفاهية والراحة ونوضح الطريقة المعتمدة في الإنارة بمدينة تلمسان قديماً في الرسم التخطيطي الآتي:

الرسم التخطيطي رقم 11: يوضح أسلوب إنارة الدروب في المدينة العتيقة تلمسان، عن: سيدي محمد

نقادي، التصميم العمراني....، مرجع سابق، ص: 152 (بتصرف)

يرجع ظهور الأسلوب الجديد في إنارة أحياء مدينة تلمسان إلى احتلال المستعمر الفرنسي لها واستقراره فيها، حيث جلب معه طرقاً جديدة كان يستعملها في مدنه بفرنسا في مجال البناء وتصريف

المياه وإيصال الماء الشروب وإضاءة الشوارع، وذلك وفقاً لما ذكره الباحث الفرنسي أندريه لوكوك André Lecocq حول قيام الإدارة المسؤولة عن التنمية الحضرية بالمدينة بإنجاز عدد من المرافق التي كانت مألوفة لدى المعمرين ومجهولة لدى السكان الأصليين كالاكتفاء على أعمدة الإنارة، وبعد موافقة اللجنة الاستشارية تمّ البدء في المشروع سنة 1844م، وقد استلزم ذلك معدّات تمثلت في الفوانيس والزيت والفتيلة والحبال يتم وضعها على جدران المساكن أو على الأعمدة⁽¹⁾، ومع تطور الوسائل والتقنيات تمّ الاعتماد على أسلوب جديد في الإضاءة كباقي مدن دول العالم، وقد عملت الجزائر بعد

تلمسان على

في الإضاءة.

في الإنارة

عملية التنمية

تعبير مباشر عن

التي من شأنها

النمط المعتاد

أكبر قدر من

والراحة، وبحكم



الاستقلال في مدينة

توظيف الكهرباء

رافق التنظيم الجديد

بالتعمال

الكهرباء⁽²⁾ تجسيد

الحضرية، باعتبارها

التقنيات الجديدة

إحداث تغيير في

في العيش، وتوفير

الرفاهية

كون النسيج التاريخي جزء لا يتجزأ من مدينة تلمسان التي حظيت بتنمية حضرية واسعة المجال، مسّت

1- André Lecocq, Op.cit, p:239-240

2- الكهرباء: كلمة مشتقة من الاسم الفارسي كهريا، التي تعني جاذب التبن وغيره من سيقان النباتات الجافة، وهي تطلق أيضاً صمغ الشجرة إذا فك يجذب التبن، وهو ما يعرف بالكهرباء الستاتيكية أو السكونية، ينظر: خالد بن علي المطيري، عيد بن طالع المطيري، أسس الكهرباء، الإدارة العامة للتربية والتعليم بمحافظة الداوومي، المملكة العربية السعودية، 2009، ص: 02

ميدان السكن والصحة وتعبيد الطرقات وغيرها من الأمور المتعلقة بمتطلبات أفراد المجتمع بالمدن، إضافة إلى ما يميز النسيج التاريخي من حركية دؤوبة في المجال التجاري، إذ تنتشر به عدّة محلات تجارية، فضلاً عن كونه يتضمن مساكن مشغولة من طرف ساكنيها، الأمر الذي اقتضى توفير عدد من المرافق الضرورية كالإنارة التي أصبحت من ضروريات الإطار المعيشي لجميع سكان هذا العالم.

تنتشر بأحياء النسيج المعماري التاريخي أسلاك كهربائية وأعمدة الإنارة لتزويد المساكن بهذا المرفق الضروري الذي أصبح قاسماً مشتركاً بين المباني القديمة والحديثة على حدّ السواء، ولم يغفل المشرّع الجزائري في إعداده لقانون حماية الممتلكات الثقافية 04/98 عن الاعتداء البصري الذي يخلفه تركيب الشبكات الكهربائية والهاتفية، وحتى أنابيب الغاز ومياه الشرب وقنوات التطهير... إلخ، وقد صاغ للحد من الضرر الناجم عن ذلك المادة رقم 17 التي يمنع فيها منعاً باتاً تمرير تلك الشبكات وغيرها إلاّ بإذن مسبق من الجهات الوصية عن المعالم التاريخية، وبالرغم ممّا جاء في هذه المادة، فإن النسيج التاريخي لمدينة تلمسان يعيش اعتداء بصري، جزاء قيام السلطات المحلية بتمرير الأسلاك الكهربائية ذات الضغط المنخفض بجدران المساكن وإصاق وسيلة من وسائل الإنارة على شكل زاوية قائمة على الجدران التي تم بنائها بمواد بناء تختلف شكلاً ومضموناً عن الوسائل الحديثة، فقد لاحظنا وجود مساكن بنيت بالآجر المكسو بطبقة من الملاط لا تعكس مظهر الحداثة بل مظهر العراقة والأقدمية.

لقد أخذ التلوث البصري الناجم عن وضع الأسلاك والأعمدة الكهربائية حيناً كبيراً بأحياء المدينة العتيقة، لأن أغلب المساكن تلتصق بها هذه التجهيزات كباقي المساكن بالأحياء الجديدة التي تحيط بالمدينة العتيقة وغيرها من الأحياء الأخرى، وعن الأمثلة التي تعكس ذلك ما يوجد بحي سيدي الجبّار، إذ يلتصق بالمسكن رقم 15 عمود للإنارة على شكل زاوية قائمة تتصل به أسلاك كهربائية وتظهر جدران المسكن مبنية بمواد بناء لها بعد تاريخي حيث يصطف فيها الآجر بطريقة المداميك المزدوجة أنظر الصورة رقم (28).

تنتشر أيضاً بدروب النسيج التاريخي أعمدة كهربائية مصنوعة من مادة الخشب لتمرير الأسلاك الكهربائية ولوضع مصابيح الإنارة العمومية شكلها دائري طول قطرهما 25 سم، أما ارتفاعها فيقدر بحوالي 08 أمتار، مثل هذه الأعمدة يوجد بأحد دروب حي القران الكبير عند انعطاف المسار، أنظر الصورة رقم (29)، وقد تمّ توصيل المساكن بالكهرباء اعتماداً على جدران المساكن العتيقة، مما ضاعف من حدّة تشويه ملمح المساكن العتيقة، لأن هناك اختلاف واضح بين المادتين المكوّنتين للأسلاك وجدران المبنى، فالمادة الأولى بلاستيكية ذات لون أسود تمتد على شكل خطوط، في حين المادة الثانية بنائية لها ميزة فنية وتاريخية ومظهر ذو لون بني فاتح، وكل ذلك يؤدي إلى إضفاء صورة مشوهة للمباني الأثرية، وقد عمّت هذه الأعمدة جميع الأحياء العتيقة، مثل حي باب زير، أنظر الصورة رقم (30).

من بين المعالم التاريخية الدينية التي تشهد تلوثاً بصرياً نتيجة وضع الأعمدة وتمرير الأسلاك الكهربائية أمام واجهته مسجد سيدي بلحسن، ترتسم حوله صورة عمرانية ذات طابع غريب عنه، بحكم كونه انبعاث مباشر لما أنجزه المستعمر الفرنسي في وسط المدينة، حيث تحيط به مباني عمودية متكونة من طابقين وثلاثة طوابق كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، وتمر بواجهته الجنوبية والشرقية أسلاك كهربائية، ويتقدمه على الجهة اليسرى من مدخله العمود الذي يحملها، أنظر الصورة رقم (31)، كما تحيط به على واجهاته الثلاث سياج حديدي ضاعف من تشكّل التلوث البصري بالمعلم التاريخي، فكلما زادت التدخلات الحضريّة المنفذة بأسلوب يعكس سلطة الحاضر هيمنته، زاد اختفاء القيمة الفنية والتاريخية للموروث المادي، مثلما حدث بهذا المعلم التاريخي الذي لم يتوافق لا شكلاً ولا مضموناً مع ما يحيط به، وما زاد الطين بلّة هو ركّز السيارات بشكل مكثّف من حوله، وهو ما حجب رؤية بعض عناصره المعمارية كالمدخل.

ج - التلوث البصري الكتلي:

انتشر هذا النوع من التلوث البصري في مدينة تلمسان العتيقة نتيجة الاختلاف البيئي في حالة العمائر، وذلك للتغير الذي أصاب هيكلها العام، لينتهي المطاف بالنسيج العمراني مشوهاً بعد أن كان كتلة عمرانية متناسقة.

يعيش النسيج التاريخي لمدينة تلمسان حالة متباينة ومتناقضة في تكوينه المعماري زادت من تجسيد ظاهرة التلوث البصري فيه، إضافة إلى ما أنجز من تجهيزات تصب في المصلحة العامة كالإنارة العمومية ومصلحة خاصة كالمقعرات الهوائية، وربط المساكن بالأسلاك الكهربائية وأنابيب الغاز والماء الشروب مع العدادات الخاصة بهم، وما نجم عنها من تأثير في جمالية التصميم الهندسي للمساكن وميزاتها الهندسية التي تحمل لمسة خاصة، كونهما نتاج فكر معماري أصيل، أدت حالة المساكن المتدهورة هي الأخرى إلى الإخلال بالقيمة الفنية والجمالية للملمح العام للنسيج التاريخي، لقد تباينت وضعيتها من مسكن لآخر وتغير مظهرها، وأصبح العديد منها يعيش وضعية رديئة بعدما تصدعت جدرانها، وتساقطت بعض أجزائها، هذا الأمر تسبب في إحداث تلوث بصري، باعتبار هذا الأخير انعكاس مباشر لما له علاقة بفقدان القيم الجمالية في شيء ما، والوضعية التي باتت تعيشها المساكن والصورة التي تعكسها شكلت مصدر مباشر لمفهوم التلوث البصري، إذ أصبح من غير الممكن الإحساس بأصالة تلك العمائر.

يتكون النسيج التاريخي من أحياء سكنية كانت تشكل الإطار المعيشي لثلاثة فئات أساسية بالمجتمع التلمساني قبل دخول المستعمر الفرنسي إليها، تتمثل في فئة السكّان الأصليين الذين تمركزوا بالأحياء التالية: حي الرحبية وحي باب زير وحي سيدي الجبار وحي مسوفة ودرج سيدي حامد والقران الكبير أي الشريط العمراني الممتد على طول الجهة الشرقية من الشمال إلى الجنوب، أما الفئة الثانية فتتمثل في فئة اليهود التي تمركزت مقابل قصر المشور، وبالنسبة للفئة الثالثة فهي فئة الكراغلة التي تمركزت بالجهة الغربية لقصر المشور على مقربة من باب الحديد.⁽¹⁾

1-Abdelkader Tahar,Op.cit,p216

ينحصر القاسم المشترك بين جميع الأحياء السكنية في كونها تعاني برمتها من ظاهرة التلوث البصري الناجمة عن إدخال تقنيات حضرية عصرية، إضافة إلى ذلك زاد تدهور المساكن وتلاشي قيمها الهندسية الأصيلة من تعقّد الوضع وازمحلل ميزتها التي خصّها بها المعماري المسلم قديماً. فيما يخص الحالة الراهنة التي تعيشها المساكن في الأحياء السكنية السالفة الذكر، فقد تبّن بعد التحقيق الميداني الذي أجريناه في أحيائها السكنية أن وضعيتها تنقسم إلى حالات أساسية تتمثل في ما يلي:

أ-المستخلفة (المخدوفة): وهي المساكن التي كانت جزءاً من التكوين المعماري للنسيج التاريخي وتمت إزالتها كلياً بفعل إما تمرير شارع أو استحداث ساحات وأقيم في مكانها مبنى آخر، وحسب المعاينة الميدانية فجميع المباني المحطمة قد عُوضت بمساكن ذات طراز غربي إبان الفترة الاستعمارية، أنظر الصورة رقم(32).

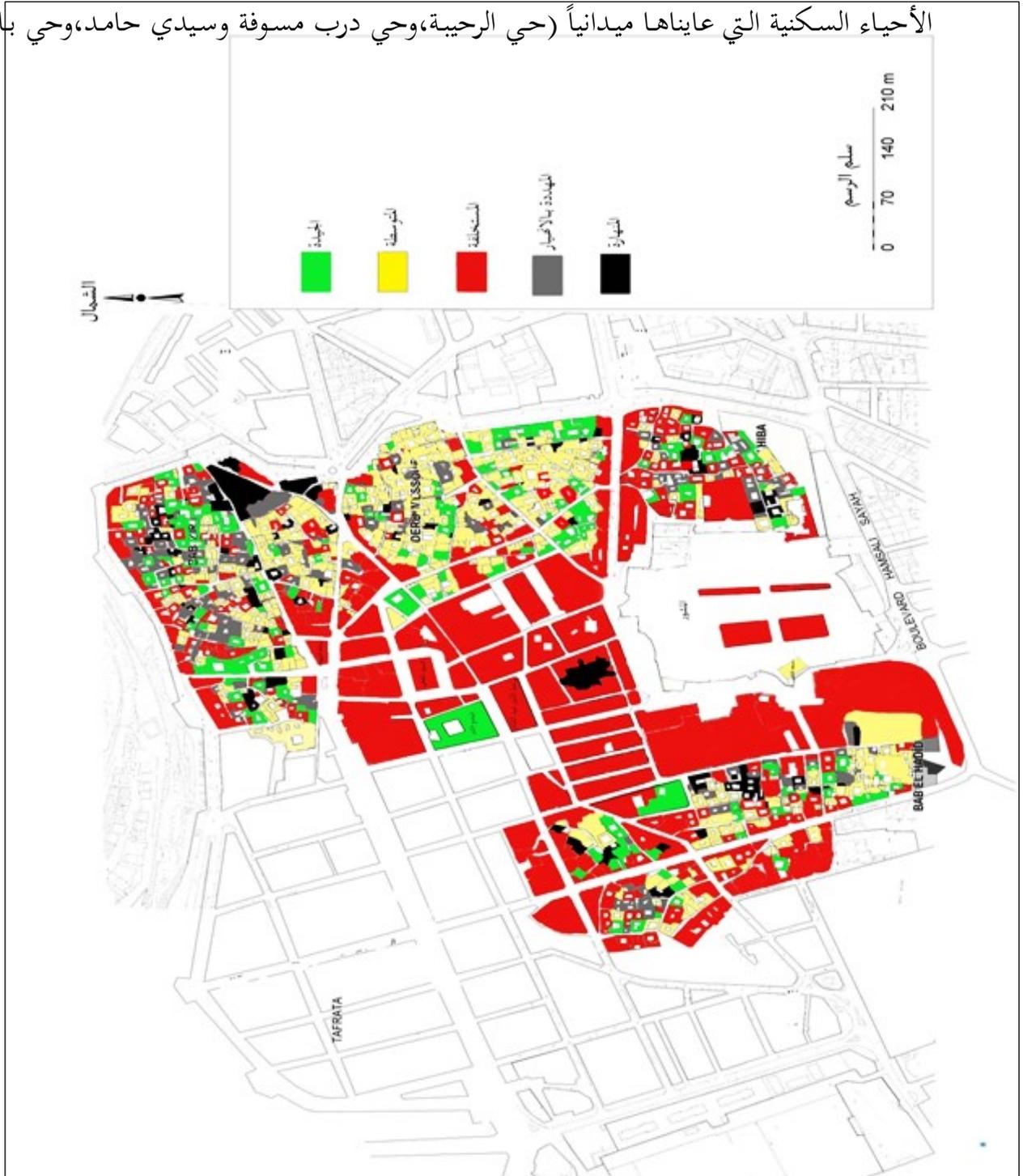
ب-المهدّمة: نقصد بها المساكن التي أصبحت أطلالاً، أي ما تبقى منها هي أساساتها فقط، وتساقطت جميع عناصرها المعمارية بفعل هجرها من طرف ملائكها، وعدم قيامهم بصيانتها والحفاظة عليها تاركين إيّاهما لعوادي الزمن، وقد اتضح أيضاً بعد الاستفسار من سكان الحي أن مثل هذه المباني كانت محلّ نزاع بين الورثة، وتمّ إخلاءها ريثما يجدوا لها حلاً، لكن طول الفترة الزمنية جعلها تنهار شيئاً فشيئاً إلى أن اتخذها بعض المنحرفين مكاناً لشرب الخمر وغيره من الأعمال اللاأخلاقية، فقرّر حينها ملاءكها بعد الطلب الملّح للحيران هدم ما تبقى منها، حتى لا تبقى ملاذاً للمنحرفين، أنظر الصورة رقم(33).

ج-المهددة بالسقوط: هي التي فقدت جزءاً كبيراً من هندستها الأصلية، أو الغير محتوية على ما هو ضروري للسكن كالمطبخ أو المراض أوغيرهما من الضروريات، وقد تبين في التحقيق الذي قمنا به أنها غالباً ما توجّه للكراء، مظهرها الخارجي يعكس ذلك الانقطاع الواضح بين تخطيطها الأصلي وحاضرها الذي تعيشه الآن، كما تعكس أيضاً تلوثاً بصرياً بفعل التشققات والتصدعات التي تعترتها والنباتات التي تنمو على جدرانها، والعناصر المعمارية الزخرفية كالظلّة التي اضمحلت منها كلية.

د- المتوسطة: نعني بها مجموعة المساكن التي أنجزت وفق مخطط معماري إسلامي أصيل، وبقي منها جزء قليل من ذلك التصميم كمواد البناء ومدخل المسكن الذي يعلوه القوس الحدوي، وهي لا تزال تقدم وظيفتها الأساسية المتمثلة في السكن، أنظر الصورة رقم (34).

هـ- الجيدة: هي مجموعة المساكن التي لازالت تؤدي دورها على أكمل وجه، ولازالت أيضاً محتفظة بجزء كبير من تصميمها المعماري الأصيل، كما أن هيكلها العام لم يصبه أي ضرر كالتشققات وغيرها من الأضرار التي يترتب عنها تلوث بصري، أنظر الصورة رقم (35).

هذه الحالات التي آلت إليها المساكن، وهذا التباين الحاصل في وضعها العام، زاد من حدّة التلوث البصري المرتبط بفقدان البعد التاريخي والتصميم العمراني الأصيل، وقد توزعت هذه الحالات في جميع الأحياء السكنية المكوّنة للتصميم العمراني لمدينة تلمسان العتيقة، ونبين ما آلت إليه مساكن جميع الأحياء السكنية التي عاينها ميدانياً (حي الرحبية، وحي درب مسوفة وسيدي حامد، وحي باب زير



والقرآن الكبير ودرب سيدي الجبار وباب علي وحي المشور وباب الحديد وشارع فلاوسن) في المخطّط الآتي:

المخطّط رقم(12): يبين التلوث البصري الناجم عن اختلاف حالات المباني الموجودة في الحياء العتيقة لمدينة تلمسان. عن الوكالة الوطنية لتهيئة الاقليم (ANAT) (بصرف).

يظهر من خلال المخطّط أعلاه التباين الحاصل في حالة المباني المكونة للنسيج العمراني العتيق لمدينة تلمسان، وذلك للوضعيات المختلفة التي تعترى الملمح الخارجي لها، فبعد أن كانت تؤلف وحدة عمرانية متجانسة ومتناسقة فيما بينها، تدب فيها حركة منظّمة تتماشى وفق التصميم العام للمدينة في المجال الديني والعلمي والتجاري، أي الفضاءات الثلاث المكوّنة لنسيج المدن، أصبحت متنافرة وغير متناسقة تبعث في نفس من ينظر في ملمحها الخارجي ويقارنه في فكره مع أصلها وماضيها العريق نوعاً من الامتعاض، لقد نجم ذلك نتيجة لهبوب رياح التغيير الحضاري بفعل عوامل تنحصر أساساً فيما عاشته المدينة خلال الفترة الاستعمارية من تهميدٍ تارة وبناءٍ تارة أخرى، رغبة من المستعمر تجسيد منظوره الحضري الغربي، وأيضاً ما عرفته المدينة من تغييرٍ في النمو الديموغرافي إلى غير ذلك من العوامل التي ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في استحداث منعطف في مسار تحضر المدينة، وفيما يخص الحالات التي آلت إليها المدينة، فقد تنوعت بين المهذّمة كلياً والمهددة بالانهيار، والجيدة والمتوسطة والمستخلفة، وقد بدا لنا جلياً من خلال المعاينة الميدانية أن هذه الأخيرة أي المستخلفة منتشرة في جميع دروب الأحياء العتيقة، وسُجّل أكبر تواجد لها في حي الرحيبة والكراغلة، وأيضاً على مستوى أطراف النسيج العمراني، وقد اتضح لنا أيضاً أن هذه الحالة ليست وليدة الساعة، بل تعود للفترة الاستعمارية، حيث تنتشر عدد من المساكن العمودية الفرنسية في الحيز الداخلي للنسيج، وتتابع هذه العملية بعد الاستقلال على يد السكان، إذ جدّدوا مساكنهم بالأسلوب المعماري الحديث.

وقد انتشرت بالموازاة مع ذلك المباني المتوسطة الحالة التي انتشرت بصفة مكثّفة داخل الأحياء العتيقة وليس على أطرافها، وقد سجّلنا تواجدها بصفة مكثّفة، مثلها في ذلك مثل الحالة المستخلفة، وتبقى

الحالات الأخرى منتشرة بالأحياء العتيقة، إذ لم يخلو أي حي من المباني المهددة بالانهيار أو المنهارة أو الجيدة، وقد انتشرت هذه الأخيرة هي الأخرى على أطراف المدينة مثل ماهو موجود بحي الرحبية، أما باقي الأحياء الأخرى، فقد انتشرت في داخلها، لكن تطل مباشرة على الدروب التي تفضي إلى خارج الحي.

ما يمكن قوله عن هذا الانقسام الذي اعترى المدينة العتيقة أنه ضربٌ من ضروب التغير الحضاري الناجم عن تغير الفكر العمراني بتفعل المؤثرات الناجمة عن التنمية الحضرية في مجال البناء والتعمير.

2-2 تأثيرات التلوث البصري على الموقع الأثري منصوره:

لم يقتصر تأثير التنمية الحضرية في استحداثها للتلوث البصري بالقطاع المحفوظ داخل المدينة، بل بنواحيها أيضاً، فقد مسّت على سبيل المثال لا الحصر أطلال مدينة المنصورة التي تعد حسب المادة 28 من القانون 04/98 موقعاً أثرياً يشهد على نشاط الإنسان فيه في فترة من فترات حياته، يتربع هذا الموقع على مساحة قدرها 101 هكتار⁽¹⁾، وهو يتضمن لحد الساعة بعض الأجزاء من الأسوار التي تحيط بالمدينة من كل الجهات، والمشيدة من مادة الطايبا، وأطلال جامع المنصورة ومئذنته.

ونظراً لقيمتها التاريخية والفنية، تعد منصوره من أهم المواقع الأثرية المهمة في منطقة تلمسان، وهو يخضع بذلك لما جاء في مواد الحماية القانونية المذكورة في القانون 04/98، كوجوب ترك مسافة تقدر بـ 200م لتفادي تشويه المنظورات المعلمية، أي تفادي حدوث التلوث البصري الذي يعني فقدان جوهر الموقع التاريخي، وقيمتها الفنية التي تعكسها مواد بنائه وتصميم مبانيه التاريخية، لكن ما شُيّد من مساكن بالجهة الشمالية الشرقية أحلّ بميزته الحضارية وغير من ملمحه العام، وذلك بسبب الاعتداء

1-Bureau d'étude agréée en architecture et urbanisme (SARCHI), **plan de protection et de mise en valeur du site archéologique de Mansourah**, 1^{er} phase diagnostic et mesure d'urgence, Tlemcen, 2009, p:74

الواضح من طرف السكان على الحيز الداخلي للموقع الأثري منصور، فغوض ترك مسافة فاصلة بين مساكنهم وبين الجدار الشرقي، قاموا بنائها داخل الموقع الأثري مكونين تقريباً حي سكني يتألف أكثر من 100 مسكن أنجزوا بمواد بناء يتنافى مظهرها الخارجي وتختلف مواد بنائها مع مادة بناء جدران المنصورة، أنظر الصورة رقم (36) وتعتبر تلك المساكن جزء من الحي السكني ماخوخ الذي تكون كامتداد للحي السكني الأفق الجميل المتكون في الفترة الاستعمارية وذلك نظراً لقربه من المرافق الحضرية الضرورية كالمستشفى الجامعي الدكتور دمرجي والمدرسة التحضيرية ومركز تكوين القابلات، ومقر الصندوق الوطني للتأمينات الاجتماعية للعمال الأجراء (CNAS) وغير ذلك من التجهيزات، لقد أصبحت الأسوار الدفاعية القريبة من المساكن.

يعد هذا الوضع صورة صادقة عن رجوح كفة الميزان لصالح العصرية، وكل ماله علاقة بالجديد في طريقة البناء، حيث لم يكثر أصحاب المساكن ممن ربطوا مبانيهم بالأجزاء المتبقية من الأسوار الأثرية بقيمتها التاريخية، نتيجة غياب مفهوم الثقافة الأثرية وغلبة ثقافة المفهوم الحضري العصري، ولم يتحرك أصحاب القرار في مجال الحماية لدرء الخطر عنها، مثلما ينص على ذلك القانون 04/98، كما لم تُتابع عمليات البناء من طرف مديرية البناء والتعمير التي من واجبها ضبط مثل هذه الخروقات، وهذا دليل قاطع على عدم أكثر السلطات المعنية بالتراث محلياً ووطنياً بالقيمة التاريخية والعلمية التي يمتلكها الموقع، خاصة أن الأمر يتعلق بمكان له ميزة معينة كونه احتضن في فترة زمنية قديمة نشاطاً إنسانياً تشهد له الدلائل المكتوبة والمرئية بعمق تاريخه، هاتان الأخيرتان اللتان أفقدتا هذه الشهادة نتيجة تصادمها مع ما أنتجته التنمية الحضرية.

ولم يقتصر التشويه البصري على استخدام أجزاء الأسوار والبناء داخل الموقع الأثري، بل تعدى ذلك إلى إدخال النمط الحضري في التصميم العام للحي المستلم عن المستعمر الفرنسي، وهو ما زاد في الإخلال بالقيمة التاريخية للموقع الأثري التي حتماً بقائها سيزيد من القيمة الفنية التي تحلّى بها في القديم.

ومن خلال ما ذكرناه عن الجهة الشمالية الشرقية وفقاً للتحقيق الميداني الذي ذكرناه، يتضح جلياً أن التوسع العمراني الناجم عن الزيادة في عدد السكان قد اكتسح تلك الجهة، وهي حالياً تعرف انفصاماً في تكوينها، إذ من جهة تعد موقعاً أثرياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ومن جهة أخرى أصبحت حياً سكنياً ذي مخطط عصري، لا تعد فيه الأجزاء المتبقية من الأسوار إلا شظايا متناثرة هنا وهناك، تستعمل كأجزاء إضافية للمساكن على الرغم من تميزها وقدمها وأصالتها، وإضافة إلى ما تم ذكره أدى مشروع النفق المنجز بالزاوية الشمالية الشرقية من الموقع الأثري بمسافة فاصلة لا تتجاوز 1.5م عن البرجين المتبقين هناك إلى تشويه محيط الموقع الأثري، نتيجة دخول مؤثر آخر متناقض مع طبيعة الموقع وخاصيته التاريخية، أنظر الصورة رقم (37)، لقد زادت مواد بنائه وشكله والألوان التي طليت بها جدرانها من اتساع الهوة بين ما تبقى من مدينة المنصورة الأثرية، وبين هذا النفق الذي نقل إلى الموقع الأثري تلوثاً بصرياً كتلياً.

يعد هذا المشروع أحد الإنجازات المندرجة في إطار بعث التنمية الحضرية التي تستجيب لمتطلبات سكان المدينة واهتماماتهم اليومية، لكن من جهة أخرى أدت هذه الاستجابة إلى إلحاق الضرر بالموروث المادي والمواقع الأثرية، وهذه الحالة نموذج من النماذج التي أتينا على ذكرها سابقاً الناجمة عن الطرح الجديد في كيفية التحضر.

إضافة إلى ما تمّ استحدثه بالجهة الشمالية الشرقية من طرف الدولة، عمد بعض السكان على إنجاز عدد من المباني داخل الموقع الأثري بالقرب من بقايا السور الشرقي، بالتحديد عند مفترق الطريق المؤدي إلى مدينة مغنية وسبدو، على بُعد 50م من الأسوار داخل الموقع من داخل الموقع.

يعكس مثل هذا الاعتداء الواضح أمرين، الأول يتمثل في الغياب الكلي لمفهوم الثقافة الأثرية والحفاظ على الهوية عند العامة من الناس، والثاني يتمثل في عدم وجود رقابة إدارية من طرف القائمين على البناء والتعمير الملمزين بذلك حسب المادة 69 من القانون 29/90 الخاص بشرط منح رخص البناء، حيث ورد فيها نص صريح جاء فيه أنه لا يرخص لأي عملية بناء، أو حتى هدم تمس بقيمة التراث الطبيعي

والتاريخي والثقافي⁽¹⁾، هذه الحالة الأخيرة وغيرها من الاعتداءات تعكس غياب المفهوم السالف الذكر، فلو تجسّدت على أرض الواقع لكانت وطأة التنمية أخف بكثير على الموروث المادي والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان، وغيرها من المدن الزاخرة بالتراث.

وليس هذا فحسب، إذ تنتشر عدد من المساكن الأخرى مكونة حياً سكنياً بالجهة الجنوبية الغربية من الموقع الأثري، وهو ما جعل الموقع محاصراً من جهتين متقابلتين، وكأن هذا الاكتساح يسير بطريقة منظّمة وهادفة لانطلاقهما من نقطتين متقابلتين، ويبدأ فيما بعد بالانتشار وسط الموقع الأثري، وترجع الارتكازات الأولى لهذا الحي الذي يحمل اليوم اسم سيدي الوالي مصطفى للفترة الاستعمارية، حينما قام المستعمر بإنجاز مشروع القرى الفلاحية حول مدينة تلمسان على غرار قرية النغري (شتوان حالياً)، وبرية (أبو تاشفين حالياً)، والصفصيف لا يزال يسمى كذلك، وتم مباشرة أشغال المساكن الخاصة بالتجمع السكاني المبرمج في الموقع الأثري منصوره بموجب المرسوم المؤرخ في 06 ماي 1850م⁽²⁾، وقد أُعتمد في إنجازها على المخطط الشطرنجي على شاكلة تصاميم المدن الأوربية، أنظر المخطط رقم (13)، وهو يتكون من حوالي 40 مسكناً بُنيت جميعها فوق الموقع الأثري لقصر النصر الذي لا زالت بعض بقاياها كالصهريج وجزء من السور الشرقي موجودة لحد الساعة، يشهدان على التطور المعماري الذي عرفته الدولة المرينية خلال فترة تواجدها بالمغرب الأوسط، توسعت مساحة الحي بعد خروج المستعمر الفرنسي من الجزائر ليبلغ حوالي 10 هكتارات، وهو أكبر من مساحة التجمع السكني الموجود بالجهة الشمالية الشرقية السالفة الذكر المقدرة بحوال 08 هكتار، وهو ما يدل أن حوالي 20% من مساحة الموقع الأثري قد تم بنائها والاستيلاء عليها، وبالتالي اختفاء كل المعطيات التاريخية الموجودة في باطن الأرض إلى الأبد.

1- الجريدة الرسمية، القانون 29/90، مرجع سابق، ص: 07

2-Louis Abadi, Op.cit, p: 78

أمّا ما تبقى من المعالم البارزة، فكما ذكرنا اختفت قيمتها الفنية والتاريخية لتجاورها والتصاقها مع مساكن بنيت بمواد تتنافى مع ماهية المكان الذي توجد فيه، وبطراز يتناقض هو الآخر مع الطراز المعماري الإسلامي الأصيل الذي كان يعمّر ذلك الموقع إبان وجود المرينيين، أنظر الصورة رقم (38)، وهو ما أدخل تركيباً معمارياً ذي صورة غريبة عن التكوين المعماري الكائن في الموقع الأثري، أي أنه جسّد معنى التلوث البصري الذي يجعل العين تنفر عند النظر إليه، وبالتالي لا تُدرك القيمة الحقيقية لما تبقى من أسوار ومئذنة، فسيعتقد المار بما أنها حجرة عثرة فقط أمام ما هو بحاجة إليه المجتمع في الوقت الراهن من مرافق ضرورية كالمستشفيات والمساكن وأماكن للمصانع... إلخ، خاصة أن جزءاً من الأسوار قد تحطّم تماماً، ومنه ما تبقى قسمه السفلي فقط، بالأخص السور الشرقي الذي اختفى الجزء الشمالي الشرقي منه عن الأنظار، أمّا الجزء الجنوبي الغربي فقد تداعت غالبية أجزائه وفقد صورته الأصلية، واليوم تقام بالساحة الملاصقة له أشغال مشروع حديقة ملاصقة للسور الشرقي، ومشروع آخر يقابلها داخل الموقع الأثري، أنظر الصورة رقم (39)، ورافقه أيضاً بناء جدار إسمنتي داخل الموقع الأثري موازي لبقايا أجزاء السور الشرقي لمنصورة، أنظر الصورة رقم (40)، ربما كان الأمر أهون من إنجاز عمارات يمنع ارتفاعها الشاهق بروز معالم السور المتبقية كالأبراج والشرفات ومادة بنائهم المتمثلة في الطابيا، ولكن بالرغم من ذلك فسيحدث إنجاز المشروع السالف الذكر تأثيراً على أصالة المعلم التاريخي، وتجدد الإشارة إلى أنه قد سبق هذين المشروعين مشروع آخر، تمثل في ملعب محاط بشباك حديدي ملتصق بأسوار المنصورة في الزاوية الجنوبية الشرقية من الموقع، أنظر الصورة رقم (41).

هناك معلم أثري آخر يتمثل في الجسر، وهو جزء مهم من الموقع الأثري يعكس على غرار المئذنة الشاهقة الارتفاع، والأسوار ذات السمك الكبير مدى عبقرية المعماري المسلم في ترويض ما تتميز به الطبيعة من تضاريس وعرة، اعتماداً على ما تزخر به من ثروات، يقع عند مفترق الطرق التي تؤدي إلى مدينة مغنية وسبدو وبعض التجمعات السكنية، وهو يوجد في مسار الواد الذي يعبر الموقع الأثري لمنصورة من أعالي هضبة لالة ستي جنوباً نحو الشمال، وهو ما دفع بالمعماري المريني إلى توظيف هذا

النوع من العمارة للسماح للمياه الجارية في الوادي بالمرور، وفي نفس الوقت لربط الضفتين الشمالية والجنوبية تسهيلاً للحركة من وإلى المدينة.

يعيش هذا الجسر ويلات التنمية الحضرية طوال اليوم ومن دون توقف، وقد بدأت تأثيراتها على هذا المعلم التاريخي عندما تم إنجاز الطريق الوطني رقم 07 الذي يربط كلاً من غليزان ومعسكر وسيدي بلعباس وتلمسان ومغنية، وتوجيه مساره بين هاتين الأخيرتين مروراً فوق الجسر المريني باعتباره جزءاً لا يتجزأ من الهيكل المعماري للمدينة، وهو ما تسبب في إخفاء معالمه الخارجية، وكذا في تكوين ضغط وإجهاد مواد بنائه التي من دون شك لا تتوفر على خصائص ميكانيكية وفيزيائية تمكنها من تحمل الثقل الناجم عن وسائل النقل الحديثة كالحافلات والشاحنات والسيارات، أنظر الصورة رقم (42).

تحدث الأخوان جيورج ووليام مارسيه عن هذا الجسر قبل مباشرة أشغال الطريق رقم 07 الذي أفقد هذا المعلم التاريخي ميزته الأثرية والتاريخية، بفعل التزفيت الذي وضع فوقه، لقد ذكرا في كتابهما المعالم التاريخية العربية لمدينة تلمسان أن سطح الجسر كان مكسواً بطبقة من الطابيا يعلوها بلاط صُفَّ بشكل أفقي⁽¹⁾، تسهيلاً لحركة المرور من فوقه وتقوية بنيانه حتى لا يتساقط.

يبدو أن ما عاشه هذا المعلم التاريخي في الفترة الاستعمارية، قد زادت حدته في الوقت الراهن، حيث قامت الدولة الجزائرية بتمرير طريق آخر رقم 22 من فوقه نحو مدينة سبدو، وقد زاد سمك التزفيت، وتم إضافة رصيفين واحد عن اليمين والآخر عن اليسار لمرور المشاة بعد تكوّن أحياء سكنية قريبة منه في الموقع الأثري، كما تم وضع جدار دائري إسمنتي عند المخرج الشمالي لمنع مرور مياه الأمطار شتاءً إلى المساكن الغير قانونية التي بنيت في مسار الوادي الذي يعلوه الجسر، أنظر الصورة رقم (43)، وهو

1-Georges et William Marçais, Op.cit,p:206

الأمر الذي ضاعف من تشكل التلوث البصري لهذا المعلم التاريخي، وأيضاً زاد من خطر الرطوبة التي ستعززي أساساته جراء احتقان المياه عند مخرجه الشمالي.

3- تأثيرات التلوث البصري على مدينة ندرومة العتيقة من الفترة الاستعمارية إلى الوقت

الزّاهن:

تحتضن هذه المدينة معالم تاريخية شيّدها الأسلاف الذين تمركزوا فيها وكوّنوا نواتها الأولى، بعدما كرّسوا كامل اهتمامهم لتحصيل المتطلبات من خلال ربط ما ورد في السنّة الشريفة في مجال العمران بالجانب المادي للمدينة، فعمدوا على بناء المساجد والمسكن والحمامات والدكاكين، وتنظيم المجال الذي يجمعهم وفق ضوابط إسلامية على شاكلة المدن الإسلامية، حيث جعلوا مركزها المسجد الجامع، ووزعوا الأحياء السكنية من حوله، وهكذا كوّنوا تصميماً عمرانياً إسلامياً متكاملًا من جميع الجوانب، لتصبح اليوم من المدن العريقة في التمدن بمنطقة تلمسان.

تقع حسب ما ذكرنا في حديثنا عن مسار التنمية الحضرية بمنطقة تلمسان على سفح جبل فلاوسن وهي تتكون من أربعة أحياء أساسية مجتمعة فيما بينها، وتحترقها دروب ملتوية ضيقة، وتنتشر بها مساكن متلاصقة فيما بينها كخلايا النحل، وتقدر مساحتها بـ 23 هكتار، وهي بذلك أصغر من مدينة تلمسان بجوالي النصف، وهو أمر طبيعي، فإذا ما قارنا مكانة ندرومة السياسية والاقتصادية بمكانة تلمسان نجدها أقل، إلا أنه لا يمكن نفي ما كان لها من تحضر، حيث ذكر الإدريسي أنها كانت كبيرة وآهلة بالسكان ذات سور وسوق.⁽¹⁾

3-1 تأثيرات التلوث البصري في الفترة الاستعمارية:

أمام النمو العمراني الذي عرفته مدينة ندرومة بطابع غربي في فترة الاحتلال، وما جسّد فيها من تنمية حضرية بعد الاستقلال على نفس خطى المستعمر في مجال البناء والتشييد من جهة، ومن جهة أخرى

1- أبو عبد الله محمد بن إدريس الحسني الشريف الإدريسي، مصدر سابق، ص: 534

لعدم وجود فكرة المحافظة على الموروث المادي وهيمنة الفكر النفعي، أي تحقيق المتطلبات وضرب عرض الحائط ما دون ذلك من المواضيع الأخرى، أوضحت مثلها في ذلك مثل بقية المدن العريقة تتخبط بين الأصالة والمعاصرة، ناهيك أيضاً أن المدن عامة أشبه بكائن حي يعيش ويتنفس وينمو ويمرض ويصح وأساس صحته وحياته مرافقه، مثلما يعيش الكائن الحي بأعضائه وأجهزته وما تقدمه من وظائف، وكما أنه يولد فينمو ويموت لعلّة، كذلك المدينة هي الأخرى تولد وتنمو وتموت لعلّة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما أستحدث فيها من تعديلات شوّهت طابعها وأحدثت خللاً في تركيبها لتصبح بذلك لاهي عربية ولا غربية⁽¹⁾، هذه الفكرة ليست قاعدة رياضية، حيث يمكن العيش في التصميم العمراني العتيق، بعد توفير جملة من المتطلبات التي تستلزمها الفترة الحالية بطريقة ينسجم فيها القديم بالحديث، لكن نقص الوعي بقيمة التراث عند المهندس العربي، وفسحه المجال للتأثير الأجنبي لتبني التكوين العمراني بأكمله، وهو ما سيجعل هذا الواقع يورث الأجيال القادمة مدناً ليس لها الطابع الأصيل، وتبتعد كل البعد عن الهوية العربية الإسلامية.

ومّا لاشك فيه أن ما تبقى من الموروث المادي لمدينة ندرومة يجسد بصدق ما كان بالمدينة من مستوى عمراني وثقافي واجتماعي، وعليه هو يكتسي أهمية حضارية بالغة لاحتوائه على القيم التي حدّدها المجلس الدولي للمعالم التاريخية والمواقع الأثرية (ICOMOS)⁽²⁾ في ميثاق بورا للحفاظ على الأماكن ذات القيمة الحضارية الثقافية بما يلي:⁽³⁾

-قيمة جمالية: وهي تعني التناسق والجمال المتأتية عن العناصر المعمارية الرائعة الصنع.

- 1- حيدر عبد الرزاق كمونة، تلوث البيئة وتخطيط المدن، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1981، ص: 11
- 2- المجلس الدولي للمعالم التاريخية والمواقع الأثرية (ICOMOS): منظمة غير حكومية تأسست على إثر ميثاق البندقية المنعقد سنة 1964، وهو يضم مجموعة من المتخصصين في علم الآثار والتاريخ والهندسة المعمارية والأنثروبولوجيا، يهتمون بحماية والحفاظ على التراث العالمي وفقاً لما سطر في ميثاق البندقية، أنظر: www.icomos.org
- 3- جواد سلام، التغيير في مراكز المدن التاريخية، مجلة المخطط والتنمية، العدد 24، معهد التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا، جامعة بغداد، العراق، 2011، ص: 150

-قيمة روحية: وتعني الفهم والتنوير والمرجعية الدينية.

-قيمة تاريخية: وهي ذلك التواصل مع الماضي بوصف التراث المادي وثيقة مرئية تنقل بصدق ما كان واقعاً في مختلف المجالات.

-قيمة رمزية: وذلك لاحتواء التراث على أشكال وزخارف تعكس موضوعاً ما.

-قيمة الأصالة: وهي التفرد وخلوّه من أي تشابه مع ما ينجز في الفترة الراهنة من أعمال معمارية مشابهة وحتى إن نفذت فستكون هي بمثابة الأصل الأول لذلك.

وقد صُنفت مدينة ندرومة قطاعاً محفوظاً بناءً على المرسوم التنفيذي 402/09، نظراً لاحتوائها نسيجاً تاريخياً عتيقاً، ومحاولة من الدولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد تعرضه لاعتداءات أفقدته القيم السابقة، نتيجة تغليب المصالح الفردية والجماعية ووضعها فوق كل اعتبار، ولكي يتم تجاوز ذلك لا بد أن تكون هناك استمرارية فيزيائية باعتبار التراث الذي نحن بصدد الحديث عنه مادي⁽¹⁾، فكلما توحدت الصورة المعمارية، ولم يُستحدث فيها أي تعديل دخيل ذي أصول أجنبية، فسيقى النسيج المعماري من دون شك محتفظاً بقيمه وأصالته، وفي حالة العكس فستعثره صورة مشوهة، ويصيبه التلوث البصري الذي يعني فقدان الشخصية المعمارية التي تميزه من كونه بصمة من بصمات الأسلاف، ويكمن السبب في حصول ذلك عندما تطبق التنمية الحضرية بأسلوب غريب عن هوية المكان فالقائمون عليها يسعون من خلالها توفير ما يحتاجه أفراد المدينة بشتى الطرق، ومن دون تمحيص النظر جيداً في ما يتناسب مع البيئة محل إنجاز المشاريع، وعليه سيكون عرضة للتلوث البصري، وقد وجدنا من خلال المعاينة الميدانية أن هناك ثلاثة أنواع منه، الأول مورفولوجي (كتلي) والثاني نقطي والثالث خطي.

ينحصر مدلول النوع الأول في غياب التواءم والتوافق البصري الذي كانت تتميز به مدينة ندرومة، فإذا ما ألقينا نظرة عليها من قمة جبل فلاوسن الذي تستند على سفحه، يظهر لنا جلياً اختفاء معالمها التاريخية وصبغة تصميمها العمراني ضمن الامتدادات العمرانية الجديدة المحيطة بها، وهو ما أدى

1- جواد سلام، مرجع سابق، ص: 150

إلى ذوبان شخصيتها وسط تلك المؤثرات المادية، وفي هذه الحالة لا يستطيع ساكنيها إدراك ما يميز عالمه الخارجي، بحكم كون الإدراك عملية عقلية يتعرف بها على ما تحيط به ويعيش معه وفق الصورة التي يختزنها الدماغ⁽¹⁾، وعند افتقاد النسيج المعماري للقيم التي من بينها الجمالية فسيدرك العقل البشري صورة مشوهة ليس لها أي معنى ولا تحمل أي دلالة، هذا الترابط الفكري يكشف العلاقة الوطيدة بين المشاهد والصورة، فمتى تميزت هذه الأخيرة بالقيمة الفنية وأخرى لها علاقة بماهية المادة محلّ والاحترام.⁽²⁾

3-1-1 التلوث البصري المورفولوجي:

عرفت مدينة ندرومة خللاً في مشهدها العام بعدما تنامت الأحياء السكنية عن يمينها ويسارها مخفية صورتها العمرانية الأصيلة التي تشابهت مع ما كان موجوداً بالمدن العتيقة الأخرى كمدينة تلمسان، لقد أصبح من الصعب اليوم التعرف على تفاصيل نسيجها المعماري، نتيجة إحاطته بالعمائر المبنية من طرف السكان هناك، فبالكاد تظهر مئذنة الجامع الكبير المرابطي في وقت كانت فيه هي العنصر البارز في تكوينها منذ نشأتها كحاضرة إسلامية.

بوادر التغيير بدأت بالظهور حينما جلب المستعمر عدداً من المعمرين للسكن فيها وقيامه بالموازاة مع ذلك إنجاز عدد من المباني التي تخدم مصالحهم اليومية وتوفر لهم الحماية، وهو ما أحدث منعرجاً في مسارها العمراني الحضري نجم عنه ضياع القيمة الفنية والتاريخية للنسيج المعماري التاريخي وكل ماله علاقة بالخصائص العمرانية الإسلامية، هذا الوضع يعد ترجمة مباشرة لحدوث التلوث البصري، فبعدما قام المستعمر بإضافة أنموذجه المعماري الغربي المحسد في المباني العمودية الإسمنتية الملاصقة أو المقابلة لما كان

1- محمد مصطفى النحاس محمد، التأثير المتبادل بين الإدراك الحسي والتصميم الداخلي للمتأحف، رسالة ماجستير تخصص هندسة معمارية، كلية الهندسة، جامعة عين شمس، مصر، 1990، ص: 04

2- عماد صولة، سيرورة الرمز من العتبة إلى وسط الدار، دراسة أنثروبولوجية في السكن التقليدي التونسي، مجلة إنسانيات، العدد 28 مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية (CRASC)، وهران، 2005، ص: 22

مبنيًا بطراز إسلامي، تكونت نواة حضرية جديدة مختلفة تماماً عن النواة الحضرية الأصيلة، وهو ما أحدث خللاً في المظهر العام المميز سواءً للمدينة ككل، أو للتركيب العمراني الأصيل، فتجاوز التصميمين واختلافهما الواضح في الشكل والمادة والمحتوى الداخلي حجب رؤية جزء مهم من الميزات التي تنفرد بها المدينة العتيقة.

أولى الانجازات المعمارية الفرنسية ترجع إلى سنة 1865م، حينما قام بإنجاز مدرسة عربية فرنسية تحت إدارة السيد بودات Baudet كما أشرنا سابقاً، وقد كانت المبنى الوحيد الذي تمّ إنجازها، حيث اكتفى باستغلال المساكن المشيدة قديماً من طرف الأهالي لإسكان المعمرين وفرقه العسكرية، مثلما قام به في مدينة تلمسان، وذلك لانشغاله بالجانب العسكري وإحكام قبضته جيداً على جميع النواحي، ومع إعلان المستعمر الفرنسي مدينة ندرومة بلدية مختلطة، بعدما كانت مجرد تجمع سكاني لا بد من ردع مقاومته وإخضاع سلطته، تفتنّ لأهمية موقعها الاستراتيجي بين التجمعات السكانية القريبة منها آنذاك، وقد تم ذلك كما ذكرنا في فصل مسار التنمية الحضرية بموجب القرار المؤرخ في 09 سبتمبر 1880م، وأمام هذه المرتبة الإدارية الجديدة ظهرت حركة معمارية، خاصة أنها أصبحت تُسيّر بالنظام الفرنسي المعمول به في المجال الاجتماعي في وقت كانت الجماعة هي من تسهر على ذلك الأمر.⁽¹⁾

تمركزت أولى الإنجازات المعمارية الفرنسية الحضرية المشوّهة للنسيج المعماري التاريخي لندرومة بالجهة الشرقية، بالتحديد في حي الخربة أحد الأحياء الأربعة المكونة للتصميم العمراني الإسلامي للمدينة الموجود بالجهة الشرقية، ربما يرجع اختياره لذلك المكان لإشرافه المباشر على الطريق الرابط بين ندرومة والنواحي المجاورة لها كمدينة الغزوات ومغنية ودائرة فلاوسن، ضف إلى ذلك عملية البناء لن تتطلب فتح عدد من الشوارع وهدم المباني بصورة كبيرة، فيمكن إبطال مواد البناء بسهولة، والاكتفاء فقط بتحطيم المكان المخصص لبناء الوحدات المعمارية الجديدة، وقبل قيامه بتجسيد عملية التنمية الحضرية بهذه

1-Gilbert Grandquillaume, Op.cit,p:64

الجهة، كان قد أقدم في وقت سابق عن ذلك بالتحديد سنة 1882م، بتوسعة مكان التريعة المخصص لبيع الصوف والحبوب والصناعات اليدوية كالجلاية والبلغة... إلخ، والتقاء سكان المدينة، وذلك من أجل إفساح الطريق نحو المساكن الفخمة التي تمركز فيها المعمرون الأوائل، التي كانت تابعة لأعيان المدينة من الحكام الأتراك والقضاة الذين عينهم الأمير عبد القادر فيما بعد⁽¹⁾، وقد كان إقدامه على إحداث تلك العملية تشكيل تلوث بصري كتلي لتخريبه التناغم والانسجام المعماري الذي كان سائداً هناك، وما زاد الطين بلّة بدئه إنجاز نواته الحضريّة بحى الخربة بمسكن عمودي متكون من طابق وشرفة، وذلك بعد سنتين من توسعته للتريعة، أي في سنة 1884⁽²⁾، أنظر المخطط رقم (14)، لقد شكّلت هذه الحركة المعمارية الغربية والخروج عن النمط المعماري الأصيل بداية انفصام الشخصية المعمارية للمدينة، وتكوّن صورتين عمرانيتين متجاورتين ومختلفتين يتأثر بهما المشاهد، فالعقل البشري يقوم بتنظيم ما يصله من أشعة خارجية على شكل صورة ينظمها مع بعضها البعض وفق وحدة اللون والمادة والموضوع، وهي عملية ليست سهلة وبسيطة وذات تأثير سطحي، بل هي عميقة التأثير في النفس البشرية، قد تؤدي لظهور القلق وعدم الارتياح لرؤية المناظر المشوّهة غير المتضمنة لمعايير جمالية، وهي من الأمور الفطرية التي جُبل الإنسان عليها، لذلك رافقت وجوده منذ الطفولة، إذ أن إدراك الأشياء يعني تمييزها ورؤيتها بصورة يتم اختيارها تبعاً لتصميم العنصري المرئي⁽³⁾، وحينما يخضع هذا الأخير للتعديلات الداخلية أو الخارجية، فإنه سيفقد من دون شك ما يجعله من المواضيع التي تلقى إقبالاً من طرف أفراد المجتمع، وهو ما حدث للنسيج المعماري التاريخي بعدما غزى الإسمنت مجال رؤيته ودخل إلى تكوينه الداخلي وإلى مساكنه، بفعل ضرورة تنمية الإطار الحضري وفق عملية تركز على العمل بما هو جديد وحديث.

1-Djilali Sari, les villes précoloniales..., Op.cit, p:171

2-Lahcen Khetabi, Op.cit, p:99

3-وائل حسين يوسف، الإدراك المرئي للعمارة والعمران، ص:1-2 www.wahmed.kau.edu.sa

يظهر من المخطط المنجز من طرف الإدارة الاستعمارية لمدينة ندرومة سنة 1892م أن مساحتها بقيت على حالها مقارنة بحدودها المتوافقة مع مسار أسوارها، أنظر المخطط السالف الذكر رقم (02)، وهو ما يبرز تموقع التعديلات المستحدثة إلى غاية تلك السنة داخل حيزها العمراني العتيق وأنها كانت ضئيلة، ويبدو أنها بقيت على ذلك الحال متوافقة مع ما ألتقط في الصورة رقم 04 (أنظر ملحق الصور)، حيث تظهر مفرداتها المعمارية من الجهة الجنوبية الغربية المقابلة لزاوية التقاط الصورة متجانسة مع بعضها البعض ويتوسطها المسجد الجامع المرابطي كعنصر معماري بارز على شاكلة التنظيم المعمول به في المدن الإسلامية قديماً، فقد كان هذا الموضع خاصة حضرية إسلامية محضة⁽¹⁾، وتشير هذه الصورة أيضاً إلى تساوي الارتفاع بين المساكن باستثناء مئذنة الجامع التي تبرز مشرفة على تلك المساكن، استناداً إلى فقه العمران الإسلامي، وهو ما جعل خط السماء في المدينة مستقيماً إن صحَّ التعبير، وهي الأخرى إحدى الميزات الحضرية التي تميزت بها جل حواضر العالم الإسلامي.

وتوالت مظاهر التلوث البصري بالظهور في التكوين العمراني العتيق لمدينة ندرومة مع مطلع القرن العشرين، حيث عرفت هذه الأخيرة اختلالاً في ملمحها العام الذي كان يتميز بتجانس وحداته المعمارية على اختلاف وظائفها المخصصة لها سواء كانت دينية أو مدنية أو عسكرية، إذ مهما اختلفت في التصميم الخارجي فقد كانت تشترك في العناصر المعمارية إلى حد ما، وقد ظهر في هذه الفترة الزمنية التصميم الأوربي جنباً إلى جنب مع النسيج التاريخي كحي سكني قائم بذاته إبتداءً من سنة 1900 بالجزء المطل على الطريق الرابط بين المدينة والغزوات من حي الخربة⁽²⁾، أنظر المخطط رقم (14)، ربما وقع اختياره على ذلك المكان لأنه ذي طبوغرافية جيدة، مقارنة بطبوغرافيا النسيج المعماري الذي تبلغ فيه نسبة الانحدار 10%، وقد تزامن مباشرة الإنجازات مع ازدياد عدد سكان المدينة، وهو ما يؤكد أنَّ

1- محمد عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص: 102

2-Djilali Sari, les villes précoloniales..., Op.cit, p: 171

المستعمر كان يبحث عن وعاءٍ عقاري جديد لاستيعابهم، خاصة أن التخطيط العمراني للمدينة العتيقة لم يصمّم في بادئ الأمر من طرف المعماري المسلم مثل هذا العدد المرتفع الناجم عن ازدياد السكان وللإشارة فقط فقد بلغ عدد سكانها مع مطلع القرن العشرين حوالي 7745 نسمة في الوقت الذي كان تعدادهم يقدر بحوالي 2545 نسمة في نهاية القرن 19م، كما ذكرنا لذلك سابقاً في الفصل الخاص بالعامل الاجتماعي.

رَكَّز المستعمر اهتمامه في إنجاز المباني على ما له علاقة بمصلحة المعمارين المتمثلة أساساً في توفير مقرات إدارية كمقر البلدية والسكن، وقد فاق عدد المساكن 50 مسكن، بُنيت بنفس التصميم الذي أنجز به المسكن الأول في سنة 1884م في تلك الجهة، أنظر الصورة رقم (44) و(45)، كلها تظهر بنوافذ ذات الشكل الطولي وجدرانها إسمنتية مصطفةً بشكل منتظم وفق محور يمتد من الشمال نحو الجنوب، وقد فرض عليه هذا التوجه التصميمي لضيق المساحة المخصصة للبناء، نتيجة قرب هذا الحي من المقبرة التي يفصلها عنه الطريق السالف الذكر ولاحظنا بالموازاة مع هذه الأشكال الغربية عن هوية العمارة بالمدينة وجود شارعين يتخللان المساكن الفرنسية بشكل موازي لها، وهما أكثر اتساعاً من دروب المدينة التي تتقاسم معه التكوين المعماري للحي وتراوح عرضها بين 4,60م و4,90م، في حين لا يزيد عرض الدروب المصمّمة من طرف المعماري المسلم عن 2,20م، ومما لاشك فيه أن هذا التناقض الجوهري قد أنتج تشوهاً ملمحياً تسبّب في حدوث أضرار جسيمة على القيمة الفنية والتاريخية المميزة لعمران المدينة.

إضافة إلى ما تمت الإشارة إليه، زاد اقتطاع الجزء الشمالي الغربي المقابل لحي الخربة من طرف المستعمر حدة التلوث البصري نتيجة إقدام هذا الأخير على بناء مقر للدرك الوطني بذلك المكان، ومقابله شمالاً أنجز مركز البريد، الذي لا يزال هو الآخر يقدم نفس الوظيفة لحدّ الساعة التي كتبت فيها هذه الأطروحة⁽¹⁾، وناهيك عن التغير الذي يستشعره المتجوّل في هذه الجهة من المدينة

1- محمد بن زغادي، مرجع سابق، ص: 46

العتيقة يتضح جلياً من المرتفعات المحيطة بها الازدواجية الحضرية المتباينة في الشكل الخارجي والتصميم الداخلي، النواة الحضرية الأولى وهي الأصلية تنم عن الفن المعماري الأصيل، والثانية تشكل أحد الأوجه البارزة للتغير الحضري في مجال البناء والتعمير باسم عملية التنمية الحضرية التي أصبحت أحد أهم القضايا الشاغلة لاهتمام أفراد المجتمع قبل حكوماتهم في حد ذاتها، باعتبارها الطريق المختصر لتحقيق اهتماماتهم المادية على أرض الواقع.

يُستدل من ذلك أن انبعاث التلوث البصري بمدينة ندرومة ممّا قام به المستعمر الفرنسي من تعديلات على تصميمها المتكون من المعالم التاريخية التي تركها الأسلاف بميزات خاصة، بُغية جعله ملائماً لنظرته العمرانية الغربية، وقد زاد الوضع تأزماً ما صاحب هذا التعديل من هدم وتخريب لبعض المساكن القديمة وتعويضها بأخرى ذات نمط غربي تتجاور مع ما تبقى من مبانٍ، وهو ما أضفى تأثيراً واضحاً على أصالة المدينة نتيجة تشكل التلوث البصري الكتلي، وغياب التوافق والانسجام في المشهد الخاص بالمعالم التاريخية المكوّنة للنسيج المعماري العتيق، فهو يتميز بوحدة الجيرة المتضامّة ذات الكثافة الاجتماعية المتنوعة التي تتداخل فيها الفعاليات الثقافية والمعمارية والاقتصادية والبيئية في أنموذج عمراني متعدد الوظائف⁽¹⁾، غير أن التصميم الفرنسي ظهر كصورة جامدة مستقلة عن الإنسان وفطرته في التعايش مع بعضه البعض، إذ أصبح خاضعاً للعمارة في ثقافته المادية واللامادية، لأن الفكر الغربي عامة يفصل النتيجة عن السبب في عملية الانتاج المعماري والإنساني ككل، وقد ذكر أحد دارسي علم الجمال مثل لوكاتش "Lokatch" أن الخصوصية التي يعكسها التكوين العمراني للمدن العتيقة هو مقولة جمالية.⁽²⁾

1- زينب راضي عباس البلداوي، المناطق العشوائية بين الواقع والطموح نحو بيئة حضرية مستدامة، حالة دراسية أم الورد، مجلة المخطط والتنمية، العدد 18، المعهد العالي للتخطيط الحضري والإقليمي، جامعة بغداد، العراق، 2008، ص: 41.

2- رمضان بسطاوي محمد غانم، علم الجمال عند لوكاتش، مطابع الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، 1991، ص: 16-37.

لم يتوقف فساد وتشوُّه هذه المقولة الجمالية كما عبّر عنها لوكاتش في السنوات التي تلت مطلع القرن العشرين بمدينة ندرومة، فمع بداية أربعينيات القرن الماضي أنجز حياً سكنياً بالجهة الشمالية مكون من 14 قطعة أرضية مساحة كل واحدة منها 200م²، مخططة شطرنجي تتعامد فيه الشوارع العريضة والمستقيمة مع بعضها البعض⁽¹⁾، يتراوح طول الشوارع الأفقية بين 270م و290م وطول الشوارع العمودية بين 180م و210م، أما عرضها فتراوح ما بين 11م و13م، تصطف المساكن في زوايا تقاطعها

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التوسع الفرنسي وإخلاله بمورفولوجية المدينة، قد تزامن مع حدوث توسع آخر لم ينفذ من طرف المستعمر، فقد تكوّن بفعل استقرار سكان الأرياف المجاورة بالمدينة عقب تدهور معيشتهم، وقد تمركزوا بالجهة الجنوبية الشرقية للنسيج التاريخي مكونين تجمع يعرف باسم حي سيدي عبد الرحمن، وتجمع آخر بالجهة الجنوبية الغربية يعرف باسم حي الرملة⁽⁴⁾، أنظر المخطط رقم (14)، وهو ما زاد في تشوُّه المظهر العام للمدينة نتيجة تكوُّن هذه الامتدادات خارج أسوارها جهة الشرق والجنوب، واختلافها في مادة بنائها مع الوحدات المعمارية العتيقة، واختلافها في مادة بنائها مع الوحدات المعمارية العتيقة من جهة أخرى.

لقد كانت هذه الفترة الزمنية التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية بمثابة حدوث منعطف آخر في التكوين العمراني لمدينة ندرومة، بحكم ما ميّزها من أحياء السكنية جديدة تابعة للمستعمر الفرنسي الذي أراد تنمية المجال الحضري وفقاً لهويته الحضارية، وأيضاً للمهاجرين من الأرياف الذين اضطرتهم

1-Djilali Sari, les villes précoloniales..., Op.cit, p: 171

2-النويدر: هذه الكلمة تصغير لكلمة النَّادر، وهي تطلق في اللهجة المحلية لسكان منطقة ترامة على أكوام التبن التي يتم تلييسها بالطين، حتى لا تنفذ إليها مياه الأمطار في الشتاء، ليتم الاحتفاظ بها واستخدامها في أوقات الحاجة كعلف للحيوانات.

3-Djilali Sari, les villes précoloniales..., Op.cit, p: 172

4-Sidi Mohammed Trache, Op.cit, p: 36

الظروف السائدة آنذاك إلى الرحيل عن مداشرهم وأراضيهم الفلاحية، وأمام هذا الوضع أصبح حزام الأسوار التي تلف المدينة العتيقة وتحميها من الغزاة... إلخ جزءاً من التكوين الداخلي لهذه الأحياء الجديدة لتغيب بذلك أحد أهم الميزات البارزة في المورفولوجية الحضرية العتيقة التي تحدت الكثير من المستشرقين عنها أمثال جرونوباوم Grunebaum، حيث أشار إلى نظام العمراني المتقن وإلى البوابات التي تغلق ليلاً والأسوار التي تلف المدينة من جوانبها الأربعة متضمنة لجميع المفردات المعمارية الخاصة بتلك المدينة⁽¹⁾، ولم يتوقف التأثير الناجم عن ذلك عند هذا الحد، بل تعداه إلى أبعد من ذلك نتيجة تحطم أجزاء معتبر منه، ليزيد بذلك اختفاء القيمة التاريخية لمدينة ندرومة وتعرضها بشكل مباشر للتلوث البصري، بعدما بنيت في مكانه مبان تختلف ظاهراً وباطناً مع التصميم الهندسي للمساكن العتيقة، ومواد بنائها، وهو الآخر أحد أنواع الأضرار التي تهدد بقاء الموروث المادي كتحفة نادرة تنفرد بخصائص تعكس مدى براعة المعماري المسلم في التخطيط، وجودة الصنع وقدرته على ترويض الطبيعة، وفقاً لما يخدم حاجياته، وتتابع الامتدادات العمرانية خارج أسوار المدينة في الأربعينيات، مخفية ومشوهة في نفس الوقت التشكيل الوظيفي والرمزي الذي يحتضنه التصميم الهندسي للمساجد والمساكن والدروب، حيث يجتمع بداخلها عالم مفعم بالحياة والحركة يكاد يتناقض وظيفياً مع بعضه البعض⁽²⁾، لقد تضاعفت حدة تأثير الثقافة الدخيلة على الموروث المادي، وذلك بعدما زاد توسع الأحياء السكنية في محيطها الخارجي بالتحديد في الجهة التي أسس فيها المستعمر الفرنسي نواته الحضرية وبعض المساكن بالجهة الشمالية والشمالية الغربية، أنظر المخطط رقم (14)، وقد تمّ ذلك بالتحديد منذ سنة 1945م وتوالت عمليات التمدد العمراني بعد ذلك، حيث تمّ إنجاز حي سكني على شاكلة الحي الأروبي الأول على طول الجهة الشمالية والشمالية الغربية بالملكية التابعة لعائلة رَحّال التي بلغت

1- صالح الهدلول، مرجع سابق، ص: 20

2- عماد صولة، مرجع سابق، ص: 20

مساحتها حوالي 2650م²، وقد قُسمت إلى 15 قطعة أرضية⁽¹⁾، وأصبحت الامتدادات العمرانية في حدود هذه الفترة الزمنية يتربع على مساحة قدرها حوالي 12 هكتار أي أكبر من مساحة النسيج التاريخي الذي تقدر مساحته بحوالي 09 هكتار، وعلى الرغم من ذلك فإنه يضم عدداً كبيراً مقارنة بالحي الأوروبي لاعتماد مخططيه على فتح دروب ضيقة ومساحات صغيرة للمساكن، وعدم فتح المساحات الواسعة داخل التصميم العمراني.

وقام النازحون من الأرياف نحو المدينة في فترة الخمسينات والستينات ببناء أربعة مساكن⁽²⁾، ونجم هذا التمرکز عن القفزة النوعية في احتواء المدينة على الخدمات الأساسية كالسوق الجديد المنجز بالجهة الشمالية إضافة إلى مركز البريد، هؤلاء النازحين ناهيك عن المدرستين المنجزتين بالمدينة، وقد تمرکز النازحون في الجهة الجنوبية الشرقية، أي بالمكان الأول الذي دخلوا فيه إلى المدينة (حي سيدي عبد الرحمن والرملة)⁽³⁾، أنظر المخطط رقم (14)، وهو ما جعل تلك الناحية تزداد اتساعاً في هذه الفترة، وتجدد الإشارة إلى أن حي الرملة المتمركز بالجهة الشرقية شهد مزيداً من التوسع في السنوات الأولى بعد الاستقلال، بالموازاة مع ذلك عرفت نفس الفترة عودة النمو العمراني إلى الجهة الشمالية من المدينة، أنظر المخطط رقم (14).

ازدادت حدّة تأثير التوسع العمراني على أصالة النسيج التاريخي، وقيمته الفنية المنعكسة في تساوي ارتفاع عمائره وتلاصقها مع بعضها البعض كخلايا النحل، والتفافها حول المسجد الجامع لتحميه كرجل واحد من الغزاة الأجانب بمواد بناء متشابهة ومتناسقة مع البيئة المحتضنة للحيز العمراني للمدينة وتواصلت عمليات البناء بالمدينة وفق النمط العمراني الذي اعتمده المستعمر الفرنسي في إنشائه للتجمع السكني السالف الذكر، وهو بمثابة انعكاس مباشر لتأثر ساكني المدينة والقائمين على التخطيط

1-Djilali Sari, les villes précoloniales...., Op.cit,p:172

2-ibid,p:172

3-Sidi Mohammed Trache, Op.cit,p:36

بثقافة المستعمر في مجال البناء⁽¹⁾، حيث تابعت عملية التوسع نحو الشمال على طول الطريق المؤدي نحو مدينتي الخريبة والغزوات إلى وقتنا الحالي، أنظر المخطط رقم (14)، هذه الحركة كما أشار إليها البعض من الدّارسين هي سلاح ذي حدين فمن جهة تحقق المتطلبات التي يحتاجها أفراد المجتمع، ومن جهة أخرى تشوّه المسار الحضاري للمدينة بحكم تكوّنها على أرض الواقع ببعدين زمنيّين هما الحاضر والمستقبل.⁽²⁾

3-2 تأثيرات التلوث البصري من الاستقلال إلى الوقت الرّاهن:

على غرار مدينة تلمسان عرفت مدينة ندرومة تأثير التنمية الحضرية على ما تبقى من بصمات الأسلاف فيها، نتيجة الحركة المعمارية الدؤوبة التي شنّها ساكنيها والسلطات المحلية في المدينة.

3-2-1 التلوث البصري المورفولوجي:

حدث تضافر مجموعة من العوامل في الفترة التي تلت الاستقلال إلى الوقت الحالي، أدّت إلى اتساع المجال العمراني لمدينة ندرومة وتنامي عملية التنمية الحضرية، وقد تمثلت في العامل الاجتماعي، فقد عرفت ارتفاعاً محسوساً في عدد سكانها في هذه الفترة، إضافة إلى العامل الإداري الذي كان وراء تجسيد المخططات التنموية بالمدينة، حيث ارتقت إلى مصف دائرة سنة 1974م، من هذا المنطلق عرفت المدينة انطلاقة نوعية في مختلف المجالات، حيث تم إنشاء عدة مؤسسات صناعية مثل المؤسسة الوطنية للخشب (SNLB) التي تسمى اليوم بالمؤسسة الوطنية للنجارة العامة والجاهزة وتدعّمت بمؤسسة أخرى في نفس المجال لكن في صناعة النسيج والحريير (SOITEX) التي لا زالت تنشط في نفس الصناعة مع إضافة عملية الصباغة وأصبحت تسمى بـ (SOITE)، ثم أنشئت وحدة خاصة بالصناعات التقليدية (ETICO)، وتمّ إنجاز هذه المؤسسات مجتمعة في مكان واحد بالجهة الشمالية من المدينة حتى تكون على مقربة من الطريق الوطني رقم 98 القادم من مدينة تلمسان مروراً بها باتجاه مدينة

1-قارني جاكلين بوجو، مرجع سابق، ص: 15

الغزوات، والطريق الوطني رقم 99 القادم من مدينة مغنية مروراً بها إلى نفس المدينة السابقة، وذلك حتى يسهّل نقل المنتجات إلى المدن المجاورة، كما أرغمت طبوغرافية المدينة المنحدرة إلى التوجه لتلك الناحية، وتعززت أيضاً بمراكز خدماتية تماشياً مع مرتبتها الإدارية الجديدة مثل مقر الصندوق الوطني للتأمينات والمحكمة، ومصحة الولادة وأحد الفروع البنكية.⁽¹⁾

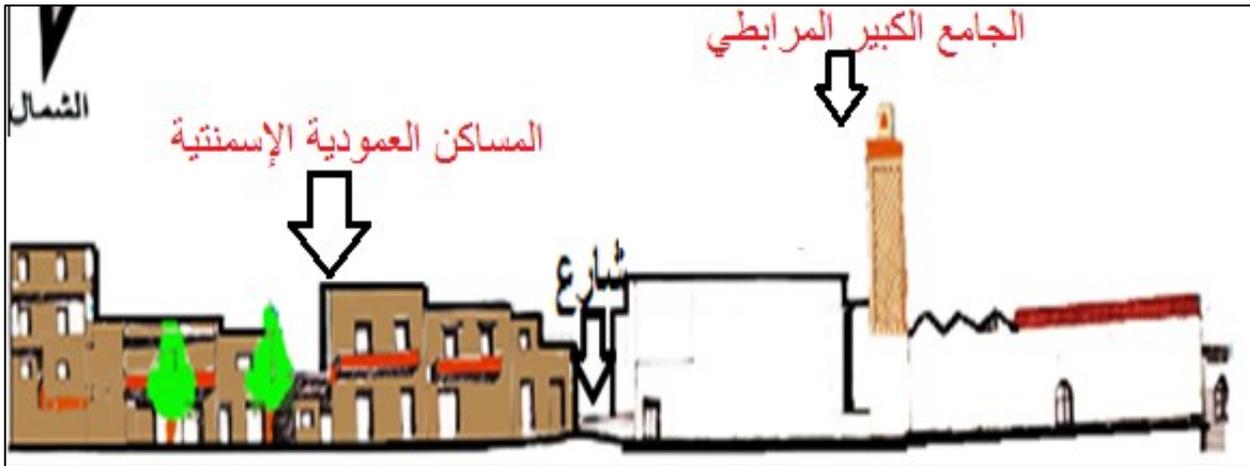
أمام هذه التنمية الحضرية التي شهدتها المدينة تضاعفت الازدواجية الحضرية فيها، بل أكثر من ذلك بدأ يتلاشى مفهوم الملمح التاريخي فيها لانتشار البناء العمودي الإسمنتي في جميع عمليات التوسعة التي بدأت تعرفها عقب الاستقلال، وأيضاً لاعتماده على الشوارع العريضة المستقيمة على النحو الذي كان يستعمله المستعمر الفرنسي في إنجازه للأحياء السكنية، فقد تمّ إنجاز مشروع 48 سكن كأول مبادرة في هذا المجال في الثمانينات من القرن الماضي على مقربة من المؤسسات الانتاجية السالفة الذكر، أي على بعد حوالي 01 كلم من المدينة العتيقة ورافق إنجاز هذا المشروع قيام عدد من السكان ببناء مساكنهم بنفس المكان، ثم أعقبت هذه التجهيزات المعمارية في نهاية الثمانينات بإنجاز مشروع 224 سكن وزّعت على الوافدين الجدد إلى المدينة⁽²⁾، وتتابع عملية التوسع لكن هذه المرة جهة الغرب على طول الطريق المؤدي لبلدية جبالة، حيث تم إنشاء 192 سكن عبارة عن مساكن فردية وشقق في العمارات، وهو يسمى حالياً بحي بوقميلة، ثم أتبع هذا المشروع في بداية العقد الماضي بمشروع سكني أكبر ممّا تمّ إنجازه من ذي قبل، حيث قدر عدد المساكن المنجزة بـ 1454 سكن⁽³⁾، وقد رجع القائمون على هذا المشروع بإنجازه بالجهة الشمالية من المدينة قرب المنجزات السالفة الذكر، وأنجز مؤخراً مستشفى زاد من تميز الجهة الشمالية عن باقي جهات المدينة.

1-Sidi Mohammed Trache, Op.cit, p:37

2-Sidi Mohammed Trache, Op.cit, p:40

3-بلدية ندرومة، المصلحة التقنية.

انتهى المطاف بالمدينة العتيقة مشوّهة الملح العام الذي كان يعكسه طابعها العمراني الإسلامي فمقارنة مع الامتداد العمراني البالغ مساحته حوالي 20 هكتار، أنظر الصورة رقم (46)، وذلك بدءاً من مباشرة المستعمر الفرنسي عمليات البناء لحدّ الساعة، أي ضعفي مساحة النسيج التاريخي الموجود داخل حدود الأسوار وفقاً للصورة الملتقطة سنة 1850 للمدينة التي تبرز جزء من الأسوار ومئذنة الجامع والمساكن، وأيضاً مقارنة مع المخطط المنجز سنة 1882، فالبموازاة مع تحديده لحدود النسيج المعماري يُظهر لنا أيضاً مسار السور المحيط بها، وهو الأمر الذي لم يعد موجوداً اليوم، وبإنجاز مباني عمودية في المدينة تتقاسم الارتفاع مع مئذنة الجامع الكبير المرابطي، أنظر الرسم التخطيطي الآتي:



الرسم التخطيطي رقم (12): يبين التناظر في المظهر الخارجي من حيث الشكل والارتفاع بين الجامع

الكبير والمباني المقابلة له جهة الشرق، Lahcene Khattabi, Op.cit, p:120

اختفت اللّمسات الحضارية المبتكرة من طرف الأسلاف قديماً التي تعتبر إحدى الاعتداءات المنبثقة عن التحضر المادي، المستورد عن الغرب، وتكوّن التلوث البصري الكتلّي، ومن تمّ أصبحنا ندور في ذلك

التخطيط والتعمير الغربي نتيجة دوراننا في فلكه الاستعماري لمدة زمنية طويلة، ويعد هذا المظهر أبرز التأثيرات الناجمة عن التقليد الأعمى للأسلوب التنموي الحضري الغربي الذي بدأت بوادره الأولى على يد المستعمر الفرنسي عندما احتل المدينة، وقام بإنجاز الحي السكني على طول الجهة الشمالية الشرقية والغربية، ومهما تغيرت الجوانب الاجتماعية وتزايد أعداد ساكني المدينة، فذلك لا يعني التخلي عن الهوية المعمارية والاقتداء بما هو غريب عنها، ولعلّ الواقع الذي تعكسه مدينة ندرومة العتيقة وغيرها من المدن الإسلامية التصميم حول تغير ملمحها، وتعرضه للتشويه وبروز التناقض بينه وبين المباني المشيدة والشوارع المفتوحة بجواره، لمثال نيّر عن مدى تصادم الأصالة والمعاصرة في المكان الواحد، بفعل ما يتطلبه الإنسان من حاجيات تلي رغباته التي فرضتها سنة التغير.

وقد انحصر مظهر التلوث البصري المورفولوجي في التغير الجذري لمورفولوجيتها الحضرية التي كانت دائرية الشكل حول الجامع المرابطي بعماثرها المتلاصقة ودروبها الملتوية، حيث زاد توسعاً بنمط عمراي غربي يعتمد على مواد بناء مغايرة وتصميم هندسي عمائري مختلف وشوارع مستقيمة وعريضة، ليتغير بذلك مفهوم مركز النواة الحضرية، وفوق ذلك تغير خط السماء الموحد الارتفاع الذي كان يسري وفق مسار أفقي إلى خط متعرج تارة يصعد وتارة ينزل، نتيجة دخول البناء العمودي متعدد الطوابق إلى النسيج المعماري التاريخي.

3-2-2 التلوث البصري الداخلي:

لم يبق تأثير التنمية الحضرية حبيس المحيط الخارجي للنسيج التاريخي، بل تعدّى ذلك ليدخل دروبه وعمائره المكونة له، وذلك ناجم بالدرجة الأولى عن الفجوة الثقافية الموجودة عند ساكنيه جرّاء انقيادهم وراء النمط المعماري المنجز في الفترة الاستعمارية شكلاً ومادّةً، وهو ما أدّى في نهاية المطاف إلى حدوث التلوث البصري، وفقدان جزء مهم من القيم المميزة له التي يأتي في مقدمتها القيمة الفنية والتاريخية، ويتبين من خلال هذا الاختلال في المسار التنموي الحضري لهذه المدينة وغيرها من المدن ذات الطابع الإسلامي أن عملية التنمية الحضرية هي الشكل المادي الناتج عن الطموح اللامتناهي للإنسان

في توفير إطار معيشي أفضل ممَّا يعيش فيه، وأنها انتقل من نمط قائم إلى نمط آخر غير آبهة بما هو متأصل وعريق في المدينة⁽¹⁾، ومما لاشك فيه أن هذا الوضع هو الأزمة التي يعيشها الموروث المادي الثابت في مدينة ندرومة العتيقة، فنظراً لكونه نظام محكم في جانبه العمراني والمعماري، تتكامل جميع وحداته الدينية والمدنية والعسكرية لتؤلف نمطاً حضرياً خاص، يتناقض كلياً مع ما تمَّ إضافته إليها في الفترة الاستعمارية وبعدها إلى حدِّ الساعة، وقد أصبح اليوم في صورة لا تبعث الإحساس بماضيها العريق وعمرانها الأصيل، إلاَّ فيما نذر كالجوامع المرابطي، وعدد من مساجد الأحياء، والمسكن التي لا زالت تحتفظ بجزء من بصمات الأسلاف الذين قاموا بتشييدها وفق قواعد هندسية إسلامية محضة.

وعلى غرار المدينة العتيقة بتلمسان، فقد تجسدت بها مظاهر التمدن الحديث التي أدخلت مفهوم عمراني جديد أدَّى إلى بروز نواة بتفاصيل جديدة، أو بمعنى آخر ظهور مفهوم الازدواجية الحضرية بنسجها التاريخي، وذلك بعد أن ارتبطت في بعض جهاتها بمقياس جديد في التصميم يعتمد على فسح المجال لمرور السيارات كما سنرى ذلك، وهو الأمر الذي يتناقض مع المقياس الذي كان المعتمد في فتح دروبها، فلم يكن إنجازها أمر عفويًا، بل خضع لضوابط انقسمت إلى قسمين أحدها يطبق حين يتم البدء في إنشاء المدينة، ويتم إعداد مخططها العام أي موقعها ومسار سورها وتوزيع بواباتها، لتكون حلقة وصل بين الطرق التجارية وقلب المدينة أين يوجد المسجد الجامع وقصر الخليفة والقيصرية القريبة منهما، والجزء الثاني من تلك الضوابط يهتم بتوزيع الدروب والمسكن، وقد كان ذلك محكوماً بعاملين الأول يتمثل في السنة النبوية الشريفة، والثاني في العرف الذي يقضي تحديد عرض الدروب وفقاً للمقياس الإنساني المنحصر في عرض مطية محمَّلة عن اليمين وعن اليسار زائد إنسان، أي أن عرض الدرب لن يتعدى 2,50م كحد أقصى.⁽²⁾

1- بتول أحمد جندية، مرجع سابق، ص: 12

2- ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص: 61

ونظراً لخصائصه العمرانية غير المتوافقة مع ما تعمل التنمية الحضرية على إعداده في أرض الواقع، فقد أصبح عرضة للدخول في خبر كان، ليحل محلّه التنظيم العمراني الجديد الذي يجد فيه ساكنيه متطلباته المعاصرة وراحته طلباً للرفاهية، ولعلّ الأمر الذي جعل النسيج التاريخي يتعرض لهذا الأمر، هو العلاقة الوطيدة بين السكان والمكان، وأيضاً لموقعه الاستراتيجي القريب من جميع المرافق الضرورية التي يحتاجونها، وقد أصبحت هذه المرافق بمثابة امتيازات تحصّل عليها ساكني المدينة العتيقة، الأمر الذي دفع بهم للبقاء فيها، وحتى إن غادروها ستستأجرها العائلات التي لا تملك سكناً ولن تقوم بصيانة وتقوية المسكن، فهو بالنسبة لها مرحلة انتقالية.

جميع هذه المعطيات عزّزت العلاقة بينهم وبين المكان، وهو ما جعلهم يعمدون إلى إضفاء مجموعة من التعديلات على النسيج التاريخي الموجود فيه، مقتدين بما جلبته عملية التنمية الحضرية الغربية في الأحياء السكنية الجديدة المنتشرة بشمال وجنوب وغرب المدينة كطريقة البناء والمواد المستعملة والتجهيزات المرافقة، وقبل التعرض لذكرها ارتأينا أن نتحدث عن كامل النسيج التاريخي على أن نقسمه إلى الأحياء، نظراً لصغر مساحته التي ربما تعادل حين ساكنين بالمدينة العتيقة في تلمسان كحي الرحبية وباب زير، وتجدد الإشارة إلى أن التلوث البصري الناتج عن انتشار القمامة في الأحياء العتيقة لم يظهر إلا في درب واحد وبكمية قليلة جداً، بالرغم من كونها من الإفرازات الحضرية الناتجة عن عدم توافق العادات الاستهلاكية مع النظام المعماري، وهذا دليل على قيام السلطات المحلية بدورها الكامل في مجال النظافة، كما لم نعاين ميدانياً انتشار ظاهرة اللافتات والإشارات المرورية التي تشوّه المنظر الخارجي للمعالم التاريخية، في حين لمسنا استخدام واسع للأدوات الحضرية ذات الصبغة الحداثية، وأهم مظاهر التلوث البصري الداخلي ما يلي:

أ- التلوث الخطي (انتشار الأعمدة والأسلاك الكهربائية):

لقد اجتاحت تقنية الإنارة باستعمال الكهرباء جميع أحياء المدينة العتيقة، بحكم كون هذه الأخيرة أحد أبرز الأدوات الحضرية التي باتت ترافق حياة الإنسان منذ اكتشافه أوّل مرة في مساكنه

وشوارعه، وأواخر القرن 18م، وقد دخلت هذه التقنية في الإنارة إلى حياة الناس، وفرضت وجودها بحكم ما لها من دور بارز

في تحقيق الرفاهية المنشودة من طرفهم، وعلى غرار مدينة تلمسان العتيقة، فقد انتشرت وسائل الإنارة التابعة للمفهوم الحضري الحديث في النسيج التاريخي لمدينة ندرومة العتيقة، وعند قيامنا بمعاينة الأحياء السكنية لاحظنا وجود العديد من الأعمدة الحاملة للأسلاك الكهربائية ومصابيح الإنارة، وقد لاحظنا وجود نموذج لها يختلف عمّا معمول به في الوقت الحالي، وبعد استعلامنا من سكان الحي عنها تبين أنها تعود للفترة الاستعمارية، وهو ما يؤكد أن البدايات الأولى لاستخدام هذا النوع من الإنارة يرجع إلى الفترة الاستعمارية، لقد شكّلت هذه الأعمدة والأسلاك الكهربائية ومصابيح الإنارة مشهداً يتداخل فيه القديم بالحديث محدثة شرخاً في شخصية التصميم العمراني، تمخض عنه تلوث بصري نتيجة ضياع القيمة الفنية والتاريخية للموروث المادي، فجمالية الموروث المادي تتمثل في أصالة مواد بنائه وتصميمه الخارجي وتناسقهما مع بعضهما البعض من دون أن يحدث بينهما أي تناقض في المظهر، وفيما يخص هذه التجهيزات فقد عمّت جميع أحيائها الأربعة المكوّنة لتصميمها العمراني من دون استثناء أي واحد منها، هذا الأسلوب الجديد في الإضاءة الذي رافق ظهور النمط المعماري الغربي المنقذ في إطار تنمية المجال الحضري وضع الموروث المادي في بيئة لا تمت له بأية صلة.

وعن أهم الأمثلة التي عكست ذلك ما يوجد بحي الخربة الذي يعتبر أولى الأحياء السكنية التي تعرّضت لتأثير التنمية الحضرية، بفعل ما أنجزه المستعمر الفرنسي من عمائر واستحدثاته لشارعين مستقيمين يتراوح طولهما ما بين 115م و130م، ويقدر عرضها بحوالي 4,80م، وفي الدروب القريبة من التربعة، أنظر الصورة رقم (47)، ونفس الوضع يتكرر في حي سيدي بوعلي، وعند الجزء المتبقي من السور الجنوبي، حيث تعرّض للتلوث البصري الخطي والكتلي معاً. أنظر الصورة رقم (48) و(49).

انبثق التلوث البصري الخطي عن اختلاف مادتي المساكن والأعمدة والأسلاك الكهربائية، فواحد يعكس بصمة قديمة جسدت بطريقة بسيطة ومواد بناء محلية تمثلت في الحجارة، والآخر يعكس لمسة

حديثه عصرية تبتعد كل الابتعاد عن الخلفية التي تستند عليها في الوظيفة والمادة والشكل، وهو الأمر الذي انعكس سلباً على الموروث المادي، لتعرضه المباشر إلى فقدان جانبه الفني الأصيل المستمد من تميزه بميزات وافقت النظام العمراني الإسلامي الذي تتناقض معه مثل هذه الإضافات الحضريّة الجديدة بالنسبة له، فقد كان يُعتمد في إضاءة دروب النسيج التاريخي في المدن العتيقة كمدينة تلمسان وندرومة على استحداث كوّات في أعلى جدار السقيفة للسماح لأشعة الشمس إضاءة تجويفها الداخلي نهاراً، ولوضع المصايح ليلاً حتّى تضيء جزءاً من الدرب كما رأينا ذلك في مدينة تلمسان، هذه الأمثلة تمثل حجم الاعتداء البصري، وعدم وجود التواءم العمراني في المدينة العتيقة بندرومة، باعتبارها تمثيل مادي ملموس عمّا كان معمول به في ميدان البناء والتعمير في العصر الوسيط بالمغرب الإسلامي وناهيك عن الأدوات المستعملة في الإنارة، كثيراً ما صادفنا تمرير الخطوط الكهربائية فوق جدران المساكن العتيقة على طول مسار الدروب المتلوية الغير منسجمة مع شكلها ومادتها، مثلما هو واقع بدرب رأس الجماعة، حيث تلتصق بجدران مساكنه أسلاك كهربائية ملفوفة بغلاف أسود اللون يقدر عددها بأربعة ويبلغ سمكها بجماعة حوالي 7 سم، وهو ما سمح ببروزها للمشاهد وأخذها حيزاً من المجال البصري الخاص بهذا الدرب المتميز بصبغة تاريخية لا تلتقي في أي نقطة بهذه الأسلاك الكهربائية ذات اللّمسة الحدائية، حيث يتضح من الصور السابقة التنافر في كل من المظهرين الحضريين، وذلك لمروره بجدران المساكن وبالتجويف الداخلي للسقيفة التي تحمل دلالة عمرانية إسلامية يمكن خذشها بأبسط الطرق، لأنها بصمة معمارية خاصة، أنظر الصورة رقم (50)، ونتيجة لدخول لمثل هذه التقنيات الحضريّة الحديثة توارت القيمة الفنية والتاريخية للموروث المادي، وأصبح يبدو وكأنه مجموعة المباني المؤلفة لحي سكني فوضوي.

ب- التلوث البصري النقطي:

نتج هذا النوع من التلوث عن استقبال ساكني المدينة كل ما هو جديد في العيش، ونحن نعتبره أحد الفروع الأساسية للتحضر، فالتنمية الحضرية ليست أشكالاً مادية فحسب، بل هي أيضاً أسلوب معيشي يتماشى مع ما فكر المجتمع.

ب-1 انتشار المكيفات الهوائية:

تعتبر هذه التجهيزات الإلكترونية إحدى السمات البارزة المصاحبة لتغير مفهوم العمران الحضري وتطور أساليب العيش، لقد فرضت وجودها داخل العمائر إلى الحد الذي أصبحت فيه من المتطلبات الضرورية مثلها مثل الغاز والكهرباء، وكما مرّ بنا ذكره عن هذه التجهيزات ذات الطابع الاجتماعي في النسيج التاريخي لمدينة تلمسان حول وجودها بكثرة، ومدى تأثيرها على الخلفية التاريخية لذلك النسيج بحكم الخصوصية التي يتميز بها شكلاً ومادةً وجوهرًا، ومدينة ندرومة هي الأخرى تأثرت بهذه التجهيزات.

وتبيّن من خلال المعاينة الميدانية التي قمنا بها في المدينة العتيقة بندرومة أن المقعرات الهوائية هي الأكثر انتشاراً مقارنة بالمكيفات الهوائية، وذلك راجع لاعتدال مناخ المدينة نظراً لقرّبها من البحر، إضافة لذلك لاحظنا أمراً آخر يتمثل في المسكن المزوّد بالمكيف، فقد كانت غالبيتها إن لم نقل جميعها مبنية بمواد البناء الحديثة على رأسها الإسمنت البورتلاندي الذي تمت الاستعانة به لإجراء مختلف التعديلات وفيما عدا ذلك، فلم نشاهد وجوده بالمساكن التي بقيت محافظة على تركيبها ومواد بنائها الأصلية إلى حدّ ما، الأمر الذي يعكس الدور الوظيفي لما استعان به المعماري المسلم قديماً في بناء عمائره والفرق الواضح بينهما وبين العمارة الحديثة.

وعن أهم الأمثلة التي تجسّد من خلالها ما تم ذكره ما يوجد في حي بني زيد والتربية قرب الجامع الكبير وحي سيدي بوعلي وقرب مسجد القدارين، أنظر الصورة رقم (51)، (52)، (53)، (54) وحسب واجهاتها الخارجية، فيظهر أنها خضعت لتعديلات، فجميعها مكسوة بطبقة اسمنتية على جدرانها، كما أن تصميمها يبو أنه قد غير عما كان عليه، النوافذ العريضة المفتوحة في جدرانها على

الدروب، وهو ما يرجح احتمال أنه لو كان الفناء مثلاً لا يزال مفتوحاً لما دعت الحاجة إلى فتحها واستخدام المكيفات الهوائية، فقد كان من التوابث الهندسية في عمارة المساكن، له وظيفتين أساسيتين الأولى اجتماعية والثانية مناخية تنحصر في تلطيف الجو وتكييف حرارته، لأن هوائه البارد يهبط إلى أدنى مستوى ليلاً ليتسرب إلى الغرف ملطفاً حرارتها، ويبقى محصوراً بين جدران الفناء إلى ساعات متأخرة من الليل⁽¹⁾، ونظراً لانتشارها في جميع أحياء المدينة العتيقة، فقد كان لها دور بارز في إحداث تصادم بين ماضيها وحاضرها العمراني باعتبارها إحدى الميزات الأساسية المرافقة للتنمية الحضرية لكون هذه الأخيرة مسّت إضافة للجانب المادي للأنسان أيضاً جانبه الثقافي، فهي انتقال من نمط اجتماعي وثقافي كان سائداً إلى نمط جديد.⁽²⁾

لقد كانت هذه أهم الإشارات عن الجانب الآخر من التنمية الحضرية المتمثل في ثقافة الاستهلاك المعولة المنعكسة في توظيف عدد من التجهيزات الإلكترونية منزلية التي ألفت هي الأخرى بثقلها الحضاري الغربي على الهوية العمراني للنسيج المعماري التاريخي مشوهة جمالية فنه المعماري.

ب-2 انتشار المقعرات الهوائية:

فيما يخص المقعرات الهوائية، فقد تبين من خلال المعاينة الميدانية للمدينة العتيقة أنه لا يخلو أي مسكن منها، إذ أصبحت من الضروريات في حياة لما لها من دور في الترفيه والتثقيف، وقد كانت الأكثر غزواً لأسطح المساكن العتيقة مقارنة بالمكيفات الهوائية التي جُهِّز بها البعض دون الآخر، وعليه كان تأثيرها أكبر على القيمة الفنية والتاريخية، لأنها إحدى الإضافات الحضرية المترتبة عن التغير في أسلوب العيش مثلها في ذلك مثل التغير الذي اعترى أسلوب البناء وتصميم المدينة إلى غير ذلك وعن أهم الأمثلة التي تعكس مدى استحداثها للتلوث البصري، أنظر الصورة رقم (55)، (56)، (57)، (58).

1- ثروة عكاشة، مرجع سابق، ص: 92

2- بتول أحمد جندية، مرجع سابق، ص: 12

أدت هذه المقعرات الهوائية المشار إليها في الصور السالفة الذكر إلى تشويه المشهد الخاص بالمساكن العتيقة لكونها مصنوعة من مادة حديدية مطلية بطلاء أبيض أو أسود، ولها شكل جديد لا يمت بأية صلة للأشكال الهندسية التقليدية التي تميّز المساكن، وهو الأمر الذي أدّى إلى حدوث تناقض بين عناصر المساكن الأثرية وبين هذه التجهيزات الإلكترونية منزلية، ومن تمّ حدوث تلوث بصري نقطي.

ب-3 انتشار عدّادات الماء والغاز والكهرباء:

تعتبر هذه العدّادات من التقنيات الحضرية التي استحدثت بفعل تنمية المجال الحضري للمدينة العتيقة وندرومة في السنوات الأخيرة، وقد أخذت هي الأخرى مكانها في المساكن التاريخية مشوّهة أصالتها، نتيجة إحداثها لتعديل في تركيب جدرانها، لأنها رُكبت فيها بعدما تمّ حفر جزء منها على شكل مربع طول ضلعه يختلف حسب العدّاد الذي سيوضع فيه، وقد تنوعت مادة غطائها بين الحديد والبلاستيك، ونظراً لذلك فقد أحدثت تلوثاً بصرياً نقطياً في النسيج التاريخي للمدينة العتيقة، لعدم توافقها وانسجامها مع هذه التجهيزات الحضرية الحديثة، أنظر الصورة رقم (59)، وفي بعض الأحيان لاحظنا أن هذه الأخيرة تتسبب في رطوبة بالجزء الذي توجد فيه نتيجة قدم القنوات، وعدم القيام الجهات المعنية بصيانتها دورياً، خاصة بعد تفاقم تسرب المياه نتيجة تزويد المدينة مؤخراً بمياه محطة تحلية مياه البحر الموجودة بشاطئ البحيرة القريب منها، أنظر الصورة رقم (60)، حيث انتشرت الرطوبة بالحائط الذي حُفر جزء منه بشكل مستطيل من الأرضية وصولاً إلى علو قدره 1,70م من الحائط وقد تمّ ربط هذا العدّاد بأنبوب حديدي مع المسكن لإيصال الماء الشروب إليه، وتلتصق هي الأخرى بالجدار مضاعفة بذلك مظهر التلوث البصري.

ويظهر في نفس الصورة تأثير آخر يتمثل في تسرب الماء من العدّاد في حدّ ذاته على الحائط، محدثاً بذلك الرطوبة ستجر لا محالة ضرراً على مواد البناء، يتمثل أساساً في تفتتها وتزهر الأملاح فوقها، فضلاً عن زيادة تشوه ملمحها العام، أي أن عدّادات الماء هي الأكثر تأثيراً على الجانب البصري للمعالم الأثرية في مساكن المدينة العتيقة وندرومة للأضرار المختلفة الناجمة عنها، وقد تضاعف تأثير هذه

العدادات على اختلافها لكثرتها، فلم يعد هناك مسكن بالمدينة العتيقة إلا وقد أخذت حيزاً من جداره الخارجي، ويتكرر التلوث البصري النقطي الناتج عن العدادات في مسكن آخر بحي سيدي بوعلي بالتحديد خلف الحمام البالي المرابطي، وبمسكن قرب التريعة، أنظر الصورة رقم (61) و(62).

لقد أدت هذه الإضافات التقنية الحضرية المصاحبة للتطور الحاصل في النمو العمراني، ودخول المصطلحات المعمارية الجديدة في المدن إلى تغيير اللّمسة التاريخية والفنية المتأصلة في الشواهد المادية الأثرية الثابتة، واستخلافها بأخرى حديثة لا تمس بأي صلة مع المبنى الذي تلتصق بجدارانه، ولقد ذكرنا الأمثلة السالفة على سبيل المثال لا الحصر، بحكم انتشارها الواسع داخل الأحياء السكنية المكوّنة للتصميم العمراني الإسلامي.

ج- التلوث البصري الكتلي:

يعدّ هذا التناقض في الأسلوب المعماري أحد أهم النقاط البارزة في التلوث البصري الكتلي، إذ يقطع حس المشاهدة، ويحدث خللاً في التواءم البصري داخل الأحياء السكنية العتيقة لمدينة ندرومة، نظراً لارتباطه الوثيق بمدى تجانس وتوافق التركيبة المعمارية فيما بينها، خاصة إذا تعلق الأمر بمبان لها خاصية ثقافية محضة، فأى تعديل عليها أو إحاطتها بمبان عمودية إسمنتية لا تتوافق معها لا شكلاً ولا جوهراً سيؤدي حتماً إلى حدوث التلوث البصري.

لقد نجم هذا الوضع في مدينة ندرومة بالدرجة الأولى عن تفضيل بعض المالكين النمط العمودي الإسمنتي، وإهمال البعض الآخر لمساكنهم، إلا أن كلا السببين يقف وراءهما سبب آخر، ينحصر فيما نجم عن التنمية الحضرية من تغير في طريقة البناء، وتجسد هذا التجديد الحضري بالقرب من العمائر الأثرية وقد تمخّض عن ذلك تكوّن فجوة عميقة في النسيج التاريخي للمدينة، فإذا ما تحولت بين دروبها وأحيائها، فلن تستطيع أن تستشعر طابعها العمراني الإسلامي الأصيل، لوجود البناء العمودي تارة والمنهارة أو التي فقدت جزءاً من قيمتها تارة أخرى.

وبعد متابعة التحقيق الميداني داخل الأحياء السكنية للوقوف على مدى وجود توافر المجال البصري بين الوحدات المعمارية الدينية والمدنية والدروب الضيقة، تبين لنا أن زحف التنمية الحضرية الحديثة لم يتوقف عند أطراف أحيائها السكنية العتيقة المستخلفة بمباني غربية هي اليوم مقرات إدارية، بل تجاوزها إلى تكوينها الداخلي (حي سيدي بوعلي وبني زيد والتريعة ودرج رأس الجماعة)، حيث وجدنا عدداً من المساكن العمودية الإسمتية التي أخذت بالجانب الجمالي للمورفولوجية الحضرية المنجزة من طرف الأسلاف، بعدما خلفت وجود المساكن العتيقة، أنظر الصورة رقم (63)، وقد تلوث المجال البصري للجامع الكبير هو الآخر بمثلها، ولم تعد تظهر ميزاته الفنية العتيقة، إذ تحيط به مجموعة من المساكن العمودية والأسلاك الكهربائية التي تعلو ساحة التريعة.

تجدر الإشارة أن التلوث البصري لم ينحصر في استخلاف المساكن العتيقة فقط، بل تعداه إلى السقيفات، فسقيفة سيدي بوعلي تلاشت قيمتها الفنية والتاريخية بسبب التعديل المضفى عليها بمادة الإسمنت والآجر، فكمية قليلة من هذه المواد التي تعتبر الميزة الأساسية للتنمية الحضرية في شقها المادي، ستقلب موازين القيم التي كانت سائدة في السقيفة، وهو ما أحدث تلوث بصري فيها.

أمّا المساكن المنهارة، فقد جاءت قليلة العدد مقارنة بباقي الحالات المنتشرة في المدينة العتيقة، وأهم مثال عنها ما رصدنا وجوده في درج رأس الجماعة، وتجدر الإشارة أنه لم يتهدم بمفرده، بل هُدمت أيضاً السقيفة التي كان يعلوها، أنظر الصورة رقم (64)، وفيما يخص الحالة المتوسطة، فقد عاينا وجودها بكثرة في النسيج المعماري العتيق لمدينة ندرومة، وهي إن لم تقدّم صورة كاملة عن الفن المعماري الأصيل، فعلى الأقل هي ليست غير بعيدة عن أصولها المعمارية الأولى، إذ تحتفظ بقدر قليل من عراقتها، كمواد البناء والعناصر المعمارية، وعن أهم الأمثلة عنها، أنظر الصورة رقم (65)، وبالنسبة للمساكن التي بقيت بحالة إن صحَّ القول جيدة، (لأننا لا نعلم إن كان كذلك تصميمها الداخلي، لعدم السّماح لنا بدخولها)، وهي الأخرى قليلة الوجود في النسيج التاريخي العتيق للمساكن الحديثة المنبعثة عن التنمية الحضرية التي طالت المساكن العتيقة، أنظر الصورة رقم (66).

الملفت للانتباه أن إحدى الحالات لم نسجل وجودها في مدينة ندرومة العتيقة، وهي تتمثل في الحالة المهذّدة بالانهار، فبعد قيامنا بالمعاينة الميدانية في المدينة لم نجد مسكناً على وشك الانهيار، وهو الأمر الذي تختلف فيه عن مدينة تلمسان العتيقة التي وجدنا بها مثل هذه الحالة. وعموماً يمكن القول أن النسيج التاريخي لمدينة ندرومة خضع في السنوات الماضية، ولا يزال حالياً يخضع لعملية تحوّل عميقة المدى وصل تأثيرها إلى تغيير الملمح الذي كان يغطي سماءها، وأصبحت تعيش حالة من التمدن المعماري الغربي المعتمد على البناء العمودي الإسمنتي، والتقنيات الحديثة في العيش المتمثلة في التجهيزات المرافقة للنمط السلوكي الحضري المعولم المتماشي مع الأسلوب الجديد في التصميم والتشييد.

ومن أجل توضيح ما أتينا على ذكره عن حالات المساكن السالفة الذكر، نعرض المخطط الآتي:

المخطط رقم (15): يبين التلوث البصري الناجم عن اختلاف حالات المباني الموجودة في أحياء مدينة

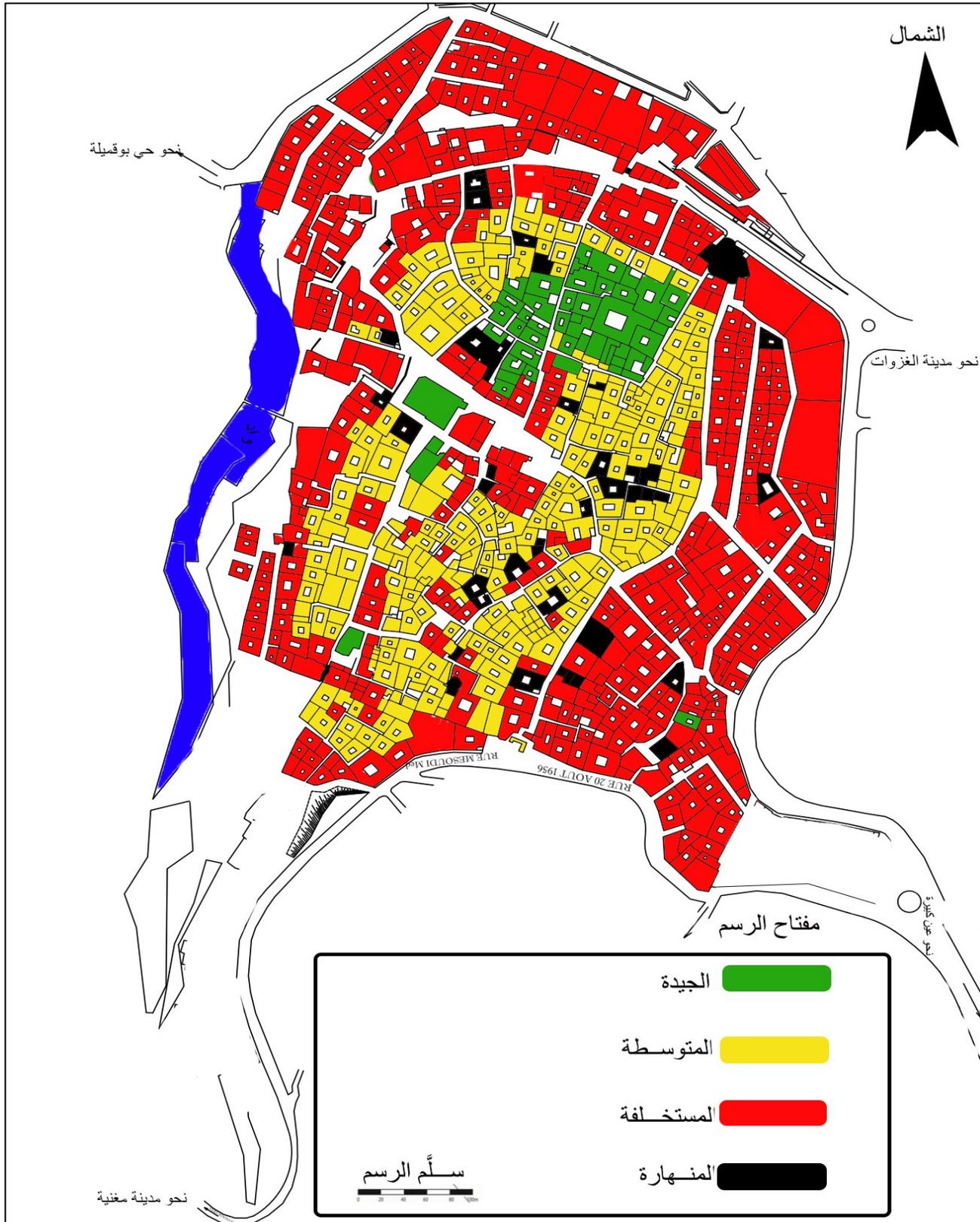
ندرومة العتيقة. عن: Lahcene Khattabi, Op.cit, p:120 (بصرف).

يعكس المخطط أعلاه بشكل مباشر تأثير الطموح اللامتناهي للإنسان في تكوين إطار معيشي لائق ومتضمن لجميع شروط الرفاهية، عبر مجموعة من العمليات التي من ضمنها التنمية الحضرية، فمن خلالها جسّد جميع ما أنتجته عبقرية الإنسان الحالي في إنتاج وعاء عقاري يلي جميع رغباته، وقد امتد ذلك إلى داخل المدن العتيقة، مثل ما نلاحظه في مدينة ندرومة العتيقة التي تعيّر ملمحها الخارجي وتصميمها الداخلي، بعد هجوم الأسلوب المادي الجديد في البناء على أحيائها، وهو ما أدّى لحدوث تصادم بين هذه الرغبة الجارحة في مواكبة الركب الحضاري في مجال البناء، والهوية الثقافية التي يعكسها الموروث المادي الثابت، ولاحظنا أن الحالات الأربعة انتشرت عبر جميع أحيائها بأعداد مختلفة، إلا أننا عاينا تركز الحالات الجيدة بالقرب من مشارف المدينة شمالاً، في حين عاينا تركز المباني المستخلّفة لما كان موجوداً، فقد تركزت على أطراف المدينة، خاصة حي الخبرة الذي كان قد بدأ المستعمر الفرنسي تجريده

من خاصيته العمرانية العتيقة في فترة احتلاله، واليوم تواصل تجديد ما تركه من طرف السكان، وبالنسبة للحالة المتوسطة حيث جاءت هي الأخرى بأعداد لا بأس بها، وقد تركزت بكثرة داخل الأحياء العتيقة، أمّا المنهارة التي تبقي من هيكلها البنائي الجدران فقط، فقد عمّت جميع الأحياء، ولكنها تُعد على الأصابع، حيث لم تتعد 30 حالة فقط، مقارنة بالعدد الكبير للمساكن المكونة للنسيج العمراني العتيق بمدينة ندرومة، الذي يتجاوز 4000 مسكن حسب تقديرنا.

وعن الميزة العمرانية الوحيدة المتبقية دون خضوعها لتعديل كبير في تصميم المدينة العتيقة بندرومة

فهي
الدروب
الضيقة
الملتوية
تارة يميناً
وتارة
أخرى
يساراً، إذ
من
خلال
السير
فيها، لا
زننا
نستشعر
فعالاً
بصمات



الأسلاف الذين صمّموها في جميع الأحياء، بصرف النظر عن وسط المدينة قرب الجامع المرابطي وفي حي سيدي بوعلي غرباً، وأيضاً في حي الخربة شرقاً.

وعموماً يمكن القول أن التحول العمراني في مدينة ندرومة قد خطى نصف الطريق، وهي الآن تعيش فعلاً نوعاً من الازدواجية في الشخصية، إن لم نقل أن الكفة رجحت للتقنيات الحضرية الجديدة المجسّدة بفعل التنمية الحضرية (استعمال البناء العمودي، استعمال الطلاء، الاعتماد على التقنيات الجديدة في التزود بالماء والكهرباء والغاز).

4- تأثيرات التلوث البصري على مدينة هنين العتيقة:

مدينة هنين هي إحدى مدن منطقة تلمسان التي تتوفر على ميزة حضارية إسلامية، لاحتضانها جزءاً من بصمات الأسلاف الموروثة من فترة العصر الوسيط، إبان بروز مجموعة من الدول بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط مثل الدولة المرابطية والموحدية ومن بعدها الدولة الزيانية والمرينية، ومما لا شك فيه أن ما ورد من أوصاف عن عمرانها الحضري من طرف الجغرافيين الذين زاروها في تلك الفترات الزمنية أكبر دليل على مستوى عمرانها.

ولعل أبرز العوامل التي ساهمت في تحصيل ذلك، هو امتلاكها للميناء الذي حسّن من المستوى المعيشي لسكانها، عبر ما قاموا به من مبادلات تجارية مع دول الضفة المقابلة، وهو ما ساعدهم على تشييد مساكن بديعة الصنع، حسب ما أشرنا إلى ذلك سابقاً عن حسن بن محمد الوزان، هذا الوضع لم يدم طويلاً، فقد كان شكّل الميناء سلاحاً ذي حدّين، حيث ساعد من جهة أخرى على احتلالها من طرف الإسبان الذي مكث بها حوالي ثلاثة سنوات، فقد كانت النقطة الأولى التي اصطدم بها لإطلالها على ساحل البحر مباشرة، كما أنها كانت تشكّل أهمية كبيرة لدى السلطان الزياني، وهو ما ذكره أحد القادة العسكريين الإسبان في الرسالة التي بعثها إلى الملك شارل كان⁽¹⁾، ضف أن تلك الفترة شهدت ضعف المغرب الأوسط عامةً، وهو ما ساعد الإسبان بالظفر بمدينة هنين.

1-F.Primaudaie, Op.cit,p:187

وكما ذكرنا سابقاً فقد كان لتخريبها على يد الاسبان ساعة خروجهم منها أثر بالغ على تكوينها العمراني الحضري، ذلك أن جزءاً منه قد توارى تحت الأقدام واطمحل تماماً، فلا مساكن تبقّت ولا مسجد ولا غير ذلك، ما عدا بعض المنشآت الدفاعية مثل الأسوار والقلعة وبرج سيدي إبراهيم ومن هذا المنطلق يمكن القول أن رياح التغيير هبّت على المدينة الساحلية التي ذاع صيتها تجارة وعمراناً في وقتٍ كانت فيه مدينة تلمسان وندرومة لا زالتا إلى حدٍّ ما محتفظتين بتصميمهما العمراني الأصيل لعدم تعرضهما لما طال مدينة هنين.

4-1 التلوث البصري الكلي:

لقد سهّل الوضع الذي آلت إليه مدينة هنين على تغييرها الكليّ إلى الحدّ الذي أصبحت فيه مرآة عاكسة لصورة عمرانية غربية، عبر ما أنجز فيها من عمائر حديثة يعتربها المظهر الغربي، وما خُطّ بمحيطها من شوارع متعامدة ومستقيمة تُجسّد النمط الشطرنجي الروماني، وقد تمّ ذلك في إطار تنمية مجالها الحضري وتحديثه ليستجيب لمتطلبات ساكنيها، وإضافة لهذه الاستجابة أدّى استغلال ما تحتزنه تضاريسها من معادن من قبل المستعمر الفرنسي إلى إرجاع أعداد معتبرة من السكان بعدما جلبتهم للعمل في المناجم، كما أدّى العامل الإداري إلى غرس مورفولوجية حضرية جديدة متناقضة كلياً مع ما كان سائداً فيها من تصميم عمراني ذي طابع إسلامي محض يجتمع داخل الأسوار المحيطة به من جهاته الأربعة كباقي المدن الإسلامية التي عاصرت وجودها.

نتيجة للعوامل المذكورة أعلاه إضافة للعامل الثقافي المنحصر في العولمة الثقافية بالدرجة الأولى، اعتزى الملمح العام للمدينة صورة عمرانية شكّلت تلوثاً بصرياً لما تبقى من شواهد الأثرية، التي تحمل قيما تاريخية وفنية، إذ أصبحت الأسوار الدفاعية المتبقية من العمران الحضري للمدينة محجوبة ومحاطة بالمباني العمودية، وممّا لا شك فيه أنّ قدرّاً كبيراً من قيمتها قد تلاشت واختفت بحكم العلاقة الوطيدة بينها وبين المحيط الذي توجد فيه، لقد انتهى المطاف بالموقع الأثري الموجود داخل الأسوار مملوءاً عن آخره بالمساكن العمودية الإسمنتية.

بدأت بوادر التحول في المورفولوجية الحضرية وما نجم عنها كما اصطلح على تسميته بالاستمرارية البصرية، وعدم توافق النواة الأصلية مع الحديثة⁽¹⁾، إلى السنوات الثلاثة الأخيرة للاحتلال الفرنسي، ثم توالى بعد ذلك عمليات البناء والتوسع عقب استقلال البلاد، وتجدد الإشارة أن ما قبل الفترة الزمنية المذكورة شهد إنجاز بعض المساكن داخل الأسوار، بالموازاة مع الاستغلال المنجمي، فقد كان لزاماً عليه توفير السكن للعمال، وكذا للحامية العسكرية المسؤولة عن إحكام القبضة ومنع حدوث أي انزلاق أمني من شأنه زعزعت عملية الاستنزاف، أنظر الصورة رقم (67)، كما ذكر جيورج مارسيه أن موقع الميناء الموجود بالجهة الشمالية الغربية منها قد بني فيه مسكن عمودي ذي طابقين وشرفة للمسؤول عن حراسة الغابة المحاذية للمدينة في السنوات الأولى من القرن العشرين⁽²⁾، أنظر الصورة رقم (68).

وتوالى عمليات التحديث الحضري وما نجم عنه من تلوث بصري في السنوات الأخيرة للاحتلال الفرنسي، وقد جاءت على شكل مراحل متتابعة، فما وصلت إليه حالياً لم يتم ضربة واحدة، وإنما عن تتابع عمليات البناء المنجزة من طرف الدولة أو من العامة من الناس، فقد أشرنا في العامل الاجتماعي أنها شهدت ارتفاعاً محسوساً في تعداد السكان بعد الاستقلال، وهو ما زاد في اتساع رقعتها واعمارها ونورد مراحل التلوث البصري الذي اعترى مشهدها العام كالاتي:

- المرحلة الأولى 1957-1969:

اجتمع في هذه الفترة الزمنية الممتدة لتسع سنوات متتالية وضعين سياسيين مختلفين، واحد كانت فيه مدينة هنين محتلة كباقي مدن الجزائر، والآخر خرجت فيه من قبضة المستعمر واستقلت باستقلال البلاد عامة، ولذلك اجتمع فيها ملمحين الأول كانت تبدو فيه شبه معزولة، فلم تكن إلا محطة تابعة

1- علي سليم صقر، دراسة بصرية لمحيط دمشق القديمة (لتحقيق الاستمرارية البصرية وانعكاس الداخل على المحيط)، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة العلوم الهندسية المجلد 36، العدد 3، سوريا، 2014، ص: 265

2- Georges Morçais, Recherche..., Op.cit.p:344

للفرق العسكرية وللعاملين في المناجم القريبة منها⁽¹⁾، والملح الآخر وهو الذي عرفت فيه بداية جديدة لتعميرها من طرف الأهالي الذين عادوا إليها، وقد انحصر تركيزهم في الحيز المحاط بالسور الدفاعي، أي مكان النواة الحضرية القديمة، وذلك حول المسجد وقرب السوق، على النحو الذي كان معمولاً به قبل تخطيطها من طرف الإسبان، وهو ما يؤكد احتفاظ الذاكرة الشعبية بالأسلوب العمراني الذي عاش به أسلافهم، وتمَّ إنجاز مقهى ودكاكين خاصة بالمواد الغذائية، ومقر خاص بالحالة المدنية، أما المساكن فقد كانت بسيطة منجزة من مادة الطين المضاف إليه التبن، تلتف حول فناء مفتوح، وتتكون من طابق أرضي فقط، وهي تسمى عند سكان المدينة في لهجتهم المحلية باسم الثُري، وكانت لا تزال إلى غاية هذه الفترة الزمنية بعض العائلات تقطن في الخيام التي ضربتها داخل الأسوار إلى جانب المساكن الطينية، وفيما عدا هذه الإضافات المعمارية تبقى المباني ذات النمط الحديث المنجزة من طرف المستعمر كمسكن حارس الغابة، وما كان مخصصاً لفرقه العسكرية أحد أبرز التشوهات البصرية آنذاك، بحكم كون ما تمَّ إنجازه من طرف السكان بسيطاً يتماشى وطبيعة العمارة القديمة لاتفاقهما في مادة البناء إلى حد ما.⁽²⁾

- المرحلة الثانية 1970-1980:

لم تعرف مدينة هنين في هذه العشرية تنمية حضرية واسعة النطاق من شأنها إتلاف ما تبقى من الموروث المادي الثابت بسبب عدم إنجاز مرافق وهياكل إدارية جديدة، أو قيام سكانها ببناء مساكن جديدة، إلا أنه تمَّ تسجيل إنجاز مدرسة ابتدائية بالضفة اليمنى لواد هنين مقابل السور الشمالي الممتد على طوله، وإلى غاية هذه الفترة لم يتغير الملمح العام للمدينة، وبقي يوحى بالبساطة يعكس الحالة الاجتماعية المتواضعة التي كان يعيشها السكان، وهو ما أبقى وجه المدينة الذي ورثته عن التخطيط الإسباني لا يزال مهيمناً على ملمحها العام، فلم يكن موجوداً فيها إلاً نفر قليل من المساكن البسيطة

1-Djilali Sari, la Re-naissance..., Op.cit, p:120

2-Djilali Sari, La Re-naissance..., Op.cit, p:120

المنتشرة هنا وهناك، ومدرسة خارج الأسوار ومقر للحالة المدنية داخلها⁽¹⁾، إلا أننا لا نستطيع نفي أنها بالرغم من ذلك اتسعت الفجوة بينها وبين ماضيها العريق الذي جادت به قرائح أمهات الكتب، وما تبقي من عمرانها الحضري.

-المرحلة الثالثة 1981-2000:

عرفت المدينة حركة معمارية دؤوبة غيرت ملامحها العام كلية، وأضفت عليها تلوثاً بصرياً نتيجة اصطدام التنمية الحضرية بعراقة المكان وخصوصيته التاريخية، وقد بدأت حيثيات هذا الصراع عقب تضافر مجموعة من العوامل تمثلت في العامل الاجتماعي والإداري والثقافي، والأمر الذي زاد من تفاقم حدة الصراع استفادت سكان مدينة هنين لوضعيتهم المعيشية السيئة آنذاك من إعانات في إطار برنامج البناء الذاتي، وقد تمثلت في مادة الإسمنت البورتلاندي والرمل وقضبان الحديد، وهو ما أدّى إلى ظهور مساكن عمودية إسمنتية⁽²⁾، والملاحظ أن هذه الطفرة النوعية في البناء أُنجزت فوق موقع المدينة العتيقة، وقرب الحفائر الأثرية وبجوار الأسوار الدفاعية الممتدة على طول الجهة الشمالية والشرقية، هذا الوضع حرق مباشر لما جاء في الأمر 281/67 المتعلق بالحفريات وحماية الأماكن والآثار التاريخية والطبيعية، وذلك في المادة 41 التي جاء فيها أنه لا يجوز إسناد كل بناء جديد إلى أثر مرتّب أو مقترح للترتيب ولا تشييده في مدى الرؤية، كما لا يجوز إدخال أي تعديل على حالة الأمكنة، أو الآثار المرتبة أو المعروضة للترتيب وعلى مدى الرؤية وذلك مهما كان أصحابها.⁽³⁾

يدل هذا الوضع على مدى غياب الرقابة الإدارية، وبقاء المواد الردعية مجرد حبر على ورق، فلو تم تنظيم المجال العمراني في مدينة هنين عند بداية تعميمها، لبقيت محتفظة بقيمتها الفنية والتاريخية التي تبقت منها، بالرغم من أنها لم تمتلك الكثير منهما، بسبب تحطّم جزء معتبر من تراثها المادي كما تقدّم

2-ibid,p:121

2-Djilali Sari,La Re-naissance...,Op.cit,p:121

3-الجريدة الرسمية، الأمر 281/67....، مرجع سابق، ص:74

ذكره، وبعدهما ضاق الحيّز الداخلي بالمساكن العمودية، انتقلت عمليات البناء إلى الضّفة المقابلة بالتحديد بجوار العيادة المتعددة الخدمات ومركز البريد والمواصلات، أين تكوّن حي سكني خارج أسوار المدينة العتيقة سمي بحي دالاس Dallas، وقد انتشرت فيه مساكن إسمنتية عمودية لا تمت بأي صلة لما تتميز به المدينة من طابع عمراني أصيل، ثم زادت التوسعات المشوّهة للطابع العتيق بالجهة العلوية الممتدة على طول المنحدرات الصخرية المقابلة للصور الشرقي، وذلك بعدما تمّ تسويتها بالآلات الميكانيكية، وقد أطلق على هذا الحي اسم السوير Souier⁽¹⁾، وبني فيه هو الآخر مسجد لإقامة الصلوات الخمس يقابل مباشرة مسجد الحي السكني المنجز داخل الأسوار، والذي تمّ بنائه مكان المسجد القديم المنجز في فترة الاحتلال المريني لتلمسان على حدّ قول ابن مرزوق الخطيب كما أشرنا إليه سابقاً، عند تحدّثنا عن الموروث المادي والمواقع الأثرية لمدينة هنين، وصاحب هذا التوسع العمراني جملةً من المرافق الخدماتية مثل محطة البنزين وسوق الفلاح.

لقد شهدت المدينة في هذه الفترة تغييراً ملحوظاً في تصميمها العمراني، زاد من حدة التلوث البصري وتأثر ما تبقى من موروث مادي بها، وذلك لاجتياح إفرزات التنمية الحضرية على اختلاف مجالاتها سواء في المجال الاجتماعي أو التجاري أو الديني له.

-المرحلة الرابعة 2001-2016:

تعكس هذه المرحلة الوضع الذي آلت مدينة هنين بعد عملية التمّدن التي عرفتتها في السنوات السابقة لقد زاد اتساعها عمّا كانت عليه، وذلك نحو الجهة الشمالية الشرقية بمبان إسمنتية عمودية، وقد تمّ إعادة تهيئة عدد من المرافق الإدارية كمقر الدائرة والبريد والمواصلات، ومقر البلدية الذي سيأتي الحديث عنه لاحقاً، وهو ما يعني أن المدينة عرفت تجديداً حضرياً وفي نفس الوقت توسعاً عمرانياً، الجدير بالذّكر أن التوسع في هذه المرحلة خرج عن الحيّز الخاص بالضفة اليمنى لواد هنين، أي مقابل أسوار المدينة العتيقة وانتقل إلى المكان المسمّى أولاد يوسف الذي يبعد عنها حوالي 02 كلم، لقد أصبح

1-Djilali Sari, La Re-naissance..., Op.cit,p:123

مفضلاً للعيش فيه لاستواء أرضيته، ولنفاذ الوعاء العقاري الخاص بالبناء في الحيز الخاص بالمدينة العتيقة هنين وما يحيط بها، فقد أصبحت مكتظة عن آخرها بالمباني في هذه المرحلة الزمنية، ولذلك تلاشى الملمح العام للمدينة، وعوّضه ملمح جديد عشوائي تارة يذهب جهة اليمين، وتارة أخرى جهة اليسار، أنظر الصورة رقم (69)، مثلما حدث لمدينة تلمسان العتيقة وندرومة.

ما يمكن قوله مما ورد في مراحل الامتداد العمراني، أن التلوث البصري الكتلي قد نفشى في المدينة نتيجة ارتسام صورة مورفولوجية حضرية تتناقض مع الصورة التي تعكسها الأسوار الدفاعية، وغيرها ممّا تبقى من المعالم التاريخية، وقد ساعد في رجوح كفة الميزان لصالح التنمية الحضرية فقدانها لجزء معتبر من ميزات الفنية، وبالموازاة مع تشوّه الصورة المورفولوجية، تكوّن تلوث بصري كتلي عند النقاط التي التصقت فيها المساكن العمودية مع الأسوار، أنظر الصورة رقم (70)، وهناك مثال آخر يتمثل في تجاور مولد كهربائي مع السور الشمالي، أنظر الصورة رقم (71)، هذا الوضع لم يقتصر على تلك الناحية من المدينة، بل عاينا وجوده أيضاً عند الباب الغربي الذي أغلق تماماً بالمساكن العمودية الملتصقة معه، أنظر الصورة رقم (72).

4-2 التلوث البصري النقطي والخطي:

فيما يخص الأنواع الأخرى للتلوث البصري المتمثلة في النقطي والخطي، فقد توارى تأثيرها مقارنة بالتلوث البصري الكتلي في مدينة هنين، وذلك راجع للاختفاء الكلي للمباني العتيقة التي كانت تكوّن النسيج العمراني للمدينة، وهي التي تكون موضوع هذين النوعين من التلوث البصري، بحكم ارتباط التقنيات الحضرية الجديدة بها، إذ هي من تستوجب وجود الإنارة والماء والغاز، وفيها تتجسد الثقافة الجديدة في البناء والعيش، إلا أننا صادفنا وجود مثال عن التلوث البصري النقطي، تتمثل في وضع أحد القاطنين جوار السور الشرقي مقعّر هوائي من فوقه، أنظر الصورة رقم (73)، وقد تكرّر التلوث البصري الخطي والكتلي عند ضريح سيدي إبراهيم الأبلي والبرج، فعلى الرغم من أنهما يقعان خارج المجال

الحضري، إلا أن يد التنمية الحضريّة طالتهما، حيث أُبجَز مولّد كهربائي، ونصّب موزّع للإشارات الهاتفية تتفرع منه أسلاك معدنية بالقرب منهما، أنظر الصورة رقم (74) و(75).

خلاصة الفصل:

كحوصلة عامة حول ما تمّ ذكره عن واحد من أهم مظاهر عن التنمية الحضريّة المنجزة بمدينة تلمسان وندرومة وهنين المأخوذة كعينة في هذه الدراسة، أن نسيجها العمراني التاريخي ومواقعها الأثرية تعاني من ويلات التجديد في مجال التعمير، وهو ما يعكس بوضوح الانعطاف البارز في مسار تطور المدينة بنويّاً وثقافياً، كل هذه المعطيات تعكس تأثير التلوث البصري فقد تعرّض المعالم التاريخية والمواقع الأثرية لضياح قيمها التي تثنها من كونها بصمة بصمات الأسلاف ترجمت بصدق مدى عبقرية الفنان المسلم في محاكاة الطبيعة وترويضها وفقاً للقواعد الفقهيّة، وانقسم التلوث البصري الذي استفحل بالمدن العتيقة المدروسة في مايلي:

- أ- التلوث البصري المورفولوجي: الناجم عن تشوه الملمح العام الذي كان يطبع المدن العتيقة الثلاث.
- ب- التلوث البصري الخطي: يعتبر تلوث بصري داخلي، لأنه نجم عن دخول التقنيات الحديثة الاستهلاكية المتمثلة في الأسلاك الكهربائيّة والتليفونيّة وأنايب المياه الشروب.
- ج- التلوث البصري النقطي: يعتبر هو الآخر تلوث داخلي، وقد تمثّل في المتطلبات الجديدة المنحصرة في توفير المقعرات والمكيفات الهوائية، وحتى خزانات المياه، وقد عمّ هذا النوع كسابقه جميع عينات الدراسة فهذه المتطلبات الجديدة أصبحت أسلوباً ثقافياً معاصراً أخذ حيزاً من عملية التنمية الحضريّة في شقها الثقافي.

د- التلوث البصري الكتلي: نجم هذا التلوث الداخلي عن المباني المنجزة إما في مكان المباني العتيقة، أو في مجاور المباني العتيقة، وقد لاحظنا في تحقيقنا الميداني أن النسيج التاريخي لمدينة تلمسان وندرومة قد اختفى تناغمه وتواؤمه مع بعضه البعض، نتيجة التباين في المباني، فمنها الرديئة والمنهارة

والمهددة بالانهيار والمتوسطة والجيدة لكن بأعداد قليلة، أمّا مدينة هنين فقد عرفت اختلالاً شديداً الحدة، نتيجة اضمحلال نسيجها وتعميرها بمبانٍ إسمنتية عمودية.

وتجدر الإشارة أنّ مدينة تلمسان كانت أكثر المدن تعرضاً للتلوث البصري، للحركة المعمارية الدؤوبة التي شهدتها، وأيضاً لاكتضاض أحيائها بالسكان الذين تغيّرت لديهم طريقة التفكير في العيش فعمدوا على إقتناء التجهيزات الإلكترونية التي لها علاقة مباشرة بالتحضر من زاوية أخرى، أما مدينة ندرومة فقد عاشت نفس الوضع، وفيما يخص مدينة هنين فقد اعتري ملمحها العام تلوث بصري كتلي لتلاشي عمائرها التاريخية وبقاء القليل النادر منه يكابد ويلاّت التلوث البصري النقطي والخطي.

الفصل الثاني

الضرر الفيزيوكيميائي والميكانيكي والهدم والتخريب.

1-الضرر الفيزيوكيميائي

2-الضرر الميكانيكي

3-الهدم والتخريب

1-3 مدينة تلمسان

2-3 مدينة ندرومة

3-3 مدينة هنين

تمهيد:

تعتبر عملية التنمية الحضرية معول الهدم للموروث المادي وما تبقى في المواقع الأثرية، لما أعلن في إطارها من مشاريع تنموية لا تعير أي أهمية لما له علاقة بماضي وهوية المجتمع، فهُمُّها الوحيد هو إتباع الوسائل الحديثة في كلِّ مجالات الحياة من أبسطها إلى أعقدها، ولذلك كانت النتائج وخيمة وكارثية على التراث المادي، وهو الأمر الذي عايناه أثناء التحقيق الميداني الذي قمنا به في المدن العتيقة تلمسان وندرومة وهنين، حيث تبين لنا أنها لا تجد للتراث مكاناً في قاموسها التنموي، وعن أهم التأثيرات التي تقاسمت نفس الدور مع التلوث البصري السالف الذكر نذكر مايلي:

1-الضرر الفيزيوكيميائي:

ينحصر هذا الضرر في تغير الخواص الكيميائية والفيزيائية لمواد بناء الموروث المادي الثابت، وما ينجر عنه من ضعف وتفتت للمبنى ككل بسبب التلوث البيئي وبالغازات السامة، وهو يعتبر من النتائج المباشرة لعملية التنمية الحضرية، لكونه ينجم عن النشاطات البشرية الحضرية داخل المدن، المتمثلة أساساً في حركة المرور الآلي والمصانع، فقد بات استعمال المركبات الآلية أمراً لازماً لقضاء الحوائج وغير ذلك، وأصبحت المصانع من أهم أماكن العمل التي تضمن لأفراد المدن وللدولة مداخيل اقتصادية، ومن أهم الانعكاسات السلبية المتأتية عن هذه النشاطات تلوث بيئة المدن، هذه القضية باتت تؤرق العديد من الدول، فبعد أن كانت محلية أصبحت اليوم دولية، عقب تفاقمها وبروز ظاهرة الاحتباس الحراري الناجمة عن الانتشار الواسع للغازات السامة في الجو⁽¹⁾، ولا تنحصر مسبباتها في ما ذكرناه فقط، بل هناك عوامل أخرى مرادفة للنشاط الإنساني في مجالات أخرى كالصحة والزراعة وما ينتج عنهما من انبعاثات، ويكون المعالم التاريخية والمواقع الأثرية جزء لا يتجزأ من البيئة الحضرية، فقد تأثرت هي الأخرى بالغازات السامة المنبعثة في الجو المحيط بها، حيث تبين من الدراسة التي قام بها جيورجيو توركا أنها تتأثر

1- عبد اللاوي جواد، الحماية الجنائية للهواء من التلوث، دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه، تخصص القانون العام، قسم العلوم القانونية والإدارية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2014، ص: 41.

به على اختلاف موادها، سواءً الطينية منها أو الحجرية بما ينجم عن التلوث البيئي، فعلى سبيل المثال لا الحصر تبين أن الرخام يفقد جزءاً من قشرته سمكه 1.45 سم حينما يوجد في بيئة ملوثة بالغازات السامة.⁽¹⁾

ولا بأس أن نشير إلى ما تمّ ذكره في سياق آخر، حول علاقة طبوغرافية مكان الموروث المادي وسرعة الرياح في حدّة حدوث التلف الفيزيوكيميائي الناجم عن الغازات الملوثة، فمثلاً إن وجدت في مكان منخفض محاط بالمرتفعات بجوار مصانع وغيرها ستبقى متجمعة في نفس المكان وبالتالي سيتفاقم تأثيرها، أما إن حدث العكس فسيخف تأثيرها لانتشارها هنا وهناك في أماكن مختلفة، لعدم وجود عوائق تحول دون بقائها في نفس المكان، وأيضاً لسرعة الرياح التي ستساعد في تحركها.⁽²⁾

وقد تبين جلياً من التحقيق الميداني والتحليل الكيميائي التي قمنا بها أنّ ما خلفه الأسلاف من معالم تاريخية ومواقع أثرية بكل من عينات الدراسة مدينة تلمسان وندرومة وهنين لم يبق في منى عن التلف الفيزيوكيميائي، بحكم احتكاكها المباشر بالبيئة الحضرية الجديدة التي أنتجها الإنسان تحقيماً لمبتغاه المادي في مختلف المجالات، لقد انتقل تأثير الغازات السامة إلى موروثها المادي، بعد انتشارها في الجو واختلاطها مع مياه الأمطار وسقوطها على قشرته الخارجية، وقد كان أبرز سبب في حدوث ذلك في هذه المدن، هو شق طرقات وشوارع تعرف حركة واسعة نطاق للمركبات الآلية بالقرب من المعالم التاريخية والمواقع الأثرية في إطار تنمية مجالها الحضري تلبيةً للمتطلبات المعاصرة، ففي كل من مدينة

1-Giorgio Torraca, **Pollution atmosphérique et patrimoine culturel, l'exemple des monuments en pierre :dégradation et traitement**, Entretien continu du patrimoine culturel contre la pollution et d'autres facteurs similaires :évaluation, gestion des risques et sensibilisation du public, Séminaire organisé conjointement par le conseil de et le Riksantikvarieämbet et Direction nationale du patrimoine, édition du conseil de L'Europe, Strasbourg, 2000, p:43

2-Giorgio Torraca, **Matériaux de Construction Poreux, science des matériaux pour la conservation architecturale**, Traduction de l'original anglais par Colette di Matteo, ICCROM, Italie, 1986, p:44-45

ندرومة وهنين عاينا وجود طرق تعرف حركة دؤوبة طيلة اليوم، لا تبعد إلاّ بضع أمتار عن المعالم التاريخية، حيث يمر الطريق الوطني رقم 99 الرابط بين مدينة ندرومة ومغينة بمحاذاة بقايا السور الجنوبي وقصر السلطان، ناهيك عمّا تعرفه من حركة للسيارات داخل نسيجها العتيق، بعدما شُتت فيها شوارع عريضة ومستقيمة في كل من حي الخربة وسيدي بوعلي تلتقي كلها في ساحة التريبعة التي تعرف ركن السيارات وربطهم مع الطرق وشوارع المدينة الجديدة من جهة شرق والغرب، أما مدينة هنين فهي الأخرى تعرف احتكاك بقايا سورها الشمالي والجنوبي مع الحركة الآلية للطريق الولائي رقم 104 الرابط بينها وبين مدينة ندرومة عبر جبل تاجرة، إضافة إلى ذلك توجد محطة لتوزيع الوقود بالضفة اليمنى لواد هنين على بعد حوالي 55م مقابل السور الشمالي من حدّة الوضع، حيث تعرف يومياً مجيئ العديد من المركبات على اختلافها للتزود بالبنزين والمازوت، مسببة بذلك مصدراً دائماً ومتواصلاً لانبعاث الغازات الملوثة في الجو، خاصة أنّها تزاوّل نشاطها منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي⁽¹⁾، وبالنسبة لمدينة تلمسان، فيشهد مجالها الحضري أيضاً حركة ميكانيكة نشيطة لاحتوائها على أهم المرافق الضرورية التي جعلتها مقصد سكان الولاية ككل، وما زاد الطين بلّة هو العدد الكبير للشوارع التي تعرف تلك الحركة في نسيجها التاريخي بالقرب من المعالم التاريخية، على سبيل المثال لا الحصر المشور والجامع الكبير ومسجد سيدي بلحسن وسيدي إبراهيم المصمودي... إلخ، ونوضح تنظيم حركة المرور داخل القطاع المحفوظ، أنظر المخطط رقم (16).

يتبين من ذلك المخطط، أن جزء الشمالي والجنوبي الغربي من الحيز الخاص بالمدينة العتيقة يعرف حركة مرور آلي مختلفة المسار في الشوارع، أغلبها يتمركز بالجهة الشمالية والجنوبية الغربية من القطاع المحفوظ لاحتوائها على أهم المرافق التي يحتاجها السكان، البنوك، المدارس، العيادات، كما أنّها قريبة من الأحياء الجديدة المتضمنة لعدد من المقرات الإدارية الأخرى، ونبين تلك الحركة بالمدن الثلاث في مايلي:

1-Djilali Sari, La Re-naissance....Op.cit,p:125

الجدول رقم(21):يبين عدد المركبات الآلية بكل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين لسنة 2015.عن:ولاية

العنصر	عينة طاييا سور المنصورة (مدينة تلمسان)	عينة طاييا سور مدينة هنين	تلم سان مد، يرية التن ظيم وال شؤو
الحديد Fe		4.2 غ	
الكالسيوم Ca		7.65 غ	
المغنيزيوم Mg		0.33 غ	
الفوسفور Na		19.3 غ	
الكلور Cl	0.014 غ	0.89 غ	
الألمنيوم Al	0.37 غ	0.32 غ	

ن العامة،مصلحة حركة السيارات

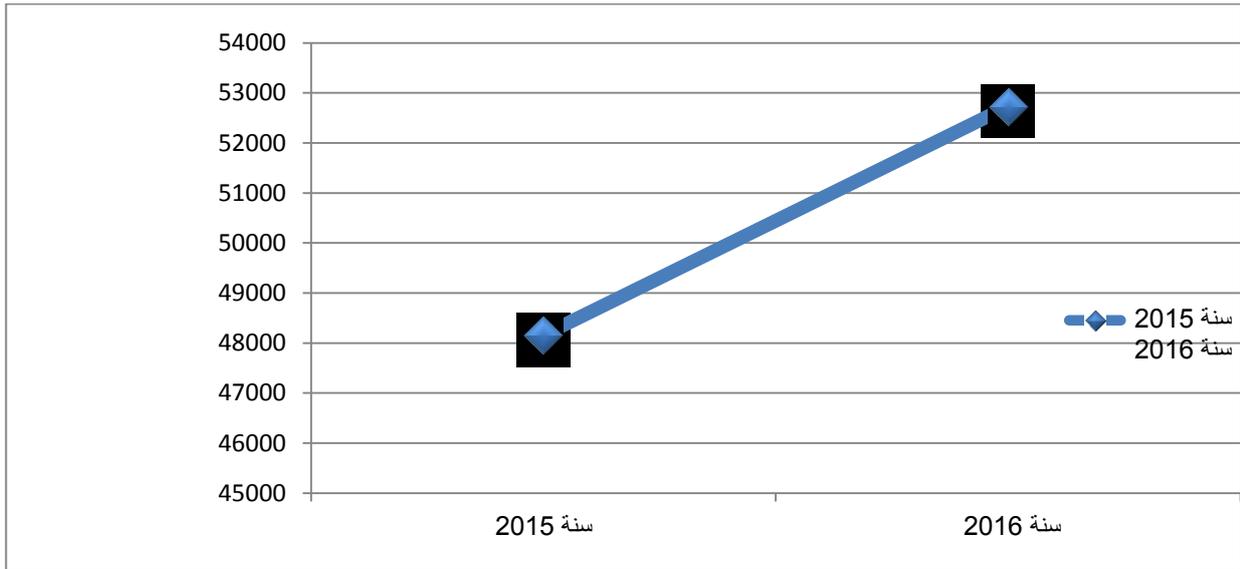
نوع المركبة	سيارة سياحية	شاحنة	شاحنة صغيرة	حافلة	جرار	عربة خاصة	نصف مقطورة	دراجة نارية	المجموع	المدينة
تلمسان	30066	1941	7433	449	410	132	524	297	41252	
ندرومة	4517	262	1382	79	114	12	69	29	6464	

448	01	03	00	12	07	89	22	314	هنين
-----	----	----	----	----	----	----	----	-----	------

الجدول رقم(22): يبين عدد المركبات الآلية بكل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين لسنة 2016.

عن: ولاية تلمسان، مديرية التنظيم والشؤون العامة، مصلحة حركة السيارات.

ونبين ما جاء في الجدول في المنحنى البياني الآتي:



المنحنى البياني رقم (07): يبين مسار نمو عدد المركبات الآلية في مدينة تلمسان وندرومة وهنين من سنة 2015 إلى سنة 2016.

يتضح جلياً من المعطيات الواردة في الجدولين والتمثيل البياني، أن كلاً من مدينة تلمسان وندرومة وهنين تعرف وجود حركة آلية لا بأس بها داخل محيطها الحضري وخارجه، وأن العدد الاجمالي للمركبات يسير وفق مسار تصاعدي، وهي متنوعة بين الوزن الثقيل والخفيف، وبين ما يستعمل وقود البنزين والمازوت، ومما لاشك فيه أن ذلك سيحدث انبعاث للغازات السامة في أجواء هذه المدن، نتيجة احتراق الوقود المستعمل في محركات هذه المركبات أثناء سيرها، وهو ما سيعود حتماً بالسلب على الموروث المادي الثابت وأطلال المواقع الأثرية، وإضافة إلى ذلك لا يبعد المكان المخصص لحرق النفايات الطبية التابعة للمستشفى الجامعي لمدينة تلمسان عن أطلال السور الشرقي لموقع المنصورة الأثري إلا بمسافة تتراوح ما بين 360م و410م، فضلاً عما يمر بها من سيارات وحافلات وشاحنات، لوقوعها عند المحاور الرئيسية التي تفضي إلى المدينة.

إعتمدنا في دراسة التأثير الفيزيوكيميائي على تحليل عينات الطابيا، وتفاعل عناصرها المعدنية مع الغازات الملوثة المنبعثة في الأجواء التي توجد فيها المعالم التاريخية وبقايا المواقع الأثرية، وقد اخترنا لذلك مدينة تلمسان باعتبارها الأكثر استفادة من الأساليب التنموية الجليدة، ومدينة هنين لقرب أسوارها الأثرية

المجموع	دراجة نارية	نصف مقطورة	عربة خاصة	جرار	حافلة	شاحنة صغيرة	شاحنة	سيارة سياحية	نوع المركبة / المدينة
45133	339	542	139	427	461	8023	2028	33174	تلمسان
7149	37	71	13	120	81	1518	285	5024	ندرومة
448	01	03	00	12	07	89	22	314	هنين

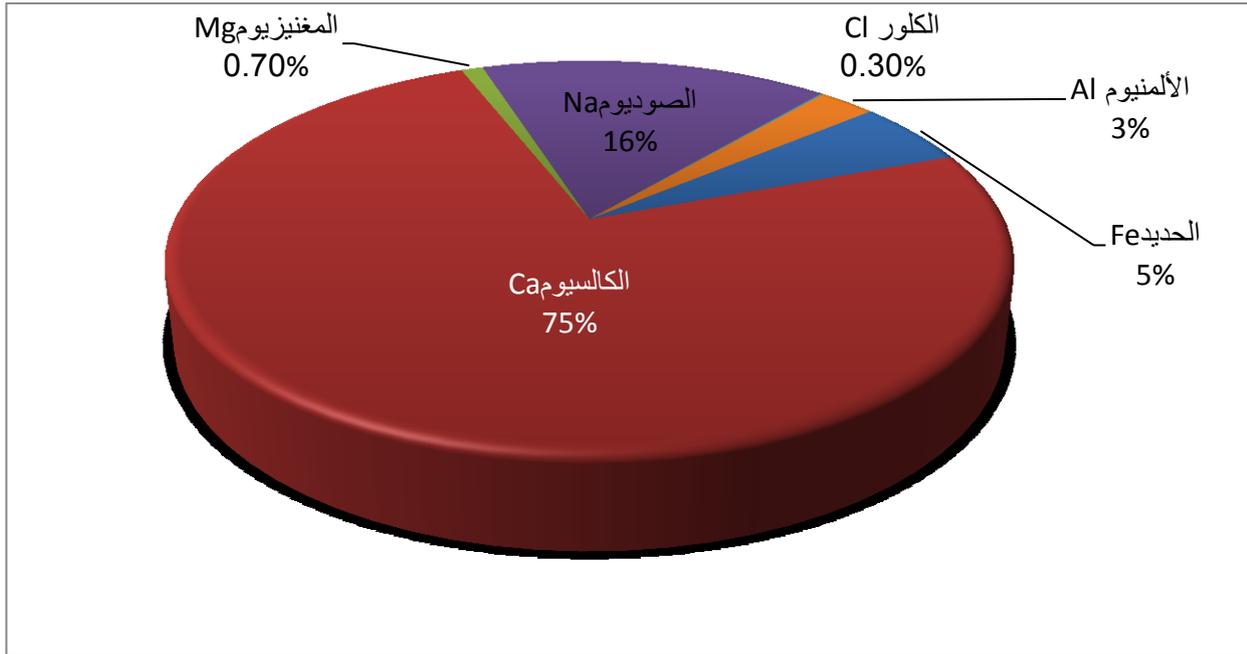
من حركة المرور الآلي، كما ذكرنا ذلك سابقاً، وقد قمنا أولاً بأخذ عينتين من مادة الطابيا وزن كل واحدة 50 غ التقطناهما على ارتفاع 2م من أساس السور الشمالي للموقع الأثري منصور و مدينة هنين، وذلك للتعرف على التركيبة المعدنية لكل واحدة منها، وجاءت النتائج كآتي:

الجدول رقم (23): يبين وزن كل عنصر من العناصر المعدنية المكونة لكل من عينة طابيا سور الموقع

الأثري المنصورة وسور مدينة هنين، عن: مخبر مراقبة النوعية، المؤسسة الوطنية للزئبق (Alzinc) بالجزوات.

تمت عملية التحليل الكيميائي بعد طحن العينتين الترابيتين لتصبحا على شكل مسحوق، وتجدد الإشارة إلى أن التحليل الكيميائي لم يتعرض لذكر جميع المكونات المعدنية لكل من العينتين، فقد تم التركيز على ما توفر للمخبر من مواد، إلا أنه تم العمل جاهداً لاستخراج وزن أكبر قدر من العناصر المعدنية، وذلك حسب ما أعلمنا به من قبل مهندس المخبر، وعليه جاءت المعطيات منحصرة في ست عناصر معدنية تتمثل في مايلي: الحديد والكالسيوم والمغنيزيوم والفوسفور والكلور والألمنيوم.

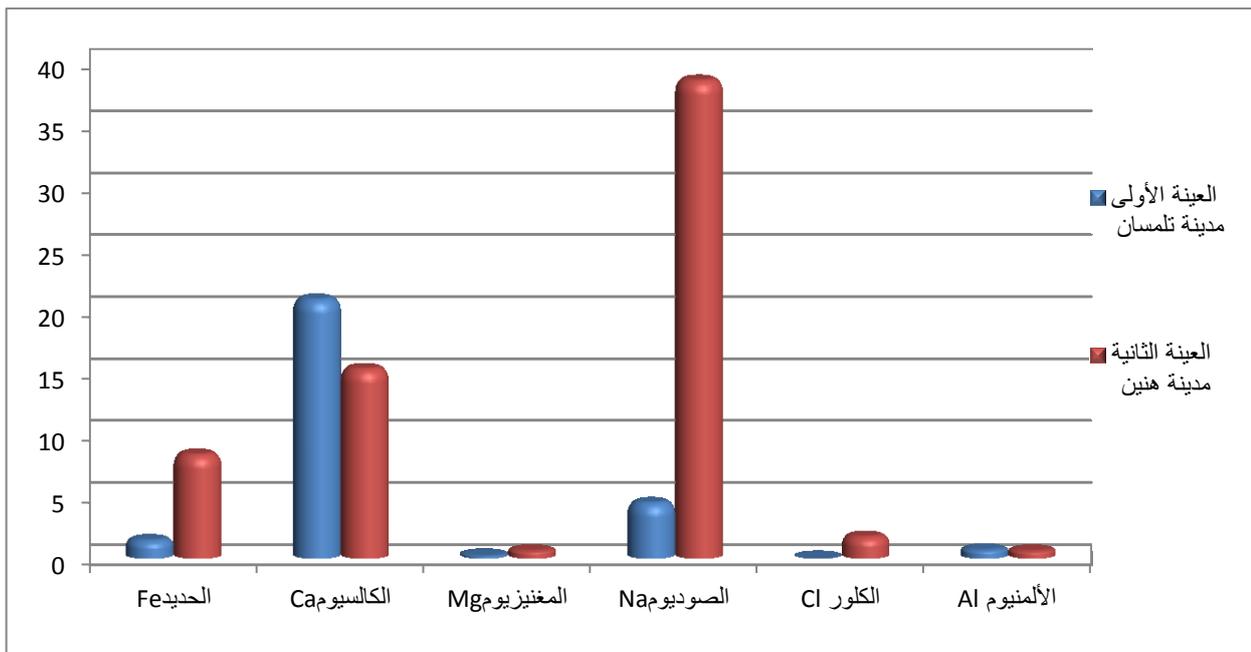
ونوضح نسب كل عينة في دائرة نسبية كآتي:



الدائرة النسبية رقم (12): تبين النسب المئوية الخاصة بالعناصر المعدنية المكونة لعينة طابيا سور المنصورة.

الدائرة النسبية رقم (13): تبين النسب المئوية الخاصة بالعناصر المعدنية المكونة لعينة طابيا سور مدينة هنين.

ونوضح معطيات العينة الأولى والثانية في الأعمدة البيانية الآتية:



الخاص بالطايبا في المغرب الأوسط قديماً، وتبين من الجدول أن عينة سور المنصورة أكثر توفراً عليها فقد بلغت نسبتها في العينة 59%، أما في العينة الثانية فقد وصلت نسبته إلى 23%، وفيما يخص العنصر الثالث فيتمثل في الحديد فقد وُجد في كلا العينتين بنسب قليلة، إلا أن عينة سور مدينة هنين احتوت نسبة أكبر تقدر بـ 13%، وهو ما يفسر بوضوح إقدام المستعمر الفرنسي على استغلال جيولوجية مدينة هنين في فترة احتلاله للجزائر، وهو ما أشرنا له في الفصل الخامس من هذه الأطروحة المعنون بمسار التنمية الحضرية في منطقة تلمسان عامة، أما نسبته في عينة سور المنصورة بمدينة تلمسان فلم تتجاوز نسبة 05%، وبالنسبة للعناصر المتبقية فقد جاءت قليلة ومتقاربة فيما بينها إلى حد ما.

وفيما يخص أهم الغازات الملوثة المنبعثة عن المركبات الآلية الموجودة بالمدن عينات الدراسة، فقد استعنا بماء المطر لأنه ماء نقي مقطر طبيعته الكيميائية لا تحتوي على أية شوائب أو ملوثات، وفي حالة ملامسته للغلاف الجوي المملوء بكم هائل من الانبعاثات الإشعاعية والغازية فستتغير خاصيته الكيميائية، لذلك يعتمد عليه كثير من الباحثين للوقوف على درجة التلوث البيئي مثلاً⁽¹⁾، وعليه قمنا بإجراء تحليل كيميائي لعينة من ماء المطر مقدارها 1 لتر، التقطناها من مكان وجود المعالم التاريخية والمواقع التاريخية في هذه المدن، حتى نخلص إلى معطيات دقيقة لها علاقة وطيدة بماهية المكان، وعليه قمنا بوضع إناء زجاجي فوق سور مدينة هنين، ونفس الأمر قمنا به في مدينة تلمسان، حيث قمنا بوضع إناء آخر فوق سور المنصورة الموجود عند المحاور الرئيسية للمرور، وقد تبين بعد التحليل الكيميائي أن عيني الماء تحتويان على غازين ملوثين هما ثاني الكربون وثاني أكسيد الكبريت، وقد جاءت نسبتهما متباينة كالاتي:

1- إِيَاد فضيل قاسم، رشا خالد صبري، رؤى مظفر يونس، دراسة تأثير ملوثات الهواء على خصائص مياه الأمطار في قرية العريج ناحية حمام العليل، مجلة تكريت للعلوم الهندسية، المجلد 19، العدد 02، كلية علوم البيئة وتقاناتها، جامعة الموصل، 2012، ص: 02

<p>LBO LABO-BIO-QUAL المخبر المتخصص في تحاليل الجودة و التوعية Laboratoire d'analyse de la qualité et de la conformité Autorisé par décision du Mr Le Ministre du Commerce N° 055 DU 12/09//2011 Cité 490 Iqts bloc A10 n° 01 Bougara-BLIDA /Té/Fax : 025 252 357 / Mob : 0661 719 938 & 0696 507 067 E-mail : labobioqual@yahoo.fr</p>			
<p>BULLETIN D'ANALYSE PHYSICO-CHIMIQUE</p>			
<p>EAU DE PLUIE LA VILLE DE TELEMCEM BENZEGHADI MOHAMED UNIVERSITÉ DE TELEMCEM DATE DE PRELEVEMENT : 2003/2015 *** VOLUME : 1L P.V.N°: 0172APC/15 DU 01/04/2015</p>			
<p>1. RESULTATS :</p>			
DETERMINATIONS	UNITES	RESULTAT	METHODES
-Teneur en Dioxyde de Carbone CO2	Mg/l g/l	713 0.72	Titrimétrie (NF T90-011)
-Teneur en Dioxyde de Soufre SO2	Mg/l g/l	260 0.26	Iodométrie (Méthode Ripper)
<p>2. CONCLUSION:</p> <p style="text-align: center;">IL S'AGIT D'UNE EAU POLUÉE.</p>			
<p>Bulletin établi A BOUGARA Le : 23/04/2015</p>			

الجدول رقم(24): يبين نتيجة التحليل الكيميائي لعينة ماء المطر المستقاة من مدينة تلمسان(المنصورة).

الجدول رقم(25): يبين نتيجة التحليل الكيميائي لعينة ماء المطر المستقاة من مدينة هنين (الأسوار).

وبين ما جاء في الجدولين السابقين س د ي .

اسم الغاز الملوث	اسم العينة	غاز ثاني الكربون Co ₂	غاز ثاني أكسيد الكبريت So ₂
عينة مدينة تلمسان (1ل)		713 ملغ	260 ملغ
عينة مدينة هنين (1ل)		520 ملغ	130 ملغ

الجدول رقم(26): يبين حجم غاز ثاني الكربون Co₂ وغاز ثاني أكسيد الكبريت So₂ في عيتي الماء

المقطر المستقى من مدينة هنين وتلمسان. عن: مخبر تحاليل الجودة والنوعية (LBQ) البلدية.

تمَّ التحصل على هذه النتائج عن طريقة المعايرة (Méthode NF T90-011) التي تحدد درجة

تركيز غاز ثاني أكسيد الكاربون في الماء، وطريقة المعايرة ريبير (Méthode Ripper) التي تعد من أهم

الطرق الناجعة في تحديد درجة تركيز غاز ثاني أكسيد الكبريت، وانطلاقاً من القيم المتحصل عليها

من الطريقتين فقد خلصت النتيجة إلى أن كلا عينتي الماء ملوثة، وعليه أصبح هذا المطر حمضياً، لأن هذين الغازين أحد الأسباب المباشرة لتكوينها⁽¹⁾، ونصوغ ذلك في المعادلتين الآتيتين:



يتضح من المعادلة أن الناتج هو حمض الكربونيك، وحسب ما ذكره المختصين في هذا المجال على الرغم من كونه يتضمن غاز ثاني أكسيد الكربون منحل في الماء فهو حمض ضعيف لا يؤثر كثيراً على مواد البناء.



يتضح من هذه المعادلة أن الناتج هو حمض الكبريت، وحسب المختصين يعتبر من أشدّ الأحماض خطورة على مواد البناء، فهو على نقيض حمض الكربونيك يتفاعل مع التركيبة الداخلية لمواد البناء حيث يعمل على إحداث تغير في خاصيتها الكيميائية ومن ثمّ يضعفها، أي أنه يتسبب في حدوث التآكل Corrosion⁽²⁾، الذي يعتبر نشاط تفاعلي داخل المادة يحدث تغيرات كيميائية على الفلزات⁽³⁾، ويتضاعف معدّل التآكل في المعالم الأثرية وبقايا المواقع الأثرية في ظلّ وجود الماء، حيث

LBO

LABO-BIO-QUAL
المخبر المتخصص في تحاليل الجودة و التوعية
Laboratoire d'analyse de la qualité et de la conformité
Autorisé par décision du Mr Le Ministre du Commerce N° 055 DU 12/09/2011
Cité 490 Iqts bloc A10 n° 01 Bougara-BLIDA TBS/Fax : 925 252 357 / Mob : 0661 719 938 & 0696 507 067
E-mail : labobloqual@yahoo.fr

**BULLETIN D'ANALYSE
PHYSICO-CHIMIQUE**

EAU DE PLUIE LA VILLE DE HONAIN
BENZEGHADI MOHAMED
UNIVERSITÉ DE TLEMCEN
DATE DE PRELEVEMENT : 26/03/2015*** VOLUME : 1L
P.V.N°: 0172BPC/15 DU 01/04/2015

1. RESULTATS :

DETERMINATIONS	UNITES	RESULTAT	METHODES
-Teneur en Dioxyde de Carbone CO2	Mg/l g/l	520 0.52	Titrimétrie (NF T90-011)
-Teneur en Dioxyde de Soufre SO2	Mg/l g/l	130 0.13	Iodométrie (Méthode Ripper)

2. CONCLUSION:

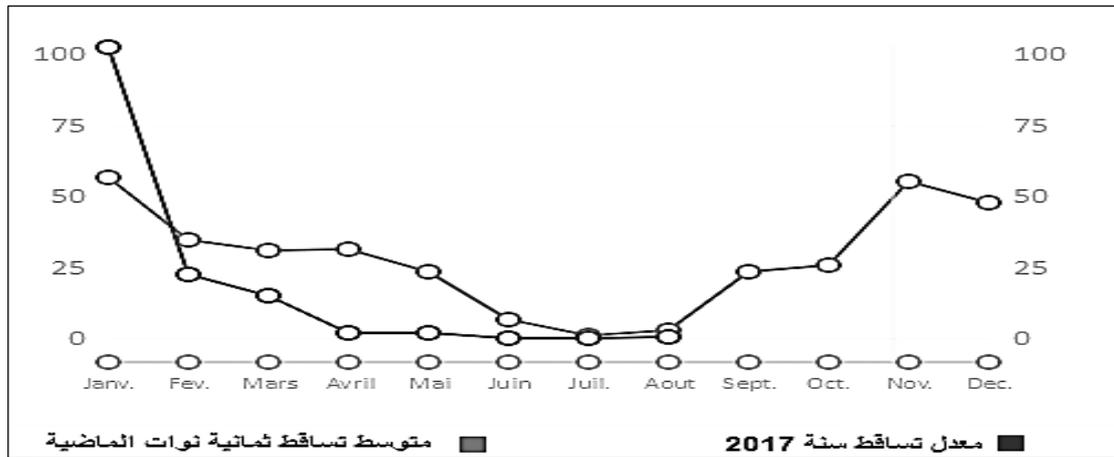
IL S'AGIT D'UNE EAU POLUÉE.

1- محمد محمود دهية، علم البيئة، ط01، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، الأردن، 2010، ص: 51

2- Giorgio Torraca, Matériaux...., Op.cit.p:39-42

2- السيد نصر، معجم مصطلحات الكيمياء، ط01، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2002، ص: 59

يعمل على تنشيط التفاعلات الكيميائية، وبالتالي يجهد الهيكل البنائي⁽¹⁾، ولذلك قمنا بمعاينة عينة من الطابيا لها نفس وزن العينة السابقة (عينة العناصر المعدنية)، أي 50 غ جلبناها من بقايا أسوار هنين في مخبر تطبيقات المركبات البسيطة والجزئيات الكبيرة الشاردية العضوية (LAEPO) بجامعة تلمسان، وبعد الوقوف على وزنها الأولي بواسطة الميزان الإلكتروني (50 غ)، وبعد المتابعة اللحظية للعينة لاحظنا استقرار وزنها عند 45.30 غ، وهو ما يعني أن وزن الماء الذي كان داخل العينة هو 4.70 غ، أي 9.4% من الوزن الاجمالي، وتجدد الإشارة أنّ مكان العينة هو وسط الجدار الذي يكون قليل الاحتفاظ بالماء مقارنة بأساسه، أمّا فترة التقاطها فقد كانت في أوائل شهر أفريل الذي عرف تراجعاً في تساقط الأمطار هذه السنة، أنظر المنحنى البياني الآتي:



المنحنى البياني رقم (08): يبين معدل تساقط الأمطار لسنة 2017، ومتوسط ثمانية سنوات الماضية، عن:

www.michamps4b.be/meteo/Algerie/pluviometrie-tlemcen

وعليه أمكن القول أن هذه النسبة قابلة للزيادة أوالتقصان، وفي ظلّ هذه المعطيات، وفي وجود حمض الكبريت الناتج عن انبعاث غاز ثاني أكسيد الكبريت من احتراق وقود المركبات الآلية التي عبّدت لها الطريق عملية التنمية الحضرية المعلن عنها من قبل السلطات المحلية من دون تبصر الأمور جيداً، تعرّضت مواد بناء الموروث المادي الثابت للتآكل.

وعن أهم العناصر المعدنية الموجودة في العينة الترابية التي تعرضت للتآكل عنصر الحديد، حيث

عمل حمض لكبريت على تصدئه وفقدانه لحالته التي كان عليها، وذلك بمساعدة الماء المختزن داخل العينة، والمعادلة التالية تبين ما نتج بالتحديد:



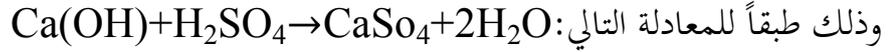
الثنائي هو الشكل الثاني للحديد بعد تعرضه للصدأ بسبب الماء وحمض الكبريت، لونه أخضر غامق، وقد ينتج عنه أيضاً في بعض الحالات الأخرى ما يعرف بهيدروكسيد الحديد الثلاثي Fe(OH)_3 لونه أحمر فاتح، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تغير الملمح الخارجي للأسوار التي تشبعت مواد بنائها بحمض الكبريت، ومن ميزات هذه النواتج التي عوّضت وجود عنصر الحديد في العينة الترابية أيضاً امتصاصها الكبير للماء، وهو ما يوفر بيئة ملائمة لنمو الطحالب التي تفرز بدورها حمض الكبريت، وهي تنمو

بشكل أكبر في الأماكن التي تتوفر على ظلٍ أكبر⁽¹⁾، وهو الأمر الذي لاحظنا وجوده في الكثير من المعالم التاريخية، فعلى سبيل المثال لا الحصر عاينا وجود ذلك في أبراج الموقع الأثري لمدينة هنين حيث تنتشر عند الجزء المقابل للبحر أعداد كبيرة من الطحالب مسببة طبقة خضراء داكنة اللون، ونفس الأمر تكرر المنصورة، حيث تنمو على سبيل المثال في الجدار الشمالي للبرج الواقع عند الزاوية الشمالية الشرقية أعداد كبيرة منها، تعكس إضافة إلى تفتيتها لمادة البناء منظرًا مشوهًا للبرج، في حين تقل في جداره الشرقي، لتعرضها لأشعة الشمس مباشرة، أنظر الصورة الآتية:

الصورة رقم (76): تبين الطحالب الناتجة عن التغير الكيميائي لعنصر الحديد وانتشارها في الأماكن الظليلة.

1- إبراهيم محمد عبد الله، علاج وصيانة المباني، ط01، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، 2011، ص: 279.

إضافة لعنصر الحديد تعرّض أيضاً عنصر الكالسيوم إلى التغير بفعل حمض الكبريت في كلا العينتين



مفاد هذه المعادلة أن حمض الكبريت بعد تفاعله مع مادة الكالسيوم، ينتج كبريتات الكالسيوم المائية التي تترسب كجبس في نهاية المطاف، وهو ما يؤدي إلى الإخلال بالتكوين الداخلي للطابيا، حيث تزداد كمية الجبس، وبالتالي تزداد هشاشة المادة، وتحدث تشققات في القشرة السطحية للجدار⁽¹⁾، من هذا المنطلق أمكن القول أن ناتج الضرر الفيزيوكيميائي يتوافق في بعض الأحيان مع ناتج الضرر الميكانيكي، كما يمكن القول أن حمض الكبريت هو أحد أكبر الأخطار التي تسببت في حدوثه التنمية الحضريّة.

2- الضرر الميكانيكي:

يُقصد بهذا الضرر كل ما له علاقة بالتشققات والتصدعات التي تعترى المعالم التاريخية وأطلال المواقع الأثرية في بيئة وجودها، وهو يعتبر من أشد الأخطار تأثيراً على هوية المجتمعات، لأنه يؤدي إلى فقدان الحلقة الواصلة بين الماضي والحاضر إلى الأبد، حيث يصعب إرجاع الموروث المادي إلى حالته الأصلية إذا ما استفحل وتضاعف من دون درء الخطر والقيام بالتدخلات اللاّزمة، وفي موضوع دراستنا لتأثير عملية التنمية الحضريّة وجدنا أن هذا الضرر من النتائج المباشرة والأولى لها.

من أبرز المشاريع المرافقة لتجسيد التنمية الحضريّة هو تلبية لتسهيل عملية تنقل أفراد المجتمع والسلع والبضائع... إلخ، وذلك عبر شق الشوارع والطرق ومدّ السكك الحديدية اعتماداً على المركبات الآلية وهذا تعبير مادي عن التغير الحضاري الذي عرفه الإنسان بمجرد تنمية مجاله الحضري لتحقيق طموح كان يراوده كفكرة قبل ذلك، وبالرغم من الجانب الإيجابي الناجم عن ذلك، إلا أنها شكّلت إعتداءً مباشراً على الشواهد الأثرية، عبر ما ينتج عنها من اهتزازات ميكانيكية تؤدي بعد تكررها مرات عديدة

1- إبراهيم محمد عبد الله، مرجع سابق، ص: 254

في اليوم الواحد إلى حدوث شروخ وشقوق على الواجهات، والعناصر المعمارية تؤدي مع مرور الوقت إلى انهيار المبنى ككل أو جزء منه، وهو ما أظهرته الدراسات في هذا المجال.⁽¹⁾

وهي تُعرّف من الجانب الفيزيائي أنها موجات وذبذبات ناتجة عن جسم متحرك، ولها وحدات قياسية تنحصر في التردد La Fréquence الذي يعني عدد الموجات الناتجة عن حركة الاهتزازات في مكان معين ضمن فترة زمنية محدّدة (1 ثانية)، وهو يقاس بوحدة الهرتز (Hz)، وارتفاع وعمق الموجات l'Amplitude الناتجة عن شدّة الاهتزاز، وأيضاً الزمن المستغرق للوصول إلى نقطة الاصطدام.⁽²⁾ وعموماً تنقسم الاهتزازات إلى ثلاث أنواع تتمثل فيمايلي:

- الاهتزازات الدورية Les Vibrations Périodiques: وهي عبارة عن موجات تتكرر بصفة منتظمة في فترات زمنية ثابتة لا تتغير، وهي تختلف فيما بينها من حيث التردد والتسارع.

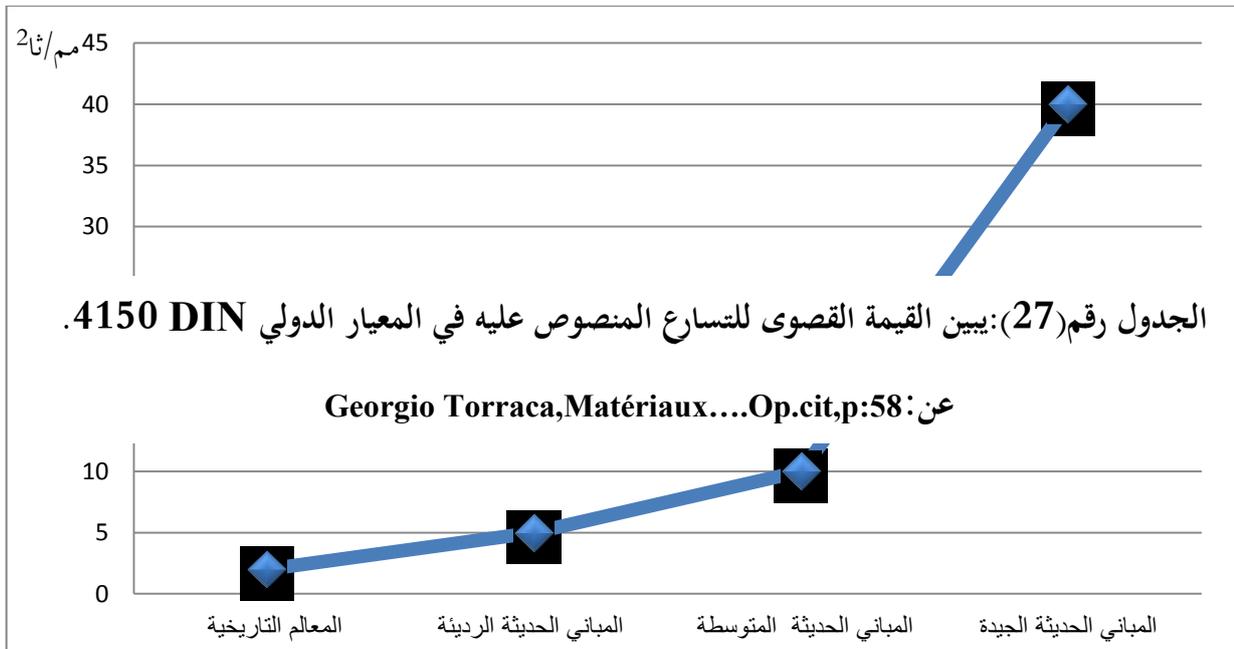
- الاهتزازات الفجائية Les Vibrations Aléatoires: وهي التي تحدث على حين غرة، تمتاز بتعقدها وحدّتها البالغة، وكذا باختلاف تردد موجاتها وتسارعها.

نوع المبنى	القيمة القصبوى للتسارع المنصوص عليه دولياً
المباني التجارية وأطلال المواقع الأثرية	1-Georgio Torracà, Matériaux..., Op.cit.p:53-57
المباني الحديثة ذات وضعيات زلزالية	2-Michel Le DÛ, Vibrations, Chariots Automoteurs et Tep, essai d'évaluation des contraintes vibratoires liées à l'utilisation de chariots automoteurs et de transpalettes électriques portés (TEP) dans des activités liées aux plates-formes logistiques, p:13, www.lomag-man.org
المباني الحديثة ذات وضعيات متوسطة	0.002 م/ثا ²
المباني الحديثة ذات وضعيات جيدة	0.010 م/ثا ² و 0.040 م/ثا ²

-الاهتزازات المؤقتة Les Vibrations Transitoire: أي التي تحدث في ظرف زمني وجيز من دون أن تترك أثراً بالغاً على المباني المحيطة بها.⁽¹⁾

ويتم قياس الاهتزازات على اختلاف أنواعها وفقاً لقوة التسارع الذي له وحدة مم/ثا² أو م/ثا²، وهو يتحدد بالموازاة مع التردد وعمق وارتفاع الاهتزازات⁽²⁾، واتفق المختصون على معيار دولي موحد لقيمة التسارع الذي تتحمله الشواهد الأثرية الثابتة وكذا المباني الحديثة على اختلاف حالاتها وهو يُعرف بـ 4150DIN المنشور عام 1970، وقد جاء فيه مايلي:

ونوضح ما جاء في الجدول بالمنحنى البياني الآتي:



المنحنى البياني رقم(09): يبين حدود الأمان الخاصة بالمباني على اختلافها المنصوص عليها في المعيار الدولي 4150 DIN.

1-Michel Le DÛ, Op.cit,p:15-16

2-Georgio Torraca ,Matériaux.....,Op.cit,p:59

يتضح من هذه المعطيات أن المباني ذات الصبغة التاريخية وبقايا أطلال المواقع الأثرية هي الأقل تحملاً لقوة الاهتزازات، وهذا راجع إلى تركيبها الهيكلية الضعيفة، حيث لا يتعدى تحملها تسارع = 2م/م²/ثا وباعتبار هذه القيمة المتفق عليها من قبل المختصين صغيرة فإن أية حركة بسيطة يمكن لها أن تحدث ضرراً على الموروث المادي الثابت في حالة إذا ما تكررت، كما يؤكد ذلك أن المتسبب في تلك الحركة مهما كان حجمه صغير فسيؤدي لا محالة إلى الإضرار بالمبنى التاريخي.

وقد أعيد مراجعة هذا المعيار الدولي سنة 2001، وقد ورد فيه اختلاف طفيف في تقدير حدود الأمان الخاصة بالمعالم التاريخية عما تم نشره سابقاً، حيث جاء فيها أن قيمة التسارع التي تتأثر بها المباني التي تحمل صبغة تاريخية تبدأ عند 03م/م²/ثا²، أما المباني الحديثة فتتأثر بالاهتزازات عند بلوغها قيمة 20 م/م²/ثا²(1)، ربما ذلك يعزى لاختلاف الأجهزة المستعملة في أخذ القياسات، بعدما تطور أدائها. لقد وجدنا أن الإفراز الناتج عن التنمية الحضرية المتسبب في حدوث الضرر الميكانيكي بكل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين، له علاقة مباشرة بما أتينا على ذكره سابقاً أي الحركة الآلية وما تسببه من اهتزازات، فإثناء المعاينة الميدانية للمدن الثلاث تبين أن معظم معالمها التاريخية ومواقعها الأثرية تقع على مقربة من المحاور المستعملة لحركة المركبات على اختلاف أنواعها، حيث اتضح ذلك في القطاع المحفوظ بمدينة تلمسان، وكذا بالقرب من أطلال المواقع الأثرية كموقع المنصورة الذي تتفرع عنده الطرق المؤدية لخارج المدينة، وتوجد على مقربة من سوره الشمالي السكة الحديدية الرابطة بين مدينة تلمسان ومغنية.

نفس الشيء بالنسبة لمدينة ندرومة، حيث يمر بمحاذاة بقايا أسوارها الجنوبية الطريق الوطني رقم 99 الرابط بينها وبين مدينة مغنية الذي يعرف حركة آلية لمختلف أنواع المركبات، ويتكرر نفس الوضع في مدينة هنين التي تعرف بقايا أسوارها الدفاعية هي الأخرى حركة مرور المركبات داخل الموقع

1-Institut Bruxellois de Gestion de L'environnement et de L'énergie de la région de Bruxelles-Capitale (IBGE), **Les vibration: Normes et Cadre Réglementaire en Région Bruxelloise**, p:03, www.document.environnement.brussels.com

الأثري بفعل ما بُني فيه من مبانٍ وما شقَّ فيه من شوارعٍ عريضةٍ ومتقاطعةٍ فيما بينها، إضافةً إلى ما شهدته الجزء الشرقي لأسوارها من أشغالٍ بواسطة الآلات الميكانيكية لتوسعة وإعادة تهيئة مجرى واد

هنين الذي

لا يبعد عن

الأسوار إلاً

حوالي 03م

فقط.

ولكي

نقوم بإبراز

ما تعيشه

المعالم

التاريخية

والمواقع

الأثرية تحت

وطأة

التممية

Chemin de Fer
de
l'Ouest-Algérien
Exploitation

Objet:
Train de service en
marche le 19 Avril 1910

Année 1910
Ordre de Service

Le train de service dont l'horaire est indiqué
ci-dessous, sera mis en marche le 19 Avril 1910, entre
Alger et Lalla-Maghnia.

Distances kilométriques	Gares	Titesses	Heures matin	Observations
11. 5	Alger (départ)	11 5	8 ^h 30	
7. 3	Mansouria	11 5	8. 38	
3. 3	Ain-Douz	11 5	8. 49	
11. 11	Zelboun	11 5	8. 51	
16. 1	Euzenne	11 5	9. 11	
11. 7	Sidi-Medjahed	11 5	9. 11	
8. 9	Tralimet	11 5	9. 17	
	Lalla-Maghnia (arrivée)	11 5	10 ^h .. matin	

Annonce — Le train de service sera annoncé conformément
à l'Ordre de Service N° 2-1900 et à l'article 198
du Règlement Général.

Travages sans arrêt — Un seul chiffre placé en regard
d'une gare indique l'heure de passage sans
arrêt.

Croisement — Le train de service croise le train facultatif N°
130 à Euzenne.

الحضرية في هذا المجال، قمنا باختيار السور الشمالي للموقع الأثري المنصورة كعينة، وذلك لقربه من سكة

الحديد التي تربط المدينة بالحدود المغربية، ولقوة تأثير القطار، حيث يتكون من أربع قاطرات، وأيضاً لطول

الفترة الزمنية التي شهدت بداية اشتغاله ومروره من تلك الجهة، وهو ما ضاعف حدّة تأثيره، حيث

يعتبر هذا الخط من الأعمال الفرنسية التي أنجزتها في منطقة تلمسان، حيث يرجع تاريخ بداية عمله إلى

10 أبريل 1910 حسب ما هو مذكور في الأمر بالخدمة، أنظر الجدول الآتي:

الجدول رقم(28): يبين تاريخ الأمر بالخدمة والبرنامج الزمني لخط السكة الحديدية المار بالموقع الأثري منصور، عن: مديرية الأشغال العمومية لولاية تلمسان، الأرشيف، علبه رقم 383، ملف رقم 898، الورقة 22. ولكي نقف على درجة قوة الاهتزازات الناتجة اعتمدنا على ما أكّدت الدراسات الحديثة في مجال قياس الاهتزازات على كفاءته ودقة معطياته، المتمثل في الهاتف الذكي Smartphone المجهّز بشريحة خاصة التي تقيس تسارع حركة الأرض تسمى أكسيلورومتر Accéléromètre، ومن بين تلك الدراسات نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما قام به فريق بحث مكوّن من ست مختصين في الإلكترونيك وتكنولوجيا الإعلام، حيث قاموا بتجارب على هاتف من نوع آيفون IPHONE للوقوف على حجم الاهتزازات التي تسببها حركة المركبات في أحد الجسور⁽¹⁾، كما أشار فريق بحث آخر من جامعة كلومبيا إلى كفاءة عمل مستشعر اهتزازات الهواتف الذكية في سامسونج، وقد تمّ الاستعانة بها للوقوف على حجم الاهتزازات في أحد جسور مدينة كلومبيا⁽²⁾، وذلك بعد النتائج الجيدة التي أظهرتها تجارب المخبر، أنظر الصورة الآتية:



1-Yan Yu Ruicong Han Jiefeng Zhao Xiangquan Jiao Mingchu Li Jiping Gu, **Initial validation of mobile Structural Health Monitoring Method Using Smartphones**, International Journal of Distributed Sensor Networks, Article ID 274391, Hindawi Publishing Corporation ,China 2015,p:09

2-Maria Feng, Yoshio Fukuda, Masato Mizuta, Ekin Ozer, **Citizen Sensors for SHM: Use of Accelerometer Data from Smartphones**, Journal Sensors, N°15, Department of civil Engineering and Mechanics Engineering, Columbia University, 2015, p:2991-2995

الصورة رقم(77): تبين تجربة مستشعر الاهتزازات في الهواتف الذكية، عن:

Maria Feng, Yoshio Fukuda, Masato Mizuta, ekin Ozer, Op.cit, p:2983

نفس الأمر أشار إليه متحف علم الزلازل الموجود بستارزبورغ في فرنسا، حيث ذكر في الموقع الخاص

به عن إمكانية استعمال الهاتف الذكي في تسجيل الموجات الاهتزازية.⁽³⁾

أمام هذه المعطيات استعنا بأحد الهواتف الذكية من نوع سامسونج جلاجسي س 07 إيدج

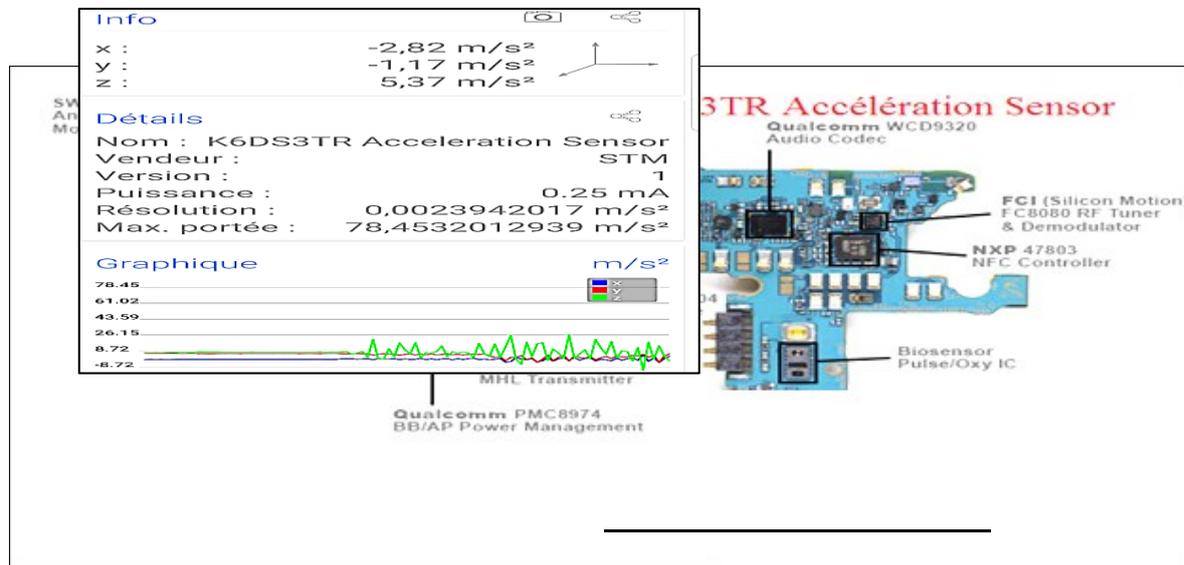
Samsung Galaxy S7 Edge SM-G935F الذي يحتوي على شريحة خاصة بقياس الاهتزازات

اسمها K6DS3TR Accélération Sensor⁽¹⁾، أنظر الصورة الآتية

الصورة رقم(78): تبين التصميم الداخلي لهاتف سامسونج جلاجسي س 07 إيدج SM-G935F، ومكان

وجود مستشعر الاهتزازات K6DS3TR. عن: www.techinsights.com

وعن أهم ميزات عمل هذا المستشعر، أنظر الصورة الآتية:



الصورة رقم(79): تبين الخصائص

G935

3-national.udppc.asso.fr

1-صنعت هذه الشريحة من طرف الشركة الدولية لصناعة الأجهزة الإلكترونية الدقيقة (STM)، الكائن مقرها بجونيف في سويسرا.

يتضح من خلال المواصفات التقنية الخاصة بالمستشعر أن له كفاءة لا بأس بها في أخذ القياسات الخاصة بالاهتزازات، فإن كانت قوية يستطيع تسجيل قياسات تصل إلى 78.45 م/ثا²، وفي حالة إذا ما كانت ضعيفة فيستطيع تسجيل قياسات تصل إلى 0.002 م/ثا²، وهي قيمة تدل على ما مدى حساسية المستشعر.

وعند توجهنا إلى الموقع الأثري، بالتحديد مقابل الجزء الشمالي الغربي من السور الشمالي القريب من سكة الحديد، قمنا باختيار ثلاثة نقاط أساسية مختلفة المسافة، وتجدد الإشارة إلى أن هذا السور يشهد مرور قطارين في اليوم الواحد بمعدّل رحلتين لكل واحد منهما (ذهاب وإياب)، أنظر الصورة الآتية:

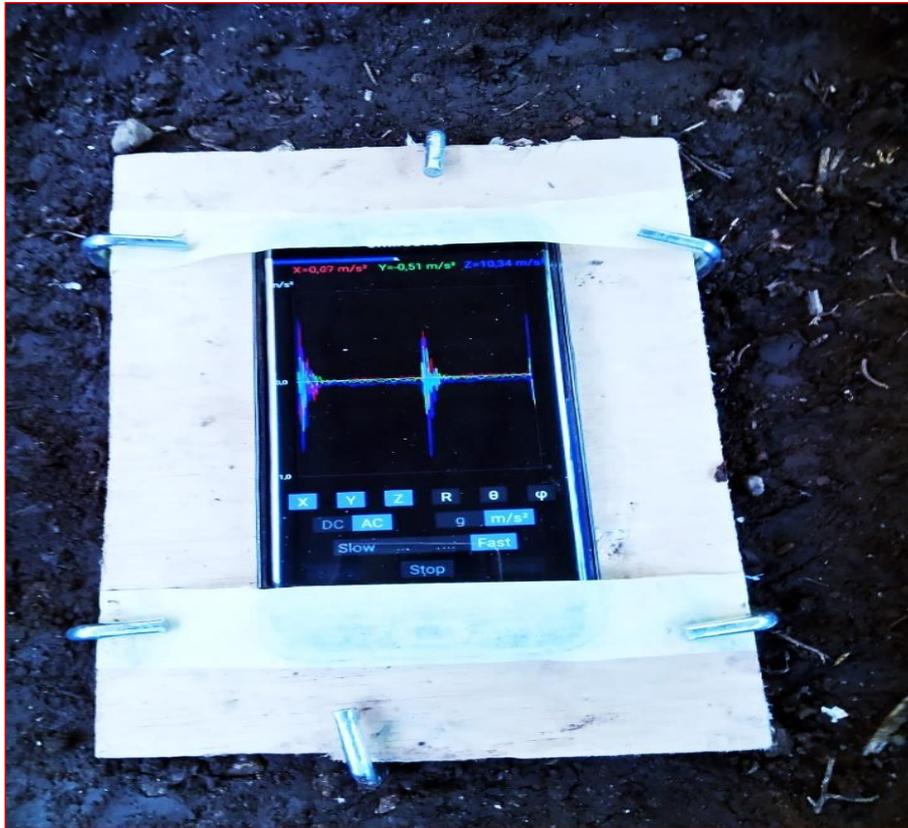


الصورة رقم (80): تبين القطار القادم من مدينة مغنية نحو مدينة تلمسان مروراً بالقرب من السور الشمالي للموقع الأثري منصوره.

تقدّر المسافة الفاصلة بين السكة الحديدية والسور الشمالي بحوالي 26.90 م، وبينها وبين الأبراج 22.70 م، وأثناء العمل الميداني قمنا بتسجيل الاهتزازات في ثلاثة نقاط متباعدة فيما بينها على استقامة واحدة، وهي تتمثل فيما يلي:

- النقطة الأولى تبعد بحوالي 01 م عن سكة الحديد.

-النقطة الثانية في المنتصف بين سكة الحديد وبين السور الأثري، أي على بُعد 13.45 م .
 -النقطة الثالثة عند السور مباشرة، أي على بُعد 27م عن مصدر الاهتزازات (سكة الحديد)، ونشير هنا إلى أن هذه المسافة غير متساوية على طول مسار السور الشمالي، فتارة تزيد وتارة أخرى تتناقص .
 وقبل مباشرة التسجيلات قمنا بتثبيت الهاتف مع الأرضية مباشرة، لتحتك معه الاهتزازات الناجمة عن حركة القطار، وقد استعنا بتطبيق أكسيلورومتر Accélorometer Meter الإصدار رقم 1.32 الذي قامت بإنجازه وتطويبه شركة كاول سوفت keuwlsoft⁽¹⁾، لتسجيل المعطيات، أنظر الصورة الآتية:



الصورة رقم (81): تبين كيفية تثبيت الهاتف جلاجسي س 7 إيدج SM-G935 مع الأرضية، وتشغيل التطبيق

Accélorometer الخاص بتسجيل الاهتزازات.

تجدر الإشارة إلى أن الاهتزازات تنقسم إلى ثلاثة محاور تتمثل في مايلي:

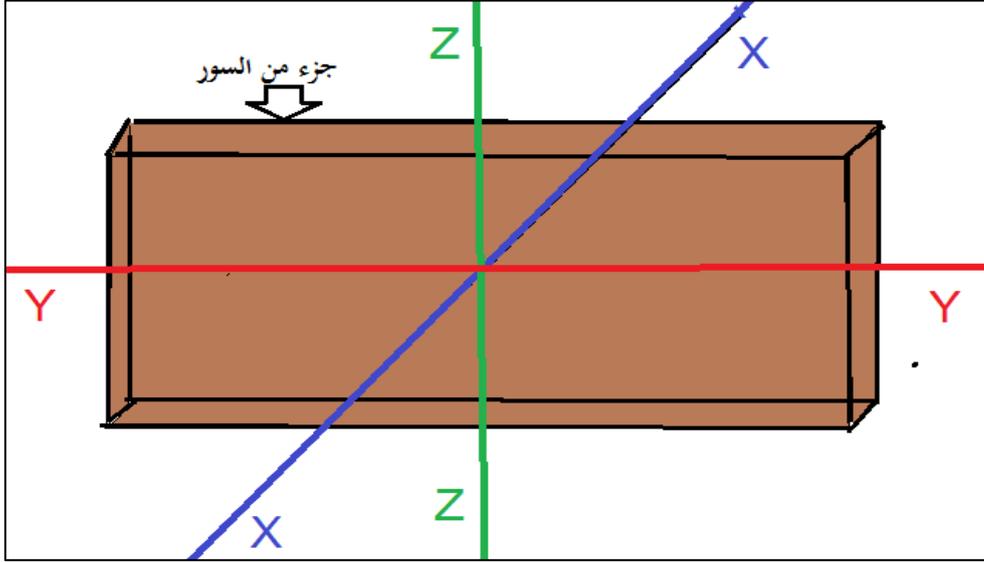
1- تختص شركة كاول سوفت keuwlsoft في صناعة البرمجيات الإعلامية للقياسات باستعمال الهواتف الذكية، مقرها يوجد في العاصمة البريطانية لندن، أنظر: www.keuwl.com

- المحور X: تتجه ذبذباته الاهتزازية من الأمام إلى الخلف.

- المحور Y: تتجه ذبذباته من اليسار نحو اليمين.

- المحور Z: ذبذباته تتجه من الأسفل نحو الأعلى.

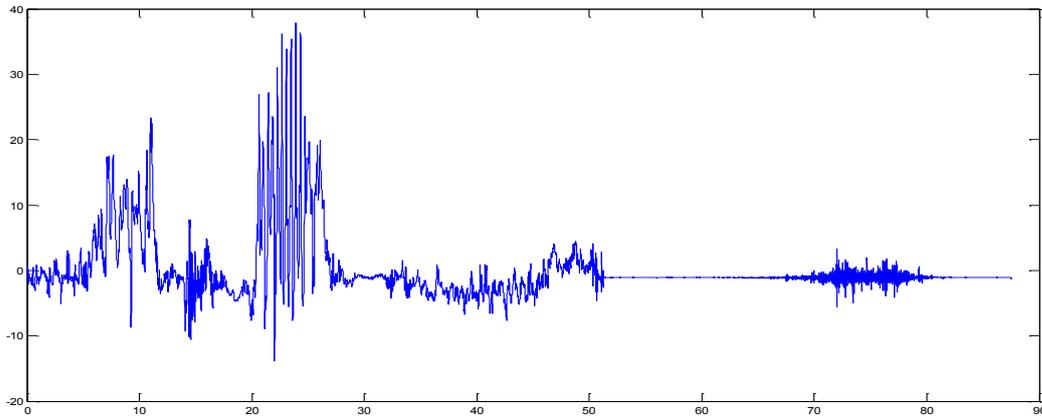
أي كلاً من المحورين X و Y لهما ذبذبات أفقية، أما المحور Z فذبذباته عمودية، أنظر الصورة الآتية:



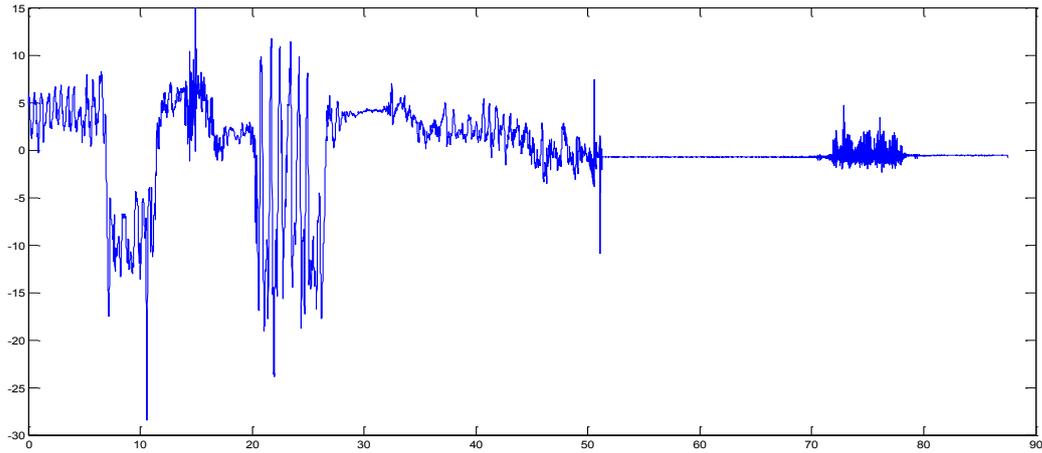
الصورة رقم (82): تبين الاتجاهات الخاصة بالموجات الاهتزازية.

وقد جاءت موجات الاهتزازات في نقاط التسجيل على النحو التالي :

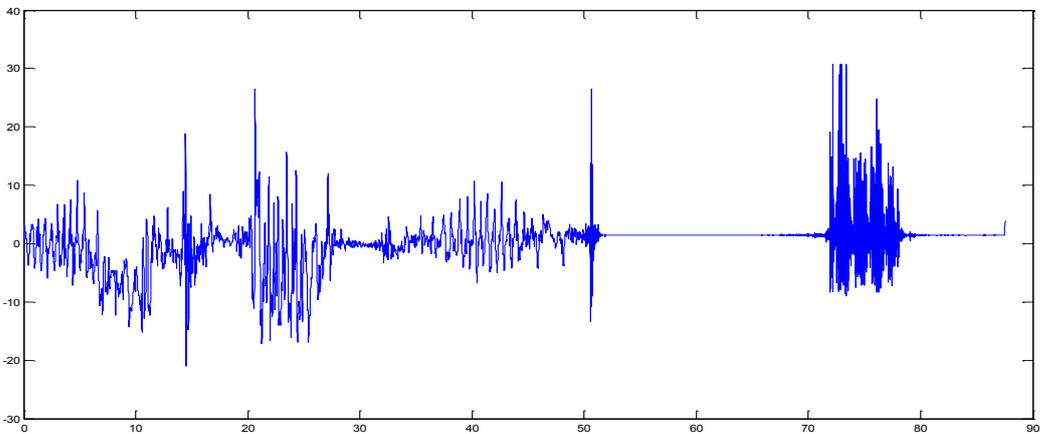
- النقطة الأولى عند سكة الحديد:



المنحنى البياني رقم (10): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور X عند سكة الحديد.

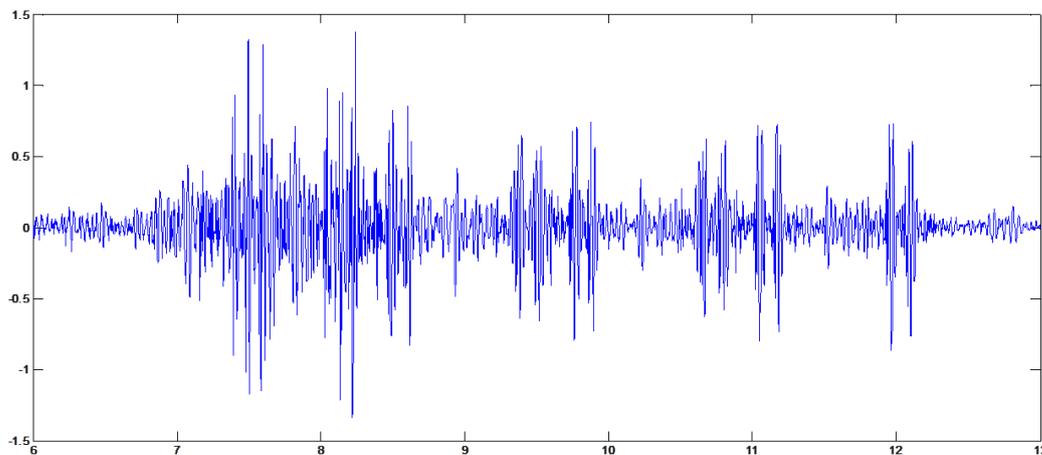


المنحنى البياني رقم(11): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y عند سكة الحديد.

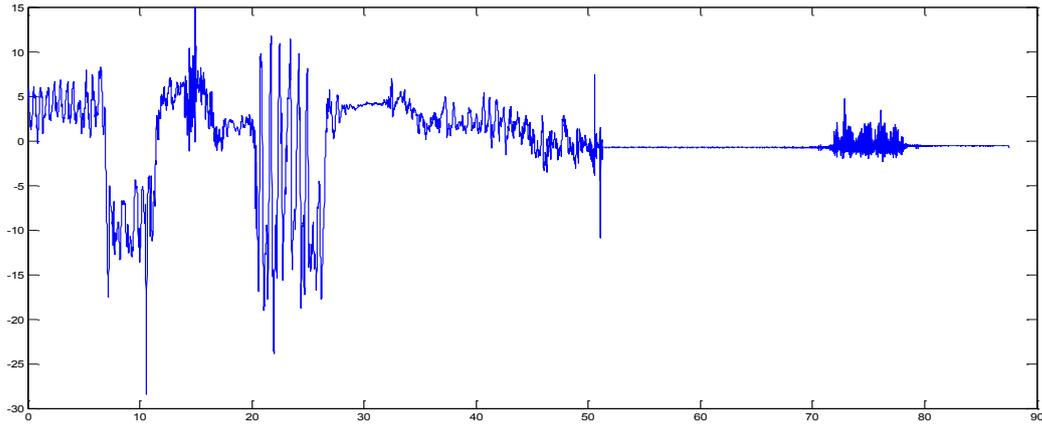


المنحنى البياني رقم(12): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Z عند سكة الحديد.

–النقطة الثانية في المنتصف:



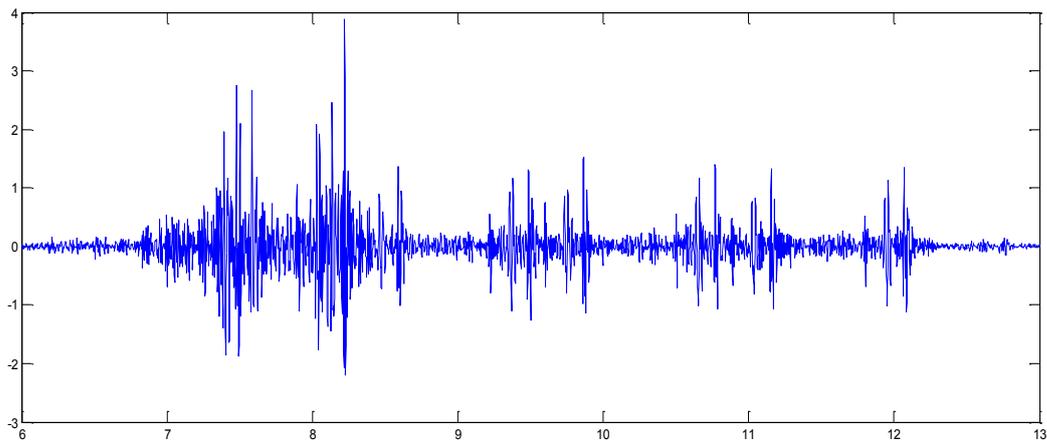
المنحنى البياني رقم(13): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور X في المنتصف.



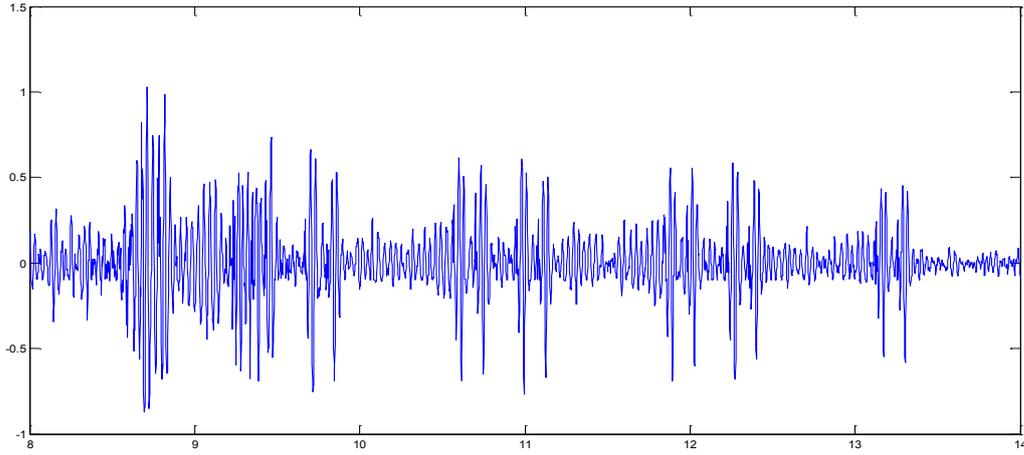
المنحنى البياني رقم(14): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y في المنتصف.

المنحنى ا

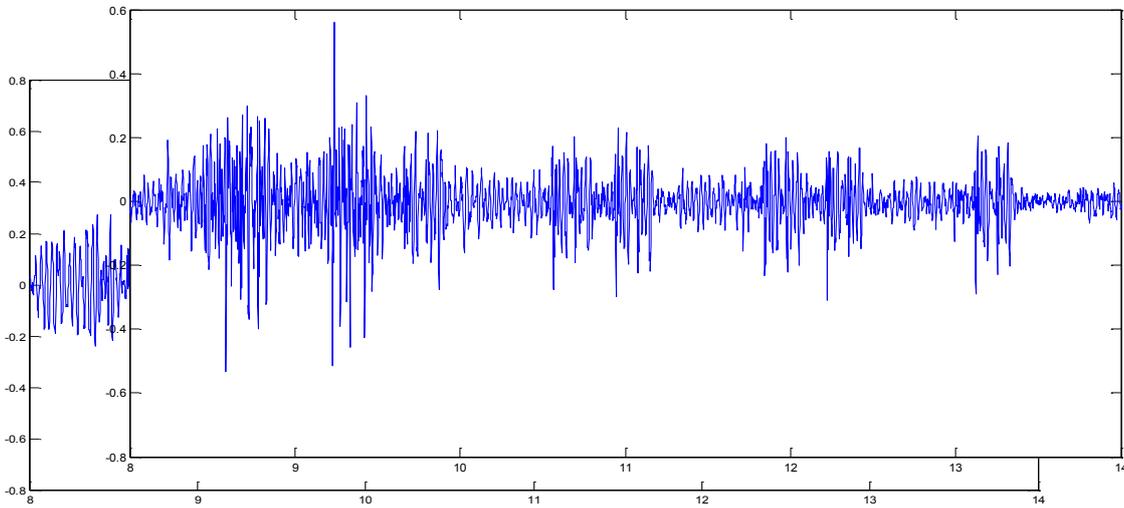
-النقطة الثالثة



المنحنى البياني رقم(16): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور X عند الحائط.



المنحنى البياني رقم (17): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y عند الحائط.



ور Z عند الحائط.

يتضح من المنحنيات البيانية أعلاه الآثار المرئية للمحاور الاختلاف الواضح في حدّة التسارع الخاص بالموجات الاهتزازية الناتجة عن حركة القطار، سواءً الخاصة بمحور X أو محور Y أو محور Z، وذلك نتيجة اختلاف النقاط التي تمّ فيها تسجيل الاهتزازات، وهذا ما يؤكّد دور المسافة الفاصلة في التخفيف من حدّة الموجات الاهتزازية.

وبعد الوقوف على المسار المحاور السالفة الذكر، تبين لنا أنّ الموجات التي ينجر عنها ضرر ميكانيكي على السور هي التي تنبعث عن الحركة الآلية وفق المحور X و Z، أما المحور Y فلا تشكل موجاته خطراً على السور لأنها تنتشر في القشرة السطحية من اليمين نحو اليسار، أي موازياً للسور، وحتى إن كانت

موجات محور X تنبعث هي الأخرى بشكل موازي، إلا أن مسارها من الأمام نحو الخلف جعلها تصطدم بالسور مشكلة بذلك ضربات متتالية له.

وستحدث عن أهم موجات الاهتزازية تأثيراً، المتمثلان في موجات محور X و Z:

أ- موجات محور X:

نظراً لمسارها من الأمام نحو الخلف نظراً لمسارها من الأمام نحو الخلف، ولذلك فهي متعامدة مع الجدار ومزعزعة للاستقرار، يمكن القول أنها الأكثر تكويناً للضرر الميكانيكي، في حالة وجود معلم تاريخي يقف موازياً لها كبقايا السور الشمالي للموقع الأثري المنصورة، لأن القطار يدفعها بشكل عمودي نحو الأمام، لتخترق بذلك الهيكل البنائي للسور الأثري، محدثة قوة مفقدة للتوازن Force Déstabilisatrice عليه، تُضعف تماسك مادة بنائه المتمثلة في الطابيا (pisé) بسبب حدوث الشروخ ثم ترجع إلى مصدرها أي القطار، وهكذا دواليك تتكرر مرتين في اليوم الواحد طيلة الأسبوع، وبعد تفحص قيمة التسارع لمحور X في المنحنى البياني الخاص به عند النقطة الأولى (قرب السكة الحديدية)، تبين أنها وصلت إلى حوالي 38 م/ثا² كأقصى حدٍ لها، أي حوالي أربع مرات تسارع الجاذبية المقدرة بـ 9.81 م/ثا²، وهو ما يعني أنه إذا كان السور الأثري ملاصقاً لسكة الحديد فإنه سيُدفع إلى الأمام بقوة تقدر بحوالي أربع مرات ضعف كتلته.

وبعد انتقالنا إلى النقطة الثانية أي على بُعد 13.45 م من سكة الحديد، وجدنا أن قيمة تسارع محور X تناقصت بشكل ملحوظ لتصل إلى حوالي 1.3 م/ثا²، ونفس الشيء عند انتقالنا إلى النقطة الثالثة، أي على بُعد 27 م من سكة الحديد، زادت قيمتها في التناقص لتصل إلى حوالي 0.61 م/ثا².

ب- موجات محور Z:

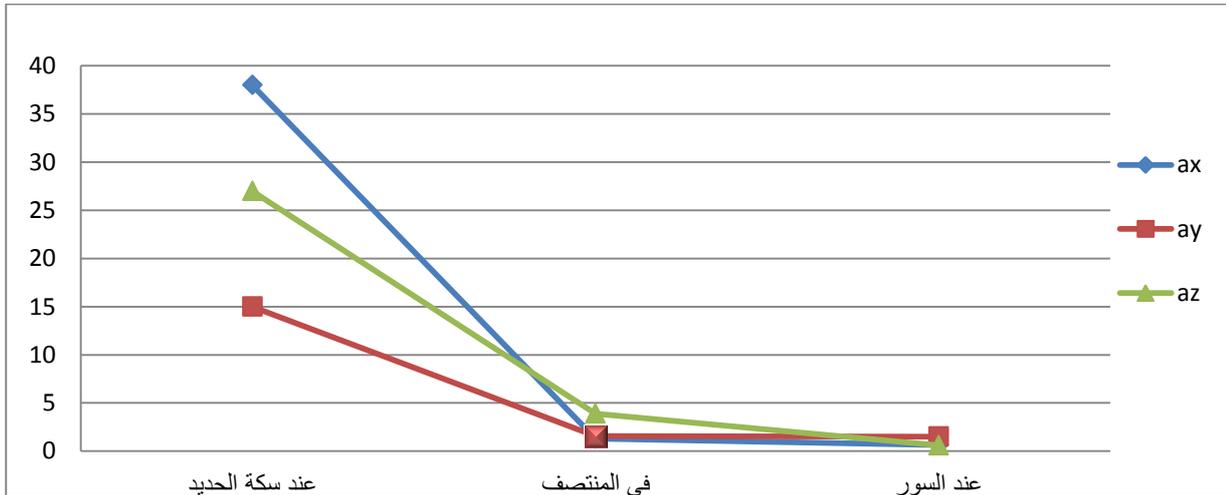
تعتبر هذه الموجات خطيرة على الموروث المادي الثابت لمسارها العمودي كما ذكرنا ذلك سابقاً، حيث تتولد عنها قوة مفقدة للتوازن Force Déstabilisatrice تشترك فيها مع الموجات الاهتزازية لمحور X وقد تحددت قيمة هذه الموجات بالقرب من سكة الحديد عند 27 م/ثا² لتتخفف

إلى 3.9م/ثا² في المنتصف، ثم إلى 0.59م/ثا² بالقرب من الحائط، نفس الأمر حدث مع الموجات الاهتزازية المتحركة وفق المحور Y، حيث أخذت هي الأخرى في التناقص كلما ابتعدت عن مصدر الاهتزازات ولتوضيح الصورة جيدة نقدّم الجدول والمنحنى البياني الآتين:

التسارع Accélération			قيمة التسارع
قيمة التسارع القصوى لمحور Z	قيمة التسارع القصوى لمحور Y	قيمة التسارع القصوى لمحور X	نقطة التسجيل
27 م/ثا ²	15 م/ثا ²	38 م/ثا ²	عند سكة الحديد (على بُعد 01م منها).
3.9 م/ثا ²	1.55 م/ثا ²	1.3 م/ثا ²	في المنتصف (على بُعد 13.45م عن سكة الحديد).
0.60 م/ثا ²	1.5 م/ثا ²	0.65 م/ثا ²	عند السور (على بُعد 27م عن سكة الحديد).

الجدول رقم (29): يبين قيم التسارع القصوى الخاصة بالموجات الاهتزازية (Z,Y,X) الناتجة عن حركة مرور القطار عند نقاط التسجيل.

ونوضّح ما ورد في الجدول أعلاه بالمنحنى البياني الآتي:



المنحنى البياني رقم (19): يبين مسار الموجات الاهتزازية (Z,Y,X) في عند نقاط التسجيل.

من خلال جميع ما تمّ تقديمه سالفاً عن الموجات الاهتزازية المنبعثة عن حركة القطار بالقرب من السور الشمالي للموقع الأثري المنصورة، يتضح جلياً أن لعملية التنمية الحضرية تأثير واضح على الموروث المادي، إذ يعتبر مشروع السكّة الحديدية أحد الجوانب المهمة التي تساهم في تنمية وترقية المجال الحضري لتوفير متطلبات فئة معينة من المجتمع، وهو بذلك أحد الأوجه البارزة للتنمية الحضرية، وينحصر تأثيرها أساساً من في هذا النوع من المشاريع في حدوث اهتزازات من النوع الأول أي الدورية، وقد تسببت في تشقق وتصدع جدران المعالم التاريخية وأطلال المواقع الأثرية، وهو يتفق مع ما حدّده المختصون من المعهد الألماني لتوحيد القياسي الدولي الكائن بمدينة برلين DIN 4150، الذي تمت إليه الإشارة سابقاً، حيث تبين أنّ القيم المتحصّل عليها للمحاور الثلاث (Z, Y, X) في تسجيل الاهتزازات عند السور قد تجاوزت القيمة التي تتحملها المعالم التاريخية وأطلال المواقع الأثرية، والتي حُدّدت بـ 0.02 م/ثا^2 ، حيث وصلت أصغر قيمة قصوى عند 0.60 م/ثا^2 في محور الموجات العمودية Z بمحاذاة السور، أي قرابة ثلاثة أضعاف القيمة الموصى بها من قبل المختصين، وقد وجدنا عند معاينتنا الميدانية شقوق وتصدعات على مستوى الجزء العلوي من سور وأبراج الموقع الأثري، وهو ما يؤكّد تأثر الموروث المادي الثابت بتبعيات التنمية الحضرية، وكذا صحّة ما أشار إليه المختصين حول القيمة الموصى بها، وقد جاءت بشكل عمودي تمتد من الأعلى نحو الأسفل بطولٍ تراوح ما بين 1.50 م و 2 م، في حين تراوح عرض فجوة الشق ما بين 5 سم و 7 سم، وقد لاحظنا ذلك على طول السور الشمالي وأيضاً بقية الأجزاء الأخرى في السور الجنوبي والغربي والشرقي، وكان أكثر وجود لها دائماً عند النقاط القريبة من المحاور الرئيسية التي تعرف حركة مرورية آلية نشيطة، مثل مدخل الطريق الوطني رقم 07 ومخرجه من الموقع الأثري، وعلى مستوى السور الجنوبي الذي تمر بجواره أحد الطرق المؤدية إلى نواحي مدينة تلمسان (بني بوبلان)، وأما عن عينة من تلك الشقوق أنظر الصورة الآتية:



الصورة رقم (83): تبين عينة عن شروخ وتشققات ناتجة عن الاهتزازات بمختلف الأماكن من السور الشمالي للموقع الأثري للمنصورة.

ولاحظنا من القيم المتحصّل عليها في التسجيلات، ومن المنحنى البياني السابق رقم (18) أن تسارع الاهتزازات يتناسب تناسباً عكسياً مع المسافة، فكلّما تناقصت زادت قوة الاهتزازات، وبالتالي زادت حدّة تأثيرها، وإذا زادت قلّة قوة الاهتزازات وخفّ تأثيرها، ولكن بالرغم من ذلك يؤدي تكرارها يومياً إلى حدوث الشقوق التي تتأني عن تأثير تعب مواد البناء على المدى الطويل، لأنها ستحدث قوة متعبة Force de Fatigue على المبنى تضعفه شيئاً فشيئاً إلى أن يسقط تماماً، ومن تمّ انخيار المعلم التاريخي كلية، وتجدر الإشارة إلى أنه هناك عامل آخر له تأثير على قيم التسارع يتمثل في طبيعة التربة، فقد تبين أنّ لتربة المكان الذي قمنا فيه بتسجيل الاهتزازات تركيبة متماسكة وصلبة، وذلك حسب ما أفادنا به مخبر الأشغال العمومية للغرب الكائن مقرّه بجي أبي تاشفين (تلمسان)، وقد تبين لهم ذلك من خلال السبر الجزري المنجز من طرفهم قبل مباشرة أشغال النفق الأرضي الرابط بين إمامة وحي ماخوخ الذي

لا يبعد عن الموقع الأثري المنصورة إلا حوالي 2.50م.⁽¹⁾ ولكن بالرغم من ذلك يؤدي تكرارها يومياً إلى حدوث الشقوق وتضرر السور الدفاعي، ومن تمّ انهيار المعلم التاريخي كلية، لأنها ستحدث قوة متعبة Force de Fatigue على المبنى تضعفه شيئاً فشيئاً إلى أن يسقط تماماً، مثلما يقوم شخص له قوة معينة بقطع سلك حديدي اعتماداً على أحداث حركة في وسطه من الأعلى إلى الأسفل بشكل منتظم، وهو ما سيولد قوة تُتعب تلك المادة تكسرهما في نهاية المطاف.

ونشير إلى أن هناك معياراً آخر يسمى بـ ISO/TC/108/SG-2، المحدد من طرف المعهد الألماني لتوحيد القياسي الدولي الموجود بمدينة برلين، وهو خاص بقياس وتقييم الاهتزاز الميكانيكي وصدّماته الناتجة عن الآلات والمركبات، وفقاً للقيمة القصوى لمجموع المحاور الاهتزازية (Z, Y, X)، وجاءت المعايير والأضرار المتفق عليها محدّدة على النحو الآت

الجدول رقم (30): يوضح المعيار المحدد للقيم القصوى لمحاور الاهتزاز والضرر: ISO/TC/108/SG-2

الناتج عنها، عن Georgio Torraca, Matériaux...., Op.cit, p:60

من خلال حساب القيم القصوى المتحصّل عليها التسجيلات لكل محور (Z, Y, X) بالمعادلة

$$\text{الرياضية الآتية: } \sqrt{2 \text{ تسارع محور } Y + 2 \text{ تسارع محور } X} \text{ (2) يتضح أنّ تسارع}$$

الاهتزاز المسجّل عند السكة الحديد يتماشى مع القيم المذكورة في الخانة الثالثة من الجدول، فقد وصلت إلى حدود 48م/ثا²، وعليه يمكن القول أنها ستكون شديدة الوقع على السور إن كان بالقرب منها، أما تسارع اهتزاز النقطة الوسطى فجاء موافقاً لقيم الخانة الثانية من الجدول مع فارق بسيط، حيث وصلت إلى حدود 4.39م/ثا²، وفيما يخص النقطة الثالثة التي تمنا في الدراسة، أي القريبة من السور، فقد

1-مقابلة شفوية مع السيدة عشاشرة رئيسة القسم التقني بمخبر الأشغال العمومية للغرب الجزائري بتلمسان-LTPO-، يوم: 18أفريل 2017 على الساعة 10 صباحاً.

2-Georgio Torraca, Matériaux...., Op.cit, p:60

وصلت إلى 1.74 م/ثا²، وهي أصغر بجوالي النصف من الحد الأدنى المشار إليه في الخانة الأولى من الجدول.

ومما لاشك فيه أن الخط الجديد شرق غرب الذي أشرنا إليه في العامل الإداري أنه سيمر في نفس مسار الخط القديم عند دخوله مدينة تلمسان، أي بالقرب من السور الشمالي للموقع الأثري المنصورة سيضعف لا محالة من حدة التأثير لزيادة وزنه، إذ ستكون له قاطرات أكبر حجماً وأكثر عدداً

من قاطرات

مجموع القيم القصوى لمحاور (Z, Y, X)	الضرر الميكانيكي الناتج
من 3 م/ثا ² إلى 5 م/ثا ²	شقوق خفيفة لا تظهر جيداً بوضوح على الجدران والطلاء.
من 5 م/ثا ² إلى 30 م/ثا ²	شقوق تظهر بوضوح، وتعترى العناصر الأساسية كالأعمدة.
من 30 م/ثا ² إلى 100 م/ثا ²	شقوق كبيرة جداً يصاحبها ضعف في هيكل المبنى.

القطار

الحالي، وأبـ

ضاً سرعة

أكبر، حيث

ت تقدر بـ 220 كم/سا مما سيزيد من كتلته وبالتالي من شدة قوة تأثيره، وعليه ستتغير القيم السالفة الذكر، وسيعود ذلك بالسلب على السور الدفاعي الذي أنجز ليقاوم ضربات المناجيق وغيرها، لكن يبدو أنه لن يستطيع التحمل وطأة التنمية الحضرية، وستختفي بقاياه في يوم من الأيام.

3- اعتداءات الهدم والتخريب:

تصينغ التنمية الحضرية بمشاريعها المختلفة الطابع قالباً عمرانياً عصرياً تغيب فيه إلى حد بعيد الحلقة الواصلة بين الماضي والحاضر جملة وتفصيلاً، فمن القليل النادر المتبقي من التراث المادي الذي لا زال ماثلاً للعيان يكابد ويلاط الزمن، بات العثور على معلم تاريخي أو موقع أثري محتفظاً بجميع تفاصيله الأصيلة التي حيكها المعماري المسلم قديماً أمراً أشبه بالمستحيل، بل أكثر من ذلك فقد أصبحنا نقرأ عن البعض منها من الكتب فقط لما طالها من تحطيم وتخريب، هذا الواقع صادفنا وجوده من خلال المعاينة الميدانية للمدن التي أخذناها عينة لدراسة تأثير التنمية الحضرية على الموروث المادي الثابت، فقد استوقفنا بعض الحالات التي تعرضت للتخطيط والتخريب العمدي بغرض إنجاز مشروع تنموي

له علاقة مباشرة بحاجيات أفراد المجتمع، وهو ما أكد لنا أن أهمية التراث المادي تتلاشى أمام المنجزات الحضارية العصرية، والملاحظ في الأمر أن هذا الاعتداء لم يرتكب من طرف أفراد المجتمع بقدر ما ارتكب من طرف السلطات المحلية التي من شأنها ضبط الأمور المتعلقة بعمليات البناء والتعمير وفقاً لما هو منصوص عليه في المادتين 45 و69 من قانون البناء والتعمير 29/90.

إنّ هذا الوضع مشابه لما عاشه الموروث المادي من تحطيمٍ وتهديمٍ إبان الفترة الاستعمارية، حينما حاول المستعمر الفرنسي إعادة هيكلة المدن التي تركز فيها وفق منظوره العمراني الغربي، كما رأينا ذلك سابقاً في كلٍ من مدينة تلمسان وندرومة، أما مدينة هنين فقد اكتفى باستنزاف ثروتها المعدنية من دون أن ينجز فيها مدينةً جديدة، ومما لاشك فيه أنّ امتداد هذا النوع من الاعتداءات، وتكرّر نفس السيناريو بعد الاستقلال لم يأت من العدم، إنما عن عوامل أتينا على ذكرها، إضافة للأمية التراثية، وأيضاً للحرص المبالغ فيه من طرف أفراد المجتمع عامة على اختلاف مستوياتهم تحقيق المصالح المادية المعاصرة، وكذا الارتباط فكرياً وثقافياً بما هو موجود في العالم الغربي من طرق بناءٍ وغيرها، وأمام هذه المحصلات أصبحت المعالم التاريخية والمواقع الأثرية في نظرهم حجرة عثرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى في طريق التنمية الحضارية التي توفر لهم إطاراً معيشي كريمة.

وعن أهم الاعتداءات المسجلة ضد التراث المادي الثابت الظاهر منه والمطمور في باطن الأرض، فقد عاينا حدوثها أثناء التحقيق الميداني بكلٍ من مدينة تلمسان وندرومة وهنين، وعن أهم ما سجلناه في المدينتين المتبقيتين فنذكر مايلي:

3-1 مدينة تلمسان:

3-1-1 تخريب موقع أثري بالجهة الجنوبية الغربية من القطاع المحفوظ:

يقع هذا الموقع الأثري بالتحديد في كلية الطب، وهو يعتبر جزء من القطاع المحفوظ لمدينة تلمسان المعلن عنه بموجب المرسوم التنفيذي 403/09، وبحكم كونه كذلك، فاحتمال وجود بقايا أثرية فيه وارد، ونرى

أنه يتفق أكثر مع مفهوم الحميات الأثرية، وهو ما يُستقى من القانون 04/98 المادة رقم 32 التي جاء فيها أنها مساحات لم يسبق أن أُجريت عليها عمليات استكشاف وتنقيب، ويمكن أن تنطوي على مواقع ومعالم لم تحدّد هويتها، ولم تخضع لإحصاء أو جرد، وقد تحتزن في باطنها آثاراً، وتحتوي على هياكل أثرية مكشوفة⁽¹⁾، وهو ما صادفنا وجوده أثناء التحقيق الميداني الذي قمنا به لمعاينة مشروع إنجاز المقر الجديد لقسم الصيدلة في كلية الطب سنة 2014 الذي يعتبر مثلاً عن تأثير التنمية الحضرية، فبعد قيام صاحب المشروع بالحفر إلى حوالي خمسة أمتار في باطن الأرض كُشف النّقباب عن بائكة تتكون من أربعة أقواس مبنية من مادة الآجر، يمتد مسارها من الشرق نحو الغرب، أنظر الصورة رقم (84).

حسب

رأينا أنها

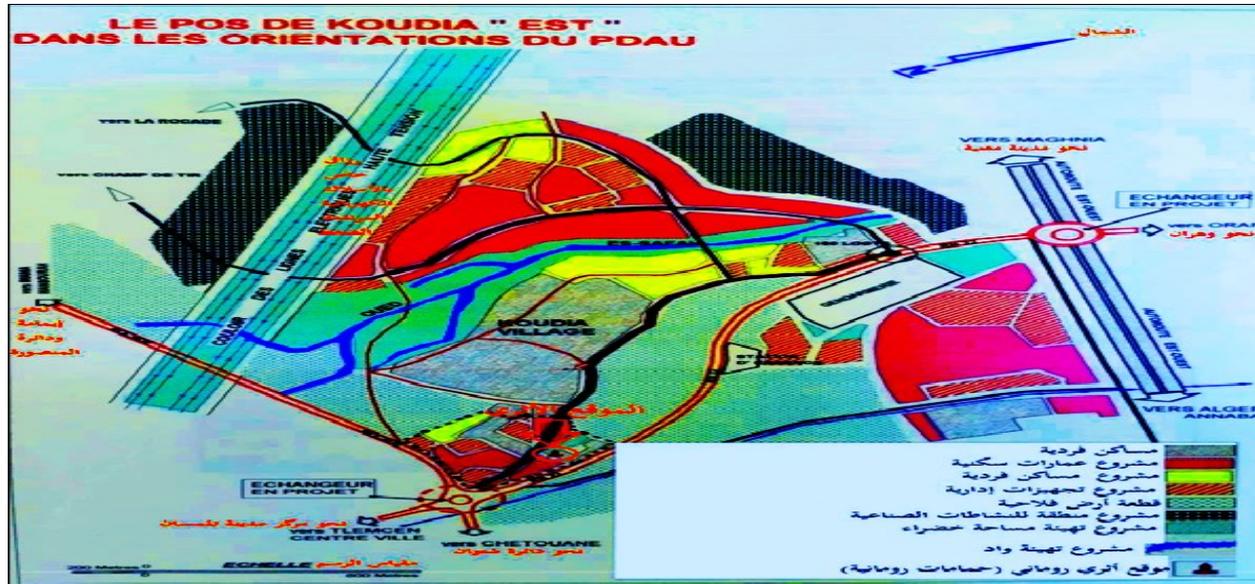
كانت عنصر

معماري

يكوّن هيكل

جسر لممرور

السكان



المدينة، والقوافل التجارية الوافدة جهة الغرب عبر باب سيدي بوجمعة المطغري الذي سبقت الإشارة إلى

ضريحه في الفصل الثاني

من هذه الأطروحة، وذلك لأنه أنجز في مسار الطريق المؤدي إليه، وبالرغم من ظهور بقايا هذا المعلم الأثري إلا أنّ إنجاز المشروع تواصل، أنظر الصورة رقم (85)، وقد أنتهي منه في سنة 2016، وهو اليوم عبارة عن مبنى متكون من خمسة طوابق يتضمن قاعات لتدريس الصيدلة، أمّا ما وُجد في باطنه فقد اختفت معالمه للأبد بعدما حُرِّبَتْ وحُطِّمَتْ أجزاءً معتبرة منه.

1- الجريدة الرسمية، القانون 04/98، مرجع سابق، ص: 09

3-1-2 تهديم جزء من السور الشرقي للموقع الأثري المنصورة:

لقد أحيطت مدينة المنصورة كباقي المدن الإسلامية بأسوار دفاعية من مادة الطابيا لتحسينها وتوفير عامل الأمن، مثلما سبقت الإشارة إليه في هذه الدراسة، وأثناء إنجاز المشروع التنموي المتمثل في الطريق رقم 07 الرابط بين مدينة تلمسان والحدود المغربية، قام المستعمر بتمرير مساره في وسط الموقع الأثري بعد أن حطّم جزءاً من السور الغربي بعرض قدره 07م، أي العرض المخصص للطريق، وفي العقد الماضي تمّ توسعة عرض الطريق ليتوافق مع وثيرة الحركة الآلية التي كما رأينا في الجدول رقم (21) و(22) أنّ عدد المركبات تزايد من سنة 2015 إلى 2016، ويُقدَّر العرض الحالي للطريق بـ 20م ينقسم إلى قسمين واحد للذهاب والآخر للإياب، أنظر الصورة رقم (86)، أي أنه تضاعف بأكثر من مرتين، هذه التوسعة استدعت تحطيم المزيد من أجزاء السور الشرقي، ولم يتوقف تأثير هذا الطريق عند هذا الحدّ فقط، فقد أحدث تشققات في الجزء القريب منه كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، نتيجة للاهتزازات التي تسببت في حدوثها حركة المركبات الآلية المارة من هناك، لقد تأثرت القيمة الفنية والتاريخية لهذا السور بفعل اقتلاع جزء منه، لعدم تلائم مشهده العام عند من يشاهده.

3-1-3 تخريب موقع أثري بحري الكدية:

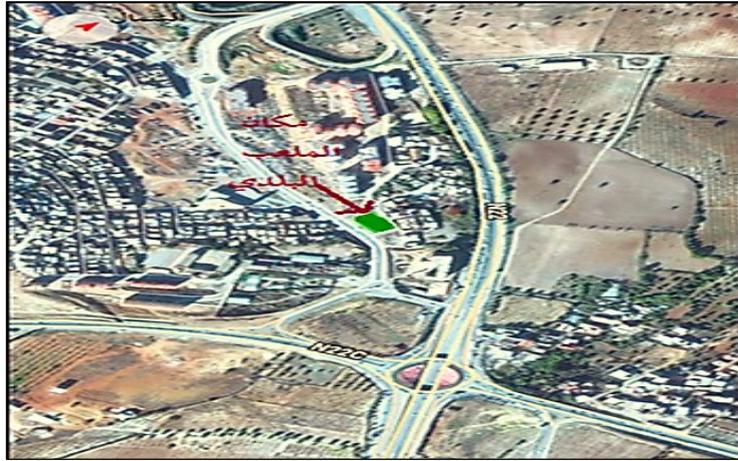
لقد أشرنا في حديثنا عن العامل الاجتماعي أنّ حي الكدية تكوّن كإفرازٍ مباشرٍ للنمو الديموغرافي الحاصل جرّاء توفر المرافق الضرورية في المدينة بعد استفادتها من تنمية حضرية واسعة النطاق ومختلفة المجالات، الأمر الذي دفع بالسكان إلى الاقتراب أكبر قدر ممكن من مدينة تلمسان للاستفادة من التجهيزات الإدارية ذات الطابع الاجتماعي كالتعليم والصحة وغيرها من الأماكن التي توفر لهم أماكن دائمة للعمل خاصة أنه تمّ إنجاز المنطقة الصناعية في عين الدفلى التي أنشئ فيها العديد من المؤسسات العملة في ميدان الصناعة، وأمام بروز مثل هذه الأحياء العشوائية، أصبح من الضروري تفعيل دور المخططات الحضرية في تلك الجهة، وعليه قمنا بمعاينة مخطط شغل الأراضي (POS) المنجز سنة 1998 الخاص بحمي الكدية، وللتذكير فقط مثل هذه المخططات تنجز من أجل درء الخطر عمّا له

علاقة بموضوع بحثنا، وهو الحفاظ على خصوصية الأماكن ذات الطابع التاريخي⁽¹⁾، وأثناء تفحصنا لصفحاته وقع نظرنا على أحد المخططات المتعلقة بتصميم التجمع السكني لحي الكدية يتضمن كيفية توزيع المساكن وأهم الشوارع وغير ذلك، بالموازاة مع ذلك، تمت الإشارة فيه لوجود موقع أثري روماني كان عبارة عن حمامات معدنية، أنظر المخطط الآتي:

المخطط رقم (17): يبين مكان وجود الموقع الأثري بالجهة الشمالية من حي الكدية، عن:

Agence National d'aménagement du territoire (ANAT), Plan d'occupation de sol (POS), Zone Est d'Elkodia, Tlemcen, 1998, p:15

لكن من خلال التحقيق الميداني الذي قمنا به في الجهة الشمالية لحي الكدية تبين لنا وجود أمر مناقض لما أشير إليه في المخطط، فقد وجدنا ملعب مساحته حوالي 1000م² شيد فوق الموقع الأثري الروماني، أنظر الصورة رقم (87)، يقابله من جهة الشمال مساحة مخصصة لمشروع سكني، ومن الجنوب طريق، أما شرقاً فتقابله مساكن فردية، وغرباً طريق، أنظر الصورة الآتية:



الصورة رقم (88): تبين إنجاز الملعب في مكان الموقع الأثري الروماني بالجهة الشمالية الشرقية لحي

الكدية. عن: www.google.earthe.com

يمكن الوقوف على ما لاحظناه من خلال المقارنة بين المخطط السابق والصورة أعلاه، أن الموقع الأثري قد خرب تماماً وأتلفت معالمه كلية، وتجدد الإشارة إلى أن مخطط شغل الأراضي (POS) للكدية

1- الجريدة الرسمية، القانون 29/90، مرجع سابق، ص: 04

تضمّن في الملحق الخاص به تقرير أعدّ من طرف جمعية أحباب التراث بتلمسان ذكر فيه موقع أثري يسمى نسبة للعين الموجود بالقرب منها الملقّبة بعين مجادلة، اكتشفت فيه سنة 1972 قطع النقدية يقدر عددها بـ 10000 قطعة، (لم يذكر إن كانت دراهم أم دنانير)، وقد أرجعها كلٌّ من رشيد بورويبة وعبدالرحمن خليفة ومنير بوشناقى إلى الفترة الموحدية⁽¹⁾، وبموجب المادة 37 فإن مكان الاكتشاف هو موقع أثري، وبالنسبة لمحيطه فقد غزي بالمساكن الفردية والجماعية (عمارة)، أي أنه تعرّض هو الآخر لتخريب التنمية الحضرية.

3-1-4 حفر جزء من ساحة البشير الإبراهيمي:

تعتبر هذه الساحة جزء من الحيز العمراني للمدينة العتيقة، تقع مقابل المتحف العمومي للتاريخ والفن جهة الشرق، وقد تقاسمت في فترة الاحتلال الفرنسي نفس المكان مع ثكنة المعزوز، وكانت تسمى آنذاك بساحة الانتصار، وقام بإنجازها وتوسعتها على أنقاض المساكن بعد أن هدمها كما ذكرنا ذلك في الفصل الخامس من هذه الأطروحة⁽²⁾، بعد أن حطّم المستعمر ما كان موجوداً فوقها، أتى دور أبناء مدينتها لتحطيم ما بقي مطموراً في باطنها من أساساتٍ ولقى أثرية تعكس بصدق ما كان كائناً آنذاك من مستوى معيشي، لقد عاينا مؤخراً أثناء التحقيق الميداني في شهر جويلية المنصرم قيام أحدهم حفر الزاوية الجنوبية الغربية من الساحة بواسطة آلة الحفر الميكانيكية، أنظر الصورة رقم (89)، وقد قدرّت مساحتها بحوالي 80م²، أما عمقها فوصل إلى حوالي 3م، لأنجاز مشروع حسب ما قيل لنا خاص بمحلّ تجاري.

وقد لفت انتباهنا فوهة حفرة في الزاوية الشمالية الشرقية من المساحة المحفورة طول قطرها لا يتعدى 30سم، ونرجّح أنها فوهة أحد الحفر التي كانت تصب فيها قنوات الصرف الصحي المعروفة باسم

1-Agence National d'aménagement du territoire (ANAT), POS de Zone EST d'Elkodia...., Op.cit, p:93

2-André Lecocq, Op.cit, p:69

السلوكية، خاصة أن القناة الرئيسية التي تلتقي عندها باقي القنوات كانت تمر عند السور الشمالي للمشور فقد كانت طبوغرافيته منحدره، كما ذكرنا ذلك سابقاً في هذا الفصل، وهو ما ساعدها على تصريف المياه بسهولة.

وما لفت انتباهنا في هذا المشروع هو أمرين، الأول يتمثل في الغموض الذي يلفه، إذ لم نستطع التحصل على معلومات عن ماهيته من قبل الجهات الخاصة التي لا تبعد عنه إلا بضعة أمتار عن مديرية الثقافة، أما الأمر الثاني فتمثل في عدم الإعلان عن رخصة البناء في مكان المشروع، على النحو المعمول به في مثل هذه الحالات، وحتى إن منحت له من طرف مديرية البناء والتعمير ممثلة في مكاتبها الموجودة على مستوى البلديات، فلا يحق لها ذلك تبعاً لما تنص عليه المادة 45، وخاصة المادة 69 التي تصمت عدم الترخيص بأي بناء أو هدم من شأنه أن يمس بالتراث الطبيعي والتاريخي والثقافي أو يشكل خطراً إلا بعد استشارة وموافقة المصالح المتخصصة في هذا المجال وفقاً للقوانين والتنظيمات السارية المفعول⁽¹⁾، ومن خلال هذا الاعتداء يمكن القول أن كل ما له علاقة بالتنمية الحضرية سواء كان ذا منفعة خاصة أم عامة يبقى أخطر معول هدم التراث المادي الثابت وطمسه.

3-1-5 إحاطة بقايا معلم تاريخي بمسكن:

ينحصر هذا الاعتداء في بناء مسكن رقم 18 بحي قباسة يتضمن داخله بقايا أحد المعالم التاريخية التي يرجح أنها كانت برج منفصل عن مدينة تلمسان، وهو يبعد عن باب القرمادين بحوالي 300م غرباً، غالبية أجزائه وتفصيله المعمارية اختفت وتلاشت تماماً، ولم يتبق منه إلا جزئين صغيرين من سور سمكهما 1.50م وارتفاعهما يقدر بحوالي 05م، الجزء الأول يعتبر تكملة لسور حديقة المسكن الشمالي، يعرض أمامه أحد الباعة بضاعته، والجزء الثاني يقع داخل المسكن بالكاد تظهر بعض

1- الجريدة الرسمية، القانون 29/90، مرجع سابق، ص: 7-9

شرفاته، أنظر الصورة رقم (90)، ومما لاشك فيه أن عملية بناء هذا المسكن أدت إلى احداث بعض التعديلات على هذين الجزئين، وهو ما يستشف من الاعتداء المسجل عليهما.

3-1-6 تهديم المساكن العتيقة:

ذكرنا سابقاً عند حديثنا عن التلوث البصري المستحدث بفعل التعديلات الحضرية التي طرأت على المدينة العتيقة عقب التحقيق الميداني الذي قمنا به فيها، أنّ مبانيها انقسمت إلى حالات متباينة، منها ما هُدم كلياً ومنها ما هو مهذّب بالأنهيار ومنها المستخلفة والمتوسطة والجيدة، ونعود للحديث عن الصنف الثالث منها المتعلقة بالمستخلفة، لقد لاحظنا أن بعض المساكن العتيقة حطمت من طرف ملائكها كلياً وبني مكانها مبنى عمودي إسمنتي، وقد انتشرت هذه العملية في جميع الأحياء السكنية وصادفنا أثناء المعاينة الميدانية قيام اثنان من ملائك المساكن تهديم مساكنهم العتيقة في درب مسوفة الأول كان يشهر رخصة البناء في موقع المشروع مكتوب عليها إنجاز محل تجاري قرار رقم 731 صادرة بتاريخ 2016/04/21، أنظر الصورة رقم (91)، أما الثاني فقد باشر أعماله من دونها، إذ لم نرى لها وجوداً في موقع الحفر، أنظر الصورة رقم (92)، نفس الأمر عايناه في حي الرحبية السفلي، حيث صادفنا مجموعة من العمال تقوم بتحطيم الأجزاء المتبقية من مسكن عتيق كان مهجوراً، وبعد استعلامنا منه تبين أن مالكة يريد بناء مسكن إسمنتي عمودي، أنظر الصورة رقم (92) و(93).

3-2 مدينة ندرومة:

لم نسجل في مدينة ندرومة العتيقة وجود مثل هذا النوع من التأثير للتنمية الحضرية أثناء قيامنا بالتحقيق الميداني، نظراً لانجاز كل ما له علاقة بالمشاريع المبرمجة من طرف السلطات المحلية في الجهة الشمالية الممتدة على طول الطريق المؤدي نحو مدينة الغزوات، لتمييزها بطبوغرافية منبسطة، في حين طبوغرافية المدينة العتيقة منحدر، فضلاً أنّ دروبها ضيقة ومتعرجة لا تساعد على حركة السكان فيها، إلا أنّ البعض من مالكي المساكن العتيقة قاموا بتحطيمها لإنجاز مساكن أخرى حديثة وعصرية، كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن تباين الحالات التي تعيشها المساكن العتيقة في المدينة العتيقة، إضافة لما

نتج عن ذلك من تلوث بصري كتلي، فقد تعرّضت شخصية النسيج العمراني العتيق للشّرخ وفقدان إحدى أهم الحلقات الواصلة بين ماضيها وحاضرها، وتجدد الإشارة أنّ هذا النوع من الاعتداء ليس وليد الساعة فقد سبقهم المستعمر الفرنسي إلى ذلك، كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن التلوث البصري الكتلي إبّان الفترة الاستعمارية.

3-3 مدينة هنين:

كان لتحطيم الإسبان عمارة وعمران مدينة هنين في ديسمبر 1534 عندما همّ بالخروج منها، وجعله عاليها سافلها أثر بالغ على مستقبلها، فلم يعد لها بعد ذلك وجهها المشرق، وهو ما يستشف ممّا ذكره أحد الجغرافيين الفرنسيين في التقرير الذي أعدّه حول تضاريسها بعد زيارته لها في الفترة الأولى للاحتلال أنّها مدينة بومبي الثانية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهو ما يدل دلالة واضحة أنّها بقيت على حالها لأكثر من ثلاثة قرون متتالية (1534م-1842م)، وبالرغم من إعادة تعميرها إلاّ أنّها ظلّت مبتورة المسار الحضاري مع ماضيها لاهي مدينة إسلامية ولاهي غربية. شكّلت إعادة التعمير التي تمّت بعملية التنمية الحضرية بعد استقلال الجزائر من قبضة المستعمر الفرنسي معول هدم للتراث المادي المتبقي في المدينة، مثلها في ذلك ما قام به الإسبان، وتنحصر الاعتداءات المسجلة في مايلي:

3-3-1 تحطيم بقايا برج البحري:

ذكرنا في الفصل الثالث من هذه الأطروحة أنه كان يوجد فوق الجرف الصخري الشرقي الذي يشرف على المدينة وعلى السّاحل بارتفاع يقدر بـ 15م، لم يتعرض جيورج مارسيه للحديث عنه في البحث الأثري الذي نشره في مقال المجلة الإفريقية، ربما لأن جزءاً من هيكله العلوي كان قد اندثر بفعل عوامل لا نعلم ما هي.

بعد استقلال الجزائر استفادت مدينة هنين من بعض المشاريع الحضرية، من بينها ما استفادت منه في فترة الثمانينات، حيث تمّ في نهايتها بالتحديد سنة 1988 إعلان السلطات المحليّة عن مشروع الميناء

محاولين به إرجاع المكانة التي تبوأها المدينة في الفترة الوسيطة، لكن يبدو أن ذلك كان مقتصرًا على الجانب الاقتصادي فقط، فإثناء مباشرة المشروع حُطِّم ما تبقى من برج البحري، أنظر الصورة رقم (94) لأنَّ توسعة الميناء استوجبت تحطيم الجرف الصخري الذي استندت عليه بقايا المعلم التاريخي، وقد تمَّ ذلك بواسطة المتفجرات (الديناميت) والآلات الميكانيكية، بحكم صلابة الحجارة، فكان ذلك بمثابة نقطة نهاية المعلم التاريخي، وما تبقى منه اليوم هو جزء من أساسه لا يتعدى ارتفاعه 1.30م وذكر عبد الرحمن خليفة أنَّ الرسائل التي قدّمت لمهندسي مخبر الدراسات البحرية (LEM) Laboratoire d'Etude Maritime الذين تابعوا سير الأشغال من أجل وقفها ريثما يتم إنقاذ ما يمكن إنقاذه لوقف الأشغال، ومنع تحطيم كلِّ ما له علاقة بالموروث المادي القابع في أرضية الميناء قد ضريت عرض الحائط، وأنجز المشروع وحُزِّب الموقع الأثري، وكشفت عملية التحطيم عن صهريج كان موجود بالقرب من برج البحري لتزويد جنود الحراسة بالماء الشراب، تحدّثنا عنه وذكرنا مقاييسه في الفصل الثالث من خلال ما سجله الأستاذ عبد الرحمن خليفة ساعة اكتشافه من طرف سائق آلة الحفر، أي قبل مواصلة المشروع، وقد حُطِّم هو الآخر كلياً.⁽¹⁾

3-3-2 بناء مقر للحماية المدنية:

عائنا أثناء التحقيق الميداني في مدينة هنين إعتداءً آخر كان من شأنه أن يحزّب الجهة الجنوبية الغربية من الموقع الأثري الميناء، لو لم تتدخل الجهات المعنية لإيقاف صاحب المقاول، الذي كان قد باشر عملية حفر جزء من الموقع الأثري مساحته تقدر بحوالي 800م²، أما عمقه فقد وصل إلى 1.30م، أنظر الصورة رقم (95)، وقد عاينا وجود عدد من القطع الفخارية بالموقع ما يدل أنه لو تواصل الحفر فستحطم لا محالة لقي أثرية أخرى مكتملة في باطن الأرض.

3-3-3 بناء مقر البلدية الجديد:

1-Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit, p:290

في إطار تحديث الإدارة وتحسين مستوى الخدمات المقدمة لسكان مدينة هنين تمّ الإعلان عن مشروع مقر جديد للبلدية، وأختير له موضع المقر القديم للبلدية المنجز من طرف المستعمر الفرنسي في السنوات الأخيرة للاحتلال بالتحديد في سنة 1958، حسب ما أعلمنا به من أعيان المدينة، لقد كان في أول الأمر عبارة مبنى صغير الحجم وبسيط سقفه مغطى بقطع حديدية، وقد احتفظ بنفس الدور بعد الاستقلال مع إضافة بعض التعديلات كتوسعة مساحته.

بقي الأمر على ذلك الحال إلى أن جاءت سنة 2005 وأعلن عن مشروع المقر الجديد وهدم المقر القديم، وهو ما أدى إلى حدوث كارثة أسالت الكثير من حبر المختصين والقائمين على القطاع عندما رفعوا نداءاتهم إلى الجهات العليا، فبعد استكمال عملية الهدم، قام صاحب المقاوله بحفر أرضية المشروع إلى عمق تراوح ما بين 02 و 03م كما كان مقرراً في المخطط، حينها برزت للأنظار شواهد أثرية ذات قيمة بالغة تمثلت على حدّ قول الأستاذ عبد العزيز محمود لعرج في مساكن بعقودها وأعمدتها وآبارها وغيرها من اللقى الأثرية الخزفية بعضها لا يزال مكتملاً، وتجدد الإشارة إلى أنه وجدت مع هذه المكتشفات لوحة حجرية عليها كتابة منقوشة باللغة الفرنسية تركها المستعمر الفرنسي تمنع كل من يريد الحفر إلى عمق أكبر، لأنّ هناك بقايا أثرية على قدر كبير من الأهمية العلمية والتاريخية، لكن لم تعر السلطات المحلية أي اهتمام لا لهذه اللوحة، ولا للمكتشفات الأثرية، ولا للرّسائل الموجهة لهم لإيقاف المشروع، إلى الحدّ الذي لم يسمح بتدخل بعثة أثرية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فقد أمر رئيس الدائرة والبلدية علناً مواصلة الحفر⁽¹⁾، وتمّ مباشرة بناء المقر الجديد فوق الموقع الأثري سنة 2006 ليكتمل في سنة 2008، أنظر الصورة رقم (96).

يعكس هذا المشروع مثالا نيراً عن غلبة القرار الإداري المتّخذ من قبل الجهات المحلية، وهو ما يؤكد أن الأهمية التراثية تدوس دائماً برجليها على مفهوم الحفاظ على التراث المادي الثابت وتشجّع عملية التنمية الحضرية لأن تكون سيّدة الموقف، إنّ إنجاز هذا المشروع مخالف لما تنص عليه المادة 28 من

1- عبد العزيز محمود لعرج، مدينة هنين.....، ص: 132

القانون 04/98⁽¹⁾، التي ذُكر فيها أن باطن الأراضي المتصلة بالموقع أثري هي أيضاً في عُرف القانون موقعاً أثرياً، وهو الأمر نفسه المجسّد في موقع البلدية بحكم كونه يتقاسم نفس المكان مع موقع الحفرية الأثرية التي أنجزت قبل إنجاز المشروع ما بين سنة 1971 و1972 وأعيدت سنة 1981، وعليه يُمنع منعاً باتاً البناء فيه.

وعموماً تغير الملمح العام للميناء، فإن تمّ توقيف هذا المشروع فهناك مشروع آخر قد أنجز في وقت مضى وهو يتمثل في مقر البحرية العسكرية الموجود فوق الموقع الأثري للميناء القديم، وضاعف أيضاً مشروع إعادة تهيئة الميناء المنجز مؤخراً من حدّة التغير الخارجي والداخلي، أنظر الصورة رقم (97)، فعمليات الحفر التي قامت بها مؤسسة كوسيدار في الموقع يُحتمل أن تكون قد حطّمت ما له علاقة مثلاً بالقناة التي كانت تصل الشاطئ بمكان رسو السفن تحت القلعة مباشرة... إلخ، ولكن ذلك كان يتم في صمت حتى لا يتم توقيف المشروع وبالتالي حدوث تأخر يضر بصاحب المقاوله.

خلاصة الفصل:

تعرض النسيج العمراني العتيق للمدن العتيقة جرّاء تجسيد عملية التنمية الحضرية لتلبية متطلبات السكان لأضرار تجاوزت التلوث البصري، فقد تعرّضت للضرر الفيزيوكيميائي والميكانيكي والهدم والتخريب.

1- الضرر الفيزيوكيميائي:

لم يتوقف تأثير التنمية الحضرية في استحداثها للتلوث البصري المورفولوجي والداخلي، بل تعدّى ذلك، حيث تعرّضت مواد بنائه للتفتت وتغير تركيبها الفيزيائية والكيميائية، نتيجة انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون ثاني أكسيد الكبريت من حركة المرور الآلي الذي عبّدت له الطريق عملية التنمية

1- الجريدة الرسمية، القانون 04/98، مرجع سابق، ص: 08

الحضرية تلبية للمتطلبات العصرية في التنقل، وقد تبيننا ذلك بعد التحليل الكيميائي لعينتين من مادة الطابيا التي شيدت منها أسوار مدينة هنين والمنصورة.

2- الضرر الميكانيكي:

تعرض الموروث المادي إضافة للضرر السالف الذكر للشروخ والشقوق على مستوى جدرانه وتفصيله المعمارية، نتيجة نفس الحركة التي انبعثت منها الغازات الملوثة، فنظراً لقدم مواد بنائها وهشاشتها وتكرر عامل الحركة لمدة زمنية طويلة، تعرضت لهذا الضرر، وقد عاينا هذا الوضع في أسوار المنصورة التي يمر بها خط السكة الحديدية الرابطة بين مدينة تلمسان ومغنية، وقد زاد في تفاقم الوضع طول المدّة الزمنية التي دخل فيها القطار حيز الخدمة، إذ يعد من المشاريع التنموية الحضرية الاستنزافية لترواث الجزائر المنجزة من طرف المستعمر الفرنسي في أوائل القرن العشرين.

3- التخطيم والتخريب:

تصادمت مصالح التنمية الحضرية مع ما تقدّمه المعالم التاريخية والمواقع الأثرية من أصالة وهويّة يطبعان الشخصية العامة للمجتمع ككل، فتولد نوع من العداء بين الاتجاهين، فالأول يدعو للحدّثة والثاني يدعو لتمحّص أخبار الماضي وما قدّمه أسلافنا في ميدان البناء والتشييد، ومما عايناه من الواقع الذي يعيش التراث المادي الثابت في شكل عمائر أو بقايا في مواقع أثرية، فقد تبين لنا تعرضه لعملية تخطيم وتخريب في بعض لجزء منه، وأحياناً لكامل المعلم أو الموقع الأثري، والأمثلة واضحة في كل من مدينة تلمسان وهنين، أمّا مدينة ندرومة فنظراً لعزوف السلطات على إعلان مشاريع تنموية بها أو بالقرب لطبوغرافيته المنحدرة التي كانت لها بمثابة ضربة حظ، فلم تصادف هذا الضرر، حيث تمّ إنجاز أحياء سكنية ومقرات إدارية بالجهة الشمالية على طول الطريق المؤدي للغزوات، لكن في فترة الاحتلال الفرنسي تعرّض نسيجها المعماري لعملية التخطيم بالجهة الشرقية (حي الخربة)، وفي وسطها لفتح شارع يصل إلى الجامع المرابطي.

الفصل الثالث طرق المعالجة

- إعداد خارطة أثرية.
- إنشاء ديوان المحافظة على الموروث المادي بمنطقة تلمسان.
- إنشاء إدارة المخاطر التراثية.
- تفعيل دور علم الآثار الوقائي.
- بعث النمط المعماري الإسلامي العتيق بالمدن التراثية.
- ترميم المعالم التاريخية والمواقع الأثرية.
- توثيق وتسجيل المعالم التاريخية والمواقع الأثرية.
- توظيف المعالم التاريخية والمواقع الأثرية.
- القيام بعملية الجرد والتصنيف.
- القيام بعملية الترميم والصيانة الدورية.
- نزع المقعرات والمكيفات هوائية وخزانات الماء.
- تغيير غطاءات عدّادات الكهرباء والماء والغاز.
- وضع مصاطب ترابية متراصة.
- تخصيص فرقة خاصة بتنظيف أحياء المدن العتيقة.
- تقريب أفراد المجتمع من موروثهم المادي.
- إبعاد الطرق عن المعالم التاريخية والمواقع الأثرية.
- استحداث شرطة أثرية.

تمهيد:

بعدما عرضنا في هذه الدراسة موضوع التنمية الحضرية وما يعانیه الموروث المادي الثابت والمواقع الأثرية من تأثيرات بسببها، نرى أنه من العاجل مباشرة تطبيق مجموعة من الطرق والوسائل التي من شأنها الحد من الأضرار، خاصة أنها جاءت متعدّدة وعواقبها وخيمة وبالغة الأثر، وصلت أحياناً إلى حدّ التحطيم والتخريب، وأحياناً أخرى شوّهت قيمته الفنية والتاريخية وعرضتها للتلوث البصري، أو أصابت جدرانها بالشقوق والتصدعات، أو أضعفت مواد بنائها وجعلتها هشّة لا تستطيع مقاومة ما يحيط بها، وما زاد الطين بلّة هو تعدّد العوامل المتسببة في حدوث هذه الأضرار، منها ما هو بشري مثل التنمية الحضرية أو الترميم الخاطيء والتماطل في تطبيق القوانين الرديعية الخاصة بالحماية... إلخ، ومنها ما هو طبيعي كالحرائق والأمطار الجارفة والزلازل... إلخ، إضافة إلى هذه العوامل زادت طول فترة في قدمه، وبالرغم من اكسابه خاصية التفرد إلا أنها عامل أساسي في حدوث شيخوخة مواد البناء التي تؤدي إلى فقدان الصلابة والمقاومة.

أمام هذه العوامل سيجد الواحد منّا إذا ما وقف متأملاً أحد المعالم التاريخية على اختلاف طابعها بكل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين نفسه وكأنه أمام طفل صغير يحتاج لمن يرفق بحالفه، ويدفع عنه الأذى ممّا يحيط به لما طاله من تغيير في بنيته.

بالموازاة مع الوضعية التي آل إليها التراث المادي تغيّر مفهومه، ولم يعد مجرد مبانٍ لا طائل يرجى منها، ينحصر دورها فيما ترويه من حكايات عمّن عاشوا فيها، فقد أصبحت له بصمته الخاصة في المجتمع تتمثل في تقديمه للدور ثقافي واجتماعي واقتصادي، فبالنسبة لدوره الثقافي فهو ينحصر في تقديم ما كان سائداً عند الأسلاف في مناحي الحياة بكل موضوعية وشفافية، فهي لا تعكس إلا ما يوجد

فيها لا أكثر ولا أقل، باعتبار أن الثقافة هي علاقة متبادلة بين الإنسان والمحيط الذي يحيا فيه، وما ينتج عنها من صور مادية وغير مادية.⁽¹⁾

أمّا الدور الاجتماعي فينحصر في دعم النسيج القومي للمجتمع، وذلك عن طريق الاحتكاك المتبادل بين أبناء المجتمع الواحد من خلال التفاعلات السياحية لتلك المعالم والمواقع التاريخية حيث تزيد فرص التفاهم والتبادل الثقافي، كما أن تلك الزيارات تروح عن نفوسهم وتزيل عنهم مظاهر التعب⁽²⁾، وفيما يخص الدور الاقتصادي فيتمثل في كونها المادة الخام للصناعة السياحية التي تدر مداخيل لا بأس بها، حيث باتت العديد من الدول تركز كامل اهتمامها للنهوض بقطاع السياحة من خلال التحسين من الخدمات والحفاظ على مكتسباتها التاريخية، وليس هذا فحسب، بل أصبحت مادة مهمّة في الصناعة السينمائية حيث أنتجت العديد من الأفلام اعتماداً على معالم تاريخية التي تقدّم للمشاهد صورة واضحة عمّا كان موجوداً قديماً.

وبالنسبة لأهم الحلول التي نرى أنها ناجعة في الحفاظ على الموروث المادي المتبقي من ويلات التنمية الحضرية، وبطريقة نوفق فيها بين الأصالة والمعاصرة في كل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين، وباقي مدن المحتضنة للتراث المادي مايلي:

◆ إعداد خارطة أثرية:

نقصد بالخارطة الأثرية تحديد جميع أماكن المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بالتعاون مع أهل الاختصاص من جغرافيين وطبوغرافيين... إلخ، ويتم توزيع نسخ منها على السلطات المحلية ومؤسسات البناء والتعمير في الولاية، لتفادي إعلان أي مشروع تنموي بالقرب من معلم تاريخي أو موقع أثري

1- مالك بن نبي، مشكلة...، مرجع سابق، ص: 43

2- محمد الصيرفي، التخطيط السياحي، ط1، دار الفكر الجامعي، مصر 2007، ص: 51

ينجر عنه تخريبه أو تخطيم أجزاء أو إتلاف قيمه المميزة له، وأمام الثورة الرقمية التي شهدتها العالم في الآونة الأخيرة تغيرت كثير من المفاهيم التي كانت سائدة في الماضي القريب، حيث أصبحت هناك دراية كاملة بطبوغرافية وموقع مدينة من المدن، وتفصيلها العمرانية من شوارع وأزقة... إلخ، مثلما يوفره موقع جوجل إرث google earth، كما أصبحت اليوم معظم الدول تعتمد بشكل أساسي في تحديد معالم مدينة ما على نظام المعلومات الجغرافية (SIG) الذي يعد من التطبيقات الحديثة نسبياً، وهو عبارة عن نظام حاسوبي لجمع وإدارة ومعالجة وتحليل العديد من البيانات والمعلومات ذات الطبيعة الجغرافية، أي أنه يقوم بوصف معالم مكانية على سطح الأرض، وقد اعتمد على هذا النظام في العديد من أنحاء العالم في عمليات الإنقاذ من الفيضانات والزلازل وإطفاء الحرائق الهائلة، وذلك برسم خرائط مختلفة للمدن يتم من خلالها التعرف على نوعية الإنشاء وحالته، لذلك يمكن الاعتماد عليه في حصر وتحديد مناطق النمو الحضري التي يمكنها أن تشكل خطراً على الموروث المادي الثابت وغيره من الأماكن ذات الصبغة التاريخية، وتحديد جميع نقاط تواجد المعالم التاريخية والمواقع الأثرية في منطقة تلمسان⁽¹⁾، وبذلك أصبح من السهل إعداد خارطة أثرية لمدينة من المدن، ويجب الحرص بعد إعدادها على تحديثها باستمرار تماشياً مع عمليات التنقيب التي تزيح النقب عن بصمات جديدة للأسلاف⁽²⁾، وتبعاً لهذه المعطيات أمكن القول أن تفعيل الخارطة الأثرية على أرض الواقع سيحقق تنظيماً جيداً في كيفية برمجة المشاريع التنموية في المدن الزاخرة بالتراث، ويكفل الحماية للموروث المادي الثابت.

◆ إنشاء ديوان المحافظة على الموروث المادي بمنطقة تلمسان:

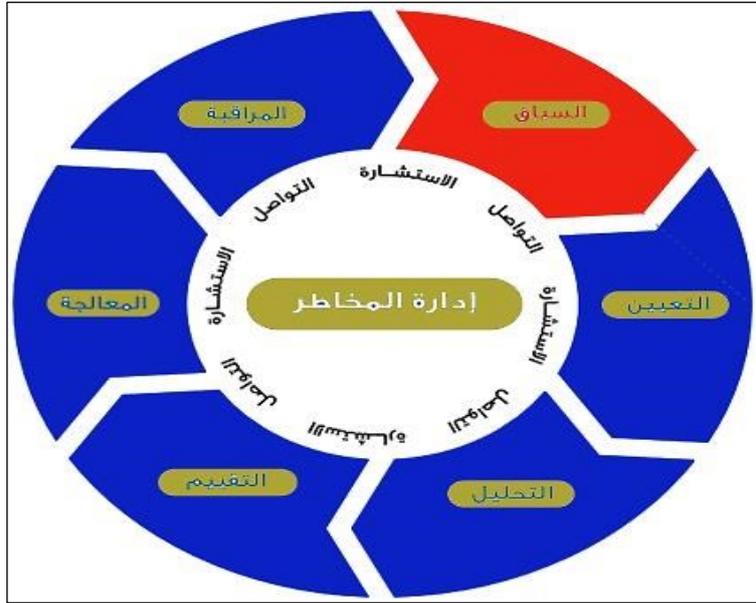
دأبت الدولة الجزائرية على العمل بهذا النوع من المؤسسات العمومية التي تسهر على حماية ممتلكاتها

1- محمود عبد الحافظ محمد آدم، الإرث المعماري الطيني في الواحات المصرية، المخاطر وسبل الحماية والإرتقاء، الملتقى الدولي حول أمن وسلامة الآثار والمنشآت السياحية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، من 04 إلى 06 أوت 2015، ص: 24-25

2- رقية عواشيرة، تطبيقات علم الآثار الوقائي في حماية التراث الأثري المظمور في الجزائر، الملتقى الدولي حول أمن وسلامة الآثار والمنشآت السياحية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، من 04 إلى 06 أوت 2015، ص: 19

الثقافية المادية، وعن أهم الأمثلة عن ذلك ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته (OPVM)، المعلن عنه بموجب المرسوم التنفيذي 419/92⁽¹⁾، وبالموازاة مع الاعتداءات التي انبثقت عن التنمية الحضرية أصبح من اللازم إنشاء ديوان ولائي شبيه به، خاصة أن عمله وهدفه الأول له علاقة مباشرة بالحماية حيث يمنع إنجاز أي نوع من أشغال التهيئة والتعمير أو الهدم، وأيضاً أعمال الاستصلاح والترميم من دون موافقته، وجاء في المادة رقم 03 من المرسوم التنفيذي أنه لا بد أن يتحصل صاحب المشروع على رخصة بناء من طرف الديوان، وفي حالة عدم

حصول صاحب القطعة الأرضية عليها يعتبر مشروع البناء ملغى ولن يُسمح بإنجازه، وسيتعرض إن ضرب عرض الحائط قرار ديوان المحافظة على الموروث المادي بمنطقة تلمسان للعقوبات الصارمة.⁽²⁾



تنصيب ديوان المحافظة على

الموروث المادي الثابت في منطقة تلمسان، يأتي حسب رأينا قبل تنصيب ديوان خاص بتسيير واستغلال الممتلكات الثقافية، لأنه إن لم يتم حماية الموروث المادي وتوفير المناخ الملائم له، فلن نجد ما نستغله ونسيره، لأنها ستكون قد اضمحلت، ولذلك استحداث ديوان الحفاظ والحماية سيكون بالمرصاد لجميع التجاوزات الحاصلة أثناء تجسيد المشاريع التنموية الحضرية من طرف السلطات المحليّة أو من طرف

1- الجريدة الرسمية، المرسوم التنفيذي 420/92، المؤرخ في 22 جمادى الأولى عام 1413 هـ الموافق 17 نوفمبر 1992

يحدد إطار تدخل ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته، السنة التاسعة والعشرون، العدد 83، الجزائر، ص: 10

2- المرجع نفسه، ص: 11

سكان المدينة، ورأينا أنه يتوجّب استحداث ديوان ولائي خاصة عقب تسجيلنا وجود فراغ كبير في الثقافة الأثرية، وفي مجال الحفاظ والاهتمام بما خلفه الأسلاف عند سكان المدن العتيقة التي أخذناها عينة للدراسة

◆ إنشاء إدارة المخاطر التراثية:

أعلن عن هذا النوع من الإدارات الخاصة بالمخاطر التراثية من طرف المركز الدولي لحفظ وترميم الممتلكات الثقافية (ICCROM)، والمعهد الوطني الكندي للمحافظة على التراث (CCI)، في إصدار مشترك بين المؤسستين لدليل يشرح منهجية تقدير الخطر المسماة بـ (ABC)، حيث تعني A معدّل تكرار الخطر، وعدد السنوات اللازمة لتراكم مستوى معيّن من الضرر، أمّا B فيعني كمية القيمة المفقودة التي تلحق بكل قطعة، وفيما يخص C فيشير إلى النسبة المئوية للتراث الذي الذي تأثر بالخطر بالنسبة لكامل الأصل التراثي⁽¹⁾، هذه الدقة في العمل تمكّن من تتبع وضعية الأثر لحظة بلحظة وفق تقرير مفصل، وهو ما يبين أن له دوراً في مكافحة وردع جميع الاعتداءات التي يتسبب فيها العامل البشري أو الطبيعي على حدّ السواء، ويتم التحصل على معطيات هذه القيم من الخطوات التالية:

- السياق: ويقصد به المحيط الذي يوجد فيه الأثر، والمستوى الثقافي والبيئي والسياسي الذي له علاقة به، من أجل توفير صورة عن الوضعية التي يعيشها من ناحية العناية والاهمال.

- التعيين: ويقصد به تحديد نوع الخطر والضرر الناجم عنه.

- التحليل: يتم في هذه الخطوة تحليل درجة المخاطر من أجل تحديد مقياس (ABC).

- التقييم: بعد التعرف على درجة المخاطر، يتم في هذه الخطوة تحديد الأثر ذي الأولوية المعالجة، وذلك بعد تقييمه من الناحية التاريخية والفنية والعلمية.

1- خوسيه لويز بيدروسولي جونور، كاثرين أنتومارشى، ستيفان ميكاليكسي، دليل إدارة المخاطر للتراث الثقافي، ترجمة ماري

عوض، المركز الدولي لحفظ وترميم الممتلكات الثقافية (ICCROM)، روما، 2016، ص: 97، www.iccrom.org

-المعالجة:تعتبر من أهم المراحل في عمل هذه الإدارة،وهي تهتم بأعمال الترميم والصيانة،وتطبق جميع أساليب الرّدع والحماية.

-المراقبة:هذه الخطوة جزء من المبادئ التي تأسس عليها هذا البرنامج،وهو ضمان الحماية دائمة والمستمرة للموروث المادي في محيطه،إذ يبقى الطاقم الإداري لإدارة المخاطر على اتصال دائم من دون توقف عبر القيام بأعمال الصيانة الدورية،والقيام بزيارات للمعالم التاريخية والمواقع الأثرية تختتم بتقرير مفصّل⁽¹⁾،ولمزيد من التوضيح تمّ تقديم هذه الخطوات في الرسم التخطيطي الآتي:

الرسم التخطيطي رقم(13):يبين خطوات عمل إدارة المخاطر التراثية المحدّدة لقيم الخطر(ABC)

عن:خوسيه لويز بيدروسولي جونيور،كاثرين أنتومارشى،ستيفان ميكاليكسي،مرجع سابق،ص:19

◆ تفعيل دور علم الآثار الوقائي:

إنّ الحركة العمرانية الدؤوبة التي جسدها الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال إلى الوقت الرّاهن،كان لها وقعٌ كبير على ما تزخر به المدن العتيقة كمدينة تلمسان وندرومة وهنين من معالم تاريخية،وما تكتنزه

1-خوسيه لويز بيدروسولي جونيور،كاثرين أنتومارشى،ستيفان ميكاليكسي،مرجع سابق،ص:19-115

المواقع الأثرية من لقي أثرية بالغة الأهمية من الجانب العلمي، وهو ما فرض فرضاً لازماً للاعتماد والاستعانة بعلم الآثار الوقائي الذي يعد إحدى الطرق التي تُعنى بالحفاظ على الموروث المادي الثابت والمواقع الأثرية وقياته من المؤثرات التي تحيط به، وقد أستخدمت بعدما تفاقمت الاعتداءات التي تعرّض الموروث المادي، برز هذا العلم في سبعينيات القرن المنصرم، بالتحديد في رومانيا التي نصّ فيها القانون 63/1974 على وجوب القيام باختبارات ميدانية أثرية في الأراضي المرشحة لاستيعاب المشاريع التنموية قبل بداية الأشغال، وتبعته عدد من التلميحات حول ضرورة الحفاظ ووقاية التراث في المواثيق والمؤتمرات الدولية التي عقدت في المنتصف الثاني من القرن 20م، وقد عرف بدايته الأولى في أوروبا نتيجة موجة التدمير والتخريب التي عرفها التراث المادي في بعض مدنها في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، مثل الحملة التي قام بها البارون جورجس هاوسمان عندما قام بشق شوارع شعاعية في مبان أثرية، واضطلعت فرنسا في مجال العمل بهذا التخصص، فقد قدّمت جمعية الحفريات الأثرية الوطنية في السبعينيات من القرن المنصرم دوراً بارزاً في التنديد بما استهدف المعالم التاريخية بسبب المشاريع التنموية وهو ما دفع بالحكومة الفرنسية في آخر المطاف إلى إبرام اتفاقية مع هذه الجمعية لتفادي تلك الاعتداءات، وهو ما أدى بعد توالي السنين بالتحديد في 17 جانفي 2001 إلى الإعلان عن المعهد الوطني للبحوث الأثرية الوقائية (INRAP)، وقد عرّف علم الآثار الوقائي في مؤتمر مدينة فيلنيوس *Vilnius* عاصمة دولة ليتوانيا المنظم من طرف المجلس الأوروبي، وعدد من الجهات الوصية على التراث في أوروبا بين 16 و18 ديسمبر 2004، أنه إجراء ميداني استباقي لوقاية التراث المادي من الأضرار الناجمة عن أشغال المشاريع التنموية، وهناك من يري أنه ليس بتخصص علمي جديد من تخصصات علم الآثار، مثل علم آثار ما قبل التاريخ أو الصيانة والترميم أو الآثار الإسلامية وبعبارة أوضح هو توجه فكري جديد في مجال حماية التراث الأثري وتثمينه، وقد أتى ليخلف عمليات الإنقاذ التي كانت

تنقذ بعد أن تقع الكارثة وتتلف البقايا الأثرية⁽¹⁾، فإن ضاعت فلا ولن يمكن استرجاعها، ومن ثمّ ستضيع حلقة واصله بين ماضي الأمة وحاضرها إلى الأبد، وبالنسبة لبرنامج عمله فهو ينقسم إلى ثلاثة مراحل أساسية تتمثل في مايلي:

أ- إعداد الملف الإداري:

أول المراحل التي يجب البدء بها هو الملف الإداري الذي تحدّد فيه بعض الأمور المهمة المتعلقة بالحفريات والوقت الذي ستستغرقه، وقضية التمويل إلى غير ذلك، وهي تعد وفقاً للقانون الساري في الدولة موضوع التدخل.

ب- التشخيص:

تعتبر مرحلة التشخيص الأهم في العمل الوقائي، فمن خلاله تتحدد ماهية البقايا الأثرية كماً وكيفاً، وفي حالة تبين وجودها فسيباشر في إجراء الحفريات لاستخراج اللقى الأثرية، ويعتبر المعهد الوطني لعلم الآثار الوقائي بفرنسا الرائد في القيام بمثل هذه الخطوات إن صحّ التعبير⁽¹⁾، وقوام عملية التشخيص Diagnostic هو إجراء مسابر Sandage في أماكن مختلفة من المكان المقترح لإنجاز المشروع التنموي المعلن عنه في إطار تجسيد عملية التنمية الحضرية، وهي تتركز على استحداث مقاطع عمودية داخل أنابيب ثقّابة تشبه شكل الجزر، ولذلك هي تسمى عند البعض بعملية التجزير Carottage

1-نادية بلقندوز، أثر علم الآثار الوقائي في تجارب دول المغرب العربي، مذكرة ماجستير، تخصص علم الآثار الوقائي، قسم علم

الآثار والتاريخ، شعبة علم الآثار، جامعة تلمسان، 2011، ص: 16-29

1-Institut National de Recherche Archéologiques Préventives (INRAP) Archéologie préventive, Guide Pratique de l'Aménageur, p:4-5, www.inrap.fr

وهي لا تستعمل فقط في عمليات التشخيص المتعلقة بالعمل الوقائي فقط، وإنما أيضاً في المسوح الأثرية التي تسبق إجراء الحفائر الأثرية العادية، وفي بعض الأحيان يتم القيام بحفر خنادق أفقية متوازية أو متعامدة مع بعضها البعض تبعد عن بعضها البعض بمسافة متساوية قدرها من 05م إلى 10م، فيما يبلغ طولها حوالي 20م بالموازاة مع كبر مساحة الموقع الأثري، أو حفر خنادق مربعة الشكل يدوياً، أما عمق هذه الخنادق فيتراوح عمقها على اختلافها بين 0.70م و1.50م، وتجدر الإشارة إلى أن عملية السّبر لا بد أن لا تتجاوز نبة 10 % من المساحة الإجمالية، ولا تقل عن 05 %.

ج- مباشرة الحفرية الوقائية:

هي إجراء غير دائم، لأنها لا تقام إلا في حالات خاصة، أي عندما يتم الإعلان عن مشروع تنموي في موقع أثري، أو بعدما تؤكد مرحلة التشخيص وجود بقايا أثرية تستوجب وقايتها من التلف والتخريب وهي تعتمد في عملها على السرعة والدقة البالغة لتفادي ضياع المعطيات العلمية الأثرية.⁽¹⁾

ونظراً للدقة عمل علم الآثار الوقائي، وحرصه الكامل على عدم ضياع الموروث المادي بنوعيه بسبب عملية التنمية الحضرية نقترح تفعيل دوره في المدن عينات الدراسة، خاصة أن هناك اعتداءات تنموية حضرية على ما تكتنزه المواقع الأثرية كموقع هنين والمنصورة، إضافة إلى وجود المتدربين في هذا التخصص تلقوا تكويناً في قسم علم الآثار التابع لجامعة أبي بكر بلقايد في تلمسان.

◆ بعث النمط المعماري الإسلامي العتيق بالمدن التراثية:

المعالم التاريخية ليست مباني مجردة من أي ثقافة أو أي مرجع، بل على النقيض من ذلك، فهي إحدى القنوات الهامة التي تمكّننا من فهم ما يدور من حولنا وما كنّا عليه، أي أنها توفر الشعور بالانتماء الذي يزيد من تماسك من أفراد المجتمع مع ماضيهم، لذلك أمكن القول تحطّم وانحيار معلم تاريخي أو تخريب موقع أثري هو ذوبان لشخصيتنا وفقدان لهويتنا إلى الأبد، وعليه ندعو للحفاظ على

1-نادية بلقندوز، مرجع سابق، ص: 49-51

النمط الأصيل حتى يبقى التواصل بين الماضي والحاضر، وحسب رأينا يتم ذلك من خلال إنجاز مباني بتصميم إسلامي يراعي ما كان سائداً عند الأسلاف قديماً، ولعل أهم رواد هذه الفكرة المعماري حسن فتحي صاحب مشروع عمارة الفقراء الذي استقاه من فكرة أنظروا طين الأرض تحت أقدامكم ثم بنوا، وقد امتد من سنة 1945 إلى سنة 1953 أي ثمانية سنوات، ولاقى إقبالاً كبيراً من طرف الدول، حيث أنجز العديد من المشاريع المماثلة له في كل من أمريكا والعراق⁽²⁾، كما أنه نال به عدّة جوائز، أبرزها ما ناله سنة 1980، حيث منحت له جائزة الأغاخان وجائزة نوبل البديلة، والأجدر بنا أن نسير على خطى هذا المعماري الذي امتد فكره المعماري مكاناً إلى مواد البناء المحلية المتمثلة في التراب والجير والرمل والحجر، وزماناً إلى فترة زمنية بعيدة عنّا⁽¹⁾، في ظلّ الاجتياحات المتكررة التي يعرفها الموروث المادي، وتجدر الإشارة أنّ مشروعاً مماثلاً لما سبق ذكره لا يقل أهمية عنه قد أنجز هنا بالجزائر، وبالتحديد في قصر تافيلالت بولاية غرداية التي تحتضن تراثاً مادياً ذائع الصيت، ونظراً لهذه الميزة التراثية تمّ إنجاز قصر يتضمن 1050 مسكن مشيّد من المواد المحلية، ومتناسقة مع بعضها البعض من حيث الشّكل واللّون، ويجمعها طراز إسلامي موحد، ومنسجمة مع البيئة المحيطة بها، أنظر الصورة الآتية:

2- محمد ماجد خلوصي، حسن فتحي، سلسلة مشاهير الفكر الهندسي المعماري، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، 1987، مصر

الصورة رقم(98): تبين عينة من مساكن قصر تافيلالت بقرادية، عن: www.analgeria.com

وقد نال هذا المشروع التراثي جائزة المسابقة الدولية حول الأحياء النموذجية المستدامة المنظمة بمدينة مراكش المغربية في نوفمبر 2016.

ونرى من وجهة نظرنا أنه لا بُد من تعميم مثل هذه المبادرة، لكي نحافظ على التواصل الحضاري الخاص بنا، ونعرس في أنفسنا وفي الأجيال اللاحقة الشعور بالانتماء والمحافظة على التراث المادي الثابت، وبذلك ستمكن من تنمية مجالنا حضري ببعدين زمنيين في مكان واحد.

◆ ترميم المعالم التاريخية والمواقع الأثرية:

تعتبر هذه العملية من أهم الخطوات في حماية الموروث المادي، والحيلولة دون فقدانه، وقد تبين لنا من خلال التحقيق الميداني الذي قمنا به أثناء إعدادنا للدراسة، أن هذه الخطوة لازمة وواجبة في هذه الفترة الخائفة التي يمر بها الموروث المادي، ونشير أنها لن تؤت ثمرها إلا بتفعيل المواد الردعية المنصوص عليها في القانون 04/98 على أرض الواقع، وفيما يخص أهم المواد التي يجب تطبيقها من هذا القانون المادة 17 التي تنص على ترك مسافة تبعد عن تقدر بـ 200م عن المعالم التاريخية والمواقع الأثرية لتفادي حجب المنظورات المعلمية الخاصة بهم، وأيضاً تطبيق المادة 24 التي تمنع منعاً باتاً إضفاء أي تعديلات على المبنى، نفس الشيء بالنسبة للمادة 34 هي الأخرى لا بد من تطبيقها على أرض الواقع لأنها تنص على منع إنجاز أي بناء أو مشروع في محمية أثرية، والمعلوم لدينا أن المحميات هي المواقع القريبة من المواقع الأثرية التي لم تجرى فيها عملية تنقيب، ونعلم يقيناً أنها تحتضن بقايا أثرية مطمورة في الأرض، ويوجد الكثير منها في عينات الدراسة، خاصة في مدينة تلمسان وهنين، كما نرى أن المادة

1- جائزة نوبل البديلة: هي جائزة يقدمها البرلمان السويدي في اليوم الذي يسبق توزيع جوائز نوبل التي تقدمها كل من ملك ومملكة السويد، والتي لا تضم جائزة للهندسة المعمارية، أنظر: مصطفى إبراهيم فهمي، عمارة الفقراء، تجربة في ريف مصر، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، 1989، ص: 02

47 من نفس القانون هي الأخرى لا بد أن تطبق بحذافرها، فيما يتعلق بنزع ملكية مسكن عتيق باعتباره تراثاً ملك للمجتمع ككل، وذلك في حالة عدم امتثال مالكة للتعليمات والارتفاقات التي يفرضها الإجراء الخاص بالحماية، أو إذا كان المالك في وضع يتعدّر عليه القيام بالأشغال المأمور بها، أو إذا وُظّف المسكن بطريقة تتنافى ومتطلبات الأصالة.

يبدو من خلال هذه المواد الردعية وغيرها أنّ القانون 04/98 لم يغفل عمّا يلحق الضرر بالموروث المادي، وأنه استحدث لثمينه أيضاً، لكن بقاءه حبر على ورق في بعض الأحيان، كما عاينا ذلك في هذه الدراسة هو الأمر الذي ألقى وجوده كلياً، وترك المعالم التاريخية والمواقع الأثرية تصارع لوحدها



عادات الزمن، خاصة أن هناك غياباً كلياً لأهمية التراث عند أفراد المجتمع الذين طغى لديهم الاعتبار المادي على باقي الاعتبارات، ولذلك من الواجب التنسيق بين المديرية في مجال ردع التجاوزات الحاصلة في مجال البناء والتعمير، وأخص بالذكر مديرية البناء والتعمير ومديرية الثقافة، فقد استوقفتنا أمثلة في مدينة تلمسان تعكس الفجوة الواسعة بينهما بالرغم من وجودهما على مقربة من بعضهما البعض وخير دليل على ذلك معاينتنا حفر الجزء الجنوبي الغربي من ساحة البشير الإبراهيمي في صائفة 2017

لإنجاز مسكن من دون رخصة بناء، وعليه يجب تعديل قانون 04/98 بالنص على مادة تمنع منح رخص البناء لأي مشروع تنموي أو سكني إلا بعد وجود وثيقة صادرة عن الجهات الوصية عن القطاع تؤكد أن المكان ليس به أي معلم تاريخي، وليس موقعاً أثرياً أو محميةً أثرية، لأنه من غير المعقول أن يعلم صاحب المشروع الجهات المعنية بما تمّ العثور عليه، لسببين رئيسيين الأول يتمثل في قيمتها المادية، والثاني مخافة توقيف الأشغال، فالكثير من المقاولين يتفادون حدوث ذلك حتى يكتمل مشروعهم في الآجال المحددة ويستلمون مستحقاتهم المادية⁽¹⁾

وتجدر الإشارة إلى أمر لفت إنتباهنا في مواد القانون 04/98 أنه لم تنص واحدة منها على تسقيف الحد الزمني الأدنى الذي يحدّد إن كانت معالم تاريخية أم لا، فمثلاً المشرّع السوري حدّد مائتين سنة فما فوق يمكن أن يصنّف ذلك الشيء في خانة التراث، ونرى أنّ ذلك سيكون نقطة إيجابية في تنظيم التعامل مع هذه المنجزات البالغة الأهمية.

♦ توظيف المعالم التاريخية والمواقع الأثرية:

تعدّ هذه الخطوة من النقاط الأساسية في ترميم التراث المادي، فمن خلالها سنضمن بقاء المعلم التاريخي والموقع الأثري في حالة جيدة، لأنه سيستفيد من صيانة دورية، خاصة إذا كان توظيفه كمتحف فسيضمن مداخيل تستخدم في القيام بالإصلاحات اللازمة، وهو ماسيحول دون إهماله ومن تمّ تعرضه للتلف واجتياح المشاريع التنموية الحضرية، ونشير فقط إلى أنّ الشرط الأساسي في نجاح عملية التوظيف والإدماج هو اختيار الوظيفة المناسبة التي تتناسب مع ماهية المبنى العتيق، فمثلاً إذا كان مسجداً فمن الأفضل أن يبقى كذلك، لأنها أسمى الوظائف على وجه هذه المعمورة، ناهيك أن هندسته المعمارية لا تتماشى حسب رأينا مع غير ذلك، والأكثر من ذلك سيبقى على درجة كبيرة من الاهتمام والعناية من قبل أفراد المجتمع الذين يؤدون فيه الصلوات الخمس.

1- رقية عواشرية، مرجع سابق، ص: 19

◆ توثيق وتسجيل المعالم التاريخية والمواقع الأثرية:

يمثل التراث على اختلاف أنواعه ذاكرة الأمة وهويتها التي تحدّد انتمائها، ولا يمكن الحفاظ عليه من دون معرفته معرفة جيدة، لذلك لا بدّ من توثيقه توثيقاً جيداً عن طريق القيام بعملية تسجيل دقيقة تشمل جميع التفاصيل الدقيقة التي يتميز بها المعلم التاريخي أو الموقع الأثري، وذلك بإعداد تقرير مفصّل عنه يتضمن قراءة تاريخية وهندسية وأثرية عن الأثر، ويصاحب ذلك التقاط بعض الصور الفتوغرافية، ويتم حفظ ملفه بنسختين واحدة ورقية والأخرى إلكترونية حتى نتفاد ضياعه، لأنه يعتبر المرجع الأول في حالة إن أصاب ذلك المعلم التاريخي أو الموقع الأثري التهديم بفعل عامل بشري أو طبيعي⁽¹⁾، وحسب رأينا لا يمكن القيام بعملية ترميم والصيانة إلا بعد أن يتم القيام بهذه الخطوة المهمّة، وبهذا العملية التوثيقية يمكن الوقوف على كل ما تزخر به المدن العتيقة من مساكن عتيقة ومساجد وأضرحة وأسوار دفاعية.

◆ القيام بعملية الجرد والتصنيف :

تعتبر عملية الجرد والتصنيف من أهم المراحل في العمل الأثري، لأنها تحيط بجميع المعلومات والمعطيات الفنية والأثرية والتاريخية التي من شأنها تحقيق تراكم معرفي لإرساء برامج الحماية والصون الوقائي للممتلكات الثقافية المادية على اختلاف طابعها، فالتصنيف يعطي الصبغة القانونية للموروث للموروث المادي كونه مدمج في قائمة وطنية أو دولية وله رقم تعريفي، كما يمكن من خلال عملية الجرد توطين جميع أماكن المعالم التاريخية والمواقع والمحميات الأثرية، وهو الأمر الذي يضمن حماية استشرافية، واتخاذ القرارات المناسبة من لدن الجهات المسؤولة عن حماية ووقاية التراث المادي

1- محمد بن هاوي با وزير، إشكالية الحفاظ على التراث العمراني والمعماري التقليدي في اليمن وعلاقة المعماريين والأثريين والمؤرخين بعملية الحفاظ، المؤتمر الهندسي الثاني، كلية الهندسة، جامعة عدن، اليمن، من 30-31 مارس 2009، ص: 116-118

في مواقعهم، ويساعد كذلك على تقديم المعلومات الدقيقة التي يمكن من خلالها تنظيم حملات التوعية والتحسيس.⁽¹⁾

بناءً على ذلك لا بد أن يحرص القائمون على حماية التراث المادي الثابت كامل الحرص على عدم إهمال هذه الخطوة، وأن قوموا بها على أكمل وجه لكي نكون على علم بكل صغيرة وكبيرة تخص تلك الشواهد المادية، بحكم كون هاتين العمليتين يوفران المادة العلمية التي تخدم الجانب التوثيقي والقانوني معاً.

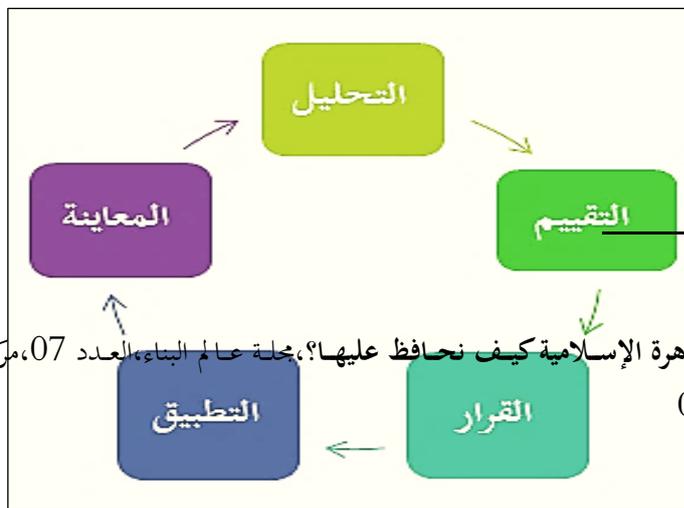
◆ القيام بعملية الترميم والصيانة الدورية:

يطلق مصطلح الترميم على الأعمال التطبيقية التي يقوم بها المرّمون من أجل حماية المعلم التاريخي من الانهيار أو التلف، ويرجع اشتقاقه اللغوي إلى الكلمة اليونانية *Stauros* التي تعني إصلاح وتدعيم، ويعني أيضاً مصطلح الترميم حماية الوطن من الاعتداء، ولكن المعنى الأول هو الأكثر تداولاً، فقد برز في كتب القرنين السابع والثامن عشر ميلادي بمعنى إصلاح ما تلف، أما مصطلح الصيانة فيطلق على الأعمال التطبيقية والبحثية التي يقوم بها المختصون في الصيانة، ويرجع أصله اللغوي إلى الكلمة اللاتينية *Conservatio* التي تعني الحفاظ والصيانة والعلاج، ولا يقتصر معناها على ذلك فقط، بل استخدم أيضاً في الحفاظ على البيئة، ولكن في كلتا الحالتين فالمصطلح يفيد معنى الحفاظ، وهناك كلمة أخرى مشابهة لكلمة الحفاظ باللغة الفرنسية، وهي *Conservatoire* التي بدأ استعمالها في سنة 1789م للدلالة على المعهد الموسيقي الذي يهتم بالحفاظ على التراث الموسيقي الأوروبي ويمنعه من الضياع والاختباس.⁽¹⁾

1- أحمد أواموس، الفن الصخري بالمغرب تراث عريق، بين تحديات المحافظة ورهانات التنمية، ص: 13، عن: repository.nauss.edu.sa/handle/123456789/62842
1- إبراهيم محمد عبد الله، مبادئ ترميم وحماية الآثار، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2012، ص: 41-42

وحسب ما يراه بعض المتخصصين في علم الآثار أنه على الرغم من قدم مصطلح الترميم عن مصطلح الصيانة، إلا أن هذا الأخير أصبح الأكثر تداولاً في صفحات الكتب، فقد توارى مصطلح الترميم في المواضيع التي تعالج كيفية ترميم وصيانة التراث المادي المنقول والثابت، وربما يعزى ذلك للإحساس الذي انتاب المختصين جرّاء الانتقادات التي وُجّهت للكثير من أعمال الترميم الخاطئة، فهي ليست إجراء ميداني يهدف إلى التقوية فقط، إنما هو علم وفن في نفس الوقت.⁽²⁾

لذلك يقف إحياء المعالم التاريخية والمواقع الأثرية وإرجاعها قدر الإمكان إلى أوج رونقها الفني الذي وضعه فيها المعماري المسلم قديماً على مدى خضوعه للصيانة والترميم بطريقة علمية دقيقة لا تزيد الطين بلّة، فجميع دارسي العمارة يؤكدون أن المعالم التاريخية والمواقع الأثرية على اختلاف أصولها ليست مجرد أبنية ذات شكل معين، لكنها تعتبر مستودعاً لجميع الفنون كالنحت والتصوير التجريدي وأعمال الفسيفساء والزجاج الزخرفة⁽³⁾، لذلك لا بد أن يُحافظ على التناغم والتناسق المرتبطين بمواد بنائها بعملية ترميم مدروسة من جميع الجوانب، وتشترك فيه جميع التخصصات، فليس المهم تقوية الموروث المادي فقط، ولكن الأهم هو عدم ضياع القيمة الفنية والتاريخية جوهر الموروث المادي، وهناك من يرى أنه لا بد على عملية الترميم أن تمر بست خطوات حتى تؤتي ثمرها على أكمل وجه، أنظر الرسم التخطيطي الآتي:



2- المرجع نفسه، ص: 43

3- مدحت الصيرفي، آثار القاهرة الإسلامية كيف نحافظ عليها؟، مجلة عالم البناء، العدد 07، مركز الدراسات التخطيطية والعمارية، مصر، 1981، ص: 08

الرسم التخطيطي رقم (14): يبين مراحل ومتطلبات عملية الترميم المعالم التاريخية، عن: محمود

عبد الحافظ محمد آدم، مرجع سابق، ص: 22

يتم التركيز في الخطوة الأولى قبل بداية المشروع على إعداد دراسة مستفيضة معمّقة للمعلم التاريخي الذي ستجرى له عملية الترميم، باستخدام وسائل علمية، حتى يتم ضبط الطريقة المناسبة التي تضمن نجاح العملية، ثم تأتي بعدها عملية التقييم التي تلخص في تقدير مستويات الضغوط والتشوهات المحتمل وقوعها بعد تحليل المعطيات المتحصل من الخطوة السابقة، ويكون ذلك اعتماداً على العلوم المساعدة كالهندسة المعمارية والمدنيو والكيمياء... إلخ، وبعد ذلك تأتي مرحلة القرار التي يتخذ فيها الأسلوب المناسب الذي لا يضر بالمعلم التاريخي، بعد الوقوف وتقييم النتائج المحتمل حدوثها سابقاً، وعقب اتخاذ القرار يتم مباشرة الأشغال الخاصة بالترميم، وتطبيق ما تمّ تحييصه من معطيات ونتائج، وبعد استكمال العملية يُعاين المعلم التاريخي من جميع جوانبه، أي الفنية والإنشائية معاً، لأنه ربما تحدث انعكاسات سلبية فيما بعد لم يحسب لها جيداً، بناءً عليه لا بد من تفقد المعلم التاريخي بانتظام طيلة الأسابيع الأولى التي تلي الانتهاء من العملية.⁽¹⁾

وقد عاينا بعض المعالم التاريخية بعينات الدراسة قد رُمّت، لكن بعد استطلاع رأي العامة من الناس الذين يقطنون بجوارها كالجامع المرابطي بمدينة ندرومة، ومئذنة الجامع المرابطي بمدينة تلمسان، وجدنا أنهم تأثروا أيّما تأثر للحالة التي أصبحوا عليها بعد الترميم، وهناك البعض من المساكن التي تحتاج إلى صيانة

1- محمود عبد الحافظ محمد آدم، مرجع سابق، ص: 23

وترميم عاجلين، لما طالها من إهمال لأن مالكيها تخلوا عنها، وهي اليوم إمّا مهجورة أو مستأجرة من طرف ساكن لا يقوم لا بصيانتها ولا ترميمها، فهو يعتبر مكوثه فيها مرحلة انتقالية، نفس الأمر يعيشه الموقع الأثري المتمثل في الحفريات الأثرية بمدينة هنين، فعدم القيام بأعمال صيانة دورية كإزالة الأعشاب التي تنمو سواءً داخل مربعات الحفر، أو في الممرات أو استخراج الأتربة التي تراكمت في أرضية الموقع الأثري فوق المكتشفات التي أزيح عنها التُّراب.

ونشير في هذا الصدد إلى أن هاتين العمليتين لا بدّ أن تُنطَاقا إلى المتخصصين في علم الآثار الذين يرجعوا إليهم القرار الأول والأخير في كيفية التعامل مع المادة الأثرية، وبطبيعة الحال يكون ذلك بمساعدة بعض المتخصصين في الهندسة المعمارية والكيمياء والهندسة المدنية، لا أن يتم إرجاع هذه العملية الدقيقة لهؤلاء ويترك دور المتخصصين في علم الآثار في الهامش إلى الحدّ الذي تصلهم أخبار الترميم كالعامة من الناس.

◆ نزع المقعرات والهوائيات وخزّانات الماء:

تعكس هذه التقنيات الحضرية الوجه الآخر للتنمية الحضرية في شقّها الثقافي، فهي تعتبر أحد النتائج المباشرة لتغير الأسلوب المعيشي الذي أثر وتأثر بالتوجه العمراني الجديد، وقد عاينا أن هذه اللمسات الحداثيّة أدّت إلى توارى القيمة التاريخية والفنية عن الأنظار، ما جعل التلوث البصري يطفو علملمحها الخارجي، ولهذا لا بد من اقتلاعها من جدران المساكن العتيقة، ونقترح أن يتم ذلك بواسطة تطبيق آخر ما توصلت إليه تكنولوجيا الاتصالات في هذا المجال، وهي تتمثل في تقنية (IPTV) التي تعتبر خدمة سريعة وفائقة الجودة تعتمد في عملها على سلك توصيل بين الجهاز المستقبل والمرسل، من دون الحاجة للمقعرات الهوائية والكثير من خطوط التوصيل، بل اعتماداً على الإنترنت الفائقة السرعة

التي يمكن من خلالها تصفح البرامج على جهاز التلفاز بواسطة محلل شفرات القنوات، وليس على متصفحات الكمبيوتر⁽¹⁾، أنظر الرسم التخطيطي الآتي:



الرسم التخطيطي(15): تبين التقنية الجديدة (IPTV) في بث البرامج التلفزيونية، عن:

www.awt.be/web/img/index

هذه الطريقة تقلل من تلف الملمح الخارجي للمساكن العتيقة لاستغنائها الكلي عن المقعرات الهوائية وبالنسبة للمكيفات الهوائية فرى أنه من اللازم أن يتم نزعها من طرف الجهات المعنية بقوة القانون، ووضعها في مكان من المسكن لا يحجب قيمته الفنية والتاريخية، وبالنسبة لخزّانات الماء فتتزع هي الأخرى من المساكن وتعوض بصهرنج أرضي يحفر له مكان في وسط الدار.

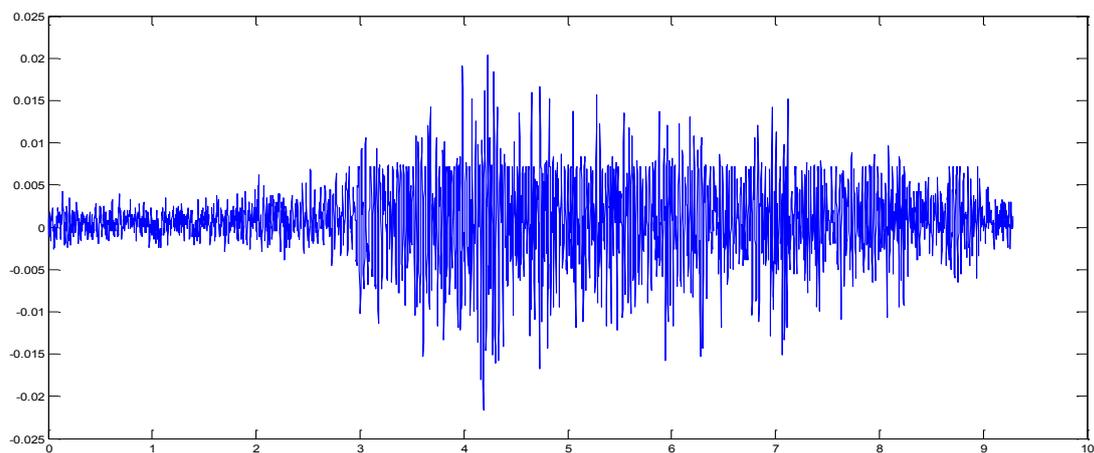
◆ تغيير غطاءات عدّادات الكهرباء والماء والغاز:

أصبح من الضروري في وقتنا الحالي توصيل المساكن بالماء الشروب، وتوفرها على الكهرباء والغاز، فقد أصبحوا من ضروريات العيش، ولذلك لا يمكن في أي حال من الأحوال نفي وجودها حتى من المساكن العتيقة، وعليه نقترح أن يتم وضع غطاءات عدّاداتها على الجدران بتصميم خارجي يعكس أصالة المبنى وينسجم مع ماهيته، وذلك عن طريق صنعها بشكل يحمل ميزة فنية تاريخية، كأن تنتهي بقوس حدوي أو ثلاثي، وأن تصنع من مادة الخشب التي اعتمد عليها المعماري المسلم في بناء عمائره .

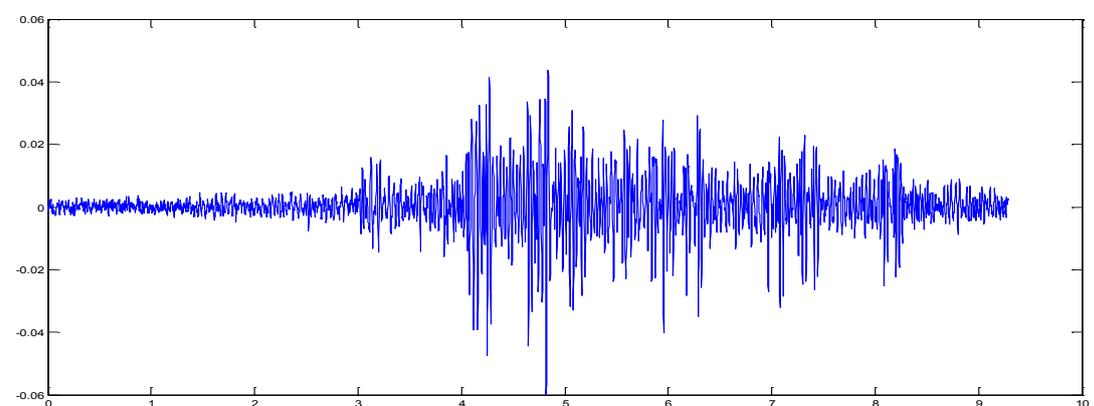
1- www.awt.be/web/img/index

◆ وضع مصاطب ترايبية متراصة:

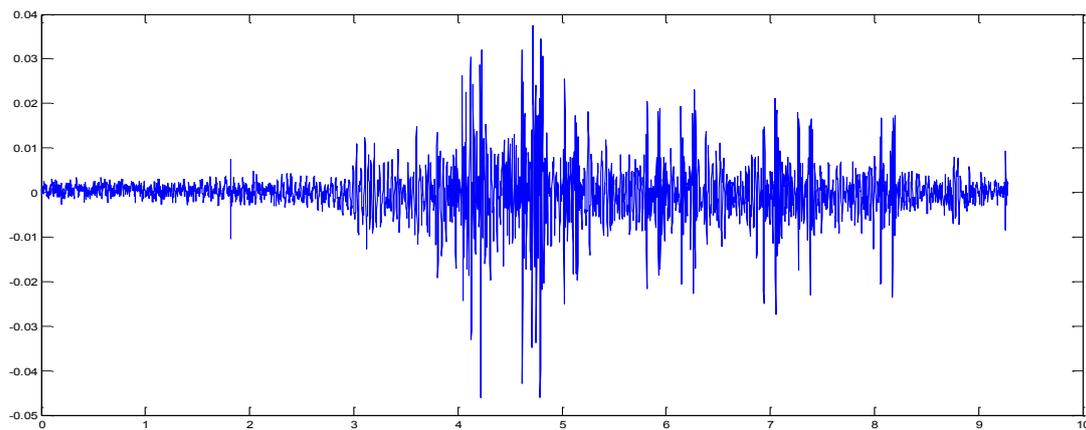
برزت هذه الفكرة إلى أذهاننا ساعة قيامنا بمعاينة الأضرار الميكانيكية النَّاجمة عن اهتزازات حركة المركبات الآلية التي شقَّت لها الطريق عملية التنمية الحضرية، كمشروع خط السُّكة الحديدية الذي أخذناه عينة لدراسة هذا الضرر، وتسجيلنا لقياسات تسارع الاهتزازات، وقد لفت انتباهنا حينها أنه عندما يزداد سمك الطبقة الترابية وتتغير طبيعة المكان من حيث الارتفاع والانحدار، تتضائل قوة التسارع، ولذلك قمنا بتسجيل قياس فوق مرتفع تراي ارتفاعه يقدر بـ 3.10 م، ويبعد عن سكة الحديد بـ 02م فقط، وهو ما جعلنا نظن قبل بدء التسجيل أنَّ تسارع الاهتزازات سيكون قوياً، لكن ما تبين لنا هو عكس ذلك، فقد كانت قيمها ضعيفة، أنظر المنحنيات البيانية الآتية:



المنحنى البياني رقم(20): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور X فوق المرتفع الترابي.



المنحنى البياني رقم(21): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y فوق المرتفع الترابي.



المنحنى البياني رقم (22): يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Z فوق المرتفع الترابي.

من خلال المنحنيات البيانية أعلاه، يتضح أنّ القيم القصوى للتسارع جاءت ضعيفة كما ذكرنا

بالرغم من قرب نقطة التسجيل من مصدر الاهتزاز، ونوضّح ما جاء فيها في الجدول الآتي:

المحور	القيمة القصوى للتسارع
محور X	0.022 م/ثا ²
محور Y	0.042 م/ثا ²
محور Z	0.039 م/ثا ²

الجدول رقم (31): يبين القيم القصوى لتسارع الاهتزازات المسجّلة فوق المرتفع الترابي.

يتضح جلياً من المعطيات الواردة في الجدول أعلاه أنّ القيم القصوى للاهتزازات ضعيفة مقارنة بالقيم التي سجلناها بين سكة الحديد والجدار، وحتى عند سور الموقع الأثري، أي على بُعد 27م، حيث بلغت عنده كما ذكرنا ذلك سالفاً القيمة القصوى لمحور X عنده 0.65 م/ثا²، أما محور Y فقد وصلت

قيمته القصوى 1.5 م/ثا²، وبالنسبة لمحور Z فقد وصلت إلى 0.60 م/ثا²، هذا ما يؤكد أن المرتفع الترابي قدّم دوراً في إيقاف موجات الاهتزازات، وعمل على الحدّ من تأثيرها إلى درجة أن قيمها أصبحت أقل من القيم المسجلة على بُعد 27م، أنظر الصورة الآتية:



الصورة رقم (99): تبين المرتفع الترابي والجزء المقابل له من السور في حالة مكتملة.

ونبين طبوغرافية الواجهة الشمالية للسور في الرسم التخطيطي الآتي:



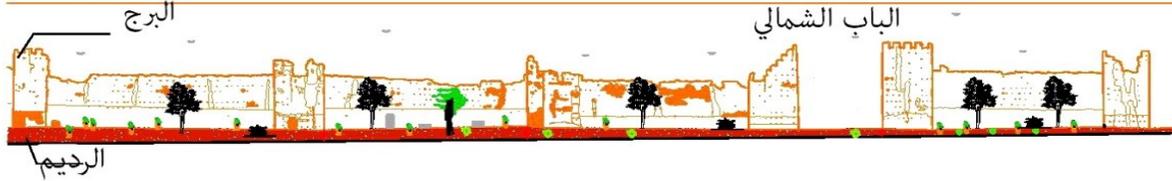
ج



ب



أ



ج

ب

أ



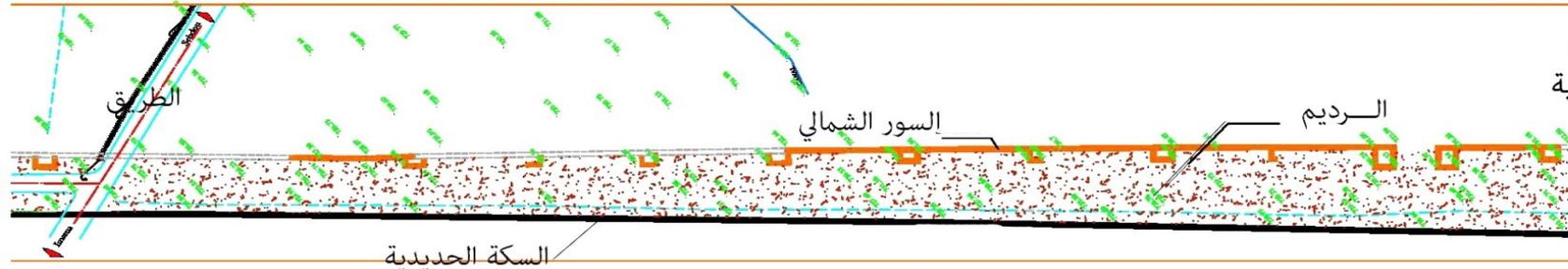
مفتاح الرسم:

السور الشمالي

السكة الحديدية

الرديم

سَلَم الرسم
5 15 25



الرسم التخطيطي رقم (16): يبين الواجهة الشمالية للسور الدفاعي لمنصورة والرديم المحاذي له والسكة الحديدية المارة به.

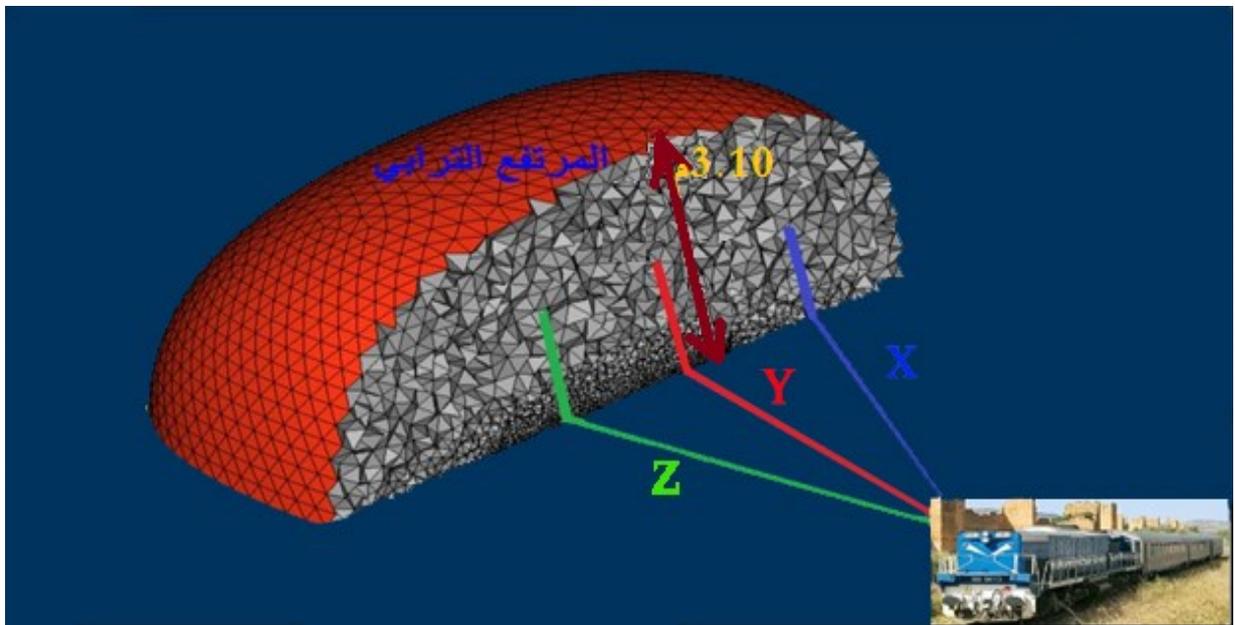
ولكي نبين كيفية اصطدام الموجات الاهتزازية بالمرتفع الترابي وانتشارها بداخله في مختلف الاتجاهات نقدّم الرسم التخطيطي الآتي:

الرسم التخطيطي رقم (17): يبين تأثير المرتفع الترابي على الموجات الاهتزازية الناتجة عن حركة القطار. عن lva.insa-lyon.fr/files/documents (بتصرف)

وإذا ما قارنا مجموع القيم القصوى المتحصل في تسجيل المرتفع الترابي لكل محور بالمعيار ISO/TC/108/SG-2 المحدد من طرف المعهد الألماني وفقاً للمعادلة الآتية:

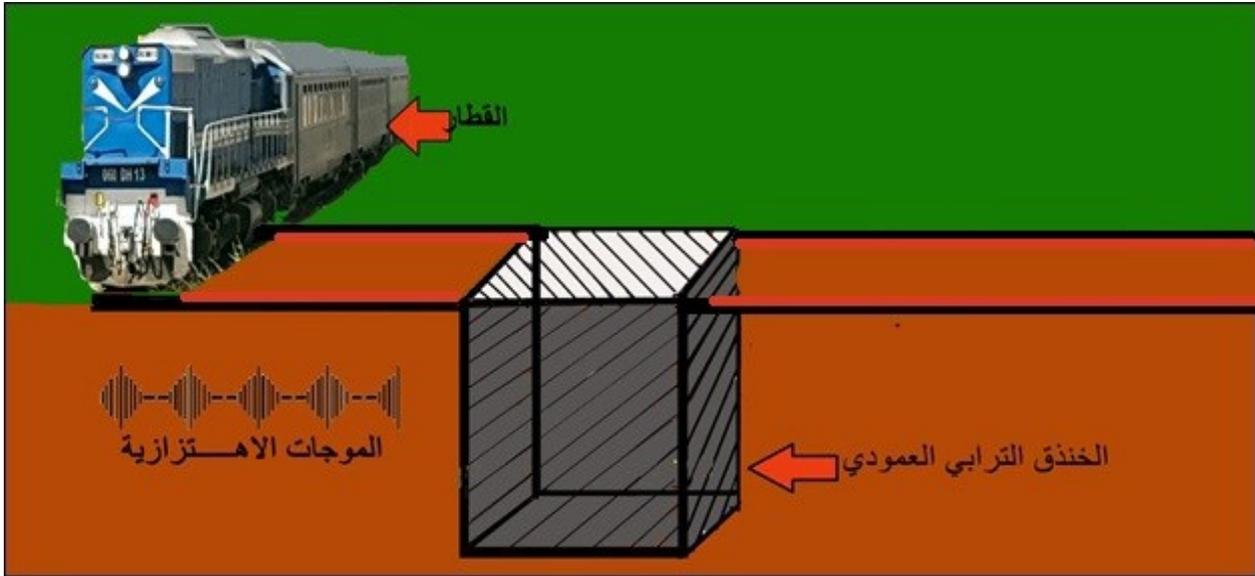
$$\sqrt{0.022^2 + 0.042^2 + 0.039^2} = 0.053 \text{ م/ثا}^2$$

يتضح من المعادلة أنّ الناتج يساوي 0.053 م/ثا²، وهي أقل بكثير من القيم المنصوص عليها في الخانة الأولى من الجدول رقم (30) الذي سبقت الإشارة إليه، أي من 3 م/ثا² إلى 5 م/ثا²، وهو ما يؤكد بشكل واضح مدى فعالية المرتفع الترابي في الحد من الصدمات الناتجة عن الاهتزازات، ولكن نشير أنّ 0.053 م/ثا² أكبر من القيمة المنصوص عليها في المعيار DIN 4150 المنشور عام 1970، والذي



حدّد 0.002 م/ثا² كقيمة قصوى لتحمل المعالم التاريخية وبقايا المواقع الأثرية للاهتزازات المشار إليها

في الجدول رقم (27)، ربما يعود ذلك لاختلاف الأجهزة وقدم هذه المعطيات مقارنة بـ



.ISO/TC/108/SG-2

بالرغم من ذلك وأمام هذه النتائج نقترح إنجاز مجموعة من المصاطب الترابية متراسة فيما بينها جيداً بسمك يصل إلى 03م، خاصة كما ذكرنا أنه سيتم تمرير خط السكة الحديدية شرق غرب (LGV) مع الخط الحالي مع العلم أنّ سرعته تصل إلى 220 كلم/سا.

وقد أُقترح في إحدى الدراسات الكندية طريقة مغايرة للحدّ من تأثير الاهتزازات الناجمة عن حركة المرور الآلي، تتمثل في حفر خنذق عمودي بين مصدر الاهتزاز و المبنى، لأن هذا الأخير يقوم بامتصاص تلك الصدمات ويمنع مرورها⁽¹⁾، أنظر الرسم التخطيطي الآتي:

الرسم التخطيطي رقم (18): يبين كيفية وضع خنذق عمودي بين مصدر الاهتزازات والمعالم التاريخية. عن

lva.insa-lyon.fr/files/documents (بتصرف)

وهناك طريقة أخرى لها نفس الهدف، ويمكن العمل بها على مستوى الأحياء السكنية العتيقة التي تشهد حركة دؤوبة للمركبات الآلية، مثل حي الرحبية وباب علي بتلمسان، وبعض النقاط في كل من

1-Osama Hunaidi, **la Vibration des Bâtiments Sous l'Effet de la Circulation**, Institut de recherche en construction, Canada, p:06 www.nrc-cnrc.gc.ca

مدينة ندرومة وهنين، وتعتمد هذه الطريقة على تثبيت صف من الأعمدة المصنوعة من مادة الجير أو الإسمنت في أرضية حافة الطريق القريبة من المساكن العتيقة، ويُشترط أن يصل طولها إلى 15م، أما قطرها فيتراوح ما بين 0.50م و1م، حتى لا تترك مجالاً للاهتزازات للوصول إلى المساكن، ومن ثمّ حدوث تصدعات وشقوق.⁽¹⁾

وبالنسبة لمعالجة للشقوق والتصدعات التي تعترى أسوار المعالم التاريخية مشوهة منظرها، ومهددة بسقوطها في أي لحظة من اللحظات، فلا بدّ من التدخل العاجل للحيلولة دون اتساعها، سواءً بفعل الحركة الميكانيكية أو بفعل تجمع الأتربة ومياه الأمطار التي إن تجمدت داخلها في فصل الشتاء ستزيد من اتساع الشقوق، أي أنه ستحدث عن ذلك عملية التجوية التي من دون شك ستزيد الطين بلة⁽²⁾، ولذلك يفضل وضع غطاء سقفه جملوني فوق الأجزاء المتضررة، يحفر في الجانب العلوي من المعلم التاريخي خندق ترابي غير عميق لمنع مرور مياه الأمطار إلى أساساته، وذلك لا يتم إلا بعد أن يتم ملئ تلك الشروخ بأسلاك حديدية لمنع اتساعها كما تساعد هذه الطريقة في حماية الموروث المادي من خطر الأمطار الحمضية التي أشرنا لها سابقاً أنها تنتج عن انتشار الغازات الملوثة المتمثلة أساساً في غاز ثاني أكسيد الكبريت SO_2 ، وثاني أكسيد الكربون CO_2 ، الناتجين عن تحضر الإنسان المعاصر في مجال التنقل والتصنيع، وقد عاينا وجود العديد من المآثر المعمارية بالقرب من محاور الطرق ذات الحركة الكثيفة على وجه الخصوص في مدينة تلمسان وهنين لذلك نقترح وضع مثل هذا الغطاء الذي سيقبل حتماً من حجم الأضرار الفيزيوكيميائية والميكانيكية وقد أثبتت الدراسات أنهما يتشاركان فيما بينها ويكمل الواحد منهما الآخر، فعندما يُحدث العامل الميكانيكي شقوق وشروخ في الجدران المعالم التاريخية وبقايا أطلال المواقع الأثرية سيمهد الطريق للعامل الفيزيوكيميائي الذي ستجد مسبباته المتمثلة أساساً

1-Osama Hunaidi, Op.cit,p:06

2-Georgio Torraca ,Matériaux.....,Op.cit,p:62

في الأمطار الحمضية البيئة الملائمة لإحداث تآكل المعادن الموجودة في مواد البناء، وذلك ما سيُضعف من حدّة التأثير ويزيد من تفاقم الوضع⁽¹⁾، أنظر الرسم التخطيطي الآتي:

الرسم التخطيطي رقم(19): يبين كيفية حجب الأجزاء المتضررة من المعالم التاريخية عن المؤثرات الخارجية

المتسببة في الضرر الفيزيوكيميائي، عن: Georgio Torraca, Matériaux..., Op.cit, p:103

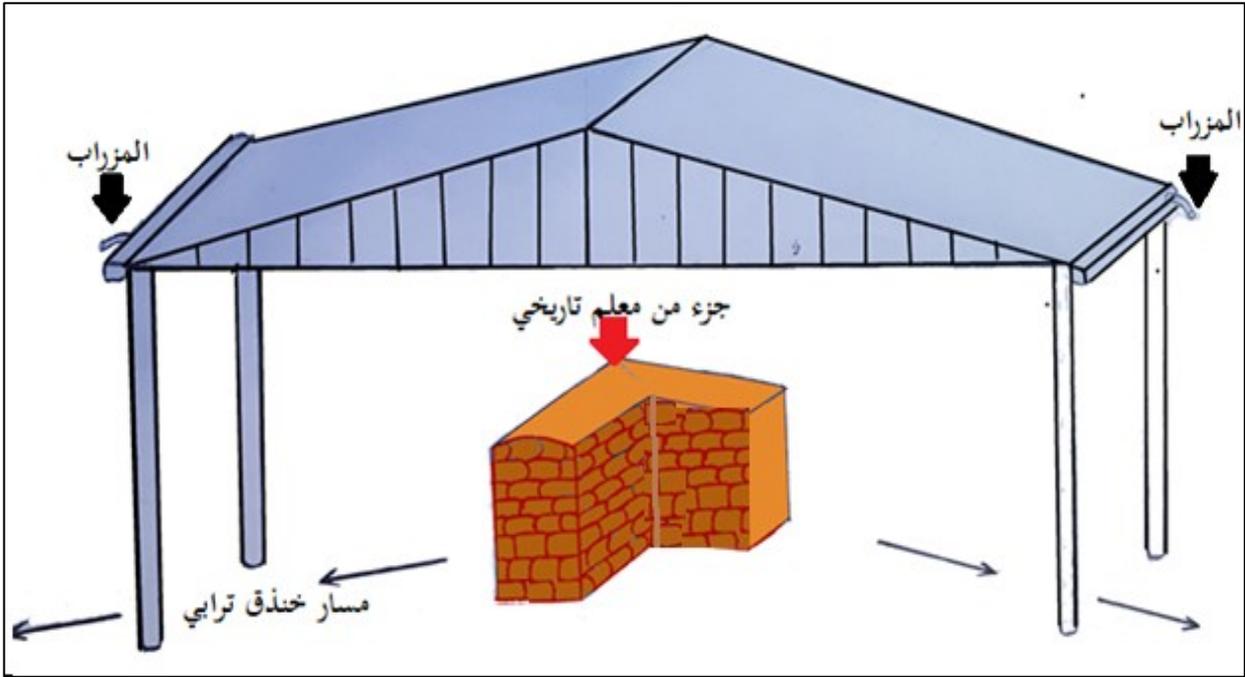
◆ تخصيص فرقة خاصة بتنظيف أحياء المدن العتيقة:

كما سبق وذكرنا أصبحت أغلب دروب المدينة العتيقة في تلسمان بصفة خاصة مملوءة بالقمامة، كما أصبحت المساكن المنهارة فيها أشبه بمفرغة عمومية، مثلما عاينا ذلك في الجزء الشمالي الشرقي من حي باب زير وإضافة لتلويث البيئة، فقد انبعث عن هذه الظاهرة تلوث بصري في الأحياء العتيقة، ولذلك لا بد من تكليف فرقة خاصة بجمع القمامة وتنظيف الدروب، ويكون لها أيضاً دور الرقابة لمنع أي تصرف من شأنه تلويث المدينة العتيقة، ولكي تقوم بدورها على أكمل وجه يفضل الاعتماد على الدواب التي يمكنها التحرك داخل الدروب الضيقة الملتوية داخل الأحياء السكنية بكل سهولة.

◆ تقريب أفراد المجتمع من موروثهم المادي:

لقد أشرنا سابقاً في حديثنا عن العولمة الثقافية أن الشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه، والمآثر المعمارية والمواقع الأثرية هي جزء مهم من ثقافة الإنسان المادية، وبعد دخول المؤثرات الغربية المتمثلة في العولمة تحت عدّة صور التي من بينها عملية التنمية الحضرية التي تجسّدت على أرض الواقع وفقاً لقواعد هندسية مستوردة عن الغرب، أدّى ذلك كم

1-Georgio Torraca ,Matériaux.....,Op.cit,p:62



ا ذكرنا إلى قطع الحبل السري إن صحَّ التعبير بين أفراد المجتمع والبيئة التي تربوا فيها، وقد كان ذلك أيضاً معول هدم للعلاقة الرابطة بينهم وبين التراث، وعليه نقترح تقريب أفراد المجتمع من موروثهم المادي، فهذه الخطوة تعتبر أحد النقاط الأساسية في الحفاظ على الموروث المادي على اختلاف أنواعه، ويتم تجسيدها إمّا عن طريق فتح المتاحف للجمهور، أو وضع بطاقات تعريفية للمعالم التاريخية والمواقع الأثرية مثلاً بطريق تلفت الإلتباه يراعى الشكل الجيد للوحة التعريفية، والمعطيات المختصرة الغير ممللة للقراءة أو الغير المفهومة، وأيضاً تقديم حصص تلفزيونية للتعريف بالمآثر المعمارية التي تزخر بها البلاد عامة، ولا يفوتنا أن نشير أن يتم دمج مواضيع تراثية في المقررات الدراسية الخاصة بالأطوار الثلاث، ويتم بالموازاة مع ذلك اصطحاب التلاميذ في زيارات إلى المواقع الأثرية والمعالم التاريخية التي تزخر بها الجزائر.

◆ إبعاد الطرق عن المعالم التاريخية والمواقع الأثرية:

نقصد بهذه الخطوة إبعاد الطرق التي تشهد حركة ميكانيكية دؤوبة طيلة النهار عن المعالم التاريخية والمواقع الأثرية، وذلك بمراجعة شبكة المحاور الطرقية الحالية، ومحاولة تغيير مسارها، أو على الأقل التعديل من حركتها كأن تكون في مسار واحد بدل مسارين، ويتم ذلك طبعاً بإشراك الجهات الوصية على الموروث المادي بالمدن العتيقة مع مديرية النقل والأشغال العمومية للولاية حتى تتضافر الجهود، وتتحقق

نتائج جيدة في مجال حماية المعالم التاريخية والمواقع الأثرية من خطر الاهتزازات والغازات الملوثة

◆ استحداث شرطة أثرية:

تعتبر المعالم التاريخية والمواقع والألقى الأثرية الغث منها والشمين ثروة حضارية بالغة الأهمية لما تحمله من قيم تنفرد بها عن باقي الثروات، حيث تجتمع فيها القيمة الروحية بالجمالية، والعلمية بالرمزية لتقدم بصمة فريدة من نوعها، وبالرغم مما تتميز به وما تقدمه من أدوار أتينا على ذكرها، تعرّضت للتشويه البصري والتخريب، بفعل غلبة المنفعة المادية عن غيرها من الأمور لدى الإنسان المعاصر، وقد ترجمت تلك المنفعة عملية التنمية الحضرية وما ينجم عنها من متطلبات تحدم الجانب الاجتماعي والاقتصادي لأفراد المجتمع، ونظراً لحدوث هذا المنعرج الخطير في حياة الشواهد المادية، وفي ذهنيات العامة من الناس أيضاً، بات استحداث فرقة خاصة من الشرطة يكون لها تكوين في تخصص علم الآثار تعمل على ردع جميع الاعتداءات التي من شأنها إدخال تلك الشواهد في خانة النسيان، أو على الأقل المسّاس بإحدى القيم الخاصة بها، خاصة في المدن التي تعيش تحولاً حضرياً يوماً بعد يوم.

خلاصة الفصل:

لقد أسقطت عملية التنمية الحضرية الموروث المادي في خانة النسيان، وجعلت منه وكأنه حجرة عثرة أمام المشاريع التي يحتاجها أفراد المجتمع، فما تبقى منه هنا وهناك يعاني كل يوم من ويلاتها ووطأتها، إما بتلويث مجالها البصري أو أحداث شقوق وتصدعات بجدرانها أو بهدمها وتخريبها كلياً، وهو ما يعكس إن صحّ التعبير وجود صراع حقيقي، ومعركة حامية الوطيس بين الأصالة والمعاصرة، الغلبة فيها للتنمية الحضرية أو بعبارة أخرى للطموح المادي اللأمتناهي للإنسان المعاصر في حياة دائماً تكون أفضل.

وعن أهم الحلول التي نرى أنها مجدية في مثل هذه الحالات نذكر مايلي:

- إعداد خارطة أثرية: تساعد الخارطة الأثرية تحديد جميع أماكن المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بالتعاون مع أهل الاختصاص من جغرافيين وطبوغرافيين... إلخ.

-إنشاء ديوان المحافظة على الموروث المادي بمنطقة تلمسان: بالموزاة مع الاعتداءات التي انبثقت عن التنمية الحضرية أصبح من اللازم إنشاء ديوان ولائي شبيه بديوان حماية وادي ميزاب وترقيته (OPVM) خاصة أن عمله وهدفه الأول له علاقة مباشرة بالحماية موافقته.

-إنشاء إدارة المخاطر التراثية: لقد أعلن عن هذا النوع من الإدارات من طرف المركز الدولي لحفظ وترميم الممتلكات الثقافية (ICCROM)، والمعهد الوطني الكندي للمحافظة على التراث (CCI).

-تفعيل دور تخصص علم الآثار الوقائي: يتم الاستعانة به لما له علاقة وطيدة بالقول المأثور الوقاية خير من العلاج، فهو يعمل على التدخل العاجل لدرء الخطر عن الشواهد الأثرية قبل حدوث الكارثة.

-الحفاظ على النمط المعماري الإسلامي العتيق بالمدن التراثية: يتم ذلك من خلال إنجاز مباني بتصميم إسلامي يراعي ما كان سائداً عند الأسلاف قديماً.

-تثمين المعالم التاريخية والمواقع الأثرية: لقد تبين لنا من خلال التحقيق الميداني الذي قمنا به أثناء إعدادنا للدراسة، أن هذه الخطوة لازمة وواجبة في هذه الفترة الحانقة التي يمر بها الموروث المادي.

-توظيف المعالم التاريخية والمواقع الأثرية: من خلال هذه الخطوة سنضمن بقاء المعلم التاريخي أوالموقع الأثري في حالة جيدة، لأنه سيستفيد من صيانة دورية.

-وضع مصاطب ترابية متراصة: برزت هذه الفكرة إلى أذهاننا ساعة قيامنا بمعاينة الأضرار الميكانيكية الناجمة عن اهتزازات حركة المركبات الآلية التي شقت لها الطريق عملية التنمية الحضرية، وقد لفت انتباهنا حينها أنه عندما يزداد سمك الطبقة الترابية وتتغير طبيعة المكان من حيث الارتفاع والانحدار، تتضائل قوة التسارع.

-نزع كل ما يضيفي لمسة حدائية على الموروث المادي والمواقع الأثرية من مقعرات ومكيفات هوائية وعدادات كهربائية ومائية: لهذه الخطوة دور فعّال في الحفاظ على الطابع العام العتيق المميز للمدن المحتضنة للتراث المادي، وذلك لعدم توافقها مع ملمحها وإضفائها صبغة حدائية عصرية في مكان لا يمت بأي صلة لا من القريب ولا البعيد بذلك.

ويمكن القول في الأخير أنّ تحصيل ثقافة أثرية لدى السكان هو الحل الأمثل لمثل هذه التبعيات التي لحقت بالتراث، فهو الذي يخطط للتنمية الحضرية ويؤمّر متى وكيف تجرى، وهو الذي يقطن المساكن العتيقة، ويؤدي الصلوات الخمس في مساجدها ويمشي في أحيائها، فإن استثمرنا في هذا العنصر فسيتحقق تعايش بين الماضي والحاضر، كما باقي خطوات المعالجة ستنفذ بكل تفاصيلها لأن الإنسان هو الذي يحركها، ولذلك نرى أن هذه الخطوة هي النقطة المحورية بين جميع الخطى التي ورد ذكرها.

الخاتمة

الخاتمة:

مما لا شك فيه أن المعالم التاريخية والمواقع الأثرية هي أهم الحلقات الواصلة بين ماضي الأمة وحاضرها وهي المرآة التي تعكس جذرائها وبقايا أطلالها خبرات الأسلاف في مجال البناء والتشييد، وهي تعد أيضاً صورة واضحة عن البيئة وتفاعلها مع الإنسان، ولا تتوقف أهمية الموروث المادي الثابت عند هذا الحد، بل له قيم أخرى تتمثل في القيمة الفنية والروحية والرمزية والعلمية.

وبعد بحثنا المستفيض حول التأثير الكبير الذي طال المعالم التاريخية والمواقع الأثرية من جرّاء التنمية الحضرية التي لا بد منها تماشياً مع متطلبات الحياة العصرية، خلصت الدراسة بعد عرض الجانب النظري والقيام بالمعاينة الميدانية للنسيج التاريخي لمدينة تلمسان وندرومة، وما تبقى من مدينة هنين كعينة لهذا الصراع الحضاري إلى أنّ الهوة بين حاضر وماضي هذه المدن اتسعت بشكل ملفت للإنتباه، وأنّ عراققتها تلاشت إلى حدّ بعيد من مورفولوجيتها الحضرية، وأنّ الكفّة رجحت بشكل واضح لصالح الأسلوب التنموي الحضري العصري، وذلك راجع للأسباب التي أتينا على ذكرها في الدراسة، والمتثلة أساساً في السياسة العمرانية التي طبّقها المستعمر الفرنسي لمدة تزيد عن القرن، حيث جمعت بين أسلوبين لا يقل الواحد منها تأثيراً عن الآخر، وهما الهدم، والبناء وفق النمط الأوروبي ذي الأصل الروماني، وساعد الواقع السكاني في سيادة الطابع الحضري الجديد، وتواري المعالم التاريخية بين المباني العمودية الإسمئنة، وذلك عبر التوسعات العمرانية الجديدة.

وقد زاد في حدة تأثيرها غياب الرقابة الإدارية، وعدم تطبيق ما جاء في المواد القانونية الخاصة بالحماية والوقاية بعد الاستقلال، حيث لاحظنا بناء مساكن ملاصقة للمعالم التاريخية وداخل المواقع الأثرية، مثلما حدث بموقع المنصورة الذي اجتاحتها المساكن الفردية.

ضف إلى ذلك ضاعف الانقياد الكلي للمهندسين المعماريين وراء النمط التخطيطي الغربي في إطار العولمة المعمارية التي شكّلت النقطة التي أفاضت الكأس من وطأة التنمية الحضرية، حيث هيمن النمط

الخاتمة

المعماري الغربي على الفكر المعماري لدى المهندسين الجزائريين والعامّة من الناس، وأصبح أي مشروع تنموي أو سكني إلاّ ويبنى وفق رؤية معمارية لا تمت بأية صلة للطابع العمراني الإسلامي الأصيل، ممّا ترك شرحاً كبيراً بين التقاليد المعمارية القديمة والمنجزات الحديثة.

وفي ظلّ هذا الوضع الذي عايناه ميدانياً، نتجت تأثيرات أضرّت بالتراث المبني وأدخلته في خانة الزوال أحياناً، وتتمثل هذه التأثيرات فيما يلي:

- التلوث البصري: لقد أخفى القيمة الفنية والتاريخية الخاصة بالمباني الأثرية لتصبح مجرد قشرة صمّاء لا تُقدّم للناظر إليها ما يربطه بماضيه، ويبعث فيه الاحساس بعقب التاريخ.

- التلف الفيزيوكيميائي: لقد أنهك المباني الأثرية بفعل ما اعتري مواد بنائها الضعف والتفتت، وقد نتج بشكل مباشر عمّا أفرزته الأساليب الحضرية العصرية من طرق جديدة في النقل والإنتاج، وحتى في الاستهلاك باعتبار التنمية الحضرية أيضاً نظام سوسيوثقافي، وقد نجم عن ذلك انبعاث غاز ثاني أكسيد الكبريت SO_2 وثنائي أكسيد الكربون CO_2 ، وتكوّن الأمطار الحمضية التي أضعفت مواد البناء.

- التلف الميكانيكي: نتج هذا التلف عن حركة المرور الآلي التي شكّلت مصدراً مباشراً للاهتزازات، وقد تبين أثناء المعاينة الميدانية للصور الشمالي القريب من سكة الحديد وجود عدد لا بأس به من التشققات نفس الشيء بالنسبة لمساكن حي الرحبية التي من بينها من تساقطت أجزاء منها، وقد لجأ مالكيها إلى تدعيمها بالألواح.

- الهدم والتخريب: شكّلت المشاريع التنموية الحضرية المنجزة داخل المواقع الأثرية أو بالقرب منها، ومن المعالم التاريخية معول هدم، حيث تبين ذلك من المعاينة الميدانية للمدن عينات الدراسة، إذ تعرضت للتخريب المباشر، مثلما عاينا ذلك في الموقع الأثري بالكدية الذي بنيت فوقه عمارة من ست طوابق، وغيره من الأمثلة المشابهة في مدينة هنين (مقر البلدية).

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما تعرّض له الموروث المادي الثابت والمواقع الأثرية في كل من مدينة تلمسان

الخاتمة

وندرومة وهنين بعد الاستقلال، كان أشدّ وطأة ممّا تعرّض له قبل الاستقلال من طرف المستعمر، بالرغم من طول فترة احتلاله لها وللجزائر عامة، وقصر الفترة الثانية مقارنة بها، وهذا راجع بالدرجة الأولى لما تم إنجازه من مرافق ضرورية في مختلف المجالات (التعليم، الصحة، المواصلات...)، أي كل ما له علاقة بالبنية التحتية من دون مراعاة ما تزخر به المدن العتيقة، فقد كان الهدف الأسمى غداة الاستقلال هو مواكبة الرّكب الحضاري، ولكن ذلك لا يعني أن السياسة العمرانية الفرنسية لم تحدث أية اعتداءات على التراث المادي الثابت، بل شكّلت بداية الصّراع بين الطابع العمراني الأصيل والدخيل الذي تواصل أجياله إلى يومنا هذا.

من هذا المنطلق أمكن القول أن انعكاسات التنمية الحضرية على الموروث المادي والمواقع التاريخية بلغت من الحدّة ما جعلته أحياناً قشرة جوفاء خالياً من أي قيمة، وأحياناً أخرى هدّته إمّا كلياً أو جزئياً، لذلك وجب التدخل لدرء الخطر عمّا تبقى منه، خاصة أنه أصبح في عُرفنا اليوم رافداً مهماً من روافد الاقتصاد، وركيزة أساسية لدفع قاطرة التنمية، لأنه يعتبر المادة الخام للصناعة السياحية لأي بلد من بلدان هذا العالم، كما أنه أصبح أيضاً مادة مكوّنة للصناعة السينمائية، وعليه اقترحنا مايلي:

-إنشاء خارطة أثرية

إنشاء ديوان ولائي لحماية وتصنيف التراث المادي الثابت.

-تفعيل دور علم الآثار الوقائي، لأنه التخصص الذي يحول دون اختفاء حلقات شواهد مادية من حلقات تاريخ الأمة الجزائرية.

-التشجيع على البناء بالنمط التقليدي.

وتبقى الثقافة الأثرية ومدى انتشارها بين شرائح الاجتماعية المختلفة، بدءاً من أصحاب القرار والمهندسين المعماريين الحل الأول لتفادي ضياع همزة الوصل، لذلك حسب رأينا لا بد من العمل جاهداً على نشرها عبر عمليات التحسيس والتوعية، ويكون ذلك في المراحل الأولى لنشأة الجيل الجديد

الخاتمة

في المدارس، عبر دمج مواضيع خاصة بالجانب الأثري في البرنامج الدراسي للأطوار الثلاثة يقوم على تدريسها مختصون في علم الآثار.

ونختتم ما أتينا على ذكره في هذه الدراسة بقولنا أن قضية التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، هو دورنا نحن جميعاً، فمهما كان التغيير سنّة من سنن الحياة، كان الحفاظ لازماً على مكتسباتنا العتيقة لإيصاله سالمًا إلى الأجيال اللاحقة حتى لا تذوب شخصيتنا وتعوض بأخرى ذخيلة لا تمس بأي علاقة لهويتنا ولتواصل الأمة مسيرتها على الرواق الذي صمّمه الأسلاف قديماً.

قائمة المصادر

والمراجع

القرآن الكريم.

◆ قائمة المصادر:

- ◆ أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح اليعقوبي، البلدان، تحقيق محمد أمين ضناوي، ط01، دار الكتب العلمية، لبنان، 2002.
- ◆ أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح اليعقوبي، البلدان، مطبعة بريل، مدينة ليدن، 1860.
- ◆ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس مج05، دار صادر، بيروت، 1998.
- ◆ ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية تلمسان، تقديم وتحقيق هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية مصر، 2001.
- ◆ ابن مريم الشريف المليتي المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء يتلمسان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، 1908.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ ابن منظور، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (دت).
- ◆ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، **تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قاطنها العلماء من غير أهلها ووارديها**، ط1، مج1، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت، 2001.
- ◆ أبو بكر الصنهاجي البيدق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.
- ◆ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي، **كتاب الأموال**، تحقيق رضا محمد سالم شحادة، ط01، دار الكتب العلمية، لبنان، 2008.
- ◆ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج02، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1979.
- ◆ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، **الحاوي الكبير في فقه الإمام الشافعي رضي الله عنه**، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد المجيد، ط1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.
- ◆ أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط01، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1970.
- ◆ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، ط01، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1989.
- ◆ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدولتان المرابطية والموحدية، ج02، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ أبو عبد الله محمد بن إدريس الحسيني الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق مج2، ج01، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
- ◆ أبو عبد الله ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ط1، ج2، تحقيق علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2008.
- ◆ أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، (دت).
- ◆ أبو القاسم ابن حوقل، كتاب المسالك والممالك، مطبعة بريل، مدينة ليدن، 1872.
- ◆ أبو زكريا يحيى بن شرف النّووي الدّمشقي، رياض الصالحين، تحقيق محمد ناصر الدّين الألباني، ط01 المكتب الإسلامي، بيروت، 1979.
- ◆ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، حقّقه وأخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي ج12، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1983.
- ◆ الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقية، ط2، ج2، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخصر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983.
- ◆ زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (دت).
- ◆ علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط02، المطبعة الملكية، الرباط، 1991.
- ◆ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع لبنان، 2001.
- ◆ عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق سهيل زكار، ج07، دار الفكر، بيروت، 2000.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، ط1، تحقيق عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود، دار العاذرية للنشر والتوزيع، الرياض، 2010.
- ◆ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج02 دار صادر، بيروت، 1977.
- ◆ صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، مج01، ط01، دار الجيل، بيروت، 1992.
- ◆ مارمول كاربخال، إفريقيا، ج02، ترجمة محمد حجي، محمد زبير، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بنجلون دار النشر المعرفة، الرباط، 1988.
- ◆ محمد ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياذ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- ◆ محمد بن عبدالله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك بني تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياذ، منشورات ANEP، 2010.
- ◆ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر محمد، دار الحديث، القاهرة، 2008.
- ◆ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991.
- ◆ يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج01، مطبعة بيبير بونطانا الشرقية الجزائر، 1903.
- ◆ قائمة المراجع:
- ◆ باللغة العربية:
- ◆ أبوخليل شوقي، الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ج1، ط2، دمشق، دار الفكر المعاصر، 1996.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ إبراهيم العيسوي، التنمية في عالم متغير، دراسة في مفهوم التنمية ومؤشراتها، ط01، دار الشروق 2001.
- ◆ إبراهيم محمد عبد الله، علاج وصيانة المباني، ط01، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، 2011.
- ◆ إبراهيم محمد عبد الله، مبادئ ترميم وحماية الآثار، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2012.
- ◆ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري، ج01 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- ◆ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2007.
- ◆ أنتوني غدنز وكارين بيردسال، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياع، ط04، المنظمة العربية للترجمة، لبنان (دت).
- ◆ أحمد عجاج الكرمي حافظ، الإدارة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، ط02، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2007.
- ◆ أمينة علي كاظم، التغيير الاجتماعي والثقافي في المجتمع القطري، هجر للطباعة والنشر، مصر 1993.
- ◆ آنسة بركات، محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1995.
- ◆ بتول أحمد جندي، على عتبات الحضارة، بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيال، دار الملتقى ط01، سوريا، 2011.
- ◆ بطرس البستاني، دائرة المعارف، قاموس عام لكل فن ومطلب، مج07، مطبعة المعارف، بيروت 1883.
- ◆ بلحاج معروف، العمارة الإسلامية، ط01، منشورات قرطبة، الجزائر، 2007.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ بنجامين ستوار، تاريخ الجزائر بعد الاستقلال 1962-1988، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2012.
- ◆ ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ط01، دار الشروق، القاهرة، 1994.
- ◆ جوزيف شاخت وكليفورد وبزورث، تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري، حسين مؤنس، إحسان صدقي العمدة، ج01 سلسلة عالم الثقافة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 1998.
- ◆ جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج01، دار الهلال، القاهرة، 1973.
- ◆ جيمس آرشيرمان، التخطيط أول خطوات النجاح، ترجمة محمد طه علي، مؤسسة الريان، الرياض 2010.
- ◆ جيرار ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحكمة، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2004.
- ◆ حسن عبد الحميد أحمد رشوان، التخطيط الحضري، مركز الإسكندرية للكتاب، 2005.
- ◆ حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر الرابطين والموحدين ط01، مكتبة الخانجي، مصر، 1980.
- ◆ حسن عبد الحميد أحمد رشوان، مشكلات المدينة، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، 2002.
- ◆ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط02، مكتبة مدبولي القاهرة، 1986.
- ◆ حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول الحضارة وعوامل قيامها وتطورها، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1978.
- ◆ حسين مؤنس، المساجد، سلسلة عالم الثقافة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1981.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ حيدر عبد الرزاق كمونة، تلوث البيئة وتخطيط المدن، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد 1981.
- ◆ خالد بن علي المطيري، عيد بن طالع المطيري، أسس الكهرباء، الإدارة العامة للتربية والتعليم بمحافظة الداويمي، المملكة العربية السعودية، 2009.
- ◆ رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر 1977.
- ◆ حميد عبد النبي الطائي، أصول الصناعة السياحية، ط2، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن 2006.
- ◆ رودريغو مارتين غالان، مناهج البحث الأثري ومشكلاته، ط1، ترجمة خالد غنيم، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، لبنان، 1998.
- ◆ الرزقي شرقي، المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان في عدسات مصوري القرن 19م نشر بن خلدون، تلمسان، 2013.
- ◆ عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي مصر، 2000.
- ◆ عامر طواف، التلوث البيئي والعلاقات الدولية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، 2008.
- ◆ علي محمد الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ط2، دار المعرفة بيروت، 2009.
- ◆ عبد الباقي إبراهيم، تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية مصر، 1982.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر 1972.
- ◆ عبد الرحمن فوزي الفخراي، الرائد في فن التنقيب عن الآثار، ط 2، منشورات جامعة قارونس ليبيا، 1993.
- ◆ عبد الستار محمد عثمان، المدينة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978.
- ◆ عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية، ج 1، موفم للنشر، الجزائر، 2002.
- ◆ عبد العزيز الفيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
- ◆ عبد العزيز لعرج محمود، مدينة المنصورة المرينية بتلمسان، ط 1، دار زهراء الشرق، القاهرة، 2006.
- ◆ عبد الله كامل موسى، الأمويون وآثارهم المعمارية، ط 1، دار الآفاق العربية، مصر، 2003.
- ◆ عبد الله علي علاّم، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف مصر 1971.
- ◆ عبد القادر الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة الإسلامية المعماري والفني، ج 2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2000.
- ◆ عفيف البهنسي، جمالية الفنّ العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1978.
- ◆ عطى الله دهينة، تاريخ الجزائر في العصر الإسلامي، ج 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
- ◆ عمّار توفيق أحمد بدوي، مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، رسالة ماجستير، تخصص أصول الدّين، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2005.
- ◆ عزي بوخالفة، تلمسان منارة إشعاع فكري وحضاري، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

- ◆ زكرياء إبراهيم، مشكلات فلسفية مشكلة الحرية، ط2، دار الطباعة الحديثة، مصر، 1963.
- ◆ راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ط01، ج01، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2011.
- ◆ سعاد ماهر، مساجد السيرة النبوية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1987.
- ◆ سيدي محمد نقادي، براهيمى نصر الدين، تلمسان الذاكرة، ط2، منشورات ثالة، الجزائر، 2007.
- ◆ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، العصر الإسلامي، ترجمة محمد مزالي، البشير بن سلامة، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.
- ◆ شارل بروسار، كتابات شواهد وقبور سلاطين وأمراء بني زيان الملتقطة من روضاتهم الملكية بمدينة تلمسان، ترجمة الرزقي شرقي، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
- ◆ شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر تونس، 1971.
- ◆ صابر محي الدين، التغيير الحضاري وتنمية المجتمع، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1962.
- ◆ صالح بن قربة، سامية بو عمران، خالف محمد نجيب، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر، 2007.
- ◆ صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صلاح قنصوه، يسمون شوستر، إمريكا، 1996.
- ◆ فادية عمر الجولاني، علم الاجتماع الحضري، دار عامر للكتب، الرياض، 1984.
- ◆ فداء محمد أحمد قعقور، الأسبلة المائية في العمارة الإسلامية، حالة الدراسة مدينة نابلس، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2010.
- ◆ فارس قبيلة المالكي، تاريخ العمارة عبر العصور، ط1، دار المناهج للنشر والتوزيع، بيروت، 2007.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ قارني جاكلين بوجو، الجغرافية الحضرية، ترجمة حلمي عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1989.
- ◆ مالك بن نبي، تأملات، ط5، دار الفكر، دمشق، 1991.
- ◆ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، مشكلة الثقافة، ط18، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2015.
- ◆ مالك بن نبي، شروط النهضة، ط4، ترجمة عمر كامل، عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، 1987.
- ◆ مبارك بن محمد الهلالي الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، (دت).
- ◆ مايكل جونز، حالة المدن العربية 2012-2013، تحديدات التحول الحضري، ترجمة ديانا نغوي، ط02، المكتب الإقليمي للدول العربية، الكويت، 2012.
- ◆ محمد أركون، ما بعد الحداثة حنين إلى ما قبل الحداثة، ترجمة محمد سيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توفال للنشر، الدار البيضاء، 2007.
- ◆ محمد البشير شنيقي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، بحوث ودراسات، دار الحكمة الجزائر 2003.
- ◆ محمد السعيد، ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة في منطقة تلمسان وأبعادها الاجتماعية والنفسية، مطبوعات الكراسك، وهران، 1995.
- ◆ محمد سعيد فرح، ما علم الاجتماع، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1987.
- ◆ محمد محمود ذهبية، علم البيئة، ط01، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، الأردن، 2010.
- ◆ محمد الهادي لعروق وسمير بوريمة، أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى، (دت).
- ◆ محمد الهادي حارش، التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ محمد عبد الفتاح محمد، الاتجاهات التنموية في ممارسة الخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، 2002، ص: 311
- ◆ محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (دت).
- ◆ محمد عبد الفتاح، التنمية الاجتماعية من منظور الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، 2005.
- ◆ محمد علي محمد، دراسات في التنمية والتخطيط الاجتماعي، دار النهضة العربية، لبنان، 1986.
- ◆ محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، ط1، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع مصر، 1999.
- ◆ مصطفى علم الدين، المجتمع الإسلامي في مرحلة التكوين، دار النهضة العربية، بيروت، 1992.
- ◆ ول ويريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، تقديم محي الدين صابر مج01، ج01، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، (دت).
- ◆ يحي بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.
- ◆ يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
- ◆ يحي وزيري، التطور العمراني والتراث المعماري لمدينة القدس الشريف، الدار الثقافية للنشر فلسطين، (دت).
- ◆ يوسف بن عثمان بن حزم، أفكار في التنمية السياسية، مركز ابن الأزرق لدراسات التراث السياسي الرياض، 2011.
- ◆ باللغة الفرنسية:

◆ Abderrahmane Khelifa, **Honaïne Ancien Port du Royaume de Tlemcen** édition Dalimen, Algérie, 2008.

◆ Abbé jjBargés, **Tlemcen Ancienne Capital du Royaume de Ce Nom**, Imprimerie Oriental du Manus Nicolas, France, 1859.

- ◆ Augustin Bernard, **En Oranie**, Société de Géographie et d'archéologie de la Province d'Oran, Tome 21, imprimerie typographique et lithographique L. Fouque, Oran, 1901.
- ◆ André Lecocq, **Tlemcen Ville Française (1842-1871)**, Tome 01 L'administration Militaire (1842-1852), Editions Internationales, Tanger 1949.
- ◆ Camillo Sitte, **L'Art de Bâtir les Villes**, Note et Réflexions d'un Architecte traduites et complétées par Camille Martin, Édition Atar Corraterie 12, Genève, 1889.
- ◆ Denis Grandet, **Architecture et Urbanisme Islamique**, OPU, Alger 1986.
- ◆ Djilali Sari, **Les Villes Précoloniales de L'Algérie Occidentale Nédroma Mazouana, Klâa**, 2^{ème} édition, Société Nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1978.
- ◆ Djilali Sari, **La Re-Naissance d'un Ancien Débouché de L'Or Transaharien Honâine Passé et Transformation en Cours**, Office des Publications L'universitaires, Algérie, 1991.
- ◆ Djilali Sari, **Tlemcen, La Cité-Patrimoine à Sauvegarder, La Tachfinya à Reconstruire Imperativement**, édition ANEP, Algérie, 2006.
- ◆ Direction de L'urbanisme et La Construction, **Le Groupement Des Communes De Tlemcen, Mansourah, Chetouane et Béni Mester, Un Espace Urbain de Cohérence et de Solidarité Intercommunal**, Etude de Revision du PDAU, Rapport Final, Avril 2007.
- ◆ E. Sabastier, **Quelques Mots Sur l'Algérie**, Imprimerie Henry Michel, Nîmes 1892.
- ◆ Ernest Neufert, **Les Eléments des Projets de Construction, Démentions et Places Nécessaire, L'homme Mesure de Toute Chose** Traduit Par Karine Ansquer Ulrick Yves Bemdritter, Jean-Charles Helioing et Urs Keller, 2006.
- ◆ Félix Jacquot, **Expédition du Général Cavaignac dans Le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847**, Gide et Baudry Libraires Editeurs Paris, 1849.

- ◆ Georges Marçais ,**l'Architecture Musulmane d'Occident ,Tunisie Algérie,Maroc Espagne ,Sicile** ,Arts et Metiers Graphiques, France 1954.
- ◆ Georges et William Marçais,**Les Monuments Arabes de Tlemcen** Editeurs Libraire des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome,du Collège de France et de L'école Normal Supérieure Paris,1903.
- ◆ Georges Marçais,**Les Villes d'Arts Célèbres, Tlemcen**,Librairie Renouard,H Laurans,Paris1950.
- ◆ GiorgioTorraca,**Matériaux de Construction Poreux,science des matériaux pour la conservation architecturale**, Traduction de l'original anglais par Colette di Matteo,ICCROM,Italie,1986.
- ◆ Giorgio Torraca,**Pollution atmosphérique et patrimoine culturel l'exemple des monuments en pierre :dégradation et traitement**, Entretien continu du patrimoine culturel contre la pollution et d'autres facteurs similaires :évaluation, gestion des risques et sensibilisation du public,Séminaire organisé conjointement par le conseil de et le Riksantikvarieämbet et Direction nationale du patrimoine,édition du conseil de L'europe,Strasbourg,2000.
- ◆ Jean-Paul Roux,**Dictionnaire des Arts de L'islam**,Fayard,Paris, 2007.
- ◆ Kheladi Mokhtar,**Urbanisme Et Systèmes Sociaux,La planification Urbaine en Algérie**,office des publications universitaires, Alger,1983.
- ◆ Kamal Katab ,**Européenes,Indigènes et Juifs en Algérie(1830-1962) Representation et Réalité des Populations**,L'institut National D'études Démographiques,Paris,2001.
- ◆ Louis Abadi,**Tlemcen Au Passé Retrouvé**,édition Gandini,France 1994.
- ◆ Ministre de La Guerre,**Tableau De La Situation Des Etablissement -s français dans l'Algérie en 1840**,Imprimerie Royale,Paris,1841.

- ◆ M.Blanqui,Algérie,Rapport sur La Situation Economique de Nos dans Le Nord De L'afrique,W.Coquebert Editeur,Paris,1840.
- ◆ Mokhtar Kheladi,Urbanisme et Systemes Sociaux, La Planification Urbaine En Algérie,Office des Publications Universitaires,Alger,1993.
- ◆ Pelletier Jean,Deffant Charles,Villes et Urbanisme Dans le Monde Collection initiation aux études de géographie, éditions Masson ,Paris 1989.
- ◆ Rachid Bourouiba,L'art Religieux Musulman En Algérie,2^{emme} édition, SNED, Algérie,1983.
- ◆ Rachid Bourouiba,Les Inscriptions Commémoratives des Mosquée d'Algérie,Société Nationale D'édition Et De Diffusion,Alger,1979.
- ◆ Rachid Bourouiba,L'architecture Militaire De L'Algérie Médiévale ,OPU, Alger ,1983.
- ◆ Rachi Bourouiba,L'art Religieux Musulman En Algérie,2^{emme} édition,SNED,Algérie,1983.
- ◆ René Basset,Nedromah et Les Traras,Ernest Leroux Editeur,Paris, 1901.
- ◆ Sid Ahmed Bouali,Les Deux Grands Sièges De Tlemcen Dans L'histoire Et La Légende,L'arbres A Livres Édition,Algérie,2011.
- ◆ Sidi Mohamed Negadi, Michel Terrasse,Agnés Charpentier,L'image de Tlemcen dans Les Archives Françaises,Imprimerie Mauguin Algérie,2011.

◆ قائمة الأطروحات والرسائل:

◆ أطروحات الدكتوراه:

أ-باللغة العربية:

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ باية بوزغاية، توسع المجال الحضري ومشروعات التنمية المستدامة مدينة بسكرة أنموذجا أطروحة دكتوراه علوم، تخصص علم الاجتماع الحضري، قسم الاجتماع كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة محمد خيضر، بسكرة 2016.
- ◆ بلحاج طرشاوي، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية من خلال بعض النماذج، أطروحة دكتوراه، قسم الثقافة الشعبية، 2007.
- ◆ بلحاج معروف، العمارة الدينية الإباضية بمنطقة وادي مزاب من خلال بعض النماذج، أطروحة دكتوراه دولة تخصص تاريخ العمارة الإسلامية، قسم علم الآثار، جامعة تلمسان، 2002.
- ◆ بومدين أونان، دور نظم المعلومات في تفعيل أداء مجلس الإدارة، أطروحة دكتوراه، تخصص تسيير قسم العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية والتسيير، جامعة تلمسان، 2011.
- ◆ جواد عبد اللأوي، الحماية الجنائية للهواء من التلوث، دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه، تخصص القانون العام، قسم العلوم القانونية والإدارية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2014.
- ◆ خديجة بن فليس، أنماط السيادة النصفية للمخ والإدراك والذاكرة البصريين، دراسة مقارنة بين تلاميذ ذوي صعوبات تعلم (الكتابة والرياضيات) والعاديين، أطروحة دكتوراه، تخصص علم النفس التربوي قسم علم النفس وعلوم التربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة 2015.
- ◆ فائزة مهتاري، أضرحة الأولياء في الغرب الجزائري، دراسة تاريخية ومعمارية من خلال بعض النماذج، أطروحة دكتوراه، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2005.
- ◆ محمد لخضر عولمي، الزخرفة المعمارية في عهد المرينيين والزيانيين، دراسة تحليلية مقارنة، أطروحة لنيل الدكتوراه، تخصص الآثار الإسلامية، قسم علم الآثار والتاريخ، شعبة علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013.

♦ الطيب هاشمي، التوجه الجديد لسياسية لتنمية الريفية في الجزائر، أطروحة دكتوراة، تخصص اقتصاد التنمية، قسم العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان 2014.

♦ سعيد فكرون، استراتيجية التصنيع والتنمية بالمجتمعات النامية-حالة الجزائر دراسة نظرية- أطروحة دكتوراه دولة تخصص علم اجتماع التنمية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005.
ب- باللغة الفرنسية:

♦ Abdelkader Tahar, **La médina de Tlemcen mutation, Sauvegarde et durabilité**, Thèse de Doctorat en histoire et archéologie et Arts populaires, réalisée en cotutelle entre l'université Nice Sophia Antipolis-France et l'aboratoire du patrimoine archéologique et sa valorisation-L'université de Tlemcen ,Nice ,2015.

♦ Estel Colas, **Impact de l'humidité et des solutions saline sur le comportement dimensionnel de grès du Buntsandstein: contribution à la sélection de faciès de restauration**, thèse du doctorat , discipline :Biosciences, Ecole doctorale, sciences Technologie santé, université de Rems Champagne-Ardenne, France, 2011, p:34-53

♦ Fadila Kettaf, **La Fabrique des Spaces, Conceptions, Formes Et Des Places D'oran (Algerie)**, Thèse du Doctorat, Discipline, géographie et aménagement de l'espace, L'université Paul-Valéry-Montpellier3, France 2013.

♦ Souria Baba Ahmed Kassab, **Antagonisme Entre Espace Historiques et Developpement L'urbain, Cas De Tlemcen** Thèse Doctorat d'état en Architecture et Urbanisme , Option Préservation des Sites et Monuments Historiques , ecole Poly -technique d'architecture et Urbanisme, Algérie ,2007.

♦ Tarik Bellahsene, **La colonisation en Algérie: processus et procédures de création des centres de peuplement, institutions, inter-**

venants et outils le cas de centres en kabylie du Djurdjura 1857-1899,une illustration de la plaine vers la montagne,Thèse de Doctorat,Discipline ville et enivronnement,Université de Paris 08Vince - nnes,Saint-Denis,Paris, 2006.

◆ رسائل الماجستير:

أ-باللغة العربية:

◆ أحمد جميل شامية،دراسة تحليلية للتلوّث البصري في مدينة غزّة،منطقة الجندي المجهول حالة دراسة،رسالة ماجستير،تخصص هندسة معمارية،قسم الهندسة المعمارية،كلية الهندسة،الجامعة الإسلامية غزّة،فلسطين،2013.

◆ أسامة عبد الله صالح مصطفى،تشكيل الفراغات،الساحات العامة في البلدة القديمة في مدينة نابلس،تحليلها مقترحات تطويرها،رسالة ماجستير،تخصص هندسة المعمارية،كلية الدراسات العليا،جامعة النجاح الوطنية،نابلس،2010.

◆ آمال لبعل،آلية التسيير الحضري والتنمية المحلية،حالة مدينة بسكرة،رسالة ماجستير،تخصص علم الاجتماع،جامعة محمد خيضر،بسكرة،2004.

◆ إياد جميل أحمد صالح،اتجاهات التطور العمراني في مدينة طوباس،دراسة في مورفولوجيا المدينة،مذكرة ماجستير تخصص للتخطيط والإقليمي،كلية الدراسات العليا،جامعة النجاح الوطنية نابلس،فلسطين،2009.

◆ درويش بريشي،تطور المسكن الإسلامي في مدينة تلمسان،دراسة فنية أثرية،مذكرة ماجستير،تخصص فنون شعبية،قسم الثقافة الشعبية،جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان،2012.

◆ حبيبة بوزار،واقع وآفاق الحماية القانونية للتراث المادي الأثري في الجزائر،ولاية تلمسان دراسة حالة،دراسة قانونية،مذكرة ماجستير تخصص فنون شعبية،قسم الثقافة الشعبية،جامعة تلمسان،2008.

- ◆ حسبية غارو، دور الأحزاب السياسية في رسم السياسة العامة، دراسة حالة الجزائر من 1997-2007، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تخصص تنظيمات سياسية وعلاقات دولية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012.
- ◆ حكيمة بولعشب، مشكلات التنمية الحضرية بالمدينة الصحراوية، دراسة ميدانية بمنطقة عين الصحراء بمدينة توقرت، رسالة ماجستير، علم الاجتماع الحضري، جامعة قسنطينة، 2007.
- ◆ حنان شكري شاكر شبير، واقع إدارة الوقت لدى العاملين في القنوات الفضائية العاملة في قطاع غزة، مذكرة ماجستير، تخصص إدارة الأعمال قسم إدارة الأعمال، كلية التجارة، الجامعة الإسلامية غزة، فلسطين، 2010.
- ◆ رحوي حسين، العلاقة بين النسيج العمراني والفضاء الاجتماعي الثقافي في المدينة العربية الإسلامية، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2001.
- ◆ رفيق بن مرسل، الأساليب الحديثة للتنمية الإدارية بين حتمية التغيير ومعوقات التطبيق، دراسة حالة الجزائر 2001-2011، مذكرة ماجستير تخصص تنظيمات سياسية وعلاقات دولية، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2011.
- ◆ رياض تومي، أدوات التهيئة والتعمير وإشكالية التنمية الحضرية، مدينة الحروش نموذجاً، رسالة ماجستير تخصص علم الاجتماع، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006.
- ◆ ساعد هماش، التصنيع والتنمية الحضرية، دراسة تحليلية بمدينة العلمة ولاية سطيف، مذكرة ماجستير، قسم علم الاجتماع، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009.
- ◆ صالح العربي، البيئة الحضرية اخل الأنسجة العمرانية العتيقة والتنمية المستدامة، حالة قسنطينة مذكرة ماجستير، تخصص التسيير الإيكولوجي للمحيط الحضري، معهد تسيير التقنيات الحضرية جامعة المسيلة، 2009.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ فداء محمد أحمد قعقور، الأسبلة المائية في العمارة الإسلامية، حالة الدراسة مدينة نابلس، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2010.
- ◆ قارة تركي إلهام، آليات الرقابة في مجال التهيئة والتعمير، مذكرة ماجستير تخصص القانون العام، قسم العلوم القانونية والإدارية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة تلمسان، 2013.
- ◆ محمد جبري، التأطير القانوني للتعمير في ولاية الجزائر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تخصص إدارة ومالية، قسم العلوم القانونية والإدارية كلية الحقوق، جامعة الجزائر، 2013.4
- ◆ محمد مصطفى النحاس محمد، التأثير المتبادل بين الإدراك الحسي والتصميم الداخلي للمتأحف، رسالة ماجستير تخصص هندسة معمارية، كلية الهندسة، جامعة عين شمس، مصر، 1990.
- ◆ عبد العزيز محمود لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية دراسة أثرية معمارية وفنية، رسالة لنيل دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، ج2، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1999.
- ◆ عمر جلال حفطي، التصميم المعماري الداخلي بين تعددية المفاهيم الفكرية في القرن العشرين حالة مقارنة بين عمارة الحداثة وعمارة ما بعد الحداثة، رسالة ماجستير تخصص هندسة العمارة، جامعة النجاح نابلس، فلسطين، 2012.
- ◆ عيسى يزيد، السياسة الفرنسية تجاه الملكية العقارية في الجزائر 1830-1714، مذكرة ماجستير تخصص تاريخ معاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000.
- ◆ لطرش بمدينة سارة، تأثير النمو السكاني في تغيير مولفوجية المدينة، دراسة ميدانية بمدينة سطيف، تخصص الديموغرافيا الحضرية، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة فرحات عباس، سطيف 2011.
- ◆ ليليا حفطي، المدن الجديدة ومشكلة الاسكان الحضري، دراسة ميدانية بالوحدة الجوية رقم 07 المدينة الجديدة علي منجلي، مذكرة ماجستير تخصص علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ محمد بن زغادي، تأثير التنمية الحضرية على المعالم الأثرية-ندرومة نموذجاً-، رسالة ماجستير، تخصص علم الآثار والمحيط، قسم علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2010.
- ◆ محمد بومدين دحماني، اندماج المهاجرين الريفيين، في الوسط الحضري، دراسة ميدانية بمدينة الجلفة، رسالة ماجستير علم الاجتماع، تخصص علم اجتماع العائلة والسكان، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2009.
- ◆ محمد رابح فيسة، المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة، دراسة تاريخية أثرية، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد علم الآثار، جامعة الجزائر، 2005.
- ◆ محمد عياش، الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان، دراسة تاريخية وأثرية، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد علم الآثار، جامعة الجزائر، 2005.
- ◆ محمد الزين، العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة من خلال نموذجين: الجامع الكبير وزاوية سيدي محمد بن عمر، دراسة تاريخية وفنية، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الفنون الشعبية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2003.
- ◆ نجلاء جرم ميلي، النقل شبه الحضري بولاية عنابة، واقع وآفاق، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم التهيئة العمرانية، تخصص التهيئة الإقليمية، كلية علوم الأرض والجغرافية، جامعة منتوري، قسنطينة 2009.
- ◆ نقادي سيدي محمد، التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، 1991.
- ◆ سيدي محمد بسنوسي الغوثي، الزخرفة في مساجد منطقة تلمسان، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، الجزائر 1990.

قائمة المصادر والمراجع

◆ هنادي سمير نامق، الحليات المعمارية في القصور العثمانية في البلدة القديمة بنابلس-دراسة تحليلية-رسالة ماجستير تخصص هندسة العمارة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية بنابلس، فلسطين، 2010.

◆ اليمين بن منصور، دور القيم الدينية في التنمية الاجتماعية، دراسة ميدانية حول الميزابيين المقيمين بمدينة باتنة، رسالة ماجستير، تخصص علم الاجتماع الديني، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2010.

ب-باللغة الفرنسية:

◆ Islam Benarbia, **L'évaluation de La Valeur Esthétique des Monuments Historiques, Cas de La Grande Mosquée de Nédroma** Mémoire de Magistère en architecture, option ville patrimoine et urbanisme, département d'architecture et de technologie, université de tlemcen 2012.

◆ Lahcen Khattabi, **La Reconquête D'un Centre Ancien :le Cas de la Médina de Nedroma**, Mémoire de Magistère en Architecture, Option :La ville, Patrimoine et Urbanisation, Département d'architecture, Faculté de Technologie, Université de Tlemcen, 2010.

◆ Samira Kherfi, **Carctérisation physico-chimiq des géomatériaux**, Mémoire de Magistér, Spécialité sciences des matériaux, Option Méta-Ilurgie, département de physique, Faculté des Sciences exactes Université Mentouri, Constantine, 2012.

◆ قائمة المجالات والجرائد والملتقيات والقواميس والمؤسسات:

◆ قائمة المجالات:

أ-اللغة العربية:

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ أصداء عبد الحميد التحافي وآخرون، التكوين الشكلي للخانات في العمارة الإسلامية، دراسة تحليلية، مجلة الرافدين للهندسة المجلد 17، العدد 04، بغداد، 2009، ص-ص: 207-227
- ◆ إياد فضيل قاسم، رشا خالد صبري، رؤى مظفر يونس، دراسة تأثير ملوثات الهواء على خصائص مياه الأمطار في قرية العريج ناحية حمام العليل، مجلة تكريت للعلوم الهندسية، المجلد 19، العدد 02، كلية علوم البيئة وتقاناتها، جامعة الموصل، 2012، ص-ص: 1-12.
- ◆ بديع العابد، الفكر المعماري العربي الإسلامي، البداية، التشكيل التكويني، مجلة كان التاريخية، العدد 14، الكويت، 2011، ص-ص: 61-86.
- ◆ بوجمعة خلف الله، المدينة الجزائرية والبحث عن الهوية، بريد العلم، العدد 04، جامعة بسكرة 2003، ص-ص: 96-101.
- ◆ جواد سلام، التغيير في مراكز المدن التاريخية، مجلة المخطط والتنمية، العدد 24، معهد التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا، جامعة بغداد، العراق، 2011، ص-ص: 125-145.
- ◆ رهيف فياض، العمارة في لبنان بين التراث والحداثة، مجلة المهندس، العدد 27، دوتس (Dots) بيروت، 2011، ص-ص: 26-31.
- ◆ زينب راضي عباس البلداوي، المناطق العشوائية بين الواقع والطموح نحو بيئة حضرية مستدامة حالة دراسية أم الورد، مجلة المخطط والتنمية، العدد 18، المعهد العالي للتخطيط الحضري والإقليمي جامعة بغداد، العراق، 2008، ص-ص: 23-56.
- ◆ عبد الباقي إبراهيم، إحياء القيم في تخطيط المدينة الإسلامية، مجلة عالم البناء العدد 05، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1980، ص: 20-21.
- ◆ عبد الباقي إبراهيم، العمارة العربية بين المحلية والعالمية، مجلة عالم البناء، العدد 22، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1982، ص: 05.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ عبد الباقي إبراهيم، العمارة أم المعمار يون في مفترق الطرق، مجلة عالم البناء، العدد 81، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1987، ص: 05-06.
- ◆ عبد الباقي إبراهيم، الأمير... ومدرسة العمارة، مجلة عالم البناء، العدد 107، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1990، ص-ص: 05-06.
- ◆ عبد الباقي إبراهيم، قوانين التنظيم ... هل هي المسؤولة وحدها عن فقدان الطابع المعماري للمدينة العربية، العدد 04، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1980، ص: 14.
- ◆ عبد العزيز لرحج، المدارس الإسلامية، دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، مجلة الدراسات الإنسانية، العدد 1، الجزائر، 2001.
- ◆ عبد الجليل ضاري سعدون، الاعتبارات التخطيطية والتصميمية للمدن التاريخية القديمة العربية حالة دراسية (مدينة كربلاء)، مجلة كلية التربية، واسط، فيفري 2015، ص-ص: 308-328.
- ◆ عبيد محمد رضا الشاطر، هشام محمد جلال أبوسعدة، فن وعلم بناء عمارة وعمرن المدائن الحضرية، مجلة الإمارات للبحوث الهندسية، العدد 18، الإمارات، 2013، ص-ص: 1-14.
- ◆ علي سليم صقر، دراسة بصرية لمحيط دمشق القديمة (لتحقيق الاستمرارية البصرية وانعكاس الداخل على المحيط)، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، العدد 03 المجلد 36، اللاذقية 2014، ص-ص: 263-282.
- ◆ عماد صولة، سيرورة الرمز من العتبة إلى وسط الدار، دراسة أنثروبولوجية في السكن التقليدي التونسي، مجلة إنسانيات، العدد 28 مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية (CRASC) وهران، 2005، ص-ص: 05-22.
- ◆ عياش قويدر، إبراهيمي عبد الله، آثار انضمام المنظمة العالمية للتجارة بين التفاؤل والتشاؤم، مجلة اقتصاديات شمال إفريقيا، العدد 02، مخبر العولمة واقتصاديات شمال إفريقيا، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، 2005، ص-ص: 49-84.

- ◆ عثمان محمد غنيم، دور العامل الاجتماعي في تشكيل ملامح الشخصية الحضريّة المعاصرة وتحديدّها لمدينة السلط بالأردن، مجلة جامعة دمشق، المجلد 18، العدد 03 دمشق، 2002، ص-ص: 109-133.
- ◆ علي شعبان عبد الحميد، هاني خليل الفران، أهمية الخصائص والعناصر البصرية والجمالية في المدينة دراسة تحليلية لوسط مدينة نابلس، مجلة العمران والتقنيات الحضريّة، العدد 04، الجزائر 2008، ص-ص: 01-31.
- ◆ شذى عباس حسن، التواصل المعماري والحضري للتراث العربي الإسلامي، مجلة المخطط والتنمية، العدد 25، جامعة بغداد، 2012، ص-ص: 79-92.
- ◆ فايز محمد العيسوي، مدينة الدمام-دراسة في النمو السكاني والعمراني، المجلة الجغرافية العربية، العدد 24، الجمعية الجغرافية العربية، مصر، 1992، ص-ص: 110-140.
- ◆ صالح حمير، السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر بداية الاحتلال (1830-1840)، مجلة كان التاريخية، العدد 22، الكويت، 2013، ص-ص: 123-133.
- ◆ صلاح زيتون، نظرة على العمارة العالمية، مجلة عالم البناء، العدد 144، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر، 1993، ص-ص: 18-19.
- ◆ الطاهر لدرع، الاتجاهات الحديثة في نظرية التخطيط العمراني: من عموميات النظريات المعمارية إلى خصوصيات الممارسة بحكمة الواقع، مجلة بريد العلم (de Courier Savoir)، العدد 16، جامعة الملك آل سعود، 2013، ص-ص:
- ◆ كامل الكناني، تخطيط المدينة العربية الإسلامية، الخصوصية والحداثة، مجلة المخطط والتنمية العدد 15، المعهد العالي للتخطيط الحضري والإقليمي، جامعة بغداد، 2006، ص-ص: 85-107.
- ◆ كمال أميمة، تجربة المساكن الجاهزة هل نحن في حاجة إليها؟، مجلة عالم البناء، العدد 05، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، مصر 1980، ص-ص: 12-13.

- ♦ لخضر فاضل، ألتاف الرومانية (أولاد ميمون) في نهاية التاريخ القديم، مجلة منبر التراث الأثري، العدد 01، مخبر التراث الأثري وتثمينه، جامعة تلمسان، 2012، ص-ص: 201-208.
- ♦ مظهر عباس أحمد، عادل حاتم نوار، دور لوحات الإعلان التجارية في التلوث البصري للبيئة العمرانية في المدن العراقية، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، العدد 20، جامعة واسط، 2013، ص-ص: 301-348.
- ♦ محمد بن زغادي، دور المعالم الأثرية في إرساء التنمية بالجزائر، مجلة دراسات في التنمية والمجتمع العدد 02، مخبر المجتمع ومشاكل التنمية المحلية في الجزائر، جامعة الشلف، 2015، ص-ص: 191-199.
- ♦ نبيل الكردي، التجربة الغربية في التوفيق بين التخطيط العمراني والحركة والنقل والمرور، مجلة العمران والتقنيات الحضرية، العدد 03، الأردن، 2008، ص-ص: 13-31.
- ♦ ندى الحلاق، الكولونيالي في الشخصية المحلية في العمارة والعمران، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، العدد 01، مج 28 دمشق، 2012، ص-ص: 247-271.
- ♦ نادية قجال، الوظائف الأساسية للرسم الاستشراقي قبيل وإبان الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي مجلة إنسانيات، العدد 46 وهران، ديسمبر 2009، ص-ص: 127-142.
- ♦ نوبي محمد حسن، الفراغ المعماري من الحداثة إلى التفكيك، رؤية نقدية، مجلة العلوم الهندسية، المجلد 35، العدد 03، جامعة أسيوط، مصر، 2007، ص-ص: 835-851.
- ب- اللغة الفرنسية:

- ♦ M.Bensliman, A.Hamimed, A.Seddini, **Contribution de l'hydraulique médiéval dans la dynamique urbaine du Maghreb, cas de la médina de Tlemcen en Algérie**, In (R) Lorhyss journal ,N°13, Biskra, 2013, p-p:77-93.
- ♦ Bestrand vayssiére, **Relever la France dans les après-guerres :Reconstruction ouraménagement ?**, In(R)guerres mondiales et conflits comtemporains,n°236 Presses universitaires de France, 2009,p-p:45-60.

- ◆ Brosselard Charle, **Les Inscriptions Arabes de Tlemcen**, In (R) Africaine 4^{ème} année, N°19, Arnolet imprimeur-libraire, Constantine, Algérie, 1860, p-p:321-331.
- ◆ Brosselard Charle, **Les Inscriptions Arabes de Tlemcen**, In (R) Africaine 6^{ème} année, N°31, Arnolet imprimeur-libraire, Constantine, Algérie, 1862, p-p:161-172.
- ◆ Deloum Said, **Essai de Synthèse des Etudes Historiques et Archéologiques dans la région de Tlemcen**, In (R) Tribune du Patrimoine Archéologique °1, réalisée par laboratoire : Patrimoine Archéologique et sa valorisation, Université de Tlemcen, 2012, p-p:17-39.
- ◆ F. Primaudaie, **Document Inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique (1506-1674)**, In (R) Africaine Volume 19, Arnolet Imprimeur Libraire, Constantine, Algérie, 1875, p-p:62-77
- ◆ Georges Marçais, **Recherche d'archéologie Musulmane, Honaine**, In (R) africaine Volume 69, Arnolet imprimeur-libraire, Constantine, Algérie, 1928, p-p:333-350.

- ◆ Gilbert Grandguillaume, **Une Médina de l'Ouest Algérien : Nedroma**, In (R) de de l'occident musulman et de la méditerranée n°10, France, 1971, p-p:55-80.
- ◆ Houcine Rahoui, **Les Formes d'appropriation de l'espace urbain Tlemcenien aux époques pré-coloniale et coloniale et Durant la période contemporaine**, In (R) maghrébine de recherche en urbanisme et aménagement, p-p:1-14.
- ◆ Megnounif Abdellatif, Fouad Ghomari, Latifa Sail, **Historicité du matériaux Béton dans la ville de Tlemcen**, In (R) Nature et Technologie, n°05, Université Hassiba Benbouali, Chlef, 2011, p-p:36-42.
- ◆ Mac Carthy, **Algeria Romana, Recherche sur L'occupation et La colonisation de L'Algérie par Les romains**, 2^{ème} partie, In (R) Africaine, Volume 01, Arnolet Imprimeur-Libraire, Constantine, Algérie, 1856, p-p:165-180.

◆ Maria Feng, Yoshio Fukuda, Masato Mizuta, ekin Ozer, **Citizen Sensors for SHM :Use of Accelerometer Data from Smartphones**, Journal Sensors N °15, Department of civil Engineering and Mechanic Engineering, Columbia University, 2015, p-p:2981-2998.

◆ Sidi Mohammed Trache, **Exurbanisation et mobilité résidentielles à Nédroma (1990-2000)**, In (R)Insanyat n°28, CRASC, Oran, 2005, p-p:33-52.

◆ Yan Yu, Ruicong Han, Xuefeng Zahao, Xingquan Mao, weitong Hu Dong Jiao Mingchu Li, Jinping Ou, **Initial validation of mobile-Structural Health Monithoring Method Using Smartphones International Journal of Distributed Sensor Networks**, Article ID 274391, Hindawi Publishing Corporation, China, 2015, p-p:01-14.

◆ الجرائد:

◆ الجريدة الرسمية، القانون 29/90 مؤرخ في 15 جمادى الأولى 1411 هـ، الموافق لـ 02 ديسمبر 1990، متضمن قانون التهيئة والتعمير، السنة السابعة والعشرون، العدد 52، الجزائر، 1990.

◆ الجريدة الرسمية، القانون 04/98 المؤرخ في 22 صفر 1419 هـ الموافق لـ 17 يونيو 1998 المتضمن حماية التراث الثقافي، السنة الخامسة والثلاثون، العدد 44، الجزائر 1998.

◆ الجريدة الرسمية، مرسوم تنفيذي رقم 403/09 المؤرخ في 12 ذي الحجة 1430 هـ، الموافق لـ 29 نوفمبر 2009، متضمن إنشاء القطاع المحفوظ للمدينة العتيقة ندرومة وتعيين حدوده، العدد 71 الجزائر، 2009.

◆ الجريدة الرسمية، مرسوم تنفيذي رقم 404/09 المؤرخ في 12 ذي الحجة 1430 هـ، الموافق لـ 29 نوفمبر 2009، متضمن إنشاء القطاع المحفوظ للمدينة العتيقة تلمسان وتعيين حدوده، العدد 71 الجزائر، 2009.

◆ الجريدة الرسمية، الأمر رقم 281/67 المؤرخ في 19 رمضان 1387هـ، الموافق لـ 20 ديسمبر 1967، يتعلق بالحفريات وحماية الأماكن والآثار التاريخية والطبيعية، السنة الخامسة، العدد 07 الجزائر، 1967.

◆ جريدة البلاد، الصادرة يوم: السبت 21 جانفي 2017، الموافق لـ 22 ربيع الثاني 1437هـ، العدد 5220، ص: 05

◆ الملتقيات:

أ- باللغة العربية:

◆ أوترحوت رشيد، من سياسة المدينة... إلى مدينة السياسة، سوسولوجيا الاحتجاج الاجتماعي بالمجال العام بالمغرب، الملتقى الوطني الثالث والعشرون حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبد اللطيف معزوز، الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، ماي 2012.

◆ رقية عواشيرة، تطبيقات علم الآثار الوقائي في حماية التراث الأثري المطمور في الجزائر، الملتقى الدولي حول أمن وسلامة الآثار والمنشآت السياحية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، من 04 إلى 06 أوت 2015.

◆ عطية الجيار، دور العرب المسلمين في تطوير الزراعة وطرق الري في إفريقيا المسلمة لتحقيق التنمية المستدامة، الملتقى الدولي حول مقومات تحقيق التنمية المستدامة في الاقتصاد الإسلامي، جامعة قلمة 03-04 ديسمبر، الجزائر، 2012.

◆ عامر شاكر الكناني، حولة كريم كوثر، التلوث البصري وتأثيره في المشهد الحضري للمدينة العراقية، (الكاظمية شارعي باب القبلة وباب المراد)، المؤتمر العلمي الخامس حول استراتيجية التنمية والاستثمار المكاني في العراق، معهد التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا، جامعة بغداد، 23 و 24 أكتوبر 2009.

قائمة المصادر والمراجع

- ◆ عبد العزيز محمود لعرج، مدينة هنين: تاريخها وآثارها، الملتقى الدولي الخامس حول التراث العلمي والثقافي لمدينة ندرومة ونواحيها، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006.
- ◆ عبد الرحمن الدكاري، سياسة المدينة بين إكراهات السياسات الحضرية المتعاقبة والرغبة في تجاوز مظاهر الأزمة، الملتقى الوطني الثالث والعشرين حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبد اللطيف معزوز، الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، ماي 2002.
- ◆ عبد القادر أسباعي، هشام لسكع، مصطفى فتان، مدينة وجدة التطور البيئي وتوجهات التهيئة الملتقى الوطني الثالث والعشرين حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبد اللطيف معزوز، الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، ماي 2012.
- ◆ محمد بن هاوي با وزير، إشكالية الحفاظ على التراث العمراني والمعماري التقليدي في اليمن وعلاقة المعمارين والأثريين والمؤرخين بعملية الحفاظ، المؤتمر الهندسي الثاني، كلية الهندسة، جامعة عدن، اليمن، من 30-31 مارس 2009.
- ◆ محمد أزلمات، آليات الحكامة في تدبير سياسة المدينة، الملتقى الوطني الثالث والعشرين حول مدينة صفرو، جمع وتقديم عبد اللطيف معزوز، الشركة العامة للتجهيز والطبع، فاس، 2012.
- ◆ محمود عبد الحافظ محمد آدم، الإرث المعماري الطيني في الواحات المصرية، المخاطر وسبل الحماية والإرتقاء، الملتقى الدولي حول أمن وسلامة الآثار والمنشآت السياحية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، من 04 إلى 06 أوت 2015.
- ◆ مصطفى جباري، ندرومة مدينة تاريخية مهد الموحدين، الملتقى الوطني الأول حول تاريخ مدينة ندرومة وضواحيها، ندرومة، 1987.
- ◆ هدى محروس توفيق، التشكيل المعماري والعمراني وهوية بعض مناطق مدينة القاهرة، ملتقى العمارة والعمران في إطار التنمية المستدامة، جامعة القاهرة، كلية الهندسة، القاهرة، 24-26 فيفري 2004.
- ب- باللغة الفرنسية:

- ◆ Abderrahmane Khelifa, **Honaïne à Travers ses monuments**, Colloque National sur: Honaïne passé et présent, Université d'Oran, Février 1985.
- ◆ Abdelaziz Gawar, **Honaïne et son environnement Agro-maritime caractéristique et vocation économique**, colloque National sur :Honaïne Passé et Présent, Université d'Oran Février 1985.
- ◆ Alfred Berenguer, **Intermède Espagnol (1531-1534)**, colloque national sur Honaïne passé et présent, Université d'Oran, Février 1985.
- ◆ Djilali Sari, **Honaïne: de l'aggravation des disequilibres à l'urgence d'un plan de developpement global**, Colloque National sur Honaïne passé et present, Université d'Oran, Février 1985.

◆ قائمة القواميس:

◆ السيد نصر، معجم مصطلحات الكيمياء، ط01، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2002.

- ◆ Chantal Lambrechts, Line Karoubi, Bruno Durand et autres, **Le petit Larousse en grand format**, dictionnaire Français-français, Maury imprimeur S.A Malsherbes, Paris, 2005.
- ◆ Pélix Gaffiot, **Le Grand Gaffiot, Dictionnaire Latin Français**, revue et augmantée par Pierre Flobert, Hachette livre, Paris, 2000.

◆ قائمة المؤسسات:

◆ وزارة الثقافة، مديرية حماية الممتلكات الثقافية وتشمين التراث الثقافي.

◆ مديرية الأشغال العمومية لولاية تلمسان.

◆ بلدية تلمسان

◆ بلدية ندرومة

◆ بلدية هنين

- ◆ Bureau d'étude agréé en architecture et urbanisme (SARCHI), **plan de protection et de mise en valeur du site archéologique de Mansourah** 1^{er} phase diagnostic et mesure d'urgence, Tlemcen, 2009.

◆ المواقع الإلكترونية:

- www.alkutubcafe.com
- www.urbamag.net/document.PHP
- www.nrc-cnrc.gc.ca
- www.wahmed.kau.edu.sa
- www.encyclopedi-afn.org/index.php/Algérie_chemin_de_fer.
- www.4beographie.com

فهرس الدوائر النسبية و الأعمدة والمنحنيات البيانية
والجداول.

◆ الدوائر النسبية:

120	الدائرة النسبية رقم 01: تبين نسب المعالم الأثرية والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان وفق عينات الدراسة.
144	الدائرة النسبية رقم 02: تبين نسب المعالم الأثرية بمدينة ندرومة وفق العينات المختارة للدراسة.
168	الدائرة النسبية رقم 03: تبين نسب المعالم الأثرية والمواقع الأثرية بمدينة هنين وفق عينات الدراسة.
287	الدائرة النسبية رقم 04: تبين النسبة المئوية لسكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1836.
288	الدائرة النسبية رقم 05: تبين النسبة المئوية لفتات سكان مدينة تلمسان سنة 1845.
291	الدائرة النسبية رقم 06: تبين عدد سكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1851م.
379	الدائرة النسبية رقم 07: تبين النسبة المئوية الخاصة بالنسيج المعماري العتيق والتكوين المعماري المستحدث من قبل المستعمر.
382	الدائرة النسبية رقم 08: تبين النسبة المئوية الخاصة بالمباني المنجزة إلى غاية سنة 1966.
386	الدائرة النسبية رقم 09: تبين النسبة المئوية الخاصة بمحالات المباني المكونة للنسيج العمراني لمدينة تلمسان العتيقة.
390	الدائرة النسبية رقم 10: تبين النسب المئوية الخاصة بالمباني المنجزة قبل دخول المستعمر وفي فترة الاحتلال وبعد الاستقلال في مدينة تلمسان العتيقة.
395	الدائرة النسبية رقم 11: تبين حالة النسيج المعماري لمدينة تلمسان العتيقة في سنة 1998.
464	الدائرة النسبية رقم 12: تبين النسب المئوية الخاصة بالعناصر المعدنية المكونة لعينة طايا سور المنصورة.
464	الدائرة النسبية رقم 13: تبين النسب المئوية الخاصة بالعناصر المعدنية المكونة لعينة طايا سور مدينة هنين.

◆ الأعمدة البيانية:

120	الأعمدة البيانية رقم 01: تبين المعالم والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان وفق العينة المختارة للدراسة.
145	الأعمدة البيانية رقم 02: تبين أعداد المعالم الأثرية بمدينة ندرومة وفق العينة المختارة للدراسة.
168	الأعمدة البيانية رقم 03: تبين أعداد المعالم والمواقع الأثرية بمدينة هنين وفق العينة المختارة للدراسة.
296	الأعمدة بيانية رقم 04: تبين المسار التطوري لسكان مدينة تلمسان من سنة 1911 إلى غاية سنة 1960م.
307	الأعمدة البيانية رقم 05: تبين عدد الذكور والإناث والأطفال في فئة السكان الأصليين واليهود بمدينة ندرومة العتيقة سنة 1867م.
465	الأعمدة البيانية رقم 06: تبين أهم العناصر المعدنية البارزة في عيني طايبا سور المنصورة ومدينة هنين.

◆ المنحنيات البيانية:

299	للمنحني البياني رقم 01 يبين للمسار التطوري للعدد الإجمالي لسكان مدينة تلمسان وسكان للمدينة العتيقة بعد الاستقلال.
307	للمنحني البياني رقم 02: يبين للمسار التطوري لعدد سكان الحي القصديري بودغن من سنة 1950 إلى غاية سنة 2013.
311	للمنحني البياني رقم 03: يوضح للمسار التطوري لسكان مدينة ندرومة في الفترة الاستعمارية (1867-1960).
315	للمنحني البياني رقم 04: يبين مسار تطور العدد الإجمالي لسكان مدينة ندرومة بعد الاستقلال (1966-2008).
323	المنحني البياني رقم 05: يبين المسار التطوري لسكان مدينة هنين في الفترة الاستعمار.
327	المنحني البياني رقم 06: يبين المسار التطوري لسكان مدينة هنين بعد الاستقلال.
462	للمنحني البياني رقم 07: يبين مسار نمو المركبات الآلية في مدينة تلمسان وندرومة وهنين من سنة 2015 إلى سنة 2016.

فهرس الدوائر النسبية و الأعمدة والمنحنيات البيانية

469	المنحنى البياني رقم 08: يبين حدود الأمان الخاصة بالمباني على اختلافها المنصوص عليها في المعيار الدولي DIN 4150.
474	المنحنى البياني رقم (09): يبين معدل تساقط الأمطار لسنة 2017، ومتوسط ثمانية سنوات الماضية.
481	المنحنى البياني رقم 10: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور X عند سكة الحديد.
482	المنحنى البياني رقم 11: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y عند سكة الحديد.
482	المنحنى البياني رقم 12: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Z عند سكة الحديد.
482	المنحنى البياني رقم 13: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور X في المنتصف.
483	المنحنى البياني رقم 14: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y في المنتصف.
483	المنحنى البياني رقم 15: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Z في المنتصف.
483	المنحنى البياني رقم 16: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور X عند الحائط.
484	المنحنى البياني رقم 17: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y عند الحائط.
484	المنحنى البياني رقم 18: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Z عند الحائط.
486	المنحنى البياني رقم 19: يبين مسار الموجات الاهتزازية (Z, Y, X) في عند نقاط التسجيل.
522	المنحنى البياني رقم 20: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور X فوق المرتفع الترابي.
522	المنحنى البياني رقم 21: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y فوق المرتفع الترابي.
523	المنحنى البياني رقم 22: يبين تسارع الاهتزازات الخاص بالمحور Y فوق المرتفع الترابي.

◆ فهرس الجداول:

119	الجدول رقم 01: يبين أنواع المعالم الأثرية والمواقع الأثرية وعددها وفق العينات المختارة للدراسة بمدينة تلمسان.
143	الجدول رقم 02: يبين أنواع المعالم الأثرية وعددها وفق العينات المختارة للدراسة بمدينة ندرومة.
167	الجدول رقم 03: يبين أنواع المعالم الأثرية والمواقع الأثرية وعددها وفق العينات المختارة للدراسة بمدينة هنين.
286	الجدول رقم 04: يبين عدد سكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1836.
288	الجدول رقم 05: يبين عدد سكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1845.
290	الجدول رقم 06: يبين عدد سكان مدينة تلمسان وانتمائهم العرقي سنة 1851.
295	الجدول رقم 07: يبين عدد سكان مدينة تلمسان من سنة 1911 إلى غاية سنة 1960.
299	الجدول رقم 08: يبين عدد سكان مدينة تلمسان الإجمالي والمدينة العتيقة من إحصاء سنة 1966 إلى سنة 2008.
301	الجدول رقم 09: يبين عدد سكان حي بودغن القصديري بدءاً من سنة 1950 إلى سنة 2013.
305	الجدول رقم 10: يبين مساحة مدينة ندرومة العتيقة سنة 1867 ونوعية الملكية الموجودة بها.
306	الجدول رقم 11: يبين عدد الذكور والإناث والأطفال في فئتي السكان الأصليين واليهود بمدينة ندرومة العتيقة سنة 1867م.
314	الجدول رقم 12: يوضح العدد الإجمالي لسكان مدينة ندرومة بعد الاستقلال.
322	الجدول رقم 13: يبين عدد سكان مدينة هنين ونسبة نموهم مقارنة بالمعدل الوطني آنذاك في الفترة الاستعمارية.
327	الجدول رقم 14: يبين عدد سكان مدينة هنين بعد الاستقلال (1966-2008).
384	الجدول رقم 15: يمثل نسبة نمو السكان والمسكن ببعض الأحياء التي رافقت ظهور تنمية حضرية في المدينة سنة 1977م.
385	الجدول رقم 16: يوضح عدد المباني الموجودة بالنسيج العماري وفقاً للحالة الجيدة والمهتدة بالانهيار والمتوسطة والجيدة في سنة 1991م.

فهرس الدوائر النسبية و الأعمدة والمنحنيات البيانية

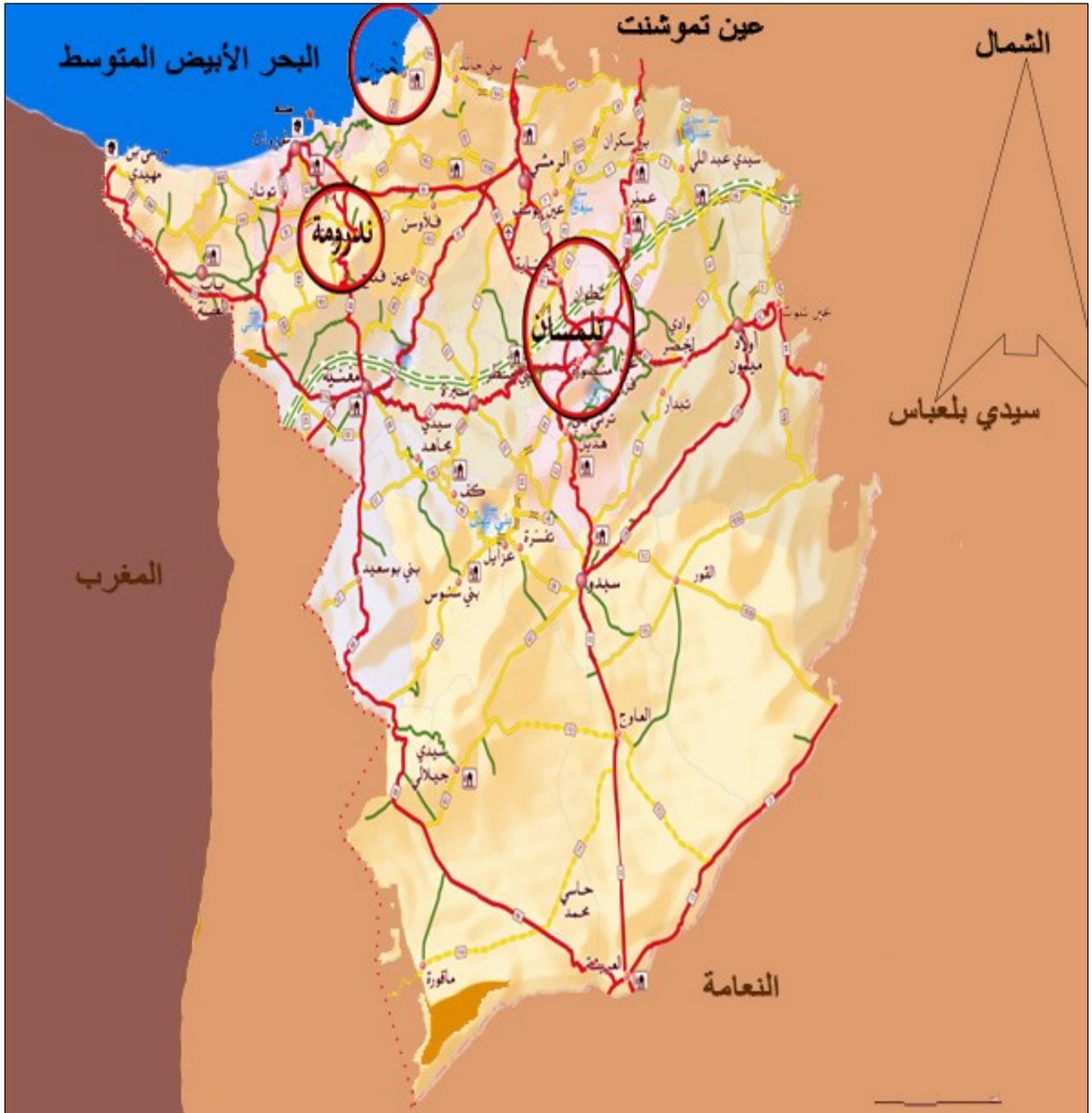
389	الجدول رقم 17: يبين عدد المباني وفق الفترة التي أُبْنِز فيها بالقطاع المحفوظ في مدينة تلمسان.
391	الجدول رقم 18: يبين التعديلات المستحدثة بعينة من المساكن الموجودة في أحياء المدينة العتيقة وعددها.
393	الجدول رقم 19: يبيّن جزء من النسيج المعماري لحيّ باب زير وما تمّ استحداثه بدروبه.
395	الجدول رقم 20: يبين حالة النسيج المعماري لمدينة تلمسان وعدد كل حالة سنة 1998.
461	الجدول رقم 21: يبين عدد المركبات الآلية بكل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين لسنة 2015.
461	الجدول رقم 22: يبين عدد المركبات الآلية بكل من مدينة تلمسان وندرومة وهنين لسنة 2016.
463	الجدول رقم 23: يبين وزن كل عنصر من العناصر المعدنية المكونة لكل من عينة طابيا سور الموقع الأثري المنصورة وسور مدينة هنين.
467	الجدول رقم 24: يبين نتيجة التحليل الكيميائي لعينة ماء المطر المستقاة من مدينة تلمسان (موقع المنصورة).
467	الجدول رقم 25: يبين نتيجة التحليل الكيميائي لعينة ماء المطر المستقاة من مدينة هنين (الأسوار).
468	الجدول رقم 26: يبين حجم غاز ثاني الكربون CO_2 وغاز ثاني أكسيد الكبريت SO_2 في عيني الماء المقطر المستقى من مدينة هنين وتلمسان.
473	الجدول رقم 27: يبين القيمة القصوى للتسارع المنصوص عليه في المعيار الدولي DIN 4150.
476	الجدول رقم 28: يبين تاريخ الأمر بالخدمة والبرنامج الزمني لخط السكة الحديدية المار بالموقع الأثري منصورة.

فهرس الدوائر النسبية و الأعمدة والمنحنيات البيانية

486	الجدول رقم 29: يبين قيم التسارع القصوى الخاصة بالموجات الاهتزازية (Z,Y,X) الناتجة عن حركة مرور القطار عند نقاط التسجيل.
489	الجدول رقم 30: يوضح المعيار ISO/TC/108/SG-2 المحدد للقيم القصوى لمخاور الاهتزاز والضرر الناتج عنها.
523	الجدول رقم 31: يبين القيم القصوى لتسارع الاهتزازات المسجلة فوق المرتفع الترابي.

الملحق

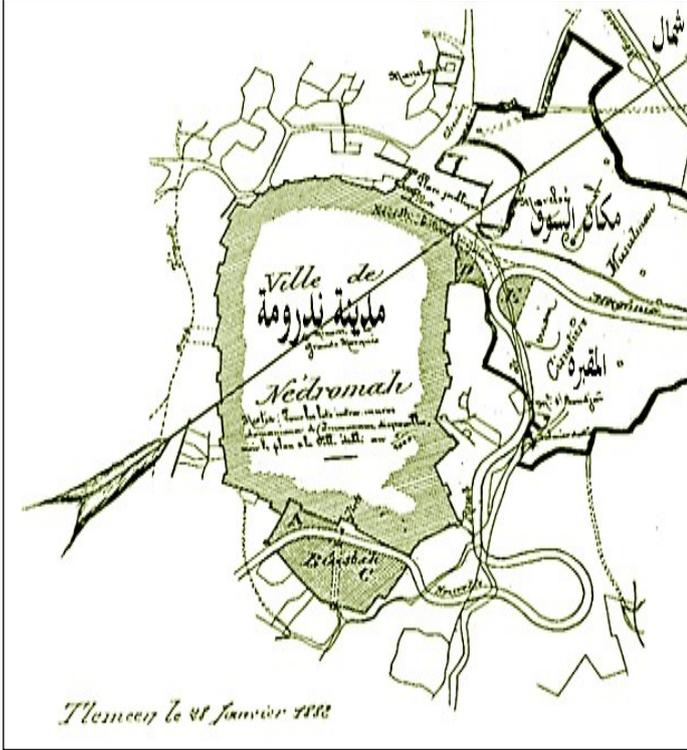
الخرائط والمخططات



الخريطة رقم 01: تبين مكان تموضع مدينة تلمسان وندرومة وهنين في منطقة تلمسان، عن:

www.startimes.com

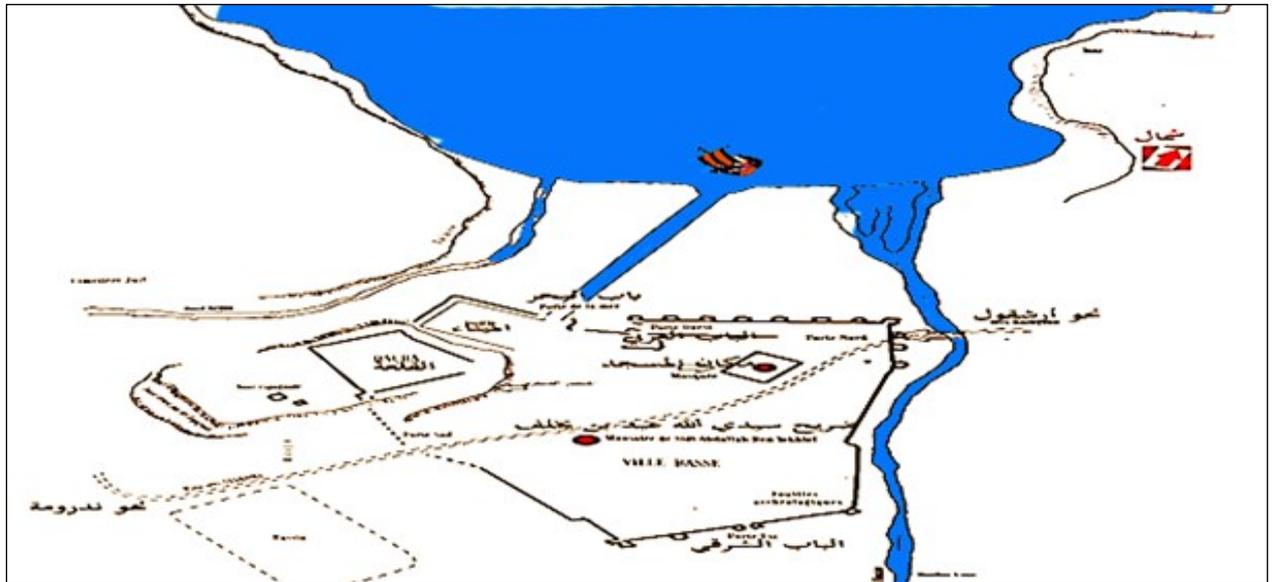
الخرائط والمخططات



المخطط رقم 02: يبين حدود التصميم العمراني لمدينة ندرومة
سنة 1882، عن

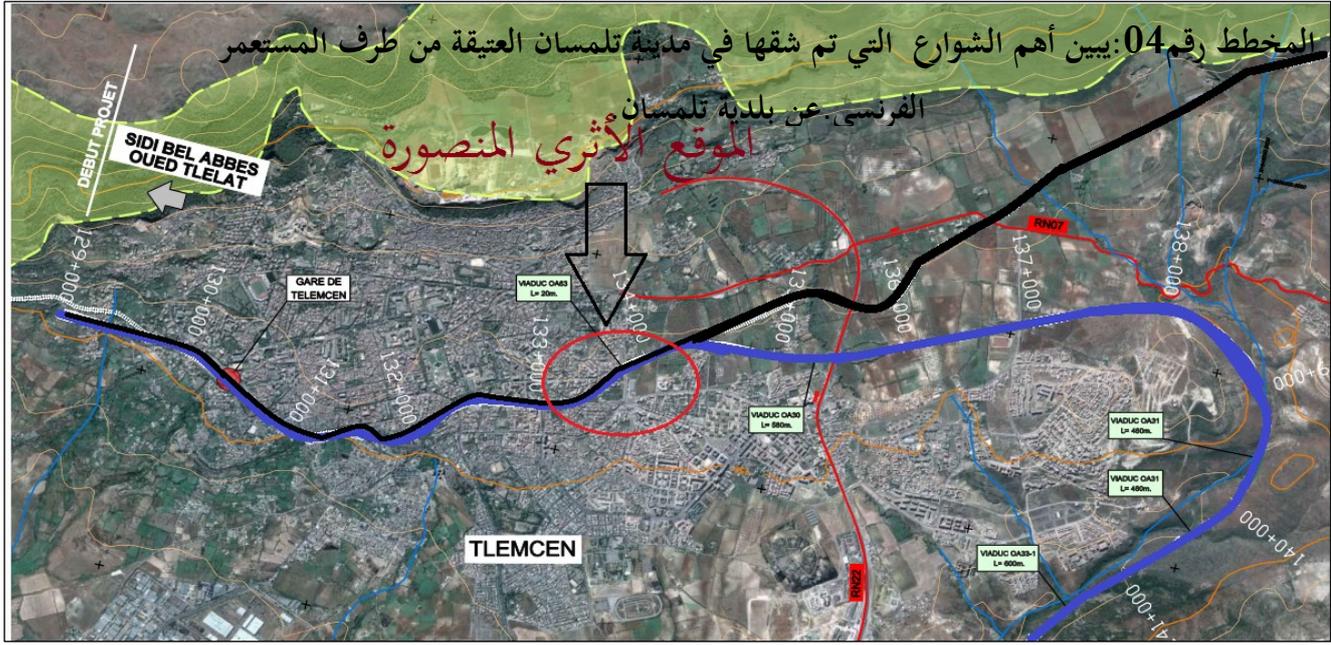
المخطط رقم 01: يبين حدود التصميم العمراني لمدينة تلمسان الفترة
الوسطى، عن William et George Marçais, Op.cit.,:114

Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit, p :180



المخطط رقم 03: يبين حدود التصميم العمراني لمدينة هنين، عن:
Abderrahmane Khelifa, Honaïne Ancien..., Op.cit, p:180

الخرائط والمخططات



المخطط رقم (05): يبين مسار خط السكة الحديدية القديم باللون الأسود والجديد باللون الأزرق (LGV) اللذين بالقرب من السور الشمالي المنصورة. عن مديرية النقل لولاية تلمسان.



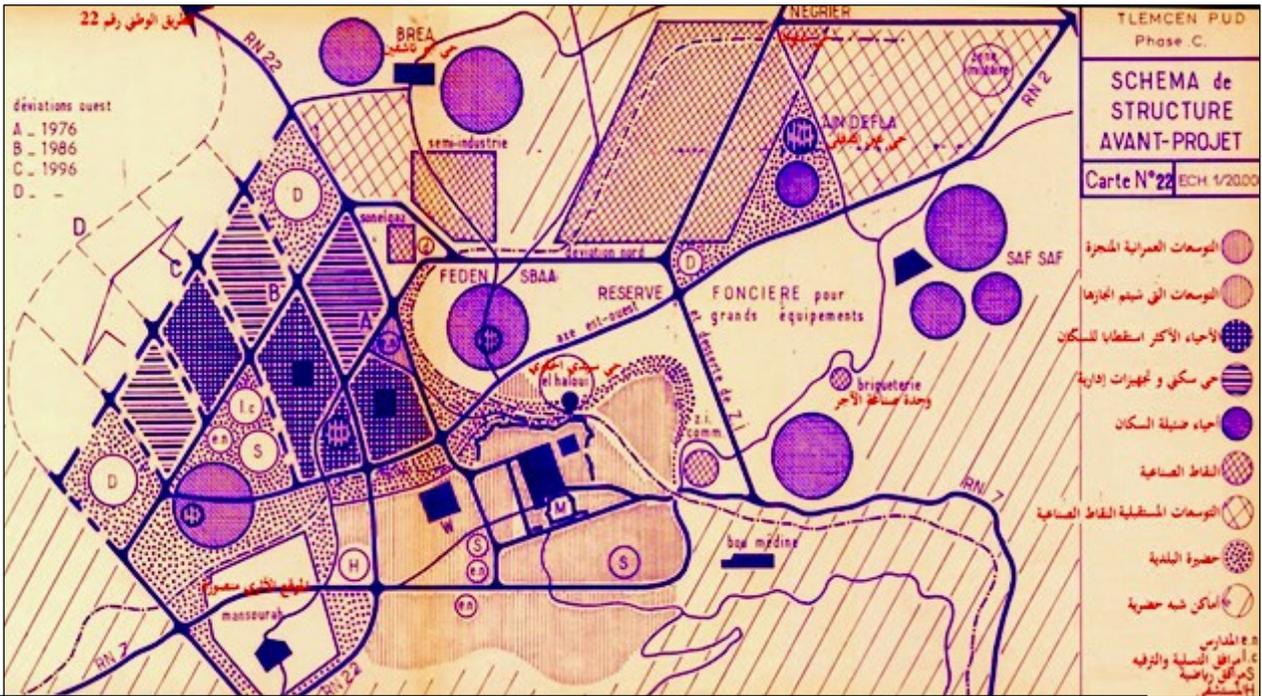


المخطط رقم 08: يبين تلوث المجال البصري لمدينة تلمسان العتيقة نهاية القرن 19م.

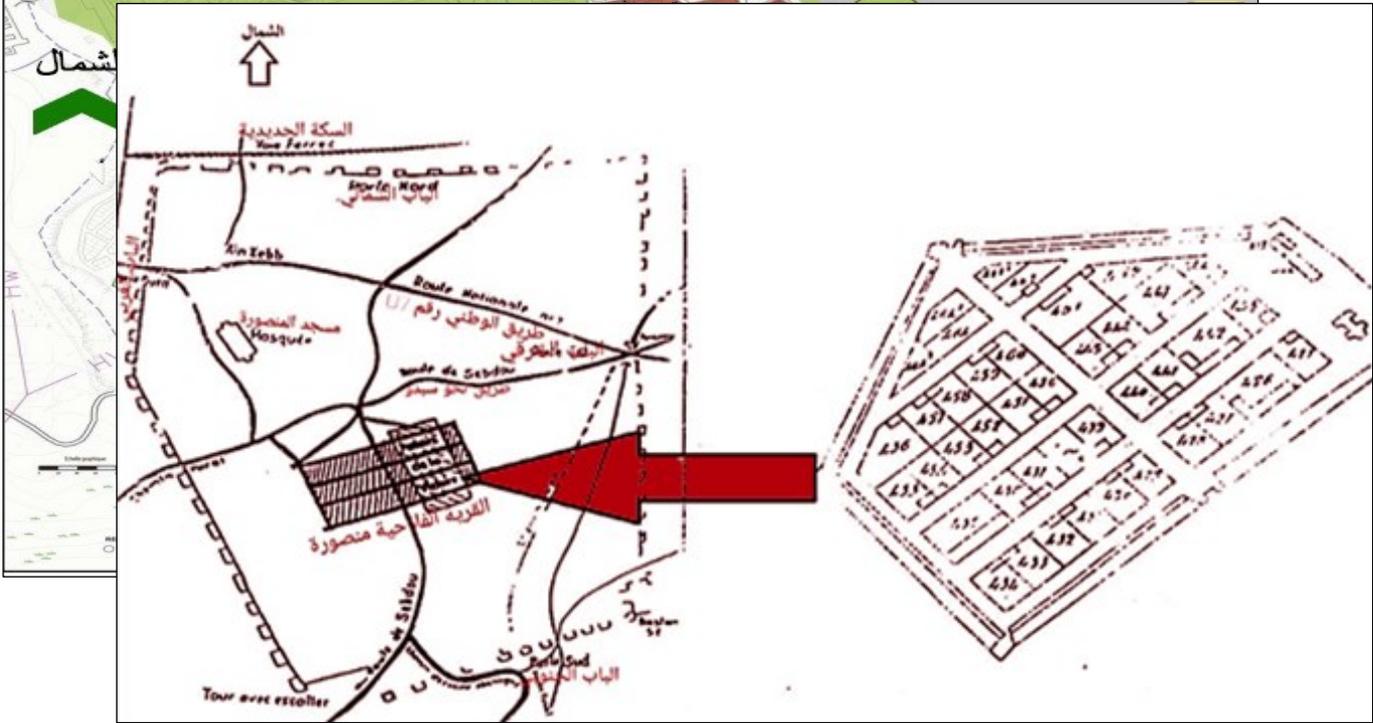
عن Abdelkader Tahar, Op.cit.p:210

المخطط رقم 09: يبين التوسع العمراني المنجز بمدينة تلمسان إلى حدود سنة 1970. عن: بلدية تلمسان.

الخرائط والمخططات

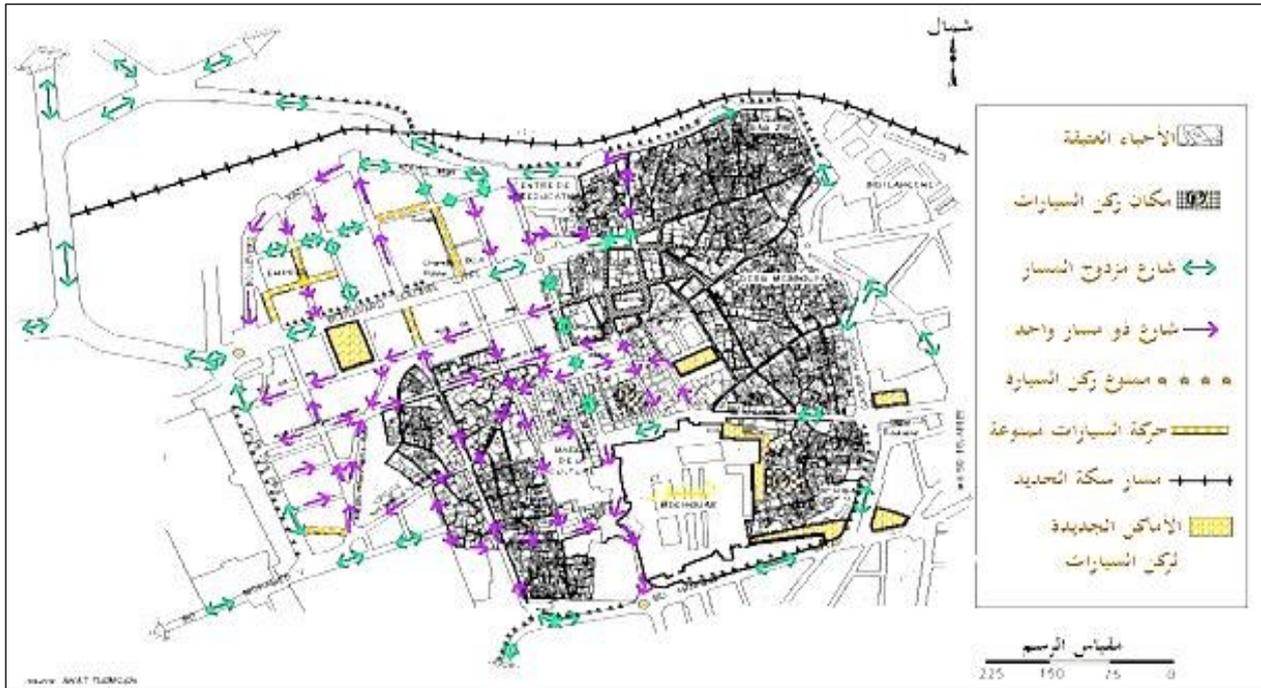


حدود سنة 1996



المخطط رقم (13): يوضح القرية الفلاحية المنجزة في الموقع الأثري المنصورة، عن المخطط رقم (14): يوضح الإحداثيات الجغرافية للموقع الأثري والمنصورة. عن: SARCHI, plan de protection, Op.cit, p:78

Lahcene Khattabi, Op.cit, p:103

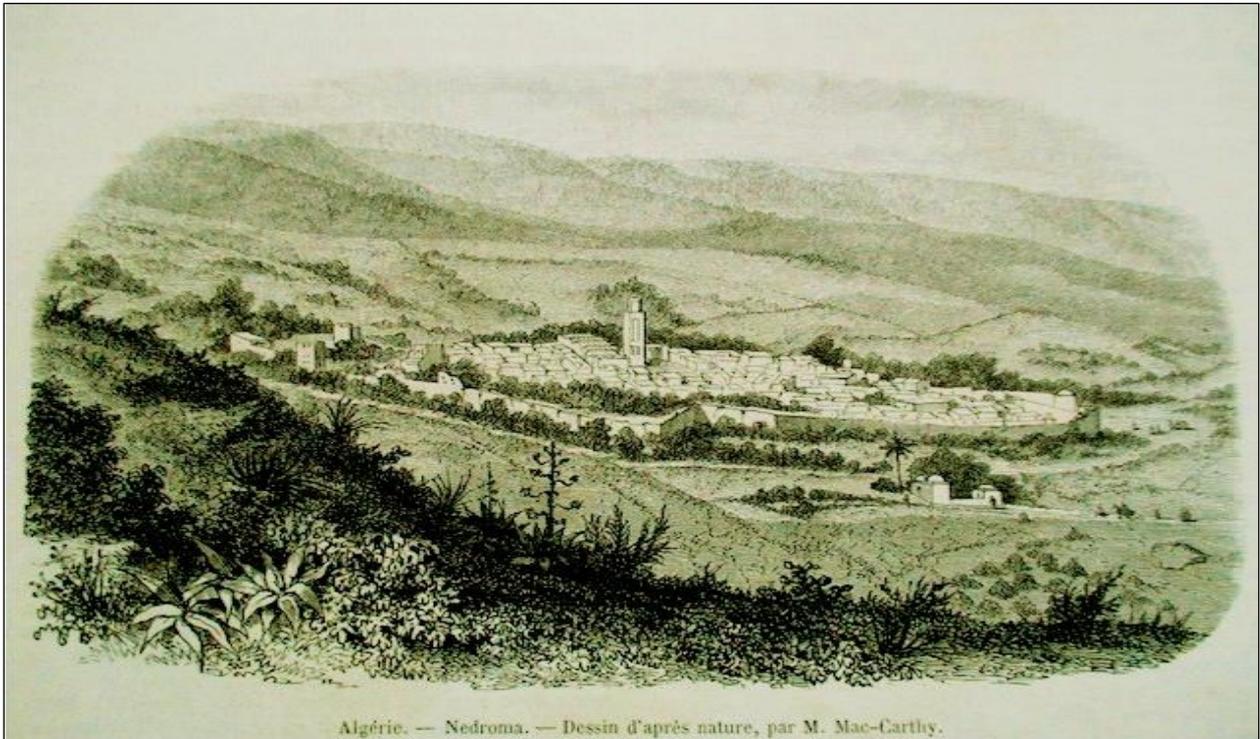


المخطط رقم (16): يبين المسار المخصص للمركبات الآلية داخل النسيج التاريخي لمدينة، عن: الوكالة الوطنية لهيئة الإقليم تلمسان، عن: الوكالة الوطنية لهيئة الإقليم (ANAT).

الصـور



الصورة رقم(01): تبيين منظر لمدينة تلمسان في بداية القرن العشرين، عن:Oran2.Free.Fr



الصورة رقم(04): تبيين رسم لمنظر عام لمدينة ندرومة في القرن19م من طرف ماك كارتني Mac
Carthy، عن: gravures-anciennes.fr



الصورة رقم (05): تبين منظر عام لما تبقى من مدينة هنين في نهاية القرن 19م، عن:

tlemcenetalandalouspromis.blogspot.com



الصورة رقم (06): تبين الامتداد العمراني الذي وصلت إليه مدينة تلمسان في الوقت الراهن، عن:

www.googleearth.com



الصورة رقم (08): تبين الإزدواجية الحضارية بوسط مدينة تلمسان وتغيّر خط السماء. عن: tlemcen.e-



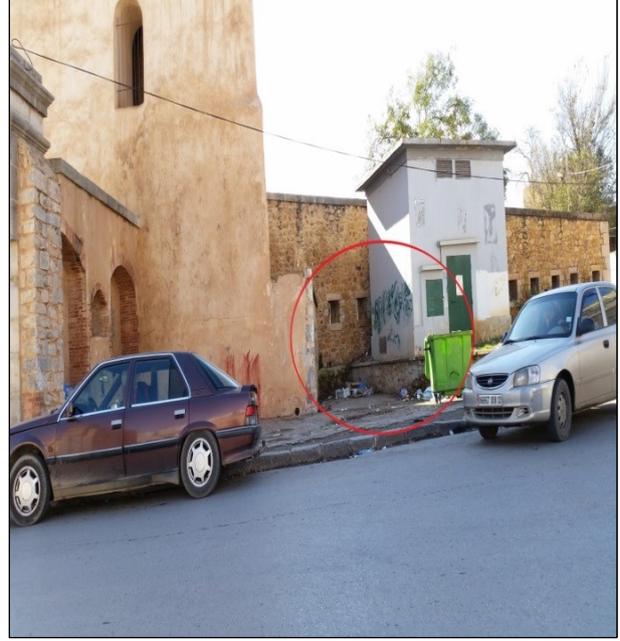
الصورة رقم (10): تبين مكان التصاق إشارة المرور بمسجد البناء.

الصورة رقم (09): تبين مكان التصاق إشارة المرور بالجامع المرابطي.

الصور

الصورة رقم(11): تبين تجاور لوحات الإشهار والتصاق إشارة المرور مع السور الشمالي للمشور.

اللوحه رقم (01): تبين عينة من المعالم الأثرية التي تعرضت للتلوث البصري النقطي بإشارات المرور واللوحات الإشهارية بمدينة تلمسان العتيقة.



الصورة رقم (13): تبين رمي القمامة في مسكن عتيق منهار في حي الرحبية.

الصورة رقم(12): تبين رمي القمامة بالقرب من باب الحديد.



الصورة رقم(15): تبين تكديس أكوام القمامة

تحت إحدى سقيفة بحي سيدي الجبار.

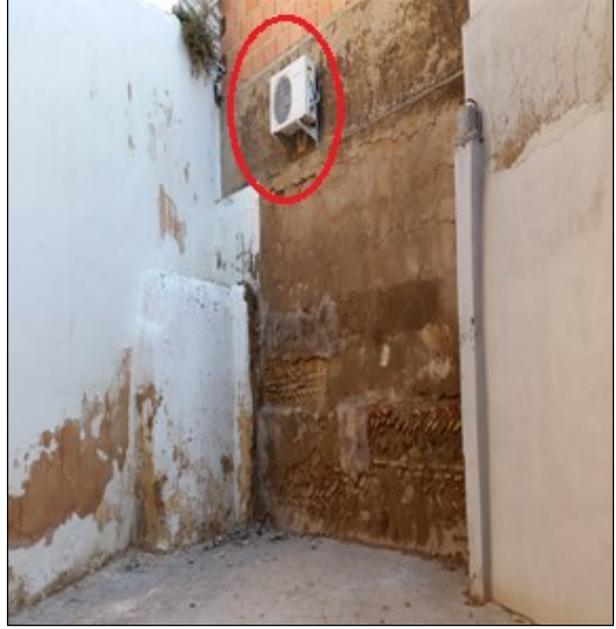
الصورة رقم(14): تبين رمي القمامة بالجهة

الشمالية الشرقية من حي باب زير.

اللوحه رقم(02): تبين الإهمال الذي طال النسيج العمراني لمدينة تلمسان نتيجة تكديس القمامة في دروبها وأحيائها.



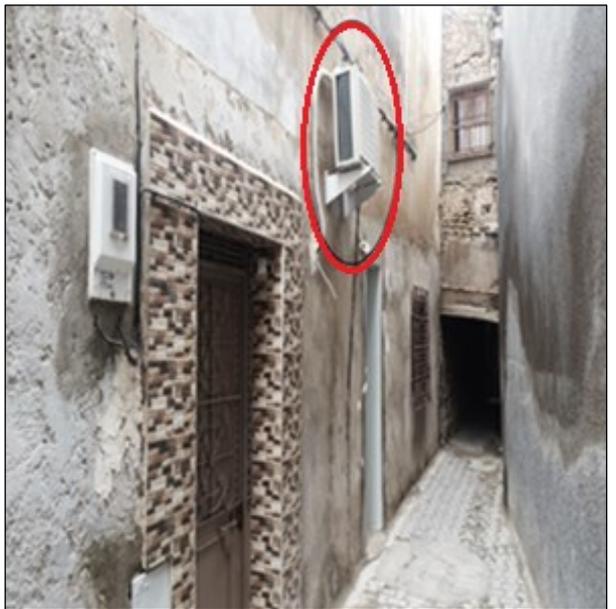
الصورة رقم(17): تبين التصاق مكيف هوائي بجدار مسكن في درب القرن الكبير.



الصورة رقم(16): تبين التصاق مكيف هوائي بجدار مسكن في درب مسوفة.



الصورة رقم(19): تبين التصاق مكيف هوائي بجدار مسكن في حي باب علي.



الصورة رقم(18): تبين التصاق مكيف هوائي بجدار مكسن في حي باب زير.

اللوحة رقم (03): تبين عينة من المعالم الأثرية التي تعرضت للتلوث البصري النقطي بالمكيفات الهوائية في مدينة تلمسان العتيقة.



الصورة رقم(21): تبين مقعرين هوائيين يعلوان مسكن في حي الرحبية.



الصورة رقم(20): تبين مقعرات هوائية تعلو سقف مسكن في حي باب زير.



الصورة رقم(23): تبين مقعر هوائي يعلو سقف مسكن في درب مسوفة.



الصورة رقم(22): توضح مقعرات هوائية تعلو سقف مسكن في حي سيدي الجبار.

اللوحة رقم (04): تبين عينة من المعالم الأثرية التي تعرضت للتلوث البصري النقطي بالمقعرات الهوائية في مدينة تلمسان العتيقة.



الصورة رقم (25): توضح العدّادات الملتصقة بمسكن وسقيفة في حي القرّان الكبير.



الصورة رقم (24): توضح العدّادات الملتصقة

بواجهة مسجد لالة الرؤية.

الصورة رقم (27): توضح العدّادات الملتصقة

بجدار مسكن في درب مسوفة.



الصورة رقم (29): توضح عمود إنارة على شكل

زاوية قائمة ملتصق بمسكن في حي القران.

المعالم الأثرية التي تعرضت للتلوث البصري النقطي عدّادات الماء بهرباء والغاز في مدينة تلمسان العتيقة.



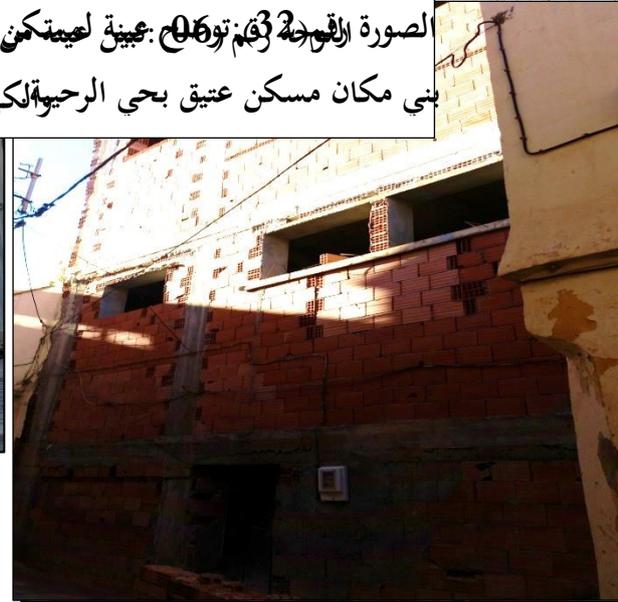
الصورة رقم (28): توضح تحاور عمود كهربائي

مع مسكن في حي سيدي الجبّار.



الصورة رقم (31): توضح تجاور عمود تتفرع عنه أسلاك كهربائية مع مسجد سيدي بلحسن.

الصورة رقم (32) رقم (33): عييق لعيمتكن عموالي الأشوية التي العرورة القلم 33 الجوري النقطية عطلان الالمالماكن بني مكان مسكن عتيق بحي الرحوية الكهرياء والغاز في مدينة تلمسان شمال العتيق قدنة تلمسان العتيقة.



الصور



الصورة رقم (35): توضح مدخل لأحد المساكن التي تبقت بحالة جيدة في مدينة تلمسان.



الصورة رقم (34): توضح عينة عن المساكن المتوسطة بمدينة تلمسان العتيقة.

اللوحة رقم (07): تبين أهم حالات المباني التي تؤلف النسيج العمراني للمدينة العتيقة تلمسان.



الصورة رقم (37): توضح النفق المشهور لمنظر الأبراج الشرقية للموقع الأثري منصور.



الصورة رقم (36): توضح عينة عن المساكن الفوضوية المبنية داخل الموقع الأثري منصور.

اللوحة رقم (08): تبين أهم عينات التلوث البصري الكتلي الذي اعترى الملمح العام للموقع الأثري المنصورة.



اللوحه رقم (09): تبين عينة عن المظاهر الحضريه المتسببه في حدوث تلوث بصري كتلي.



الصورة رقم (45): توضح المساكن المنجزه بالجهة الشرقية لحي الخربه في الفترة الاستعمارية.

الصورة رقم (44): تبين مقر البلدية المنجزه في الفترة الاستعمارية بمدينة ندرومة، عن:

nedromascout.own0.com

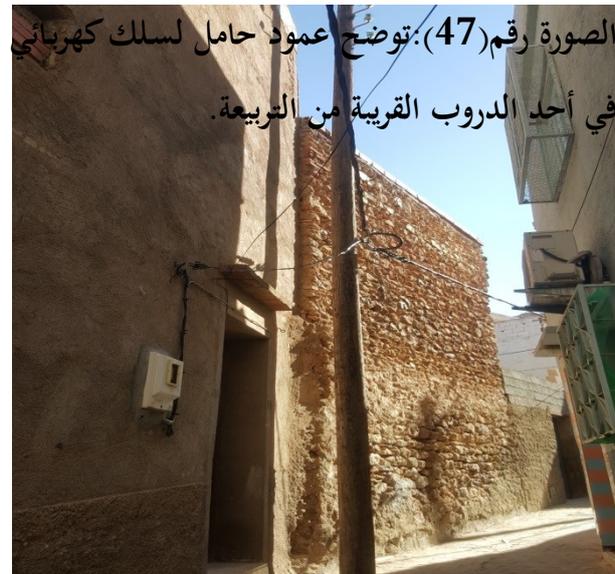
الصورة رقم (46): تبين الامتداد العمراني الذي وصلت إليه مدينة ندرومة في الوقت الراهن، عن:

www.google earth.com

اللوحه رقم (10): تبين التلوث البصري الكتلي والمورفولوجي الذي خضعت له مدينة ندرومة العتيقة.

الصورة رقم (48): توضح عمود حامل لسلك كهربائي في أحد دروب سيدي بوعلي.

الصورة رقم (47): توضح عمود حامل لسلك كهربائي في أحد الدروب القريبة من التريبعة.





الصورة رقم(50):توضح تمرير أسلاك كهربائية في سقيفة درب رأس الجماعة.



الصورة رقم(49):توضح عمود تتفرع عنه أسلاك كهربائية في أحد دروب حي بني زيد .

اللوحة رقم(11):تبين التلوث البصري الخطي الذي اعترى ملمح الخارجي لمباني مدينة ندرومة العتيقة.



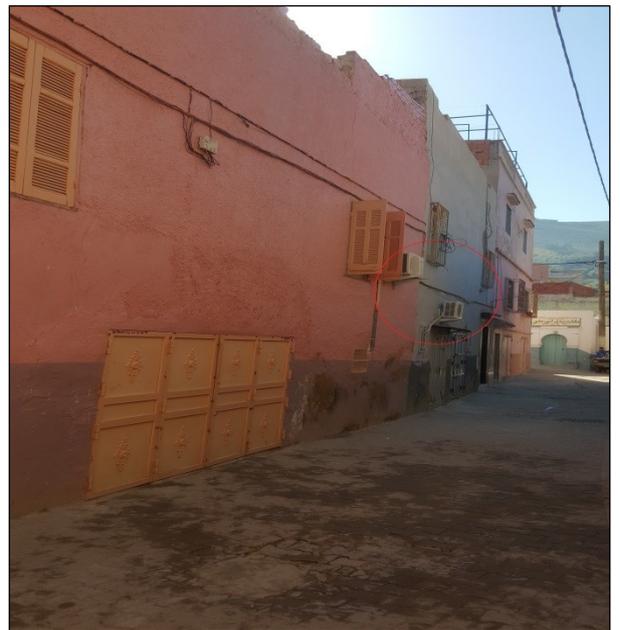
الصورة رقم(52):توضح إلتصاق مكيف هوائي بأحد مساكن القرية من الجامع الكبير.



الصورة رقم(51):توضح إلتصاق مكيف هوائي بأحد مساكن حي بني زيد.



الصورة رقم(54):توضح إلتصاق مكيف هوائي بالمسكن المجاور القدرين.



الصورة رقم(53):توضح إلتصاق مكيف هوائي بمسكنين في حي سيدي بوعلی.

اللوحة رقم(12):تبين التلوث البصري النقطي الذي اعتري ملامح مدينة ندرومة بسبب المكيفات الهوائية.

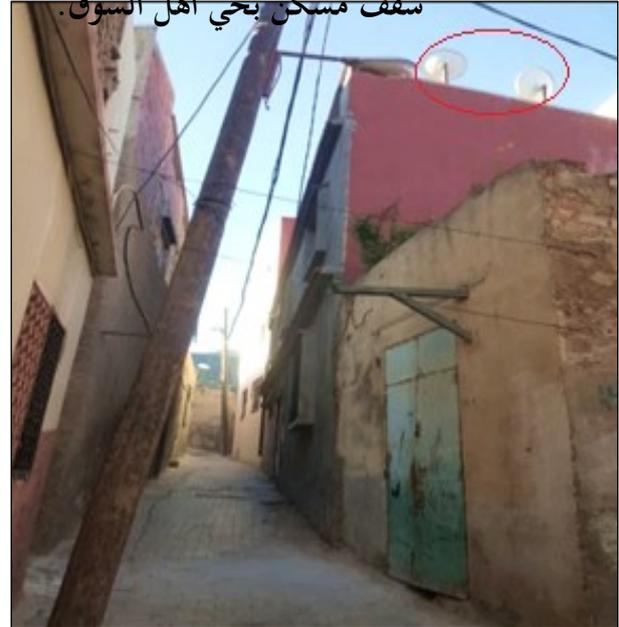


الصورة رقم (56): توضح مقعر هوائي ملتصق

ضخ مقعران هوائيان فوق

الجدارة مسكن رقم (58): توضح مقعران هوائيان فوق

مقعران هوائيان فوق سقف



سقف مسكن بحي أهل السوق.

اللوحة رقم (13): تبين التلوث البصري النقطي الذي اعتري مملح مدينة ندرومة بسبب المقعرات الهوائية.



الصورة رقم(60):توضح الرطوبة الناجمة عن عداد الماء في مسكن بحي بني زيد.



الصورة رقم(59):توضح العدّات الملتصقة بجدار مسكن في حي سيدي بوعلي.



الصورة رقم(62):توضح عداد الماء والغاز ملتصقة بجدار مسكن قرب التريبعة.

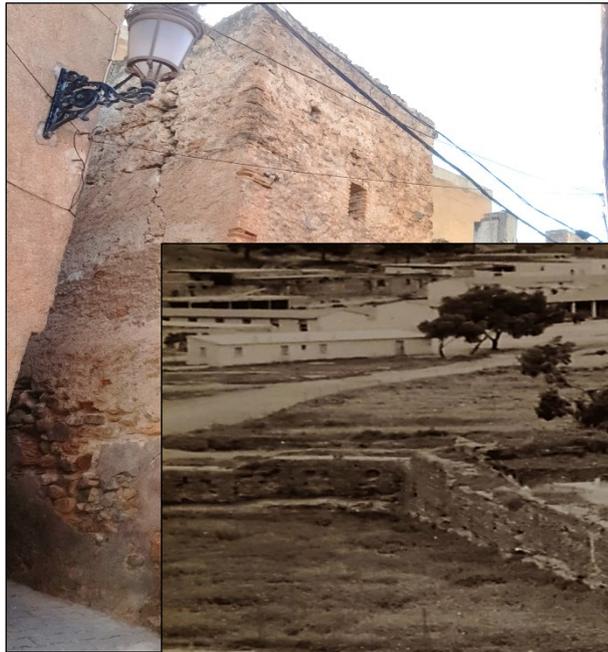


الصورة رقم(61):توضح عداد الماء والغاز ملتصقة بجدار مسكن خلف الحمام البالي.

اللوحه رقم(14):تبين التلوث البصري النقطي الذي اعتري ملمح مدينة ندرومة بسبب عدادات الماء والكهرباء.



عينة عن المساكن العتيقة
العتيقة.



الصورة رقم (66): توضح عينة عن المساكن العتيقة
جيدة الحالة

المباني التي تؤلف النسيج العمراني للمدينة العتيقة ندرومة.



الصورة رقم (67): تبين المساكن المنجزة من قبل المستعمر الفرنسي قرب باب السنون، عن:
Abderrahmanekhelifa, Honaine ancien....., Op.cit,p:228
الصورة رقم (68): تبين مسكن حارس العابة المنجز في الفترة الاستعمارية.



الصورة رقم(69): تبين الامتداد العمراني الذي وصلت إليه مدينة ندرومة في الوقت الراهن، عن:

www.google earth.com



الصورة رقم(71): تجاور مولد وعمود كهربائي مع الجدار الشرقي لمدينة هنيين.



الصورة رقم(70): تجاور المساكن العمودية الإسمنتية مع السور الشرقي لمدينة هنيين

اللوحة رقم(16): تبين التلوث البصري الكتلي والنقطي والخطي الذي اعتري الملمح العام للمدينة وسورها الشرقي.



الصورة رقم (73): توضح وضع مقعر هوائي فوق السور الشرقي لمدينة هنين.



الصورة رقم (72): توضح تجاور مباني عمودية إسمنتية مع الباب الغربي.



الصورة رقم (75): توضح تجاور مولّد الكهرباء وموزع الإشارة مع ضريح سيدي إبراهيم الآبلي.

البصري الكتلي والنقطي والخطي الذي اعترى المعالم التاريخية لمدينة هنين.



الصورة رقم (84): توضح ظهور أفواص الجدران أثناء مباشرة مشروع قسم الصيدلة في الطب.
الصورة رقم (85): توضح مواصلة إنجاز المشروع عقب ظهور بقايا أثرية المتمثلة في أفواص الجسر.



الصورة رقم (87): توضح الملعب المنجز مكان الموقع الأثري الروماني المشار إليه في مخطط شغل الأراضي (POS).



الصورة رقم (86): توضح تهديم جزء من السور الغربي للموقع الأثري منصوره لإنجاز الطريق الوطني رقم 07.



الصورة رقم (90): تبين الجزء المتبقي من السور الموجود داخل المسكن رقم 18 بحي قباسة.



الصورة رقم (89): توضح الجزء المحفور من ساحة البشير الإبراهيمي.

اللوحة رقم (18): تبين عينة من عمليات التهديم التي طالت المعالم التاريخية والمواقع الأثرية في مدينة تلمسان.



الصورة رقم(91):توضح مباشرة أشغال محل تجاري في الجهة الشمالية من درب مسوفة بعد تحطيم مسكن عتيق.



الصورة رقم(93):توضح تمتت اشغال البناء بعد تهيئة المسكن واستخراج الأتربة.



الصورة رقم(92):توضح تهيئة مسكن عتيق بحي الرحبية السفلي.

اللوحة رقم(19):تبين عملية التحطيم والبناء في درب مسوفة وحي الرحبية السفلي بمدينة تلمسان العتيقة.



الصورة رقم(95):توضح حفر موقع لبناء مقر الحماية المدنية في الموقع الأثري الميناء بمدينة هنين.



الصورة رقم(94):توضح ما تبقى من البرج البحري بعد تحطيمه أثناء إعادة تهيئة مشروع الميناء سنة 1988.



الصورة رقم(96):توضح المقر الجديد لبلدية هنين المنجز فوق الموقع الأثري داخل الأسوار سنة 2008.

اللوحة رقم(20):تبين عملية التحطيم والحفر والبناء فوق الموقع الأثري لمدينة هنين لتجديد مجالها الحضري.



الصورة رقم(97):توضح أشغال التهيئة في الموقع الأثري الميناء بمدينة هنين من طرف شركة كوسيدار.

فهرس الموضوعات

الإهداء

أ

مقدمة

ح

الملخص

الفصل التمهيدي: النسيج العمراني للمدينة الإسلامية.

02	مفهوم المدينة
05	عوامل تأسيس المدينة
07	شكل المدينة العتيقة وتكوينها العمراني
10	النواة المركزية للمدينة
11	الفضاء التجاري للمدينة
13	الفضاء السكني للمدينة
19	العمارة الدينية الإسلامية
23	العمارة المدنية الإسلامية
25	العمارة العسكرية الإسلامية
29	خلاصة الفصل التمهيدي
30	الباب الأول: الإطار الجغرافي والتاريخي والأثري لمدينة تلمسان وندرومة وهنين.
31	الفصل الأول: اللوحة الجغرافية والتاريخية.
33	اللوحة الجغرافية والتاريخية لمدينة تلمسان
33	اللوحة الجغرافية
36	اللوحة التاريخية

49	اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة ندرومة
49	اللمحة الجغرافية
53	اللمحة التاريخية
60	اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة هنين
60	اللمحة الجغرافية
62	اللمحة التاريخية
71	خلاصة الفصل الأول
73	الفصل الثاني: نبذة عن التراث المعماري والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان.
74	نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية بمدينة تلمسان
74	المساجد
89	المدارس
95	الأضرحة
101	نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية بمدينة تلمسان
104	الحمامات
105	الفنادق
109	الصحاريج
110	نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية بمدينة تلمسان
111	الأسوار

113	الأبواب
115	نبذة عن المواقع الأثرية بمدينة تلمسان
116	الموقع الأثري المنصورة
117	الموقع الأثري العباد
118	الموقع الأثري بأغادير
121	خلاصة الفصل الثاني
124	الفصل الثالث: نبذة عن التراث المعماري والمواقع الأثرية بمدينة ندرومة وهنين.
125	1-مدينة ندرومة
125	نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية بمدينة ندرومة
125	المساجد
131	الأضرحة
133	نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية بمدينة ندرومة
133	القصور
134	المساكن
137	الحمامات
139	نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية بمدينة ندرومة
140	الأسوار
140	الأبراج
141	الأبواب
146	2-مدينة هنين

146	نبذة عن المعالم الأثرية الدينية الإسلامية بمدينة هنين
147	المساجد
148	الأضرحة
151	نبذة عن المعالم الأثرية المدنية الإسلامية بمدينة هنين
151	المساكن
152	القصور
152	الحمامات
153	الطاحونة
154	نبذة عن المعالم الأثرية العسكرية الإسلامية بمدينة هنين
155	الأبواب
157	الأسوار
158	الأبراج
161	نبذة عن المواقع الأثرية بمدينة هنين
170	خلاصة الفصل الثالث
172	الباب الثاني مسار التنمية الحضرية في الفترة الاستعمارية وأهم عوامل انبعاثها في منطقة تلمسان.
173	الفصل الأول: التنمية الحضرية ماهيتها وإشكالاته.
174	مفهوم الحضارة
180	ماهية التنمية الحضرية
180	أ- مفهوم التنمية وأنواعها

182	ب- مفهوم الحضرية
185	ج- مفهوم مصطلح التنمية الحضرية
187	أهم الاتجاهات المفسرة لنشأة التنمية الحضرية
194	عوامل ظهور التنمية الحضرية
197	خصائص التنمية الحضرية
204	التخطيط والتنمية الحضرية
205	مبادئ التخطيط
205	أنماط التخطيط
206	دور التخطيط في التنمية الحضرية
208	لمحة عن أثر التنمية الحضرية على المدن العتيقة عامة
210	على المستوى العمراني
214	على مستوى المحيط
217	خلاصة الفصل الأول
219	الفصل الثاني: مسار التنمية الحضرية في منطقة تلمسان إبان الفترة الاستعمارية (1842-1962).
222	التراكم الأثري في منطقة تلمسان
227	المشاريع التنموية الحضرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي بمدينة تلمسان وندرومة وهنين
228	بداية الاحتلال الفرنسي لمنطقة تلمسان
229	السياسة العمرانية الفرنسية في منطقة تلمسان

233	مدينة تلمسان
266	مدينة ندرومة
271	مدينة هنين
280	خلاصة الفصل الثاني
282	الفصل الثالث: دور العامل الاجتماعي والإداري والعولمة الثقافية في بعث التنمية الحضرية بمنطقة تلمسان.
283	العامل الاجتماعي
285	مدينة تلمسان
286	الواقع السكاني لمدينة تلمسان في الفترة الاستعمارية
297	الواقع السكاني لمدينة تلمسان بعد الاستقلال
304	مدينة ندرومة
305	الواقع السكاني لمدينة ندرومة في الفترة الاستعمارية
311	الواقع السكاني لمدينة ندرومة بعد الاستقلال
317	مدينة هنين
318	الواقع السكاني لمدينة هنين في الفترة الاستعمارية
324	الواقع السكاني لمدينة هنين بعد الاستقلال
329	العامل الإداري
331	تاريخ بداية الإدارة الحضرية
332	خصائص إدارات التنمية الحضرية
333	إدارة التعمير في منطقة تلمسان ومخططات التنمية

335	مخطط التعمير الموجه: (PUD) Plan d'Urbanisme Directeur
337	مخطط المناطق السكنية الحضرية الجديدة: (ZHUN)
340	المخطط التوجيهي للبناء والتعمير (PDAU) ومخطط شغل الأراضي (POS)
343	لمحة عن أهم المواد المقننة لحماية الموروث المادي والمواقع التاريخية في القانون 04/98
347	العولمة الثقافية
348	مفهوم العولمة
349	دوافع تفشي العولمة
351	أصول ومظاهر العولمة الثقافية المعمارية في منطقة تلمسان
357	خلاصة الفصل الثالث
	الباب الثالث
360	تأثيرات التنمية الحضرية على المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بمنطقة تلمسان وطرق المعالجة
361	الفصل الأول: مظاهر التلوث البصري في مدينة تلمسان وندرومة وهنين
362	ماهية التلوث البصري
370	تأثيرات التلوث البصري من الاحتلال الفرنسي إلى الوقت الرّاهن على مدينة تلمسان
367	تأثيرات التلوث البصري على المدينة العتيقة
368	تأثيرات التلوث البصري في الفترة الاستعمارية
370	تأثيرات التلوث البصري من الاستقلال (1962م) إلى نهاية التسعينيات
381	تأثيرات التلوث البصري من نهاية التسعينيات إلى الوقت الرّاهن
398	تأثيرات التلوث البصري على الموقع الأثري منصور

420	تأثيرات التلوث البصري على مدينة ندرومة العتيقة
420	تأثيرات التلوث البصري في الفترة الاستعمارية
432	تأثيرات التلوث البصري من الاستقلال إلى الوقت الرّاهن
448	تأثيرات التلوث البصري على مدينة هنين العتيقة
454	خلاصة الفصل الأول
457	الفصل الثاني الضرر الفيزيوكيميائي والميكانيكي والهدم والتخريب.
458	الضرر الفيزيوكيميائي
472	الضرر الميكانيكي
490	اعتداءات الهدم والتخريب
491	أ-مدينة تلمسان
497	ب-مدينة ندرومة
498	ج-مدينة هنين
501	خلاصة الفصل الثاني
503	الفصل الثالث: طرق المعالجة
505	إعداد الخارطة الأثرية
507	إنشاء إدارة المخاطر التراثية
512	بعث النمط المعماري الإسلامي العتيق بالمدن التراثية
515	توظيف المعالم التاريخية والمواقع الأثرية
531	خلاصة الفصل الثالث

فهرس الموضوعات

534	الخاتمة
539	قائمة المصادر والمراجع
553	قائمة الأطروحات والرسائل
560	قائمة المجلات والجرائد والملتقيات والقواميس
569	قائمة المؤسسات
570	فهرس الدوائر النسبية والأعمدة والمنحنيات البيانية والجداول
577	الملحق
578	الخرائط والمخططات
586	الصور
613	فهرس الموضوعات

الملخص:

تعتبر المعالم التاريخية والمواقع الأثرية أهم البصمات التي تنم عمّا أبدعه الأسلاف قديماً، وسجلاً بالغ الدقة في مجال التنمية الحضرية وتحسين إطارهم المعيشي، ولا يزال العمل قائماً لحدّ الساعة على تنمية المجال الحضري الذي بدأه الأسلاف قديماً، لكن سنّة التغيير التي رافقت الوجود البشري منذ القدم شكّلت منعطفاً حاسماً في مسار هذه العملية، وأدّت لحدوث تصادم بين الموروث المادي الثابت وواقعه الجديد، نجم عنه في نهاية المطاف رجوح كفة الميزان لصالح التنمية الحضرية المعاصرة، حيث أتلفت القيمة الفنية والتاريخية والعلمية للموروث المادي الثابت، وليس ذلك فحسب، فقد هُدم جزء مهم منه بفعل المشاريع التنموية المنجزة في إطارها.

الكلمات المفتاحية:

المعالم التاريخية، المواقع الأثرية، التنمية الحضرية، مدينة تلمسان، مدينة ندرومة، مدينة هنين، التلوث البصري، الضرر الميكانيكي، الضرر الفيزيوكيميائي الهدم والتخريب.

Résumé:

Les monuments historiques et les site archéologiques sont des empreintes les plus importantes de nos ancêtre, ils ont créés pour améliorer leurs moyens de subsistance, Le développement urbain est encore en cours d'exécution, Mais le changement qui a accompagné l'existence humaine a constitué un tournant décisif, à cause de ça, il y a eu une collision entre le patrimoine immobilier et le développement urbain et nous avons constaté qu'il a établi des monuments historiques et des sites archéologiques dans négligence et l'oubli éternel

Mots-clés:

Les Monuments Historiques, Les sites archéologiques, Développement Urbain, Médina de Tlemcen, Médina de Nedroma, Médina de Honaïne, la Pollution Visuelle, l'effet Mécanique, l'effet Physico-chimiques, Destruction.

Abstract:

Historical monuments and archaeological sites are the most important footprints of our ancestors, They have created to improve their livelihoods, But the change that has accompanied human existence was a decisive turning point in this operation, Because of this, there was a collision between patrimony immovable and urban development Resulting in the destruction of historical and artistic value.

Key words:

Historical monuments and archaeological sites ,urban development, City of Tlemcen, City of Nedroma, City of Honaïne, Visual pollution, The Mechanical effect, The Physiochemical effect, Destruction and Vandalism.